

الأعمال الكاملة

فتحي غانم



الرجل

الذي فقد

ظله



الجزء الأول

مبروكية سامية

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

فتحي غانم

**الرجل
الذي فقد
ظله**

القسم الاول قروييه :

مبروكية

القسم الثاني قروييه

سامية

يناير ١٩٨٨

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>



الإهداء
... إلى صلاح جاهين

المدير الفني : عدلي فهمي
رسم : الخراف : الفنان جمال كامل
الرسوم الداخلية : للفنانين جمال كامل • مامون
التصميم : ماري ميخائيل • مشيرة صبرى



القسم الأول تروييه :

مـبروكـة

أنا مبروكة ..

مبروكة عبد الثواب .. أرملة عبد الحميد أفندي السويطي الذي كان مدرساً في المدرسة الابتدائية ، مازلت شابة ، وحلوة ، قوامي ممشوق ، ودفاي ممتلئان قليلاً ، وهذا يعجبني ، أما صديقي الصغير ، وهذا يضايقني ، الرجال ينظرون إليّ بحيون مفتوحة ، فأشعر بسعادة وحيوية ورغبة دائمة في الحركة ، لا أهدأ أبداً حتى في الأيام التي استريح فيها في البيت ، أطبخ وأغسل وأكنس ، وأخرج إلى الشارع ساعة الغروب أبحث عن ولدي إبراهيم ، فأجده يلعب الكرة الشراب فأجذبه من جلبابه وأجره أمامي إلى البيت ليذاكر دروسه . بينما استحم وأمشط شعري ، ثم أجد بعد ذلك وقتاً طويلاً أتوه فيه مع الحقد الذي يشتمل في صدري .

قلبي لا يعرف سوى عاطفة واحدة هي الحقد ، أحقد بكل شبابي ، أحقد بعمرى .

أحقد على رجل أتمنى موته ، موتاً بطيئاً يتعذب فيه ، أتمنى لو فتحت بطنه بسكين ، ومددت يدي في جرحه ، وانتزعت كبده ونهشتها بأسناني ، أتمنى لو دفعت أظفاري في عينيه وفقاتهما ، لو شربت من دمه .

اسمه يوسف ، يوسف عبد الحميد ابن المرحوم من زوجته الأولى .



أحياناً أسأل نفسي كيف وصلت إلى هذا الحقد ، وما هي آخرته . إنه يكتم
أنفاسي ويلاحقني ليل نهار ، حتى وأنا أنظر إلى وجه إبراهيم . تخفى
صورته ، وأرى وجه يوسف ، وأود لو قمت وحطمت ضلوعه ، لو لا صوت
خافت يهمس في أذني « كوني عاقلة يا مبروكة ، هذا ابنك إبراهيم ،
لا تعبسي ، ابتسمي لي وجهه ، إنه ليس يوسف » .

واترك إبراهيم وأذهب إلى سريري ، أرقد عليه ، وأحرق في سقف
الحجرة ، وصدري يلهث . وصورة يوسف تؤرقني ، وتحرمني من النوم .
أول مرة رأيت فيها يوسف ، كانت منذ زمن بعيد ، وأنا صبية صغيرة .
لا أدري عن الدنيا شيئاً ، كان عمري في ذلك الوقت لا يزيد على عشر سنوات
وكنت أعمل خادمة في بيت كبير بالجيزة ، لم أكن أعلم أيامها طبيعة عملي ،
ولا معنى أن أكون خادمة ، كل ما كنت أعلمه أن أمي حملتني ذات يوم من
قريتنا ، وركبنا القطار مع الشيخ دسوقي الذي لم يكف عن الحديث مع أمي
طوال الطريق ، وأنا لاهية عنهما بالأشياء العجيبة التي تحدث لي .. القطار
الذي أركبه لأول مرة في حياتي والدنيا الراسعة التي تجري أمام القطار ،
والمحطات التي يقف عندها فيصعد ناس ويهبط ناس ، ثم ذلك الرجل الغليظ
الذي ما كاد يظهر بملابسه الزرقاء .. حتى جذبتني أمي وجعلتني أنكمش
جوارها ، وجاء الرجل وحدجني بنظرات قاسية أفزعنتني ، وسأل الشيخ
دسوقي عن عمري وهو يفحص تذاكرنا ، ثم مضى لحاله وهو مازال يصوب إلى
نظراته العادة التي لم أفهم لها سبباً .

في تلك اللحظة شعرت بالخوف . ولأزمنى هذا الشعور وأنا أهبط من القطار
إلى المدينة الكبيرة ، خفت من الطريق الواسع الذي تتزاحم فيه السيارات ،
خفت من المباني العالية كأنها بيوت المردة والشياطين ، خفت من الناس ،
كانوا يذكرونني برجل القطار ، وكأنهم سيمسكون بي في أية لحظة ، وسألون
عن عمري . لسبب مجهول لا أعلمه .

وركبنا الترام ، وأنا أظن أنه قطار آخر ، وعيناي زائغتان لا قريان شيئاً

عما يدور حولي ، فجلست القرفصاء عند قدمي أمي ، وامسكت بذيل ثوبها
الأسود ، لا أرفع رأسي مهما حدث من شيء . وقاومت رغبة البكاء ، خفت أن
أبكي فيسمعني أحد ، وينتبه الناس إلى وجودي .

وهبطنا من الترام ، وسرنا في طريق واسع تحف به بيوت لها حدائق ،
فشعرت ببعض الراحة وأنا أرى الخضرة من جديد . وأمي مازالت تتحدث مع
الشيخ دسوقي ، لا توجه إلى كلمة واحدة ، وقد أسرع الاثنان الخطى ،
فأجري خلفها ، واتشبت بثوب أمي ، خشية أن تنساني فأضيع منها ...
ووصلنا إلى بيت له حديقة .. ويجلس عند بابه رجل أسود يضع على رأسه
عمامة كبيرة ، سألته الشيخ دسوقي :

- راقب بيه موجود يا عم عثمان ؟

فأجابته وهو ينقل عينيه بيني وبين أمي :

- البيه خرج ولسه ما جاش ..

وعاد الشيخ دسوقي يسأله :

- والسك الكبيرة ؟

- موجودة

- طيب أدخل أسلم عليها ..

وتركتنا الشيخ دسوقي ، ودخل الحديقة ، ولم يصعد السلم الأبيض
المؤدي إلى الباب كما كنت أتوقع وأنا أرقبه ، دار حول البيت واختفى وراءه
بينما جلست أنا وأمي القرفصاء إلى جانب الدكة التي يجلس عليها عم
عثمان .

ولا حظت أن عم عثمان يطيل النظر إلينا ، ثم قال فجأة :

- ما تقعدوش قدام الباب .. خشوا جوه ..

قالت له أمي :

- نجعد جوه قين ؟

فأشار إلى الفلحية التي ذهب إليها الشيخ دسوقي وراء البيت وقال :

- هناك ..

ونظرت إليه أمي في حيرة ، فقام متكاسلاً قائلاً :
- تعالوا معاً ..

ومشي أمامنا حتى منتصف الحديقة وأشار إلى ممر بجانب البيت ، وطلب منا أن نسير إلى نهايته ، ونجلس في آخره ، فنفذنا طلبه ، ووجدنا خلف البيت فناء صغيراً فيه عشة للفراخ جلسنا إلى جوارها .. وكان أمامنا باب ضيق مفتوح .. وفالحة يبدو من داخلها رجل يلبس فوق رأسه طرطوراً أبيض يقف أمام أوان فوق النار تصاعد منها أبخرة طعام حرك أحشائي وأسأل اللعاب في فمي ..

مضى بعض الوقت ، وأنا أرقب الفراخ ، وأتشم رائحة الطعام ، وأعجب لمنظر الطرطور فوق رأس الرجل ، وكان ينظر إلينا بين وقت وآخر دون أن يخاطبنا بكلمة واحدة ، ثم ظهر الشيخ دسوقي خارجاً من الباب الضيق ، وما كاد يرانا حتى أقبل على أمي متلهللاً الوجه وقال لها :
- الست الكبيرة رضيت يا نفيسة .. لو عجبتها ح تدفع ثمانين جرش وهالتي الرقم . ثمانين قرشاً ، إنها ثروة كبيرة ، ولكن لمن هذه الثروة لمن تدفعها الست الكبيرة .

وقامت أمي وجذبتني من يدي ودخلنا الباب وراء الشيخ دسوقي ، وعادني الشعور بالخوف ، لم أفهم ما أراه كأنني أدخل عالماً مسحوراً ، وصعدنا سلماً طويلاً ، حتى وصلنا إلى باب مفتوح ، تنحنح أمامه الشيخ دسوقي ، وطرقه ثم التفت إلينا وطلب منا الدخول .

رأيت سيدة عجوزاً وجهها مضى كأنه البدر ، تلف رأسها بطرحة بيضاء وتجلس على أريكة عريضة ، وغطت أمي يدها بطرحتها السوداء وصافحت السيدة وانحنحت على يدها تقبلها وهي تدعولها بطول العمر ودوام العز .. ثم التفتت إلي ولكرتني في كتفي قائلة :

- ما تحبي على أيد سترك يا بنت ..

وقبلت يدها التي سحبتها بسرعة قبل أن تلمسها شفطائي ، وسالكتني بصوت ضعيف .

- اسمك إيه يا شاطرة ؟

- وأسرعت أمي تتركزني في كتفي :

- جولي الست اسمك يا بنت

قاطرت براسي وقلت :

- اسمي مبروكة .

ولكرتني أمي من جديد وكأنني ارتكبت جرماً كبيراً وقالت :

- خدامك مبروكة .. وكلنا خداميك يا ست ، وطول عمرنا عايشين بنفسك

ونفس البية الكبير .

وانطلقت أمي في دعواتها للسيدة العجوز التي التفتت إلى الشيخ دسوقي وقالت له بصوتها الضعيف :

- خلاص اتفقنا يا شيخ دسوقي .

ومدت السيدة يدها إلى شيء بجانبها لم أعرف ما هو ، نظرت فيه ثم قالت :

- لسه الضهر ما جاش ..

وكما صعدنا السلم هبطنا منه ، وعدنا إلى مكاننا بهوار عشة الفراخ بينما تركنا الشيخ دسوقي وذهب ليجلس مع عم عثمان في انتظار حضور راتب بيه ..

وظال غياب الشيخ دسوقي ، ورائحة الطعام تنفذ إلى أنفي فينهش الجوع أمعاني . ولكنني لا أستطيع أن أسأل أمي متى سنأكل ، لو سألتها ستطمنني على وجهي ، فهذه هي عادتها معي ومع أخوتي ، يجب ألا نسألها أبداً متى سنأكل ، أو نشكولها الجوع ، تعودنا أن ننتظر حتى تاتيها بالطعام ، فإذا لم تأت به ، بقنا ليلتنا جائعين صابرين

ورأيت رجلاً آخر يتضم إلى الرجل الذي يلبس الطرطور . والاثنان يتحركان في نشاط ، ثم وضع الرجل الآخر حزاماً أحمر حول خصره . وبدأ يرفع أطباقاً عليها كميات ضخمة من الطعام .. كلها لحم وطيبخ وأرز يخرج بها ثم يعود ليحمل غيرها .

رائية وأنا مبهورة . لا ادع منظره يفلت من عيني حتى يغيب وراء الباب

قلت وأنا أرتجف :

- أنا خائفة يا أمه ..

فشتمتني . وقالت لي : إنها تحسدني ولولا أخوتي لهجرتنا وتركنا وحدنا في القرية للفقر والجوع . وجاءت هي إلى هذا البيت حيث الطعام والنعيم وجاء الشيخ نسوقي . تبدوا على أسارير وجهه علامات الانشراح . وقال لامي : إن موعد الرحيل قد أذن فدمعت عيناها . وتشبثت بها . طوقتها بذراعي واحتضنتها بقوة .. فدفعتنني بقسوة . وصفعتنني . ثم هجعت هرا واحتضنتني وقبلتنني .. ورايتها تنظفت حولها في حيرة . ثم نادى على الرجل الذي أتى لنا بالطعام وكان يراقبنا من النافذة . وأوصفت بي وهي تستحلفه باسم الله والنبي وسيدى إبراهيم النسوقي ..

فأقبل الرجل علينا . وأمسك بيدي وجذبني إلى داخل البيت . بينما انصرفت أمي مع الشيخ نسوقي .. وهي تتمتع بدعوات لي .

ومرت أيام وأيام . ومرت شهور وشهور . والدنيا من حولي تتغير .. وما كنت أدري أنني أيضاً أتغير .. البيت الذي كنت أظنه عالماً مسحوراً تحول شيئاً فشيئاً إلى ثلاثة طوابق . وحجرات للنوم والجلوس والأكل . والرجل الذي يلبس الطرطور عرفت أنه الطاهي . والرجل الذي يضع الحزام الأحمر حول خصره عرفت أنه خادم مثلي . وعم عثمان عرفت أنه البواب . والشئ الذي تضعه السيدة العجوز إلى جانبها وتنظر فيه بين وقت وآخر اسمه « المنية » وهي تحمله معها ولا تفارقه أبداً حتى لا تفوتها مواعيد الصلاة . وعرفت أن السيدة العجوز ليست المرأة الوحيدة في البيت . إنها أم راتب بك . وأناديتها « ستي الكبيرة » وهناك « ستي الصغيرة » زوجة راتب بك . وسطي سعد ابنة راتب بك . وكانت تكبرني قليلاً . ثم هناك سيدي الصغير مدحت وهو في مثل ستي . يذهب كل صباح هو وسعد إلى المدرسة ويعودان ساعة العصر . فيملآن البيت ضجيجاً .. ويصعدان إلى جدتهما في الطابق الأعلى .

والجوع يقرصني فأكاد أمسك بحفنة من الطين وأضمها بأسناني .. ولكن عذابي لم يطل . إذ خرج الرجل ثم رأيت يعبر الباب إلينا وهو يحمل بين يديه صينية عليها أطباق مليئة بالطعام وأرغلة . وضعها أمامنا وانصرفت دون أن ينيس بكلمة .

أذهلني منظر الطعام . زاغت عيناها وأنا أرى قطع اللحم والخوخية والأرز واختلطت أمي رغيفاً مزقته بأسناتها . وقالت لي بقم يملأه الطعام : - كلي يا بت ..

وأكلت وأكلت . حتى لم يبق أمامي غير الصحنون خاوية نظيفة . وبعطني قؤلني من التخممة . ولكن سعادتي كانت عظيمة . وقلت لنفسي متى سأكل مثل هذه الأطعمة مرة ثانية ..

وقالت لي أمي :

- بت يا مبروكة .. انت ح تجعدي هنا ..

ولم أفهم ماذا تريد من كلامها . فسكت بينما مضت هي تقول :

- ح تجعدي مع الست الكبيرة وتخدميه .. سامعة يا بت ..

قلت لي المضطرب :

- روح تجعدي معايا يا أمه ..

قالت علي الفور :

- ح أجعد أحمل إيه .. أنا مروحة لأخوانك ..

- ح تسيبيني يا أمه ..

قلتها وأنا على وشك البكاء .. فدعجتنني بنظرة قاسية وقالت :

- يا بت تاكلي زهر كل يوم .. وتلبسي هدم خضيفة

وأيقنت أنها ستضربني لو تماديت في الكلام .. وكنت خائفة منها . ولكن حولي من هذا البيت كان أكبر . ونسيت فرحتي بالطعام الذي أكلته إنه لا يعوضني عن أمي وأخوتي وقريتي . ولا يمنع عني الخوف .

يجلسن معها ، ويأخذ كل واحد منهما قرش صناع ، ثم يخرجان إلى السطوح وهو جزء من الطابق الأعلى ويلعبان بكرة بيضاء صغيرة فوق منضدة خضراء ، مضت شهور طويلة قبل أن أعرف اسمها « بنج بنج » .

وساعة الغروب يكتان عن اللعب ، ويأتي المدرس ، رجل سمين أحمر الوجه له شارب أصفر ، كان يدخل مع مدحت حجرة في السطوح ويذاكره .. وأحياناً كان يأتي مع المدرس ابنه وهو في مثل سن مدحت ، ليذاكر الاثنان معاً ، وفي بعض الاوقات يأتي ابن المدرس ميكراً ، ويلعب البنج بنج مع مدحت في انتظار والده .

وكننت أقف أرقبهما ، وإذا سقطت الكرة من فوق السطوح ، طلب مني مدحت أن أحضرها ، فأسرع إلى الست الكبيرة وأساقذنها ، ثم أ جرى إلى الحديقة وأحضر الكرة .

أهو حلم أم علم ، أم قدر مكتوب أن يكون هذا المدرس هو عبد الحميد أفندي السويفي ، زوجي الذي مات وترك لي ابنه منى ، ولدي إبراهيم ١٩ حلم أم علم ...

أن يكون يوسف عبد الحميد السويفي هو الرجل الذي أحقد عليه اليوم وأتمنى موته بعد أن أشرب من دمه .

مرت سنوات ، ومرت سنوات ، وأنا أخدم الست الكبيرة ، أحمل لها المنبه أينما سارت ، وأدلك لها قدميها بعد أن تصل العشاء ، وأفسل لها ملابسها ، وأكنس وأنظف الطابق الأعلى والسطوح ، كنت لا أستريح أبداً ، ولا أعرف ما هي الراحة ، فإذا بقي لي بعض الوقت ، ذهبت إلى الست الصغيرة أرقبها وهي تحيك بيجامات مدحت وقمصان نوم سعاد ، وكانت تشجعني فتعلمت منها الحياكة وشغل الإبرة .

كبرت .. وأدركت مع كل هذه السنوات مركزي الحقيقي في البيت خادمة نسيت ماضيها ، تذكر أمها وأخواتها وقريتها ، كأنها حلم قديم حياتها كلها . أفرأحها وأحزانها ، مرتبطة بما يدور في البيت ، كنت أفرح يوم أحصل على

فستان قديم لسعاد ، وأحزن يوم تعرض سني الكبيرة ، وأفكر كما لو كان هذا البيت هو الدنيا كلها ، أما خارج البيت فعالم آخر لا صلة لي به ...

ومع مرور السنين ، لم يعد مدحت في حاجة إلى دروس عبد الحميد أفندي ولكنه كان لا يزال يتردد على البيت في فترات متباعدة ، وعلمت أنه قريب لراتب يك ، وكان يوسف يتردد هو الآخر ، ولكنه يصعد إلى السطوح ويقف مع سعاد يطلان على الشارع ويتهامسان أو يفرقان في صمت طويل فإذا أحسا بوجودي التفتا إلى في قلق وتأمري سعاد بأن أذهب لأحضر لها كوب ماء أو أشتري لها قرطاس لب وكننت أحياناً أراقبهما خفية فأتستورا باب السطوح ، وأجلس في ظلام الغروب أختلس النظر إليهما ، وذات مرة رأيت يوسف يقترب بوجهه من سعاد حتى التصق خده بخدها وقبلها قبلة سريعة فوق جبينها ، فلم تتحرك سعاد ، وابتعد هو عنها ، وظلا واقفين صامتين حتى سمعت صوت أقدام مدحت وهو يصعد السلم ، وكان في الخارج ، فلما عاد إلى البيت رأى عبد الحميد أفندي في زيارة والده وعلم أن يوسف قد جاء معه ، فأسرع إليه .. وعندئذ خرجت من مكنتي وفاجأت سعاد ويوسف قائلة لهما في لهفة غير عادية :

- سيدي مدحت طالع على السلم فظهر عليهما الارتباك ، وارتبكت أنا أيضاً ، فوقفت مكاني حتى جاء مدحت ووقف معهما ، ثم التفتت سعاد إلى ونهرتني في حدة :

- واقفه بتعملي إيه يايت .. ياللا أمشي من هنا .. فأطرقت براسي ومشيت ..

كنت أعرف أن ما بين سعاد ويوسف هو الحب ، وكننت أشعر بالغيرة نحو سعاد وأقارب بيتها ويمنى ، إنها ستتزوج يوسف وسيصبح لها بيت مثل هذا البيت ، وخدم يلجون طلباتها ويقولون رعايتها ، أما أنا فمن يحبني ومن يتزوجني ، كان هذا السؤال يطوف براسي كلما رأيت سعاد ، فأحاول أن أتخلص منه فلا أستطيع وظل السؤال يلاحقني ويطلق طرقات عنيفة في

رأسي ، وفجأة خطر لي خاطر مجنون تشبثت به واسترحت له ، رغم اني واقفة انه جنون في جنون .

عاد مدحت إلى البيت ذات يوم ودخل حجرته ، ثم سمعته يصرخ منادياً على إسماعيل الخادم ، كان ينادي في الحاح كأنه يستغيث ، فذهبت وطرقت بابه ، ودخلت عليه فوجدته قد خلع بذلته وأمسك بها بين يديه ، ووقف وسط الصخرة بملابسه الداخلية ، وما كاد يراني حتى بدا عليه الارتباك ، وخفض بصره وقال لي في خجل :

- هو إسماعيل فين ؟

قلت له :

- موش عارفه ..

فشتم إسماعيل ، ثم أعطاني البدلة وطلب أن أسرع بها إلى الكواء لينظفها من بقع حبر تناثرت عليها .

نظرت إلى البدلة وصحت دون وعي :

- واية التي عمل كده ياسي مدحت .. دي البدلة باظت .

ونظرت إليه كأنني ألومه فرايته ينظر إلى الأرض ، وشعرت أنني تجرات بسؤالي ، وأنني أطيل الوقوف داخل حجرته وهو شبه عار ، فبق قلبى وخرجت بسرعة لا أرى شيئاً أمامي من الخجل ..

وفي تلك اللحظة ، خطر لي ذلك خاطر المجنون ، خطر لي أن مدحت شاب وأنا فتاة ، وأنه قد يحبني ويرغب في الزواج مني . كما أحب يوسف سعاد ، وسيتحدى مدحت أهله ويصمم على زواجه مني ، وسأترك معه هذا البيت إلى بيت آخر مثله ويكون لنا خدم وخدامات ، لماذا لا يحدث هذا أمو كثير على الله أن يحققه ..

ومنذ ذلك اليوم وأنا أحاول التقرب من مدحت ، واهتممت بمظهرى واعتنيت بملابسى ، كنت دائماً نظيفة أختلس الصابون ذا الرائحة المعطرة من الحمام وأستحم به ، وتعلمت كيف أقف أمام المرأة لامشط شعري ، وأزداد ثقة في جمالي ، وكنت أسرع إلى تلبية أى نداء لمدحت وأتعهد الوقوف في طريقه

وأخاطبه بصوت ناعم رقيق ، ولكنه لم ينتبه إلي وإذا ذهبت إليه قال لي :
- روى شوقي المصيرية إسماعيل ..

وافقت من أحلامي ذات يوم على صوت عوض الكواء وهو يغالظني ، كنت قد تعودت التردد على مكان الكواء ، وهناك رأتى عوض ، شاب أسمر نحيف أكرت الشعر ، صوته جميل ، يردد مع مذياع الدكان أغاني عبد الوهاب ، وفريد الأطرش ، وليلى مراد ، وأسمهان ، وكان من عادة عوض أن يستقبل كل خادمة باغنية ، واحدة يغنى لها « يادنيا ياغرامى .. يادمعى يابتسامى » وواحدة يغنى لها « الحب حد يعرف ايه معنى الحب » أما أنا فكان يغنى لي أغنية فريد الأطرش « بأحب من غير أمل وقلبي راضى وسعيد » .. كنت أتجاهل عوض وأرفض أن أتعامل معه وأخاطب زميله حسنين وهو أكبر منه وأعقل منه وزوج وله أربعة عيال ، ولكن لم ييأس أبداً ، بل زاده تجاهل جراً ووقاحة ..

في تلك الأيام كنت أسمعهم يتحدثون عن الحرب ، فلا أهتم عن أى شيء يتكلمون . وأعجب للقلق البادى على الوجوه ، فلما ساد الظلام شارعنا ، وظهر فيه شبان يلبسون المعاطف الصفراء ويصيحون أمام البيوت « اطفى النور .. اطفى النور » خيل لي أن الحرب فيها عفاريت وجنيات وأنها شيء يحدث في الظلام ، ولاحظت أن ستنى الصغيرة تهتم بتخزين السكر والجاز ، وأنها تكثر من دخول المطبخ والشجار مع الطامى ، وحرمتنا من أكل اللحم في بعض الأيام وأصبحت العشة ما تكاد تمثل بالفراخ حتى تفرغ منها .

كنت أشعر أن حياتنا تتغير ، لم تعد هي نفس حياتنا السابقة ، وبين وقت وآخر نسمع صراخ مدحت وهو يردد نبأ سمعه في المذياع ، فيصعد السلالم ويهبطها قائلاً لكل من يقابله الألمان كسروا الفرنساويين .. الألمان دخلوا مصر .. فيسود الوجوه وجوم ثقيل ، وتتخذ الأصوات حدة لم أعود سماعها ، وتكثر ستنى الكبيرة من رفع يديها إلى السماء .

وكانت الحرب سيباً في قلة زيارات عبد الحميد أفندى ، أما يوسف فكان يتردد علينا بين وقت وآخر عند عودته من الجامعة مع مدحت ، كان يوسف في

كلية الحقوق ، وكان مدهت في كلية الهندسة ، أما سعاد فلم تدخل الجامعة ،
وبقيت في البيت بعد أن رسبت في الشهادة مرتين ..

وكنتم ألاحظ قلق يوسف ، وهو يبحث بعينيه عن سعاد ، ويقتظر دخولها
عليه وهو جالس مع مديحة ، وكانت سعاد قلقة هي الأخرى .. لا تستقر في
مكان بمجرد أن تعلم بوجود يوسف في البيت ، تدور حول أمها وجبتها ،
وتخرج من حجرة لتدخل حجرة ، وتنادى بأعلى صوتها ، ثم تذهب إلى الحجرة
التي يجلس فيها يوسف ، وتدخلها وتحببه ثم تسرع إلى غرفتها وتغلق الباب ،
لتفتحه من جديد وتدور كالنحلة في البيت .

أحياناً كانت تعسك بكتاب وتدخل على يوسف وتحدثه عن شيء قرأته ،
وأحياناً كان يوسف يحضر لها كتاباً من عنده ، وكنتم أسأل نفسي ، لماذا
لا يتقدم يوسف للزواج منها ، ما الذي يمنعه ، ما الذي يعطله .
إلى أن جاء يوم سعد فيه راتب إلى سني الكبيرة ، وهو نادراً ما يصعد
إليها ، وقال لها :

- مبروك يا أمي .. سعاد انضمت لدكتور من عائلة ثروت .. جراح ضده
مستقبل بمستشفى في القصر العيني وعنده عيادة كمان ..

قالت له الست الكبيرة :

- ألف مبروك يا ابني .. دول ناس طيبين .. جيرانا وأرضهم جنب أرضنا ..
فلما ما نخرج بمدحت ..

وتنهدت وقالت من قلبها :

- نفسي أشرفه يتجوز قبل ما أموت

فمررت فرح طائش وأنا أسمع بزواج سعاد ، ثم أقرح لها ، فرحت
لمصبتها . لأنها لن تتزوج يوسف وستتزوج رجلاً لا تحبه .

لم تعترض سعاد على الزواج ، ولكنها كانت واجعة شاردة ، ينسكب
الحزن من عينيها ، وكنتم وجدى في البيت كله ، أعرف سرها .

وجاء يوسف صباح يوم في موعد لم فتعود استقباله فيه ، رأيت يدخل
الحديقة ، وأنا أطل على الشارع من السطوح بعد أن فرغت من نشر الغسيل

فجريت إلى المصمم ، وهبطت درجاته قفزاً واحقت به وهو يدخل من الباب .
قالت له :

- سيدي مدحت أمه ماجاش ..

فقال لي في وجوم :

- أنا عايز ستك سعاد .. روحى اندهي لها ..

وجريت إلى سعاد وقلت لها إن يوسف في البيت ، فلم تصدقني ، وارتبكت
وجعلت تسألني أكثر من مرة :

- هوقين .. هنا في البيت .. قال لك إنه عايزني .

ثم تركتني وذهبت إلى يوسف ، وكان واقفاً في البهو ، وتبعنها .. ما كان
يرأها حتى قال لها بصوت حزين :

- أنا مأسوف .. بس المكتبة عايزه سني الكتاب ..

وذكر لها اسم الكتاب .

قالت له :

- طيب ما تتفضل تقدم ..

فقال بسرعة :

- معطش أنا مستعجل ..

وشعرت بغيبة أمل ..

ولكني سمعته يقول وهو يحاول أن يضحك :

- مبروك يا سعاد ..

قالت له بصوت خفيض :

- الله يبارك فيك ..

وصمتا برهة ، ثم سمعته وهو يضحك ضحكة غريبة ، ضحكة مشروخة :

- خلاص ح تتجوزي ..

فقالت له :

- أيوه ..

- مبسوطة ..

- على إيه ؟

- طيب ح تتجوزى ليه ؟

قالت بعد صمت

- أعمل إيه يعنى ؟

وسكتا

ثم قالت سعاد بلهجة كأنها غاضبة :

- أنا رايحه أجيب لك الكتاب .

- إذا كنت مخلصتهش بلاش ..

فقالت بعدة :

- لا .. أنا موثر عايزاه .

وصعدت سعاد إلى غرفتها ، وأنا منزوية خلف باب حجرة الطعام ..

وارتجفت وأنا أسمعها تنادى على :

- مبروكة .. مبروكة ..

صعدت لها ، فلما رأتني صرخت :

- بتعمل إيه تحت ؟

قلت لها بسرعة :

- كنت عند الأسطى علشان اللبن الزبادى بتاع ستي الكبيرة .

انظرت إلى نظرة طويلة ، وهي تعد يدها إلى بالكتاب ، ثم عادت وصعدت

يدها وقالت لي بلهجة أمرة :

- طيب انجري على فوق ..

وهبطت هي السلم ومعها الكتاب ولم تغب ، عادت مسرعة إلى غرفتها

واغلقت الباب ..

كانت ستي الصغيرة في الخارج فلما عادت سألت عنها ، وذهبت إليها في

غرفتها . ولم تترك سعاد الغرفة ساعة الغداء وظلت محبوسة داخلها حتى

أخرجتها القنابل .

في تلك الليلة أطلقت صفارات الإنذار وكنا قد تعودنا عليها ، ثم سمعنا لأول

مرة دوى القنابل فوق رؤوسنا ، وهبطت مع ستي الكبيرة وأنا أحمل لها المنبه

وسجادة الصلاة واجتمعنا كلها في البدرين ، وكانت ستي تردد آية الكرسي

بلا انقطاع ومدحت يحاول أن يضحك فينهره راتب بك في عصبية وهو يدخن

سيجارة وراء سيجارة ، ويطلب من إسماعيل أن يخرج إلى الحديقة ليتأكد أن

ضوء السيجارة لا يرى من الخارج . ويطلب مني في كل دقيقة أن أحكم

إسدال الستائر على النوافذ ، وكان يجلس تحت عامود اختاره حتى لا تنهار

عليه الانقاض لو سقط البيت .

كنا جميعاً خائفين ما عدا سعاد .. جلست ساهمة ، وقد وضعت يدها على

خدها ، كأنه لا يعنيها أن تحيا أو تموت ..

ولما أطلقت صفارات الأمان ، صعدوا جميعاً إلى الطابق الأول وقد طار

الغوم من عيونهم ، وجلسوا معاً . أما سعاد فصعدت وحدها إلى غرفتها وهي

تقول كأنها تحدث نفسها :

- لو حصلت غارة ثانية أنا موثر نازلة ..

فقالت لها أنها ساخرة :

- أيوه علشان تموتى وييجى هريسك يتخافق معانا .. لا لازم ننزلى .

ونظرت ستي الكبيرة إلى المنبه وقالت :

- يوه يا لولاه .. دا الفجر قرب وكانت جالسة على أريكة ، ومدت قدميها ،

وطلبت مني أن أدلكهما ، وانطلقت تحدثهم عن هوجة عرابي والإنجليز وأيام

كانت تخرج إلى الشارع وهي طفلة صغيرة وتهتف .. يا عزيز يا عزيز كبة

تاخذ الإنجليز .

كنت أستمع إليها بشغف وأنا فرحانة لأن مدحت يجلس قريباً مني

ويتنصت معي إلى أحاديث جدته ..

وتجرات وسألت ستي :

- الهوجة دى تبقى إيه يا ستي ..

فضحكوا ، حتى راتب بك ضحك كأنهم يضحون عن أي شيء يضحكهم ،
وقال لي مدحت
- يعني ثورة .

فشعرت بزهو كبير لأنه رضى أن يجيب على سؤال ، وقلت لنفسي إن هذه
الغارة رغم إشاعتها جعلتني أجلس واتحدث في حجرة واحدة مع راتب بك
ومدحت وكأنى واحدة منهم ..

فلما حكى ستي الكبيرة عن أبيها الضابط الذي اشترك مع عربى . وكيف
كان يغيب عن البيت سنوات فإذا عاد لم تعرفه . ووقفت من بعيد تختلس النظر
إليه وهو جالس مع رجال العائلة ، وتسأل نفسها : أهذا هو أبوها . وتجرى
إلى أمها وتسألها أهذا حقاً هو أبى . عندما سمعتها تروى هذه الحكاية ،
نسيت أبى الذى مات وتركتنا ، وتخيلت أبى هو هذا الضابط الذى تحكى عنه
ستي الكبيرة .

كنت أخاف الغارات ، ولكنى أنتظرها ، واختلط خوفى منها بفرحى
باجتماع العائلة وأنا بينهم ، إلى أن وقعت غارة مفاجئة وأنا في مكان الكواء
أنتظر قمصان مدحت لأنه سيسافر في الفجر في رحلة .

كانت الساعة التاسعة مساءً عندما انطلقت صفارات الإنذار ، فلهزت
: ولذكرت ستي الكبيرة ، وأردت أن أجرى في الشارع لألحق بهم في البديرون
ولكن صوت المدفع انطلق قبل أن تنتهى الصفارات ، وجذبني عوض من يدي
وأغلق الدكان علينا .

الفصل الثاني

فرّعت من صوت الباب وهو ينزلق إلى الأرض . أكثر من فزعى من
صوت المدافع ، أصبحت وحدي في الدكان مع عوض ، يستطيع أن يفعل بي
ما يشاء ، ولو استغثت فلن ينقذنى أحد ..

كنت أرعج من الخوف ، وقد التصفت بالباب ، أريد أن أفلح منه وهو
مفلق ، وظن عوض اننى خائفة من الغارة ، فأكذب بواسيتى من بعيد فلا أفهم
ما يقول ، وعيناي تلاحقان إشارات يديه ، وقلبي يدق مع كل حركة تهرسه منه ،
أنوقع أن يقترب منى في أية لحظة ، ويمد يده إلي .

ولكن عوض لم يقترب منى ، وشيئاً فشيئاً بدأت أفهم كلامه ، كان صوته
جاداً حزيناً وفيه نبرة سخرية ، كان يتهمنى بأنى أتكبر عليه رغم أن معه
نقوداً كثيرة ، وغرضه شريف ، فهو يحبني ويريد أن يتزوجني .

ودلرت رأسي ، لم أعد أدري هل الدوى الذى أسمعه هو صوت أفكارى أو
صوت القنابل في الخارج ، ولاحظ عوض صمتى ، فتشجع واقترب منى
قاتلاً :

— أه لو تسمعى كلامى يا مبروكه .. وأنا أشيلك في عنيه الاتنين دول .

صحت في ذعر :

— أبعد عني .. أوعى تقرب لي .

فجمد مكانه ونظر إليّ ساخراً وقال :

— يا بخت مالك خايفة كده .. هو أنا ح لكل منك حقه .

وانقذتنى صفارات الامان التى انطلقت تزغرد قبل أن تتحول سحريته إلى غضب كان الله وحده يعرف نتائجها .

ورفع عوض الباب ، وودعنى فى الدب ، وكان قد فرغ من قصصان مدحت .
فاختطفتهما منه وحريته فى الشارع هاربة ..

ولكن عرض الزواج ظل يدور فى رأسى ، ومع الأيام أيقنت أن عوض صادق فى كلامه ، فقد رأيت لا يقابل الخدمات بأغنياته المعتادة ، ولم يعد يقضى لى .
كان يهتم بأن يبدو أمامى وقوراً عاقلاً مثل زميله حسنين . واشفقت عليه ..
ثم ازدحمت الخواطر فى رأسى ، كنت أسأل نفسى ، لماذا أرفض الزواج منه ، وهل أجد زوجاً أحسن منه ، أم أنتظر وأنتظر حتى أصبح عانساً ، وأنزوج واحداً من شبان قريتنا فاعود إلى عيشة الفقر والنكد مثل أمى .

انتزعتنى هذه الخواطر من أحلامى العبيطة عن مدحت ، وكنت مازلت أقارن بينى وبين سعاد ، فقلت لنفسى إنها تحب يوسف ، ولكنها ستزوج الطبيب ، وأنا أحلم بالزواج من مدحت ولكنى سأتزوج عوض .
ورضيت بهذه المقارنة ، واسترحت لها ..

وكانت سعاد قد بدأت تستعد للفرح ، وتخرج هى وأمها كل يوم لشراء أشياء كثيرة ، وعادت سعاد فى أحد الأيام ومعها أقمشة كثيرة وكانت فى قمة سعادتها وهى تفتح اللفافات وتفحص الأقمشة وتلثمها حول جسدها وتتأمل نفسها فى المرآة .

أكلتنى الغيرة وأنا أراها ، وفى تلك اللحظة قررت أن أتزوج عوض ..
وشعرت برغبة جارفة أن أعلم جميع من فى البيت أنى سأتزوج ، فصعدت إلى سنى الكبيرة وجلست عند قدميها أدلكهما ، وحكيت لها عن عوض .
اهتمت سنى اهتماماً كبيراً ولم تقاطعنى حتى سمعت الحكاية كلها . كان اهتمامها وهى تنصت إلى أشد من اهتمامها وهى تسمع من راتب يك خبر خطوبة سعاد .

سألتنى فى لهفة .

— هو سنة قد إيه يامبروك ؟

فأجبتها :

— بيحبى عشرين ..

فعلت تسألنى :

— بس يقدر يصرف على بيت ..

هو عنده فلوس ؟

قلت لها :

— بيقول كده .

فقلت لى فجأة :

— خليه ييجى هنا علشان أشوفه .

وأطرفت برأسى ، أحسست برهبة كيف يجرى عوض إلى البيت ويصعد إلى فوق أمام سيدى راتب ومدحت والجميع لوراء راتب بك فسيطرده وأنا لا أريد أن يراه مدحت فيسخر منه وتراه سعاد فتقارن بينه وبين عريسها الطبيب الغنى . أريد أن يظل عوض صورة غامضة لى أذهانهم ، مجرد عريس يسمعون عنه ، ولا يروونه على حقيقته بجلابيه الرخيص .

وثبتت أنى تورطت ، وأنى يجب أن أذهب إلى عوض وأقول له إنى رضيت الزواج منه ، وقطعت سنى الكبيرة أفكارى بأن قالت لى معذرة ، إنها تريد أن اتصرف بعقل مع عوض فلا أتركه يقابلنى وحدى ، وعجبت وهى تهدثنى بصراحة عن أشياء لم أكن أتصور أنها تعرفها .

قالت لى :

— أوعى تصيبه يمد أيدى عليكى .. وألا ياخذك فى حنة لوحدكم ويقول لك ما هو انت مراتى ياكل عقلتك ويعمل فيكى لا قدر الله حاجة .

قلت لها لى عصبية :

— لنا موش ح شوفه خالص ..

موش عايزه أخرج من البيت .

فأبست في رضاء ، كأنها ترهب بما أقول .

ولكني رغم ذلك خرجت ، ولم تعترض هي على خروجي ، وكأني نسيته
ما وعدتها به ، وكانت تسألني كل يوم عن عوض ومتى سأحضره إلى البيت
لتراه .

وعرف عوض أنني رخصت الزواج منه ، بعد أن لاحظ كثرة ترددي عليه
وخلج وأنا أكله ، وطريقتي في الإجابة على أسئلته ، كنت أتصت إليه وهو
يحدثني عن مشاريعه ، وعن الحجرة التي سيتمتاجرها لنا ، وكيف أنه لن
يرضى لي أن أعيش مع أمه ، ثم يلتف إلى حسني ويسأله :

— مش كده برضه الأصول يا حسني .

وقبل أن يجيبه حسني أكون قد صمت فيه :

— آمال يعني عايزني أعيش مع أمك فيضحك عوض من قلبه ، ويفهم أنني
رخصت به ..

وتجرات ذات يوم قلت لعوض إن الست الكبيرة تريد أن تراه فوافق
لدهشتي في الحال ، وفرح وقال مهلاً :

— لازم ح تديكي حاجة فتجوز بيها .

وتعمدت أن يجرء عوض إلى البيت في الصباح أثناء غياب أهل البيت ،
وصعدت به إلى ستي الكبيرة دون أن يلحظنا أحد .

وكان متمالكا لنفسه ، يلف برأسه في أرجاء البيت ، ويتعجب للشراء الذي
نعيش فيه ، ويقول لي في حسرة :

— وأنا حاويديكي فبن بعد الجنة التي أنت عايشه فيها .. دي مرايا
يامبروكة .

وقابلته ستي الكبيرة ، وكأنها تعرفه من سنوات ، قالت له :

— أنت عايز تجوز مبروكة يا ابني فأقسم لها عوض بحرارة ، إنه سيحافظ
عليك كما لو كنت عينيه ، وأنه لا يريد إلا رضاءها عليه ، وأنه سيدفع لي أي مهر
تشتطره عليه .

وصمتت ستي الكبيرة وكان صمتها يثير قلبي ، لم تعلن أنها موافقة أو غير

موافقة ، تركت عوض يتكلم ، ثم قالت في هدوء :

— طيب روح أنت يا ابني .. وربنا يعمل اللي فيه الخير .

ويظهر التردد على عوض ثم سألتها :

— يعني راضية عني يا ست ..

فأطرفت برأسها وتمتمت من جديد .

— ربنا يعمل اللي فيه الخير .

ونظر إلى عوض في حيرة ، كأنه يسألني ماذا فهمت من كلامها ثم غادر

الحجرة وتبعته إلى الباب دون أن ينبس بكلمة ، ولكنه همس قبل أن يخرج إلى
الحديقة :

— أنا مفهمتش منها حاجة .

كان يتكلم بغضب ، وورخني بأصبعه في كتفي قائلاً :

— كلميها ، قول لها تديكي قرشين ينفعوكي ..

وصدت إلى ستي الكبيرة ، فوجدتها تصل ، فلما فرغت من الصلاة

مسحت على وجهها ثم التفتت إلي وقالت بصوت حنون :

— ح تجوزي يامبروكة وتسيبييني .

فاجبتها على الفور .

— بلاش اتجوز يا ستي .

فأبست قائلة :

— ربنا يعمل اللي فيه الخير يا ابنتي

وانتظرت منها أن تقول شيئاً عن عوض ، ولكنها هزلت في صمت عميق ،

حتى شعرت مثل عوض بالغضب نحوها .

لماذا لا تحدثني عن عوض ؟ !

لقد رآته ، وسمعت ، ألم ترض عنه ، أم هي تريد أن أظل في خدمتها

وأضحي بنفسي ولا أتزوج ، وعجبت لحماسها الأول وهي تسمع حكايتي مع

عوض ، ثم هذا التحول والغموض المفاجيء الذي تحتفي به الآن ، أكانت

تستدريجنى لتعرف سرى . وبدأت أشعر أنها ليست بريئة تماماً كذلك وإن فيها شيئاً من مكر العجائز .

ودميت إلى عوض . وقلت له لا فائدة من ستى الكبيرة . وأنها لم تظهر لى أى استعداد لمعاونتى فى الزواج . فغضب عرس . وجعل يسب ويشتم الأغنياء . وأخذ يستعيد صور الثراء التى شاهدتها فى البيت . وقال لى قجاة كأنه ينصحنى :

— أنا لو منك .. أعامل الناس دول بشكل ثانى ..

قلت له :

— أعمل إيه ؟

فنظر إلى نظرة غريبة وقال :

— خدى حلك بايدك .

— إزاي يا عوض ..

فلكرنى قائلاً :

— شوقى أى حاجة .. أسورة .. ساعة ذهب .

وقبل أن يكمل كلامه . كان وجهى أسفر لى لون الليمون . وقلت له فى دهشة :

— ياندامتى .. عايزنى أسرق .

فضحك ضحكة جريئة وقال مؤنباً :

— ماتبقىش مقفلة .. أنا عايز أخلصك من الناس دول بعد ما تاخدى حقه .

فسرت ما قال لى عوض . بأنه كان فى حالة غضب . ولكنى بدأت أفكر فى حقوقى .. كنت قد ادخرت أربعة وثلاثين جنيهاً عند ستى الكبيرة خلال هذه السنوات . فطلبت منها أن تعطينى عشرة جنيهات لأشتري بعض الأشياء لبيتى الجديد .

فسألتنى فى دهشة كأنها لا تعلم عن زواجى شيئاً .

— ح تعمل إيه بالفلوس يا بنتى ؟

قلت لها :

— ح أشتري حاجات علشان عوض مستعجل على الجواز .

فأعطتنى النقود وعلامات الصيق تبدو على وجهها . وخرحت لأشتري فوجدت الأسعار غالية . والنقود لا تكفى لشراء بعض ما كنت أرغب فى شرائه . وعدت إلى البيت حزينة أفكر فى فقرى . وأفكر فى كل الأشياء التى أشتريتها سعاد .

وفوجئت عند عودتى باستقبال غير عادى من زوجة راتب بك وسعاد .. كانت ستى الكبيرة قد قالت لهما إنى سأتزوج . وأنى أخذت عشرة جنيهات لأشتري بعض الملابس . فالتفتا حولى يسألانى عن عوض . ويفتحان اللفافات القليلة التى حملتها معى ويفحصان القماش . ويسألان عن سعره .. وسعاد تردد فى حسد :

— والله عرفتى تمشترى بأمبروكة . جهتى الحاجات دى منين .

ثم ضحك وتقول لهما :

— شوقى قمصان النوم يا ماما .. وقلنت لى وتقول ساخرة :

— ح تلبس كملن قمصان نوم .. والله اتمدنتى ..

كنت أبتسم لهما لأخفى الغيظ الذى يملأنى . وتركتهما يسفران منى . ثم جمعت القماش . وصعدت به إلى السطوح . وجلست جواره أتجسسه وأتمنى اليوم الذى أذهب فيه مع عوض إلى غرفتى وأنجو من هذا البيت . ورايت وأنا جالسة . ملامتين منشورتين . نظرت إليهما فى بلاهة ولم أحول عيني عنهما . وفى يدي رغبة تدفعنى إلى أن أنهض وأتجسسهما كما أتجسس القماش .

وتخيلت السرير الذى سأنام فيه والمرتبة فوقه . والملاءة .

وهتف فى داخل صوت .. لماذا لا تكون ملاءة سريري إحدى هاتين الملامتين . ما أكثر الملاءات فى هذا البيت . ولو أخذت واحدة فلن يحس بها أحد . وسأوفر لمنها . وقال رأسى يدور . وعينائى لا تتحولان عن الملامتين

حتى قمت فجأة ونرعت إحداهما ، وطويتها وأخفيتهما في الحجرة التي كان
يذكر فيها مدحت ، والتي أصبحت الآن مخزناً مهجوراً .

لم أتصور أن تقوم كل هذه الصجة في البيت بسبب اختفاء الملاة .. أقامت
سنى الصغيرة الدنيا وأعدتها وسألت إسماعيل وسألتني ، ولم ترض
بالتفسير الذي قدمه لها الجميع وهو أن الريح أطارت الملاة فسقطت في
الشارع الخلفي ، وذهبت بنفسى إلى الحديقة وإلى الشارع اقتش عن الملاة ،
وسأل عنها في بيت الجيران .

ولما تعبت سنى الصغيرة من الصراخ والزعيق ، وتأكدت أنها لا تنهضني
بسرقه الملاة ، ذهبت إلى المخزن وأخرجتها منه ، وطويتها تحت جلبابى فوق
بطنى وجريت إلى عوض .

سألنى عوض وهو ينظر إلى نظرة مأكرة :

— جيتى الملاية دي منين يابيت ؟

قلت له :

— اشتريتها ..

فضحك وقال في خبث .

— ما تشلون حاجة عليها الطلا .. ملقيتيش غير ملاية .. أنا أجيب لك ألف
واحدة زيها .

وأدركت أنه فهم كل شيء ، فخفضت عيني في ارتباك ..

كنت أستمع إليه ، وقلبي يلقى بشدة وعيناي مشدودتان إلى الأرض ورأى
ثقبيل ، وصوته الهامس يدوى في أذنى ، كأن الدنيا كلها تسمعه .

وبل صوته يلاحقنى وأنا في البيت فكان ثورة هائلة تصدى إلى أمراً
لا يمكننى مقاومته ، فتدور عيناي ربما عنى تقتضان عن شيء أخذه .

فكرت أن أخذ فساتين سعاد ، ومصاغها ، وتسالت إلى حجرتها في إحدى
المرات وفتحت الدواب ، ووقفت أنظر إلى الفساتين ، ولكن يدي جمدت ،
وامتلا قلبي بالخوف ، فخرحت مسرعة ، والعرق يغسل ظهري ، والغيظ

يصرخ في أعماقى ، لأنى مقفلة ، لأنى جيت ولم أمد يدي .

لست أدري ماذا كان سيحدث لو أن يدي امتدت إلى الفساتين في تلك
اللحظة ، كانت حياتى كلها تغيرت ، لقد مضت سنوات طويلة على ذلك اليوم ،
ولكنى مازلت أتذكره ، فيرتجف جسدى ، وتسرى قشعريرة في ظهري .

خرجت من حجرة سعاد ، وصعدت إلى سنى الكبيرة ، فوجدتها نائمة في
جلستها ، ويدها قابضة على الملبى ، خيل إلى من حولي ، أنها تخشى أن أمد
يدي إليه .

وجلست أحرق فيها ، وقد أخذتني الرهبة ، كان وجهها المضيء يشع بنور
يبهرنى ، وبملا قلبي رعباً ، كأنه يفضح أفكارى ، ويعربنى .. ومضى وقت
طويل وأنا جالسة مكاني وقد لفنا القلام ، فقامت لاغادر الحجرة وما كنت
أصل إلى الباب ، حتى طعننى صوتها :

— رايحة فين يا مبروكة .

قلت لها شيء في صدرى يتمزق :

— أنت مصيقتى يا سنى .

فقال لي فجأة :

— اسمعى يا مبروكة .. الواد عوض ده أنا مرش مستريحة له .. أنا خايفة
عليكى يا بنتى .

وهبط قلبي إلى قدمى ، إنها تعلم ، كيف عرفت .. وأيقنت أنها على صلة
مقربة بآله .

وتحول يقينى إلى إيمان .

بعد أربع ليال من حديثها .. صعد إلينا مدحت وهو يصرخ :

— يا مبروكة .. يا مبروكة .. البوليس قبض على عوض .

استمعت إليه في غباء ، وقد تصلبت عروقى ، ولم أعد أدري هل أنا واقفة
أم طائفة في الهواء ، لم لحس بالأرض من تحتى ، حتى أمسكت بى سنى
الكبيرة ، واحتصنتنى ، وطلبت لي كوب ماء ، أحضره مدحت ، جعلتني
أرشف منه ، ثم رشت الماء على وجهى .

ذهب عرض إلى السجن ، بعد أن هاجم البوليس بيته ، فوجد مسروقات كثيرة .

ولم أذهب من يومها إلى الدكان .

عشت في يأس حبيسة البيت ، وقد اختلط كل شيء في عقلي ، افكر أحياناً في أن استمر في السرقة .. وأندم أحياناً على الملاءة التي امتدت يدي إليها وأصبحت أعمل ستي الكبيرة ، وكأنها قوة خارقة تحقق المعجزات ، كأنها السيدة زينب .

واحتعيت بسقي الكبيرة ، لا أمارقها أبداً ، لعل هذا يفقر لي نبتى عند الله وزادني قرباً منها ، أنها بدأت تشكو الأما قاسية في بطنها ، وجاء أكثر من طبيب يكشف عليها ، ويضحك معها ، ثم يخرج ويتهاوس مع راتب بك ، ولاحتلت وجوماً غير عادي في البيت ، وأدهشني أن راتب بك أصبح يتردد على ستي صباح ومساء كل يوم ، ويظل الجلوس معها ، كذلك كانت تصعد ستي الصغرى وسعاد ومدحت ، وإذا وقعت غارة رفضوا أن يهبطوا إلى البديرون ، وصعدوا إليها لأنهم لا يريدون منها أن تتحرك وتتكم .

ووسط هذا الجو المقبض ، كنت أشعر بأن نهاية ستي الكبيرة قد اقتربت ، فاختلتي بنفسى وأبكي في صمت ، وأتساءل ماذا يكون مصيرى بعد وفاتها . ورائى راتب بك أن يسرع بزواج سعاد قبل وفاة أمه ، وكانت الأمها قد اشتدت ، ولم تعد تنام الليل ، وتصلى وهي مستلقية بظهرها على السرير ، كان راتب بك يخشى أن تموت فيؤجل زواج سعاد لفترة طويلة ، وكان يريد أن يقيم الفرح في حياتها .

وازدهم البيت ليلة الفرح بمدعوين كثيرين ، كان بينهم عبد الحميد العندى السويفى وابنه يوسف الذى جلس محتقن الوجه لا يتحدث مع أحد ، وعندما تكاثرت المدعوون انسحب إلى البهو ووقف متردداً ، يخطو يضع خطوات نحو الباب المفضى إلى الحديقة ، ويقف يحدق في الظلام ، ثم يشعر بالبرد فيعود إلى البهو يتلفت حوله في حركات عصبية ..

رأيت إسماعيل يقدم له كوب الشربات ، فأخذه منه ، ولم يشرب منه ، ووقف والكوب في يده جرعة ، ثم ذهب إلى منضدة منزوية وتلفت حوله ، ثم وضع الكوب ملقاً ..

ولم أشهد ما فعله يوسف بعد ذلك ، إذ كان على أن يصعد واحلس مع ستي الكبيرة وحدثنا ، وكانت سعاد وعريسها قد صعدا إليها ساعة المغرب بعد أن تم كعب الكتاب ، فأخذت تنظر إليهما بوجه يفيض بالبشر والدموع ، وطلبت منهما أن يقتربا منها ، ومسحت بيدها على رأسيهما وتلت بعض الدعوات ، وبعد ذلك تركها الجميع واشتغلوا بالمدعوين .

كنت أجلس عند باب حجرة ستي ، عندما سمعت صوت أقدام مدحت وهو يصعد إلينا ، ولما رآنى سألنى في صوت خفيض .

— ستك نائمة ولا صاحبة يا مبروكة .

قلت له

— لا أشوف ...

وفتحت الباب ، فوجدتها نائمة وشعرت بأنفاس مدحت في رقبتى ، كان يقف خلفى يطل على جدته .. وهمس في أذنى ..

أفلى الباب أحسن تصمى . وأغلقت الباب والتفت إليه ، فإذا به ينظر إلى ويبتسم وقال لى :

— مادام نائمة .. ما ننزلى شوية ..

قلت له :

— خلىنى جنبها يمكن تصمى فقال لى مشجعاً :

— انزلى شوية صغيرة .. ح يبقى الفرح تحت وأنت لوحدك هنا .. وجذبني من يدي على غير عادته ، وكانت مفاجئة لى ، كدت أرمى في أحضانه ، وأمسك بتراعى بكلتا يديه ، وظل برهة يحدق في وجهى وأنا أنظر في عينيه ، ثم خفضت بصرى وصغرى يلهث . وشعرت بساعديه يطوقانى فاستسلمت له ، كأن ما يفعله شيئاً طبيعياً ، وتمرغت شعتهاء على خدى ، فلما وصلت إلى شفتى ، همست في خوف .

— لا .. يا سيدى .. والنبي ياسيدى .

فلم يكثرث باحتلاجى كان همى دعوة له ، وعيشت يده بصدرى كان يؤلمنى وهو يعصرنى بيديه ، فتراجعت حتى اسند ظهري إلى الحائط ، وأنا عاجزة عن دفعه ، كأن يدي مشلولتان .

وهمست من جديد

— يوه يلى مدحت .. والنبي بلاش .. اعمل معروف .. فهمس في انفعال وهو يضغط جسمى في الحائط

— أنا باحبك يا مبروكة .. صدقيني أنا باحبك ..

فهمست ، ولمل صحت بصوت عال ... أنا لا أفهم ماذا يقول .

— بعدين سنى تصمى

وكانت لكلماتى أثرها المفاجىء عليه ، فتراجع وأدار لي ظهره وهبط السلم مسرعاً ، وقد تركنى ألثت وأرتعد وقلبي يتفجر بنشوة فيها لى ومرارة .

وبعد دقائق ، أحسست برغبة جارفة في أن أرى مدحت ، كأنى لا أصدق ما حدث ، كنت أريد أن أنظر إلى وجهه من جديد ، وأجعلته يرانى ، وشعرت بحنين إليه ، وإلى صوته وهو يهمس « أنا بحبك يا مبروكة » .

وهبطت السلم وقد نسيت سنى الكبيرة ، ووقفت في نهاية الدرجات لبحث بعينى عن مدحت ، حتى خرج إلى البهو فرأيت فتجهم وجهه ، وأدار لي ظهره ، ولكنه عاد والتفت إلى . ثم تلفت حوله ، فرأى كوب الشربات الذى تركه يوسف ، ونادانى .

— خدى يا مبروكة كباية الشربات دى ..

فجريت نحوه وأخذت الكوب ، وسرت في اتجاه المطبخ .. فصاح في انفعال ..

ما توديهاش المطبخ .. دى علشانك اشربيهها ..

قلت في صوت مفعم بالفرح :

— حاضر يا سيدى ،

معد تلك الليلة ، ومدحت يتعقبى ، وأنا أسهل له مهمته ، فيصعد إلى ويقتلبنى ويحتضنى ، وأنا أقاومه ولا أريد أن أقاومه .

وعاد إلى حلمى القديم ، أن يتزوجنى مدحت ، ويحصلنى إلى بيت كبير مثل هذا البيت ، وأصبحت كالمجنونة ، ساعة فرحانة وساعة حزينة ، وفي كلتا الحاليتين قلقة غير مستقرة . كنت في حرب مع نفسى ومع مدحت ، أقاوم الحاحه الشديد بأن استسلم له ، ولا يمنعننى عن الاستسلام سوى حلمى بالزواج منه .

وقد قررت أن أصارحه ، قررت أن أسأله وهو يمد يده ويعبث بجسدى ، لماذا يريد منى ، وأن أقول له إن ما يريده هو من حق زوجى وحده .

وصعد إلى مدحت عصر يوم بعد أن نام جميع أهل البيت ، وبدأت أقاومه كعادتى حتى حاصرني بجسده والحائط ، واعتصر خصرى بساعديه ، وكاد يلقينى على الأرض ، وركعنا نحن الاثنين ، وأنا أتوسل إليه وعقل يدور بسرعة باحثاً عن الكلمات التى أعددتها ، وإذا بباب حجرة سنى الكبيرة يُفتح ، وأسمع سنى الصغيرة وهى خارجة من الحجرة تصرخ :

— مدحت .. ايه التى بتعملوه ده ؟ ! !

انخفضت واقفة على صراخ سنى الصغيرة ، والذعر ياكلنى ، وابتعد عنى مدحت .. وظل واقفاً مكانه وقد فقد قدرته على الحراك .

وصرخت فيه أمه :

— امشى على أودتك ..

فنكس رأسه وهبط السلم ، بينما تقدمت هى منى وصفعتنى على وجهى وجذبتنى من شعرى ، فوقعت على الأرض عند قدميها . وأنا أشعر بخصللات شعرى تتعزق في يدها ، وركلتنى بقدمها في جنون ، كانت تضرب صدري وفخذى ورأسى بلا وعى فأرداد خوفاً وأنكمش في رقتى . أصدر أنينا خافتاً .

ولمكنت يدها إلى شعرى من جديد وجذبتنى قائلة :

— قومى يا بت .. قومى ..



ورفعتني عن الأرض ، ودفعتنى أمامها على السلم فتسحرجت عليه ، وظلت
تدفعنى وتركلنى حتى أدخلتنى حجرتها ، وأغلقت الباب .
أيقنت أنها ستقتلنى ، فتوسلت إليها باكياً :
— أنا فى عرضك يا ستى .. والنبي يا ستى .. سى مدحت هو اللي مسكنى
غصب عنى ..
فقاطعتنى بصلعة قوية ، وصاحت فى شراسة :
— احرسى يا مجرمة ..
وانفجرت أبكى بصوت مرتفع ، وألطم خدى وأولول :
— يا مصيبتى .. يا مصيبتى .. يا مصيبتى ..
فصاحت فى صوت مرتعش :
— وعلى صوتك يابت .. أنت عايزة تفضحينا ..
لرفعت صوتى أكثر .. وقد أدركت أنها خائفة من صراخى ..
وخفضت من صوتها ، وقالت فى حدة :
— اسكتى يا بت .. اسكتى ..
وسألتنى :
— هو عمك إيه ؟
قلت لها وأنا أبكى :
— أنا عارفة يا ستى .. ما انت شفتى بعينك اللي حصل ..
فسألتنى وهى تكلم غضبها :
— ومن امتى ده بيحصل بينكم ؟
أجبته فى تحد :
— أسأليه هو ..
قالت فى قلق :
— أنا عايزة أعرف منك .. عمك إيه ؟
وفهمت سرقتها ، إنها خائفة أن يكون مدحت قد تورط معى ، وربما ظنت
أنه حصل على جسدى .

قلت لها والغضب يختلط بخوف

— كل ما يشوقني لوحدى .. يعسكني .. وأنا أقول له عيب يا ممدحت ..
حرام عليك

فقاطعتني في خوف

— وحصل حاجة بينكم ؟

أجبتها في كبرياء

— لا يا ستي ..

ولكن محاورها كانت قد اشتدت فلم تصدقني ، حتى تاكلت بنفسها اني
مازلت كما انا لم يعسسنني احد ..

كنت أعلم أنها ليست خائفة علي ، وإنما هي خائفة علي ابنها ، فلما
اطمأنت ، تنهدت في ارتياح ، وملاّت صدرها بالهواء ، وكان روحها عادت
إليها ، وتغيرت فجأة ، فأنطلقت تسبني وتشتبمني وقالت لي :

— يا سفلة .. يا مجرمة .. أنتي مالكيش عيش في البيت ده .. أنا ح أهنت
لامك تيجي تاخذك .

وأمرتني أن أهبط إلى البديرون . وأحبس نفسي فيه ، فتركته وهبطت إلى
البديرون ، وانزويت في أحد الأركان والدموع تنهمر من عيني . وجاءني
الطباخ وإسماعيل يسألان في دهشة عن سريكاتي ، فلما أقول لهما شيئاً ..
ولم أتحرك من مكاني ، ولم أذق طعاماً ، حتى غقت قواي ، وتلخر الليل
فغلبني الإعياء ، ونمت ..

فتحت عيني في الصباح فوجدت جسدي كله يشكو من الألم ، وتذكرت
ماحدث بالأمس ، فظلت راغبة أهدى بصور مختلفة تموج في رأسي عن أمي
التي ستأتي وتأخذني معها ، وستي الكبيرة المريضة ، وممدحت .. ترى ماذا
فعل ..

وخطر لي أن أقوم وأخرج من البيت وأهرب منه ..

أهرب إلى أين ؟ ..

تذكرت عروضي وأغانيه ، لو لم يدخل السجن لذهبت إليه ، إلى من الجا
الآن ، وتذكرت يوسف وآباء عبد الحميد أفندي السويقي ، وقلت لنفسى
أذهب إليهما ، وأطلب منهما أن يأوياني ، وسأخدمهما حتى لو لم يعطيناني
تقوياً ، سأعمل جارية عندهما ولا أعود مع أمي إلى القرية .
ولكني لا أعلم أين يسكنان .. سأسأل إسماعيل عن عنوان بيتهما وأقصد
إليهما الآن .

وعضت ساعة وساعة ، وإسماعيل يروح ويجيء أمامي ، والسؤال عن
عنوان عبد الحميد أفندي السويقي علي طرف لساني ، لا أقوى علي النطق به
حتى جأني إسماعيل ، وكان هابطاً من فوق ، وقال لي :

— اطلعي بالمبروكة .. البية عابزك ..

قلت له فجأة وفي عناد :

— لا موش طالعة ..

فنظراني دهشة ، قال لي في لهجة أمرة :

— اطلعي يابت .. البية لابس وعابز يخرج ..

أجبت في حدة :

— أنا موش ح اشتغل عندهم ..

أنا ماشيه ..

قال لي في غير تصديق :

— ماشيه علي فين ؟

قلت له :

— ماشيه وخلاص ..

فترعد برهة ثم قال :

— يعني أطلع أقول للبيه كده . فأطرقت برأسي ولم أجبه ، وشعرت به يبتعد
عني ، فانتابني الفرح ، وقلت له بصوت متبرمج :

— استنى .. أنا طالعة ..

وصعدت متهاكة إلى فوق ، وكان راتب بك واقفاً في اليهود إلى جانبه ستي

الصغيرة ، فلما رأى نظري نظرة طويلة وهو صامت ، ثم قال في صوت هادئ :

— اسمعي يا بنت .. لو حصل منك أي حاجة بعد اللي حصل امبارح لنا ح أموتك .. ح أسلخ جلدك .. فاهمة ..

قلت له والبكاء محتبس في حلقى :

— أنا عايزه أرجع لأمى .

فقال في حدة :

— أمك لو عرفت ح تموتك وتبقى فضيحة .. أنتي تطلعي لستك فوق وتقعدي معاها .. وإياك أشوف خلقتك دي تحت .. فاهمة .

قلت له بلا وعى :

— حاضر ياسيدي ..

فقال في صوت خفيض :

— وموش عايزك تقول حاجة لستك هي سألت عنك امبارح والنهارده الصبح .. وقلنا لها إنك عيانه ..

ونظر اللى في غضب وسألنى

— فاهمة تقول لها إيه .

أجبت :

— حاضر ياسيدي .

فأردف يقول كأنه يخاطب نفسه

— دى واحدة عيانه .. بتموت .. ولولا كده كنت عرفت ازاي لوديكى .

قلت له والعناد يعاودنى :

— موش ذنبى ياسيدي ..

فصاح في هياج :

— احرسى .. أنتي تعمل ياكلمه اللي باقول لك عليه .. واحنا كلنا مفتحين

عينينا . لو شفتك بتكلمى حد غير مستك ح يبقى بموتك .

لماذا يرفض أن يتطرق باسم مدحت .. لماذا لا يقول لى « لو شفتك بتكلمى مدحت » أيتجاهل اسم ابنة لأنه خجل من أن يقترب اسمها بى ، خجل مما كان بيتنا مدحت هو السيد ابن السيد ، وأنا الخالصة ، أنا التى تلوث مدحت ، حتى لو فقت كل شىء ، وضحييت بكل شىء .

شعرت بالحقد نحو راتبك . وشعرت بالحقد نحو ستى الصغيرة ، التى كانت تقف صامئة تنظر لى يا زبراء ، وتكاد عيناها تقتلانى بما تشعان من احتقار .

ولكنى لم أستطع أن أشعر بالحقد على مدحت ، ماكدت اطمئن إلى أنى بالية في هذا البيت حتى أحسست بالحنين إليه ، وخطر لى أنى سأقابله رغم كل شىء ، أنهم مهما راقبوننى فلن يستطيعوا أبدا أن يمنعوا لقائنا خلسة سأتحداهم وأتزوجهم ، وأرتفع من مكانى الحقيق كخادمة إلى مكانى المحترم كزوجة ابنهم .

تصارعت هذه الخواطر في قلبى وأنا واقفة أمام راتبك وسمى الصغيرة ، فلما امرنى بالصعود ذهبت إلى السلم ل نشاط وقد ضاع الألم من جسمى .. كان حقدى أقوى من الألم ..

ودخلت على ستى الكبيرة ، فوجدتها كما هي راقدة على ظهرها ، تلهث وتزفر أنفاسها بصعوبة ، فلما أحست باقترابى منها ، حولت عينيها لى وهمسخت :

— مالك يا مبروكة ..

قلت لها : ولا حاجة يا ستى ...

قالت بصوت ضعيف

— بيقلوا إنك عيانه يا بنتى ..

قلت لها .

خلاص خفيت يا ستى

قدمت يدها إلى راسي ، فاحنيتها لها ، وتحصست جبهتي ثم قالت في
اطمئنان
— معدك يش حرارة .

ولم أغادر حجرتها طوال النهار ، وحلست أرقب الموت وهو ينهشها في غير
رحمة ، وكلما شهقت في ألم ، أيقنت أن أيامي في هذا البيت تقصر وأن مستقبل
في يد هذا الجسد الضعيف الذي لم يعد قادراً على المقاومة .

ماذا يكون مصيري بعد موتها . إنني واثقة أنهم سيطردوني في الحال
سيشيرون جسدي إلى المقابر ..
وسيشيرون جسدي إلى الشارع .
وتملكني الخوف .

أصبحت قلقة على نقودي التي أذخرتها معها ، فما يدريني أنهم
سيعطونني هذه النقود بعد وفاتها ، والقماش الذي اشتريته لانتزاج عوض ،
هل يسمحون لي أن أخرج به ، أم يتهمونني بسرقة ..

سيطر الشك عليّ ، فقررت أن أعمل بسرعة ، وأدبر أمرى قبل أن تموت .
وطلبت من ستي الكبيرة صباح يوم أن تعطيني النقود .
فسألتني في دهشة عن سبب طلبى ، فكذبت عليها وقلت لها إن رجلاً جاء
من القرية قال لي إن أمى مريضة وفي حاجة إلى هذه النقود
فلقالت لي في عجب .

— ح تبعنى لأمك كل الفلوس يا مبروك .

قلت لها وأنا أتنهد في أسى :

— ح أعمل إيه ياستى .. أمرى ش .
وأخذت منها النقود .

أما القماش ، فقد أخفيت في اليدون في انتظار أية فرصة لأخرجه من
البيت .

وكان مدحت طوال هذا الوقت ، وكأنه قد اختفى من البيت ، كنت لا أراه
ولا أسمع صوته ، وكنت أقف أحياناً عند رأس السلم في مواعيد حضوره من

الكلية لعل أسمعها وهو يدخل البيت ، فلا أقفربشيء ينقضي عن وجوده
ولكن قلبي كان يحدثني أنني سأراه قريباً ، سأراه يصعد السلم فجأة ،
ويقابلني ، ويستأنف معي ما كنا قد بدأناه ، كان مدحت هو الأمل الوحيد لي
بعد وفاة ستي الكبيرة ، هو الذي سيصممني ، لأنه يحبنى .
وحدث أن جاء راتب بك ليزور ستي الكبيرة فسألته عن مدحت .. وقالت له
إنها غاضبة منه لأنه لا يصعد ليرأها .

فأجابها راتب بك ضاحكاً :

— أصله مشغول في المذاكرة ..

فقال له محتجة :

— يعنى ما يطلعش يشوفنى .

فقال لها في بساطة

— حاضر .. أنا ح أخليه يطلع لك .

وبعد قليل صعد مدحت ومعه أمه وماكنت أراه حتى هرب الدم من
عروقي ..

وغادرت الحجرة هاربة إلى السطوح ولت نفسي لأنى لم أنظر إليه جيداً
حتى أتبين حاله ، كنت أتمنى لو التفت عيناى بعيني ، ولكنى أفسدت كل شيء
بخوفى وانسحابى السريع .

ونفذ صبرى ، فانتهزت فرصة سمنحت في عصر يوم ، إذ خرج راتب بك
وستى الصغيرة ليزورا ابنتهما سعاد في بيتها ، كان كل شيء هادئاً هانئاً في
البيت ، وستى الكبيرة ممددة في سريرها لا تكاد تحس بما حولها ، وكان القلق
قد عصف بسى ، ولم أعد أعرف معنى الراحة ، أنظر حولى فيكاد يخفى
الهدوء ، وظننت أنني لورأيت مدحت فسأستريح ، وسيبقى الأمل الذي يخو
في صدري ، فقممت وهبطت السلم ، وأنا أتعد أن أخبط بكل ثقلى على
الدرجات ، حتى أحدث صوتاً ينبه مدحت ، ولما بلغت الطابق الذى فيه حجرة
وقفت مكانى أبحت عنه ، وانتظر خروجه إلّ .

ولكنه لم يخرج ، فلم أطلق الانتظار كنت يائسة ، فصرخت صرخة مسموعة
وجلس على الأرض .

وفتح مدحت باب ححرته ووقف ينظر إلى ، وأنا لك ساقى ، وأظهر
علامات الألم على وجهي ، فاقترب مني وسألتني بصوت متفعل :
— مالك

قلت له

— رجلى اثلوت وأنا نازلة على السلم ..

وحاولت النهوض ، وأنا أتصنع الألم الحاد . ثم سقطت ثانية على الأرض
مدعية أن ساقى لا تقوى على حملي ..

ونظر إلى مدحت في حيرة ، ثم انحنى محاولاً مساعدتي على النهوض
فوضعت يدي على كتفه وأمسك هو بخصرى وحاول رفعى .

ولجأة سيطر على شعور مفاجيء بالحقد عليه ، صرخت فيه .

— أوصى تقرب مني .. والله أقول لستى .. كفاية التي حصل منك .

فلزع وتراجع بسرعة ، وانتصبت قائمة ، وتركته وهبطت إلى البدرين وأنا
مازلت أتصنع الألم ، وإن كنت أتحرك بسرعة .

لماذا فعلت كل هذا ، لماذا صرخت في وجهه ، لماذا حققت عليه ، هل أنا
مجنونة أم هناك شيء قاهر يحركني رغم إرادتي ..

لقد مضت سنوات عديدة قبل أن أستطيع تفسير تحولى المفاجيء من
مدحت ، إنى أعلم الآن أنى صرخت فيه بعد أن كنت أستسلم له ، لأنى كنت
أعلم عن يقين أنه لن يتزوجنى كان مدحت مجرد حلم ، قد أحلم به كما شاء ،
أحلم به كزوج غنى يعيش معى في قصر كبير . ولكن لمسة من يده كانت كفيلا
بأن تطرد الحلم من رأسى ، وتواجهنى بالحقيقة .. إنه لن يتزوجنى ..
مستحيل .. كل ما يستطيع أن يفعله .. هو أن يلهو معى بعض الوقت .

ولاحظت على نفسى منذ صرخت في مدحت ، إنى لم أعد أحلم به ، ولكنى
بدأت أحلم بشيء آخر وهو أن أكون سيدة محترمة ، مثل سعاد ، ومثل ستى

الصغيرة ، وكنت أقول لنفسى . لأمعنى للحياة إذا لم أحقق هذا الحلم ولكن .
كيف .. كيف أحقق ما أريد ..

وعلمنى يأسى إيمان اليكاه ، تعودت أن أقضى نهاري إلى جانب سرير ستى
الكبيرة ، أبكى في صمت ، وظن أهل البيت أنى أبكى حزناً عليها ، أما أنا فلم
أكن أعرف سبباً محدداً للبكاى ، قد تكون بعض دموعى حزناً عليها . ولكنى
واثقة أن دموعاً غزيرة ادهمرت من عيني حزناً على نفسى .

ونهرنى راتب بك ذات مساء .. كان قد صعد مع الطبيب إلى ستى الكبيرة ،
فرأى أبكى ، فلم يلتفت إلى ، ولما فرغ الطبيب من إعطاء حقنة لستى ، خاطب
راتب بك بلغة لم أفهمها ، فأنصت إليه في وجوم ، ثم انفجر صاخفاً في :
— اسكتى يا بنت أنت .. أنا موئش عايز أسمع حسك .

وسكت في الحال ، كان في صوته قسوة أزعجتني ، وغادر الحجرة مع
الطبيب ، ثم عاد ووقف يرقب ستى الكبيرة ، ول عينيه ألم ، وجلس إلى
جوارها وهي غائبة عن الوعى .. وبكى .

وماتت ستى الكبيرة في الصباح وما كاد الطبيب يسبل جفونها ويفلنى
وجهها ، حتى صرخت كالمجنونة .. ولطعت وجهى ، ومزقت شعرى .. ولم أعد
أبصرى بما يحدث لى ، حتى اكتشفت أنهم دفعونى إلى البدرين ، فصعقت على
المصعود إلى ستى .. كنت أريد أن أجلس معها كما تعودت كنت أخشى
اللحظات القادمة ، وأتوقع أن يهملونى في البدرين تمهيداً للطردى وحاولت أن
أصعد ، فامتنعت أيتو تمنعنى ، فأصرخ وأهجم على السلم ، فيشدوننى إلى
الوراء ، وسمعت صوت راتب بك وهو يشخط في إسماعيل حتى لا يدعنى أفلت
منه ، ورغم ذلك قهرتهم جميعاً ، وصعدت إليها .. وتركونى يائساً ..

جلست أحلق في جثمانها وقد تجعدت دموعى ، وخواطر غريبة تدور
برأسى ، إنها لم تمت .. وستستيقظ في أية لحظة ، إنها ماتت ولكن جسدها
سيطير في الهواء ..

عزرائيل مازال في الحجرة وسيقبض روحى ، إنها مصمعة على أن تأخذنى
معه ..

ثم أترك هذه الخواطر .. وأفكر في الهرب من البيت ، بما معنى من تقود واقعشة ، وأفكر في العودة إلى أمي ، وأتمنى لو أسمع أخبارها في هذه اللحظة ، وأخشى أن تكون قد ماتت ، وأفكر في عوض ، ترى ما الذي يفعله في السجن الآن عقل يدور ويدور بلا توقف حتى يكاد رأسي ينفجر ، فأصرخ وأولول في حرقه وغل ..

ولما حملوا ستي الكبيرة في النعش طار عقل وخرجت وراعا إلى الشارع فرأيت زحاما وسرادقا كبيرا .. واختطفنتي الأيدي إلى الداخل والقوابي مرة أخرى في البديون .

ولم أجرؤ هذه المرة على الصعود

ومرت أيام دون أن يلتفت إلى أحد ولا عمل لي سوى البكاء ، والتفجع على السيدات المعزيات لستي الصغيرة ، ومرت أيام أخرى لهذا كل شيء في البيت ، وكأن أحدا لا يسكن فيه .

ونادتنى ستي الصغيرة وسالتنى بصوت خافت حزين :

ناويه تعملي إيه يامبروكة ؟

لقد قلبني وشعرت بسفونة في رأسي .. ولدت لها وأنا خائفة .

— يعني ح أعمل إيه ياستي ؟

قالت بصوت يطر رأسي

— أحنأ صعبان علينا تسبينا .. لكن الست الكبيرة ..

وسكنت فجأة ..

ثم عادت تقول وقد رفعت صوتها :

— شوقي يابنتي .. لومعندكيش حاجة .. شغله ثانيه يعني .. فاحنا عندنا

ناس قرايب البية محتاجين لك

كنت أحس بالضيق لقد روضت نفسي طوال الفترة الأخيرة على أن مصرى هو الخروج من البيت ، ورغم ذلك لم أصدق ما أسمع .. كيف أترك هذا البيت ، بأى حق يطردوننى منه ، وتذكرت عرض عندما أحضرته لآراء ستي الكبيرة وتذكرته وهو يلتفت حوله ويهمس في ذهول وحسرة .

« وأنا حارديكى فحين يعد الجنة اللي أنت عايشة فيها .. دى سرايا يامبروكة » .

ماتت ستي الكبيرة لتدخل هي الجنة ، ولاخرج أنا من الجنة .

وفكرت أن أتوسل إليها ، لتبقيتنى في البيت ، فكرت أن أرتضى عند قدميها ، وأقبلهما عليا تقبلنى .. ولكنى لم أجرؤ ، كان عنادى أقوى من إحساسى بالضيق ، فلزمت الصمت .

واستطردت ستي الصغيرة تقول :

— أنت عرقاهم .. عبد الحميد أفندى السوينى .. راجل عجوز ومعتدوش

حد في البيت .. الست بتاعته ماتت .

وأطرقت برأسها ، ثم رفعتها .. وصوبت إلى عيني فاحصتين وقالت :

— ما عندوش غير يوسف ابنه .. وأنت برضه عارفاه .. وده ولد عاقل ..

كنت أستمع إليها بغير اهتمام .. إذ لا زال يشغلنى صراع عنيف في داخلي ، بين رغبتي في التوسل إليها لتبقيتنى ، وعنادى المتزايد الذى يهتف بى ألا أنهار أمامها والزم الصمت .

— وأنت برضه لازم تبقى عاقلة يامبروكة .. أنت رايحة في بيت مفيدوش

ستات ، ولولا أن عبد الحميد أفندى راجل على المعاش ومحتاج لواحدة زيك تخدمه كان بقى مرواحك عيب ..

لم يكن يعينى ماتقول ، كأنها تتحدث إلى شخص آخر غيبي ، وكأنى

لا أصدق أنى سأخرج من هنا إلى بيت آخر ..

وسمعتها تسألنى بصوت مرتفع :

— هيه .. موافقة ؟

فلم أقو على الكلام .. وتوسلت إليها بعينى .. وشعرت بعنادى يضعف

وقالت هي في هدوء :

— عبد الحميد أفندى جاي ياخذك العمر .

كنت أحس يدوخة خفيفة ، وفي رأسي سؤال غريب أحاول الإجابة عليه ..

لماذا تقول عبد الحميد أفندى ولا تقول عبد الحميد بك ؟

وعشت الساعات الباقية والدوخة تلازمتى ورأسى ثقيل كاتى أحمل فوقه البيت كله ، وكانت نظراتى تدور حول فتسقط على قطع الاثاث والجدران ودرجات السلم ، فأكاد أشعر بهذه الأشياء تنهش عيني .. وتختلف انتظار منهما .

إن هذا البيت يعرفنى أكثر من أى مخلوق آخر يسكن فيه ، أنه يعرف أيضاً أنى أشدهم حاجة إليه ، وأكثرهم إحساساً به ، كماوى وكلمان ، ومع ذلك فانا مضطرة إلى مغادرته ، إنى أحب هذا البيت .. إنى أحبه .. أحب .. أحب .. أحب ..

إنى أكرمه .. وجاء عبد الحميد الهندى فى العصر وكان وجهه محتتماً يبدو عليه الإرهاق ولم يقابله راتب بك إذا كان نائماً ، وجاءت ستى الصغيرة ، فجلست معه برهة قصيرة ثم نادتنى ، وما كادت ترائى حتى صاحت فى غضب .

— أنت لسه مالبستيش .. ياللا ألبسى بسرعة وهاتى حاجتك .. متعطش عبد الحميد الهندى . فقال لها فى طيبة شديدة : — معشوش .. خليها على مهلها . فضحكت ساخرة .. وقالت :

— لا يا عبد الحميد الهندى ، ماتبوظهاش .. أحسن تتعب معانا .. لو سبتها على كيلها ، والله ما هى عاملة حاجة فى سنتها . ثم التفتت إلى ، وكنت أنظر إليها ، وأنا أود لو أطبق على رقبتها وأخنقها .. كان حقدى القديم قد عاد إلى .. وصرخت فى . — أنت مستنيه إيه .. إن كان على فلوسك بتاعة الشهر ده ح أديها لك دلوقتى و أنت خارجة .. ياللا روحى .

فجريت إلى البديون ، وأسرت بارتداء فستان أزرق أعطته لى سعاد من ملابسها القديمة قبل الزواج .. ووضعت فى قدمى حذاء قديماً كنت قد اشتريته منذ سنتين ، وأحصيت نقودى وصررتها فى منديل ، وربطته بحمالة

للقميص الذى ألبسه ودفسته فى صدرى ، ثم جمعت أقمشتى وحاجاتى فى صرة كبيرة ، وتلفت حولى أبحث عن الطباخ وإسماعيل ، فلم أجدهما ، فصعدت إلى فوق .

ونفض عبد الحميد الهندى عندما رانى ، واستأذن من ستى الصغيرة ، ثم التفت إلى وقال : — ياللا بينا يامبروكة ..

فقلت لى ستى فى حنان مفاجئ : — استنى لما أديك فلوسك .. ومدت لى يدها بالنقود وهى تقول : — ابقى زورينا يامبروكة .. أوعى تنسى .. ثم أردفت قائلة :

— أنا مدياكى خمسين قرش زيادة .. كنت اتنم بكلام لأعياه ، وأنا أعجب بينى وبين نفسى .. كيف أترك البيت ، بون أن أودع سيدى راتب بك ، وسيدى مدهت ، والطباخ وإسماعيل .. أين هم .. أين ذهبوا ، لماذا لم تبق إلا ستى الصغيرة ؟ ورفعت عيني إلى فوق .. فى اتجاه حجرتها .. حجرة ستى الكبيرة .. وأرسلت لها فى صمت شكواى من هذا الوداع .. وخرجت إلى الحديقة .. وصافحت عم عثمان الذى لم يفهم لماذا أصافحه ، وحاولت أن أقول له إنى تاركة البيت إلى غير عودة ، فرفض أن يفهم ما أقول .. وسرت وراء عبد الحميد الهندى إلى محطة الاتوبيس .

بنى آدم مخلوق غريب ..

بعد دقائق ، ربما بعد لحظات من خروجي من بيت راتب بك كنت قد نسيت
حقدي عليهم ، ما كاد الأتوبيس يبتعد بنا ، أنا وعبد الحميد أفندي
السويني ، حتى شعرت بحنين جارف إليهم ، تذكرتهم جميعاً في حب ومن
خلال دموع مترددة في عيني ، تذكرت سنى الكبيرة وكأنها مازالت حية ،
نجلس هناك في حجرتها بالطابق الأعلى ، وأنا جالسة عند قدميها ، تذكرت
ليالينا في البدرين في انتظار انتهاء الغارة وراتب بك يجلس بيننا كأنه واحد
مننا ، وأنا أجلس بينهم كأنى واحدة منهم .

لم تعد سنى الصغيرة هي المستولة عن خروجي من البيت ، تحول غضبي
عليها إلى عبد الحميد أفندي ، هو السبب في خروجي من البيت ، هو الذى
اختطفنى من هناك ، هو الذى انتزعنى من بيتى ، من حياتى ..
شعرت نحوه بتعال وكبرياء ، كأنى من طبقة أرفع منه ، كأنى راتب بك
ورفضت أن أصدق أنى ذاهبة معه لأعمل خادمة في بيته ، أقنعت نفسى أنى
ذاهبة في زيارة ربما طالعت لبعض الوقت ، ولكنها لن تدوم .
هيملنا من الأتوبيس في ميدان مزدحم يكاد يحتنق بعربات القرام والحنطور
والسيارات التى تخوض بحرأ من الماس ، كانت الضجة عالية .. ولكن صوت
عبد الحميد أفندي ارتفع فوقها ..



وقف على الرصيف وصاح كأنه يخاطب عشرات معي :

— اسمعي يابنتي .. خدي بالك كويس .. الميدان اللي لحنا فيه اسمه إيه ؟

وتعلقت عيناه بشفتي ينتظر مني الجواب ، فلما لاحظ ترددي .. صاح :

— اه .. تبقى متعرفيش .. أنا أقول لك ده اسمه ميدان الأزهار ، ميدان

إيه .. الأزهار .. فهمتي بقى اسمه إيه ؟

وأطرق براسه مقرباً أذنه مني ينتظر الإجابة ..

كان مظهره يثير «سخريتي» ، وعجبت للفارق الكبير بينه وبين راتب بك

وأجبته على سؤاله مرددة وراة .

— ميدان الأزهار ..

فتهلل وجهه بفرح صبياني ، ثم تجهم وجهه فجأة ، كأنه قد تذكر شيئاً

محبوراً .. ونظر إلى في قلبي ، ثم قال :

— وكان اسمه ميدان باب اللوق .. ميدان باب اللوق ..

وسألني وهو يرقبني في حذر .

— اسمه إيه ثاني ؟

أجبته :

— باب اللوق ..

فهتف وقد انتفخ وجهه الأحمر ولعت عيناه :

— عظيم ..

وتنهَّد في ارتياح كبير ، ونظر حوله في زهو ، ورفع صوته قائلاً :

— أنا يابنتي بأفهمك كل حاجة .. خايف تتوهي ..

ولم أسمع بقية كلامه ..

احتلني صوته من أنفي ، وذابت ضجة الميدان ، وصرحت بخيالي إلى

مدحت أيام كان يجلس مع عبد الحميد الفندي في حجرة السطوح . كنت

أسمع في ذلك الوقت نفس الصوت المرتفع ، صوت عبد الحميد الفندي ، وهو

يشرح الدروس ، ويعيد الشرح مرة ومرتين ثم يقطع شرحه صائحاً في مدحت .

— أنا يابنتي بأفهمك كل حاجة علشان تنجح ولا تكسفينيش قدام البية

الوالد ..

قلت لنفسى ، إنه يعاملني كأنى تلميذة وهو مدرس ، واسترحت .

لهذا الخاطر طعأنتني ، وجعلنى لحس أس فهمت سره .

وعدت انصت إليه وأنا أنفجر عليه انطلق يشرح لى فى حماس مشيراً إلى

سوق الخضار فى الميدان ، وحفرنى من الشراء منه لأن أسعاره غالية .

سوق لا يشتري منه إلا « الخواجات » كل شيء فيه يزيد ثمنه قرشاً أو

قرشين ..

وتقدمنى في نشاط إلى شارع يخرج من الميدان قائلاً :

— تعالى .. أنا ح لوريكى تشتري كل حاجة منين .. وصرنا في الشارع ..

كانت عربات اليد تزحمة على الجانبين ولوقها كل شيء ، من الخيار والطماطم

والفاصوليا والكوسة والمخلل إلى أواني الطهو ومطابك الغسيل ، وعلى

الرصيف أقفاص الليمون الحلو وأكروام البرتقال واليوسفى ، وكان يردد مع

كل خطوة أن كل شيء اشتريه من هنا أرخص من السوق ولو بلميم .

وأشار إلى مكان جزر في الرصيف الآخر ، وكان الدكان مطلقاً ، ولكنه

اقتحم الشارع ، وقف أمام الدكان يدرج لى كيف أحامل المعلم الحاج أمين

وكيف أقول له إنى قادمة من عند عبد الحميد أفندى ، وأنه يرسل إليه تحيات

ويطلب منه أن يتوصى به وإلا أعاد له اللحم ..

كان يتكلم في انفعال ، ويكرر كل كلمة ينطق بها ، ويطلب منى أن أرددها

بعده ، حتى يتأكد أنى حفظت ما يقول ، فمتنهَّد ويملا صدره بالهواء ويتلفت

حوله ويشب على قدميه كأنه يبحث عن أثر كلماته في المارة أيضاً ..

وعادى إلى الميدان وهو يلوح بيديه مشيراً إلى الشارع الذى خرج منه وإلى

الميدان الذى ندخله ليتأكد أسى لن أتوه إذا جئت وحدى ، حتى وصلنا إلى

سوق الخضار الذى بدأنا منه جولتنا ، فاتجه إلى شارع بجانب السوق ،

ووقف معلناً بصوت خفيض .

— أهم شيء .. هو اسم الشارع ده .. اللي لحنا واقفين فيه .. ده اسمه

شارع الفلكي . الف لكى .. ده هو الشارع اللي احنا ساكنين فيه ..
وانصت إلى وأنا أردد الاسم . وأنفاسه لاهثة ، وعيناه قلفتان ، خشية أن
أخطيء النطق به ، فلما اطمأن سرياً قليلاً وعبرنا شارعاً أشار فيه إلى بناء قل
عنه إنه محطة للسكة الحديد التي تذهب إلى حلوان ثم سرياً حتى وصلنا إلى
عمارة لوتها بى ، وقف أمامها وقال :

— هنا البيت .. خلاص وصلنا .. احنا في أول دور .. يعنى موش ح تتعبنى
من الطلوع والمنزل . كلهم اربعنا شرسمة .

وهتف

— يا إبراهيم .. يا إبراهيم ..

فخرج من مدخل العمارة المعتم البواب ، فصاح فيه .

— دى مبروكة يا إبراهيم . جايه تشتغل عندنا ..

ثم هتف :

— أه .. أنا نسيت المكوجى .

وجذبني من يدي إلى وسط الشارع وأشار إلى دكان تحت الأرض على بعد
خطوات من البيت وقال :

— أه .. ده المكوجى .

والتفت إلى إبراهيم : وقال له :

— اعمل معروف يا إبراهيم . ابقي قول لها على السكة احسن تتوه .

وحدث الله أنه لم يذهب بى إلى دكان الكواء .. منذ قبض البوليس على
موش . وأنا أرتجف كلما اقتربت من دكان كواء ..

وصعدنا إلى الشقة

فتح عبد الحميد أفندى الباب بمفتاح صغير في سلسلة بها مفاتيح كثيرة
فقابلتني صالة ضيقة معتمة

وعند باب مفتوح على يسار الصالة وقف يوسف كأنه شبح ، مرتديا
البيجامة وشعره منكوش ، وفي يده كتاب .

التقت عيناي بعينيهِ . فحولهما بسرعة ، وأطرق برأسه .

شعرت أنه خجل منى . فزاد كبريائى . ونظرت حولي في ترفع . كان البيت
مقبضاً ساكناً لا حياة فيه وأحصست أنى أكبر من هذا البيت ، أقوى منه ،
غرفة واحدة في بيت راتب يك أكبر من هذه الشقة كلها .. البديرون هناك أحسن
من هذا الجحر الذي يسكنان فيه ..

وقال لي عبد الحميد أفندى في لهجة اعتذار :

— البيت مكركب زى ما أنت شايفة .. موش زى البيت اللي كنت فيه احنا
ناس على قد حالنا يابنتى .. إنما أهو البركة هيك .

ولزمت الصمت ، تقبلت اعتذاره في صمت ، وكأنه شيء طبيعي ، ونظرت
إلى يوسف فجأة فضبطه يحدق في . ولما التقت عيناي بعينيهِ تغير وجهه .

كانه يتكلم ، وحرك رأسه في عصبية كأنه يطرد شيئاً يحوم حولها ..
ودخلت الحجرات الثلاث التي تتكون منها الشقة وراء عبد الحميد
أفندى .

حجرة نوم فيها سرير نحاسي بأربعة أعمدة ، ودولاب عتيق ، ومقعد برزت
الاسلاك من ظهره ، ومنضدة فوقها تماثيل صغيرة بيضاء وسوداء فوق رقعة
فيها مربعات من نفس اللونين ..

وأشار عبد الحميد أفندى إلى التماثيل ، وقال في اهتمام كبير :

شوقي يابنتى .. تعمل أى حاجة في الأوده .. إنما الشطرنج ده أروع
تلمسيه .. ده أهم حاجة عندى في البيت ..

ولم ادش لكلامه ، كنت بعد جولتى معه في السوق . أتوقع منه أن يهتم
بأى شيء ، وإن يقول كلاماً ساذجاً كالأطفال .

ورأيت في حجرة يوسف مريراً أبيض كالذى بنام عليه إسماعيل في
البديرون ، ومنضدة عليها مرآة وكتب وفرشاة ومشط ، وصحن فيه بقايا حلالة

طحينية وفتافيت خبز ، وملابسه معلقة في مسامير مثبتة في الحائط

صرخ صوت في داخل لم يسمعه أحد « يا خبيتى عليك » وكنت عايز تتجوز
سعاد بنت راتب بك .

وشعرت بالرتاء له . عرفت لماذا هو خجل منى . إنه يرى في وجودى أهل

بيت راتب بك . كأنهم جاءوا إلى هنا ليشهدوا فقره ، وليسألوه كيف يجزئ على التفكير في الزواج من سعد وهو بنام في هذا السريير العفير .
خيل إلى أنى اقتحم عنوة غرفة يوسف وأنه كان يتمنى الموت .. ولا يراى يوماً أدخل عليه والفضحه في بيته .

وتذكرت قجاة أنى ارتدى فستان سعد . لا بد أنه يذكر هذا الفستان المسكين .. ليكون هذا هو سبب الألم الذى يرتسم على وجهه .

كان يوسف مازال واقفاً عند باب الحجرة الثالثة ، فلما عدنا إليها تنحى إلى الداخل ، ودخلت وراء عبد الحميد أفندى ، كان بالحجرة مائدة للطعام عليها مفروش من المشمع وحولها خمسة مقاعد تمزق جلدها ، وإلى الحائط بجوار النافذة بوليه قديم عليه رخام مشرور وفوقه ردايو وكتب وإلى جانبه على الأرض كتبة أخرى يعلوها التراب وهناديق بداخلها ملابس قديمة وخرق وأوراق وكراكيب .

وذهبنا إلى المطبخ ، فتحول كبريائى إلى ثلج وقرف ، الأوانى على الأرض والصحن المتسخة في حوض بالوعته مسدودة فارتفع الماء القذر حتى غطى الصحن ، ووابور جاز أسود أخرج رائحة نثنة تنبعث من صفيحة زبالة ودارت رأسى ..

هل هذا هو البيت الذى سأعيش فيه ، الموت أهون من الحياة هنا .. هذه عشة دجاج زربية .. ماذا يتوقعان منى ؟ أن أمد يدي إلى هذه القذارة ؟ ! إنى لا أجد مكاناً أستطيع أن أضع فيه حاجاتى وملابسى النظيفة . كل شيء قذر ، قذر ، مستحيل أن أبقى في هذا البيت .

كدت أصرخ فيهما قائلة أنى لا أستطيع أن أشاركهما هذه التعاسة . فاض بي اليأس فلم يعد يعنينى أن أبقى هنا أو يأتينى الشارع . وتجمعت الكلمات على طرف لسانى لأقذف بها في وجه عبد الحميد أفندى ، لولا خاطر مفاجيء حزينى .

اكتشفت أن ثورتى . وكبريائى الذى أشعر به الآن شيء جديد على لم تكن أعرفه وأنا في بيت راتب بك هناك ما كنت لأعلم بأن أصرخ في أحد ، هناك

ما كنت أحرص على النظر في عيوتهم كما أفعل الآن مع يوسف إنى أشعر لأول مرة بشيء يتعمد في داخلى ، شيء يتطلق ، شيء حقيقى لا مجرد وهم ..
إنه شعور لذيق مريح ، شعور بأنى مهيمنة على نفسى ، مهيمنة على ما حولى ، لا تخفينى قوة هائلة تضغط على كيائى ، مثلما كنت أحس وأنا أقف أمام راتب بك .

وملت الكلمات الفائرة على طرف لسانى ..

وقال لي عبد الحميد أفندى ..

— تحبى تناسى حين يابتنى ؟

وتحركت عيناه ناحية المطبخ ففصحت الإجابة التى يريد ما منى أنه خائف

لا يستطيع أن يأمرنى بما يريد .

قلت له وأنا أضيف إلى حجرة الطعام :

— ح انام في الأودة دى ..

فبدأ الهجوم على وجهه ، ونظر إلى يوسف ، ثم قال في ارتباك :

— بس يوسف بيذاكر فيها .

فانطلق يوسف يتكلم في انفعال .. كانت هذه أول مرة أسمع فيها صوته منذ

دخلت البيت :

— معلوش بابابا .. أنا ح أذاكر في أودتى ..

ثم قال بصوت خفيض كأنه لا يريدنى أن أسمع :

— أصل ما فيش حته ثانية تنام فيها .

وتحركت عينا عبد الحميد أفندى ناحية المطبخ من جديد . ثم احتكن

وجهه وقال بصموية :

— والراديو ..

وقطع كلامه .. ثم قال ليوسف في استسلام :

— على رايك يرضه تنام في الأودة أحسن .. يعنى مين بيسمع الراديو . أنت

بتذاكر ، وأنا بأتنام بدرى ..

ثم التفت إلى قائلاً في ارتباك :

— احنا نسيك بقى علشان تفيرى الفستان ده .. وتلبسى حلجة البيت .
وتبادل النظرات مع يوسف .

وذهب كل واحد منهما إلى غرفته وأغلق بابها .

وقفت في الصلاة وحدى لا أريد الحراك ، كنت مترددة في خلع فستانى
كانى لو خلعت سافقد جزءاً من هييتى عندهما ، كاتى أريد تأجيل اعتراقى
بأنى استسلمت لمصرى في هذا البيت .

وفكرت في الجلوس على أحد المقاعد واضح ساقاً فوق ساق مثلاً كانت تقبل
سعاد ، وفكرت في أن أذهب إلى حجرة الطعام وأفتح الراديو وأفتح للنافذة .
لماذا يعيشان في هذا الجحيم القاتم ، الكتيب ..

وذهبت إلى حجرة الطعام .. واختلست النظر من بين فتحات المظلة
الخشبية للنافذة ، فوجدت أنها تطل على بيت آخر بيننا وبينه ثلاثة أو أربعة
أمتار ، وتوافذ البيت الآخر مغلقة أيضاً ، لو فتح السكان نافذة فسيجرحه
الجيران .

وابتعدت عن النافذة ، ووقفت وسط الحجرة لا أدري ماذا افعل ، ثم
ذهبت إلى مفتاح النور وأضأت الحجرة كانت الممتة تزداد بسرعة ، والظلام
يطبق على كل شيء يقيضه السوداء يطبق على صدرى وعقلى .

لا فائدة .. إنى لا أستطيع أن أقاوم ، لابد أن أخلع الفستان .
خلعت والقيت به على المائدة فوق كتب يوسف ، وأخرجت من صرتى جلابية
أرتديتها ، وخلعت حذائى ، ووضعت الشيشب في قدمى .

وعدت إلى النافذة ، كان زجاجها مغشى من أحد جانبيه بورق أزرق حتى
لا ينفذ الضوء إلى الخارج ، فنظرت في الجانب الآخر إلى وجهى ، أريد أن
أعرف كيف يبدو وأنا أبدأ حياتى في هذا البيت .
رأيت وجهها جميلاً حزيناً .. وابتسمت .

●●

لست أدري ماذا حدث لى في الايام التالية .. كأن عاصيتاً وكينى ..

لمسحت كل حركة ونشاطاً ، ولم أعد أفكر في حالى ، ولا في عبد الحميد أفندى
ويوسف ، كأنهما غير موجودين في البيت ، كأن البيت بيتى .. أما صاحبتى
وليس لأحد كلمة على .

كلما مريوم وجدتنى أبدأ جهداً أكبر في الكنس والمسح وتلميع الحوص
وتنفض الغبار عن سجادة الصلاة ، كنت أعمل كالمحمومة .. كاتى أريد أن
أحقق معجزة ، فأحول الحجر إلى بيت كبير أنيق مثل بيت راتب بك .

وكان عبد الحميد أفندى يبدى إعجابه بعملى ، ويقضى معى أحياناً
الصباح يساعدى في حمل السجادة إلى النافذة . أو نقل منضدة أو مقعد أو
تصليح البالوعة ، وكان يرفض أن يتركنى أخرج لأشتري اللحم والخضار
فيذهب إلى السوق بنفسه ويعود مسرعاً ليوقف معى في المطبخ يقشر البطاطس أو
يخرط البصل ، وكان يقول لى أحياناً :

— انا أكلت يامبروكة مرة طبق محشى معتبر في بيت راتب بك . عمرى
ما أكلت في حياتى محشى زيه ثم ينظر لى متوسلاً :

— تعرفي لعملية يامبروكة ..

— أعرف .

فيفرح فرحاً شديداً أو يساعدى في إعداد المحشى ، ويقف يراقبنى في أفضول
شديد ، ولى عينيه نهم وجوع كأنه لم يأكل منذ أعوام .

توطدت الصداقة بينى وبين عبد الحميد أفندى ، فلم تكن بيننا كلفة ،
لا أقول له ياسيدى ولا أشعر بنحوه بخجل ، أدخل عليه في غرفته في أى وقت ،
لأثبت له زرار قميص لو ارتق له ثقباً في جوارب أو أنظف له بقعة في بدلتى ..

وكان ينادينى « يا بنتى » ومع ذلك لم أحس أبداً أنه في سن أبى ، إلا أنظره
فهو عجوز ، ولكن عقله عقل طفل ، يتحدث معى بالساعات في أى شىء ، يثرثر
بكلام مريح لفهمه ، وكان حديثه المفضل أن يسألنى باهتمام عن أخبار بيت
راتب بك ، كيف يعيشون . وماذا يأكلون في الإفطار وفي الغداء وفى العشاء

وما هو الطبق المفضل عند راتب بك والطبق المفضل عند ستنى الصغيرة .
وكان يروى لى عن بعض أسرارهم التى لا أعرفها ، فقال لى إن راتب بك ورث

من أمه ستى الكبيرة أربعة وخمسين فداناً وبيتاً فى العيلسية ، وهكى لى عن
ستى الكبيرة أيام شبابها . استمعت إليه فى دهشة وهو يتحدث عن جمالها ،
والخطاب الذين كانوا يتنافسون على طلب يدها ، ورفضت أن تصدقه عندما
قال إنها كانت تضرب زوجها أبو راتب بك بالشبشب لأنه كان مسكيراً لا يفريق
من الخمر .

قلت له

- يا شيخ حرام عليك .. والنبي دى ست طيبة وح تروح الجنة حذف .
فضحك قائلاً :

- أنا قلت حاجة .. ما الكلام ده كان قبل ماتحج وتعمل شيخة .
وسأله فجأة :

- وأنت ما تبصليش ليه ؟

فارتبك وأحمر وجهه وقال :

- والله أنا نفسى أصلى بامبروكة . لكن أعمل إيه فى المدعوق ده اللي اسمه
الشطرنج .. وأخذ هقل ووالتى وصحتى ودينى وفلوسى .. أخذ كل حاجة ..
قلت له :

- ما تبطله ..

فقال فى استسلام .

- مقدرش .. أتعدت عليه .. بحبه .

ثم لمعت عيناه وقال فى زهو :

- أصل الشطرنج دا لعبة عايزه مخ .. ما يلعبوش الا الأذكيا .

قلت له ساخرة :

- وإيه يعنى .. تفنكر مقدرش اتعلمه أنا كمان .

فمظر إلى فى استخفاف وقال :

- أدى اللي ناقص ..

ثم أربف قائلاً وكأنه يهمس بسر

- تعرف أنا قاتع مدرسة .. موش بتشوفينى أنزل ومعايها كتب . كلها كتب
شطرنج . أروح على القهوة وأجمع اللعبة حواليه وأدرس لهم .
قلت له :

- والنبي تعلمنى ..

قال بصوت جاد :

- بلاش .. أحسن يتلف مخك .

كنت أجد عبد الحميد أفندى شخصاً مسلياً ، أثر معه فى غير حرج .
واحس نحوه بمشاعر مختلطة من الشفقة والحنان والامومة والدلع .
وكنت أتبادل الحديث معه فى الصباح ويوسف فى الجامعة ، وكنت اتعبد
الوقوف وأرفض أن أجلس أمامه على الأرض كما كنت أفعل مع ستى الكبيرة
وحدث مرة أن طال حديثنا فتململت فى لافتى .. وشعر هو بانى متعبه فقل لى :

- ما تقعدى .

فجلست .

جلست على المقعد ، ولم بيد عليه أى شيء اعتبر جلوسى على المقعد وكأنه
شيء طبيعى ، أما أنا فكان قلبى يقفز بين ضلوعى من الانفعال والفرح ..
ورغم ذلك كنت خائفة من يوسف فلم أجلس أمامه أبداً على مقعد .. وعند
اللحظة التى يعود فيها من الجامعة ابتعد عن عبد الحميد أفندى وأتشاغل
بأى شيء . وكان عبد الحميد يساعدهنى فى التخلص من الحرج ، فيخرج كل
عصر ومعه كتبه إلى المقهى ، وعندما يعود فى المساء أحضر له المشاء ، ثم
أحضر له رقعة الشطرنج فيضعها على المائدة ويحرك القطع وهو ينتظر لى
كتاب . وبين حين وآخر يمسك بقلم أحمر يدون به ملاحظات فى هامش
الكتاب ، وأجلس أنا بالقرب منه أنصت إلى الراديو بآذن . وأنصت إلى باب
حجرة يوسف بالآذن الثانية .. حتى إذا فتح يوسف الباب ، قمت من مقعدى
متظاهرة بأى عمل فلا يرانى وأنا جالسة مع أبيه .

وكانت ساعات العصر التى أكون فيها وحدى مع يوسف فى الشقة ، ساعات
غريبة . كنت أشعر بوجوده فى كل لحظة ، أقرب خطواته فى قلق وأعجب

للكلمات القليلة التي تتبادلها وأمكر في مدحت وأقول انفسى ماذا كان يحدث لو أن مدحت هو الذى يعيش معى في الشقة بدلا من يوسف .

لم يحاول يوسف أن يغازلى أبدا ولكنى كنت واثقة أنه يشعر بانوثتى فهو دائما يخضع بصره أو يحوله عن وجهي لو صدرى وإذا حدث أن تلامست يدانا ، سحب يده برجة غير عادية كأنه مذعور ، وإذا خاطبني ، قصوته حاد ، وكلماته مقتضبة على غير عادته عندما يتحدث مع والده . وكان وجهه متجهما دائما لا يضحك أبدا ، حتى لو حاولت أن أشجعه وابتسمت في وجهه .

وأدركت أن خجله ليس بسبب قدومي من بيت راتب بك ، بيت العز الذى يذكره بفقره ، وإنما هو يخجل أيضا من أنوثتى . ولم يعجبني خجله ، أشعرنى بأنه ضعيف وغليان ، وقل مدحت في خيالى الشاب الذى أحلم به ..

استفزنى ضعف يوسف ، وشجعنى على أن اتحداه .. ذات يوم وكنا ساعة العصر ، خرج عبد الحميد أئندى إلى المقهى كعادته ، وتركنا وحدنا .

ودأيت يوسف يذهب إلى حجرة الطعام ، ويعبث بمفاتيح الراديو حتى انطلقت منه موسيقى أفريقية تصحبها خشخشة وصهيل وأزيز ، وجلس ينصت إليها وقد أطرق براسه وكأنه يسمع أم كلثوم لم تعجبني هذه الخسجة التى يسمعها ، فدخلت عليه ووقفت بالقرب منه ولكنه تجاهلنى ..

قلت له فجأة :

- والنبي ايه اللي عاجبك في دوشة الدماغ دى ..

فرفع إلى عينيه في دهشة ، وقال في حدة .

- وأنت مالك .

قلت له في عناد :

- ما تشوف محطة مصر ..

فصرخ في غيظ ..

- بقول لك ملكيش دعوة . روى شوقي شغلك ..

تكررت إليه في تحدٍ قليلة :

- طيب ما تشخطش كده . أعمل اللي أنت عايزه .

وهزنت كنتى في سخرية ، فارتفع الدم إلى وجهه ، وجحظت عيابه .. وقال

في هياج :

- أنت قرأى تكلمينى بالشكل ده .. فأكره نفسك معى .. أنت خدامة .

قلت له في هدوء :

- الله يسامحك .. أنا موش ح لرد عليك ..

فصرخ :

- أنت قليلة الأدب ..

قلم أقل شيئا ، وغادرت الحجرة وأنا في عجب من نفسى ، كنت أشعر براحة كبيرة لاني أثرت وجعلته يصرخ كالجنون ، ولم أكتف بقوله إنى خادمة . لم تجرحنى الكلمة رغم رفضي لها ..

ودخلت الحمام ، وغرمت في الاستحمام ثم ارتديت ملابسى ، وفتحت الباب ، ووقفت أمام مرآة المرص أمشط شعري وأغنى .

كان قد انفل الراديو وسمعت صوت أقدامه وهو ينتقل في الشقة ثم اقتراب صوت خطواته ، ورايته واقفا عند باب الحمام ينظر إلى في غضب وصاح :

- بلاش غنا .. أنا عاوز أذاكر .

قلت له ويدي تحركه انشط في شعري المرسل المبتل :

- ليه .. موش عاجبك صوتي .

- وابتسمت عيناى ..

قارتبك وخفض عيني ، ثم عد ورفعهما إلى وقال بصوت مرتعش يفضح خجله .

- أنا موش عارف أذاكر :

- فقاطعت بصوت مرج :

- أعمل لك شاي ..

وتقدمت منه . ومددت يدي إليه لأزيحه عن اليأس في طريقي إلى المطبخ
فانتفض متراجعاً وقال في صوت متعرج :

- موش ضروري .

قلت له ضاحكة

- لا .. والنبي لاما عاملاء على طول .. علشان تعرف تذاكر .

وذهبت إلى المطبخ أصنع الشاي ، وأنا قرحانة كأتى الهوى لعبة مسلية ،
كانت بي رغبة ملحة في أن استدرجه حتى يقارلني ، أريد أن أتحداه بانوثتي ،
حتى يستسلم لها فيمد يده إلى جسمي ، وعندئذ أصده وأشعره بلأني أقوى
منه

وجعلت كوب الشاي إليه في حجرته ووضعت إمامه على المنضدة ، وقلت له
ويدي ثعبث بشعري المبلول ..

- لسه زعلان مني ..

فانكمش في جلسته ونكس رأسه ولم يقو على الكلام .

قلت له بلهجة عتاب :

- يعني هو عيب لما أبقي خدامة ، الكلمة دي عمرى ماسمعتها من ستي
الكبيرة ولا ستي الصغيرة ، ولا سي مدحت ، ولا حتى من راتب بك .. عمر
ما حد منهم قالها لي .

فاهتزت رأسه ، يريد أن ينظر إليّ ولا يستطيع . وقال بصوت خفيض
مضطرب :

- أنا موش قصدي .. لكن ما يصحش تكلميني بالطريقة التي كنت
بتكلمني بيها ..

نظرت إليه في غيظ ، لماذا لا يرفع عينيه إلى وجهي ، لماذا لا يريد أن يرى
شعري وابتنسامة عريضة على شفتي ولا يتبسّط معي في الحديث رغم
تشجيعي له ..

قلت له في وحوم :

- حقا عليه .. أنا غلطانة .. وتركت الحجرة وأنا اشعر بهزيمة ..

هزمتي ضعفة لا قوته ..

وفي صباح اليوم التالي انتظرت حتى خرج يوسف ، وبقيت وحدي مع
عبد الحميد أقندي ، وكان في الحمام ، هخرج منه ليجدني جالسة في الصلاة
أبكي ..

صاح في زعر :

- الله .. إيه اللي جرى .. حصل إيه .. بتعيطي ليه .

فاشكت بكائي ، واقترب مني يربت على كتفي ويحاول أن يهدئي
بلا فائدة .. كنت أبكي بحرقة والدموع تنهمر من عيني بغزارة ، وهو فرح
يريد أن يفهم ما حدث . فجلس إلى جوارى وطوق كتفي بذراعه ، وأخذ
يتوسل لي أن أقبله سر بكائي .

قلت له أخيراً بصوت يمزقه البكاء :

- يوسف شتمني ..

صاح في انفعال :

- يوسف ابني ..

قلت له في ألم :

- أبوه ..

هتف :

- لازم ما يقصدش .. هو يعرف يشتم .. قال لك إيه ..

وارتفع بكائي من جديد .. ثم قلت له :

- قال لي .. يا خدامة ..

فصاح في استنكار :

- لا .. هو غلطان .. حقا عليه وعدت إلى البكاء ، وهو حائر لا يدري ماذا

يفعل . ثم قال لهجاء :

- خلاص بيا .. علشان خاطري .

وارتفعت يده إلى رأسي ، وحذبه إليّ وقبلني في شعري . فشعرت براحة

كبيرة وأنا بين نراعيه ، ومضت لمظلات قبل أن أشعر بشفتيه ملتصقان
بخدّي ، فتركته يقبلني ، ثم انتفضت واقفة ، وذهبت إلى المطبخ وأنا أسمع
دموعي .

الفصل الرابع

حيرتني قبلات عبد الحميد الهندي .. حدثتني غريزتي كامرأة بأن هذه
القبلات تعني أكثر من الرغبة في مصالحتي وإظهار العطف عليّ ، كنت واثقة
أن شيئاً ما قد حدثاً عليه وهو يحتضنني ويقبلني ، ما هو هذا الشيء ..
أهي رغبة مفاجئة انتابته ، أهي عاطفة يشعر بها نهوى منذ زمن .. كان
يكتنمها ثم انطلقت وفضحت نفسها .

كنت حائرة ، ولكني لم أشغل نفسي بالتفكير ، قلت لنفسي إن الأيام وحدها
هي التي ستكشف لي سر هذه القبلات .

كان ما يشغلني وسيطر على عقلي هو موقف يوسف مني ، عندما بكيت
أدركت أنني لم أغفر له وصفه لي بأنني خادمة ، لقد حاولت أن أدافع عن نفسي ،
فشجعتني ليقارنني ، ليعاملني كامرأة ، ليعاملني وكسائي سعاد .. ولكني
فشلت ، تجاهلني فحكم عليّ بأنني ما زلت خادمة ، حكم عليّ بأنني لست
سعاد .

ما للذي أعجبه في سعاد ، ولم يعجبه في ، أهي أجمل مني ، أبدأ ، أنا
لجعل منها ألف مرة ، وأصغر منها ، عجوز تكبر يوسف بمسنتين ولو تزوجته
لتحولت إلى شمعطاء وهو ما زال في شبابه ، كل ما كان يجذبه إلى سعاد هو
غناها ، وكل ما ليعده عني هو فقرى ، هو أنني خادمة .

قبيلات عبد الحميد أفندي ، ومصالحته في ، وعواطفه المكبوتة نهوى ، لن
تمحو حكم يوسف على بآسى أهل منه .. بآسى شيء حقيق .. بآسى خالمة .
هل استمر في محاولاتي مع يوسف .. أشجعه أكثر وأكثر . حتى
يفازلنى . لا . ما يدرينى كم من الإهانات سأعرض لها قبل أن انتصر
عليه .. ولو انتصرت فسيكون انتصاراً رخيصاً ، لن أשמراً لبدأ أنه هو الذى
سعى إلى ، وإنما أنا التى أذللت نفسى وسعيت إليه .
هناك مخرج آخر . اكتشفته بالصدفة ..

ماذا لو سيطرت على عبد الحميد أفندي ، أبو يوسف ، ماذا لو جعلته طوع
إرادتى . هذا هو الطريق السهل الميسور ، هذا هو باب الأمل الكبير في أن
أتحول من خادمة في نظر يوسف إلى سيدة بيته ، سيدته هو .. هكذا سيخضع
يوسف إلى أن يعترف به ويحترمني كزوجة أبيه .
وأهبطتني الفكرة ، ملأت عقلى ، وهزت كبائى ، فأنطلقت أتخيل تفاصيل
حياتى بعد الزواج . وكأنه تم فعلاً ..

سأنام على سرير عبد الحميد أفندي وسيراتى يوسف وأنا أدخل حجرة
أبيه ، وأخرج من حجرة أبيه ، وأنا لى سرير أبيه ، وسأجلس معه على مائدة
الطعام ، وستأتى خادمة لتخدمنى و..

ولمجانة ، خطر لى أنى أستطيع أن أذهب مع عبد الحميد أفندي إلى بيت
رائب بك ، أذهب معه كزوجة ، وأجلس إلى جانبه في الصالون ، تستقبلنا ستى
الصغيرة وتجلس معنا ويقدم لى إسماعيل عصير اليرتقال و..
أنى لا أستطيع أن أجرى مع خيالى .. هل هذا معقول ، أتمكن أن يحدث
هذا ، أنى أطلب المستحيل ، أنى أهذى ، أكذب على نفسى ، كيف ترضى ستى
الصغيرة بالجوارس معى في الصالون لن ترضى ، ستصفعننى على وجهى ،
ستطردننى من البيت ، إننى خائفة ، أنا نفسى لا أستطيع أن أجلس أمامها ،
سأرتبك .. سأخاف . شعرت أنى مقبلة على معركة كبيرة معركة ضد رائب بك
وستى الصغيرة ومدحت ويوسف وسعاد ..

سيحاربوننى جميعاً ، سيفقدون في وجهى ، ولكن أليست هذه الحرب
أفضل من الاستسلام لهم ، وتحمل نظراتهم لى كخادمة .
سوف أخوض المعركة ، وسوف أنتصر .. هنا على الأقل ، في هذا البيت ،
سوف أنتصر على يوسف بلذات ..

ومضت أيام وأنا أرقب عبد الحميد أفندي ، وانتظر حطوته التالية ، ولكنه
كان يتقرب إلى بيظه وحذر شديدتين ، لم يغب عنى أنه متردد وخائف ، لاحظت
شدة انفعاله وهو يجلس معى كل صباح يثرثر كلماته وعلى فمه ابتسامة
عصبية بلهاء ، وفى عينيه بريق الرغبة ، ولكن لسانه علج أن ينطق ، ويده
المرتعشة خلفه أن تمتد .

كان يقول لى كلاماً ساذجاً ..
ويسألنى أسئلة مضحكة ، ويلف ويدور كالثاة ، فأنركه على سجيته
ولا أحاول مساعرتة ، لا تمتع بمحاولاته اليائسة ، وأنقرج على المعركة
القاسية بينه وبين نفسه ، كنت مطمئنة إلى مصيرى معه ، واثقة أنه في يدي ..
فلا داعى للعجلة ، صبرت عليه حتى يقهر الخوف الذى يشعربه ، ويعترف
لى بأنه عبدى ، وأنا سيدته .

سألنى فجأة ذات صباح :

- إيه رأيك في شنبى ..

ونظر إلى فى اهتمام ، كان وجهى مرأة ..

قلت له وأنا أكنم ضمكة :

- ماله ..

قال فى انفعال :

- لا . قول لى صحيح .. أنا بأنكر أحلقه .

قلت له وأنا أهن كتنفى في غير اكتراث .

- والله أحسن .. يعنى فايدته إيه .

فقال فى لى :

- ماحدثش بيهتم بالشنب دلوقت .. شبان الأيام دى ما يعرفوش قيمة

الشعب ..

وهتف

- أنا ح أوريكى صورتي زمان .. وأنا بالشعب .. شعب تعلم .. كنت أبرمه وأدهنه بالكوزملتيك .. يقف عليه الصقر ..

ونفض ليذهب إلى حجرته ويأتى بالصور ..
قلت له :

- خللك أبت .. وأروح أنا أجيبهم ..

فقال في حماس :

- لا .. أجيبهم أنا ..

وذهب إلى حجرته .. فتبعته ، وفتح الدولاب ، وأخرج من داخله صندوق أهدية فيه أوراق وصور كثيرة ، رأيت بينها صورة امرأة سمينة .. مقومة الخدين ، لها عينا بكرة .. وأدركت أنها صورة أم يوسف ، ورغم ذلك سألته :

- صورة مين دى ؟

قال في وجوم :

- دى المرحومة .

وحاول أن يطفى الصورة بين الأوراق فمددت يدي وأخذتها منه ، وتفرست فيها ، وهو ينظر إلى في قلق ، ثم سألته :

- أنت بتحب التخان ..

فصاح في انفعال :

- أهدأ .. مين قال لك كده .

قلت له وأنا أضع الصورة أمام عينيه

- أهى .. شوف كانت تخفيه قد إيه ..

فقال بصوت مرتفع :

- كانت دقة قديمة .. متعرفش حاجات زى دى ..

فسألته :

- زى إيه ؟

فقال متردداً :

- يعنى زى الحب بتاع الأيام دى ثم أبتسم وقال في سذاجة .

- إنما أنا

وقطع كلامه ، ولكنى كنت أسمع الكلمات التى حبسها على طرف لسانه

كان يريد أن يقول « إنما أنا بأنهم فى الحب .. أنا بأحبك أنت »

وتحركات أصابعه فى عصبية بين الأوراق ، حتى عثر على صورة له . وهو فى

شبابه ، طربوش طويل فوق رأسه ، وشارب ضخم مبروم يشطر وجهه الوسيم

إلى شطرين .. وقد وضع يده اليمنى فى خصره ..

وهتف فى انتصار :

- ادى الشباب .. موش شباب الأيام دى .. شوى العظمة .. شوى

الابهة ، موش المفاهيم الهايفين عيل أمبارج ..

كان يعرض على مفاتنه من خلال صورته القديمة ، وهو يظن أنه يضحك

على عقل .. وأنى سيارى الصورة .. وأنسى شكله المعجوز .

ومضى يقول وقد التهاب حماسه .

- كنت أيامها عفرت . ما بطلش شقاوة .. هو شبان الأيام دى عملوا

حاجة .. ولا يعرفوا معنى إيه الشقاوة .. خيانيين .. والله خيانيين .

ونظر إلى في لهفة ، رأيت فى عينيه ما يريد ، كان خياله قد جمع ، والرغبة

تأكله ، وهو عاجز أن يتصرف وأنا فرحانة به ، سعيدة بمراقبته يتعذب ويتقل

على النار ..

وتغير نظام حياته ..

أصبح يعود مسرعاً من المقهى قبل أن تغيب الشمس ، ثم انقطع عن المقهى

ولزم البيت لا يخرج منه حتى يكون قريباً منى ، وكان يعود فى البيت سبباً فى

توتر العلاقة بينه وبين يوسف فكلما رأى يخرج من حجرته بدا عليه الضيق

والتبرم وصاح فيه :

- يا ابنى ما تذاكر .. أنت فى الليسانس . ده موش لعبة ..

فيقول له يوسف فى دهشة :

- ما أنا يابابا ..

وعندئذ يرتفع صوته في هياج

- بتذاكر إزاي وأنت كل خمس دقائق سايب أودتك ..

فيتنم يوسف بكلمات غير مسموعة ويذهب إلى الحمام ، أو إلى المطبخ
ليشرب ، ويعود إلى حجرته مطاطيء الرأس ، بينما تلاحقه نظرات غاضبية
يصوبها إليه عبد الحميد أفندى وهو يصيح :

- أما عجائب صحيح :

وقال له يوسف في إحدى المرات .

- يابابا موش تخرج تمشى بشويه .. القعاد كده موش كويس على صحتك ..

فثار وارتمش وصرخ فيه :

- أنت مالك يا ولد .. أنا صحتي زى البعب .. أنت عايز تطلعنى من
البيت ..

ولم يفهم يوسف سر غضب أبيه ، أما أنا فكنت أعرف السر ، إنه يشور على
ابنه لأنه يعمل ذنب خوله وتردده في مغازلتى ، كأن وجود يوسف بيننا هو
الذى يمنعه من مغازلتى .

وخطرلى أن عبد الحميد أفندى حاقد على شباب ابنه ، وأنه يغار منه وربما
كان سبب لعوده في البيت ، خوفه من بقاى وهدى مع يوسف وهو بعيد عنا في
المقهى .

وأخيراً اكتشف عبد الحميد أفندى حيلة للوصول إلى ؟ .

ادعى المرض ، فدخل حجرته عصر يوم ورفد في السرير ، وقال إنه متعب ،
وطلب منى أن الأزمه في الحجرة وكان في كل دقيقة يطلب أن أعد له وضع
الوسادة ، أو أجس جبينه بيدي لاتأكد أن حرارته ليست مرتفعة أو أنك يديه
وساقيه ، وكان يتأوه ويتنهد ويزهر الهواء بحرقه ، وإذا تحركت ناحية الباب
لاى سبب صرخ قائلاً :

- رايحة فيى .. ما تسبفيش يا مبروكة .

ودخل علينا يوسف ليطمئن على صحته ، فغضب وقال له في حدة :

- أنت جاي تعمل إيه .. ما تروح تشوف شغلك ..

قال يوسف :

- بس أنت عيان يابابا .. أروح أجيب لك دكتور .

- دكتور إيه .. هو أنا ح أموت .. ح تقلب الدنيا علشان شوية برد عندى ..
روح ذاكر .

وتركتنا يوسف متجهما .

وطلب منى عبد الحميد أفندى أن أحضر له رقعة الشطرنج إلى جانبه في

السرير ، فأحضرتها له وقالت :

- أجيب لك الكتاب .

فقال ضاحكاً :

- لا .. أنا ح أعلمك علشان تلعبى معانا .

وشرح بزره القطع فوق الرقعة ، وهو يمسك واحدة واحدة ، يرفعها أمام

عينى ويشرح لي :

- ده ياستى الحصان .. وده أسسه الفيل .. وده الملك .. وده الوزير وده

الطابية .. وده البيبق ، يعنى العسكرى .

ثم قال فجأة :

- ح تلعبى إزاي كده ، اطلعنى أفندى جنبى .

قلت له :

- ما أنا واقفة أهر ..

فهتف :

- موش ممكن .. لازم تاخدى راحتك وأنت بتلعبى .. دى لعبة ملوك .

ترددت في الصعود إلى جانبه على السرير ، كنت أعرف حيلته وأسخر منها ،

ولكن .. اليس هذا هو ما أسعى إليه ..

ترددت لأنى لا أعرف إلى أى مدى يجب أن أتورط معه ، قيل أن أصل إلى

غوضى . واسمعه يقول لي إنه يريد أن يتزوجنى أيكفى بالقبلات ، أم

سيطلب أكثر منها .

ولو طلب الكثير ، فهل أوافقه أم أرفض ..

لقد حسيت أن أفكر في كل هذه الأشياء ، شغلت نفسي بالتفكير عليه وأنا مطمئنة إلى النتيجة ، فلم أستعد لهذه اللحظة ، اللحظة التي سيتغلب فيها على محاولته ، اللحظة التي توشك أن تحيى ..

وصعد إلى السرير فتهلل وجهه فرحاً ، وانطلق يشرح لي كيف لحرك القطع فوق الرقعة ، وأنا لا أهم من كلامه شيئاً ، كنت مضطربة .. مشاعري متصاربة ، سعيدة لأنني جالسة على السرير اللين ، الذي يمثل لي الراحة والأمان ، قلقة لأنني لا أعرف ماذا سيحدث في أية لحظة أيمسك بيدي ، أيقبلني ، أيهجم عليّ كالسهم ، وكنت خائفة أتوقع أن يدخل يوسف عليّ في أية لحظة ، وكنت أشعر بالخجل .

وسمعتة يقول لي :

- ألعن بآه .. لما أشوف فهمتي كلامي وإلا لا ..
فقلت له :

العب أنت الأول .

فقال :

- لا ، أنت معاكي الأبيض .. وأنا معايا الأسود .. الأبيض يلعب الأول .
ونظرت إلى القطع في حيرة ..

وأمسكت بالحصان .. ثم صحت .

- موش عارفة .

فقال لي أسي .

- تنقي مفهمتيش

قلت له وقد نفذ صبري :

- دي لعبة صعبة قري .

وهبطت من السرير قائلة

- أنا رايحة أعمل لك حاجة سخنة

فقال لي ارتباك :

- خلاص موش عايزه تتعلمي .

قلت له :

- لا .. أنا موش فاهمة حاجة .

وصوبت إلى أنظرة حزينة ، وسكت وخرجت من الحجرة . وذهبت إلى المطبخ لأعد له قدحا من الينسون ، وتذكرت يوسف فأشفت عليه .. المسكين ، انه لا يدري شيئاً عن المفاجأة التي أعدها له ، وصنعت له قدحا آخر . كنت أريد أن أراه ، لأتمتع بمنظره المتجهج في لحظة انتصاري ، وحملت القدح إلى حجرته فلم أجده ، بحثت عنه في حجرة الطعام ، وفي الحمام ، فلم أجده ، وأسرت إلى عبد الحميد الفندي وقلت له لي جزع :

- يوسف خرج ..

فقال لي صوت جليد وكان الأمر لا يعنيه :

- طيب ..

ثم سألني وعيناه مشبعتان على صدرى :

- رح فين ..

قلت له :

- ما أهرقش ..

فقال وكأنه يحدث نفسه :

- الولد ده باط .

قلت له وأنا أقدم له قدح الينسون .

- دا أنا كنت عاملة له ينسون هو كمان ..

فقال لي هدوء ، وقد ارتفعت عيناه إلى عيني :

- خسارة فيه .. اشريه أنت .

ذهبت إلى المطبخ وأحضرت قدح الينسون وعدت إليه ، فقلت لي وهو يشير إلى جانبيه على السرير :

- ما تيجي تقعدى .

صعدت إلى السرير ، وشربنا الينسون في صمت ، وناولني قدحه الفارغ
فأثلا

- حطيه على الكرسي جنبك .. منتزليش من السرير .

كان في صوته رنة أمرة ، وسألتني بصوت خفيض :

- هو خرج .

فقلت له

- أيوه

فمنظر إلى نظرة طويلة ، في عيني وأبتسم ، فابتسمت ، ومد يده إلى ذقني
وأمسك بها ، وقال في أفعال :

- أنت حلوه .. زى السكره أطرقت براسي ، ولم اقل شيئا ، مريت بي
لحظة خاطفة فكوت فيها أن أدفعه بيدي وأخرج من الحجرة .. ولكني لم
أفعل ، كان السرير ليينا مريحا ، كنت أريد أن أستريح فوق هذا السرير ،
وربما لهذا السبب تركته في تلك اللحظة يحتضنني ويعبث بي .

●●

وعرفت من عبد الحميد أفندي معنى التعب ..

صباح مساء ، وعيناه زائفتان ، ويداه لا تكفان عن العبث بي في حمافة
وقسوة ويأس ، والعرق يتصبب منه فيخسلنا ، وأنفاسه تلهث ، وجسده
المترهل يكتنم أنفاسي ..

كان ما بيننا يرهقني ، أكثر من إرهاب الكنس والمسح والغسيل .. وإعداد
الطعام .

لم يكن حبا ، إنما هو عمل مضمّن شاق ، أتلّف أعصابي ، أتلّف جسدي
وحسرتي على شبابي ، وعلى بهجة الحب التي افتقدتها ، كنت أصارع جسدا
محطما ، جسدا لا خيري فيه ، فأذكر عوض وفرحه وضحكاته وعينيّه الماكرتين
وحركاته القوية ، وأذكر مدحت وقدرته وشبابه ، فأندب حظي حرمت نفسي

من الشباب ، وهرمت الشباب ممي ، ويددت كل شيء .. ضيعت جمالي
ويعثرت عواطفني ..

مأقبة هذا الذي أنا فيه ، ما قيمة سيّدة بلا سيد ، امرأة بلا رجل ..

صاحبة بيت ، وصاحب البيت عاجز يعلن كل يوم هزيمته وعجزه .

كان يوسف قد اعتاد المجيء في الخارج بحجة أنه يذاكر مع صديق له ، فلم

يعد هناك ما أخشاه ، كنت أحصل على راجتي الوحيدة وأنا مطمئنة ، حين

يهدأ عبد الحميد ، فينام ويرتفع شخيره ، عندئذ أضع رأسي على الوسادة

وأحاول أن أستريح ولا أنام إلا بصعوبة ، لم أعد أعرف طعم النوم ، عرفت

طعم الموت من التعب .

وعندما افتح عيني في الصباح أفزع من منظر عبد الحميد ، جثة ميتة ،

مستقرم من مرقدها بعد قليل لتفرض على الموت الذي ينهشها .. وأتجاهل بأثمة

أن تمتص الحياة والشباب الذي يمزقني .

كنت أسرع بمفاتيح الحجرة ، وأذهب إلى حجرة يوسف لأطمئن إلى أنه لم

يعد في الليل .

وفوجئت بيوسف يرقد في سريره صباح يوم ..

كنت أنتظر مثل هذا اليوم ، حين يعود في الليل ، ولا يراني راقدة في حجرة

الطعام ليحرف أني أنام في حجرة أبيه .. ليدرك العلاقة التي بيننا وتوقع أن

يشور على أبيه ، وأن يشور أبوه عليه ، ثم يستسلم يوسف ، وأنتصر أنا ..

وحاولت أن أضبط أعصابي فذهبت إلى المطبخ ، وشرعت في إعداد طعام

الافطار ، وأستيقظ عبد الحميد فجاء يطاردني في المطبخ ، قلت له وأنا أدفعه

عني :

- يوسف جوه ..

فهمس في قلق .

- جه امشي ..

قلت له :

- ما أعرفش .. أنا صحت لقيته نائم في السرير

وتبادلنا النظرات .

سألتني عينا .. ما رأيك .. هل عرف .

وأجابته عيناى . طبعاً .. لابد أنه عرف .

وتركنى فجأة ، وذهب إلى حجرته وأغلق بابها عليه . وطل محتملاً حتى استيقظ يوسف ، فوضعت الأطباق على المائدة ، وقلت ليوسف وكان خارجاً من الحمام .

.. صباح الخير .. الفطور جاهز .

فأطرق برأسه وقال في صوت مضطرب :

.. سعيد صباحك ..

ومشي خطواتين ، ثم وقف واستدار ناحيتى . وسألتني في ارتباك :

.. هو بابا لسة نائم ..

قلت له :

.. لا .. صاحى في أودته .

فقال ووجهه حزين ، وصوته يرتعش :

.. أقدر أدخل له ..

واتسعت عينا فجأة ، كأنه أحس بسخافة سؤاله ، وأسرع دون أن ينتظر

إجابتى إلى حجرة أبيه .

أيقنت أنه يعرف .

فضمخ سؤاله ، ما الذى يجعله يتردد في الدخول على أبيه ، ليست هذه عادته ، ما الذى جعله يستأذنى أنا في الدخول ، إنه يعلم ، يعلم أنى شريكة أبيه في حجرته ، في سريره .

وقفت برهة لا أدري ماذا أفعل ، ثم تقدمت ناحية الحجرة ، وكان بابها مفتوحاً ، ووقفت استترق السمع .

كان عبد الحميد أفندى يقوم بدور المريض ، يشكو من الروماتزم ، ومن صداع في رأسه ، وادعى أنه كاد يموت في الليل ، وقال في صوت مرتفع :

.. البت مبروكة ماتمتش طول الليل . فضلت قاعدة على الأرض هنا لحد الصبح .

وكنت لجن ..

طار عقلي ، أو شكت أن اقتحم الحجرة وأصيح فيه أنه كذاب ، أبعد كل هذا يجبن أمام ابنه ويحدثه عنى كما لو كنت خادمة ، يقول له :

.. البت مبروكة . يقول عنى أنا .. البت .. البت مبروكة . أنا التى

يتوسل إليها ، أنا التى يبكى هزيمته على صدرها ، أنا التى يقبض أصابع

قدمها ، أنا التى أضربه على قفاه ، وأدفعه وأصرخ فيه . أبعد عنى خلاص

أنا زعمت منك . أنا التى يسلمها معاشه أول كل شهر ، ثمانية عشر جنيتها

وسبعة وثمانين قرشاً ومليمين ، ويطلب منى أن أصرف كما أشاء ، أليس كما

أشاء . ويقول لى : أنا بعنديش غيرك .. لا عندى ولد ولا أهل ولا حد في

الدنيا غيرك يا حبيبتى .

بعد هذا كله يتحدث عنى كخادمة يقول عنى : البت مبروكة .. كنت قاعدة

على الأرض .

أضاع أمل ، لن يتزوجنى ، أبطن أنه يضحك على .

التهبت رأسى وكنت أطلق صوتى عالياً ، لأجمع الجيران والناس في

الشارع ، ولأمسك بعبد الحميد أفندى أشده من رقبتى وأطعمه أمامهم ..

ليشهدوا كذبه وخديعته لى .

وجريت إلى المطبخ قبل أن أصرخ ، وقفت وسطه كالمجنونة ، أريد أن أحطم

أى شيء . ثم ذهبت إلى الباب وفتحته وخرجت إلى الشارع .

سرت على غير هدى ، ابحت عن مكان ليس فيه أحد ، لأبكي ، كانت راحتى

في البكاء . ولكنى لا أريد أن يرى دموى عبد الحميد أفندى أو يوسف ، أو

الناس ، لا أريد أحدا يرانى في لحظة تعاستى ، لقد مضت شهوراً وأنا أعامل

نفسى كمسيحة . وإن يرونى إلا سيده ، وسأظل سيده رغم أنهم جميعاً .

وصلت إلى الميدان ، ووقفت عند محطة الأتوبيس التى هبطت منها مع

عبد الحميد أفندى لأول مرة ، من هنا بدأت تعاستى ، من هنا بدأت أخوص

المعركة ، وفكرت في أن أعود .. أعود إلى بيت وأتب لأعيش كخادمة أعود إلى قريتي لأعيش مع أمي أعود إلى أيام الماضي ، أعود إلى ستي الكبيرة ، أعود إلى طفولتي التي نسيتها ، أعود إلى بطن أمي .

ومسحت الدموع من عيني ، إنني لا أستطيع للعودة ، كل ما تعرفه قدمائي هو الطريق إلى البيت ، الطريق إلى حجرة عبد الحميد أفندي .

وتحركت قدمائي ، وعدت إلى البيت فلم أجد أحدا فيه ، لا يوسف ولا عبد الحميد أفندي ، ففرغت ، ظننت أنهما هجرا البيت ولن يعودا إليّ ، خيل لي أن عبد الحميد أفندي قد هرب مني قبل أن أفضحه أمام الناس وسيطر الخوف على قلبي ، وضيق البيت بي ، حاصرتني جدرانها ، طردتني حجراتها ، فأتكملت على نفسي ، وأنزويت في ركن بالمطبخ ، عابضة عن التفكير ، لا أرى ولا أسمع والغياء يطن في رأسي .

لست أدري كم مضى من الوقت ، وأنا على هذه الحال ، حتى انتفضت على صوت عبد الحميد أفندي يصيح

- مبروكة .. يامبروكة .

وقابلته عند باب المطبخ ، صاح

- أنت خرجتني في الصباح ؟

لم أفهم سؤاله ، كنت قد نسيت كل ما حدث في الصباح .

فقلت له لي وجوم :

- ولا حاجة ..

فنظر إليّ في دهشة وقال :

- مالك .. وشك متغير كده ليه

رددت في غير فهم :

- ولا حاجة .

فأمسك بيدي واحتضنني .. وقبل في نهم ، واستسلمت له كالنائمة ، ثم قلت فجأة وقد تذكرت :

- خرجت علشان أزور ستي الصغيرة .

فسألني متعجبا :

- ليه وزدتيهم ..

قلت وأنا أحاول أن أتذكر المزيد .

- لا .. رجعت ثاني .

قال ضاحكا :

- لازم معرفتيش السكة .

وأخرج من جيبي ثلاثة جسيهات ، مد يده بها فأخذتها منه في صمت

قال وهو يقبلني :

- دول بتوع الدروس الخصوصية .. الامتحانات قربت ، روح ابتدي اشتغل .. اتلفت مع عيلة عندهم أربعة أولاد .. خدتهم مقالة .. الحصة بتلاتين قرش .

فلزمت الصمت ، كنت أفكر كيف أواجهه بغضبي ، لقد ضاعت فرصة الثورة ، كل ما أشعر به الآن هو حزن طاع ، حزن أسود .

ولم أفتحه أبدا فيما حدث منه ، كلما مضى الوقت ، شعرت بصعوبة كبيرة في أن أسأله لماذا تحدثت عني كخادمة أمام يوسف ، كنت أشعر أن مجرد سؤاله فيه إهانة ونزلة لي :

ولاحظ حزني ، فكان يسألني لماذا لا أضحك ، وما هي الهموم التي تشغلني ، ولا ينتظر مني الإجابة ، كأنه لا يصدق أنني حزينة أو مهمومة .. لو كانه لا يعنيه هذا ، فيتهمني بأنني مثل بقية شباب هذه الأيام ، قلبي عجوز لا يعرف الضحك ، ويدق على صدره ، ويعلن في زهو أن قلبه هو الذي يعرف الشيايب والمرح ..

وشغلته الدروس الخصوصية ، فكان يخرج عصر كل يوم ولا يعود حتى التاسعة أو العاشرة مساء ، يدخل البيت وهو يلهو ، ويجلس على أقرب مقعد من الباب حتى يسترد أنفاسه ، ثم يتجأى بالمساعات الطويلة التي قطعها مشياً على قدميه ، ليحرك عضلاته ، وليثبت لنفسه أو ليثبت لي أنه مازال شاباً قوياً .

واستترحت لخروجه ، فلم يعد يطار دنى كل ساعة وكل دقيقة . وكنت أخلو
لنفسى وهو غائب عن البيت أفكر فيما ستأتى به الايام فلا أصل إلى نتيجة .
وأحاول أن أدبر أمرى فأحترق فيما يجب أن أقدم عليه حتى يتزوجنى .
إلى وثقة من حبه لى . إنه عبد لى .. ولو طلبت منه أى شئ فسيحققه لى
فوراً ، فهل أقول له صراحة أن يتزوجنى .. هذا هو الطلب الوحيد الذى أخشى
أن أطلق به ..

وحدث أن دخل عبد الحميد أفندى البيت منكراً على غير عادته بعد غروب
الشمس بقليل ، وسألنى عن يوسف فقلت له إنه كعادته يذاكر مع أصحابه
فدخل حجرته وأخذ كتاب شطرنج ثم اتجه إلى باب الخروج .

سألته فى غضب

- أنت رايع فين ؟

فقال :

- على القهوة ..

صحت فيه :

- وح تسيبني لوحدي ؟ ..

فانهار فى الحال ، وأحمر وجهه وقال معتذراً لى صوته خوف .

- أبدا يا حبيبتي .. أنا بس بقالى مده مرحتش لهم ..

قلت له فى لوم .

- ما أنت بقى معاك فلوس .. هايز تقنجر بيها لوحدي .

فأسرع إلى وقف أمامى متوسلاً

- أنا موش باديلك كل ملهم يوصلنى . الجنه الزى فى جيبي واخده منك .
كده وإلا لا .

ولم أترجع ، لم أرحم توسلاته . صحت فى حدة :

- واخده علشان تنفس لوحدي .

فنظر لى فى دهشة وقال

- طيب ما تزعليش .. أقعد فى البيت .. بلاش أخرج .

قلت :

- وليه ما تفسحنش أنا كمان ؟

قلربك ، وارتبكت أنا أيضاً ، فعلى الرغم من أحلامى الكثيرة عن الزواج
به ، وأن أكون سيدة هذا البيت ، لم يخطر ببالى مرة واحدة أن أحلم بالخروج
معه للفسحة .. لقد عشت طوال هذه السنوات لا أعرف ما هى الفسحة ، كان
الخروج من بيت راتبك عملية خطيرة ، هجريات الجيش الانجليزى لا تنقطع
عن المرور فى الشوارع ، والغارات كانت تفلحنا بين ليلة وأخرى ، وكان
مدحت يتحدث عن السينما والأفلام ، ولكنى لم أذهب إليها أبداً ، ولم أطلب
من أحد أن يأخذنى إليها ، لأنى كنت فى فرة نفس خائفة منها ، كانت
مرتبطة فى خيالى بالظلام والأشباح والعفاريت والخروج فى الليل الجالك الذى
تلول فيه صفارات الإنذار ، ثم العساكر الانجليز السكارى الذين يصلون
الشوارع ويحدثون على البنات .. فلم أذهب أبداً إلى السينما .

وكانت الغارات قد انقطعت قبل أن أترك بيت راتبك ، وإن ظلت
الشوارع مظلمة ، والراديو مازال يذيع أخبار الحرب ، والعساكر الانجليز
مازالوا يطوفون بالشوارع فى الليل ، وكنت أسمعهم بعد منتصف الليل وهم
يفنون ويتصايحون فى شارع الفلكى غارتمد خوفاً ، وأدعو الله أن ينجينى
منهم .. وألفيت من أحلامى الخروج للفسحة .

قال عبد الحميد أفندى مستسلماً :

- تعالى يا ستي افسحك .. تحبى تروى فين ؟

قلت له :

- أنا عارفه ..

ثم قلت فجأة . وكأنى أتحداه واتحدى نفسى

- ودينى الصعيا ..

فايتسم وقال :

- حاضر .. غالى والطلب رخيى ستواند فتحت حنيا من يومين .

الفصل الخامس

ذات مساء .. دخل يوسف البيت وأنا جالسة مع عبد الحميد أفندي على مائدة الطعام نتناول عشاءنا ، فلم يلتفت إلينا ، ومضى مسرعاً إلى حجرته وفتح بابها بعنف ..

وسألني عبد الحميد في قلق :

- الولد ماله ؟

أدركت أن يوسف غاضب من جلوسى على المائدة مع أبيه ، فرفض أن يحيينا ، وتجاهلنا معبراً عن احتجاجه .. ولكنى لم أكتفِ لفضبه ، وصممت على أن أواجهه ، وليكن ما يكون .. لن أتنازل عن حقوقى التى اكتسبتها ، وإن أرفض أن يعاملنى وكأنى ما زالت خادمة .. بعد كل ما صار بينى وبين أبيه .. ونهض عبد الحميد أفندي قائلاً في انفعال :

- أنا رايح أشوفه .. ازاي يدخل كده من غير ما يسلم على ..

وخرج من حجرة الطعام ، ورأيت يلتفت إلى ناحية الباب الخارجى ويسرع إليه ، ثم سمعت صوتاً عالياً يسأل في قلق :

- إيه .. فيه حاجة .. عايز مين ؟

وأجابه صوت لجش :

قلت له في غيرهم :

- ستراند دى إيه كمان ؟

فقال :

- سيما صيفى .. ح تشوف فيها فيلمين ..

وسأله محاولة سترخوى

- ودى بيخشها عساكر انجليز ؟ فضحك قائلاً وقد تلفخ صدره :

- ماتخافيش .. معايا ..

قلت له وأنا أريد أن أذكره وأسخر منه ..

- ح تقدر تعمل إيه قدام العسكرية الاتجلىزى ..

فلوح بقبضة يده ، وقد احتقن وجهه ، وهتف :

- أنا أضرب عشرة زيه .. أنت معلقى سبع ..

فأطلقت ضحكة عالية وهتفت ساخرة :

- لا .. يا شيخ ..

وذهبنا إلى السينما ، لم أفهم منها شيئاً ، ولا زمنى الخوف أغلب الوقت . وكانت عيناى تدوران في قلق وراء كل عسكري إنجليزى يتحرك داخل السينما ، وحاول عبد الحميد أفندي أن يشرح لى الفيلم ليدخل كلامه في أذنى اليمين ليخرج من أذنى الشمال ، ومع ذلك كنت مصروقة ، ولا أريد أن أخرج من السينما ..

وقلت لعبد الحميد أفندي ونحن عائدان إلى البيت :

- أنا عايزه أشوف ليل مرار ..

فقال لى :

- حاضر ..

ثم أردف قائلاً :

- المرة الجاية اوديكى فيلم عربى ..

وأحسست أنه مسرور أيضاً ، لأنه ذهب إلى السينما معى .. فنظرت إليه في حنان كبير .

- أنا جاي مع الأفتدى ..
- سمعت الصوت في دهشة .. وقمت على صباح عبد الحميد أفتدى :
- ليه .. هو عمل إيه ؟
- ولجاب الصوت :
- حضرة المأمور باعتنى معاه ..
- ووصلت إلى الباب ، لأرى شرطياً يقف خارجه ، وعبد الحميد أفتدى يسأل
- عايزه ليه ؟
- فأجاب الشرطى :
- والله ما أعرفش ..
- صحت في ظهر :
- إيه اللي حصل ؟
- ولكن عبد الحميد أفتدى لم يسمعنى ، ودفعنى بيده ، وأسرع إلى حجرة يوسف .. فتبعته ..
- كان يوسف يقلب أوراقه وكتبه ، وقد بعثرها على السرير .. فسأله عبد الحميد أفتدى في خوف :
- إيه يا أبنى اللي حصل ؟
- ولا حاجة يا بابا .. عايزين بطاقة الجامعة ..
- فنهتف :
- أنت عملت إيه ؟
- فصاح يوسف في عصبية :
- بأقول لك ما عملتش حاجة .. المأمور عايز يشوف البطاقة ويخلص ..
- فصاح عبد الحميد أفتدى :
- وعايز يشوفها ليه ؟
- مزاجهم كده ..
- قال عبد الحميد أفتدى في غضب :

- أنت مخبي حاجة .. أنا جاي معاك ..
- وأسرع إلى حجرته .. فتبعته .. وساعدته على ارتداء ملابسه ، وهو يمتص في ذهول :
- مصيبة .. مصيبة يا مبروكة ..
- وخرج الاثنان مع الشرطى ، وتركاني وحدى أفكر في هذه المصيبة المفاجئة ..
- توقعت أنهم سيلقون بيوسف في السجن ، وحاولت أن أحد سبباً للقبض عليه .. فاحترت .. هل سرق ، هل قتل .. مستحيل أن يفعل يوسف هذا .. إذن لماذا قبضوا عليه ؟
- ورفعت صوتي في البيت الخالى :
- ربنا ينجيه .. ربنا ينصره على من يعاديه ..
- وسألت نفسى فجأة : هل كنت أشي بيوسف وأتهمهم ظلماً أو اعترض على زواجى من أبيه ، هل كنت ألق له تهمة لتقبض عليه الشرطة ، ويلقوا به في السجن .. فأتخلص منه ؟
- وضايقتنى أن هذا السؤال طاف بخاطرى ..
- قلت : مستحيل .. هذا حرام .. لا يمكن أن أنظلم أحداً .. لا يمكننى أن أنظلم يوسف ..
- وهمس في داخلى صوت خبيث : أنت طرفة يا مبروكة لأنهم قبضوا عليه ، لأنهم خلصوك منه .. الآن سيخلو لك الجو ، ستفردين بعبد الحميد أفتدى ، وإن تكون هناك عفة تعترض زواجك به .. ستأخذين مكان يوسف ، ستصيرين زوجته وابنته وكل شيء في حياته ..
- ودخلت حجرة يوسف ، وجلست على سريره ، أنظر إلى الأوراق والكتب المبعثرة عليه .. وقلت لنفسى : سأنام على هذا السرير ، وستكون هذه الحجرة لى .. وفكرت كم من الوقت يجب أن أنتظر حتى أستطيع أن أجمع ملابس يوسف وكتبه ، وأعد الحجرة لى ، دون أن أثير غضب عبد الحميد أفتدى وأحزانه ..

كنت أفكر كما لو كان يوسف قد مات ، وبدأت أعد نفسي لاستقبال عبد الحميد أفندي عند عودته ، واختار الكلمات التي سأقولها لأواسيه ، وكنت أشعر بثقة كبيرة في قدرتي على تخليصه من أحزانه ، وألا أتركه يتدفق وراءها ويستسلم لها . كنت لن أسمع لأحزانه بأن يقصد مشاريعي في الزواج ، أو تزجها .
وفتح الباب ..

وإذا بعبد الحميد أفندي يدخل وراءه يوسف .. نظرت إليه وكأنه شبح ، ولكني فرحت .. فرحت من قلبي لعودته ، وفرحت لأن أفكارى الخبيثة لم تمنعني من الفرح عند رؤيته ..

وجريت نحو يوسف ، وكدت أعانقه وأقبله ، وشعرت نحوه بعين جارف وكأنه أضي ، أو ابني ، وقلت له وأنا أرسل له القبلات من عيني .
- حمد الله على سلامتك .. والله أنا اتخضيت .. وكنت قاعدة موش على بعضي ..

قال لي في ارتباك :

- ما أنا قلت ما فيش حاجة .. كانوا عايزين يشوفوا البطاقة .. وأهم شافوها وخلاص ..

وكان عبد الحميد أفندي محتقن الوجه ، يكتم ثورة تحتم في صدره .. نظر عبد الحميد أفندي ناحية حجرة يوسف ، ثم تقدم إليها مندفعاً كأنه يهاجمها ، وتبعته أنا ويوسف .. وأمسك عبد الحميد أفندي بالأوراق والكتب التي في الحجرة ، وجعل يقرأ فيها .. ثم صاح صيحة مدوية ، جعلت قلبي يقفز فيرطم بطلوعي :
- إيه اللي كاتنه ده ..

نظرت إلى الأوراق التي في يد عبد الحميد أفندي في خوف كأنه يمسك بشعبان سام ، طهر فحاة من مخبئه .. لم أكن أتوقع أن أجد جريمة بين هذه الأوراق ، التي كنت أجلس إلى جوارها منذ لحظت ..
واقترب يوسف من أبيه ، ونظر إلى الورق ، ثم همس :

- دي قصة ..

وقرأ عبد الحميد أفندي :

- الحب الأول ..

والتفت إلى يوسف ، ويده ترتعش ، وشفتاه ترتعشان ، وجسمه يتقلص .. وصرخ :

- حضرتك بتكتب قصص حب .. يعني ما ذا كرتش .. يعني كنت بتلعب طول المسنة ..

ولم أتابع كلامه .. تذكرت سعاد ويوسف يقف معها في السطوح .. تذكرت ساعة المغرب وهو يقبلها في خجل ، ثم يفرقان في صمت طويل .. تذكرت يوم جاء في الصباح بعد أن خطبها الدكتور ، كان يومها يريد أن يقول شيئاً .. كان يريد أن يقول لها تلميذتي أنا .. انتظرتني حتى أحصل على الشهادة ، ولكنه سكت ولم يقل شيئاً ..

أيقنت أنه ما زال يحب سعاد ، وأشفقت عليه .. قلت لنفسي : إنه حبيب .. وتمنيت لو قرأ عبد الحميد أفندي ما كتبه يوسف بصوت عالٍ ، حتى أعرف ماذا يقول عن سعاد ، وكيف يفكر فيها ..
ولكنه القى بالأوراق على الأرض .. واستمر يلمص الأوراق الأخرى ، وهو يصيح بين لحظة وأخرى :

- أدى قصة كمان .. والله عل ..

واشتد هياج عبد الحميد أفندي .. فوقف وسط الحجرة ، وقد أصبح وجهه في لون الدم ، وعيناه جاحظتان .. ورفع صوته قائلاً وهو يدين بقضمه على الأرض :

- والله العظيم ثلاثة .. لو سقطت في الامتحان ، لأنا طاردك من البيت ..

لا أنت ابني .. ولا أنا أعرفك ..

وذهب إلى حجرتي .. فسأعنته على خلع ملابسه .. وركب على السرير وهو يتقلص ، وأنا أحاول أن أسري عنه . وقد شعرت بأن من واجبي أن أعطيه حناناً ساعة تعاسته ..

منذ تلك الليلة ، لازم يوسف البيت ، وحبس نفسه داخل حجرته .. وكان إذا غادرها ، يرانى مع أبيه ، اجلس إلى جانبه وأضحك معه ، واتصرف كثنى زوجته . ولا بد أنه فهم كل شيء ، إذا لم يكن قد فهم من قبل .. ونجح يوسف في الامتحان ، مكنت أشدهم فرحاً .. أما يوسف فلم يبد عليه أى اهتمام بالشهادة التى حصل عليها .. وكذلك عبد الحميد أفندى ، كان يتنهد في أسى ويقول لى شارحاً :

- نجاح مقبول .. يعنى موش ح يتوظف في النيابة .. قلت له :

- وليه ما يوظفهمشى .. هم عايزين إيه أكثر من الشهادة .. فقال لى ضيق :

- لازم يكون ممتاز .. موش ينجح على الحركك .. ده نجاح زى قلته .. قلت له لى غير فهم :

- أنت ح تعقدها ليه .. أهو نجاح وخلص .. ممتاز إيه ونيلة إيه .. وجاء يوسف يطلب من أبيه جنيهاً ، فرفض أن يعطيه مليماً واحداً .. وقال له فاضحياً :

- أنا عملت اللي على .. لازم تشوف لك إيه شغلة .. أنا ما أقدرش أصرف عليك .. عايز تقعد معايا تاكل وتشرب وتنام .. أهلاً وسهلاً ، إنما أدليك فلوس تتفصح بيها .. ما عنديش ..

ولكن عبد الحميد أفندى كان يحاول جاهداً أن يبعث عن وظيفة ليوسف ، فكان يخرج كل صباح ويذهب إلى راتب بك في بيته ، ليحدثه عن مستقبل ابنه ويطلب منه وساطته ..

وانتهزت فرصة خروج عبد الحميد أفندى ، وذهبت إلى يوسف في حجرته وأعطيته الجنيه الذى كان يطلبه ..

فنظر إلى دهشة ، ورفض أن يأخذ الجنيه .. فقلت له :

- إيه .. مكسوف .. دى فلوس أبوك ..

ووضعت الجنيه على المنضدة .. ثم ضحكت وقلت له .. والنبي تقرا لى الحكاية اللي كتبتها .. فاضطرب ، وتلعثم ، وهو يقول :

- عايزانى اقراها ليه .. قلت له :

أصل اسمها عاجبنى .. الحب الاول ..

قتل في خجل :

- دى كلام فارغ ..

ورغم الحاحى الشديد ، لم أستطع أن أقدمه بقراءة القصة .. فتركته وأنا اتحصر على جهل بالقراءة والكتابة ..

كنا في الصيف .. والدنيا حر .. فاحسست بالضمول يسرى في جسدى .. لم اعد نشيطة كما كنت ، أنظف نصف البيت وأكسل عن تنظيف الباقي .. ولا أجد رغبة في دخول المطبخ ، أو عمل أى شيء .. فكنت أجلس على مقعد واغفر ، ثم افئق وأنشط قليلاً .. فيصيبني وجم مفاجئ ، واضطر إلى دخول الحجرة والنوم على السرير ..

وظننت أن سبب ضعفى وكسل هو الجوع ، فأكثرت من الأكل .. وكنت بين ساعة وأخرى ، ادخل المطبخ والنهم أى شيء ، قطعة جبن أو حلوة طحينية وزيتون ، وأتوقع أن أصحو وأنشط ، ولكن الوخم يعاودنى .. واستيقظت صباح يوم ، فإذا بغثيان شديد يدهمنى .. فذهبت إلى الحمام وأفرغت ما في جوفى ، وعدت إلى السرير ونمت . وطوال اليوم والغثيان يعاودنى ، وأنا لا أدري ماذا حل بى . وعرض على عبد الحميد أن يصحبنى إلى طبيب ليكشف على ، ولكنى رفضت وقلت له :

- شوية برد .. بكرة حيروحوا ..

ولكن المرض لازمى .. وفكرت أن اذهب إلى الطبيب .. لولا خاطر خفى

كان يدور في رأسى ويفزعنى ..

قررت أن أنتظر حتى نهاية الشهر ، لأتأكد أن ما خطر لى غير صحيح ..

ومرت الايام وانا انتظر وانتظر .. ثم ايقنت ان ما خرجته كان صحيحاً وان
 قرعى حقيقى .. فانا لست مريضة .. انا حامل ..
 لزمت الفراش .. وانا اتمنى لو اموت عليه .. حتى اتخلص من فضيحتى ..
 كنت خائفة من نفسى .. خائفة من امى .. خائفة من عبد الحميد افندى ..
 خائفة من هذا الذى فى بطنى .. حكم على الزمن بان احمل فى الحرام ..
 وكان خوفى الاكبر من الله .. انه ينظر الى .. اينما تلتفت لا ارى سوى رهيته
 وغضبه .. فانكمش فى فراشى واغمص عيني .. واتمنى لو اغمضتهما الى
 الابد .. واسى كل شيء ..
 وانتظرت حتى جاء الليل .. ووجد عبد الحميد افندى الى جانبي .. وقد اطلق
 النور .. ومد يده يريدنى .. فهمست :
 — انا عايزة اقول لك حاجة ..
 قلل وهو يطوفنى :
 — ايه .. ياروحى ..
 — انا باين على حامل يا عبد الحميد ..
 فسحب يده كانى شككتها بدبوس ..
 — ايه .. ازاى ..
 وظل يستجربنى .. ويتشكك فيما اقله .. ثم نهض من على السرير ..
 واضاء نور الغرفة .. ووقف محملاً والقباء يطل من بينه ..
 وبكيت ..
 وانهمرت الدموع من عيني .. تغسل وجهى .. وانا استند منها المزيد عليها
 تفسل فضيحتى .. وحاول ان يهدئنى :
 ما تخافيش يا مبروكة .. انا ح اشوف بكرة دكتور يخلصك منه ..
 — اعمل معروف .. استر فضيحتى .. إن شاء الله اسوت .. بس بلاش
 انفضح ..
 وفى الصباح خرج .. فتوقعت انه سيعود لياخذنى الى الطبيب .. ودهمتى
 الافكار السوداء .. وفكرت ان اذهب الى يوسف واخبره .. كنت اشعر انه اعقل

من ابيه .. والله قد يساعدنى فى مصيبتى .. ولكنى ترددت .. وخشيت ان ابوح
 له بسرى ..
 وعاد عبد الحميد افندى ساعة الظهر .. وقال لى وهو يخلع ملابسه :
 — هيه .. عملتى ايه ؟
 قلت له :
 — انت اللي عملت ايه ؟
 فسكت برهة .. ثم قال فى حيرة :
 — ما عملتش حاجة .. رحت القهوة .. فيه هناك الدكتور بيبجى بعض
 ساعات ..
 وسكت ..
 — وكلمته ؟
 — لا .. حاجاش النهاردة ..
 وكنت اقول له :
 — بلاش تكلمه .. تتجوز احسن ..
 كنت فى موقف يسمح لى بان اطلب منه الزواج .. ولكنى خفت ان يرفض ..
 ولم اكن استطيع ان اتحمل الرفض .. ومنذ تلك اللحظة غيرت افكارى ..
 لم اعد اريد التخلص من حملى .. كنت اول الامر انظر اليه كشئ حرام ..
 فاندفعت وراء فكرة الخلاص منه .. اما الآن .. لانا اريد ان اعرف كيف
 سيتمصرف عبد الحميد افندى .. اريد ان اعرف لماذا لم يعرض على الزواج ..
 ومرت الايام .. وعبد الحميد يذهب الى المقهى .. ويعود الى ليقل انه لم يجد
 الطبيب الذى يعرفه .. وكنت استريح لكلامي .. واطمئن لانه لم يفكر فى الذهاب
 الى طبيب آخر .. إنه متردد .. لا بد انه يفكر فى الزواج ..
 وزاد اطمئنانى عندما عاد من المقهى وقال لى :
 — يا مبروكة .. الدكتور جه النهارده .. وكنت عايز اكله .. ولكن
 ما قدرتش ..
 قلت له وانا اكتم فرجى :

- ما قدرتش ليه ؟
- فزقر الهواء من رقتيه وقال
- ح اقول له ايه .. فكرت اقول له ان الحكاية دي بتاعة واحد صليبي ، لكني برضه ما قدرتش اكسفت
- لمسائه في لهفة :
- يعني ح اعمل ايه ح تسييني كده فاطرق في وجوم ..
- وكانت فرصتي التي انتظرها احسن حاجة .. تتجوزني .
- قل مطرقاً براسه .. فصحت فيه .
- ايه .. موش عايز تتجوزني ؟
- فرفع راسه ، فرأيت حيرته .. وانطلقت اقول في هددة :
- أنا موش رايعه لذكور .. ماسييدش يموتني .. اللي في بطني منك .. ولازم تشوف خلاصك فيه ..
- ورفعت صوتي .
- والله ان ما اتجوزتنيش ، لانا رايعه لراتب بك وقايلاله .. ح اقضحك في العالم ده كله .. أنا ما بهمنيش ويحصل الي يحصل ..
- قال وكأنه يحدث نفسه .
- يا مبروكة .. اعمل معروف .. كفايه اللي احنا فيه .
- احسست انه يراوغني . ويتظاهر بأنه مهموم ، حتى اكف عنه .
- فزعقت :
- ح تتجوزني واللا ؟
- قال لي استسلام الياس
- طيب .. طيب .. بس اديني فرصة ..
- قلت في غل :

- وفرصة دي تبقى ايه .. ياسي عبد الحميد
- كنت اشعري قوة هائلة ، تجعلني قادرة على افتراسه ، على اكله باسناني ، على مضغ لحمه العجوز ..
- انذرتني بانني سأخرج من البيت في الحال ، لأفضحه في هذه الساعة ، سأذهب إلى قسم الشرطة وأحكي لهم ما فعله في ، إذا لم يرض بالزواج مني فوراً .
- وهممت ناحية الباب ، فجري خلفي ، ولون وجهه اذنق كزهرة الغسيل ، وقال لي في ارتياح :
- خلاص .. ح اتجوزك .. أنا ما قلتش حاجة ..
- قلت في لهجة البرية :
- روح هات المانون ..
- فقال لي وجل :
- حاضر .. حاضر .. بس روقي شويه ..
- وفي هذه اللحظة ، دارمفتاح الباب ، ودخل يوسف .. ولف برهة ينظر إلينا بعينين متصائلتين ، احس ان هناك شيئاً ما ، فقد قابلناه في وجوم ، وقد ران علينا صمت مريب ..
- وذهب يوسف إلى حجرته ، تتبعه نظرات عبد الحميد الهندي ثم تظروا ان مستجداً
- ايه .. خايف من ايه ..
- قال متوسلاً بصوت خفيض :
- يا مبروكة .. بلاش الكلام ده بلوقت .. ما خلاص ..
- قاطعته :
- ان كنت خايف منه ..
- قال هامساً :
- بس روقي .. رينا يهديكي ..
- ثم قال في صوت يكاد لا يسمع :

- موش لازم اكلمه ؟

- ما تكلمه .

- فجعل يهز رأسه في حركة عصبية ، ويكرر كالمذهول .

- حاضر . حاضر . حاضر .

ومشى مترنحاً إلى مقعد وجلس عليه وقد شحب وجهه وقال وهو يلهث :
- أنا ح أموت ..

ورفع إلى عينيْن فيهما استعطاف .. وقال :

- سيبيني استريح .. أنا موش قلدر أخذ نفسي ..

وانزعجت عليه ، شعرت أنه صادق في استعطافه .. وانتابني حنان مفاجيء وخوف على حياته ..

- أحبيب لك كباية ميه ..

فقال وهو يلهث :

- لا .. أنا عايز استريح ..

ثم نهض واتجه مترنحاً نحو غرفته ، فامسكت به خشية أن يقع حتى أرقدته على السرير ..

وبقيت إلى جواره بقية النهار ، أحذر عليه ، حتى هدا واستراح . ولما جاء الليل جلست إلى جواره في السرير ، فضحك وثرثر دون أن تطرق موضوع الزواج ..

وفي الصباح قلت له :

- يوسف بيلبس وخارج .. موش ح تقوله ..

فمسكت برهة ثم قال في ببطء :

- طيب .. أندهي له ..

وذهبت إلى الباب فاستوقفتني قائلاً :

- اسمعي .. معاكى خمسة جنيه ؟

- عايزها ليه ..

قال وهو شارب :

- ادبها له .

قلت مرحبة :

- من عيني ..

وأعطيت النقود ، فوضعتها إلى جانبه تحت الوسادة .. ودخلت مع يوسف

على أبيه ، وأنا متحفزة للهجوم على الأب لوتراجع . وعلى الابن لواعترض .

ولكن عبد الحميد أقننى فأجأنى قائلاً

- سيبينا لوحدنا يا مبروكة ..

فنظرت إليه نظرة طويلة ، فهمها .. قلت له بعيني إنى لن أسكت لو

تخاذل ..

ووقفت خارج الباب ، فإذا بيوسف يفلقه .. ومضت دقائق طويلة وأنا

لا أسمع شيئاً .. ثم ارتفع صوت يوسف ثائراً .. وطراقت أذننى كلمات

هادرة . مستحيل يا بابا ، أنت بتخرف .. أنا أموتها .. وتروح في ستن

داهية ..

وأوشكت أن أقتحم الغرفة ، لأكيل له البشائم .. وقبل أن تمتد يدي إلى

الباب .. انفتح ، ورأيت يوسف يتدفع منه يكاد يرتطم بهي ..

صمت فيه بأعلى صوتي :

- بتقول إيه ياسى يوسف .. عايز تموتنى .. أنا اللي ح أوديك أنت وأبوك في

ستين داهية ..

ولطمت على وجهي ، ومزقت شعري بيدي ، وأنا أصرخ بأعلى صوتي في

جنون ..

- يا دهنوتى .. يا مصيبتى .. تعالوا شوقوا اللي جرى ..

وقف يوسف متسماً ينظر إلى في فزع ، ثم جرى إلى باب الشقة وخرج

منه ، بعد أن صفقه وراعه صفقة مدوية .

الفصل السادس



خرج يوسف غاضباً في الصباح وجاء الماذون في العصر ليعقد الزواج جلسنا إلى مائدة الطعام ، والد وضع الماذون دفتره أمامه ، وجلس عبد الحميد أفندي عن يمينه ، وأنا عن شماله ، ووقف إلى جانبنا إبراهيم الباب ، وقريب له ، ناداهما عبد الحميد أفندي ليكونا شاهدي العقد .

كان الجو كئيباً ، يختلف تماماً عن جو الفرح يوم زواج سعاد بنت راتب بك ، لا مدعوين ، ولا أكواب شربات ولا ضجة ، ولا فرحة ، وإنما وجوم وتوتر ، وإبراهيم الباب وقريبه ينظران إلينا في جمود يعلم الله وحده ماذا يضيفان وراعه ، وماذا يقولان عنى أو ماذا يقولان عن عبد الحميد أفندي .

وكان الماذون رجلاً عجوزاً ضعيف السمع ، يسأل في فظاظة وإلحاح عن كل شيء ، كانت أسئلته تقتحمنا في غير رحمة فيجيبه عبد الحميد أفندي بهمس مرتبكاً ، كأنه يهمس إلى نفسه محاولاً ألا يسمعه أحد ، ولكن الماذون كان يلح عليه ، ويكرر السؤال ، ويطلب منه أن يرفع صوته ، ويتشكك في الإجابة ، ثم يزعم بصوت يخرق لاذتنا مردداً ما كان عبد الحميد أفندي يتعنى ألا يسمعه أحد .

زعم الماذون معلناً أن عمر عبد الحميد واحد وستون عاماً ، وأنه أرمل وأنه على المعاش ، وكان عبد الحميد ينتفض لسماع هذه الحقائق ، وتضطرب

نظراته ، وترتجش شفاته ، كأنه يتلقى صفعات قاسية لا يستطيع أن يتفادها

وسألني الماذون عدة أسئلة جعلت قلبي يدق ورأسي يدور ، كانت أسئلته كالاتهام ، كالسباب ، كالأهانة .

وأجبتة وأنا أكذب إنني مارلت بكراً ثم نظرت إلى إبراهيم البواب وإلى قريبه ، فصدمتني عيونهما الجامدة كالخائض السميك ، وصاح الماذون في غلظة يسألني عن عمري . فتلعثت وعجزت عن الكلام ، فقال له عبد الحميد إن عمري تسعة عشر عاماً . فنظر إلى الماذون في شك ، وتقرس ، بعيون وقحة في صدري وجسدي ليتأكد أنني بلغت سن الزواج .

كانت لحظات قاسية مرت بي كالكابوس ، فلما تم كل شيء وانصرف الجميع ، شعرت بإرهاق شديد ، ولم أشعر برغبة في الكلام ، لوحني في رؤية عبد الحميد . وكان هو الآخر بعيداً عني ، شاردأ صامتا ، كنا وكأننا ارتكبنا ذنباً لا يغفر ، وكأننا نخشى أن يكون الماذون مازال مخبئاً في البيت يتجسس علينا . وينتظر منا كلمة نقولها ، ليعلنها مدوية .. ويسجلها في دفتره .

وقام عبد الحميد وذهب متثاقلاً إلى حجرته ، وتركني وحدي ، حاولت أن أنهض وألحق به ، ولكنني شعرت بخجل مفاجئ نحوه ، تحول إلى رجل غريب عني ، تحول إلى إنسان آخر لا أعرفه وأحسست أنني قد تحولت أيضاً وأصبحت قريبة من نفسي ، لم أعد مبروكة ، ولم يعد هو عبد الحميد .

مبروكة التي كنت أعرفها . كان في صدرها ، صوت يتحدث ويهمس بلا انقطاع ، وكان هذا الصوت يحركني ويدفعني إلى ما أريد ، كان ينصحنني ويشجعني ، وهو الذي ساعدني على أن أصل إلى ما وصلت إليه بالزواج من عبد الحميد أفندي .

والآن .. انتقد هذا الصوت ، إنه لا يحدثني بشيء ، تخلى عني ، ليس في صدري سوى صمت وفراغ وكآبة . ليس في صدري سر ، ليس في صدري رغبة ما ، أنا الآن في موقف جديد لا أدرى عنه شيئاً ، أنا الآن بلا ماضٍ ذهبت مبروكة الخادمة ، اختفت ، بأمانيتها وأحلامها وطموحها ، لم يبق سوى هذا

الجسد المرهق ، للعائر الذي لا يعرف كيف يواجه اللحظات القادمة .. وعبد الحميد .. ليس هو الآخر في موقف جديد ؟ لقد فقد هو الآخر ذلك الحديث الخفي بينه وبين نفسه ، عندما كان يظن أن علاقته بي هي عودة شبابه وحيويته ، هي عودة مغامراته أيام كان له شارب مفتول يقف عليه الصقر ، أيام كان يستولي على المرأة برجولته ويفوز بها بلا وثيقة أو وعد .. لاشك أن هذا الحديث الذي كان يتعلق به نفسه قد اختفى الآن ووجد أنه في موقف جديد لا يدري عنه شيئاً .

أولطه عاد بذاكرته إلى زواجه الأول من أم يوسف ، ولكنه يعلم جيداً أنني لست مثلاً ، وأنه لا يتوقع أن أموت وأتركه مثلاً فعلت هي ، بل لعله يفكر في أنه هو الذي سيموت ويتركني أنا .. مسكين .. لقد كان هذا الزواج هو خاتمة مغامراته ، هو نهاية لوهامه عن عودة الشباب .

فكرت أن أذهب إليه وأسأله إذا كان يريد شيئاً ، قدح ينسون أو قهوة ولكنني احتريت ، حتى هذا السؤال البسيط يربكني في مواقف الجديد .. كنت أسأله من قبل كخادمة ، فكيف أسأله الآن كزوجة .

قلت لنفسي إنني لم أعامله كخادمة أبداً .. ومع ذلك لم اقتنع بهذا الكلام .. نعم كنت أعامله بكل حرية ، أصرخ فيه ، وأضحك معه ، وأسخر منه ، واتعمده وأعائده ، وأنام في سريريه ، إلا أنني أشعر الآن بعد أن عقد الماذون زواجنا ، إن ما فات غير ما أنا فيه الآن . كنت خادمة ناشئة حتى لحظات قليلة . ثم أصبحت زوجة .. وأنا لا أعرف كيف تتكلم الزوجة كيف تضحك معه ، وكيف تثور عليه وكيف تسأله ، إذا كان يريد فنجان قهوة .. لا أعرف .. لا أعرف .

وعملت عن الذهاب إلى عبد الحميد وانتظرت حتى يبدأنى هو الكلام ، فأعرف منه كيف يتحدث الزوج إلى زوجته ، وكيف تتحدث الزوجة إلى زوجها وأردت أن أتحرك في البيت . وحتى هذا عجزت عنه ، ولو ذهبت إلى المطبخ فأتأخضمة . ولو ذهبت إلى حجرته فكأنني أدعوه إلى ما لا أشعر به وحجرة

يوسف مغلقة أخشى الاقتراب منها ، وحجرة الطعام مليئة بأشباح المائتون وإبراهيم الدواب وقريبه .

وجلس في الصلاة أصارع هذا الخليط المتضارب من المشاعر والأفكار التي تدور في رأسي .. حتى سمعت صوت عبد الحميد يناديني ، فذهبت إليه . كان واقفا وسط الحجرة ، وقد خلع الجاكete ومازال يرتدى القميص والبنطلون .

وسألني :

— أنت فين ؟

قلت له وأنا انتهد .

— قاعدة في الصلاة .

قال في غير لهفة وكأنه لا يعنيه ما أقول :

— قاعدة لوحده .. ما تهيش تقعدى معايا ليه ؟

سكت ، إذ بحثت عن شيء أقوله فلم أجد .. وقال وكأنه يحدث نفسه .

— عايزه تخرجى .. نتنفس ؟

فلم أقل شيئا ، كان كلامه بلامعنى ولا طعم ولا حماس ، ولم أكن أرغب في شيء ، كنت متعبة ، أريد أن استريح وأهدأ ، لعل أفيلق من الدوامة التي أنا فيها ، لعل أجد صوتا في داخل يحدثنى ويحركنى وبمصحنى بما أقول أو أفعل .. كنت أريد أن أجد عقل . أريد أن أعثر على عقل جديد .. غير عقل مبروكة الخادمة الذي هجرنى منذ تم الزواج .. وقلت له :

— أنا تعبانة .

فقال بسرعة :

— وأنا كمان ..

ثم عاد يقول ببطء :

— يوسف لسه مرجعش ؟

فلزمت الصمت ، كان سؤاله لصعب من أن أجيب عليه .. وسكت هو

الأخر وكف عن السؤال .

في تلك الليلة . ليلة فرحى ، تعشينا جبنا أبيض ، ونمنا كأننا مريضان ضمهما سرير واحد .

وفي الصباح وجدنا غرفة يوسف كما هي ، فعلمنا أنه بات ليلته في الخارج ، فذب القلق في نفس عبد الحميد ، وبعد ساعة كان قد ارتدى ملابسه وخرج يبحث عنه .

وعاد ليقول لي إنه وجده ، فسألته لماذا لم يأت معي ، فقال في حزن .

— عايز يعيش لوحده .

لو كنت سمعت إجابته هذه قبل الزواج ، كنت لثرت وشتمت ، أو على الأقل كنت كنت غضبي ، ولكني استمعت إليه في حزن وقلت له والدم يفترسنى

— يعنى موش عايزنى ؟

فلوح بيده وقال :

— بكرة يعقل

فسألته في قلق ..

— لكن ح يعيش إزاي لوحده ؟

قال :

بيبات عند واحد صاحبه .

ثم قال بصوت يفضح أنه :

— النهاردة جال القهوة .. قلبى كن حدس أسه ح يفوت على هناك وصمت

قليلا محاولا أن يستجمع قواه ثم قال وهو يلهث

— قعد معايا .. وعرف إن إحنا اتجوزنا خلاص . كن هادى .. ماقلش

حاجة

ثم سكت ، وأصابه شروء

فسألته

وبعدين ؟

فقال بصعوبة :

— قبل ما يقوم . قال لي وهو متأذى .. الخمسة حبيه لسه معاك يابدا .

قلت له أيوه يا ابني .. واديتها له . خذها ومشى .

ثم عاد يقول وقد رفع صوته محرقة

— سألته .. أشوفك إراى يا ابني ؟ قال لى .. ابقى أجيك القهوة .

كانت كلماته تحرق كسكين حاد ينغرس فى لحمى ، لم أتوقع أن يكون هذا إحساسى بعد انتصارى على يوسف إبنى أشعر وكأنى مهزومة مثله . وحلوت أن أقنع نفسى بأن ما حدث ليس لى يد فيه . وأن شيئاً أكبر منى ومنه . هو الذى دفعنى إلى الزواج من أبيه . وهو الذى طرده من بيته .

وداودتنى رغبة غامضة فى أن أسعى إلى مقابلة يوسف . أخرج من البيت وأفتش عنه فى كل مكان حتى أعثر عليه . وعندما أجده أبكى أمامه . وأقول له انى لم أتعهد الإساءة إليه . وإننى أريد أن أعيش معه . وكل ما فعلته كان من أجل أن أتقرب منه . وأن أحطم هذا الحاجز الذى كان بيننا . حاجز الخادم والسيد . أريد أن يعرف أن كل ما اتعناه هو أن أتحدث معه . وأبذل أفكارى وعواطفى . واستمع إليه . وأقول له . ونضحك معا . ونخرج معا ..

تخيلته وهو يستمع لى . وأنا أتكلم وأتكلم . أقول أشياء كثيرة لا أعرفها بوضوح . وأنطق بكلمات لا أستطيع تحديدها . فهى غامضة فى نفسى . الشيء الواضح الوحيد . هو انى أجلس معه وأتكلم . وهو يستمع ثم يفهم ما أقوله ويفكر لى . ويضحك ولو فى خجل . ثم يعود معى إلى البيت . ونعيش معا .

وظلت هذه الرغبة فى لقاء يوسف تراودنى . والحديث بينى وبينه يشغل خيالى . حتى مرت الأيام . فانسيت كل شيء . وانصرفت عن التفكير فى يوسف . إذ زاد اهتمامى بهذا الشيء الذى بدأ يتحرك فى بطنى .. أصبح هو الشيء الحقيقى الوحيد فى حياتى الجديدة . شيء لا أتخيله . وإنما أشعر برفساته فى أعماقى . فانتظر فى شوق لحظة خروجه إلى الدنيا لأراه بعينى . وأسمع صراخه بأذنى وأعيش معه وله . فغير بطنى بالحياة . ويخرجنى من هذا القفود الذى أعانيه فى علاقتى مع عبد الحميد أفندى .

لم أعد أفكر فى عبد الحميد أكثر مما أفكر فى غسل وجهى كل صباح ..

أصبحت حياتنا معاً بلا انفعال . تتبادل كل يوم بضع كلمات لا معنى لها . ثم يخرج هو إلى المقهى . فلا يعينى أنه خرج من البيت . أو دخل مضطرب الأيام وليس فى حياتى شيء عثير . سوى هذه اللهفة التى أنتظر بها أبى . حتى ارتكبت خطأ ندمت عليه .

فكرت فى وحدتى . انى أريد أمى وكنت لم أراها منذ سنوات . عندما زارتنى فى بيت راتب (ليلة) . وأمضت معى النهار . فتركتها أغلب الوقت جالسة . القرفصاء بجوار وشة الدجاج .. وكلما طلبت منى أن أجلس معها لتحدث . تعمدت أن أبعد أمامها مشغولة وكان حياة البيت ستتوقف لو تركت هملى لحظة واحدة . كنت أجد حرجاً فى الجلوس معها . ولا أريد أن يرانى مدحت معها . وكنت أجد لذة خفية فى أن أعاملها وكأنى واحدة من أهل البيت . أقدم لها الطعام . وأعطيه بعض النقود . ثم أسأل نفسى ماذا تريد بعد كل هذا . اليس الأفضل لها ولى أن تعود إلى قريتها وتتركنى فى حالى ..

ولكنى الآن أشعر بوحشة شديدة إليها . أريد أن أراها بعد أن أصبحت زوجة . أريد أن أرى فى عينيها الشيء العظيم الذى حققته . أريد أن أرى فى وجهها الفرحة بهذا الزواج الفرحة التى افتقدتها . أريد أن أرى النظرة واسمع الكلمة التى تؤكد لى انى قد ارتفعت وأصبحت سيده .

وطلبت من عبد الحميد أفندى أن يكتب خطاباً للبلد . ولكنى لم أصارحه بفرضى . قلت له إننى أريد خادمة تساعدنى فى عمل البيت . فنظر إلى بطنى التى بدأت تنصمخ ووافق فى الحال .

وكتبت خطاباً إلى الشيخ دسوقى أخبره فيها بزواجنا . وبحاجتنا إلى خادمة . وجعلت أتخيل وقع الخطاب على أمى . وفرحتها الشديدة . وشعورها بأهميتها بين أهل القرية وأيقنت أنها ستأتى لى فى الحال . فكنت أنظر إلى الباب . أتخيلها تدخل منه . وأنا أجم عليها وأعانقها وأقبلها . وأجلس عند قدميها . أفكر عن ابتعادى عنها طوال السنوات الماضية . وأقول لها إن كل ما فعلته يا أمى هو من أجلك وإننى أريد رضاها عسى . وأطلب منها أن تترك البلد . وتعيش معى هنا .

ولم يحب طلي ، فبعد أيام سمعت صجّة عند الباب ، ولم أخطئ صوت شيخ ، سوقى ، محريت وفتح الباب ، فوجدت أمى واقفة وعلى رأسها قفة و شيخ دسوقى وفى يده عصا . ومعهما بنت صغيرة قبيحة قدرة .. وكنت أتراجع أمام منظرهم ، لولا أنى استطرت هذه اللحظة طويلاً فمضيت فى متعتين صككت أحبيه . وعابقت أمى وقيلتها ، وفوجئت بها تحلس على الأرض ، فصممت على أن تجلس على المقعد رغم احتجاجها ، وجلست إلى جوارها ، عابقتها وأقبلها من جديد ، وأتفرس فى وجهها الخشن الأسمر ، وعينيهما بكليسير ، وجسدها انسحب

وابتسمت أمى ، وبعث عيناها بومضة فرح ، ولكنها سرعان ما بدأت تبشئ همومها وحزانها وارتفع صوت شكواها وقد انضم إليها الشيخ دسوقى لذى رأى لى زواجى من عبد الحميد أفندى فرصة لأن أعطى أمى نقوداً أكثر

وبعد دقائق كانت الصور التى دأبت خيالاً وأنا أنتظر أمى ، قد تبخرت ، ووجدتنى أواجه مخلوقة لا صلة لى بها ، حديثها برهقنى .. لا أعرف كيف أجلس معها أو أكل معها ، وزادت مقاعبى عندما جاء عبد الحميد أفندى فعاملها بنفور ، فغضبت منه ، وخجلت من أمى ، وندمت على أنها جاءت ، وتمنيت لو سافرت إلى قريتها فى نفس الليلة

ووجهت همى إلى نفيسة الخادمة ، أعلقت يأسى من قذارتها وقبحها وجعلها ، وقلت لأمى إنها لا تصلح لخدمتى ، فأظهرت دهشتها وقالت لى فى عجب

— ما هو أنت كنت زيه يابنتى يوم ما جيتك مصر .

فصعقت ، وانكرت ما تقول بينى وبين نفسى ، وقررت أن أرسل نفيسة معها إلى أبلك وأطلب من عبد الحميد أن يأتى بخادمة أخرى من القاهرة . كنت أدرك أنى قد فشلت فى إعادة أية صلة لى بأمى والقرية وأهلها ، إن مجرد مواجهتى لهم ، تنهزنى وتستقرنى ففصلت أن استعد عنهم ، واكتفى بذكرهم ، وحببى إليهم فى الخيال ، وحتى لأمى كما أتصوره أنا ، لا كما

أواجهه وهى معى ، أراها وأسمعها وأشم رائحة الطين وروث البهائم والعرق فى ملابسها .

وسافرت أمى بعد أيام ، وقد أعطيتها ثلاثة حبيبات ، أخذتها وهى غير راضية ، كانت تريد المزيد من النقود ، وكأنها تظن أن زواجى من عبد الحميد قد فتح لى أبواب ليلة القدر ، وأن معى من كنوز الذهب ما لا يحصى ولا يعد ، ولم تصدقنى عندما قلت لها إن هذه الجنيحات الثلاثة هى كل ما أستطيع أن أدفعه لها ، لأن عليها ألا تتوقع منى نقوداً كثيرة فى الشهور المقبلة ، لأنى أنتظر ولادة ابنتى ، وستحملنى نفقات كثيرة . قالت لى وكأنها تلومنى عن كذبنى .

— البركة فى جوزك ... ما هوربنا عاطيه ..

فصكت ، خجلت أن أقول لها إنه رجل فقير ، فهى لن تفهم ، ولأن تصدق ومستغل على ظنها فى أنى أكذب لأحرمها مما أعطانى الله .

وقال لى عبد الحميد أفندى ، إنه يريد بقاء نفيسة حتى يجد خادمة أخرى ، فوافقته على مضض ...

وهكذا سافرت أمى وبقيت نفيسة وكنت أحاول أن أنظفها وأعلمها . ولكنى ظلمت أنفوسها ، ولا أسمح لها بالجلوس أمامى ، وقد خشيت أن يؤثر شكلها القبيح فى خلقة ابنتى

وعندما اقترب موعد ولادتى ، عاملنى عبد الحميد أفندى بهتان مفاجئ ، فكان يفرج همى ساعة المغرب ، فتمشى حتى كوبرى قصر النيل ، وكان يحكى لى عن المقهى وتلاميذه الذين يتعلمون منه الشطرنج ، وأحياناً يقول لى إن يوسف قد مر عليه ثم يتمتم فى أنى

— الولد شعبان أوى يامبروكة ..

فألمه قائلة

— بقى موش عارف تخليه يهدى ويبجى معانا يا عبد الحميد .
فيعتهد قائلاً :

— ما فيش فايده .. عملت المستحيل فأسأله :

إشارة بيديه ، وكنت خائفة عليه أحمله بين ذراعي ، وأرقد إلى جانبه لا أترك الغرفة ، وقد أغلقت نوافذها وأغلقت الباب ، أتحمّل الحر الشديد خشية أن يصيبه برد .

ويذهب عبد الحميد أفندي ليلاً في حجرة يوسف .

ودخل على مرة وقال لي وانعرج يتألق في وجهه :

— يوسف لقي شغلة .

قلت له وأنا أحتضن ابني :

— شفت وش إبراهيم على أخوه الكبير

قال وهو ينظر إليه في حنان .

— أنا برضه بأقول كده

وسأله :

— ح يدوله فلوس كثيرة ؟

فقال في تردد

— والله ما أنا عارف .. إنما هو كان فرحان .. اشتغل في جرنال الأيام .

قلت له .

— راتب بك كان بيقرأ الجرنال ده .. أنا فأكرة اسمه .

فقال باسمأ .

— اعمل حسابك بقي .. نشتريه كل يوم ..

فقلت له محتجة

— وأدفع ثلاثين قرش في الشهر .

وليه يوسف ما بيعتش لنا الجرنال مادام بيشتغل فيه ..

فضحك عبد الحميد وقال .

— حاضر ياسنتي .. حابقي أقول له ولكنه اشتري الأيام في صبيحة اليوم

التالي . وواظب على شرائها وتحملت مصروفها جديداً من أجل يوسف .. وكنت

أسأل عبد الحميد .

— يوسف كاتب إليه في الجرنال النهاردة ؟

— طيب ومالقيتش شغله يشتغل فيها .. ؟

وعندئذ يتفجر عبد الحميد صرخة في عصبية .

— أنا ما خلّتش .. كلهم بيقلولوا حاضر .. حاضر .. ولا فيش قايمة .

وسأله :

— وراتب بك ما عملش حاجة ؟

فيصيح

— ولا سأل فيه .

فيزداد خوفي من ابني وانظر إلى المستقبل في فزع . ثم أدعو الله بصوت

مرتفع أن يفتح الأبواب أمام يوسف ، وألتمعت إلى عبد الحميد قلقة

— أنا بادعي له من قلبي .. علشان ربنا ما يورنيش ضيقه في ابني .. والله

يوسف صعبان علي .

وكان التفكير في مستقبل يوسف يرمقنا ويزعجنا ، فنحاول أن ننساه

بسرعة ، ونبحث عن شيء آخر نتحدث فيه ، ولم أبح لعبد الحميد أفندي أبداً

بالرغبة التي كانت تعاودني ، في أن أرى يوسف وأتحدث معه ، لعل أستطيع

أنا أن أقنعه فيما فشل فيه أبوه .

وعدت إلى البيت ذات ليلة ، فشعرت بالآلام المخاض ، وأسرع عبد الحميد

أفندي يستدعي أم اسماعيل الداية . فجاءت وقضت معي الليل كله ، ومع

شروق الشمس ، سمعت صراخ ابني إبراهيم ..

كانت فرحتي لا توصف ، فرحة كالجنون ، لم تعد الدنيا تسعني ، كنت

أحس أنني أكبر من كل شيء ، وأقوى من كل شيء ، وتحولت غرفتي إلى قصر

جميل ، أجمل من كل مآثرته عيني ، أجمل من بيت راتب بك ، وكنت أنظر إلى

عبد الحميد وهو فرحان فأسخر منه ، إنه لا يعرف كيف يفرح إنه لا يحس

بما أحس به أما كنت أشعر أن فرحه من بقايا فرحي ، تعطف به عليه ، كان كل

الفرح الذي في الدنيا من فضلي أنا ، ومن إغداقي أنا ..

وعرفت حيا كالهوس ، كنت أقضي الساعات ، الليل والنهار ، الأيام تلو

الأيام ، وأما أنظر إلى أنني ، حادمة له طوع صرخة منه ، وهن حركة يرجله أو

— أهو .. بيكتب الاخبار اللي فيه ثم ينصرف عنى إلى قراءة كل كلمة في الجريدة . وكان صفحاتها رسائل شخصية يكتبها يوسف إليه . وكنت أتمنى لو أستطيع قراءة هذه الرسائل لأكون قريبة من يوسف .

فكنت أمسك بالجريدة أتصفحها وكأنى أقرأها . فأرى سطوراً سوداء .. كالطلاسم . أنظر إليها عاجزة . وأتدب حظى لأنى لا أستطيع فك الخط . ولا أجد غير الصور أتأملها في اهتمام . وأنا أحاول أن أحتفظ بالجريدة في يدي أكبر وقت ممكن . لأقنع نفسى بأن هناك صلة ما . أية صلة . بينى وبين صفحاتها .

وكنت أحتفظ بأعداد الجريدة . ولا أفرط فيها . وكأنها أوراق مقدسة . وأثور عن عبد الحميد إذا خرج والجريدة معه في الصباح وسيبها في المقهى أو إذا أمسك بها في غير عناية . أو إذا دخل بها الحمام وبللها . أو مزق إحدى صفحاتها .

وكان يقول في دهشة :

— وأنت مالك ومال الجرنال . لا انتى بتقوى ولا بتكتبى .. موش آخرتها ح تمسحى بيه القزاز ..

فأقول محتجة :

— أبدأ أنا أحرصهم لحد إبراهيم مايكبر ويقرأهم .. وأقول له شوف أخرك يوسف كان بيكتب إيه ..

فيضحك ساخراً وبمتهى السذاجة ولكنه لى رغبتي . فعز نفسه عن قراءة الجرايد بعناية . وأمتنع عن أخذها معه خارج البيت .

وصاح عبد الحميد ذات مرة وهو يقرأ الجريدة .. وكانت في صحيفته رنة بهجة وانتصار :

— أبسى مكتوب اسمه في الجرنال فتركت ما في يدي . وجريت إليه .

واستمعت إلى صوته المتهودج بالعرج وهو يقرأ اسم يوسف .. يوسف السويفى ..

ثم توقف لحظة عن القراءة وقال في أسى مدجى .

— ليه موش كاتب اسم عبد الحميد فصحت في دهشة

— إزاي ما يكتبش اسم أبوه .. لازم تكلمه .

وأيقن أن يوسف قد تعمد إغمال اسم والده . تعبيرا عن مقاطعته لنا . وكنت أتبه عبد الحميد إلى هذا . ولكنى ترددت . وقلت لنفسي لابد أنه وصل إلى نفس استنتاجي . فلا داعى إلى أن أذكره أنا به . إذ كنت منذ هجرنا يوسف . أحاول دائما أن أظهر لعبد الحميد ندمى . ورغبتي في عودته إلينا . وكنت أتحاشى أن أثير ما يبعد بين الأب وابنه . وكنت محلصة في ندمى .. محلصة في رغبتي في عودته . إذ كنت أشعر في قرء نفسي أنى سأظل خادمة في عيني يوسف . حتى يعود واسترد صوت عبد الحميد بهجته وحماسه . وهو يقرأ ما كتبه يوسف عن رجل وجدوا جثته في غرفة في بولاق . وكنت أستمع إليه وأنا أنظر إلى صورة الجثة . وأحاول جاهدة أن أفعل المستحيل وأقرأ السطور السوداء .

ولما فرغ عبد الحميد من القراءة . أخذت منه الجريدة ونظرت إلى الكلام في إمعان . ثم سألته

— اسم يوسف فين ؟

فأشار إلى أحد السطور وقال .

— هنا .

وقرأ من جديد

— كتب مندوبنا الجبائى .. يوسف السويفى .

فسألته :

— يعنى إيه مندوبنا الجبائى ؟

فشرح لى أنه مندوب الجريدة الذى يبحث عن الجرائم ويكتب عنها . ويتصل بالشرطة والنيابة .

وعدت أتأمل الصورة والكلام . ثم قلت له قجاة :

— أنا عايزاك تعلمنى القرايه .. فقال لى وكأنه سمع شيئاً مضحكاً :

— حاضر يا ستى ..

وأخذ الجريدة معه ذلك الصباح وهو حارج إلى المقهى . ليطلع عليها أصحابه ..

كنت جادة فى طلبى من عبد الحميد أن يعلمنى القراءة ، وكنت أسرح بخيالى وأرى نفسى وأما أقرأ الصحف ، وأفهم ما فيها من كلام ، فأحس بمتعة غريبة ، ولكن الأيام مرت وعبد الحميد غير مهتم بطلبى ، إلى أن حاصرت فى أحد الأيام ، فاحضر أوراقاً وقلماً وشرح يعلمنى كيف أكتب ألف .. باء . وعلمنى كيف أكتب اسمى ، ولقد فرحت يوم رأيت اسمى بخط يدي فكنت أصيح وأفز كالطفلة الصغيرة وعاد لى يومها كثير من الحنان والحب لعبد الحميد ، بعد أن افتقدتهما منذ زواجى به ..

وكنت كلما تكاسلت عن مواصلة دروسى ، أنظر إلى ابنتى إبراهيم وأقول إن البركة فيه ، فهو الذى سيذهب إلى المدرسة ، ويقرأ ويكتب وهو الذى سيعوضنى كل ما فاتنى فسأمنحه كل ما أستطيع حتى يصبح رجلاً له مركز محترم مثل راتبك . ويتشرف به أمام الناس ، ويتشرف به شقيقه يوسف . كان إبراهيم قد بدأ يحبو على يديه ورجليه ، وظهرت فى فمه ثلاث أسنان وعرف كيف يشير بيديه ويقول .. ده .. ده .. ده .. أو يقول بصعوبة « بابا » وكان عبد الحميد يتحول أمام ابنه إلى طفل مرح ، يتكلم معه بلغته ، ويلعب معه ، ويأتى أمامه بهركات مضحكة ، حتى يخيّل لى أنه فقد عقله .

وذات صباح خرج عبد الحميد ، وتركنى مع إبراهيم وهو يصرخ بلا انقطاع ، حتى كدت أجن ، وبعد ساعتين أو أكثر ، كنت واثقة أن إبراهيم مريض ، لأن صراخه كان غير عادى ، وقد فشلت جميع محاولتى لإسكاته . وانتظرت فى قلق عودة عبد الحميد ، لىذهب إلى الطبيب .. وسمعت طرقاً على الباب . طرقاً عفيفاً ، بصحية صوت إبراهيم البواب يخاطب شخصاً غريباً ..

وفتحت الباب فإذا برجل قصير بدين يسألنى بصوت منقلع :

— حضرتك زوجة عبد الحميد أفندى قلت له وقلبي يخفق وصراخ إبراهيم يدوى فى أذننى .

— أبوه .. فيه إيه ..

قال الرجل بصوت قلجج .

— اتأسف يا هانم عبد الحميد بيه . فى القهوة ويلع الرجل ريقه وقال وعيناه حائرتان

— تعيش أنتى ..

قضت أيام ، وأيام قبل أن أهي تماماً ما حدث ، فعند جاعني ذلك الرجل
البدن القصير بنياً موت عبد الحميد أفندي ، وأنا أعيش في دوامة .
عقلي في دوامة ..
وقلبي في دوامة ..

اختلط كل شيء في عيني ، اضطربت .. تاهت نفسي ، فلم أعد أدري من أنا
ولا أدري أين أنا ، ولا ماذا أقول ، أو ماذا أفعل .
كل ما أذكره عن تلك الأيام صور متقطعة ممزقة تصحبها صرخات حادة
كانت تندفع من صدري .. وحزن حار كان يلهب جوف ، ثم يندفع من فمي
كالصهود ، وكأنني استنشق ناراً وأزهر ناراً .
وأذكر ابني إبراهيم .

لازمني طوال تلك الأيام ، وقد ضمعت إلى صدري ، ضمعت إلى فزعي
أينما ذهبت ، في الشوارع ، وفي المقهى ، وفي المقابر ، وحين أعود إلى البيت .
أذكر الرجل البدن وهو يهول ورائي في الشارع ، وأنا أجري في جنون .
وإبراهيم بين يدي ، والرجل يقول لي كلاماً لا أسمع ، وأقول أنا كلاماً
لا أذكره . وقد اندفعت أقحم السيارات والناس والترام ، وأنا لا أعرف أن
ما أمامي سيارات وناس وترام .. ثم تعثرت ووقعت على الأرض ، فجذبتني يد



الرجل ، وحاول أن يقتلع إبراهيم من بين يدي ، فظننت أنه يريد أن يخطفه .
وقشبت بآسي . وواصلت الجري

وجدبتني يد الرجل مرة أخرى ، وأدخلني في ناكسي ، مضى بنا إلى هناك إلى
المقهى .

إني أحاول الآن أن أذكر ما حدث في المقهى ، فأنكر صوراً كالحلام
كابوس .. أذكر صوراً أراها من خلف ضباب النموع ، أذكر أجساداً وغيوتاً
وأصواتاً ..

وعبد الحميد ..

جسد عبد الحميد .. يرقد على سرير من المناضد الرخامية في ركن المقهى ،
وقد أسبل جفنيه ، ولا يتكلم ولا يضحك في وجه إبراهيم .

ثم أيد قاسية تنزعني ، وتجلسني على مقعد ، أنهار فوقه ، وأصوات
تسألني ، وأنا أجيب بالصراخ ، وابني يجيب بالصراخ ، وقد انقطعت صلتني
بكل شيء .

تلك اللحظة بالذات ، أذكرها وكأنها كانت كل حياتي ، لحظة وقف عندها
الزمن ، شعرت خلالها أنني بلا ماضٍ وبلا مستقبل ، وكنت أجاهد وأنا أنظر
إلى الناس ، أن أتذكر شيئاً ما .. شيئاً لا أدري ما هو . غاب عني ، وأشعر أنه
ضرودي .. ويجب أن أتذكره لأخلص مما أنا فيه .

وحتى الآن ، وبعد كل هذه السنوات التي مرت على وفاة عبد الحميد
ما زلت أحاول أن أتذكر هذا الشيء الذي جاهدت من أجل معرفته وأنا جالسة
في المقهى .. فأعجز ..

أحياناً تطوف برأسي صورة حقل في قريتنا ، كنت أجلس عند حافته وأراقب
الجاموسة وهي تشد المحراث فوقه ، وأشعر كما لو كنت أنا هذا الحقل ، وكما
لو كانت الجاموسة تشد المحراث فوق حسدي ، وأشعر أن هذا هو ما كنت
أريد أن أتذكره .

لماذا ؟

لست أدري ..

وانزع . ويخيل إلي أنني شارفت على الجنون ، فأحاول أن أطرد هذه
الصورة القريبة من رأسي . وأقول : لا .. ليس هذا هو ما كنت أريد أن
أتذكره .

كان الناس ملتقن حول مقعدي في المقهى . عندما انشقوا فجأة ، وظهر
يوسف أملسي . فشعرت بلهفة إليه وكأنه سينقذي من الفزع الذي يأكلني
وهزخت :

- يوسف . الحقني .

وقفزت نحوه ، أريد أن أتشبث به صارخة :

- أبوك يا يوسف ..

فاستدار وأعطاني ظهره ، ولما غاب عني وجهه ، أظلمت عيائي . فهجمت
عليه . أقول له كلاماً كثيراً . وهو غير منتبه إلي ، لا يريد أن ينتشلني ، ورأيت
رجالاً يحملون عبد الحميد فلم أفهم ماذا يريدون به ، وأمسكت بيد أحدهم ،
أريد أن أخلص زوجي منه ، فدفعوني بعيداً ، وخرجوا بعبد الحميد إلى
الشارع .. وهو مستسلم لهم . وحاولت أن أخرج وراءه ، أتبعه .. الحق به ..
فاعترضني يوسف قائلاً في حدة :

- روحى أنت البيت .. بتعمل إيه هنا .

قلت مولولة وأنا ألطم خدي بيدي واحتضن إبراهيم باليد الثانية :

- جوزي .. رايحين بيه فين .

وحاولت يائسة أن أصل إلى عبد الحميد ، فلم أفلح ، ورأيت سيارة كبيرة
تفتح بابين في مؤخرتها . وتبتلع زوجي ، ومن بعده يوسف ، وانطلقت السيارة ،
أشيعها بصراخي ، لعل عبد الحميد يسمعه .

لا أدري كيف وصلت إلى المقابر . ولا مع من ، فقد تجمع حولي أناس
كثيرون ، اختلفوا فيما بينهم . بعضهم يريد أن يحميني إلى البيت ، وبعضهم
يصيح :

- ياناس .. ده جوزها .. لازم تحضر الدفنة ..

وأنا أستمع إليهم في بلاهة . وأريد مع صراخي :

- جوزى . ودوى لجوزى . كده برصه يا عبد الحميد يخلصك تسببتى ..
واحدوى إلى المقابر

وقفت هناك عند مسحد صغير وسط المقابر . تحيط به أكواخ وعشش
تحلس أمامها قرويات متشحات بالسواد . يلعب أمامهن أطفال يتصايحون .
وبير لحظة وأخرى تمر أمامنا جماعة من النساء يولولن ويتنبن متجهات إلى
المقابر .

كنا في انتظار عبد الحميد . وكنت أنفوس في وحوه القادمين . أتوقع أن
أراه يسير بينهم . ثم أتلفت حولى لرقب العشش والأطفال . وأحدق في وحوه
الناس . لأراهم يتهايمسون وينظرون إلى ساعاتهم .. فأخاف وأصرخ .
- كده برضة تسببتى يا عبد الحميد ..

وأعود وأحدق في وجوههم . لعل واحداً منهم يتأثر بصرخاتى .. فيذهب ويأتى
لى بزوجى . ولكنهم كانوا يتسبحون بوجوههم بعيداً عنى كأنهم لا يريدون أن يروا
حالى . أو يسمعوا صرخاتى . فلا أجد أمامى غير إبراهيم الخاطبة . فأصرخ فيه
- فين أبوك يا إبراهيم .

وأأنظر إليه في يأس . بل كنت أنظر إليه في أمل . وأنا أتوقع أن يتعمل فجأة
من طفل رضيع إلى رجل كبير يأخذ بيدي . ويأتى لى بأبيه عبد الحميد .
وفجأة سمعت هوق سيارة . جاءت وورامها عاصفة من الغبار . وأمامها
صياح الأطفال . ووقفت السيارة . وهبط منها راتب بك ومدحت . وأسرع
الناس إليهما . وتركهنى لحظات . وأنا ذاهلة . ثم اندفعت وراهم أشق
طريقى بينهم إلى راتب بك وأصيح مستنجدة به :

- سيدى راتب بك .. أنا في عرضك ياسيدى .. جوزى خدوه .

فنظر إلى ثم أشاح بوجهه وقال لأحد الرجال بجانبه :

- هى بتعمل إيه هنا ؟

وقبل أن أقول شيئاً آخر . كانت الأيدي قد انتزعتنى من أمام راتب بك
ودفعتنى فى طريق منحدر . وسرت فيه والارض تتأرجح تحت قدمى . وكل

شئ من حولى يطوويهم بطحتى بلغنا حوش المقبرة . فأدخلونى حجرة معتمة .
ووقف أكثر من واحد يمنعوننى من الخروج .
حبسونى فى العتمة حتى جاء النعش . رأيته من الباب المفتوح . فاندفعت
إليه . ثم لا أذكر شيئاً بعد ذلك . سوى الصراخ والجئون . والحزن الحار
الذى أزره كالدار .
ثم لا شئ ..

وجدت نفسى بعد ذلك فى البيت . وحدى . أنا وإبراهيم .. ومن نعمة الله
على . أنه ضربنى بسهم الذهول وإلا كنت قتلت نفسى فى تلك الليلة . ساعدنى
ذهولى . عل أن أنصرف إلى العناية بإبراهيم . أغير له ملابس . وأرضعه
وأريت على ظهره . وأدخله فى فراشه ليلى . وكأنى لا أعرف ما حدث .
لا أعرف أن عبد الحميد قد مات . وأنه تركنى وحيدة مع ابنه . تركنى ولن
يعود . بلا شفقة ولا رحمة ودون أن ينبهنى إلى ما يجب أن أفعله وهو غائب
عنى ..

وكنت جالسة على سريرى .. سرير عبد الحميد . وقد لفنى أنا وابنى
الطلام . عندما سمعت ولولة وصراخاً يصك أذننى . فانتفضت من ذهولى .
وجريت إلى الباب الذى ارتفعت الصرخات وراءه .

وفتحت الباب .. فرأيت أمى تلطم خديها المصبوغين بنيلة زرقاء . وهى
تقفز قفزات متوالية . وإلى جانبها امرأتان يلعلان مثلها . ويدبان على الأرض
فتهتز من تحتها . والشيخ يسوقى ينظر إلى بوجه متجههم وإلى جانبه رجل
نحيل طويل فى جلبابه الأزرق .. حدثت فيه طويلاً قبل أن أذكر أنه خالى
إمبابى ..

ودخلوا البيت وهم على هذه الحال فوجدت نفسى أفعل مثلهم وأكثر .



فى تلك الأيام . كان عقلى معطلاً . فلم يحزن سوى حسدى . لطمت
خدودى . ومزقت شعرى . وبع صوتى وانككت قوى . وكل ذلك بعباً

بالنسبة للأيام التي مرت بي بعد ذلك ، عندما بدأت تحقيق من أحزان الجسد ، وأعيش مع أحزان العقل والروح .

وكنت أنتظر صباح مساء عودة يوسف إلى ، كان هو املى الغامض الذي اعتمد عليه ، فكلما حاولت ان أفكر في مستقبلي .. سرعان ما تتوزع أفكاري وتتبدد ، وأعجز عن المضي في التفكير بغير يوسف بجانبتي .

وكان الشيخ دسوقي هو عوني الوحيد ، كان يذهب إلى بيت راتب بك ثم يعود إلى ويحلس معي ساعات طوال يخبرني بما سمعه هناك عن حال ، وعرفت منه ان الحكومة ستصرف لي معاشاً أنا وابني مبلغ ثلاثة عشر جنيهاً . ذكر لي الشيخ دسوقي رقم المعاش بصوت مرتفع ، وكأنه لا يصدق ما يقول او كأنه يحسدني على ما سأحصل عليه .

وكنت أستمع إليه ، وأنا أفكر في يوسف ، هو الذي يستطيع ان ينصحنى بما افعل ، او ما لا افعل .. أين يوسف ، لماذا لا يجيء إلى .

وسألت الشيخ دسوقي عن يوسف فقال لي إنه رآه في بيت راتب بك ، وإن راتب بك دفع له نفقات الجنازة والدفن ، فعدت أسأله لماذا لم يأت إلى وليس لي احد غيره في هذه الدنيا ، لماذا لا يأتى ليطمئن على أخيه الرضيع .. فظهرت الحيرة على الشيخ دسوقي ولم يعرف بماذا يجيب .

وكانت أمي تنصت إلى حديثنا .. فقالت لي :

- ح تجعدي هنا مع مين يابنتي .. ارجعي لبلدك واهلك ..

فنظرت إليها في شراسة .. ورفضت ان أستمع إلى ما تدعوني إليه . وهكذا أتفخل عن كل شيء . وتضيع أيامي وأحلامي ، ويضيع مستقبل ابني . واعدت إلى القرية كما جئت .. الموت أهون من هذا . لن أعود إلى القرية .. لن أترك بيتي .. أنا لست مبروكة الفلاحة الفقيرة . لست مبروكة الخادمة .. أنا مبروكة زوجة عبد الحميد أفندي .. أنا أم إبراهيم ..

ولكن أمي الحت عل ، وشعرت أنها تفكر في المعاش الذي ساقبضه . وأنها تطمع في ان تنال نصيباً منه إذا عشت معها في القرية .

وأكد لي هذا الظن . أنها رفعت صوتها مثل الشيخ دسوقي ، وقالت لي :

- جوزك فايت لك ثلاثاشر جنية كل شهر .. تعالى اجعدي معانا .

فقاطعتها في حدة :

- لا يأمه .. أنا موش رايحه البلد . ولا عابزه إبراهيم يشوفها .

فتظرت إلى في عجب . ورفعت يديها إلى السماء تدعو الله أن يهديني .. وكنا نذهب كل يوم إلى قبر عبد الحميد ، وأبكي ، وأنتظر أن أرى يوسف وتعر الساعات وهو لا يحيى . وعلمت أنه زار القبر في الصباح المبكر يوم أول خميس ، ومكث خمس دقائق . ثم انصرف فأيقنت أنه لا يريد أن يراني ولم أحزن ، إذ كنت لا أستطيع أن أصيف أحزماً جديدة فوق أحزاني ، ولكنني صممت على ان اللقاء ..

وكان لقائي بيوسف في المحكمة ، يوم ذهبت مع الشيخ دسوقي لاستفراج الإعلان الشرعي بوفاة عبد الحميد .. كنت أجلس على دكة خشبية أمام باب حجرة القاضي ، عندما رأيته قادماً ، وماكاد يراني حتى توجه وجهه .. ووقف مكانه متشاعلاً عني بالحديث مع الشيخ دسوقي ، فذهبت إليه وقلت له :

- كتر خيرك ياسي يوسف .. برضه عملت اللي عليك ، وسألت عني وعن أخوك .

ورفعت إبراهيم بين يدي وقلت له وأنا أمز طفل أمام عينيه :

- هو ده موش ابن عبد الحميد ، موش أخوك ، موش لعمك ودمك .

فهمس في حدة وهو يثفلت حوله :

- انت عابزه مني إيه ..

صدمتني كلماته ، كانت أخر شيء أتوقعه منه ، فقد عودت نفسي طوال الشهور الماضية ، وقبل وفاة عبد الحميد ، أن أفكر في يوسف على أنه سيعود إلينا يوماً ما ، على أنه سيعترف بي ، وسيرضي عني ، وكان هذا هو أقصى ما أتمناه في حياتي ، فعندئذ كنت سأشعر حقاً أنني تحولت من خادمة إلى سيدة ، لم أكن أقنع بزواجي بعبد الحميد . فقد رضخ لي تحت وطأة مؤثرات خاصة ، أما يوسف فهو يمثل لي الناس كل الناس . هذه المدينة الكبيرة التي أعيش فيها ، إنه لو رفضني ، فكل الناس ترفضني ، من بقى لي غيره ،

حتى ألود به ، ليعاملنى كزوجة عبد الحميد ، إذ كان يوسف لا يقبل أن يعاملنى هكذا .

وصحت في يوسف ، أنا في قرارة نفسى أريد أن أتوسل إليه - عيب تقول الكلام ده .. خلى أبوك يستريح في نومته .

فرايت لعة غريبة في عينيه وقال في السعال - مالكيش دعوة بأبويك . كفايه اللي عملتية . موتيه ، عايزه إيه أكثر من كده

قلت له في يأس - الله يسامحك .

ونادى علينا الحاجب .. فدخلنا عند القاضي . واجبت على أسئلتك وأنا شاردة . ثم خرجنا وتركنا يوسف دون أن يكلف نفسه مشقة النظر إلّ . بكيت يومها في مرارة وغيظ ، وكدت أوافق أمى وأسافر معها ، لولا أن إبراهيم كان يضحك على غير عادته ويردد دون أن يطلب منه أحد كلمة « بابا .. بابا » فاحتضنته وقلت لنفسى إنى أموت ، ولا أرى إبراهيم في القرية ، وإنه لابد أن يبقى هنا ، ويدخل المدارس ، ويصبح أحسن من يوسف ألف مرة ..

وسافرت أمى ، وقالت لى في غياء وهى تودعنى ، لماذا لا أجا إلى راتبك وأعود إلى خدمته ، فقلت لها في هياج ، إنى لن امرغ اسم عبد الحميد الفندى ، ولن أسبىء إليه وهو في قبره فأعمل خادمة ، ويقول الناس إن زوجته أصبحت خادمة . وإن إبراهيم أمة خادمة .

ولم تفهم أمى سر هياجى ، وتركت البيت وهى تحاول أن تخفى سخطها على

ومرت الأيام والنقود تضيق من يدى والشيخ دسوقى لا يكف عن الحديث عن المعاشر اللى لا أقصه ويحاول أن يطمئننى بأن كل شىء سيتم بإذن الله ولكن النقود تأخرت وتأخرت وكل يوم يطلب منى الشيخ دسوقى نقوداً للمحكمة ولإدارة المعاشات . وأحياناً كنت أخرج معه وأتوه وراءه في حجرات

- ١٢٤ -

كثيرة ، وأقابل موظفين يرسلونا إلى موظفين يرسلونا بدورهم إلى موظفين آخرين . وبعضهم يشتمنا وبعضهم يسخر منا . وبعضهم يصحك في وجهى ويطمئننى .. فأتذهب إليه يوماً بعد يوم بلا فائدة .

ووجدت نفسى في طريقى إلى بيت راتبك .. كم منيت نفسى بأن أذهب إلى هناك مع عبد الحميد ، وأجلس في الصالون حيث تستقبلنا ستى الصغيرة ويقدم إسماعيل عصير البرتقال . هاندا أعود إليهم دليمة . جائعة لم أرفع إيجار البيت ، أريد أن ألتصق منهم بعض النقود ..

قابلنى عم عثمان فلم يعرفنى .. وجعل يحدث في بعينين مريضتين .. يريد أن يصدق أنى حقاً مبروكة .. ولا أسخر منه ، كان قد شاخ وفقد الكثير من نشاطه . ورحب بى أخيراً ، ولكن صوته ظل متردداً ، كان هناك بقية شك عنده في حقيقة امرى .. وبغير وعى منى ، درت حول البيت داخل الحديقة ، وذهبت إلى باب الخدم حيث وجدت إسماعيل ، الذى رحب بى في حرارة ، وعزائى في تأثر . وأمسك بإبراهيم بين ذراعيه وأخذ يلعبه ، والدموع تكاد تطفز من عينيه واسترحت للقاء إسماعيل ، وتقدمنى حاملاً ابنى إلى البهو وطلب منى أن أجلس على مقعد حتى ينادى ستى الصغيرة ، وشعرت أنه رغم ترحيبه بى ، يعاملنى كسيدة . وأنه فرح بأنه يعاملنى على هذا النحو ..

نظر إلّ في حنان ، وأنا جالسة على المقعد ، وقال لى وابتنسامة كبيرة على شفثيه

- تشربى إيه ؟

قلت له وأنا امرى إحدى اللحظات الخاطئة من الراحة .

- كتر خيرك يا إسماعيل .. موش عايزه إلا كباية ميه ..

- فقال في رقة :

- ودى تيجى .. ح أجيبك لمونادة ساقعة ..

وجاء إسماعيل بعصير الليمون . وقال لى إنه أحبر ستى الصغيرة بحضورى ، وتركتى وأتصرف . وشربت الليمون ، ومصت الدقائق ، ولا أحد يسأل عنى ، وربما قضيت أكثر من ساعة ، قبل أن أسمع صوت أقدام ستى

الصغيرة ، وهي تهبط السلم ، وقبل أن أراها كنت واقفة ارتجف .
قابلتني ستي الصغيرة بوجه عابس وقفت على مسافة مني ، وقالت في
وجوه

- البقية في حياتك يا مبروكه .

ثم قالت دون أن تتحرك من مكانها .

- عايزه حاجة ..

كان صوتها خافاً ، ليس فيه أى ترحيب بمجئى . فتلعثت ، وفقدت
قدرتى على الكلام ، وزاد من ارتباكى أن إبراهيم بكى فجأة . فتنظرت إليها
فرايتها تصوب نحو إبراهيم نظرات مشمئزة ، ووقعت صوتها قائلة .
- قول لي أنت عايزه إيه .. أنا موشر فاضية ..

وحاولت أن أشرح لها حالى بكلمات سريعة مقتضبة ، يطنى عليها بكاء
إبراهيم ، وقبل أن أتم كلامى رأيتها تمد يدها إلّى وتقول :
- خدى ..

رأيت جنيتها في يدها الممدودة . وقبل أن أفكر ، كنت قد أطعت أمرها
وتقدمت منها وأخذت الجنيه ، وتمتعت بكلمات شكر .
فقال لي وهي تبتعد عني في اتجاه السلم :

- روحى المطبخ .. خلّيكهم يحطوك الفدا قبل ما تروحي .

عندئذ وكان غمامة انزاحت من أمام عيني ، ورأيت بوضوح كامل الإهانة
التي لحقت بي ، وحاولت أن ألقف بالجنيه الذى في يدي ، كان يلصقني
ويحرق لحم كفى ، وحاولت أن أقذفه في وجهها باحتجاج ثائر على معاملتها
لي .. حاولت .. ولكنى لم أنفذ محاولتى ، لم أستطع ، فشمعرت بسخونة في
قلبي ، وكان جسمي يذوب في ماء النار

وفي طريقى إلى الخارج ، رأى إسماعيل الدموع في عيني ، فمالني في
انزعاج عما حدث ، فلم أقل له شيئاً ، وسرت في الطريق اتخبط في حباب
دموعي .

بعد أيام كنت أنا وابنى قد أكلنا الجنيه ، وليس في بيتى شيء ، وما زلت لم

أدفع الإيجار ، والمعاش لم أقبضه وتحت وطأة الجوع والحاجة ، عدت إلى
التفكير في يوسف ، وفكرت أن أذهب إليه ، وأكلمه لعل قلبه يلين ويساعدنى .
مشيت في الشوارع وأسأل عن جريدة الأيام ، حتى وصلت إليها ،
واعترضنى بواب نظر إلّى في ريبة وكان إبراهيم يائساً على صدرى ، وسألنى
ماذا أريد .. قلت له إننى أريد مقابلة يوسف أفندى عبد الحميد السويفى ..
فصاح يطردنى :

- ممنوع الزيارات يا ستى ..

قلت له في تصميم :

- لازم أشوقه .. أنا قريبتة .

واشرت إلى إبراهيم قائلة :

- وده يبقى أخوه ..

فاحتار الرجل ، وصعد معى سلماً يفضى إلى بهو كبير ، وأشار إلى موظف
يجلس عند منضدة عليها تليفون ، وقال لي : كلمى الأفندى ، استمع إلّى
الموظف وتكلم في التليفون ثم قال لي :

- استنى شويه هنا .. هو ح ييجى دلوقت ..

ولم يك يفرغ من كلامه ، حتى رأيت يوسف يهبط سلماً ، ويأتى إلّى وهو
يلهث ، وقال لي دون أن يحيينى وفي عينيهِ بريقاً غريباً ..

- إيه اللي جابك هنا .

فبكيت ، وهمس يوسف وهو يجذبني برفق إلى ركن في البهو .

- بلاش المعياطده .. أنت عايزه الناس تقول إيه ..

كان يتكلم ، وفي صوته رنة خوف وهو يتلفت حوله في قلق .. وحدثته عن
جوعى ، وعن المعاش الذى لم أقبضه والإيجار الذى لم أدفعه .

فقال لي بسرعة :

- حاضر .. حاضر .. أنا ح أشوق حكاية المعاش .

قلت له وقد بدأ الأمل يعاودنى .

- اعنى ياسى يوسف .

قال

- بكرة -

قلت له في لهفة

- أقوت عليك -

قال بلهجة السريعة

- لا أنا الل ح أقوت عليكى

هتفت من قلبي

- ربنا يحليك ليننا .. والنبي ياسى يوسف ماتساش ..

قال ولراعا متاخرتان .. ورأسه يلتف إلى كل ناحية ..

- لا .. موش ح انسى .. روى أنت بآه ..

قلت متوسلة .. وأنا لأريد أن يغيب عن عيني ..

- بس أنا مامعش فلوس دلوقت .. أنا جيت لك ماشيه ..

فوضعه يده في جيبه .. وأخرج خمسين قرشاً أعطاهما لى ، وقبل أن اغادر البهو ، كان قد جرى إلى السلم وففر عن درجته واختفى .

وانتظرته صباح اليوم التالى .. ثم الظهر .. ثم العصر .. والمغرب والعشاء

ويوسف لا يجيء .. ولم اصدق أنه نسينى ، انزعجت عليه ، وتوهمت أن

حادثاً وقع له . فخرجت إلى الشارع في الليل ، وذهبت إلى دكان سجاثر في

ميدان باب اللوق ، وطلبت من صاحب الدكان أن يطلب لى يوسف في التلفزيون .

وسمعت صوت رجل يسألنى عن اسمى .. قلت له إنى امرأة المرحوم

عبد الحميد أفندى . غاب صوت الرجل برهة ، ثم سمعته يقول لى إن يوسف

غير موجود ، فقلت له إنى أنتظره منذ الصباح ، وإنى منزعجة عليه ، فطلب

منى الرجل أن أطمئن عليه . وقال إنه كان موجوداً طوال النهار في الجريدة ..

ودفعت نقود المكالمة ، وعدت إلى البيت ، وأنا في حيرة من أمر يوسف

واعترزمت أن أذهب إليه مرة ثانية في الصباح ..

وما كاد يرأسى الموظف في بهو الجريدة حتى صاح في :

- الأستاذ يوسف موش موجود ياستى ..

قلت له -

- لكن أنا عليزاه ضرورى ..

قال وهو يبتسم -

- حاضر .. لما بييجى ح أقوله .

فسألته

- هو ح بييجى امتى ؟

قال بلهجة سريعة تكررتنى بلهجة يوسف وهو يخاطبني :

- والله ما أعرفش .. مالوش مواعيد .

فقلت له

- طيب أنا ح استناه ..

فاختفت الابتسامة من وجه الرجل وقال في حدة

- ممنوع ياستى ..

قلت له في ضراعة

- ح أقف هنا في الركن ..

فزابت حدته قائلاً :

- لياستى .. اتفضل استنيه في حنة تانيه ..

ونظر إلى في غضب ، فتراجمت وهبطت السلم .. واقفت على الرصيف أمام

مدخل الجريدة .. فصاح في البواب ..

- واقفة عندك ليه ياستى .. ممنوع الوقوف هنا

قلت له في عناد وقد صممت ألا أتراجع خطوة أخرى

- أنا واقفة على الرصيف . ومستنية يوسف أفندى .

فصرخ محتداً ، وهجم على يريده أن يطردنى بالقوة .. وارتفع صوتى ،

وارتفع صوته . وفي هذه اللحظة رأيت شاباً نحيلاً أسمر البشرة .. يضع على

عينيه نظارة . اقترب منا وصاح في لهجة أقرب إلى المرح سائلاً البواب

- إيه الحكاية .. يا عم رشوان

فقال له البواب ملوحاً بيده نحوى وكأنه يود أن يضربنى .

- شوق يا أستاذ .. واقفه في الدخول ، قدام الرايعين والجالين .. وموش عايزه تمشى ..

فابتسم الشاب ، واقترب مني ، وسألني في رقة :
- أنت عايزه إيه ياسنى .
قلت له :

- أنا حاليه أقابل يوسف أفندى عبد الحميد السويقي .
فسألني وهو يرمقني بنظرات حادة فيهما قوة وجلابية :
- عايزاه ليه ياسنى .

فاحتوت ماذا أقول له .. ثم اندفعت لخبره بأنى زوجة أبيه ، وإن الطفل الذى معى هو شقيقه . وإنى جئت ليساعدنى فى الحصول على معاشى من الحكومة .

وبدا التأثير على وجه الشاب ، وارتعشت شفته السفلى رعشة خفيفة ولما عاد البواب إلى صياحه ، منعه في حدة وقال لى بصوته الرقيق :
- أنا ح أطلع أشوفه فوق .. خللكى هنا لحد ما أجيك .. أو أبعت لك يوسف .

وولفت تعاصرنى نظرات التهديد يصوبها إلى البواب .. وبعد قليل عاد الشاب ونظر إلى بوجه يبدو عليه الانفعال . وكأنه متردد فيما يريد أن يقوله لى .. ثم قال أخيراً :

- شوق يا سنى .. أنا ملقيتوش ..

وسكت برهة .. ولى عينيه تفكير عميق ، ثم قال ببطء :
- وماهيش داعى تستنيه دلوقت .

أحسست أنى يجب أن أصدق . وأسمع كلامه . كانت نظراته القوية لها تأثير غريب على ، فقلت له لى بأس ، وأنا لا أدري شيئاً عن حياتى فى اللحظة المقبلة :

- طيب

ثم سأله بصعوبة

- ١٣٠ -

- وأرجع تانى امقى ..

وفجأة صاح الشاب فى انفعال .. وكأنه تأثر على شيء ما .

- ممكن تقول لى أنت عايشة إزاي دلوقت .

أجيبته وقلبي يخفق ، وقد انتقلت إلى عدوى انفعاله وثورته ..

- أنا ساكنة فى شقة فى شارع الملكى ..

فسألني مقاطعاً :

- يتدفعى إيجار كام ؟

أجيبته على الفور وأنا أنتظر فى لهفة بقية أسئلته ..

- بأدفع خمسة جنيه ونص إيجار .. وفات شهرين مادفعتمشى ..

قال وقد ثبت عينيه فى عينى :

- ماتشوفيك مكان أرخص .. وتقدرى تأجرى شقتك بخلو رجل .

ولم أستطع أن أحرر عينى من عينيه ، كانت كل لحظة تمر ، تزيد من تأثيره على ، وتشدنى إليه ، وبدأت أحس أنى أمام رجل أرسله الله لى ، لينتشلنى من مأزقى ، وليخرج بى إلى بر السلامة ، وعجزت عن الكلام .. فظن أنى لم أفهمه ، أو اعترض على كلامه ، فقال باسمأ :

- يمكن يوصل خلو الرجل لثمانين تسعين جنيه .. يمكن مائة .

وغسلتنى ابتسامته بنور أشرق فى صدرى ، وكأنى قد قبضت المائة جنيه

التي يتحدث عنها .. ولاحظ أن وجهى أشرق .. فسألني فى مرح :

- هيه .. إيه رأيك ؟

قلت له :

- والنبي فكرة .

فقال بصوت حاد :

- بس المهم .. أنك تلاقى مكان تانى .. دلوقت فيه أزمة مساكن .

تظرت إليه فى غير فهم .. لم أكن أنتظر منه أن يثير أى عقبات .. إنه المنقذ

الذى جاء ليساعدنى ..

ولكن قبل أن يخيب ظنى .. سمعته يقول فى فرح :

- إما ماتعوليش هم .. أما عندي مكان رخيص ، تقدرى تعزلى فيه
الهارده

وعاد يثبت عينه في عيني ويسألني
.. هيه . إيه وايك ؟

في هذه اللحظة فقط ، اضطريت مشاعري تحوه . وخفت ان أوافقه ،
وابتأبنتى ريبة مفاجئة فيه . واستطعت أن أفرعيني من عيني .. وأنا أسأل
بفسى .. من يكون هذا الشاب . ما الذى يجعله يهتم بأمري ، ما سره .. إني
لا أعرف أى شيء عنه .. لا أعرف حتى اسمه . .

وفاجاني قائلاً :

- أنا اسمي شوقي .. شوقي محمود ..
وابتسم ..

وكانت ابتسامة صادقة ، حارة .. من القلب ..

وأحببت ابتسامته ، ووددت لو أطيل النظر إليها ، ولكنى أطرفت بذهنبى ،
وأدركت أنه قرأ أفكاري ، في خجل ، وأرتكبت ، فقد شعرت أنه عرف انى
أتسام عن اسمه .. وأثمتك في أمره ..

ورغم أن الاسم الذي ذكره لم يكن يعنى شيئاً بالنسبة لى ، إلا أن مخاوى
زالت بعد أن سمعته .. وعاوننى إحساسى الأول بأنه سيساعدنى في
ورطتى ..

وتعفيت لو أستطيع أن أتخلص من خجلى ، واعتذرله عن ريبتى فيه .
وقال بصوت امتزجت رفته بلهجة السريعة :

- أنا رسام بأشتغل هنا .

وأشار إلى بناء جريدة الأيام ، ثم سكت ، وأرتعشت شفته السفلى وهو
يحدثنى من خلال نظارته . كأنه يتفرج على ما يدور في داخلي .

وأردت أن أقول له أى كلام ولكنى احترت ، فهو يريد أن يعرف رأى فيما
يعرضه عني ، وأنا عاجزة عن اتخاذ قرار سريع ، كان من الصعب علي أن
أوافقه في الحال على ترك بيتى ، وأذهب معه إلى مسكن جديد ..

شعرت وكأني أعيش في حدوده .

وأنا واقفة عند مفترق الطرق ..

وهو .. بجسمه النحيل .. ونظارته وعينيه القويتين ، وصوته الرقيق ،
كأنه أمنا القولة ، التى تعترض الناس عند مفترق الطرق ، هذا الم يحيوها ولم
يقرأوها السلام ، أكلت لحمهم قبل عظامهم ، وإذا حيوها وقرأوها السلام ،
قالت لهم كلاماً حلواً ، وأرشدتهم إلى طريق السلامة ..

وها هو يتحول بمرعة من غريب الخاف منه وأخشاه ، إلى صديق ، يتسم
في وجهى ويقول لى كلاماً حلواً ، ويرشدنى إلى طريق السلامة .

ولكنى أحس انى قادمة على مغامرة .. مغامرة أواجه فيها المجهول ..
تبعدننى عن حياتى السابقة .. عن أمى ، عن راتب بك ، عن ذكرى زوجى ..
تبعدننى عن يوسف ..

لو وافقته ، فسأؤلف بنفسى في حياة جديدة ، لا أعرف كيف سأواجهها ..
وإن كان قلبى يحدثنى بأنى سأجد فيها السلامة ..

هل أتخل عن كل شيء ، وأتبعه من أجل إحساسى المبهم بأنه
سيساعدنى .. ومن أجل ابتسامته ..

قلت وأنا أحاول تأجيل قرارى

- وإن ما عرفتش الجرا الشقة ؟

فقال بصوت حاسم ، وكأنه يصدر أمراً وهو واثق من تنفيذه :
- لازم تتأجر .

وأعجبتنى ثقته بنفسه ، ولكنى أحسست أنه يدفعنى إلى ما يريد فقلت له
وعقلى يقاوم مشاعر قلبى :

- طيب لما أفكر ..

فقال فى الحاح غريب :

- تفكرى في ايه .. انت معندكيش وقت تضيعيه .

ثم أرفف قائلاً لدهشتى :

- أنا جى معاكى لموالتى .. ح أتكلم مع البواب وأتفاهم معاه .. وقبل

أن نصل إلى شارع الفلكي ، اشتدت مقاومة عقل ، وعلودنى خوف مفاجئ ،

وقلت له

— موش أحسن استنى في البيت ده ..

فقال دور أن يلتفت إلى :

— لا

وصدمنى رفضه القاطع ، فوقفت مكانى ، حتى أمتعه من أن يتقدم خطوة أخرى إلى البيت وقلت له :

— ويمكن أقبض المعاش بكرة .. وتفرج ..

فنظر إلى وشفته السفلى ترتعش ، وثورة تصبزم في عينيه ، وقال في غضب لم أشعر أنه موجه إلى ، وإنما هو غضب من شيء مجهول يراه هو ولا أراه أنا :

— أنت فاكرة الحكومة ح تديكى معاش صحيح ..

فسأله ، وكلماته تدق بعنف في صدري :

— قصدك إيه .. المعاش ده حقى ..

فصاح وعيناه تكدان بالغضب ، وصوته ثورة :

— حاك .. هي البلد دى فيها حقوق ..

فصحت وأنا أتشبث بابنى :

— أمال أوكل ابنى منين .. أسيبه يموت ..

ودهمنى خاطر قوى بأنه يكذب على لفرض في نفسه ، وتبددت لهجة كل مشاهيرى الطيبة نحره ، لم يعد الشاب الذي سينقذنى ، لم يعد الشخص الذي أستريح إليه وأصدق وأحب ابتسامته .. لقد اختفت ابتسامته ، وأصبح غريباً عني .. وإنه يخدعنى ، إنه يقودنى إلى طريق الندامة .. يريد أن يأكل لحمى قبل عظامى ..

إنه شرسير ..

قلت له في حذر :

— يوسف عارف كل حاجة .. وقال لى إنه ح يجيب لى معاشي ..

- ١٣٤ -

فتلفت حوله في ضيق ، كأنه يريد أن يتحرر من شيء يكتم أنفاسه .

ثم هدا فجأة ، وأطرق برأسه ..

وقال وهو يرقع عينيّه بيظه لتلتقى بعيني :

— اسمعى يا متنى .. أنا موش قادر أكذب عليكى زى ما عملوا معاكى ..

فصائلته في غير فهم :

— مين هم اللي بيكذبوا على ؟

فأجاب بصوت حاول جاهداً أن يكسبه رقة وخزاناً :

— أنت لازم تعرفى الحقيقة ... علشان تعرفى تتصرفى ..

وبرقت عيناه وقال بسرعة :

— يوسف كان في الجرنال وأنت هناك ..

فصرخت :

— يوسف ...

فاستمر يقول :

— بس هدى نفسك ..

قلت وغمامة حمراء تتكاثف أمام عيني ، وهاتف يندرنى بأنه صادق لي

كلامه ، فأحاول يائسة أن أكذبه ..

— وما كانش عايز يشوفنى ليه ..

فقال وعمل وجهه علامات ألم وفي صوته ألم :

— وما كانش عايز يشوفنى ليه .. فقال وعمل وجهه علامات ألم وفي صوته ألم :

— أصله عارف إن مافيش غايده في المعاش ..

وروى لى كيف صعد إلى يوسف ، وطلب منه أن يهبط إلى ، ولكن يوسف

رفض أن يرائى ، وكاد شوقى أن يتشاجر معه ، ولكن يوسف صمم في عباد الا

يقابلنى ، وقال إنه لم يوافق على زواجى من أبيه ، وإنه غير مسئول عما يحدث

لى .. ثم قال إنه سأل في إدارة المعاشات فعرف لى لا أستحق معاشاً لأن

عبد الحميد أقندى تزوجنى وهو فوق الخامسة والخمسين . ولماون

الحكومة يمنع إعطائى المعاش في هذه الحالة ، وإن أملى الوحيد هو فى أن

أحصل على ثلاثة أو أربعة جنبيات لا يراهم .

أما أنا فلا أستحق ملياً واحداً . ورفضت أن أصدقته .. لو صدقته كنت وقعت من طولى على الأرض . وصُرخْتُ فيه ، رغم إحساس كاليقين يؤكد لي أنه قابل يوسف ، وأن كل ما يذكره صحيح .. صرخت لا كنم الحقيقة ، ليطغى صراخى فوقها .. صرخت في يأس .

وتحملنى صابراً ، وهو يردد محاولاً تهدئتي :

— ماتخفيش .. ماتخفيش .. أنا موش ح أسيبك .. الناس لبعضهم .. الدنيا بخير .. صدقيني .. الدنيا لسه بخير .

ولم أسمع كلامه . كنت أتمنى . لو انشقت الأرض وابتلعتني من أمامي .. ابتلعتني هو وكل ما قاله لي ..

وما كادت هذه الأمنية تطوف برأسي ، حتى فرغت .. كيف أتمنى أن يتركني وحيدة ، ماذا أصنع لو ذهب وتركني ضائعة .. هو الصوت الوحيد الذي أسمعه . هو العين الوحيدة التي تنظر إلي ..

يارب . لو ابتلعتني الأرض .. فلتبتلعني معه .. حتى لا أكون وحيدة في ضياعي .



بعد أيام قليلة ، سلمني إبراهيم البواب خمسين جنبياً دفعها مستاجر جديد للشقة ، وكان قد خصم الإيجار المتأخر وأخذ لنفسه عشرة جنبيات .. صررت النقود في منديل ربطته في قميصي ، ودفسته في صدري . وحملت إبراهيم على كتفي ، وذهبت مع شوقي لأرى مسكني الجديد .

تركنا الشوارع الواسعة وراحنا ، ودخلنا في طريق ضيق ملتو .. يزينهم بالرجال يلبسون الحلابيب ، والنساء يلتفتن بالملاءات السوداء ، والدكاكين الصغيرة على الجانبين .. والحمير تسير مطمئنة ، تجر عربات عليها أحمال ثقيلة

الضجة عالية ولكنها لا تزعج الأذن كأنها ضجة في حلم ، وأحياناً تهجم على الطريق مبيارة فيتحول الحلم إلى كابوس ، وتصرخ أبواق العبيارة . وتسد

الطريق . وتكاد تدوس من يسير كنا نسير في عالم آخر ، فقير ، له رائحة ، وفيه مساجد كثيرة ، ومآذن عالية .

مشيت وسط الزحام ، وكان أيدي كثيرة تدفعني وتحشرس بين الناس تريد مني أن أتوه في هذا المكان فلا أعرف كيف أخرج منه . خيل إلي أنني لو نظرت خلفي فسأرى بين هذه الأيدي التي تدفعني .. يد يوسف ..

ووصلنا إلى بوابة كبيرة ، قال لي شوقي إنها بوابة المتولي . شعرت برهبة وأما أمرتها ، كأنها تقص لي سر . ودخلنا في طريق ضيق معتم مسقوف ، وقبل أن تصل إلى نهايته وقف شوقي عند باب كبير على يميننا ، يجلس عنده ثلاثة رجال يتناصبون ، نظروا إلي بعين نصف مغمصة ، وحياتهم شوقي بصوت مرتفع ، كأنه يوقظهم ، فرددوا التحية بصوت فيه استرخاء ، ولكن لا تنقصه الحرارة ..

وسأل شوقي أحدهم

— شكري ما جاش يا عم برعى ؟

فأجابته الرجل بصوت كالنائم :

— لسه .. ما جاش ..

واجترنا عتبة الباب إلى غناء كبير .. يشغل مساحة منه نجار يقطع لوحاً من الخشب ، رفع عينيه ورد تحية شكري في حرارة ، وصاح دون أن يتوقف عن عمله :

— أنت ناسيني والا فاكركي يا أستاذ ..

وصاح شوقي :

— أيوه فاكرك .. أمال يا أسطى مله ..

فهتف الرجل :

— أهو البركة فيك ..

وفي نهاية الغناء رأيت مصبحة جلود حمراء ، وإلى جانبها حفرة حولها حجارة ، وقد جلس فوقها صبي يقص حنجرته وينظر إلي في مصول .. وقف شوقي أمام باب مغلق بجوار المصبة ، باب صحم من الحشب

السميك العتيق ، رفعت مصرى فوقه قرأيت طابقتين ، لكل واحد منهما نافذتان كبيرتان .

وأشار شوقى إلى الطابق الأول ، وقال لى : إن هذا هو مسكنى الجديد ثم ابتسم كأنه يتوسل إلى أن أرضى عنه .. وكان قد قال لى : إنه يمكن فى الطابق الأعلى ، ومع ذلك سألته :

— وأنت ساكن فوق ؟

قال وقد اتسعت ابتسامته :

— أبوه ..

وصاح شوقى فى الصبى الذى مازال يجلس القرفصاء ،

— أمك فىن يا واد ..

فأشار الصبى إلى شعل الباب ، وقال :

— جوه ..

وتبينت فجأة أن عن شمالى حجرتين متلاصقتين .. تقدم شوقى من باب إحداهما ودق عليه صائحاً ..

— ست أم حنلى ..

فسمعت صوتاً ضعيفاً منكسراً .. صوت امرأة تتأوه قائلة

— حاضر .. أنا جايه أهوه ..

وظهرت امرأة بديئة ، لاصلة لها بالصوت الذى ..

سمعت ، تتأرجح فى مشيتها ، فترمى بثقلها كل على قدمها اليمنى ، ثم ترمى به على قدمها اليسرى .. واقتربت وكأنها تتدحرج نحونا ، وكانت تلهث ..

وقال لها شوقى إنى أم إبراهيم وكان قد حدثها عنى من قبل فنظرت إلى بعينين طيبتين وقالت بصوتها المنكسر :

— أهلاً بيبكى يا اختى ..

وتقدمت نحو الباب المغلق ، وفتحته بفتح ضخم ، وصعدنا أربع درجات

عالية من الحجر ، فقابلنا باب كبير .. دقعه شوقى بيده ، فأحدث صريراً

عالياً ، وصعدنا سلماً خشبياً ضيقاً ، حتى وصلنا إلى الطابق الأول ..

دق قلبى وأنا أرى المكان الذى سأسكن فيه ، إنه مقبرة للموتى ، لا بيت للأحياء ، حجرة ضيقة تفضى إلى حجرة أوسع منها .. أرضها من الحجر ، يغطيها التراب ، ويعيش العنكبوت فى سقفها الخشبي ، ولولا الضوء الذى يدخل من النافذتين ، لأيفنت أن الجن والعفاريت تجتمع فى هذا المكان .

كنت أخشى أن ألتفت حولى ، حتى لا أرى الوحشة والرعب ، فاطرقت

برأسى فى استسلام يائس ، ووقفت عاجزة عن المقاومة أو الاحتجاج ،

كالنومة ، أفعل ما يأمرنى به شوقى وعزائى الوحيد أنه إلى جانبى يحدثنى

ويهتم بى ..

لقد تحققت أمنيتى .. ها هى الأرض تنشق وتبتلعنى مع هذا القبر .

ليتنى كنت تمنيت شيئاً أفضل من هذا ..

ونظر إلى شوقى ، وقد لاحظ صمتى وله شعربا أنا فيه ، فضحك

ليخفف عنى ، وانطلق ليثرثر عن غير عادته ، مؤكداً لى أن كل ما أراه

سيغير ، وأشار إلى النوافذ الكبيرة والسقف العالى ، وقال : إن كل هذا نعمة

لم أكن أشعر بها فى بيتى الأول ، وجعل يكرر أنى بمجرد أن أفرغ من تنظيف

المكان وأنقل أثاث بيتى إلى هذا ، سأحس بالراحة والسلام ..

وصاح فى مرح :

— ما تعملنا شأى يا أم حنلى ..

قالها وكأنه يريد أن يحتفل بمجئى ، فقالت المرأة فى حرارة :

— من عيشى يا أخويا ..

ونذهبت لتعد الشأى ، بينما صعدت مع شوقى إلى مسكنه فى الطابق

الأعلى ..

قابلتنى نفس الحجرتين ، ولكنهما كانتا فى حلة عجيبة .. تزدهم لى

الحجرة الأولى أكداً من الصور بعضها فوق بعض ، وقد تراكم عليها

التراب وصناديق خشبية .. وأوراق مبعثرة ، وزجاجات فارغة ، وستارة

ممزقة ملقاة على الأرض .. لالون لها .

أما الحجرة الثانية ، فكانت نظيفة ذكرتنى بصور قديمة باهتة عن حجرات

شبيهة بها في بيوت قريتنا .. الحصى على الأرض ، وكتبتان كبيرتان
ملا مساند . وكراسى من الخشب والقش ، ومنضدتان ودولاب من الخشب
مطلي باللون الأحمر ..

الشيء الذى أدهشنى هو الصور الغريبة المعلقة على الجدران ، تطل منها
وجوه مشوهة ، مخلوقات لها عدة رموس ، وجه واحد له أربع عيون .. كلها
صور تشيخ الفزع ، ماعدا صورة واحدة لحمامة بيضاء ..

وكان في وسط الحجرة حامل عليه لوحة كبيرة من القماش مرسوم عليها
خطوط غليظة سوداء ، كأن طملاً عبث فوقها بقلم ضخم .
وطلب منى شوقى أن اجلس على أريكة بجوار النافذة وقال وهو يتنهد :
— أهو أنا بأرسم هنا ..

قالها وكأنه يزفر متاعب كثيرة من صدره .
ونظرت من جديد إلى الصور ، كانت مفزعة ، لا يرسمها إلا مجنون يريد
أن يخيف الناس ، ولم أستطع أن أطيل النظر إليها .. ولفز إلى رأسى سؤال
مفاجيء .

— أنت سايب المفتاح مع أم حنفى ليه ؟ ..
فحدق في وجهى طويلاً ، وبدت عليه إمارات تفكير عميق ، كأنى سألته
سؤالاً صعباً .. ثم قال ببطء :

— علشان فيه ناس بتيجى تزودنى بعض ساعات ..
وارتعشت شفتى السفلى .. وسألتنى .

— إيه رأيك في الصور ؟
سألته .

— التصاوير دي بتاعظم .
وكنت أتمنى أن ينكر أنه صاحبها ولكنه هتف لأدهشنى :
— أيوه

قلت له في حية أمل
— شكلها يخوف ..

مضحك ، كأنه فرح بما أقوله .. وهتف ..

— أهو أنت فهمتيها .. شوقى الناس حياتها محبطة إزاي .. شوقى العذاب
اللى هم فيه .. الناس يتاكل بعض . العصى بياكل المقير يبهش بحمه
وقطع كلامه ، ونظر إلى متصانلاً
— كده .. والا لا ..

ولم ينتظر جوابى واستمر يقول

— أهى الناس بقى شكلها يخوف حياتهم تحوف .. أفكارهم تحوف .. أما عايز
كل واحد يشوف الصور دي .. ويخاف على نفسه .. يثور .. ما يسكتش ...
واقترب منى وهو يلوح بيديه . كأنه يحارب شيئاً أمامه ، وقال :

— شوقى أنت الناس علوا فيكى إيه . شوقى الحكومة عملت فيكى إيه ..
وابتسم فجأة .. وسكت .. وأمال برأسه ، كأنه ينصت إلى صوت
لا أسمع . ودأب على شعور غامض بأنه ينصت إلى صدى كلماته ..
وجلس إلى جانبى ، وقال بصوت رقيق حالم :

— بكرة يامبروكة الدنيا تتغير .. موش ح يبقى فيه ظلم .. واحدة زيك موش
ح تخاف على نفسها ولا على ابنها .. ح تعرف تعيش .. زى الأغنيا ما هم
عايشين ..

كانت أول مرة ينادينى فيها باسمى أول مرة أسمع مبروكة على لسانه .
نطق باسمى فكاننى أسمع له لأول مرة في حياتى .. وسمعته بقلبي ، لقد
عشت وأنا أسمعهم في بيت راتب بك ينطقون باسمى في هدنة . ينادون باسمى
وهم يصرخون ويزعقون وأجرى لالبى النداء ، وبعد ذلك سمعت عبد الحميد
يناديبنى باسمى . فكان ينطق به أحياناً في حماس وأحياناً في توسل وضراعة ،
وأحياناً في ضحك أو عجز .. أما شوقى فقد نطق باسمى في رقة وعذوبة ، نطق
به وكأنه يعرفنى كما أريد أن أكون .. يعرفنى بأحلامي ، بخبايا نفسى ..
وشعرت بمرارة ..

ليتنى أستطيع أن أصدق ما يقوله لى .. إن الدنيا ستتغير . وإن الناس
يوماً سيفتقون باسمى كما ينطق هو ..

نحن الاثنان في موقف غريب .. إنما في بيت متهدم ، يتراكم علينا التراب ،
ومع ذلك نحلم أحلاماً جميلة .

كيف يحقق هذه الأحلام .. إنه لا يملك سوى الحديث عنها ، وأنا لا أملك
سوى الإنصات إليه ، وكلما مضى يوم سابتعد أكثر عن دنيا الأغنياء .. وكلما
مريوم سوف أحس بأر الأيدي التي تدفعني إلى هذا المكان تسد أمامي طريق
الحياة التي أتمناها .. الطريق الذي سار فيه يوسف وحده وقد رفض أن أسير
فيه إلى جانبه ..

ومع ذلك فأنا راضية بهذا المكان لأنني أستطيع أن أتحدث فيه مع شوقي ،
وأرى ابتسامته . واسمعه وهو يناديني فكأنه ينادي أحلامي .
وابتسمت

لسألني :

— بتضحكى على إيه ..

قلت له في ارتباك :

— ولا حاجة ..

فابتسم وقال في ثقة :

— باين عليكى مبسوسة ..

ولدهشتي كنت أشعر فعلاً براحة في صدري ، كان كل الفوضى والقدارة
والتراب في هذا البيت ، قد خرجت من جسمي ، كان الخوف والفزع قد فرا
من قلبي ، انتزعهما شوقي ، وعلقهما أمامي في تلك الصور على الجدران .
وهمست :

— الحمد لله ..

وسمعت صوت السلم الخشبي يئن تحت وطأة أقدام أم حنفي . واسرع
شوقي إليها فأخذ منها حبيبة الشاي ودخلت هي وراءه وفي يدها مكنتان .
وكان هذا إيذاناً بأن نبدأ في تنظيف بيتي الجديد ..

لم أصدق أن أم حنفي تستطيع أن تفعل كل هذا المجهود ، رغم بدانتها
ورغم أنها تلهت ، إنها كتلة من الحيوية والنشاط ، كانت تعمل ككالات نساء

اجتمعن في جسد واحد .

واقبلت معها على العمل ، وتركت ابني إبراهيم مع شوقي يلعبه .
وفي اليوم التالي نقلنا الأثاث إلى الحجرتين ، ولم أتبّه إلا والليل قد أقبل ،
والظلام يخيم عليّ ، وكنت متعبة ، فتكاسلت عن إضاءة اللمة وجلست شاردة
لا أفكر في شيء .. كان عقلي يستريح من الدوامة التي كان فيها ..

واقفت على صوت شوقي يصيح في أسفل السلم ..

— اللمة فين يألم إبراهيم ..

فانتفضت ، وجريت نحوه ، فرأيت به يصعد السلم ، وفي يده هود ثقاب
مشعل .. ومن خلفه أشباح تصعد وراءه ، فتهاز السلم تحت وقع أقدامها ..
وصاح شوقي بلهجة أمرة :

— أنت موش مولعة اللمة ليه ، روحى ولعبها ..

ولكني لم أتحرك من مكاني .. وقد طفت عليّ مفاجأة القادمين معي ، كانوا
ثلاثة .. حيونى واحداً بعد الآخر ، وهم يتفرسون في وجهي في الظلام ،
واستمروا في صعودهم وهم يتكلمون بلغة غريبة ..

وعدت إلى حجرتي ووقفت حائرة ، وقد استولى عليّ شعور أكبر من
الدهشة .. شعور بأن هناك شيئاً ما لا أفهمه ..

واكتشفت أن هؤلاء الغرباء يضايقوني ، وأني كنت أتوقع أن يجيء شوقي
وحده ، وأنا سأنجلس وحدها وتحدث ..

وقفز إلى راسي سؤال خبيث :

ما الذي جعلني أتوقع مجيئه وحده .. ما الذي جعلني أفكر في أنني
سأنجلس معه ، وقد أقبل الليل .. وضمننا بيت مخلق علينا .

انسييت أنه رجل .. وأني امرأة لا .. أنا لم أنس .. ولكني لم أشعر لحظة
واحدة أنه يعاملني كأمرأة يريد لها .. لقد أشعرني دائماً أن حياتنا معاً شيء
طبيعي .. كحياتي مع ابني إبراهيم ..

وعجبت .. أمممكن هذا ، كيف لم أفكر في علاقتي به قبل الآن ، ربما لم يكن
عندي وقت للتفكير ، ولكن هاأنذا أفكر .. وأتساءل .. إنه لا يعاملني في خجل

ولا يتهرب منى مثل يوسف . وهو لا يعاملنى مجراًة مثل مدحت ، وهو ليس صعيماً .. أستطيع أن أسيطر عليه مثل عبد الحميد ..

إيه من نوع آخر .. من يكون هذا الشاب ؟

إيه ليس روجى ، وليس حبيبي ، فمن يكون ؟

أهو ملاك هبط من السماء لينقذنى .. إتنى لا أستطيع أن أفكر فيه كل

لحظة كملاك .. لا أستطيع أن أعماله كل لحظة كملاك .. لايد أن يأتى الوقت الذى أعماله فيه كرجل .. وأنظر إليه كرجل ..

ولقد جاء هذا الوقت ..

جاء الآن وأنا أراه يصعد السلم فى الظلام مع أصحابه ، فأشعر بالضيق نحوهم . بل أعار منهم لأنهم يجلسون معه ، وأنا بعيدة عنه ..

يجب أن أعترف أنى أفكر فيه الآن كرجل ، وأنا لا أخجل من هذا الاعتراف ، أنا لا أخجل من شوقى ، فأنا أحس أن حياتى ملكه ، من حقه أن يفعل بى ما يشاء .. أنا من غيره لا شيء .. لا شيء على الإطلاق ..

وارتجفت عندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير ، أدركت أنى على استعداد لأن أمنحه كل شيء ، دون أن أشعر بانى أعطيته شيئاً .. أمنحه نفسى بلا خجل وبلا ندم .. وبلا تردد ..

خفت من أفكارى ، فأسرعت إلى اللبنة أشعلها لعل ضوءها الشاحب يطرد ما فى رأسى من خيالات .. وأمسكت باللبنة وصعدت وكان قرة تجذبني إليه . كنت أريد أن أراه ، وأنفوس فى وجهه ، رقبتي يخفق بجنون جارف إليه .. ودهشة تملأني من هذا الشعور الذى تفجر فى ..

وسمعت أصواتاً عالية تنبعث من حجرتى الداخلية ، فوقفتم مقرعدة فى الدخول ، وقد حجبتنى عنهم اللوحة الكبيرة التى تتوسط الحجرة .. وحاولت أن أنصت إلى ما يقولون ، كماوا قد كفوا عن الحديث باللغة الغريبة . ولكنى عجزت عن فهم كلامهم .. كل ما فهمته أنهم ينادون بعضهم البعض بلقب زميل .. الزميل شوقى .. الزميل شكرى .. الزميل صبرى ..

وسكتوا فجأة ..

ورأيت شوقى يقفز من وراء اللوحة ومن خلفه تطل وجوه أصحابه تبحلق فى وجهي فى قلق ..

وقال شوقى وهو يبتسم فى عصبية :

— إيه .. فيه حاجة .

قلت له :

— اللبنة ولعتها ..

وسمعت أحد أصحابه يقول كلاماً بتلك اللغة الغريبة .. فعلمت أنه لا يريد

أن أفهم ما يقول .. وخاطبه شوقى بنفس اللغة ، ثم التفت إل قائلاً وهو يتصنع الهدوء

— طيب خطيها على رأس السلم .. عشان فيه ناس جايين ..

قضيت تلك الليلة ساهرة فى حجرتى ، أنصت إلى أقدام تصعد ، وأقدام تهبط .. وأنا أتسائل عن سر هؤلاء الغرباء .

ومضت شهور وشهور ، حدث خلالها ما كان لابد أن يحدث .. فاطمان
أصحاب شوقي إلى وتعدوا أن يلقوا معي قبل صعودهم إليه .. يضحكون ،
ويسألون عن إبراهيم ، ويلاعنونه أحياناً .. وكنت لاحظ مرهم بعض
الأيام .. ووجههم في أيام أخرى ، وكان شوقي يناديني فأصعد إليهم وهم
مجمعون في حجرته .. فيجمعون نقوداً يعطيها شوقي لي .. ويطلب مني شراء
طعام ، فأخرج وأشتري لهم جبناً وحلاوة طحينية وسجائر هوليود .. ثم
أعود .. واتمش معهم ..

وأصبحوا لا يتخرجون في الكلام أمامي ، وكانت تدور بينهم مناقشات
غريبة عن مظاهرات يستعدون لها في المدارس والأزهر والجامعة .. ويختارون
الهتافات التي سيرددونها في المظاهرة ، ثم يقف واحد منهم وينظر إلينا وكأننا
مجموع المتظاهرين ويهمس بالهتاف : « عاش كفاح الطلبة مع العمال » ..
فيحتج أخريان هذا الهتاف ناقص لأنه لا يذكر الفلاحين ، ويقف ويهمس
هاتفاً : « عاش كفاح الفلاحين والعمال والطلبة » ..
وتشتد المناقشة ..

كنت أنصت إليهم .. وأنا أعجب مما يدبرون ، وكانوا في نهاية الليل
يحصمون المناقشة ، وغالباً ما يذعنون لكلمة شوقي ، الذي يطلب من كل واحد



منهم أن يذهب إلى مكان صبري يذهب إلى الأزهر ، وشكري يذهب إلى الجامعة ، ومحمود يذهب إلى المدرسة السعيدية .. ليتدسوا بين المظاهرة .. ويرددوا الهتاف الذي اتفقوا عليه ..

وكت أحمد الله أن شوقي لا يذهب إلى مكان .. كان يفكر معهم ، ويدير خطة المظاهرة طوال الليل ، ثم يذهب إلى عمله في جريدة الأيام في الصباح ، وينتظر هناك أخبار المظاهرات ، ويعود في العصر ليروي في ما حدث ، فأشعر وكأنه هو الذي يحرك أحداث القاهرة . هو الذي وراء الترموايل المثلوية .. والفوانيس المحطمة .. والحجارة التي يقذف بها المتظاهرون الشرطة .

كان يبهرني وهو يتحدث عن كل هذا ، وأكاد أشعر أنني شريكته في تدبير كل شيء ، وأني قوية مثله .

وكان شوقي يقول لي في حماس :

- كل ده علشانك يا مبروكة .. وعلشان إلى زيك ..

فأقول له في حماس أكبر :

- امتي يتحقق كلامك ..

فيجيب بأسماء :

كلها سنة .. والا اتنين ..

وأحياناً كنت أصبح فيه وقد نفذ صبري :

- لسنة سنة ، والا اتنين .. أنا عايزة أهبس دلوقت .. دلوقت ..

فينظر إليّ في وجوم ثم يقول :

- موش لازم الناس كلها تنور .

فأقول في غيظ .

- وأنا مالي .. ومال الناس .. بس أنا أقدر أعيش ..

وعندئذ يبدو عليه الارتباك ، ويقول لي كلاماً كثيراً لا أفهمه ، إذ كنت استسلم لعينيته وهو يتحدث ، أدعها تنفذان في عيني ، فلا أسمع كلامه ، وأشعر بقوى تراخي ، وبرغبة في أن يكف عن الكلام ، ويطلقني بذراعيه ويقبطني ، ويمنحني شيئاً من قوته ..

وسمعت شوقي ذات ليلة يروي لأصحابه ما سمعه في الجريدة عن أخبار مفوضات صدقي باشا ورئيس الوزراء مع الإنجليز .. وقال لهم - إن صدقي باشا وافق على توقيع المعاهدة ، فحدث هياج شديد بينهم .. وأثناء احتدام

المناقشة ، سأل واحد منهم شوقي

- أنت متأكد من الكلام اللي بتقوله ؟

فأجابه شوقي :

- أيوه .. يوسف هو اللي قال لي .

وانتفض الاسم في قلبي ، كأنه كان مانعاً فيه واستيقظ ، ونظر إليّ شوقي وكأنه يعتذر لي ، فحاولت عيني بعيداً عنه ، متظاهرة بأني لا أكثر بشيء .. وتركتهم وذهبت إلى حجرتي .. وقلبي مازال ينتفض .. كنت أنا وشوقي نتحاشى ذكر اسم يوسف ، ولكنني كنت أذكره وحدي بين وقت وآخر ، إذ تباغتني صورته بلا سبب . قد استيقظ في الصباح فأجد نفسي أفكر فيه ، وغالباً ما أذكر مقابلي الأخيرة له في مدخل الجريدة وهو يعطيني الخمسين قرشاً ، ويعدني بأن يزودني في الغد ، ثم يقفز درجات السلم ويختفي .. وكنت أحاول أن أصعد بخيالي إلى المكان الذي يجلس فيه ثم أتساع .. أين يسكن الآن ، وهل يفكر في الزواج ، ثم أتخيله وهو قادم إليّ ، يطرق الباب ، ويدخل ، وينظر إليّ في خجل ، ثم يعتذر لي ويتوسل إليّ أن أذهب معه إلى بيته ، لينفق معي وليتولى تربية إبراهيم

وأحار لماذا أقول له ، هل أواقعه وأذهب معه ، وأترك شوقي ، أم أتشبث بحياتي هنا ، وأطرده في قسوة .. وأعامله كما عاملني ؟ .. وأفبق من خيالي .. فأنساه . أحاول أن أنساه ..

ولكن أشعر الآن ، بعد أن سمعت اسمه على لسان شوقي ، بأنني أريد أن ينتفض الاجتماع ، لأسأله عن أخبار يوسف ..

وانتظرت حتى سمعت وقع أقدامهم وهم يهبطون ، فخرجت لهم وودعتهم . ورأني شوقي فسألني في دهشة :

- إيه اللي مصحكي لدلوقت ..

قلت له .

- أعملك شاي

فقال في استسلام

- طيب .

وصعدت إليه بالشاي ، وحملت أثرثر وقد وجدت صعوبة في ذكر اسم يوسف . خشيت أن أسأله فيدرك أنني لم أتم لأنني أفكر في يوسف ، وأنا لا أريد أن يعلم هذا . لا أريد أن يعلم أحد في هذه الدنيا أنني أكثرت بيوسف ، أو أفكر فيه . بعد كل الذي صنعه معي .. ليتني أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في يوسف .. وأنساه إلى الأبد .. وأستريح .. ليتني ..

وحاولت في حذر أن أدعوه هو إلى ذكر يوسف .. فسألت عن صديقي باخا والإنجليز .. فبدأ به ينطلق في الكلام عن الأغنياء الذين يملكون أموال الفقراء مع الإنجليز .. ويشرح لي تلك الكلمة التي كان يرددتها دائماً هو وأصحابه .. الشيوعية ..

وحاولت هذه المرة أن أفهم ما يقول فوجدته يتحدث عن شيء كالعلم .. إن الناس ستأخذ ما تريد .. الطعام الملابس .. البيت المريح .. ولم أستطع متابعتها .. إذ حلمت معه ، فتركته يواصل كلامه . وحلمت أن ابني إبراهيم يلبس البذلة .. ويذهب إلى المدرسة .. وأنا في بيت مثل بيت راتب بك ، أجلس في الصالون أستقبل ضيوئي .. كلهن سيدات أنيقات .. مثلي .. يتحدثن معي .. وإسماعيل خادم هندي يقدم لنا القهوة والشراب .. ثم نظرت إلى شوقي وهو مازال يتكلم ، وقلت لنفسي ، إنه أبو إبراهيم ، وهو يعيش معي في البيت الكبير ، وهو رجل غني ، أمواله لا تحصى ولا تعد ، يكسوني كل يوم بالحرير والذهب والماس ، ويملك عربة تقف عند باب الحديقة

وفجأة ، اقتحمت ستي الصغيرة الحلم رغماً عني ، فرايتها تدخل

- ١٥٠ -

الصالون ، وتنتظر إني في أشعث أزعج وتطردني من البيت ، وأنا أجزى وقد تركت إبراهيم ورأني يصرخ .

ثم سمعت صوت إبراهيم يشير إلى شوقي ويقول باكياً .. ده موش بابا .. بابا مات ..

وانقبض صدري ..

وعدت أحاول أن أفهم ما يقوله شوقي عن الشيوعية ، وقد ظن أن سمعتي ليل على اهتمامي بكلامه . ولكنني فكرت في أن الفجر أوشك على الطلوع ، وما نحن نجلس في غرفة واحدة ، وهو بعيد عني ، يقول كلاماً غريباً لا أفهمه .. كأنني لست امرأة ، بل واحدة من أصحابه العديدين ..

وبدأت أشعر بالغضب نحوه .. وحاولت أن أحلم من جديد ، عدت إلى الصالون وجلست فيه ، ولكن وجه يوسف قفز إلى فجأة ، وملا عيني ..

فهزئت رأسي ، اطرد صورته ، وشعرت في تلك اللحظة أن شوقي مثل يوسف ، كلاهما يبعد عني لسبب لا أفهمه .. يوسف يصعد سلم الجريدة ويخطفني مني .. وشوقي يضع بيني وبينه حاجزاً من الكلام الغريب ..

وكان شوقي مازال يتكلم فنظرت إليه في غيظ ، أي قدرة له على هذا الكلام المستمر .. ما فائدة كلامه الذي لا ينقلنا من هذا البيت العتيق ولا ينقلنا من الفقر ، ولا يجعلنا نطبخ اللحم هذا الصباح .. كلامه لن يكسو إبراهيم .. لن يجلسني في الصالون الذي أحلم به .

وصمت فيه فجأة .. بصوت ساخر

- أهو كلام بتقوله ..

فعدجني بنظرة غاضبة .. أراحتني ، إذ شعرت أنني عاقبتة على كلامه الكثير ، شعرت أنني انتشلته من حلمه الذي لا معنى له .

شعرت أنني أعاقبه .. لأنه لم يفكر في تقبيلي ..

كنت أود لو يتنفض من مكانه .. ويقبلني ، ويخلصني من هذه الحواطر المشغلة في رأسي ..

لوفعل ذلك ، لما سخرت منه . وانطلق السؤال الذي كنت أكتفه وحدتي

أقول له في انفعال

- أنت ما تقوليش يوسف عامل إيه ..

شعرت وأنا أذكر اسم يوسف هذه المرة ، أنني أقول لشوقي إنه ليس كل شيء في حياتي .

وفاجأه السؤال ، ما تعشت شفته السفلى ، ونظر إني في دهشة وقال .

- إيه اللي خلاكي تعكريه دلوقت ؟

قلت له ساخرة

- موش قريبي .. ولازم أسأل عنه ..

ثم قلت كأنني أقنعه بسبب سؤالي ..

- أصلي سمعتك بتجيب في سيرته مع أصحابك ..

فقال باقتضاب

- يوسف بقى راجل مهم في الجرنال ...

فسأله في لهفة .

- صحيح ، إزاي .

فنظر إني متردداً ، لا يريد أن يتكلم ، وأغرقني في عينيهِ .. وقال

- أنت إيه رأيك فيه . شكله باين عليه طيب .. وبيعامل الناس بذوق

وأدب إنما شويه شويه .. عمال يستفيد .. ومرتبته بيكبر ، واسمه بينزل في

لجرنال .. الحقيقة أنا محتار فيه . يا ترى هو طيب ولا خبيث .

قلت له مدافعة عن يوسف ، لأبد وكنائي لا اهتم به .

- ده طيب .. ويكسف زي البنث

فقال في دهشة

- أنت بتقولى عليه كده . بعد اللي عمله هيكي .

قلت له في إصرار

- وإيه يعني كان بيغير مي غلشان اتحوزت أموه . إنما هو لسه برضه

أحو إبراهيم ابني

فقال في حيرة

- ما أعرفش .. إنما أنا بأشك دائماً في الناس الطيبين اللي بيستعيدوا من

طبيبتهم .

ولم أتركه حتى علمت منه كل شيء عن يوسف . قال لي إن مرتبه أصبح

سبعين جنيهاً .. وإنه يسكن وحده في شقة بالدقي

ولما سأله :

- ما بيعرفش بنات .

قال لي في انفعال :

- ما سألتوش .. تحبي أسأله ..

فقلت له ساخرة .

- أصله زيك ..

فصوب إني نظرة طويلة ، ثم قال وهو يتنأب :

- يمكن

وكنت أهتم عليه وأحنف .

ولكنني قمت ، وهبطت السلم إلى حجرتي ، وأصوات المؤذنين ترتفع توقف

النائم للصلاة .

وجاء يوم عاد فيه شوقي إلى البيت بوجه كئيب ، ليخبرني أن البوليس قد

قبض على أصحابه . وانتبهت في تلك اللحظة .. إلى شيء غاب عني ، وهو أن ما

يقوم به ليس لعبة يتسلل بها ، إنه وأصحابه لا يلعبون ولا يحلمون ، وإنما هم

حمقى ، يقتحمون في طيش معركة مع الخوف والشرطة والسجن .. والموت .

وخفت على شوقي .. كان خوفي عليه أكبر من خوفي عن أصحابه المقبوض

عليهم .

وصحت فيه :

- أنا سايقة عليك النبي .. تسبيك من الهباب ده ..

فقال في حزن وكبرياء .

- بلاش كلام فارغ .

قلت له :

- أنت موش بقول إن اللي يتعمله ده طشاني .. أنا موش عايزه حاجة ..
فابتسم وقال في آسى .
- ما تبقيش عبيطة يا مبروكه
فقلت له غاضبة :

- أهو أنت حر في نفسك .. خليلهم بيهدلوك ويحبسوك .. ما لنا عاركة
أخرتها ..

أزعجني أنه يريد أن يمضى في حماقته ، رغم ما حدث لأصحابه وانتابني
قلق شديد عليه ، وعلى أبني ، وعلى نفسي .

وكنت إذا خرج شوقي من البيت لا أطيق الجلوس وحدي ، حتى لا أفكر
فيما قد يحدث له ، وتشتد مخاوتي ، وأتذكر عرض والقبض عليه ، وأتذكر
سبي الكبيرة ، فأراها وكأنها مازالت حية ، تنصبني بالابتعاد عن شوقي ،
وأكد أسألها .. أو أسأل نفسي ، ما للعمل ، إلى أين أذهب ، إلى من أجا ،
فلا أسمع جواباً ، ولا أحتمل انتظار عودة شوقي ، فأهرع إلى أم حنفي
وأجلس معها .. وأترك إبراهيم يلعب مع ابنها شحات في الفناء ..

وكانت أم حنفي ترحب بي ، وتفرح بمجيئي ، وتروي لي حكايات
لا تنتهي ، وكانت لا تستريح إلا إذا سمعني لؤمن على ما تقول .
أو أمصص شفتي في حسرة عندما تشكو لي هموما .

وكانت هموما كثيرة ، زوجها بسيرني يخرج في الصباح المبكر ، والنجوم
مازالت في السماء ، ولا يعود إلا وقد أوغل الليل ، وكان يعمل ساعياً في شركة
في العباسية ، وكان يمضى في الذهاب إلى مقر عمله وفي الإياب منه ، ويحمل معه
غداً في صرة ، حتى يوفر مصاريف المواصلات ، ورغم مشيه الكثير كان
بديناً مثل أم حنفي ، له كرش ضخم ، ووجه سمين أحمر البشرة .. وجه طفل
عجوز ، وكنت أراه أحياناً وهو عائذ إلى البيت يلث ، وأنا عائذة بالعشاء
أو السجائر لشوقي وأصحابه ، فأسير معه إلى البيت ، وهو منقوش كالديك
مرهوس بدلته الصفراء ، وكأنه يظن نفسه ضابطاً في الجيش .

وأكثر هموم أم حنفي ، من ابنها حنفي الذي تركها وهاجر إلى الاسكندرية

وتزوج هناك ، واشتغل في السكة الحديد ، وقطع صلاته بها ، وتلقى أم حنفي
اللوم على زوجها لأنه ترك ابنه يفلت منه ، وتخطفه امرأة اسكندرية ، الله
وحده يعلم بحالها .

وأحياناً كان يصلها خطاب من ابنتها التي تعمل ممرضة في مستشفى
بالاسماعيلية ، فتعصم بالخطاب وتحاول أن ترى إذا كان ما بداخله إذن يريد
دون أن تفتحه حتى لا يغضب زوجها ، فإذا رأت إني البريد ، دست الخطاب
في صدرها ، وجعلت تردد بين لحظة وأخرى في صوت أشبه بالندب .

- يا ترى عاملة إيه يا غاطمة - والبي واحشاني يا بنتي ..

أما إذا لم يكن بالخطاب نقود ، تجهم وجهها ، وثار فتنادي ابنها شحات
من الفناء وتضربه ، وتسب عذاب الخلف وسنيته .

وكنت أراقبها وأنا أفكر في أيامي القادمة ، فأكد أرى نفسي مثلها ، بل في
حال أسوأ من حالها ، فأفزع ، وأفقد عقلي ، وأرى إبراهيم يلعب في الفناء ،
وقد اتسخ من رأسه إلى قدميه بالتراب ، لهاشظفيه ، وأصرخ ، وهو يصرخ
ويقتل المكان بصراخنا حتى يصيبنا التعب ، فيخيم علينا صمت ثقيل .

وأستغفر الله .. وأدعوه على يهدي شوقي فيتوب عما قو فيه ، وينقذه من
الشرطة ، ثم استعرض لي آسى من عرفت في حياتي .. عوض الذي سرق وذهب
إلى السجن .. مدحت الذي أراد أن يفتصبني .. وعبد الحميد الذي ودع
حياته بامتصاص شبابي .. وشوقي الذي يريد أن يحرق كل شيء .. ويحرق
نفسه .. ويحرقني أنا وأبني معه ..

يارب لماذا كان نصيبي هكذا دائماً ..

يوسف وحده هو العاقل الرزين .. وهو وحده الذي فرمني ، لعله أدرك أنني
مصدر نحس ، لعل عقله هو الذي جعله يهرب مني ، حتى لا يربط حظه بحظي
التييس .

وأحقد عليه ..

إنه يرتفع ويرتفع ، وأنا أهبط وأهبط ..

كانت أمتيقي في حياتي أن أهزمه .. أن اضطره إلى الاعتراف بأنني سيدة

وليست خادمة .. وها هو يدوسني بقدميه ، ويصعد فوق تعاستي ..

إني أحقد عليه .. أحقد عليه .

وأعيش مع حقدتي حتى أسمع صوت أقدام شوقي وهو يصعد السلم ،
مأجري إليه ، وقلبي يفيض باللوعة ، وأراه مأنسى كل شيء .. أنسى حقدتي .
وأنسى خولي .. وكأن روجي عادت إلي ..

ورغم ذلك كنت أعامله بجفاء ، لا يقول كلمة إلا وسخرت منها . أريد أن
أنقص عليه حياته .. أريد أن أحطم هذا الكبرياء الذي يحتمي به ، حتى
لا يشعر بأنه قوي .. فيتحدى الشرطة .. ويعرض نفسه للخطر ..

كنت أريد أن أقول له .. كيف يتصور نفسه أنه قادر على ما يريد ، وهو
لا يستطيع إسعادي .. بل لا يستطيع أن يكسب عطفني عليه .

كنت أحرمه من عطفني .. لأنني أريده إلى جانبي .. لأنني أحبه .. لأنني
لا شيء من غيره .

وكانت وجوه جديدة قد بدأت تتردد عليه ، تأتي متلصصة في الليل
ولا تطيل الجلوس معه .. يتبادلون كلمات سريعة ، ثم يفتقون .. ورايت
أوراقاً كثيرة يخفيها شعري تحت الأريكة .. فتذكرت يوم فتش عبد الحميد
حجرة يوسف يوم قبض البوليس عليه ، وقد شك في وجود منشورات معه ..
وقلت لشوقي في غضب

- أنت جايب الورق ده هنا علشان البوليس يجي وراه .

فقال في دهشة :

- وانت ايش عرفك ..

قلت له

- أيوه .. دي منشورات ..

فصاح

- وكمان عارفة انها منشورات ..

فحكيت له ما حدث ليوسف ، فاستمع إلي في انتباه شديد ، وقد لمعت

عيابه ..

وقلت له مهددة إني سأطرد أصحابه إذا جأوا وسأوصي أم حنفي
والأسطى طه التجاري بأن يقولوا لهم إذا راوهم إنه قد ترك هذا البيت ..

فضمك .. وقال :

- بلاش جتن ..

قلت له في عناد :

- والله لانا عاملاها ..

فانتابه شك في أنني قد أنفذ تهديدي وارتعشت شفته السفلى وقال بصوت
حاسم :

- اسمعي .. لو عملتي حاجة زي دي .. أنت اللي ح تسيبي البيت ..

صفعتني كلماته .. كانت قاسية كاللوت .. كأن البيت قد تهدم لوقي ..
وصدقته .. فرايت نفسي أنا وإبراهيم في الشارع ..

ويكيت ..

فأدار ظهره ، كأنه لا يعنيه شيء .. وهبطت إل حجرتي ، أبكي كالمجنونة ،
ويأس قائم يفترسني حتى سمعت صوته يناديني ، فجريت إليه في فزع ، وأنا
أتوقع أن يأمرني بترك البيت في الحال

شعرت لحظتها وأنا صاعدة إليه ، أنني ألبى النداء في بيت راتب بيه ، وأني
عدت خادمة وهو السيد .

ووقفت أمامه ارتجف ، وقد نكست رأسي ، وقد ظننت أنه لو رأى دموعي
سيغضب ويشتمني كما كان يفعل راتب بك .

وسمعه يقول :

- تعالى يا مبروكة ..

وامسكت يده وامسكت بيدي ، فرفعت عيني في توسل ، أكاد استعطفه
ليرجى قراره .. ورايته ينظر إلي في حنان وألم .. فكذبت ما أرى .. وتبعته
والخوف يكتم أنفاسي ، حتى أجلسني على الأريكة وجلس إلى جانبي .

وهمس :

- مبروكة .. أنا موش عارف أقول لك إيه .. باتمنى أقطع لساني ..

ولا كنتش أقول لك إلى أنا قلته ..

واجهشت بالكاء .. تفجر من صدري قوياً طاغياً .. يائساً .. فقال وهو
يضغط على يدي .. بصوت محتق :

- البيت ده بيتك .. أنا غلطت معاك يا مبروكة .. سانشيتي ..
واستمر يتكلم .. حتى قلت له بصوتي البلكي :
- كتر خيرك .. عايزني أسيب البيت ..
مهتف بحرقة :

- بلاش تعذبيني يا مبروكة .. كفاية اللي حصل ..
ثم قال في حنن :
- هاتي راسك أبوسها ..
وقبلني في شعري ..

ولكن خوفي كان مازال جاثماً عليّ .. فلم أصدق .. وشعرت بعجز تام
أمامه .. فقلت له في ضراعة ..

- أنا في عرضك .. ما تلهدينش من البيت .. أروح فين ..
صاح :

- كفاية يا مبروكة .. كفاية ..

ولكنني اندفعت لائلاً في يأس :

- أنا ح أعمل اللي أنت عاوزة .. بس خليني أعيش أنا وابني .. أبوس
أيديك .. أبوس وجهك ..

كان خوفي يتزايد كلما حاول أن يطمنني ، فقدت ثقتي فيه .. إنه مثل
يوسف إنه لن يكون أرحم منه ..

وكانت ليلة تعذبت فيها كما لم اتعذب من قبل . ولم أكن أعظم أنني عذبت
معي أيضاً ..

ومنذ تلك الليلة تغيرت معاملته لي .. كانت كل كلماته وكل حركة تبهومته
وكانها اعتذار مستمر عما قاله لي . وكان إذا جاء ، أصحابه ، نظر إليّ في
أرباك ، وكأنه يستعطفني أن أسمع لهم بالبقاء ، وإذا تركوه أسرع إليّ ..

وحاول أن يضحكني .

وقال لي مرة وهو يرسم في لوحته الكبيرة :

- تعالى أقعدني معاً لما أحكيك على يوسف ..

ودوى لي أنه أحب فتاة تعمل كومبارس في السينما .. اسمها سامية
سامي ..

وهوجئت بالخير ، وسألته في انزعاج :

- ح يتجوزها ..

قال وهو يبتسم :

- مين عارف ..

فرعقت غاضبة

- لازم تكلمه .. وتنصحه ..

فلوح بالفرشاة في وجهي قائلاً :

- اطمنني .. يوسف اعقل مني .. وعملك ..

فقلت :

لكن يعملها ..

فقال لي ثقة :

- أنا متأكد أنه موش ح يتجوزها ح يخالف على مركزه في الجرنال

فسألته :

- يعني إيه كومبارس ؟

فقال وهو يعود إلى لوحته :

- يعني ممثلة صغيرة .. موش زي ليلي مراد .. ولا فاطمة رشدي ..

وشغلني هذا الخبر كثيراً ، حتى سألت نفسي في دهشة ، ما سر اهتمامي

به .. وما سر انزعاجي من زواج يوسف بهذه الكومبارس ..

ويرتفع صوت حقدي .. فأقول فليتزوجها ، لعلها تشفيه .. وتفسد

حياته ..

ولكنني أشعر رغم ذلك أنني في قرارة نفسي لا أتعنى له هذا الزواج .

وأعلم أن حنيني إلى أيام يوسف .. مازال أقوى من حقدى .
 إني لا أستطيع أن أحقد على تلك الأيام التي عشتها كسيدة .. لا أستطيع
 أن أحقد على أمني الذي أعيش له .. وكنت أحققه يوماً ما ..
 وهاجتني شوقي عصر يوم قانلاً :
 - إيه رأيك تروحي السجعا معيا ..
 كدت أصبح فيه .. لا .. لن أذهب معك .. إذ تذكرت في لحظة خاطلة عيد
 الحميد وذهابي معه إلى السينما .. وتذكرت موت عبد الحميد .
 وقاومت خواطري وسألته
 - ح نروح ليه ..
 - علشان تشوفيه ..
 قلت له في برود :
 - شفتها ..
 فقال وعيناه تلمعان بنظرات مأكرة .
 - وعلشان تشوفي سامية ..

وقبلت في الحال ..
 ارتديت أجمل فساتيني ، ووقفت أمام المرأة طويلاً لأطمئن على جمالي قبل
 أن أذهب لرؤية سامية ، شعرت وكأنني سألقاها بلحمها ودمها وسأدخل معها
 في معركة ، سيعلمن في نهايتها من منا الأجمل والأحسن ، وكنت واثقة من
 نفسي ، مصعمة على اكتساحها ، وإثارة غيرتها ، وكأنها ستنتظرني من شاشة
 السينما ، فتراني وتذكر أنني أجمل منها ، فتموت من الحسرة .
 ركنت قد رسمت لها صورة في خيالي ..
 أقنعت نفسي أنها تشبه سعاد ، إذ كلما فكرت فيها قفزت صورة سعاد
 أمامي موجهها الأبيض المستطيل وعينيها الوديعتين السانجتين وجسمها
 الممتلي ، وقوامها الطويل .
 وعجبت معاً أفكر فيه ..
 هأنذا أعود إلى المقارنة بيني وبين سعاد ، ولكن في صورة أخرى .. صورة

سامية ..

وضحكت ..

هذه المرة أنا واثقة من نتيجة المقارنة ، إن سعاد الجديدة ليست أكثر من
 ممثلة تافهة .. واحدة من إياهن .. بلا شرف ، ولا أخلاق ، وأحسست
 بالسخرية والشماتة في يوسف ، إنه ينحدر إلى الفضيحة يلقي بنفسه في عالم
 قدر ..

وانتابني فرح طامع وأنا أتخيل المصائب التي ستقع على رأس يوسف من
 وراء علاقته بهذه الممثلة .

وفجأة .. قزعت ..

واضطربت ، وشعرت بالاختناق ، ورحت أبتهل إلى الله أن يبعد يوسف من
 عنها ، وينجيه منها ..

وشعرت أنني سأكون تعيسة لو تزوجها ..

وجلست إلى جانب شوقي في السينما ، أتملعل في ملعدي .. أسأل شوقي
 في لهفة كلما ظهرت ممثلة ، إذا ما كانت هي سامية .. وهو يقول لي هامساً :
 - لسه ..

وقد نفذ صبري ، فلم أستطع متابعة حوادث الفيلم ، رغم أنني كنت أرى
 يوسف وهبي لأول مرة في حياته ، وقد أعجبني شكله وخفة دمه .
 وكان يوسف وهبي يسير في حارة معتمة ، وهناك عصابة تتربص به وتريد
 أن تقتله عندما ظهرت فتاة ترتدي الملاءة اللف .

ولكرتني شوقي هامساً في انفعال .

- أهي دي سامية سامي ..

فنظرت إليها في دهشة ..

وخاب أمني ..

كانت على غير الصورة التي رسمتها في خيالي ، إنها لا تشبه سعاد في شيء ..
 بقت نحيفة مسلوقة قصيرة ، لها عينا مأكرتان ، عيان فيهما وقاحة ، وقمها
 واسع يكاد يشطر وجهها إلى شطرين ، وشفتاها ممتلئتان نهمتان .

كانت تسير في الحارة وهي تتثنى وتتلفت وراءها ، وتغمز بعينيها ليوسف
وهي ، فسار وراءها كالعبيط بضع خطوات ، ثم واقفت وقالت له بصوت
خفيض مبجوح

- أنت عايز متي إيه ..

فقال لها يوسف وهي في ارتباك :

- أنا ياست ..

وفي نفس اللحظة ظهر من وراءه رجل من العصابة ، ضخم الجثة ، وفي يده
عصا عليظة ، وهجم الرجل على يوسف وهي وضربه ، فسقط مضطجاً عليه .
وابتسمت سامية .. وأدارت ظهرها ، ومشيت وهي تتثنى ، وكان في
جسمها زميلك .

التفت إلى شوقي وهمست لي غيظ :

- جالت تيلة .. يوسف . يعنى مالفاش إلا المجرمة دى ..

فضحك وقال :

- هي ذنبها إيه .. الدور عايز كده ..

قلت له :

- دى وحشه ..

فلم يرد علي .. فسألتها غاضبة :

- أنت مسبوطة منها ..

فقال في برود ، وهو ينظر إلى الشاشة :

- موش بطالة ..

وفاظلتني إجابته ، فسألتها ساخرة :

- عاحبك فيها إيه ..

قال وهو يهز كتفه دون أن ينظر إلي

- يعنى ..

وتركتني لغيظي ..

وانتظرت ظهور سامية مرة أخرى ، ولكنها اختفت تماماً ، فلما انتهت

الفيلم سألت شوقي في بهشة

- هيه راحت قين ؟

فسألتني في غير فهم

- مين ..

قلت له :

- الهباية دى .. سامية ..

فضحك قائلاً :

- ما هي كومبارس . دورها صغير .

قلت له في شماعة :

- والله ما تنفع ببصلة .. دا أنا أحسن منها ..

قال لي وهو ينظر إلي في عجب :

- تحبى تبقى زبها .

فهتفت في حدة

- فخر ..

وغضبت منه ، فظل يصالحني طوال الطريق ، ولما وصلنا إلى البيت كان
يبدو عليه التعب ، والنوم في عينيه ، ولكني لم أتركه ، إذ كانت بي رغبة جامحة
في الكلام .. كنت أريد أن أتحدث معه عن يوسف

واستسلم شوقي لرغبتى ، فجلس ينصت إلي ، وأنا أروي له كل شيء عن
يوسف ، حكيت له عن سعاد وزوجها ، وكان يستمع إلي باهتمام وفضول
شديدين ، رغم أنه كان يتثائب أحياناً ..

ولست أنرى ماذا حدث لي ..

شعرت وأنا أحكي له ، أنني حزينة وأنه قد كبرت وتقدمت في السن .. وأنه

اختلف بالذكريات ..

تذكرت سنى الكبيرة عندما كانت تجلس بعد انتهاء الغارات ، وتحكي لنا
الحكايات ، وخيل لي أنني أصبحت في سنّها ، وأن حياتي قد انتهت ولا أحد
يهتم بي .. حتى شوقي .. إنه لا يهتم بي ..

حيل إلى أن كل الرجال في هذه الدنيا لا يهتمون إلا بسامية .. والحسنة في
قرارة نفسى أنها هزمتنى .. وأن شوقى لا يتغلب لأنه يريد أن يتنام .. بل لأنه
يريد أن يتخلص منى .. لو كانت سامية هنا .. مكانى .. لما تغلب
وصحت فيه

- يعنى قاعد تسمع ولا بتكلمش فبذل مجهوداً كبيراً ليعتسم ..
وقال

- أصل أنا تعبان ،
قلت له وأنا أشك في كلامه ..

- تعبان والا بتفكر في سامية .
قال :

- ح أفكر فيها على إيه ..
قلت له وكأن قوة تعمل على ما أقول :

- يمكن بتحبها أنت كمان ..
قال .

- بلاش عبط .. قوسى نامى ..
ورفضت أن أقوم .. وانطلقت أسب سامية واشتمتها .. وأنا أشعر أنى لن
أستريح إلا إذا فعلت هذا .

كنت مضطربة ، لا أستطيع أن أسيطر على ما أقول . ولا على ما أفكر
فيه .. والذكريات تدور في رأسى كأنها أشباح تتسابق بلا هدف .. وبين لحظة
وأخرى تنفجر إلى رأسى صورة ستن الكبيرة ، وكأنها تقول لى إنى أصبحت
عجوزاً مثلاً .. ولم يبق لى إلا أن أودع الحياة .

وفجأة وجدتنى أسأل شرقى :

- أنت كنت بتعمل إيه أيام الغارات ؟
قال وهو يحدق في لعله يعرف مرسزالى .

- ولا حاجة .
ولم تعجبني إجابته ، وكان على وشك أن يقع نائماً ، فوثقت في عناده .

- ١٦٤ -

- ماهو أنا موش ح أسيبك تنام ،
فهز رأسه ليطرد النوم منها .

وقال لى بصوت خفيض جدوى :
- أمرك ..

وعدت أسأله ..
يعنى ما انتش فأكبر أيام الغارات ..

فقال :

- طبعاً فأكبرها ..

ورفع رأسه .. ونظر إلى نظرة طويلة ، وقال فجأة :

- اسمعى .. أنا ح أحكيك على أهم حاجة في حياتى .. حصلت أيام
الحرب ..

بدوى لى قصة غريبة ، لم أفهمها تماماً عن جندى في الجيش الإنجليزى
ولكنه لم يكن إنجليزياً ، كان متطوعاً مع الإنجليز ليحارب الألمان ، وكان هو
أول من علمه الشيوعية ..

كان يذهب معه إلى بيت رسام في القلعة ، ويشربون الويسكى الذى يأتى به
من الجيش ، ويحدثهم عن الشيوعية والثورة ..
وسأله .

- وإيه الل خلاك تسمع كلامه .
قال على الفور :

- علشان اقتنعت بيه .
قلت له ساخرة :

- ضحك عليك ..

فتنظر إلى متوسلاً .. وقال وهو يتثائب .
الى حصل .

قلت له ضاحكة فى أسى :

- يابن عليك عايز تنام .

وقمت ، وقد شعرت أسي تملديت في تعذيبه ، وهبطت إلى حجرتي وأنا
أتسائل عما بي ، وقضيت بقية الليل ساهرة مع حزني وذكراياتي وشعوري
بالقلق والوحدة

بعد يومين ، طرق شوقي بابي ، وقال لي بصوت جاد :

- مبروكة أنا عايزك في حاجة مهمة ..

وصعدت معه إلى حجرته ، فروى لي في كلمات سريعة أنه هو وزملاؤه قد
قرروا شراء مطبعة يطبعون عليها منشورات ويوزعونها على الناس ..
استمعت إليه في دهشة ، حتى قال لي فجأة :

- أنا عايز منك عشرين جنيه .

ولم أفهم كلامه ، حتى كرره ، وأنا أنظر إليه في بلاهة ، لا أريد أن
أصدق ما يقول :

ولكرت بسرعة ، وقررت أن أرفض طلبه ، إن كل مامعى سبعة وثلاثون
جنيهاً تبقت لي من الخمسين جنيهاً التي أخذتها لإخلاء بيت الفلكي .
وهي ليست نقودي ، إنها نقود إبراهيم ، نقود ابني الذي يكبر بسرعة ،
وتزداد مطالبه يوماً بعد يوم ..

وأنا في حاجة إلى كل ملهم ..

وهو يعلم هذا ..

هل أقول له إنني فقيرة ولا أملك شيئاً .. إنه يعلم ..

هل أسأله كيف يأكل إبراهيم ويشرب .. ولكنه يعلم ..

ومع ذلك ، عجزت عن النطق بالرفض ..

واحترت ، وزاد من حزني أنني كنت أشعر ببعض الاطمئنان لأنه معي ..
ولأنني لو احتجت إلى شيء فسأجده إلى جوارى يمدني بالمساعدة ولكني لم
أتوقع أبداً أن يكون هو في حاجة إلي .

وصرخ عني ، أرفض طلبه ، لاتعطيه مليماً واحداً ، إنه يريد أن يضيع
نقودي على مطبعة لن يأكل منها اسك ولن يشرب ..

ولكني لم أستطع الرفض مستحيل أن أرفض طلبه .. إنني وكل ما أملكه
له ..

وقلت في اضطراب :

- بس عشرين جنيه موش كثير .

قلتها وأنا أتمنى أن يعدل عن طلبه ، إنه قادر على قراة أفكارى ، ولا شك
أنه أحس بكل ما يهتف به عني ..
ولكنه قال بسرعة :

- أنا عارف .. بس أنا عايزهم

ولم أناقشه .. أحضرت له النقود وأعطيتها له بيد مرتعشة ، وأنا أقول
لنفسى .. امرى إلى الله .
وأخذ النقود ودسها في جيب بنطلونه . وتمتم بكلمات شكر سريعة ..
وانطلق إلى الخارج .

ومضت أيام ، وهو مشغول عني وكان يتهرب من الكلام معي ، إلى أن
سمعت مساء يوم صوت أقدام كثيرة تصعد السلم ، فخرجت لأرى من
القادمون .. فوجدت شوقى وأصحابه يحملون المطبعة ويصعدون بها إلى
فوق ..

واندفعت وراهم .. وراء نقودي ماذا بهم يعرفون أنني قد دفعت العشرين
جنيهاً ، ويشكرون لي ما فعلت وقضيت الليلة معهم ، أفرج عليهم وهم
يطبعون المنشورات ..

وانصرفوا قبيل الفجر .. ومع كل واحد منهم كمية من المنشورات ليوزعها ،
وأردت أن أهبط إلى حجرتي لأنام ، ولكن شوقى أمسك بكفتى ، ووجهه يلحىض
بالرج .. وقال لي ضاحكاً :

- أنت رايحه فين .. أنا موش ح أسيبك تناسى زى ما بتعمل في .

وتعانقت عيناها بعيني .. وقال في حنا :
- أنا موش عارف أعملك إيه يا مبروكة .

وضممتني إلى صدره ، وقبلتني في خدي وصممت بقوة أكبر ، وهو يريد في

حنان ، وشفتاه تتمرغان على خدي .

- مبروكة .. مبروكة .

شعرت أن جسمي يتلاشى بين ذراعيه ، ويدون وعي قبلته في خدم وطولت
عنقه بيدي .

وهمست وأنا لا أدري ماذا أقول

- أعمل فيك إيه ..

فأسكتتني شفتاه .

ولكن شيئاً أقوى من الكلام سيطر عليا ، وضعنا في قسوة وعنف ونشوة .

تفجرت في جسدي رغبة طاغية في أن أستولى عليه ، كنت أريده .. أريده

بكل ما فيه .. أريد أعماقه .. روحه .. حياته ، أريد قوته وكبريائه .

وأخذت منه كل شيء

ومنحته كل شيء ..

التهمني ، والتهمتي ، وعشنا معا في غيبة رفعتنا فوق الدنيا والأحزان
والذكريات والحب .

وسمعتني يهمس لقلبي بكلمات حنونه ، وقال لي وهويكاد يبكي إنه يحبني

ويحب إبراهيم ، ويحب الأرض التي أمشي عليها ، والأشياء التي تقع عليها

عيني ، ويحب أحلامي ويحب أحزاني ، ثم قال وهوي مسح بيده على شعري
برفق .

- أنت أحسن مني يا مبروكة .. قلت له معابطة ، وقلبي ينبض بنشوة
جارفة :

- ما تغلش كده ..

وضحك في انفعال ويده تعبت في عصبية بخصلات شعري ..

- أنت ح تلخبطي مخي .. قلت له في انزعاج

- بعد الشر عليك ..

قال لي لهجة غريبة وهويتهند .

- أنا خلاص يا مبروكة .. ما بقتش عارف إيه الصبح .. وإيه الظلم .

ولم أفهم ماذا يريد أن يقول ، وكنت أشعر بخدر لذيذ يسري في جسدي ،
فتركته يثرثر ، حتى نام . ونمت في أحضانه .

فتحت عيني في الصباح .. لأذكر أمي تركت إبراهيم وحده طوال الليل ،
وهبطت السلم وأنا ارتجف من الخوف ، وقابلني منظران حادة قوية ، منظران
فيها اتهام ..

أحسست أنني هبطت إليه عريانة ، وأنه يعرف ما حدث ، كانت نظراته
تنقب جسدي وتؤلني ..

هجمت عليه أضمه إلى صدري ، فدهمني ببديه الصغيرتين ، وبدأ عليه
النفور وأبعد رأسه عني ، يريد أن يتخلص من قبضتي وكأنه يشم رائحة
شوقي في جسدي .

وأوشكت علي البكاء ، وشعرت بتعاسة هائلة ..

أهو يعلم حقاً .. أم هي أوهام تدور في رأسي .

قضيت النهار كالمجنونة ، تطاردني نظرات إبراهيم ، حتى عاد شوقي ،
فجريت إليه ، وقلت له وأنا رأسي في صدره .

- أنا خليفة من إبراهيم ..

قال وهوي قبلي في شعري :

خايفة إيه ..

قلت له في ألم :

- زى ما يكون عارف .. هوش راضي يخليني اقرب منه ..

فابتعد عني واستغرقه تفكير عميق ، ثم قال :

- احنا لازم نأخذ بالنا .. النعيال الصغيرين بي فهموا كل حاجة ، ومنذ ذلك
اليوم وأنا وشوقي نحاول استرضاء إبراهيم ، كانه حينا وحياتنا كلها طوع
أمره ..

ونجحت في إقناع إبراهيم بأن شوقي والده ، ولم أشعر بأنني أضدعه ، إذ
كنت نسيت عبد الحميد ، ولم تعد ذكره تخطر ببالي ، وكان شوقي يعود إلى
البيت ومعه حلوى يقدمها لإبراهيم ، ويقضي معه بعض الوقت يلاعنه ويثرثر

كنت أشعر في تلك اللحظات برهبة تسيطر على الحجرة ، وكان شوقي يقوم بعمل سحري ، وكانت تمضي الساعات أحياناً . وهو لا يلتفت إلي وقد نسي كل معه ويتحاشى أن يلمسني أو يكلمني أمامه حتى ينأى إبراهيم ، فانتظر إليه في عطف وخوف ، وأنسل صاعدة إلى شوقي ، فأجلس أرقبه وهو يرسم ، وعيناي لا تفارق يده وهي تمر بالفرشاة على اللوحة ، أو وهو يتأخر خطوات ويظهر إلى الرسم ، وقد يبتسم وجهه ، كأنه يحدث نفسه ، وترتفع شفته السفلى ، ثم يستأنف الرسم .

شيء من حوله ، وأحس بأن الليل قد تأخر فأصبح فجأة :

- كفاية شغل بآه ..

فيلتفت إلي بعينين شاردتين .. ويبتسم ، فأذهب إليه وأساعدته في تنظيف أدواته ، ونجلس معا ، نتحدث حتى يحتوينا الحب ونغيب فيه ..

كانت لهفتي عليه قوية ، وكأنني أريد أن أعرض معه ما فتنني ، كأنني أريد أن أسوئهما متاعبي مع عبد الحميد ، ومحاولاته الفاشلة التي كانت تهرق جسدي .

وكنت أثور يوم يأتي أصحاب شوقي ، إذ يهرمونني منه ، وأود لو أطردهم ، وأنظر إلى شوقي في غضب ، فيدرك أنني ذائرة ، وينتهز أي فرصة ليتركهم ، ويهبط إلي في حجرتي ويقول هامساً حتى لا يوقظ إبراهيم .

- معلش يامبروكة .. ح يمشوا دلوقت ..

فأقول غاضبة :

- كفاية عليك أصحابك ..

فيبدو عليه الارتباك ويقول في حيرة :

- ح اعمل إيه .. كلامهم كتير ..

ويحاول أن يتخلص منهم ، فإذا ذهبوا جاء إلي ، وطلب مني أن أصدق معه ، فأتظاهر بأن الناس قد غلبني فيرجونني ويتوسل إلي ، ويجذبني حتى أصدق معه .

وقلت له أن يطلب من أصحابه أن يبحثوا عن مكان آخر يجتمعون فيه ،

فقال لي متريداً

- بس هنا أمان .. والبوليس ما يعرفش الحته دي ..

فصحت فيه

- يعني عايزهم ييجوا لحد البوليس ما يعرف .. ويمسكك معاهم ..

فأطرق برأسه .. ثم قال فجأة :

- اسعني يامبروكة .. لازم تعمل حسابك إن البوليس يصح يقبض علي في أي وقت ..

فصرخت

- يافرحتي لما تقول لي الكلام ده . وشعرت أنني يجب أن أحارب من أجل سعادتي . وصممت ألا أهدأ حتى أنتصر على أصحابي وأبعدهم عنه ..

اقتربت منه ، ولصقت خدي بشعره وقلت له في حنان :

- لو حصل لك حاجة أنا ح اموت نفسي .

قال محتجاً بصوت ضعيف :

- بس اعمل إيه .. أنت عايزاني أسبب كل حاجة ..

قلت له وأنا أقبله على جبينه :

- أنا موش عايزاك تسيبني - ح اعمل إيه من غيرك .

وقبلته في فمه ، لاخذ صوت احتجاجه ، فاستسلم إلي ، ولكنني كنت أدرك

أنه مازال في قرارة نفسه مصمماً على التمسك بأصحابه .

وصدق ظني ، فخرج غضبي وثورتني ظل يستقبلهم ، وكان يقول لي : إن

هذا هو الطلب الوحيد الذي لا يستطيع أن يلجيه ، وإنه يعتبرني شريكة له في

كل ما يفعل ، وإنه لا يدري كيف يحترم نفسه أو يستطيع أن يهينني ، إذا

ما تحلى من الشيء الذي يؤمن به ..

ومضت شهور وشهور ، ومحاولاتي تتدد أمام إصراره وعناقه .. وكنت

أحاول أحياناً أن أثيرة ، فأذكره بيوسف ، وأقول له إبه أعقل منه فهو لا يعرض

نفسه للخطر ، ومركزه يرتفع ومرته يكبر ..

كنت أسأله ساخرة .

وجودتى أقول وأنا أعنى ما بينى وبين شوقى ..
 - برضه ما يصحش كان لازم يتجوزها بعد اللي حصل بينهم فسطر إلى
 نظرة طويلة .. وخيل إلى أنه هم ما أعنيه .. لأنه سكنت لفترة طويلة ..
 ومع ذلك لم أكن أشعر بدمع قوى للإلحاح عليه بالزواج ، كنت أحس أنى
 يجب أن اتخلص أولاً من أصحابه والمطبعة والمشورات وأفكاره الثائرة ،
 وخطر القبض عليه ، قبل أن أتزوج منه
 وذات يوم ، اكتشفت أنى حامل .. فلم أنزعج مثلما حدث لى يوم حملت
 إبراهيم ، وكنت واثقة أن شوقى سيتقبل الأمر ببساطة ، وأنه سيتزوجنى فى
 الحال
 ولكنه لدهشتى ماكاد يسمع بالخبر . حتى اصفر وجهه ، وارتاع كأن
 مصيبة وقعت ، وفقد أعصابه ، فوقف أمام الحائط ، يدق رأسه فيه
 كالجنون ..
 واشفقت عليه ، وحاولت أن أهدئه ، ولكنه كان يضحك ضحكات غريبة ،
 ويزعق فى مرارة .
 - ورينى شطارتك يا عم شوقى ..
 ولم أفهم ما الذى يقصد .. إلى أن قال لى وكأنه يستعطفنى .
 - تحبى تتجوزينى النهاردة .. وانحس بكره ..
 أطرقت براسى .. ثم رفعت إليه عينين تقولان له .. نعم أريد أن أتزوجك ..
 فقال
 - وتربى عيلين بدل عيل واحد .
 فعمست بصوت مضطرب
 - رينا موجود .
 فصرخ وجسمه يرتعش ، ووجهه اصفر .
 إذا كان موجود .. ليه ما بيوكش الشحاتين اللى مالين الشوارع .. ليه
 ما بيخفش العيانيين .. ليه ما يخلصناش نرتاح ..
 قلت له فى خوف :

- أنت بتأخذ كام .. وهو بياخذ كام ؟
 فيغضب ويقول لى
 - الناس موش بالفلوس اللي بتأخذها ..
 فأقول وأنا أعرف أن كلامى يؤلمه
 - مع تفضل طول عمرك بتأخذ ثلاثين جنيه .. وهو يحياخد ميه .. ووح يسكن
 فى سراية .. ويركب اتومبيل ..
 ولكنى كنت لا أستطيع للمضى فى تعذيبه ، فسرعان ما اعتذر له وأطوقه
 بذراعى .. وأقول له فى لهفة
 ما تزعلش منى .. أنا عايزاك تبقى أحسن واحد فى الدنيا دى .
 فيهمس .
 - أنت موش فاهمة حاجة يامبروكة فأقول له مداعبة .
 - إيه اللى موش فاهماه .. أنا عايزه يبقى معاك فلوس .. علشان تصرف
 على .. وتلبسنى .. وعندئذ ينطلق فى كلام كثير ، محاولاً أن يشرح لى خطأ
 تفكيرى ، فاستمع إليه ، وأدرك أنه مازال مصمماً على تعريض نفسه للخطر
 مع أصحابه ..
 ولاحظت أن شوقى بدأ يشعر بالغيرة من يوسف ، فقد كان يأتينى بأخباره
 التى تصوره فى صورة الشاب اللى فسد ..
 قال لى ذات مرة : إن سامية ذهبت إلى رئيس التحرير لتشكو يوسف ، وأنه
 كان قد وعدا بالزواج ثم تخلى عنها ..
 قلت له مدافعة عن يوسف :
 - يعنى كنت عايزه يتجوزها فقال فى ضيق :
 - بس ماكنش يصح أنه يوعدا بالجواز ..
 ولم أتابع حديث شوقى .. إذ وجدتنى أسرح بأفكارى ، واتسائل ماذا
 يكون مصيرى مع شوقى ، وهل يتزوجنى ، أم نظل بلازواج .. إنه لم يعدنى
 بالزواج .. أمعنى هذا أنه يرفض أن يتزوجنى ..
 وتصايقت لأنى دامت عن يوسف أمامه ، لأنه لم يتزوج من سامية ،

- بلاش تكفرياشوقى .

فصاح ضاحكا في هياج

- اكفر .. ما تبقيش عبيطة .. أنا جبان .. فاهمة .. أنا جبان ..

وظل يهزى ، حتى ظلمت أنه قد فقد عقله ..

إلى أن جاء يوم ، فأخذنى إلى طبيب أحضنى ، وعاد بى إلى البيت ..

وجلس إلى جوارى وراح يبكى ..

لم أشهد بكاء في حياتى مثل بكاء ، كان جسمه يتفتت ، كأنه يريد أن يقتل

نفسه بالبكاء ، ورثيت له ، وحاولت رغم ألامى أن أسرى عنه ، وكان يدق

بقبضة يده على ركبته ويقول في حرقه .

- شفتى يامبروكة . أنا مجرم إزاي .. خدعتك .. ضحكت عليكى .. زى

ما بضحك على الناس .. زى ما بضحك على نفسى ..

ويهتف باكياً :

- شفتى أنا عملت إيه في ابنى .. باكلتك عن الإنسانية .. وعن حب

الناس .. وعن الشريعة .. وادى اللى أنا عملته .. أنا نصاب .. نصاب ..

وخفق قلبى ..

إنه لأول مرة في حياته يثور على نفسه ، يثور على أفكاره .. أنكون قد تمت

المعجزة .. أكون الله قد عوضنى عما أصابنى .. فنصرنى أخيراً على

أصحابى ..

نظرت إليه . وهو يتفتت وينهار .. وقلت لنفسى في ثقة سأمنمه من حبنى

ما يعرضه عن كل ما يحس به من ألام .

الفصل التاسع

تظاهرت أمام شوقى بأننى غير أسفة على ما حدث .. هيات له الحب في

كل شيء ، في نظراتى وفي كلماتى ، وفي الطعام الذى أعده له وفي حجرته

التي أنظفها وأرتبها في انتظار عودته ، غمرته بالحب ليصبح لى وحدى ،

كما أنا له وحده ، وقد أشعرنى بكأؤه بأن اللحظة قد حانت لانتزاعه أخيراً

من أصحابه ..

وكان يستسلم لى ، ويتركنى أسيطر عليه بعواطفى ، فأجد نشوة كبيرة

في هذا ، لولا ما كان يبدر عليه أحياناً من شرود مفاجيء ، فلا أدري ما

الذى يفكر فيه . وما الذى يبعدة عني ، فاندفع إليه وأطوقه في حنان حتى

يفيق من شروده ..

واستمر أصحابه يترددون عليه ، ولاحظت إنه على غير عادته يشدد في

مناقشاته معهم ، ويرفع صوته ويتشاجر ، فأفزع ، وأقول لنفسى غدا

سيطردهم ، وإن يعودوا إليه ، وسنعيش معاً ، وحدنا ، بعيداً عن

المخاطر ، وفي الصباح اصعد إليه لأوقظه من النوم ، ميفتح عينيه

بصعوبة ، ويتوسل إني أن أتركه لينام ويرفض الذهاب إلى الحريدة .

وكنت إذا سألته عن سر شجاره مع أصحابه ، لاذ بالصمت ، وتهرب

من سؤالى ، فيحدثنى في شيء آخر لوىضحك متصنعاً المرح ، ويقبلنى في

شوق ، فاندرك انه لا يزال متردداً في اتخاذ قراره النهائي ، فأصبر
وأمّنته مريداً من الحب .

ثم حدث له تحول مفاجيء .. إذ بدأ يتشاجر معي لأتفه الأسباب ،
أحضرت له ذات مرة كوب شاي ، فما كاد يرفعه إلى فمه ويرشف منه حتى
صرخ في وجهي لأنني نسيت أن أصنع السكر في الشاي ، وقيل أن أقدم سر
صراخه ، كان قد قذف بالكوب على الأرض ، فتحطم ..

ولم يفزعني صراخه ، بل شعرت بالخوف عليه ، وتمنيت لو أستطيع أن
أصمه إلى صدري حتى يهدأ ، ويتخلص من هذا الصراخ الذي يمزقه
وانهيت صي الأرض لجمع الزجاج المتناثر ، فاشتد هياجه ، وزعق
كالمجنون يطلب مني إلا أمس الزجاج .. ثم صاح يأمرني أن أتركه
وحده

فتركت له الحجرة وحبس له أكبر من غضبي منه ، وبعد قليل كان يطرق
بابي ، وقف ينظر إلى ، وفي عينيه عذاب واعتذار ، وكان إبراهيم قد جرى
إليه وطوق ساقه بذراعيه . وهو يصيح
— إديني قرش .. إديني قرش .

فرفعه في الهواء وقبله ، وعيناه لا تفارقان عيني ، وأعطى إبراهيم
القرش فأخذه وجرى إلى الشارع ، ووقفنا صامتين إلى أن قال وهو
يضحك في عصبية .

— اعمليل شاي ..

فضحكت من قلبي قائلة :

— علشان تكسر كباية ثانية ..

قال وهو يقترب مني :

— أيوه .. وعلشان أكسر دماغك أنت كمان ..

وحذمني من رأسي ، واحتواني بين ذراعيه وهمس :

— أنت زعلانه ..

قلت له في مرج وكأني أتمتم بأغنية .

— زعلانه علشان كباية .. فداك ستين كباية ..

ومدنت يدي إلى صدره ، وبني رغبة في أن ينتزع من أعماقه كل ما
يعانيه من قلق وعذاب .. وأعطه قهقهة ما يحول بخاطري . إذ ارتعشت شفتيه
السفلى ، ثم قال في بطله :

— تعرق إيه اللي مضايقتني ..

ورفعت إليه عيدين متساكنتين في جبان ، فاستمر يقول :

— أنا من ساعة اللي حصل .. وأنا زى العيان .. أفيش حاجة لها طعم في
بقي .. أفيش حاجة أعملها وأما متأكد أنها صبح ..

هسست :

— ليه ..

فقال ويداه تقبضان على كتفي بقوة :

— ح أرجع أقول لك اللي أنا قلته .. كل أفكارى ومبادئى ضد اللي أنا
عملته .. ضد أن أقتل ابنك وإبنى .. اللي كان ممكن يبقى زى إبراهيم
بيضحك وبيعيط وبيقول لي إديني قرش .. وبيكبر .. وبيهلل راجل أحسن
منى .. وعنده مبادئ وأفكار ..

قلت له بصراحة :

— لكن أنا موش زعلانه من اللي حصل ..

فقال في عصبية

— موش زعلانه علشان خاطري .. موش كده ..

قلت في حرارة :

— أيوه ..

فهتف .

— يعني أنا المسبب .. أنا كنت أفضل إنك تكرهيني ولا تتخلصيش من
ابنك .. أنا مين علشان تعملي كل ده .. أنا واحد صعلوك هلقوت ..

قلت له في حيرة :

— أنا موش قاهمك .. أنت معدى نفسك ليه ..

فقال في ألم :

— لكن أصحابي يفهموا الكلام ده .. أنا شاعر إننى بأخدعهم .. تعرف
أن دلوقت بآكتشف فى نفسى حاجات غريبة . بتخافق معاهم .. عامل
نفسى شيوعى متحمس .. باشتهم .. بأقولهم أنتم موش ثوريين .
بأحاول أغطى الكذبة اللى فى نفسى ..

وحول عينيه بعيداً عنى وقال كأنه يخاطب نفسه :

— أنا بأفكر اعترف لهم بكل شيء .. واستقيل ..
وارتجفت ..

هأهو يقترب من النهاية التى أريدها له .. ولكنى قبل أن أفكر كنت قد
صحت فى دعر :

— عايز تقضحنى ..

فقال فى بطنه :

— لو كانت الحكاية فضيحة وبس كانت هانت ..

وأغاطتنى إجابته ، ولكنى قاومت غيظى ، وسألته معاتبه

— فيه إيه أكثر من الفضيحة ١٩

ومضت برهة وهو صامت ، لا يريد أن يجيبنى ، ثم قنهد وقال :

— عى رايك ... موش كفاية اللى عملته فيكى ..

وأطرق برأسه .. وكأنه يحمل فرقه حملاً ثقيلاً .. ثم ضحك فجأة
وصاح .

— ماتعمليلى شأى أحسن من الكلام ده ..

فأسرعت ألى طلبه ، وقد سمعت أخيراً شيئاً أستطيع أن أفهمه ..

ومنذ ذلك اليوم وشوقى بفاجئتنى بين وقت وآخر بسخرية حادة من

أصحابه ، وكان يتهم بعضهم أحياناً بالغباء ، فتشجعت وسألته لماذا

لايكف عن مقاتلتهم ، فحلق فى وجهى طويلاً ثم قال بلهجة غريبة :

— آمال عايزاسى أعمل إيه ؟ ..

قلت له :

— يعنى موش أحسن نقعد مع بعض . بدل ماتضيع وقتك معاهم .

قال وهو يبتسم فى غير اكتراث .

— لما نشوف ..

قصحت فيه .

— أنت خايف منهم .. قول لهم مايحوش .. وبيعوا المطبعة .. أنا عايزه

قلوبى ..

فتغير وجهه ، وبدأ عليه العصب وقال فى حدة :

— عايزاهم يبيعوا المطبعة كمان ؟ :

قلت فى دهشة :

— آمال ح تسيبها لهم ..

فقال بصوت حاسم :

— بلاش تتكلم فى الحكاية دي .

فلزمت الصمت ، فقد خفت أن يثور لو تمانيت فى الكلام ..

وعاد شرقى عصر يوم ، ووجهه شاحب ، والخوف باد عليه ، وروى لى

قصة أفزعتنى ..

اعترف لى أنه فى الشهور الأخيرة قد تغلغل من حذره ، فكان يثرثر أمام

زملائه فى الجريدة ، ويدخل معهم فى مناقشات عن الشيوعية ، ويدعولها

هراحة ، وكان لا يطيق أن يسمع أحداً يمدح الحكومة أمامه ، إذ يثور

عليه ويشتمه ويشتم رئيس الوزارة ، وإذا استفزه أحد شتم الملك .. وكان

يعلم أن ما يفعله سيعرضه للخطر ، ولكن شيئاً أقوى منه كان يسيطر

عليه ، ويجعل الدم يغلى فى عروقه ، فلا يستطيع كتمان رأيه ، وكان يفكر

فى أصحابه الذين سبقوه إلى السجن فيتهم نفسه بأنه جبان ، ولا يجد

مبرراً لحيته . وهو يؤمن بأفكارهم ، ويدعو إلى نفس دهوتهم .. لماذا هم

محبوسون وهو حر طليق ، وهم أحسن منه ، وأكثر إيماناً به . وكان

يراجع نفسه أحياناً ، وينصحها بالعودة إلى حذرهم القديم .. ولكن هذا

الشيء الذى لا يستطيع أن يكت جماعه ، كان يثور فى داخله ، ويطلق

لسانه بالكلام ..

حتى كان صباح اليوم ..

دعاه يوسف إلى مكتبه ، وقابله بابتسامته الطيبة الخجولة ، التي يعلم أنه تخفى خبثه ومكره ، وقدم له يوسف سيجارة وجعل يحدثه في كلام عادي ثم سأل فجأة ..

— أما سمعت إنك شيعوي يا شوقي .. الكلام ده صحيح ؟

وفوجيء بالسؤال ، وفكر أول الأمر أن ينكر ، ولكنه شعر من طريقة يوسف في سؤاله أنه قد غدر به ، تظاهر بأنه يتوعد له وكسب اطمئنانه ، ثم وجه إليه السؤال كالطعنة الباغية ..

وأقلت زمامه ، انفجر في داخله ذلك الصوت الجريء يقول له : من يكون يوسف هذا حتى تخشاه فيضطرك إلى الكذب ، إلى متى تتهرب من حقيقتك ، إلى متى تعيش كالجبان ، وصاح متحدياً يوسف — أيوه أنا شيعوي ..

وخلف يوسف عينيه في خجل ، كأنه سمع شيئاً يجرح حياته ، ثم قال بصوت خفيض كالمعتذر ..

— أرجوك يا شوقي ماتكلمش في السياسة هنا .

ولقد شوقي أعصابه ، أثاره أدب يوسف ، ولهجته الرقيقة المعتدلة ، لماذا لا يواجهه بصراحة ، ويكشف عن تهديده . لماذا يظف كلامه بكل هذه النعومة ..

وصاح في انفعال .

— أنا حر اتكلم زي ما أنا عايز .. وأقول اللي أنا عايز أقوله .. فقال يوسف بصوته الخفيض :

— لا .. ماتقدرش ..

لهتف شوقي :

— ماأقدرش ليه .. لا أنت نهمنى ولا اللي أكبر منك ..

واضطر يوسف أن يخرج من أدبه الذي يتحصن به وقال محتداً :

— أنا بانذكرك .. لو اتكلمت تانى ح اطردك في الحال ..

ودفع شوقي باب الحجرة يقدمه وخرج ، وما كاد يخطو بضع خطوات حتى شعر بالخوف ..

أدرك أنه قد تهور في كلامه ، وحاول أن يتمسك ويتظاهر بالهدوء . ولكن مخاوفه كانت تتزايد وتتضخم لحظة بعد أخرى . وعندما وصل إلى مكتبه كان خوفه قد تحول إلى ذعر .

وجلس يتلفت حوله ، ويكاد يقفز من مقعده عند سماعه لأي صوت ، ويتنفض كلما دخل عليه أحد ، يتوقع أن يكون القادم يحمل معه خطاب فصله من العمل . أو مخبراً جاء ليلقي القبض عليه ..

ولم يستطع البقاء في الحجرة ، كانت جدرانها تضيق عليه ، وهوامها يتلاشى ، وضوءها يتحول إلى اصفرار بفيض في عينيه ، فقام يريد الخروج من الجريدة ، ولكن قدميه قانته إلى مكتب يوسف ، عاد إليه كالذهول ، وطرق الباب ودخل ، ووقف أمام يوسف وهو لا يراه ، ولسانه يتحرك بكلمات مرتجلة تحمل الاعتذار والاسف على ما بدر منه ، وانكر في عنف وحدة أنه شيعوي ، وأنسم بشرفه أنه يكره الشيوعيين ويسخر منهم ويتهمهم بالعباء .. وكان يتحدث بحرارة الوثائق من رأيه ، البريء من تهمة الشيوعية ..

وسأل يوسف عن الذي وشى به وأبلغه أنه شيعوي ، فرفض يوسف أن يقول له شيئاً ، وقال له بجفاء إنه يصدقه ، ثم تشاغل عنه ، فاضطر إلى الانسحاب من الحجرة .

وسكت شوقي ، وجعل يضرب ركبتيه بقبضتي يده كأنه يريد أن يحطمهما .

كان قد روى في القصة وكأنه يهذي ، وعيناه تدوران في قلق ، وهوته محموم ، ووجهه متجهم ، اختلطت ملامحه وتشوهت ، كأنه أحد الوحوش الغريبة التي يرسمها في لوحاته ..

وتمتم يائساً :

— أنا حكيت لك كل حاجة .. علشان تشوفى قد إيه أنا حقير .

وحسنت دموعي ..

أهذا هو شوقي الذي أعرفه ١ .. شوقي ذو العينين القويتين الذي قابلته عند باب الجريدة منذ سنوات ، وأنا ضائعة تائهة ، أحمل إبراهيم على ذراعي ولا أدري إلى من الجأ ، فانتشلني من تعاستي وحماتي ، وكان أبا لإبراهيم ..

أهذا هو شوقي الذي أحبه .. ما الذي جرى له ، أي نوع من الأمراض قد أصابه ، أي قوى شريرة تريد أن تحطمه وتقضى عليه في اللحظة التي ظننت فيها أنني قد فزت به .. قوت به وحدي ..

قلت له في انزعاج :

— وإيه الر خلاك تعمل كده ؟

فاجابني بصوت جاف لا حياة فيه

— ما أعرفش .. ما أعرفش ..

ثم أردف قائلاً :

— أنا خايف من يوسف ..

وضحك في مرارة واستأنف يقول :

— أبوه أنا خايف .. وباقولها لك مخصوص علشان تحتقريني .. وتعرني إني موش راجل .

وضايقني كلامه ، شعرت أنه لو واصل الكلام على هذا النحو فساحتقره فعلاً ..

ودارت رأسي ..

كأنني أسقط في بئر جلا قرار وكلما حاولت أن اتخلص من هذا السقوط ، خطر لي أنني لو تماثلت نفسي فسأواجه شيئاً بشعاً ، سأواجه احتقاري لشوقي احتقاري لنفسي ، إذ على الرغم من كل هذه المشاعر القاسية ، كنت مازلت أحبه ..

إنه دمي . وعيبي ، وخلجات عقلي .

إنه أنا

قلت ، وكأن صوتي يخرج من جوف بئر ..

— أوعى تقول كده قلني .. أنت أحسن من يوسف ألف مرة .

كنت استغيث ، لانتقذه .. لانتقد نفسي ، لم يكن يعني أنني اعترف بأنه شيوعي ثم عاد وانتكر ، فهو نفسه أصبح لا يدري إذا كان لا يزال شيوعياً أم لا ، إن حيرته أمام يوسف هي نفس حيرته أمامي وهي نفس حيرته مع نفسه ..

ولم أكن أتوقع أن يطرده يوسف من العمل ، أو يسلمه للبوليس كنت أشعر في قرارة نفسي ، إن يوسف لن تبلغ به القسوة إلى هذا الحد .. كل ما كان يعني أنني أبهار أمام يوسف ، تخاذل أمامه ، وهو رجلي ، وهو قوتي التي أعيش بها ، وأعتمد عليها في الصمود أمام ذكرى يوسف وتعاليه وترفعه علي ..

لا بد أن يقف على قدميه من جديد لا بد أن يعود شوقي القديم ، بكل حماسه وثقته بنفسه وحبوبيته . أريده كما كان ، يأمرني فأطيع ، لا يبكي ويشكر أمامي .. وانتابتنى رغبة جامحة في أن أتركه وأجرى إلى الجريدة ، واقتحم مكتب يوسف ، وأخلع حذائي ، وأنهال به فوق رأسه حتى يسيل دمه ، وأقول له بملء فمي إن شوقي سيده ، وإنه هو الحقير الذي ليس بعده حقارة ..

ورفعت صوتي في حقد :

— يوسف ده مين كمان علشان تخاف منه . والله أروح له الجرنال وأوريه ..

فنظر إلي بعينين ثقيلتين تترجمان تحت جفنين ثقيلتين ، ثم أهدى رأسه .. كأنه لم يعد قادراً على النظر إلي ..

وفكرت أن اقرب منه ، ولكني أحسست بنفور من لمسه ، كنت لا أريد أن ألس ضعفه ، وتمنيت لو كان في مكان آخر بعيد عني حتى لا أراه في هذا الحال ، تمنيت ألا أرى شيئاً على الإطلاق ، وأن تتحلل أفكارى وتضيع ، وأن تمر الأيام بسرعة ، فأرى شوقي وقد شفى من مرضه

ولكن الايام مرت ثقيلة ، وكان شوقى يكثر من الغياب خارج البيت ،
كأنه يتعمد الا يراسى ، ومع ذلك كان إذا جلس معى ، حدثنى فى حنان ،
وقال لى كلاماً رقيقاً يدمى قللى بوقته ..

وبدا شوقى يحدثنى عن أصدقاء جدد تعرف عليهم ، وكان يروى لى
عنهم قصصاً غريبة

عاد ذات ليلة من سهرة قضاها معهم فى القلعة ، وكانت رائحة البيرة
تموج من همه ، وهو نادراً ما يشربها ، ولا يشتريها أبداً ، وكان إذا جاء
بعض أصحابه فى الليل ومعهم زجاجتان أو ثلاث ، شرب معهم ، أما إذا
طلبوا منه شراها فيرفض فى حزم ، ويقول لهم إنه يفضل ادخار نقوده
لشراء السجائر ، ولا شمعت رائحة البيرة تتبعث منه ، ابتعدت عنه ،
ورفضت أن يقبلنى ، فقال لى ساخراً :

— موش ناقص إلا أنت كمان !
قلت له فى دهشة :

— قصدك إيه ؟ ..

فقال وهو يبتسم فى بلاءة :

— كانت ليلة نكد فى نكد ..

قلت له معاتبة .

— علشان شريت بيرة ..

فصاح :

— أبداً .. أنت فاكرا نى سكران .. أنا ما احبش السكر زى ما أنت
عارفة .

وروى لى أن السهرة كانت حزينة .. إذ شربوا البيرة بكثرة ، حتى سكر
أغلبهم ، وكانوا يظنون أن الشراب سيهيه لهم جواً من المرح ، ولكن
حدث العكس ، فبدأ كل واحد يشكو همومه . الذى يتحدث عن فشله فى
الرسم ، ويقسم أنه ليس فناناً ولا أمل له فى أن يكون فناناً يوماً ما ،
ويبكى ، والذى يصيح بأنه يتعذب لأنه لا يجد معنى لحياته ، ويقول إن

أفضل شيء . هو أن يعانقوا بعضهم بعضاً ويكون على حالهم ثم
يتحرون ، والذى يهذى ويقول إنه يود لو يسير ويسير فى طريق طويل
لا ينتهى أبداً ، دون أن يضطر إلى الالتفات إلى الخلف ، أو الرجوع
خطوة إلى الوراء ، لأنه يريد أن يبحث عن شيء حديد فى كل لحظة ، ويمسى
كل شيء قديم .. يمسى ماضيه إلى الأبد ولا يعود إليه ..

واستمع شوقى إليهم ، وهو أكثرهم إترانا ، لأنه لم يفرط فى الشراب
مثلهم ، وفجأة وجد نفسه يثور عليهم ويصرخ :

— موه أنتم ماتتكموش فى أخطر المشاكل إلا وأنتم سكرانين !
وقطع شوقى كلامه ، ونظر إلى ليرى إذا ما كنت أفهم مايقول ، وأدرك
أنى لم أفهم ، فحاول أن يشرح لى ، وقد بدا عليه الاهتمام الشديد ،
والإصرار على أن أفهمه .

واستأنف شارحاً ، فحدثنى عن حياتهم ، وكيف أنهم ينسون لى
الصباح مشاكلهم الحقيقية ، فيذهبون إلى أعمالهم ، ويتحركون كالآلات ،
لا يفكرون فى شيء ، وربما ضحكوا أو أكلوا فى نهم ، أو ذهبوا إلى السينما
إذا كانت معهم نقود ، أو تسكعوا فى الشوارع وهم يتبادلون فيما بينهم
نصف سيجارة إذا كانوا مفلسين ، ويهرجون ، ويلقون النكت .. ويمضى
النهار دون أن يفعلوا شيئاً له قيمة ، فإذا جاء الليل شربوا وسكروا
وتذكروا أخطر الأشياء ، تذكروا النوحات التى لم يسمعوها ، تذكروا
الخداع الذى يفرقون فيه أنفسهم فى النهار ، وناقشوا حياتهم بلسان
مقلّمهم ، وراس يشكو الصداع ، وعقل شبه غائب ..

قلت له وقد خيل لى أنى قد فهمت :

— دول زى المجانين ..

قال فى انفعال ..

— كلهم مجانين ..

وسألت

— يعنى مافيش ناس غيرهم تعرفهم ..

مصحك في مرارة وقال

— يعنى صحابى اللى بيعيخوا هنا موش عاجيبينك .. وصحابى دول ..
كمان موش عاجيبينك . ماهو مافيش غير الأشكال دى .. عايزانى أعمل
إيه .

وتذكرت يوسف ..

وكذت أقول له : هناك أصدقاء من نوع آخر ، أصدقاء عقلاء ،
ناجحون أقوياء ، مثل يوسف ، لماذا لا تنضم إليهم ، وتكون مثلهم ..
ولكننى خنقت السؤال في حلقى ، كان مجرد ذكر يوسف سيغذبه
ويعذبني . وحتى لو لم أذكر له يوسف ، وذكرت له النجاح ، فكأننى
أدعوه إلى أن يتذكر يوسف ..

ثم حدث أن قال لى شوقى وهو يتتأهب متأهباً للنوم ، بعد سهرة طويلة
قضيتها وحدها في إحدى ليالى الصيف

— على فكرة يامبروكة .. أنا عايز أقول لك حاجة ..

وكنت على وشك مغادرة حجرته ، عندما مضى يقول :

— مبروك على قريبك ..

وعرفت في الحال أنه يعنى يوسف ، وكذت أتابع مسرى هاربة مما قد
يقوله .. ثم عدلت ، ووقفت أنظر إليه متسائلة .. فقال وهو يتأهب مرة
أخرى ، وكأنه لا يكثر بما يقول :
— بلى رئيس تحرير قد الدنيا .

قلت له والحق يطفى على

— كده . خليه يتنها ..

وتأهب مرة أخرى ، بطريقة مفتعلة ، وقال بصوت يفضح سخطه :

— يعنى بيقض متين وخمسين جنيه في الشهر ..

ولم أعد أطيق سماع المزيد ، فصحت فيه غاضبة :

— انت موش ح قنام ؟ ..

وتتأهب من جديد ، وهمس .

— تصبحى على خير ..

انفجر هذا النيا في رأسى ، إذ لم يعد لى أمل في أن أصل إليه ، هاهو قد
بلغ قمة الثراء ، النقود تجرى بين يديه بلا حساب ، ربما كان اليوم أكثر
ثراء من راتبك .

ترى اهو سعيد الآن ؟ .

لايد أنه سعيد ..

إنه سعيد كما أنا شقية .. غنى كما أنا فقيرة ..

هذه النقود التي حصل عليها قد سرقها منى .. سرقها من إبراهيم
أخوه .. لقد ضحى بنا ، لينطلق خفيفاً وراء الثروة ..

وفي لحظة ، نسيت حبنى لشوقى ، ونسيت حبنى لابنى ، ونسيت كل ما
في قلبي من حنان ، ورفعت يديين راغبتين إلى السماء ودعوت عليه
بالخراب ..

هذا اللص .. الذى سرقنى .

كنت يائسة من الصعود إليه فدعوت عليه ليتحطم ويسقط رأسه
بقدمى .

وكان يحز في نفسى أن شوقى يعمل عنده ، وهو رئيسه الذى يتحكم
فيه ، كنت أحس أن شوقى لم يعد أكثر من خادم عنده ، كما كنت يوماً ما
خادمة في بيت أبيه ..

وفكرت في أن أطلب من شوقى أن يترك العمل في الجريدة ، ويبعث له
عن عمل آخر ..

وجاءت الفرصة ، عندما عاد ذات يوم ، وقال لى إنه تشاجر مع
يوسف ، لأنه أعطى علاوة لجميع زملائه ، وهرمه وحده ، ولما دخل عليه
يحتج ، طرده من مكتبه ، وقال له إنه شيوعى ، وإنه يعرض نفسه
والجريدة للخطر إذ يتكلم عليه ..

قلت لشوقى غاضبة

— سيب الشغل .. ودور على غيره ..

فنتظر إلى شاكراً ، كأنه كان يريد أن يسمع هذا الرأي مني . وقال :
— أنا ح أعمل كده .

ثم هز رأسه بعنف ، وارتعشت شفته السفلى وقال :
— سر أنا خايف .. ليعمل حاجة في ..
هتفت

— يعمل إيه أكثر من اللي عمله .
قال بصوت شارد :

— يمكن يبلغ عسى
ثم ضحك وقال في سخرية

— موش تبقي غريبة في الوقت اللي أنا بأفكر حقيقي في أن اسبب
الشيوعية .. أنحبس بتهمة إني شيوعي ..

وبعد أيام ، قضينا ليلة ، كان شوقي فيها مرحباً على غير عادته يضحك
من قلبه ، وقد عادت إلى عينيه تلك النظرة القوية النفاذة وبلدني الحب في
تلك الليلة في لهفة غريبة . وكنت سعيدة ، ونحن نجرى وراء بعضنا في
حجرته كالأطفال ، ونتصايح ، ونثرثر بكلام لا معنى له ، حتى أصابنا
التعب فنمنا وقد تشابكت أذرعنا ، وتلاصق جسدانا واختلطت أنفاسنا
وفجأة ..

فزعنا من نومنا على صوت دقات عنيفة على الباب ..
فرقنا الدقات .. وكان فراقنا كالموت ..

إذ كان الطارقون رجال الشرطة ، افتحموا البيت وفتشوه ، وأخذوا
المطبعة والأوراق ، وقبضوا على شوقي ..

وتركوني ، جسداً أبلي ، ومازالت تختلط بأنفي أنفاس شوقي ، وخيال
جسده مازال يلتصق بجسدي ..

انتهى كل شيء .. انتهى عمري في لحظات ، شعرت أنني أمام قوى أكبر
منى ، تستطيع أن تدمر حياتي كما دهمت الحجرة ، وتنتزع روحي كما
انتزعت شوقي ، وتعبث بي في قسوة وعنف كما عبثت بكل شيء في البيت ..

شعرت أن حياتي أصبحت مستباحة ، كأرض الحارة تدوسها قوى غير
مفهومة ، وتسيطر عليها وتستحقها .

وكنت أقضي الليل ساهرة أفكر في مصيري ، فلا أفكر في غير الخوف ، فإذا
ما جاء الفجر ، وارتفعت أصوات المؤذنين يتنافسون في دعوة النائمين إلى
الصلاة ، تساطت في دهشة ، أهم يدعوني أيضاً للصلاة أم أنها محرمة
عليّ ، وأتى لست من البشر الدين من حقهم أن يصلوا ويدعوا فيجيب لهم الله
الدعاء ؟

لماذا يلزمي سددت كل الطرق لي وحيي ، ماذا جيت حتى انتهت في حياتي
إلى لا شيء ، هل أذنبت لأنني خرجت من قريتي ، إنني لم أخرج منها
بإرادتي ، لقد أرغمني على المجيء إلى المدينة وكنت أرتعد من الخوف ، أكاد
أقضم التراب من الجوع ، ليس ذنبي أنني رأيت الحياة العريضة في المدينة ،
ولقد عاشرت أناساً كثيرين يتمتعون فيها بالحياة ، فارتدت أن أشاركهم ،
وأعيش مثلهم أهذا هو ذنبي ..

ولكن ما فائدة كل هذا الآن . لقد وقعت الفأس على الرأس وقعت على رأسي
أنا ..

وانتهى كل شيء ..

هل أستطيع أن أمضي بعد النهاية ؟ هل أستطيع أن أحياء بعد أن مت ؟ هل
أستطيع أن أواجه الدد بعد أن أصبحت بلا غد ؟

شوقي .. حبيبي شوقي .. ماذا صنعت بي ، إنني بلا نقود ، لقد أخذت
منني كل شيء ، ولو كنت قد طلبت مني حياتي لقدمتها لك ، ولكن النقود التي
أخذتها كانت أغلى من حياتي ، إنها حياة ابني إبراهيم ..
لماذا لم تفكر في كل هذا يا حبيبي ؟

أبلغ بك الجتوت أن تظن أنك قادر على إسعاد كل البشر انظر ماذا حدث ،
إنك لست قادراً حتى على إسعادي أنا .. إن ما فعلته قد قضى على ابني ..
لا تغضب يا شوقي من أفكاري .. فانا محتونة مثلك ، أنا لست نادمة على
ما فعلت ، وأورجعت الأيام ، وعدت تطلب مني النقود ، لأعطيها لك ، حتى

وأنا أعلم مصيرها ومصيري .. فأتنا أحبك يا شوقي .. أحبك بجنونك
وأحلامك ، وقوتك وضعفك .. أحب راحة شفتك السفل ..

أنت وأنا .. كنا نعيش من أجل حلم ، من أجل كلمات تهمس بها رغبة خفية
في صدرينا .. هيه .. كنا نحلم بحياة جميلة .. وكنت طموحة في حلمي ، فكنت
أفكر في الأيام الحلوة التي سنعيشها معا .. وأنت ، كان طموحك أكبر ، فكنت
تفكر في تلك الأحلام الغريبة التي لا أفهمها ، فتحدثني عن الأيام التي
سيعيش فيها الناس جميعاً ..

وما هي نتيجة طموحك وطموحي ..

أبرضيك هذا ؟

ماذا أصنع الآن ؟

انتهى كل شيء ..

بالأمس ، ذهبت مع الأسطى طه لنسأل عنك في قسم الشرطة ، فنظروا إلينا
في ريبة ، وسألوا طه عن اسمه وعنوانه ، وفي لحظة خيل إلي أنهم سيقبضون
علينا ، فجرينا هاربين من القسم تطاردنا نظراتهم وأسفلتهم وشكوكهم
القائلة ..

وعدت لأجلس مع أم حنفي ، فقالت لي بصوتها الضعيف المتكرر : إن
أملنا الوحيد هو في الله .. في ربنا الموجود ..

وتذكرتك يا شوقي ، يوم قلت لك نفس الكلمة .. وبنا موجود ، فارتعش
جسمك ، وصرخت بوجه أصفر : إذا كان موجود ليه ما بيوكش الشحاتين
الي مالبين الشوارع ..

لقد خفت يومها .. وقلت لك : بلاش تكفر ..

ليتك كنت استمعت لي ، ولو من أجلي .. إن الله غاضب منك .. ومني ..
ولقد انتقم من كلماتك ..

أتريد مني أن أكفر بالله مثلك .. لا .. أنا أضعف من هذا ، أنا في حاجة إلى
رهباء لا غصبه .. هو اليوم ملاذي الوحيد ..
لو رضيت رحمة ..

كنت تظن نفسك قوياً تستطيع أن تواجه كل القوى ، فخذعت نفسك ..
ربما كنت تظن أنك أقوى من يوسف ..

ولكن يوسف وحده ، هو الذي يعلم سر القوة والمجاه في هذه الدنيا ..
أتدري يا شوقي ، ماذا أريد أن أفعل .. أريد أن أذهب للقاء يوسف ..
أريد أن أرى هذا الرب الصغير الذي ارتفع وارتفع .. فقلبي يحدثني أنه
وحده الذي يستطيع أن يعيدك إلي ..
لا أشك في أنه قادر على إعادتك إلي ..

وذهبت إلى يوسف ..

ذهبت إليه أحمل حقدتي ، وذلي ، وحاجتي ، وحنيني أقاومه ، والخجل
منه ، حنين إلى رؤية وجهه ، والكلام معه ..

وصلت إلى بناء الجريدة ، إنه نفس البناء ، لم يتغير فيه شيء ، رغم كل هذه
السنوات التي انقضت حتى البواب لا زال كما هو ، ولما رأني لم يعرفني ، أما
أنا فكنت أذكره ، كأني رأيته بالأمس .. إنه سبب لقائنا ..

وصاح لي :

— رايحة فين يا ست ؟

قلت له

— أنا جاية أشوف الأستاذ يوسف ..

فارتفع صوته :

— عايزاه ليه ؟ ..

قلت له :

— أنا قرييته ..

فحدق في طويلاً ، ثم لمعت عيناه .. لقد تذكرني .. ولكنه كان قد نسي
الظروف التي رأتني فيها .. نسي أنه طردني ، وبدأ عليه الارتباك ، وطلب مني
أن أصعد إلى الموظف الجالس على المكتب في المهو الخارجي ..
وما كاد الموظف يسمع اسم يوسف حتى بدا عليه اهتمام شديد وتكلم في
التليفون مع امرأة قال لها :

— يا مدموازيل بثينة . فيه واحدة اسمها مبروكة يتقول إن يوسف فيه يعرفها . وح يقابلها ..

ومضت برهة والرجل يلصق سماعة التليفون بآلاته . ووجهه متوتر كأنه ينتظر كلمة مقدسة . ينتظر الوحي الذي سيهبط من فوق .. من عند الرب .. وانتفض الموظف ، وضافت عيناه ، ثم وضع السماعة ، ونظر إلى في غيظ .. كأنه يريد أن يحاسبني على الانفعالات التي سببتها له . وقال لي حدة .

— الأستاذ يوسف ما يقدرش يقابلك ..

لم أثر . ولم أحاول أن أقول شيئاً .. كنت أشعر بشيء شديد فخرجت بذلي . وعدت إلى البيت .

وسألني الأسطى طه ، فرويت له ما حدث .. فقال محتجاً :
— لازم تشوفيه ..

قلت له :

— أعمل إيه ..

فصاح :

— هوه موش إبراهيم أخوه .. ابعتيه له .. وخليه يتصرف فيه .
قلت يائسة :

— موش ح يدخلوه ..

لفكر قليلاً ثم قال :

— خليه يستناده وهو خارج من الباب ..

وجاءني الأسطى طه بورقة صغيرة .. وقراها عليّ ..

سيدي المحترم سعادة يوسف بك أدام الله عزه آمين ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

وأما بعد .. مقدمه إبراهيم عبد الحميد السويقي ابن المرحوم والدكم وشقيقكم المخلص الوفي الأمير ، الذي يسأل عنكم ويدعو الله لكم بدوام العز والبركة ، ويطلب عطفكم وكرمكم ورعايتكم ، ويبلغكم إنه فقير ومحروم ويقيم

وايمس عنده طعام . وأنتم أقرب الناس إليه . والشرع والدين والقرآن الكريم أمروا بإعطاء قوى القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل . وأنا ياسيدي استطفك الله أن تساعدني وأن تعطيني مما أعطاكم الله . فأنتم من أهل الجود والكرم ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

أخوكم وخدمكم الأمين

إبراهيم عبد الحميد السويقي

جمعت عيناى . وأخذت الورقة في لهفة . ودسستها في صدري . وقال لي الأسطى طه :

— إذا ما ساعدكوش بعد كده .. ترافى عليه قضية نفقة .. أنا سألت الشيخ متولى اللي كتب الجواب ..

وفي الصباح ذهبت مع إبراهيم إلى الجريدة ، ووقفنا عند ناحية الشارع ننتظر . ونرقب الداخلين والخارجين ، حتى حل بي التعب فجلست على الرصيف . واجلس إبراهيم بجانبى فانكمش يستمع إلى لي رهبة . وأنا أكرر عليه ما يجب أن يفعله ..

قلت له ألا يخاف ، وأنه سيقابل أخاه . وسيطيه الورقة . وكان ينصت إلى فيزداد انكماشاً ووجوماً . ويلتصق بي يريد أن يحتمي بي من مخاوفه . ورايت يوسف ..

كان يهبط السلم . في حركة نشيطة سريعة . ووجهه متألق . واثنان يهبطان وراءه . وقبضت على ذراع إبراهيم وقلت له في لهفة :
— أهه .. خذ الورقة ودوح له .

وتردد إبراهيم ..

فزعقت فيه . ودفعته بيدي فجري مذعوراً ..

وكان يوسف قد وصل إلى أسفل السلم . والباب يقف منتفضاً رافعاً يده بالتحية .. وأقبلت سيارة بيضاء كبيرة . أطلقت نقيها فجأة وقد كاد إبراهيم أن يرتطم بها ..

وتحولت الانظار إلى إبراهيم وهو يتفدى للسيرلة ، وقد رفع يده الممسكة بالورقة ، متجهاً نحو يوسف
وكنت واقفة في مكاني البعيد ، أنظر في عاء إلى ما يحدث ، كائن في خيال ،
كأنى لا أرى ما أراه .. كل شيء حولي غير حقيقي ، وكان في قلبي صمت
غريب ، وأسى يطر بالفراخ لا معنى ولا خاطر ولا أى شيء ..
ورأيت يوسف يبطر إلى أخيه نظرة طويلة ، ورجلان يتقدمان ويلوحان
بأيديهم في وجه إبراهيم يريدان طرده ..
وأردت أن أتحرك ، وأدافع عن ابني .. ولكنى عجزت عن الحركة .. كنت
مشلولة ..
ورأيت يوسف يمد يده ويمسك بالورقة ..
وكان يده لمستني أنا فاستقضت ، وافقت من الخيال ، واندفعت أعبر
الطريق نحو يوسف ، ومع كل خطوة اقترب فيها منه ، يتساقط حقدى ،
وتتباعد ذكرياتي الأليمة ، وأهزأتى .. حتى وصلت إليه وليس في قلبي سوى
الحنان واللهفة إلى أن أراه ويراني وأحدث ويحدثني .. وابتسم له فيبتسم
لى ..
وصحنت وابتسامته فرح تشرق من قلبي :
— أزيك ياسى يوسف ..
فرفع عينيه عن الورقة .. ورأنى ..
وابتسم ..
نفس الابتسامة الضجولة المعتذرة .. وجهه لازال طيباً حنوناً ، فيه حزن
وأسى ..
وهتف في حرارة ..
— إزيك يا مبروك ..
ووضع الورقة في جيبه ، وصافحني وفي لحظة خاطفة ، تذكرت أمي يوم
صحتني بأن أقل يد ستي الكبيرة ، فأنحيت على يده أقبلها ، فاخطف يده
من شفتي ، ومدها ليتحسس بها رأس إبراهيم ، ويعيث بأصابعه في

شعره ..

وقلت له والامل يفتح في قلبي .. والدنيا تتسع .. والأرض تتحول إلى سماء
عريضة تنقف عليها ..
— شفت كبير إزائى ..
قال والابتسامه تمرح في عييه وتعانق ابتسامتى :
— ما شاء الله .. بأه راجل أه ..
قلت في حرارة ..
— البركة فيك ..
قلت ، وكأنه هو الذي رباه ورعاه وأنفق عليه طوال السنوات الماضية ..
فنظر إلى وهو يتراجع بقدميه إلى الوراء .. واحتقت الابتسامه من وجهه ،
وقال بصوت خفيض :
— ان شاء الله ..
قلت في لهفة .. وأنا أتقدم منه ، وعيناي تبحثان عن ابتسامته التي
اختفت :
— ح تعمل فيه إيه ..
فتلفت حوله ، ثم وضع يده في جيبه وأخرج جنيهاً ..
صحت في فرح ، وكأنه خرج من جيبه ثعباناً ..
— أنا موش عايزه فلوس ..
فقال في دهشة :
— أمال عايزه إيه ..
قلت بلا وعى :
— ح تدبني الجنيه وتسبيني
فتجاهل كلمتي ، واتحنى على إبراهيم ، وأعطاه الجنيه ..
نظرت حولي يائسة ، أريد أن استغيث ، فواجهتني عيون بلهاء ..
وسمعت يوسف يقول :
— أنا مستعجل دلوقت ..

— رايح فين .

فتقدم أحد الرجال ووقف بيني وبين يوسف وقال مهدداً :

— ما تبقيش طماعة .. البية اعطاكي جنيه .. احمدي ربنا ..

وكان يوسف قد دخل سيارته ، فدفعت الرجل ، ومجعت على السيارة

أصرخ ..

— رايح فين .. ح تسبيني اعمل إيه ياسي يوسف .. أنا وليه غلبانة ..

فلم يلتفت إلي ، وتحركت السيارة ، بينما تلقفتني أيد امقدت من الخلف ،

لتمنعني من السقوط .

منذ تلك اللحظة ، فقدت كل مشاعر الحب والحنان ، سيطر الحقد علي ،

ومرست به ، فلوث حياتي كلها ..

فطمني الحقد من حياتي السابقة ، فطمني من ذكرياتي الحزينة ، ومن

طفولتي ، وامي ، وستي الكبيرة ..

فطمني من حبي لشوقي ..

منذ تلك اللحظة ، علمت أن مبروكة قد ماتت ..

الم أقل لكم إنني مت وأنا حية . الآن فقط أدركت هذا ..



وعشت حياة أخرى ..

صدقوني .. إن مبروكة التي تعيش اليوم ، مخلوقة أخرى ، ليس لها

قلب ، كل ما تملكه هو الحقد .

مبروكة اليوم امرأة بلا أحزان ولا أفراح .. إنها عقل بارد في جسد من

خشب .. عقل بلا عقل ..

نعم .. هذا هو أنا اليوم .

اتحرك وأروح وأجىء وراء لقمة ، بلا انفعال ، بلا أمل ، بلا غضب ،

بلا أحلام .. كل الأحلام التي عرفتها وعشت بها قد ضاعت . كل الأصوات

التي كانت تهمس في داخلي قد خمدت ..

لم يبق لي سوى الحقد على يوسف والطعام .. الطعام .. الطعام .

هذا هو كل ما أفكر فيه في النهار أبحث عن الطعام وأكله أنا وابني .

وفي الليل يبحث الحقد عني .. ويأكلني ..

أين أجد الطعام ، أين أراه وأشمه ، أين أمد يدي إليه لاسد به فم

إبراهيم ..

أحياناً أتذكر في برود ، أمتي عندما كانت تلطمني على وجهي إذا سألتها عن

الطعام ، وكنت لأخشاها فأدع الجوع يقرصني ولا أشكو .

وأبأت الليل بلا طعام . إنني لا أريد أن يفعل إبراهيم مثلما كنت أعمل ..

لا أريد أن أطمع على وجهه إذا شكا الجوع .. لا أريد أن يخشاني فيقرصه

الجوع ويسكت ويببب ليلة بلا طعام .

ومع ذلك ، تدور كل هذه الخواطر في رأسي ، وكأنها لا تعنيني ، كأنها

خواطر امرأة أخرى غيري ..

ودفعني بحثي عن الطعام إلى بيت راتب بك .

دخلت طيبهم ، وكأنني لا أعرفهم ، كأنهم غرباء ، مجرد أناس .. أجد

عندهم الطعام .

حتى البيت بحجراته وأثاثه وسلمه ، لم يثر في نفسي أي شعور ، إنه ليس

أكثر من مكان يقوِّح منه رائحة الطعام ..

وقابلتني ستي الصغيرة متجهمة الوجه ، فلم أكتش ، وبكيت أمامها

بلا دموع .. تصنعت البكاء ، وشكوت لها يوسف ..

وأدهشني أنها اهتمت فجأة بكلامي ، ونادت راتب بك ، فجاء يمشي على

مهل ، وقد تقوس ظهره ، وتكرمش وجهه ، ويده ترتعش رعشة متصلة ،

وطلبت مني ستي الصغيرة ، أن أعيد ما رويته لها عن يوسف .. واستمع إلي

راتب بك ، وعلى شفثيه انتسامة واهمة ، وفي عينيه لمعة فرح بما يسمع ، ولما

فرغت من حكايتي ، اشتبك مع ستي الصغيرة في شتم يوسف

ونظرت إلي ستي الصغيرة في عطف ، وقالت لي إنها ستكفني بالعسيل ..

وقال راتب بك بصوت جاهد في أن يرفعه :

— احنا يا بنتي مش قللات أصل زي غيرتنا .

وأحسست أنهما يشاركاني حقدي على يوسف .. لكنني لم أفرح بهذه المشاركة إذ كان لا يعنيني من أمرهما شيء سوى أن أحصل على الطعام . وتعودت أن أتردد على بيت راتب بك مرة كل أسبوع ، فأغسل وأكنس وأنظف ، حتى يهديني الثعب ، فأجري إلى المطبخ وأكل .. وأكل ، وأحمل معي صرة مليئة بالطعام لإبراهيم ..

وكان إسماعيل ينتظرني في دهشة أول الأمر ، ويحاول أن يملأني بركة . وكانت تضايقتي معاملته ، فأنفر منه ، ولكنه ينس بعد قليل ، فتجاهلني ، وأراحني ..

وبحثت عن بيوت أخرى ، فذهبت إلى بيت ستي سعاد ، وكانت حاجتها إلى أكبر ، وقد أصبح لديها طفلان ..

واهتمت هي أيضاً بسماع قصتي مع يوسف ، وكانت أمها قد روتها لها قبل أن أذهب إليها ، ولكنها طلبت مني أن أرويها لها من جديد ، وضحككت عندما سمعتني أروي مقابلي الأخيرة ليوسف أمام باب الجريدة .. وقالت لي والفرحة تملأ وجهها :

— ده أنت فضحتي يا مبروكة .

وقال لي عيني إنها تشمتني ، وإنني يجب أن أقول لها إنني زوجة أبيه ، وإن إبراهيم أخوه .. ولكنني لم أشعر بأية رغبة في الكلام ، واكتفيت بأن همست متظاهرة بالآسى ..

— أهه اللي حصل ياستي ..

وأظهرت لي تأثيرها بحالي ، فكنت أتعهد أن أحكي لها عن همومي . أحكي لها بصوت ضعيف متحسر مقلدة أم حنفي .. وأفرح كلما بدا عليها الأسفاق ، وأتظاهر بأنني على وشك البكاء ..

وكانت تسألني بين وقت وآخر .

— هيه .. ماروحتيش ليوسف ثاني ؟ ..
وتضحك

وكنت أشعر أنها تريد مني أن أذهب إليه ، وإن اتصلت مزيداً من إهاناته ، لأعود وأرويها لها .

وقلت لها صراحة :

— لو يرضى أغسل له عبوه .. أروح له .

فضحككت قائلة :

— طيب ما تجريبي ..

قلت في حسرة :

— مايرضاش ياستي ..

فكففت عن الضحك ، وبدأ عليها الضيق ، كأنني أحرمها من قصة مسلية .. فسيت تماماً .. وأنا أتردد على سعاد ، تلك المقارنات الحمقاء التي كنت أعقدها بيني وبينها ، لم تعد هي سعاد ، كما لم أعد أنا مبروكة .. أنها مجرد امرأة غريبة استطيع أن أخدعها بكلماتي ، وأثير شغفتها ، لأحصل منها على النقود والطعام .

وأرسلتني سعاد إلى بيت مدحت وكان قد تزوج من امرأة شحطاء أكبر منه ، قابلتني مقابلة جافة مريعة ، ثم تركتني أمام أكرام الفسيل .

ومضت شهردون أن أرى مدحت ، ولكنني كنت أغسل ملابسه ، وأعجب لقد ارتها الشديدة ، والثقوب التي أجدها أحياناً في ملابسه الداخلية .. إلى أن قابلته عصر يوم وأنا خارجة من باب العمارة ، وكاد يعرّبي دون أن يعرفني ، ولم أحاول أن أخاطبه ، ولكنه لاحظ الثغرات نحوه ، فهدق لي وجهي ..

وعرفني ..

وهتف في دهشة :

— مبروكة ... أنت بتعملي إيه هنا ..

قلت له ، وقد كسوت وجهي بقناع التعاسة ..

.. كنت فوق عندكم يا سيدي .. ما هو أنا الغسالة بتاعتكم ..

فصاح في انفعال :

— إزاي أنا ما أعرفش ..

كان وجهه مجهداً ، وتحت عيني حفرتان زرقاوان ، وظفراته حادة قلقة ،
ولكن ابتسامته كانت حلوة .

قلت لنفسى ، لو أرادنى الآن لما قاومته ، ولأخذت منه نقوداً أكثر مما
أكسبه من الغسيل .

ورسمت على وجهى ابتسامة وغرست عيني في عينيته ..
ولكنه لم يفهمنى ..

وصاح كأنه تذكر شيئاً مفاحناً .

— وإيه أخبار يوسف ...

قلت له : وأنا لأزلت ابتسم ، إذ كان لا يعنينى سؤاله ..

— ما بأشوقوش ..

فعضى يقول محتجاً :

— لكن ما يصحش يسبك تشتغلى ..

قلت وأنا أتوسل إليه بعيني أن يفهم دعوتى ..

— أهو موش سائل عنى ..

فقال معتداً :

— لا .. أنا لازم أكله ..

وتركنى فائراً على يوسف .. وحاولت أن أراه مرة أخرى ، فلم أفلح ، إذ
كان نادراً ما يعود إلى البيت ..

وايقنت أنه نسينى ..

ومضت الأيام ، وكنت عائدة عصر يوم من بيت ستي ، وفي يدي
صرة الأكل ، وإذا بى أفاجا بالمدينة تحترق .. النار تشتعل في الدكاكين ،
والدخان يملأ الشوارع ، وناس تحري نحو النار ، وناس تجرى من النار ،
والزجاج يملأ الأرض تحت قدمي ، وصرخات بعيدة تقترب ، وصبية يحملون
أقمشة ويطاردون بعضهم بعضاً وسط الطريق .

كان الحراب في كل مكان .. والسماء سوداء ، والرياح الباردة تلهب
وجهي ، خيل لي أن الدنيا قد جنت ، ورايت أمامي مكاناً كبيراً يتدفع إليه

بعض الصبية ، وينقلن من بينهم رجال يحملون أقمشة من كل صنف ،
فاندفعت إلى داخل الدكان كالمسجورة ، أخطف كل ما أراه .. أخطف بعيني
ويدي وجسمي وبنفامي ، ارتطم بالناس .. وانتلقت صرباتهم ولا أحس
بها ، لا أدري إذا ما كنت أصرخ .. أو أشتم ، أو أهمل فرحاً ..

وحملت بين يدي كل ما استطع حمله ، وألقيت بصرة الأكل وحريت إلى
الشارع عارية في طريق بيتي ..

كنت أسير لاهية في شارع محمد علي ، وأنا لا أصدق ما رأيته ، لا أدري
هل أنا في حلم أم في حقيقة ..

وفجأة .. سمعت صوتاً يهتف باسمي .. صوتاً جريئاً حاراً .. فيه لهفة ..
لم التفت إلى مصدر الصوت ، وجريت ، ولكن الصوت طاردني ، حتى
رايت رجلاً يلحق بي ويعترض طريقي .. كان يلبس جلابية ومعطفاً وحول
رقبته كوفية .. وشعره الأكثر منقوش فوق رأسه ..

كنت ألقى بحملي على الأرض .. وقد تملكني الذعر ..

ولكنه كان يبتسم .. ويردد اسمي في حرارة ولهفة ..

من يكون هذا الرجل ...

وقبل أن أدير له ظهري وأجرى سمعته يقول :

— إزيك يابت .. أنت فين .. والله وحشتيني ..

هذا الوجه أعرفه ..

نعم عوض ..

وهتف ضاحكاً .

— إيه .. أنت موش عارفاني ..

كأنت المفاجأة قد ألجمت لساني ، فقلت بصعوبة :

— يوم .. إزيك يا عوض ..

وقطعت بقية كلامي ..

تذكرت أنه كان في السجن ..

وصاح عوض في مرح :

— عاملة إيه يابيت .. أنت سيبتي بيت الجيزة ..

وتذكرت شوقي .

شوقي دخل السجن .. وعوض خرج منه .. ما الذي يحدث في هذه الدنيا ..

وكرر عوض سؤاله :

— ما تقول لي .. أنت لسه في بيت الجيزة ..

قلت بلا تفكير :

— لسه بروج لهم ..

وصوب عيني إلى ما أحمله في يدي وابتسم قائلاً في مرج :

— والله شاطرة .. عرفتني تاخدي نصيبك في الزيتة دي ..

ثم بدت عليه دهشة مفاجأة .. وسألني :

— يعني إيه يثروحي لهم .. هو أنت عايشة بعيد عنهم ..

قلت :

— أه .. أنا عايشة في بوابة المتولي مع ابني ..

فهتف :

— والتجوزتي كمان ..

واستمع إلى طوال الطريق ، وأنا أروى له عن زواجي من مدرس اسمه

عبد الحميد أفندي السويدي ، وكيف مات وترك لي ابني الذي أحله ولم

أذكر له يوسف ، رغم أن اسمه كان على طرف لساني ، أكاد أنطق به مع كل

كلمة أقولها ..

ولم يصدقني ..

ضطك وهو يحدثني بعينين ماكنتين وقال :

— شوفيلك غيرها .. الواد جيئيه منين ..

قلت له في هدوء غريب ، وكأنني لا أصدق معه ما أقول :

— والله اتجوزت ..

فنظر إلى في خبث وقال :

— مصدقك .. مصدقك .. التجوزتي مدرس .. وبعدين اشتغلتي غسالة .

كويسة قوى .. تعجيبني ..

وصوب إلى صدري نظرة نهمة .. وقال .

— أهو أنا مزاجي أشتغل مع واحدة زيك ..

كنا قد وصلنا إلى ميدان باب الخلق فوقف ، وأشار إلى ما أحمله وقال :

— أنت موش محتاجة تخطفي الحاجة .. أنا مايزك تحطى مخك في رأسك

وتسمعيني كويس ..

وحدثني عن النقود الكثيرة التي سيمطرني بها ، والبيت الجميل المفروش

الذي سأسكن فيه ، والحياة المرحمة التي ساعيشها .

كان يحدثني بصوت حلو .. ذكرني به ، وهو يردد الأغاني في الدكان منذ

سنوات .. واستمعت إليه في استسلام ، وهقلي بقول لي :

— أنت متعبة يا مبروكة .. إلى متى تجهدين نفسك في الغسيل .. إلى متى

تترددين على بيوت راتب بك وسعاد ومدحت .. كل هذه البيوت قبور .. تذكرك

بمبروكة التي ماتت .. اسمي كلام عوض اتبعه .. استريح يا مبروكة من

مبروكة ..

وهنا سكنت مبروكة عن الكلام ..

وبذلك انتهى القسم الأول من الرجل الذي فقد ظله ...



القسم الثاني ترويه :
سكاهية

أنا سامية .

سامية سامي ، الممثلة في السينما ، اعترف أنني مازلت غير مشهورة ، لأن كل الأدوار التي ظهرت فيها حتى الآن كانت صغيرة ، ولكنني طموحة ، وعندى المواهب التي تجعل مني ممثلة كبيرة مشهورة مثل فانتن حمامة وأحسن منها . وعندى أكثر من المواهب .. عندى الجمال .

قوامي يشبه قوام اليزابيث تايلور ، ممشوق وملفوف ، وطري كأنه خال من المظلم ، وعيناي أجمل من عيني اليزابيث تايلور ، ناعستان عميقتان ، سوداوان ، مليتان بالأسرار ، كل من ينظر إليهما تدور رأسه ، أما شفثاي فقد رسمهما الله في ساعة رضاء .. ماذا أقول .. إني جميلة .. كل شيء في جميل .. شعري ، يداي ، ساقاي ، مشبثتي ، صوتي ..

كل شيء في جميل إلى حد الهوس ..

سمعت البعض يقولون عنى إني قصيرة .. ولكن الذين يقولون هذا الكلام لا يضايقوننى ، لأنهم لا يفهمون السينما .. إنهم لا يعلمون أن السينما تضخم كل شيء على الشاشة ، ومن حسن حظي أنى قصيرة ومنممة ، لأنى أبدو على الشاشة في طول مناسب ، أما لو كنت طويلة في الطبيعة لظهرت على الشاشة في طول الزرافة .



أنا لست مغرورة ، كما انى لست سعيدة بجمالى ، تتنايتى أحيانا لحظات
يأس ، هاكاد اكفر بنعمة الله ، وبالجمال الذى وهبه لىائى ، وأتمنى لو كنت
قبيحة دميمة

كنت أظن لسذاجتى ، أن جمالى سيساعدنى ، وسيشقى لى طريقى فى دنيا
السينما ، فأصعد إلى سماءها وأسطع كنجة لامعة ، ولكن جمالى كان هو
العقبة التى سدت الطريق فى وجهى ، إن دنيا السينما غلبة مليئة بالذئاب ..
كلهم ذئاب . المنتجون والمخرجون والممثلون والمصورون ..
كلهم .. كلهم .. ذئاب ..

إنهم لا يثلمون أبدا إلى مواهبى ، إنهم يطمعون فى جمالى ، يتنافسون
عليه ، يتامرون عليه ، وأكون أنا الضحية دائما .

حتى الصحفيون الذين يهومون حولنا فى الاستديوهات ، يلتقطون أخبارنا
ينشروها .. هم أيضا ذئاب ..

لقد ضاعت منى فرصة العمر ، بسبب واحد من هؤلاء الصحفيين ، إنه
رئيس تحرير الآن ، صحفى مهم مشهور ، كل الناس تعرفه وتتحدث عنه ،
ولكنهم لا يعرفونه على حقيقته .. أنا وحدى التى تعرفه .. أنا وحدى التى
تستطيع أن تقول من هو يوسف عبد الحميد ..

كم كنت غبية إذ صدقته يوما ما ، وظننت أنه سيفق إلى جانبى ، ويصعد
معى سلم المجد ، درجة درجة ، نحن الاثنان معا ، حتى أصبح أنا أشهر
ممثلة ، ويصبح هو أشهر كاتب صحفى .

من أجله تركت فرصة العمر ، ورفضت دور البطولة ، أما هو فما كانت
تبرى أمامه الفرصة حتى رفضنى بقدمة ، وتركنى ألتخرج وأنحدر أسفل
السلم ، ومضى وهو يرتفع .. ويرتفع .. وحده .

لا أريد أن أخدع نفسى .. أقول لى أكرهه وأحقد عليه ..

أنا مارلت أحبه ..

نعم أحبه .. ولكنى أكرهه أيضا وأحقد عليه ..

لو تخلصت من يوسف .. لو تخلصت من ذكراه .. لو مرى يوم واحد

دون أن تطوف صورته بخيالى .. لو حدث هذا لاسترحت .. ولتخلصت من
ضعفى ، ومضيت فى طريقى أبهى حياتى من جديد ولكنى لا أستطيع .

شبهه يطاردنى .. ذكراه تطاردنى .. اسمع فى كل مكان يطاردنى . مجده
وشهرته ونجعه الساطع يطاردوننى .. إنه هناك ، فوق ، فى أعلا السلم .. وأنا
هنا ، تحت ، فى أسفل السلم .. إذا رفعت عيسى لأرى إلى أين وصل ؟
أحسست بالدوار ، ويطول المشوار ، فسيسطوى على الخوف ، وأخشى أن
أحاول الصعود إليه ، فغيرسنى مرة أخرى ، فأسقط وأتحطم ..

كيف وصلت إلى هذا الحال ؟ ما الخطأ الذى ارتكبته ؟ ما الذنب الذى
جنيته ؟ ما الأمر فى أن رجلاً كيوستف كان يرتقى عند قدمى ، ويقول لى إنه
يعبئى ، وأنى دنياه ، وأنى حياته .. ثم يدوسنى فجأة ليصعد فوقى ؟ ..

هذا هو ما أريد أن أعرفه .. لابد أن أعرف حتى لا ألقد عقل وأجن ..
إنى أسترجع كل لحظة قضيتها مع يوسف ، أسترجع كل كلمة قالها لى ،
وكل كلمة قلتها له .. كل حركة بدرت منه ، وكل حركة بدرت منى ، وأفتش
والقلب ، فى راسى ، وفى قلبى ، وفى عواطفى ، وفى أفكارى .. لأعرف ، ولأضع
أصبعى على السر ..

كان ذلك منذ سنوات بعيدة ، عندما قابلت يوسف لأول مرة ، كنت وقتها فى
الثامنة عشرة من عمرى ، مريحة ، مبهونة ، الدنيا كلها تحت قدمى ، وكنت فى
ذلك اليوم قد دخلت استديو مصر لأول مرة فى حياتى ، ووقفت وسط مجموعة
من البنات تحت أضواء باهرة ، وكنا نرتدى فساتين السهرة ، وفى يدى مبسم
فى طرفه سيجارة ، كان قلبى يدق ، وعدسات التصوير مصوية إلينا كأنها
عيون عملاق رهيب ، وكنت لا أخشى هذا العملاق ، بل واثقة من أنه سيفتن
بجمالى ، وحدث فعلا ما كنت أتوقعه إذ صرخ المخرج فجأة ، فوقف
للتصوير ، وصدرت الأوامر ، فأنصرفت البنات من حولى ، ووقفت وحدى
أمام الأضواء والعدسات ، تلتقط لى صورتى ، وأنا أرفع المبسم إلى فمى ،
وأفتت دخان السيجارة ..

وبعد انتهاء تصوير المشهد ، أحاطتنى مئات العيون ، عيون تلتهمنى ،

وهيون تحسنى ، وهيون تغلر منى ، واقترى منى المخرج الأستاذ حلمى
كامل وقرصنى من خدى وقال لى :

- يرافو يابيه .. أنت لكى مستقبل عظيم ..

فصعد آدم إلى رأسى ، وعجزت عن الكلام ، فمد يده إلى ذقنى وأمسك به ،
وجعل يتفرد فى وجهى ثم قال :

- تستقنى لما أخلص .. وأروحك معاليا ..

قلت له فى ارتباك :

متشكرة . أنا رايحة عند واحدة صاحبتى ..

فضحك قائلاً :

بذمتك أنت رايحة عند واحدة صاحبتك .. والا حاجة ثانية ..

قلت له فى براءة وأنا أكذب طبعاً :

- والله العظيم أنا رايحة عند سناء ..

لمط شفطيه وقال متظاهراً بالغضب :

- أنت موش صادقة .. أنا ح اشتكىكى لأمك ..

ثم هاد وضحك قائلاً :

- روى أنبسطى .. بس ما تسهريش كثير .. ولكرى فى اسم جديد
لكى .. ينفع فى السينما ..

قلت له فى دهشة :

- اسم جديد ليه ..

فقال ساخراً :

- علشان اسم بهية ما ينفعش .. ولوح بيده فى الهواء ، كأنه يشير إلى

اسمى مكتوباً على يافطة كبيرة .. وقال :

- اتخيل اسمك مكتوب فى الإعلانات .. بهية عبد الرحمن .. اسم

ماتيهش موسيقى .. ينفع اسم مدرسة .. والا اسم محامية .. لكن ما ينفعش
اسم ممثلة ..

فسألت فى لهفة

- هو اسمى ح يطلع فى الإعلانات ..

فصاح

ما تستعجلش . أنا بافكر للمستقبل .. يادور على مصلحتك وأنت

بتلعبي ..

فشعرت بالندم .. لأنى ارتبطت بموعده ، وفكرت فى أن اتجاهل موعدى ،

واتراجع ، ولكن كيف أفعل هذا ، لو أنه عاد والى على فى البقاء فسارضى فى

الحال ، وانتظره وأعود معه إلى بيتنا حيث يقضى سهرته ، ولكنه قال لى

بسرعة :

- فكرى فى اسمين هروهم زى بعض .. منى منير .. سعاد سعيد ..

كريمة كريم .. أى حاجة زى كده .. على العموم ح تلاقينى فى البيت لما

ترجعى ..

وتركنى ، وانتشغل بإصدار أوامره .. والأسماء تدور فى رأسى وجريت إلى

باب الاستديو ، حيث كان ينتظرنى مدحت فى عربته الستروين ..

كانت الساعة حوالى الثامنة مساء ، ومازال أمامنا وقت طويل نقضيه فى

العربة ، قبل أن نذهب إلى مكان رقص فيه ، وكنت مترددة ، هل أكتفى بأن

أجلس مع مدحت فى عربته بعض الوقت ، ثم أظهار بالتعب وأطلب منه أن

يعود بى إلى البيت لأختار مع الأستاذ حلمى اسمى الجديد ، أم أقضى السهرة

كاملة مع مدحت وليكن ما يكون ، كان فستان السهرة الذى أرتديه يعجبنى ،

وأريد أن أرقص به فى الأوبرا أو الأريزونا ووجدت نفسى حائرة ، بين سهرة

كثيفة فى بيتنا ولكنها سترضى الأستاذ حلمى ، وبين سهرة مرحة أتمتع فيها

بفستان السهرة ..

لم يكن مدحت يهمنى كثيراً ، فأنا لا أحبه ، وإن كنت لا أمانع فى الزواج

منه ، فهو غنى وعنده عربة ، إنها ليست عربة أمريكية كبيرة ، ولكنها عربة

على أية حال ، وهى تثبت أنه غنى ، وأنا واثقة من هذا أيضاً ، فهو يسكن فى

فيلا بجوارنا فى شارع الحيزة ، وأبوه راتب بك الذى تقول عنه أمى إنه يملك

عربة كبيرة فى الشرقية ، ومدحت متخرج فى كلية الهندسة ، وأنا يعجبنى

المهندسين ، وأفصلهم على الدكتوراة .. لماذا .. لمست لندري .. على أية حال ،
لماذا اتعب نفسي بالتفكير في كل هذا ، كائنيتزوج مدحت غدا ، من قال إنني
أريد الزواج منه ، أو من غيره ، إنني أريد أن أكون معتلة كبيرة ، وعندى
المواهب والجمال لأكون ممثلة كبيرة ، والأستاذ حلمى أكد لي هذا ، والعيون
التي كانت تحديق منذ لحظات أكدت لي هذا .. أنا سيقول ما أريد ..
وسأترك كل شيء للظروف .. ربما عدت إلى البيت وربما ذهبت إلى الأوبرج ..
لأن اتخذ قراراً الآن ..

قلت لمدحت وعريقته تخرج من طريق الاستديو إلى شارع الهرم .
- ح فروح دلوقت فين ..

فقال وهو ينظر إلى نظرة سريعة قلقة ..

- والله فيه حكاية بايعة لازم أعملها ..

قلت له في حدة كائن سمعت الحكاية :

- حكاية إيه باه ..

فقال لي ضيق :

- فيه واحد صاحبي .. أبوه مات من أسبوعين .. ولانم أسأل عليه ..
وأخرج معاه ..

فهتقت وأنا استعد للثورة عليه

- وأنت مالك .. ح تقعد تعيط جنبه . والاح تعمل له دابة .
قال مدحت معتذراً .

- أهو مشوفه شويه .. وبعدين فزوغ ..
واتخذت قرارى .

قلت له بلهجة حاسمة :

- روحنى ..

فقال متوسلاً :

- وتسببيني لوحدى في المصيبة دى ..

قلت في عناد :

- مالبش دعوة ..

فتوقف العربة .. وجعل يستعطفنى ، وشعرت بحبه لى ، وأنى لو فارقته
سيقتالم ، وكان يضايقتنى أن الوقت مازال مبكراً ، وأما لا أريد أن أعود إلى
البيت في الحال ، ماذا أصنع هناك ؟ سأموت من الضجر ، وربما تشاجرت مع
أمى ، كنت حائرة ، لا أريد أن أعدل عن قرارى بالعودة إلى البيت لا تهمنى
توسلات مدحت ، ولكنى أريد أن أعطف عليه ، إننى لا أحبه ولكنى لا أريد أن
أفقد حبه ..

ولمحت عند شجرة قريبة منا ، امرأة ترقد تحتها ، فانتابتنى تشعيرية .

ونسيت كل شيء ، وقلت لمدحت ..

- شوف الصت الفلانة دى .. قال لى لي دهشة .

- مالها ..

قلت له وأنا أكاد أبكى ..

- إديها حاجة ..

فأخرج من جيبه قرشاً .. فصمت فيه ..

- لا .. إديها نص ريال .

فقال مستسلماً وعلامات الحيرة في وجهه :

- حاضر ..

وأخرج من عريته ، وذهب إلى المرأة ، راقبته وأنا أخشى أن تكون المرأة حجة
ميتة ، وتنهدت في راحة ، وهى تتحرك وتمد يدها ، وتأخذ النقود من مدحت ،
فلما عاد إلئى ، كنت قد قررت أن أوافقه على رؤية صاحبه .

وسألت :

- صاحبك ده اسمه إيه ..

فقال :

- يوسف - يوسف عبد الحميد ..

ثم صاح وكأنه تذكر شيئاً غاب عنه :

- على فكرة ده صحفى .. نخليه يكتب عنك ..

فتظاهرت بأننى غير مكترثة بما يقوله ، ولكنى فى قرارة نفسى شعرت بقروح غريب ، خيل إلى أن الدنيا كلها تفتتح أمامى ..

وانطلقت أحلامى ، تملأ الطريق الواسع أمامى ، حتى وصلنا إلى مبنى جريدة الأيام ، إنه مبنى ضخيم كل نوافذه مضامة ، وكأنه يستعد لاستقبال أحلامى . فى يوم ما ، سيقفز الصحفيون من مكاتبهم فى داخل هذا المبنى عندما يعلمون بوصول ، سيتهافتون على ، ليلتقطوا صورتى ، وليأخذوا الأحاديث منى . ما رأيك فى عبد الوهاب .. ما هى أغنية لم كلثوم المفضلة لديك . من هو الممثل الذى تحبين الظهور أمامه .. لماذا لا تتزوجين ..

وقلت لمدحت وهو يضغط على الكلاكسى :

- احنا موش ح نطلع .

قال لى فى دهشة .

- عايزه تطلعى ..

قلت له وقد ضايقتنى دهشته :

لا ..

فنظر إلى فستانى وقال :

- لو شافوكى فوق فى الجرنال موش طالع بكرة ..

وغارت له دهشته ، ولكنى كنت أشعر بقلق ، وقد انتصبت فى جلستى ، كان كل الصحفيين يطلون على من النوافذ ، يراقبوننى ويتساطون من أكون ..

وجاء البواب مهرولاً نحو مدحت وقال وهو ينظر إلى ، وعلى شفطيه ابتسامة كبيرة ..

- حاضر يا مساعدة البيه .. موش برضه أنهه للاستاذ يوسف ..

قال له مدحت .

- أيوه .. بس قول له أنا مستعجل ..

ووقفت أمامنا سيارة سوداء كبيرة ، هبط منها السائق مصرعاً ، وفتح بابها الخلفى ، ليهبط منه رجل طويل فى قمه سيجارة ، له وجه وسيم ، حلو

التقاطيع ، كوجه روبرت تايلور ، ولكنه وجه حزين ..

صعد الرجل السلم مصرعاً ، ورأسه محنى .. وصحت فى مدحت

محمد ناجى .. موش ده محمد ناجى ..

قال لى وهو يتبسم .

- أيوه .. هو ..

وامتلأت بمنشورة كبيرة ، سأعود إلى أمى وأقول لها إنى رأيت محمد ماجى ، إنها تقرأ له كل حرف يكتبه ، تقرأ مقالاته السياسية ، وقصصه ، وبومياته ، وأنا أيضاً أقرأ له ، وأحبه ، إنه صديق جميع المثلات والمطربات الشهيرات ، كلهن يترددن على حفلاته التى يقيمها فى بيته ويحضرها الوزراء والباشوات ، ويكتب عنها ، وعن النوادر التى تحدث فيها .. كم عشت مع محمد ناجى فى حفلاته من خلال السطور التى أقرأها له ، وكنت أسرح بخيالى والجريدة ملقاة على حجرى ، وأتخيل نفسى فى بيته ، فى إحدى هذه الحفلات ، والوزراء والباشوات حولى ، يقبلون يدى ، كما يفعلون مع أم كلثوم ، والجميع مبهورون بجمالى ، ثم أتخيل أنى أقرأ فى صباح اليوم التالى المقال الذى كتبه محمد ناجى عن الحفلة ، وهو يكتب إنى أعظم ممثلة فى العالم ، وأن الجميع وقعوا تحت سحرى ، سيطرت على الحفلة بجمالى وخفة دمى وأنا لستى ، حتى الوزراء كانوا يدهشون من إجاباتى وسرعة بديهتى ، ويضحكون من النكت التى أطلقها عليهم ..

ستفرح أمى عندما أقول لها إنى رأيته .. إنها تقول عنه إنه لا عب بوكر مدهش ، يخسر المئات دون أن يهتز له رمش ، إنها تعرفه ، فقد لعبت معه مرة ليام الحرب عند إحدى صديقاتها ، ومن يومها وهى تذكره على لسانها فى كل مناسبة .. إذ ضايقتها شىء قالت على الفور :

- والله لا كلم محمد ناجى فى التليفون وأقول له يكتب عن السكر الى موش

لاقيينه فى السوق ..

- يكتب عن التليفونات التى بايطة ..

- يكتب عن الراجل الحرامى الذى باع لى الحزمة دى .

في إحدى المرات تشاجرت معي ، فقالت :
 - والله لأكلمه في التليفون وأقول له يكتب عن البنات التي ملشين على حل
 شعرهم .
 فقلت لها ساخرة .
 - ما هو آخر بيحصل اللي على كيفه .. موش بيحب دلال ..
 وكان محمد ناجي أيامها ، غارقاً في حب الطرية دلال التي ماتت ..
 ولكن أمي لم تتصل به أبداً ، لم تحدثه في التليفون ، ولم ترسل له خطاباً ..
 إنها تعلم أنه قد نسيها ، إذ ما الذي يحمله يتذكر سيدة من بين مئات
 السيدات اللاتي قابلهن ، في سهرة من بين مئات السهرات التي يقيمها أو
 يتردد عليها كل ليلة ..
 نعم .. ستفرح أمي ، عندما أروي لها أمي رأيته ، وإنه وسيم وحلو مثل
 روبرت تايلور .. ولكن لا بد أن أقول لها أيضاً إنه حزين .
 ولا تعجبني مشيئة وهو محنى الرأس .
 دأرت رأسي بهذه الخواطر فأحسست بلهفة إلى لقاء يوسف .. وبدأت
 أتململ لغيبابه ، إنه سيفتح لي طريقاً عريضاً .. لعل القدر يوفقني به لأصل
 عن طريقه إلى محمد ناجي .. إن ليلى هذه هي ليلة القدر ، كل شيء يبدو سهلاً
 مريحاً . الأضواء تفرعنني .. العدسات تصورني .. الاسم الجديد .. مدحت
 يحبنى .. يوسف سيكتب هنى .. وسيقدمني إلى محمد ناجي .. الفستان
 الذي ارتديه .. العربة التي أجلس فيها .. لم أكن أفكر لحظتها في أنها عربة
 مدحت ، إنه مجرد سائق يأتي بأمري .. ويقود عربتي .
 كنت سعيدة .. أكثر من سعيدة ..
 ورأيت يوسف يهبط السلم نهرنا ..
 عرفته ، قبل أن يهبط مدحت قائلاً .
 - أهه ، أعمل معروف استمعليه لحد ما توزعه ..
 وضحك في سري ..
 إنه لا يعلم إلى أي مدى ذهبت في أفكارى ..

قلت بسرعة قبل أن يصل إلينا يوسف .
 - هوه ما عنديش عربية ..
 قال :
 - لا ..
 فهمت
 - يعني غلبان .. على قد حاله ..
 وأطبقت شفتي ، فقد كان يوسف قد وصل إلينا ، وانحنى ليحدث مدحت
 من النافذة ، دون أن ينظر إلي ، حتى ظننت أنه لم يرنى .
 وجهه أبيض البشرة ، مستطيل الشفاة رقيقتان ، وعينه شاردتان وفي
 صوته رعشة خجل ..
 فقال له مدحت
 - اركب ..
 فسأل وهو يتراجع إلى الوراء
 - ح تروحوا هين ..
 سأل مدحت بصيغة الجمع فعلمت أنه رآني .. وغافلني أنه لم يوجه إلى
 التحية .
 وقال مدحت
 - بس اركب .. ح تروح أي حته ..
 وفتح يوسف الباب الخلفي للعربة ، والخيظ يتزايد في داخلي .. لأنه لم
 ينبس بكلمة واحدة .. وأدار مدحت المحرك .. وسارت العربة بضعة أمتار ،
 قبل أن يقول فجأة موجها الحديث إلى يوسف
 - أنت ما بتسلمش على مدموزيل بهيه ليه ؟ ..
 فصاح يوسف في ارتباك
 - أنا متأسف أصلك معرفتنيش بيها
 والتفت إلي .. التفت إلى ظهري ، فقد رفضت أن أدير رأسي له ، وسعته
 يقول وهو يضطك في عصبية :

- أنا متأسف .. مدحت اللى غلطان ..

فهتف مدحت مقاطعاً

- غلطان ليه .. هو احنا خواجات لازم أعرفكم ببعض قبل ما تسلموا .

قلت لمدحت متجاهلة يوسف :

- يمكن موش عايز يسلم عز .. ليه تفصّب عليه ..

وتلعثم يوسف - واختلطت الكلمات في فمه ، حتى شعرت بأنه حقيقة غليبان
ومسكين ..

وعدت أفكر في الخطة التي كنت أعدها ، وأتساءل هل يصلح هذا
الشخص ، لأن يقدمنى لمحمد ناجى .. إنه يبدو أضعف من أن يستطيع أن
يفعل شيئاً ..

وسألنى مدحت :

- تحبى نروح فين ..

قلت له :

- أهوه .. نمشى بالعربية شويه ..

ثم استدرت فجأة إلى يوسف .. كان يجلس على طرف المقعد ، فانتفض
متراجعا بظهره ، كانى يافته ، وسأله :

- الأستاذ يحب يروح فين ..

قال وهو يخفض بصره :

- اى حته .. زى ما أنتم عايزين ..

وأيقنت ألا فائدة منه .. إنه ثقيل الطل ، غير محتمل ، لا يعرف كيف
يتحدث ، وليس له شخصية هي الإطلاق ..

كيف يعمل هذا المخلوق في الصحافة .

قلت لمدحت :

- ياللا ببيا نروح شارع الهرم

فصاح .

- تانى ..

قلت له في سخرية فهمها

- أمه فسحة والسلام .. وبعدين نروح ..

فوافقنى ، وقد أدرك أنى أريد الخلاص من يوسف بسرعة .

وحاولت أثناء الطريق أن أستخرج يوسف ليحدثنى عن محمد ناجى ،

قلت له في يروء :

- الأستاذ بيكتب في الجرنال ..

قال بصوت خفيض :

- لهو ... بأحاول ..

وسكت ..

قلت وأنا اتعمد السخرية به :

- موش فاكدة أنى قرريت لك حاجة ..

قال في لهجة معذرة :

- الواحد لسه بيخبط .. ساعة أكتب عن جريمة .. ساعة أكتب اخبار

فن ..

فصاح مدحت :

- أنا عايزك تكتب عن بهية .. تعرف أنها ممثلة ..

قلوبت بصعوبة رغبتى لى أن أستدير ليوسف ، وأرى وقع الخبر عليه ،

وكنت أجن عندما سمعته يقول :

- كده ..

ثم عاد إلى صمته ..

أنه سخيّف ، وقليل الأدب .. أمذا هو كل ما يستطيع أن يقوله بعد أن

عرف أنى ممثلة ، وقررت أن أنتظر حتى تقترب من استديو مصر ، فأطلب من

مدحت أن نقف عنده ، فإذا وجدت الأستاذ حلمى مازال هناك فسأتركهما ،

وأبقى مع حلمى حتى يعود بى إلى البيت ..

استرحت لهذا القرار ، إذ سأتركهما بحركة مفاجئة ، وسيعلم يوسف

أنى ممثلة مهمة .. أدخل الاستديو وأتركه لأن عندى عملاً هاماً مع المخرج ..

وقلت فجأة .

- أنا بأحب أقرأ للأستاذ محمد ناجي .. بأمرت فيه .

فقال يوسف بسرعة .

- وأنا كمان .. ده استاذي .. وأعجبتني إجابته ، كان فيها تواضع لم

أتوقعه منه .. وعلى الرغم من تورطت معه في حديث عن محمد ناجي سابقته عن محمد ناجي ، فأجاب في كلمات مقتضبة ، إن محمد ناجي يحبه ، وأنه يدعو إلى بيته وحفلاته وأنه أعظم شخصية في عالم الصحافة ..

ومررنا باستديو مصر ، دون أن أنبهه واندفعت العربية صاعدة بنا إلى الهرم ..

ووقفنا عند الهرم الأكبر .. ففتح يوسف الباب وعبط من العربية صاح فيه مدحت .

- رايح قين .. إحنا راجعين .

فقال يوسف وهو يمشي مبتعدا :

- عايز أمشي لوحدي شويه .. ومضى في طريقه بين الصخور .. قلت لمدحت وأنا أتنهد :

- يا بابي .. صاحبك ده فطيع .

فقال وهو يبتسم :

- أبدا .. عيبه إنه بينكسف .

فصحت :

- ولا بيتكلمش ..

فقاطعني مدحت :

- الراجل قاعد يتكلم طول السكة على محمد ناجي ..

فقلت له :

- بيتكلم زي ما يكون فصب عنه ..

ونظرت في الاتجاه الذي يسير فيه يوسف .. وسألت مدحت :

- هو رايح قين ..

فقال يذكركي :

- موش قلت لك أبوه مات ..

وعدت أسأله :

- وأبوه يبقى مين ..

قال مدحت

- يبقى المدرس بتاعى ..

فضحكت ساهرة وقلت :

- اللي بشوفه ماشي لوحده في الضلعة ، يفكر إن أبوه كان وزيرا .. والا

باشا ..

فهمس مدحت وفي عينيه بريق :

- تعري إن يوسف ده في حياته مأساة ..

واختلس مدحت نظرة سريعة إلى الظلام ، ليتأكد من أن يوسف بعيد عنا ..

وزاد البريق في عينيه .. كأنه فرح بالقصة المسلية التي سرويها لي .. وقال

وابتسامة باعثة على شفطيه :

- تصوري إن أبوه .. اتجوز الخدمة اللي كانت بتشتغل في بيتنا .

كانت القصة مسلية أكثر مما أتوقع .. فصحت في جدل :

- موش معقول ..

فقال مدحت بصوت منفعل

- والله العظيم .. خدمة اسمها مبروكة ..

وأطلقت ضحكة عالية .. وقلت :

- تلاقيك كان بينك وبين الخدمة دي حاجات ..

فتلفت مدحت حوله في دعر كأنه يحشى أن تصل ضحكاتي إلى يوسف تحمل

معه حديثنا عنه .. ثم قال هامسا وعلى شفطيه ابتسامة خفية :

- المصيبة .. إن يوسف كان يعرف اللي بيبي وبين مبروكة

صحت في دعر :

- كان يعرف إزاي .. مين قال له ..

فقال مدحت في ارتباك .. كانه يدافع عن تهمة :

- انا .. ما كنتش أعرف أن أبوه ح يتجوزها ..

فسألته في لهفة

- ويوسف عمل إيه .

قال وقد ظهرت على وجهه الابتسامة الخبيثة ..

- كانت فضيحة .. وساب البيت لأبوه .. لحد ما مات ..

وشعرت بالكم مفاجيء في صدري .. وقلت هلمسة ..

- مسكين ..

فقال مدحت في وجوم ، وقد لاحظ تغير وجهي :

- صحيح مسكين .. هو متصور أن أبوه مات بسببه ..

قلت وأنا أكنم صرخة تمرقنى ..

- فأكر أنه قتل أبوه ..

فسألنى مدحت في قلق ..

- مالك ..

فحاولت راسي بعيدا عنه ..

وحذقت في الظلام .. وقلت وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة ..

- انا موش عايزه أسمع الحكاية دي ..

فقال معتذرا وهو يضطك في عصبية ..

- إيه اللي حصل ..

قلت في حدة :

- ولا حاجة ..

ثم صرخت ..

- موش عايزه أسمع .. موش عايزه أسمع ..

احتار مدحت ، ولم يفهم ما حدث لي .. ولكن ماذا أقول له ..

لقد تذكرت فجأة أبي الذي مات منذ عامين .. وإني أدفن نكري موته في

أصاقي .. وأبذل جهدا مستميتا لنسيانه .. ونجحت في ذلك .. حتى اني لم

أذكر أبي ، عندما أخبرني مدحت بموت أبو يوسف ..

عندما أخبرني ، ثرت عليه ، ورفضت مقابلة يوسف .. إني أعلم الآن

السبب الحقيقي لثورتى ، كنت لا أريد أن أقابله حتى لا أذكر موت أبي ..

نعم هذا هو السبب الحقيقي .. خشيت بلا وعى ، أن يذكرني موت أبيه ،

بموت أبي ..

وامتدت يدي إلى باب العربة ، أريد فتحه لأخرج هاربة إلى الظلام ، ولكني

رأيت يوسف قداما فحونا ، وشعرت أنه يقترب منا ماشيا على قلبي ..

وداخلني شعور غريب في تلك اللحظة ، بأن هناك يدا خفية أقوى منا ، تحرك

يوسف نحوي ، وتريد أن تربطني به .. نحن الاثنان لنا ذكرى واحدة ..

هو قتل أباه ..

وأنا قتلت أبي ..

وهل يوسف إلى العربية وأنا في قمة الألم ، ولم أكن أستطيع أن أعمل أكثر من هذا ، فيما أن أعقد وعيى ، وإما أن أنخلص فجأة من كل شيء .. وهذا هو ما فعلته .

في اللحظة واحدة ، تخلصت من كل شيء ، ونسيت أبى . تحولت إلى إنسانة مريحة ليس في قلبها هموم ..

لقد تعودت على هذا ، فحياتى كلها تقلبات مفاجئة في عواطفى وأفكارى .. انتشاجر أحياناً مع أمى ، وتبادل الكلمات القاسية والنظرات الحادة ، حتى يظن من يرانا أننا سنقتتل ، وفجأة أبترسم لها ، وتبتسم لى ، وتبادل الكلمات الرقيقة ونظرات الحنان ..

أنا مضطربة دائماً إلى أن أنسى ما أفكر فيه ، وأن أنسى ما أحس به ، وأن أنسى ما أراه ... وبغير هذا النسيان لا أستطيع أن أطيق حياتى .

صمت في يوسف وكأنه صديق قديم لى :

— أنت رحت فين .. موش خايف من العقاريت ؟

فقال وهو يدخل العربية ، وعلى شعنتيه ابتسامة خجولة

— يعنى العقاريت ح تعمل إيه

وكنت قد استدرت له ، وأعطيته وجهى ، كأنى أقول له انظر كم أنا جميلة ، والتفت عيناه بعينى ، فحول بصره عني بسرعة ، وقلت لنفسى إنه لا يحاف



العمارة ولكنه خائف من جمالي ، وأعجبتني هذا الخلط ، وقساعات ، هل له
علاقة بامرأة ، هل هناك فتاة بحبها ، وخيل لي أنه مازال بكرا لا يعرف
النساء

وانتائنتي رغبة و معاكسته ، إنني لم أعرف هذا النوع من الشبان من
قبل ، النوع الخجول الذي يخاف من أن تلتقي عيناه بعيني .
وكان مدحت قد أدار محرك العربة ، وبدانا نهبط إلى شارع الهرم ..
فهتفت

— هل فكرة يا ولاد أنا عايزاكم تختاروا لي اسم .
وابتسمت ليوسف الذي كان ينظر لي في دهشة .
وصاح مدحت :

— نختار لك اسم .. ليه .

قلت ساخرة ، وعيناي تلتقيان بعيني يوسف

— اسم هلشان بنت حلوة زى القمر .

فسأل مدحت في حيرة :

— ليه واحدة صاحبك ولدت بنت .

فأجبتته وأنا أرقب تأثير كلامي على وجه يوسف :

— لا .. دي بنتي أنا

— موش معقول .

أما يوسف فكانت عيناه تترسلان لي أن أفسر كلامي الغامض .

ولدت بوجهي ناحية يوسف ، وسألته .

— هو فيه حاجة لما أجيب بنت .

فهمس في أرتباك

— لا

وصاح مدحت منفعلاً :

— لا .. إزاي ، أنت منقش متجرزة ..

فضحكت

— وماله ...

وبدا على وجه يوسف أنه يتألم لحالي ، كان يطر إلى في رثاء واشفاق
وخوف . بينما صرخ مدحت :

— أنت مجنونة . أنا موش مصدقك ..

فهزئت كتفي قائلة :

— موش مصدقني . موش مصدقني

وعدت أسأل يوسف :

— إيه رأيك .. اسميها إيه

فسألني في سذاجة

— أنت جيتيها خلاص

فهتف مدحت

— يا جدع أنت بتصدق كلامها ..

قلت متجاهلة مدحت :

— لا أنا لسه ح أجيبها بعد سبعة أشهر .

فأطلق مدحت ضحكة عصبية عالية ، بينما سألتني يوسف في وجوم :

— يمكن ما تكونش بنت ..

— أنا متأكدة أنها بنت . إيه رأيك اسميها مني منير ..

فصاح مدحت :

— يعني أبوها اسمه منير .. وده يبقى مين باه .

قلت ضاحكة

— والا اسميها مديحة مدحت .

فصرخ في ذعر

— مدحت ليه أنا موش أبوها .

قلت وأنا أضحك في نشوة

— والا اسميها يوسفية يوسف ..

فهتف مدحت في ارتياح :

— أنت بتهزري .. والله أنا كنت ح أصدقك ..

قلت له بصوت جاد

— والله صحيح أنا بأدور على اسم

وهجأة أشرق وجه يوسف ، ولتعت عيناه بفرح كبير ، وصاح

— أه أنا فهمت . أنت عابرة اسم علشانك أنت في السينما ..
فهتفت باسمه

— مرافو عليك ..

والتفت إلى مدحت أقول له مؤنية

— الأستاذ يوسف طلع أدكى منك .

وقال يوسف :

— أما نفسي صدقت .

— تفكر أنا أعمل حاجة زي كده ..

فارتبك .. وقال معتذراً

— موش قصدي ..

— أنا ما عنديش غير أمل واحد في حياتي .. هو أنى أبقي ممثلة . كل
المخرجين اللي شافوني قالوا إننى عندي موهبة للتمثيل . علشان أنا
ما بلكوش في الحب والجواز والكلام الفارغ ده ..

وكنا قد وصلنا إلى طريق استوديو مصر ، فطلبت من مدحت أن ينعطف في
الطريق ، فحاول أن يعترض ، ولكنى صممت ، وقلت له إن الأستاذ حلمي
كامل ينتظرني ليختار لي اسم السينمائي الجديد ، وادعيت أن الأستاذ
حلمي يجب أن يختار الاسم الليلة ، حتى لا يتأخر ظهوره في الإعلانات
بالشوارع والصحف

وسألني يوسف في أرتياب ، وكانت العربة تسير في بطء شديد في طريق
استوديو مصر

— الكلام ده صحيح .. والا بتضحكي النوبة دي كمان .

— صحيح ..

— تعرفي أنا ما صدقتش لما مدحت قال إنك ممثلة

— ليه

فأصاب في حيرة

— ما أعرفش ..

وضحك في عصبية ثم قال .

— عش باين عليكى ..

ولم أفهم ماذا يريد أن يقول بالصيغ ، أهو يهيننى ، أهو يحترمنى .. ما
الذى يعنيه بالضبط .

وسألته في تحد وأنا على استعداد لأن أثور واشتمة

— قصديك إيه يا أستاذ ..

— موش قصدي ..

والتقط أنفاسه ثم قال بعد تفكير

— قصدي إننى ما كنتش فاكتر إنك ممثلة مهمة للدرجة دي ..

ما كنتش عارف إنك نجمة جديدة ..

أدركت أنه أحسن بشيء مما أفكر فيه ، وهو يتراجع ، لأن ، وپرشونى
بكلمات خائفة لا يصدقها ..

قلت في برود

— أهو أنت عرفت ..

— انت زعلتى منى ..

قلت وأنا أهزكتفى :

— ح ازعل ليه ..

ووصلنا إلى الاستوديو ، فناديت البواب وسألته عن الأستاذ حلمي كامل
فقال إنه مازال مالدخل ، وأوصلنى مدحت بعربة إلى باب البلاطوه ، والتفت
إلى يوسف أودعه ولكنه فاجأنى قائلاً

— أما جاي معاكى ..

سألته في دهشة :

— ليه ..

فقال وهو يبتسم :

— اشتغل أنا كمان .. موش يمكن أكتب عنك

وانتظر مدحت في العربة ، ودخلت مع يوسف البلاطوه ، وكان الأستاذ

حلمى يستعد لتصوير مشهد بين بطل الفيلم أنور سامى والبطله هدى مراد ،
ورأى الأستاذ حلمى فانتسمت له ، ولكنه لم يرد على ابتسامتى .. كان
يتحدث مع أنور سامى ويلوح بيديه .. شعرت بالخجل ، وتمنيت فى قرارة
نفسى الا يكون يوسف قد لاحظ ابتسامتى التى تجاملها الأستاذ حلمى ،
لو كان قد لاحظها فسيعرف انى لست ممثلة مهمة كما تظاهرت أمامه .
والتفت إلى يوسف فرأيت أنه يتقدم فى هدوء إلى الأستاذ حلمى ، وفوجئت
بالحرارة التى استقبله بها الجميع .. هجم أنور سامى على يوسف يقبله فى
وجنتيه ، وصاحبه الأستاذ حلمى وهو يصيح .

— أنت فىن يا أستاذ .. أنا باصور بقى لى أسبوع ولا شفتكش ..

وابتسمت هدى مراد ليوسف ، الذى تقدم منها وصافحها ، ووقف يتحدث
معا وعلى شفثيه ابتسامة عريضة ..

كنت أرقبه من بعيد فى حسرة ، وقد خيل لى أنه تحول إلى شخص آخر . لم
أتوقع أبداً أنهم سيقابلونه بكل هذا الحماس والاهتمام . وادعشنى أن
يوسف لم يذكر لى أنه يعرف الأستاذ حلمى لى يعرف أحداً من الممثلين ..
وقلت لنفسى ، إنه ليس ساذجاً كما أظن ، إنه خبيث مكر . وتذكرت ما قاله
لى منذ لحظات ، أنه لم يصدق لى ممثلة .

ما الذى كان يتصوره إذن ، ربما ظن انى واحدة من بنات الشارع .. ربما
ظن مدحت التقطنى من الطريق ليقضى معى ليلة . لا بد أنه تصور هذا .
وشعرت بالغيظ ، وبرغبة فى أن أصرخ بأعلى صوتهى ، أنكم جميعاً
مغللون ، لأنكم لا تعلمون انى ممثلة كبيرة وعندى الموهبة وعندى الجمال .
أنا أجمل ألف مرة من هدى مراد ، لماذا تهتمون بها وتلتفون حولها ،
ولا تهتمون بى وتلتفون حولى ..

ويوسف ، هذا الأحمق ، ما الذى يجعله يقف مع هدى مراد ، ويضحك
معا كالعبيط ، لماذا لم يضحك معى أنا ، لأنها ممثلة كبيرة ومعروفة ، وأنا
مازلت مجهولة . فلينتظر الأيام ليرى كيف سأقف يوماً مكانها ، وساعتها لن
أرضى وأتأزل بأر يقف معى . لن أرضى بأقل من محمد ناجى يأتى لى
ليدعوى لى حفلاته التى يقامها فى بيته ، ويترسل لى ليصحبنى بعزيتة وأنا

أنتقل عليه ويوماً قليل دعوته ، ويوماً أرفضها

وصاح أنور سامى يطلب القهوة ليوسف ، وقدم له الأستاذ حلمى سيجارة
مع أن التبخين ممنوع داخل البلاطوه ..

إنهم يعاملونه كما لو كان صحفياً كبيراً ، كما لو كان محمد ناجى ، ما السر
فى هذا ، لا بد أنه يكتب عنهم ويشر صورهم .. عندما أعود إلى البيت ،
سأبحث عن كل الأعداد القديمة من جريدة الأيام وأقرأ أخبارها الغنية ،
لأرى ما الذى يكتبه يوسف ، ولأعرف سر كل هذا الاهتمام به ..

وفجأة التفت يوسف ناحيتى .. وصاح منادياً
— بهية .. ما تيجى ..

وارتبكت ، إنه جرىء إذ ينادىنى هكذا ، وهو واقف مع أنور سامى
وهدى .. البطل والبطله .. وأنا مجرد فتاة كومبارس .. نعم هذه الحقيقة ، أنا
مجرد كومبارس ، ولكن سرعان ما ذهب عنى الاضطراب ، وشعرت بالزهو ،
وتقدمت إليه .

وهتف الأستاذ حلمى مخاطباً يوسف :
— اه .. أنت تعرف بهية ..

فأجاب يوسف باسمأ

— امال .. كنت لسه بدور لها على اسمها الجديد ..
فقال حلمى فى عجب :

— صحيح ما فىش حاجة بتستخفى عليكم .. عرفت كمان اسمها ..
ونظر لى أنور سامى فى فضول ، وسأل الأستاذ حلمى بينما عيناه تمرجان
فى جسدى

— إيه ... المدموازيل ممثلة جديدة ..

فالتفت الأستاذ حلمى لى .. وأمسك بذقنى .. ورمع وجهى وقال .
— إيه رايك يا أنور .. موش حلوه ؟

فقال أنور وهو يقبل أطراف أصابعه ثم يرسل القملة إلى وجهى فى الهواء :
— جئنا .. لاقيتها فىن يا حلمى .
فصاح الأستاذ حلمى ضاحكاً :

— لا . ابعد عنها . دى موش قدك ..

صعد الدم إلى رأسى . ورفعت عينى إلى أنور . فرايت عينيه تلتمعان ببريق عريب .. إنه حلورسيم . شعره الأسود الناعم يعجبني وأنا أحب تمثيله . دمه حفيف . سرت كلماته في جصدى تحمل دفقاً لنيزداً .. إنه يقارلنى . إنه يفكر في أن تكون بيننا علاقة . وربما أحبنى . وربما تزوجنى وجعلنى أمثل أمامه . هذه هى فرصتى . عندما اعود إلى البيت سأشتتير أمى وأسألها ماذا أفعل . إنها تعلم في هذه الأشياء أكثر منى . أما الآن فيجب أن أتماسك حتى لا يبدد منى تصرف أندم عليه .

وسألنى أمور :

— أنت اسمك إيه يا حبيبى .

قلت بصوت خفيض

— بهية عبد الرحمن ..

وارتفع صوت هدى مراد . وكانت حتى هذه اللحظة تراقبني صامتة بعينين جامدتين ووجه خال من أى تعبير .

— بهية .. اسم حلو ..

فصاح الأستاذ حلمى :

— بهية عبد الرحمن .. إزاي الاسم ده ينفع في السينما . مافيهش مرسيقى ..

وقلت لنفسى إن هدى مراد تريد أن احتفظ باسمى لأنها تفار منى . ولا تريد لي اسما موسيقياً لامعاً .

وهتف أنور محتجاً على هدى مراد

— لا يا هدى .. إيه بهية عبد الرحمن .. أعوذ بالله ..

والتفت إلى ضاحكاً وقال

— ما تزعطيش ... أنا بأحبك ..

فقال الأستاذ حلمى :

— أنا عايز اسم من كلمتين متشابهتين .. زى منى منير .. سميرة سمير .. حاجة زى كده ..

فصاح أنور .

— اسمعوا يا جماعة .. أنا عندي فكرة . سمعوها على اسمى

وأمسك أنور بذراع يوسف . وسأله في حماس .

— إيه رأيك يا أستاذ . نسميها سامية سامى

قال يوسف

— كويس الاسم ده ..

فسأله الأستاذ حلمى متردداً

— بضمنك كويس ..

فأجاب يوسف ضاحكاً

— أنا بأفكر في الخبر اللي ح اكتبه . إن أنور سامى تبني معنلة جديدة وسماها سامية سامى .

فاعترضت هدى مراد قائلة وهى تمط شفتيها :

— الاسم موش عاجيبى ..

وايقنت أن الاسم جميل . إنها لن تعترض عليه إذا كان قبيحاً . فهى تفار من

صباى وجمالى ..

وصاح أنور في حماس

— لا .. الاسم كويس

والتفت إلى يوسف قائلاً

— اكتب الخبر يا أستاذ بكرة في الحرنال ..

ثم التفت إلى قائلاً

— أنت ابواب السما اتفتحت لك .. مجد يا بنتى .. مجد بنا يقولوا إنك

اتسميتى على اسمى ..

وحك الأستاذ حلمى ذقنه وقال

— والله فكرة ..

ثم صاح

— بلاش تضيع وقت . كل شىء جاهر

همس يوسف في أذنى إنه سيسحب . فبتسمعت له في امتثال . وأمسكت

بيده وصعقت عليها .. يجب أن أعامله كما تعامله هدى ، إنه صدقي مهم ،
وسيكذب عني ، وظلمت معه وأنا أبتسم في اغراء ، لن ينتظر مني ولكنه اعتذر
لأن مدحت وحده في الخارج فسألت :

— صحيح ح تكذب عني بكرة ؟

فضحك هامساً

— بكره ما الحفش .. إنما في اليومين الجايين إن شاء الله .

وابتعد عني فكرت في أن أستوقفه لأسأله متى سقاه ثانية . ثم عدلت
عن سؤالي ، وقد صابقتني أنه لم يطلب أن يراني ، وقلت لنفسى إني أستطيع
أن أدير لقائى به عندما أشاء عن طريق مدحت ..

انتظرت الأستاذ حلمى حتى فرغ من تصوير المشهد ، وكانت الساعة قد
جاوزت العاشرة والنصف ، فأخذنى معه في عربته إلى البيت

سألتنى ونحن في الطريق ، عن صلة يوسف بى ، فكذبت عليه ، وقلت له إنه
رأى وأنا أدخل الاستوديو ، فتقدم منى وعرفنى بنفسه ، وقال إنه صدقى
بجريدة الأيام ويريد أن ينشر صورتي ..

صدقنى الأستاذ حلمى ، وقال إن من حسن حظى أن يوسف أعجب بى ،
وأنه لو نشر اسمى عدة مرات في جريدة الأيام ، فسأصبح معروفة في غمصة
عين ، سأشتهر قبل أن أظهر على الشاشة ، وسأكون حديث الناس قبل أن
يرونى ..

وضحك قائلاً

— أنا لازم أعمل معاكى عقد قبل ما تشتهرى ..

قلت له وأنا سارحة في خيال عريض

— ح قدنى كام ..

فصاح

— أنت ح تعمل زى أمك .. اسمعى نصيحتى .. بلاش تتكلمى في الفلوس
لحد ما تطهرى في قيلمين ثلاثة ..

هسكت ، إذ لم أعرف بماذا أجيبه .. وفكرت في يوسف ، لو كان صديقى
لاستطعت أن أحصل منه على نصيحة في هذه المشاكل .

- ٢٣٤ -

وسألت الأستاذ حلمى :

— هو محمد ناجى يبقى رئيس يوسف ..

فأجاب

— طبعاً .. هو رئيس التحرير وبول كلهم صبيان ..

— طيب .. وإيه يعنى أهمية واحد زى يوسف .. أنا عمري ما قربت به
حاجة .

فضحك قائلاً

— ما هم الصغيرين اللي زى يوسف هما اللي بيجيوا الاخبار . محمد ناجى
موش فاضى .. واو كلمناه وقلنا له انشر الخبر ده .. يقول هاتوا فلوس .. ده
إعلان . إنما يوسف بقدر نضحك عليه واحد زى أنور ياخذه بالحضن كل
ما يشوفه ، يقوم دايماً يفتكره في أخباره .
وابتسمت ..

كنت أتساءل بينى وبين نفسى ، هل من الضرورى أن أضم يوسف إلى
حضنى ليكتب عني واشتهر ؟ . وقلت لنفسى ، لو اضطررت إلى هذا ،
فالأفضل أن يكون الذى أضمه هو محمد ناجى . لاصبيه ، فانا لا أريد أن
أكون مجرد ممثلة من بين عشرات الممثلات . أنا أريد أن أكون أشهر وألح
الممثلات ..

كانت أمى كما دتها تلعب السوكر . ولما راتنى أدخل مع الأستاذ حلمى قالت
في حرارة .

— ازيك يا حبيبتي .. عملتى إيه .

ولم أكن في حاجة إلى الإجابة عليها فقد نسيتنى تماماً في الحال ، وانشغلت
بإعطاء الفيش للأستاذ حلمى ..

وسألتنى عمى محمود ، زوج أمى ،

— اتعشيتى يا بهية .

— لا

— طيب أنا ح أعملك ساندوتش جبنة ومرتلدا ، وأحبيهم في أودتك .

وغادرت الحجرة ، وأنا خادمة على عودتى ، لو كنت أعرف أين مدحت الآن

دهنت إليه ، حتى لو تشاجر معي ، فهو أرحم من هذا البيت الذي اختنق فيه

عائلة غريبة ، أمي وزوجها ، وشقيقتي الصغرى إنصاف ، وأنا .. وزبائن البوكر الذين يستقبلهم كل ليلة ، ويرتفع شجارهم عند كل فجر .. لا أضر أن هناك في الدنيا كلها عائلة تشبه هذه العائلة ، ولا أما تشبه أمي ، أنا أحسها ، ولكن كل واحد منا في حاله .

كأننا مجموعة من الغرباء تلتقي في هذا البيت .. إنه ليس بيتا .. إنه هندق

أحياناً أسأل نفسي أية رابطة تجمعنا ، فأحтар ، ولا أدري جواباً .. الذي يدهشني أمي مع حبي لأمي لا أشعر نحوها بأي عطف ، ربما لأنها تزوجت هذا الرجل البسيط الذي أقول له يا عمي . إنه طيب جداً . طيب ومفعل ، يفرح بلا سبب ويثور فجأة لأي سبب . ولكن ثوراتها كلها روية في فئان ، تنتهي بكلمة حادة تصرخ بها أمي في وجهه ، فيسكت

عندما يأتي الليل ، ينتعش بيتنا ويصبح الجميع في أحسن حالاتهم أمي تستقبل زبائنهم .. إنهم ليسوا أصدقاء ، مجرد زبائن حول مائدة البوكر أو الكونكان ، أم عمي فلا يلعب ، يتولى خدمة الزبائن ، يشتري لهم الويسكي والاكل ، ويهبط أحياناً في منتصف الليل ليشتري لهم السجائر . ويقضي السهرة يصب الويسكي في الأكواب ويضع فيها الثلج ويملؤها بالصودا ويقدمها للاعبين . ويدور عليهم بأطباق المزة ، ويشرب ويأكل حتى يسكر ، فتشتته أمي إذا خسرت في اللعب وتعامله برفق إذا ربت

رايت في بيتنا زبائن من كل صنف ، حتى الضباط الانجليز . عازلت أذكر أول ليلة جاءوا فيها إلى بيتنا جاءني أمي وهي خائفة وقالت لي ولاختي إنصاف

— يا بنات .. انزعوا تخرجوا من أودنكم .. فيه اثنين ضباط انجليز قاعدين معاً وربما يستر .

ولعبت أمي البوكر مع الصابطين وزبائنهم الآخرين ، وأسكرهما عمي وحسرا عشرين حبيباً ، وعادرا البيت دون أن يحدث شيء .

تتهنت أمي بعد أن خرجا ، وقالت لعمي إنها لن تستقبل الانجليز مرة ثانية ، فاحتج عليها وقل
— دول كانوا مؤدبين يا نعمات ..

فقلت أمي :

— ولو .. أنا كنت قاعدة خائفة .. وكل ما يحسروا « كوه » أقود دسوت حيقوموا علينا بالمسدسات ، ويأخذوا غلوسهم وغلوسنا

ولكن زبائن أمي الآخرين اقدموها بأن الضباط الانجليز اغبياء ومؤدبون وأنهم « مسبور » لا تضايقهم الخسارة ، وصمموا على ألا تحرمهم أمي من نقود الانجليز . فوافقت مضطرة ، ثم تحمست لاستقبالهم ، فكنت أسمع ضحكاتها تجلجل ، وهي ترحب بهم بالكلمات الانجليزية القليلة التي تعرفها .

تعودت أن أشهد سهرات أمي في بدايتها ، عند خروجي ، وأشهدا في نهايتها عند عودتي إلى البيت ، إذ أصبحت أسهر في الخارج كما أشاء ، ولم تكن أمي تعترض على سهراتي ، فهي دائماً مشغولة غنى ، وكانت تناديني أحياناً عندما تستيقظ الظهر ، فأجري إليها ، وأندس تحت اللحاف بجوارها . وتشعل هي سيجارتها وترشف فنجان القهوة السادة ، وقد بدأ على وجهها الإعياء ، وتحدثني بكلام غير مباشر ولكنه واضح أفهم منه أنها تنصحنى ..

وكانت تقول لي إنها لا تعارض في أن تكون لي علاقة بأحد الشبان بشرط أن يكون غنياً ، واستطيع أن أحله يتزوجني .

وكانت لا تحدثني أبداً عن الحب بل تنظر إلي وكأنها تريد أن تنفذ إلى أعماق قلبي ، لتفتشه خشية أن تستقر فيه جرثومة حب ، ثم تقول لي إن الحب ضعف ومذلة ، وأتى يجب أن أكون أقوى منه ، الحب مصيبة ، حتى ولو أحببت رجلاً غنياً لأن حبي له سيجعلني غير قادرة على الاستعادة من ثروته .

الفصل الثالث

كانت حياتي بالنسبة لها مشروعاً كبيراً أبدأه أولاً بالبحث عن الزوج الغنى المناسب الذى أوطئه ليتزوجنى . فإذا حصلت عليه فلا بأس بعد ذلك أن أحب بعقل .. المهم أولاً أن أضمن المال من مغفل غنى .. وكانت أمى تردد دائماً :

... ده اللى ما معهوش قرش ما يسواش قرش ..

وفرحت أمى يوم قلت لها ، إتنى عرفت مدحت ..

ولم يكن مدحت أول شاب عرفته .

عرفت شباناً كثيرين ، بعضهم أكبر منى الليلاً ، وبعضهم رجال يكبرونى بعشر سنوات أو أكثر .

منذ ثلاث سنوات ، وكنا مازلنا نسكن في غرفة ، أعلنت العصيان على الدروس والمذاكرة ، وتركت المدرسة ، كنت لا أفهم حرفاً واحداً من دروسى ، ولا أعرف الفرق بين الجغرافيا والكيمياء ، والحساب والتاريخ ، وكانت الأصفار تزين شهادتى ، وضايقتنى أن شقيقتى إنصاف كانت تنجح باستمرار ، وأنا أرسب باستمرار ، حتى جمعنا فصل واحد بالسنة الثالثة ، وكان الجميع يقولون إن إنصاف ذكية وشاطرة ، وأمى تقول إنها ستدخل كلية الطب وتصبح دكتورة ، أما أنا فكنت لا أسمع إلا اللوم والثانيب ، وأمى تتهمنى بأنى مدللة وغير فالحة . وكنت لا أهتم بما تقوله أمى ، ولكنى كرهت إنصاف ..

وتعودت أن أزور مع البنات من المدرسة ونذهب إلى السينما ، وإذا لم يكن معنا نقود تحايلت واحدة من صديقاتى على شقيقتها أو أصحابه ، ليقطعوا لنا تذاكر السينما .. وتعلمت الرقص وأحببت ، لأنه يشعرنى بحيويتى وأتوتتى ، وكنت أرقص في حفلات أعياد ميلاد صديقاتى ، وبعد أن تركت

المدرسة كنت أقبل دعوات كثيرة إلى حفلات ورحلات إلى القناطر الخيرية والأهرام وحلوان

وكانت أعز صديقتائي اسمها يولاندا ، ابنة السنيور جراتسيا جارتنا في عمرة ، كانت جميلة ، ولكن ساقها سيمة وأردافها ثقيلة ، وأما وجهها فجميل وبطيء ، وكانت تجمع شعرها فوق رأسها فيبدو عنقها عمودياً ناصعاً ، وكانت أشبه بالولد الحميل ، إذ كانت تنقصها الأنوثة .

وعندما كنت في الرابعة عشرة من عمري أحببت ماركو شقيق يولاندا وكان قد جاوز العشرين من عمره ، وعنده موتوسيكلامبروتا يحدث ضجيجاً عالياً يخفق له قلبي ، وكان ماركو يعمل في أحد المصانع بشبرا ، ويقول إنه ميكانيكي ، وكانت تبهرني هذه الكلمة ، وإن كنت لا أفهم معناها ، وهو متوسط الطول ، عيناه مثل عيني أمه ، عميقتان وجذابتان ، وشعره أسود فاحم يدهنه بالبريانتين ، وله صوت جميل يقول إنه من طبقة الثور ، وهو يلحن ألحان الأوبرا ، وكثيراً ما اسمعني ألحان الكوفت المافيفا من حلاق أشبيلية ، والأمير من ريجلنو ، وكانت أمه السنيور جراتسيا تنصت إليه في إعجاب وتصفق طرباً كلما انتهى من غناء مقطوعة .

ولم تكن تعجبني ألحان الأوبرات ، إذ كنت أفضل الأغاني التي اسمعها في البرنامج الأدبي لما يطلبه المستمعون ، وفجأني ماركو ذات ليلة فسمعت مذياع البرنامج يقدم أغنية « باهيا » إلى بهية من ماركو .

وظفرت الدموع إلى عيني ، وزاد حبي لماركو ، ولكنه كان حياً سانجاً ، وأظن أن ماركو لم يشعر به أبداً ، إذ كان يعاملني كشقيقته وكأني ما زلت طفلة صغيرة ، وكان يدعوني مع يولاندا إلى السينما في بعض ليالي السبت ، وكانت مجبونة بالسينما ، وكما ضحككت وبكيت وأنا جالسة إلى جانب ماركو نشاهد أحد الأفلام ، ومازلت حتى اليوم أذكر دموعي وأمقاض قلبي وأنا أشاهد فيلم مرتفعات ودرنج ، وليلتها صممني ماركو إلى صدره ، ومصبح دموعي بمنديلته وهو لا يدري أنني أبكي يائسة من حبه .

وفجأة ، اعتقل البوليس ماركو لأنه إيطالي ، واحتلوا تحارب إيطاليا ، فيكيت مع يولاندا والسميور جراتسيا ، واشترت معكزة ملائها مافكار سوداء عن الحب والامه وغدر الدنيا وظلم القدر .

وعرفت الشهور ففسميت كل شيء ، لا أدري كيف سميت ماركو وحبي له . ولكن كل شيء في كان يتغير ، كان جسمي ينمو بسرعة ، وبدأت أحس بجمالي وأنوثتي ، واشتد ضجري وضيقني بالبيت ، وكاد يولاندا تتعرف إلى شبان لهم عريات فخمة ، فأخرج معهم ونلهو ونرقص ودني الأغاني الجديدة . تحت شجرة التفاح .. هل تحبني .. الرمل في حدائي .. هل تعرف سوزي .. أغاني كثيرة .. جعلتني أسي أغنية باهيا ..

وخافت أمي من كثرة خروجي ، ففكرت أن تزوجني ، فكان إذا جاء بيتنا شاب غني ليلعب البوكر ، نادتنني ، وطلبت مني أي شيء ، حتى يراني الشاب ، فإذا أعجب بي وبهره جمالي وغازلتي ، تغافلت أمي ، وتظاهرت بأنها لا تفهم ما يحدث أمامها

عرفت عن طريق أمي محامياً شاباً له عربة ميركزي فخمة ، اسمه حمادة وكان ذكياً فاعمل أمي في رقة بالغة ، فأحبته وأقبلت عليه ، وكثيراً ما كان يشتري لنا الكباب وزجاجات البيرة ويأتي إلى البيت ليتناول طعام الغداء معنا ، وفي ساعات المصير يصحبني أنا وأمي إلى جروبي فأطلب اشيكولاتة باللبن وقطعتي حاتوه ، واحدة ، ميلفى ، والثانية ، أرجنتن ، وكانت أمي ترفض دعوته للعشاء ، ولكنه ألح ، فرفضت أخيراً أن نخرج معه ، وجاء معنا عمي محمود ، وذهبنا إلى الأوبرج ، وكنت أدخله لأول مرة في حياتي ، كنت سعيدة ، تصيح الدنيا بأفراحي ، ورقصت مع حمادة حتى انتهت الأوركسترا من العزف ، وعدنا إلى البيت فسالته أمي عن كل كلمة قالها لي ونحن نرقص ، وسالته إذا ما كان قد اعترف لي بحبه

ولكن أمي كلنت لا تطيق الخروج بالليل ، لأن هذا يعطل اللعب ، وهو مصدر رزقنا إذ تحصل أمي على نسبة من أرباح اللاعبين لذلك تكاسلت عن الخروج ، وسمحت لحمادة بأن يخرج معي وحده ، بشرط أن تصحبنا

واكتفت أمي بأن تسألني في صباح اليوم التالي عما حدث بالأمس ، كانت تسألني عن كل شيء هل لصق خده بخدي ونحن نرقص هل قبلني .. وكان لا يهمها أن يقبلني حمادة ، وكانت تقول لي :
- الشطارة إنك تحليه دايماً على نار .. لكن أوعى تبرديه .. لو خد غرضه منك موش ح يسأل عنك أبداً .

وكنتم مقتنعة بكلام أمي ، وإن لم أشعر أبداً برغبة في الزواج كان كل ما أريده هو أن أتسنى ، هو أن أخرج من البيت في فستان أنيق ، والهو ، وأنخن السجائر ، وأشرب البيرة - وأرقص ، وأتناول عشاء شهياً .. كنت أحب الفراخ المشوية الخالية من العظام ، والبيكانا بالشمبينيون ، ولقد حفظت أسماء كثيرة في قائمة الطعام .. حتى أعرف كيف أطق بها بالفرنسية أمام الميتردوتيل وحتى أبدو أمام حمادة كبنت ذوات ، لأن الشاب يجب أن تكون البنت التي تخرج معه لبقه . و - مدردحة ، وليست غشيمة .

ورغم أنني كنت أحكي لأمي كل شيء إلا أنني أخفيت عنها بعض ما فعلته مع حمادة ، إذ كنت استلطفته لذهبت معه إلى شقته الخاصة لأشياء إلا لأرهي فضولي . وتعرضت طبعاً لهجمات حمادة ومحاولاته ، ولكنني نجعت دائماً في المحافظة على نفسي في اللحظة الأخيرة .

وينس حمادة مني ، فلانقطع عن زيارتنا ، ثم سمعت أنه تزوج ، أما أنا فقد تعرفت على شاب ثان وثالث .

وعندما جاء الأستاذ حلمي كامل إلى بيتنا لأول مرة ، رأني فأبدى إعجابه بجمالي ، وقال لأمي إنه يريد أن يظهرني في السينما .

وظننت أنه يقول هذا الكلام كوسيلة مكشوفة لأن يغارلني وحتى أمي ظنت هذا أيضاً ، فقد حذرتني منه ، لأنه عجوز جاوز الأربعين ، ولأنه رغم ثرائه ، فساد ومن رجال السيما ومن الصعب إقناع واحد مثله بأن يتزوجني .

قالت لي أمي إنه بصل ، ويحب ألا أصدق ، ولكن الحاج الأستاذ حلمي جعلني أنا وأمي نشك في طمنا . ومع ذلك عاملناه في حذر ، وقبلنا نتنظر حتى

انكشف لنا الأيام حقيقة غرضه ..

ثم انتقلنا من غمرة إلى بيتنا الجديد في الجيزة ، وقضيت يومين وأنا مشغولة في التنظيف والترتيب فلما كان اليوم الثالث ، لم أطق البقاء في البيت ، وخرجت لأقص شعري عند « رانو » الحلاق في شارع قصر النيل .

وقفت عند محطة أتوبيس الجيزة وكان بين الواقفين شباب أسمر ، يحرق في بنظرات نهمة ، لقد تعودت على هذه النظرات ، وهي لا تصايقني ، لأنها تؤكد لي جمالي ولقد كان لي معجبون كثيرون عند محطة أتوبيس عمرة ، معجبون من كل الأعمار ومن كل الأصناف ، شبان وكهول .. وعزاب ومتزوجون ، وكنتم أعرفهم واحداً واحداً ، وأشعر بتأثير جمالي عليهم ، وأشعر بانفعالاتهم وحيوتهم ومحاولاتهم الساذجة التي يقومون بها لجذب انتباهي إليهم ، وكنتم عاملهم حسب مزاجي ، أحياناً أرسل لهم نظرة مريضة خاطفة ، وأحياناً أرسل لهم نظرة طويلة صاعقة ، وأحياناً أتجاهلهم تماماً ، كأنني لا أراهم ولا أحس بوجودهم .

كنت أشعر بأنني ملكة ، وهم عبيدي ، لم أسمح أبداً لواحد منهم أن يسترسل معي في الحديث ، إذ كنت أهاجأ بين وقت وآخر بمن يتقدم مني ويسألني عن رقم الأتوبيس الذي يقف بالمحطة ، أو يسألني عن الساعة لو أي شيء آخر ، فكنت أجيبه في كبرياء ، ثم أستدير وأعطيه ظهري ، واقطع رغبته في مواصلة الكلام معي ، وكنت أرفض أن أرى لأي واحد منهم ابتسامته ، أو أبدي أية إشارة تشجعه على مغازلتني ..

إنهم ركاب أتوبيس ، أي فقراء لا يملكون عربات خاصة ، ولا فائدة منهم .

أرسلت إلى الشاب الأسمر نظرة طويلة فاحصة ، إنه أول المعصين بي في محطة الجيزة ، والبقية تأتي ، ثم تجاهلته ، وفجأة رأيت عربة ستروين تقف أمامي ، يقودها شاب وسيم أبيض الوجه ، يبدو عليه أنه ابن ناس ، واندمع الشاب الأسمر إلى العربة وقبل أن يدخلها التفت إليّ وابتسم ، فحولت بصري عنه ، وراقبت العربة بطرف عيني والشبان ينطرون إليّ ، ثم تحركت العربة

سطه ، وابتعدت ، وبعد برهة فوجئت بالعربة الستروين قادمة من جديد ، والشباب ينظران إلى ..

أرسلت لهما نظرة فهما منها إنني متنبية إليهما . واني اعرف ماذا يريدان ، وتظاهرت بأنني مشمئزة من تصرفهما ، ولكنهما ظلا ينظران إلى ، ثم تحركت العربة وابتعدت .. وبعد برهة رأيتها تعود من جديد ..

وابتسمت في سري ولكني أرسلت لهما نظرة غاضبة فضحكا .. ودارت بينهما مناقشة لم أسمعها طبعاً ، ولكني عرفت أنهما يتجادلان حول أن يهبط أحدهما ويدعوني إلى ركوب العربة .

قلت لنفسي ، لو حدث هذا فلن أكلهما في حياتي ، فانا لا أحب الشاب العبيط الذي يكلمني أمام الناس الغرباء في الشارع ويتصور أنني سأرضى بالركوب معه من أول مرة ، ثم أن العربة الستروين ليست بالشئ الفخم ، ومن أهم الشروط عندي لأركب مع شاب في عربته ، أن يكون لبقاً ومهذباً ، يعرف كيف يعاملني ، ولا يشعرني بأنه يصطادني من الطريق وكأنني واحدة من إياهن .. لا بد أولاً أن أعرف من هو صاحب العربة . وما اسمه وما هي صناعته .. وهل هو من عائلة أم لا ، لقد حولت الحرب كثيراً من الصعاليك إلى أثرياء عندهم عربات وبعضهم وحوش ، إذا ركبت واحدة معهم افترسوها بلا رحمة .

لعب الخوف في صدري ، ومضت لحظات وأنا قلقة خشية أن يهبط أحدهما من العربة ، ولكنهما لم يفعلا ، وابتعدا من جديد ، وغابا فادركت أنهما قد خجلا من مخاطبتي وأيقنت أنهما من أولاد الناس الطيبين ، وتوقعت أن أراهما في مرات أخرى ، كمعادتي مع المعجبين بي ..

وجاء الاتوبيس فركبت ، وقبل أن يتحرك رأيت العربة الستروين تتهاوى ببطء عن شمالي فابتسمت وأنا أنظر أمامي ، ولا بد أنهما لاحظا ابتسامتي ، ولكنني رفصت أن أنظر إليهما .

وما حدث بعد ذلك كان شيئاً مضحكاً ، فقد لازمت الستروين الاتوبيس ، أحياناً تتقدمه ، وأحياناً تتأخر عنه ، وإذا وقف الاتوبيس عند محطة ، وقفت

الستروين أيضاً ..

هبطت من الاتوبيس في ميدان الأوبرا ، والتفت حولي باحثة عن الستروين .

حتى لمحتها بطرف عيني ، ثم سرت في اتجاه شارع قصر النيل ، وكنت أستطيع في هذه اللحظة أن أقر من المطاردة إذا كان على العربة أن تدور حول الميدان قبل أن تصل إلى ، ولكني أردت أن اتسنى بهذه المطاردة ، فتلكأت في سري ، ووقفت أنفجر على الفترينات ، حتى شعرت بهما خلفي ، وكانا يمشيان على أقدامهما .

تلفت نحوهما لفئة حادة ، وتجهم وجهي بينما رقص جسمي من الفرح ، مشيت وقد ملأني نشوة جارفة ، ورغبة في أن أثيرهما ، والهب خيالهما لما أحلى هذا الشعور الذي أحس به عندما أرى شاباً يصعقه جمالي .. تبعاني حتى وصلت إلى دكان رامو ، فالتقيت عليهما بنظرة أخيرة باسمية ، كأنني أخرج لهما لسانني ، وقفزت إلى الداخل .

كنت واثقة لغير مسبب أنني لن أفقد صلتني بهما ، واني سأراهما مرة أخرى ، هناك وجوه تقابلني وتبتسم لي فأشعروني بتركني وكأنها تودعني إلى الأبد ، وهناك وجوه أخرى أراها فيحدثني قلبي بأنني سأراهما مرة ثانية وثالثة .. ودائماً ما يصدق شعوري ..

بعد أن فرغت من الحلاق ، كلمت يولاندا في التليفون فلم أجدها ، فتسكمت في شارع سليمان باشا حتى تعبت من المشي ، وعند هودتي إلى البيت إذا بي أرى الستروين واقفة أمام باب الفيلا التي بجوار عمارتنا ، لم يداخلني شك في أنها نفس الستروين ، وقفت أمام الفيلا وقد تملكنتني الدهشة ، لم أتوقع أن أعرف من هو صاحب الستروين بهذه السرعة ، وثار فضولي ، فنظرت إلى النوافذ فראيتها مخلقة والنيت بسوده الصمت ، حتى البواب كان جالساً على دكته وقد أطرق برأسه كأنه غارق في نوم عميق ، كان كل شيء هادئاً يتنبىء عن وقار سكان الفيلا وثرائهم

وصعدت إلى أمي وسألتها في لهفة عن جيراننا أصحاب الفيلا ، فانطلقت

في الكلام .. كانت خلال اليومين قد جمعت كل المعلومات عن سكان العجوة والبيوت المجاورة ، وكانت تعرف كل شيء عن أصحاب الفيلا ، وفلجانتني فائكة إن أبي كان يعرف راتب بيه صاحب الفيلا ، ويعرف إياهم برهان باشا . استعنت إليها في وجوم ، وقد ذهب فضولي ، وأخذ مكثته لم حاد يشق قلبي ، كان آخر ما أتوقعه أن تكون لصاحب الستروين صلة بأبي ، صلة بعيدة أو قريبة .

انترعني كلام أمي من اللعبة التي كنت أتسل بها ، انترعني في قسوة وعنف ، وألقى بي في هوة من التعاسة وغلبتني الأوهام ، أوهام كالجنون تقول لي إن روح أبي هي التي دبرت لقائي بصاحب الستروين ، وهي التي جعلتنا ننقل إلى هذا البيت بجوارره ، وأن أبي قد اتفق في حياته مع راتب بيه أو اتفق مع برهان باشا على أن أتزوج ابنتهما .

انصت إلى أمي وأوهامي تطن في رأسي ، وكانت تثرثر بالحكايات التي سمعتها من أبي عن جيراننا ، روت لي عن عزية برهان باشا الرجل الكبير الذي كان مشهوراً بالبخل ، والذي كان يجمع الفلاحين ساعة الغروب في مكان أطلقوا عليه اسم « المجرة » ، لأنه كان يجعريهم ويسبهم ويشتمهم ، وكان إذا قال له أحد الفلاحين مساكين ، غضب وأخرج بأنهم يعيشون أحسن منه ، وقال إن خدمه يتمتعون بالحياة أكثر مما يتمتع هو ، لأنهم يأخذون النفس الأول من الجوزة ، ويلعقون السمن في قعر البرام .

ونظرت إلى أمي نظرة مستريبة وسألتني :
- لكن أنت بتسألني ليه ؟

فلم أحاول أن أخفي عنها ما حدث ، وقلت لها في غير اكترات :
- أصل الواد ابنهم عاكسني ..
فسألتني في إهتمام :

- مدحت ..

فأجبتني :

- ما اعرفش اسمه ..

فقلت : هو وحيدهم مالهش غيره ، ثم تنهدت فائكة .

- ياريت تتجوزيه يا بهية ..

فلم أرد عليها ، إذ كنت لا أدري ماذا أقول ، وقد احترت .. هل أتجاهل مدحت وأنصاه حتى لا يذكرني بأبي ، أم أعرفه ، لا لاتزوجه ، وإنما لأعرف هؤلاء الذين عرفوا أبي يوماً ما ..

وكعادتي ، سرعان ما نسيت كل شيء نسيت الأمي وحيرتي ، ونسيت أبي ، ونسيت مدحت ..

ومرت أسابيع وأنا لا أذكره ، وكنت أخرج كل ليلة مع صديقاتي ، يولاندا أو سناء ومعنا أصحابنا .

وحدث عاصريوم ، أن كنت جالسة مع يولاندا في جروبتي ، وكانت تحدثني عن عمل وجدته في محل شهكوبيل كبائعة ، وسألني رأبي ، فجاء رأيت مدحت جالسة مع شابين ليس بينهما الشاب الأسمر الذي رأيت معه أول مرة ، وكان ينظر إلى ، فالتفتت إليه أكثر من نظرة ، وفي كل مرة كانت عيوننا تلتي ، كأنه لا يحول عينيه عني أبداً ، وأعجبني منه أنه لم يكن يبتسم ، أو يتهاوس مع أصحابه عني ، ولم يبد منه ما يفضح الحديث الخفي الذي تتبادلونه عيوننا ..

وقطعت يولاندا كلامها وقالت لي :

- أنت شليفة الواد التي قاعد هناك .. اللي لايس بدلة كحلي ..

كانت تتحدث عن مدحت ، فقلت لها وأنا ابتسم :

- أبوه شايفاه ..

قلت :

- ده بيبيع ناحيتنا على طول ..

وخشيت أن تظن يولاندا أن مدحت بوجه اهتمامه إليها .. فسارعت أنبيها

إلى الحقيقة ..

- أنا واخده بالي .. ده جارنا في بيتنا الحديد ..

وحكيت ليولاندا قصتي مع مدحت ، ففحصته بدقة ، ثم أعلنت رضاهما

عه . وقالت لي مشجعة

- تعالي يقوم يمكن يقوم ورائنا

وعادربا حروبي . ومشيبا على مهل في شارع المناخ ، حتى وصلنا إلى
عترية دكان مجوهرات ، فوقنا فتفرج عليها . وعيوننا تنقل في قلق بين
الحواهر المعروضة في العترية والطريق من ناحية جروبي .
وصرحت يولاندا بصوت مكتوم :
- أهر . جاي ناحيتنا .

ولم نعد ننظر ناحية مدحت ، وانشغلنا بالجواهر وأنا لا أكاد أراها حتى
وصل مدحت إلينا ووقف بجانبنا أمام الفتريّة .
وسمعتة يقول بصوت خفيض فيه رنة مرح :
- إيه رأيك يا مدموازيل في الساعة الأوميجا دي .. اشتريها .
نظرت إليه في برود ، من فوق لتحت ، ولم أزد عليه ، ولكني لم أتحرك من
مكاني ، وأحسست أنه ارتبك ، ولم يعد قادراً على مواصلة الكلام ، لولا أن
يولاندا قالت له بصوت ساخر ليس فيه غضب ..

- واحنا مالنا ..

وتلقف مدحت إجابة يولاندا لاندفع قائلاً :

- أنا متأسف . بس أنا كنت هايز أسال ناس عندهم ذوق حلوزيك
كان يتكلم في لهجة بريئة ، وقد وضع على وجهه قناعاً من السداجة
فوجدتني أقول له في حدة

- عيب .. أحسن بعدين اشتكيك .

فسألني في دهشة .

تشكيتي لير

قلت له عن عمد ..

- لبيتكم

فراحت دهشته . وسألني

- أنت تعرفينا ..

قلت وأما أضغط على كلماتي :

أيوه .. أنت مدحت بر راتب بيه ..

فبدأ على وجهه النرح ، وسألني في لهجة :

- وعرفتيني إزاي ..

قلت له :

- احنا جبران .. وعيب تعمل كده ..

كنت قد مهدت له كل الوسائل كي يجذبني أحدث .. فطر يعتذر لي وأصر
على أن يوصلني بعربته إلى البيت .
وركبنا أنا ويولاندا الستروين ، ذهبنا إلى غمرة حيث نزلت يولاندا ، وعاد
بي مدحت إلى بيتنا في الجيزة وعرفت مدحت

لم تعلم أمي بأخباري عن محمد ناجي ويوسف حتى ظهر اليوم التالي ،
استمعت إلي وهي جالسة في فراشها تشكو الصداق . وسألتنني فجأة وقد
تذكرت شيئاً

- إيه الاسم الجديد اللي بيقول عليه حلمي

فحكيت لها ما حدث بيني وبين أنور سامي في لاسنديو ، فقالت لي ضيق .

حلمي قال لي ..

فسألته :

- وإيه رأيك يا ماما ..

قالت لي عصبية

- أنت ح تبوظلي سمعتك ..

بكرة كل الناس ح تقول بآنك ماشية مع أنور سامي ..

قلت في تحد

- يقول الناس اللي عابزيه أنا مالي ..

فصاحت

- يا بيت ما تفقيش مجنوبة

عرفعت صوتي

- ياماما أنا باشتعل في السينما .. الناس ح تتكلم .. ح تتكلم .. إن

ماكش أنور .. ح يفتي واحد قاني ..

فأمسكت رأسها بكلتا يديها .. وقد اشتد عليها الصداح .. وقالت -

- اتفلقني

شعرت أنني لو تماديت معها في الكلام فسينشب بيننا شجار ، لم تكن في أحسن حالاتها ، وأيقنت أنها قد خسرت في البوكر ليلة أمس ، فتركتها لصداها ..

قرأت في ذلك الصباح جريدة الأيام باهتمام ، وأنا أتفيل بنامها الضخم . ونوافذها التي تنبعث منها الأنوار ، ومحمد ناجي وهو يهبط من سيارته . ورغم أن يوسف قال لي إنه سينشر اسمي الجديد بعد يومين ، إلا أنني بحثت عن اسمي في كل صفحة وكل سطر ، وكنت أنظر إلى الصور المنشورة ، وأتفيل صورتي مكانها ، مكان صورة تشرشل ومكان صورة جنر روجرز في إعلان عن فيلم ، ومكان صورة قاتل اسمه بيسيوني قبض عليه البوليس ، ومكان صورة بنت حلوة في إعلان عن معجون أسنان ..

ولما يشئت من الكلام مع أمي ، ذهبت إلى عمي محمود في الحمام ، إنه يلقي النهار كله في الحمام ، وكان يخلق ذفنه ، فسأته :

- إيه رايك يا عمي في اسم سامية سامي ..

قال لي حماس أمله ..

- حلو .. حلو قوي ..

كان يريد أن يتخلص مني بمواقفه السريعة ، ولو كنت قد ذكرت له أي اسم آخر لثمست له ووافقت عليه في الحال ، فتركته هو الآخر ، وقلت لبقي ولانتظر عودة إصناف من كلية الطب لأسألها ، وأمسكت بالجريدة أنظر فيها ولا أقرأ في انتظار تليمن مدحت .

كان من عادة مدحت أن يتصل بي حوالي الظهر ، بعد أن يعادريته ويذهب إلى وزارة الأشغال ..

وتكلم مدحت .. قال لي في مرح وقد نسي غصنه مني بالأمس ..

- هيه .. علفتي إيه اسمارح ..

فقلت له عن اسمي الجديد ، فأبدى دهشته ، وقال إنه سيظل يتأدبني باسم بهية ، ولما علم أن يوسف سينشر اسمي الجديد ، سألمي في حماس

- وياه مانشرهوش النهارده ..

فأبدت له خوفي من أن يسماني يوسف .. مصاح

- ما يقدرش .. لازم اسمك يطلع بكرة في الجرنال ..

وصدق مدحت .. أيقظتني إنصاف في صباح اليوم التالي ، وهي تصرخ من الانفعال ، وفي يدها جريدة الأيام ، ورايت وكأني أحلم صورة صديرة لي وإلى جانبها صورة صديرة لأنور سامي ..

لم أصدق عيني ، ومضت لحظات وأنا لا أستطيع أن أقرأ ، ولا أستطيع أن أقوم ما تقول إنصاف .. وأخيراً قرأت « أنور سامي يتبنى ممثلة جديدة » .. نفس الكلمات التي سمعتها من يوسف ونحن في الاستديو .. ثم قرأت .. « سامية سامي هو الاسم السينمائي الذي أطلقه أنور سامي على ممثلة جديدة ستظهر معه في دور صغير في فيلم « معك إلى الأبد » يقول أنور إن سامية ستلعب بسرعة كنجمة جديدة ، وأنه يتنبأ لها بمستقبل كبير ، لذلك تبناها وأطلق عليها اسمه ..

فغرث صارخة كالصوتة ، والفرح يزغرد في قلبي .. وقد زاد من فرحي أن إنصاف كانت سعيدة

كنت قد سألتها قبل أن تمام عن رأيها في اسمي الجديد . فقالت لي في وجوم :
- كويس .

الفصل الرابع

ثم أردت قائلة . في ارتباك
- طبعاً .. يا مهية لازم يكون لكى اسم تاني في السيتما ..
ومهمت ما يدور في رأسها .
إبها تشع بالحل من ظهور اسمي الحقيقي في السيتما ، ولا تريد ان
يعرف أحد أن شقيقتها معتلة ..
ولم أواجهها بأفكارها .. وفضلت السكوت ..

كان لنشر صورتي في جريدة الأيام تأثير السحر ، شعرت وكأنى قد
تغيرت في لحظات ، وأصبحت شخصية قوية ، لا شيء يستطيع أن يلف
ألمى الآن . أو يحول بينى وبين ما أريد .
وكان يوماً غريباً .. تجمعت فيه أحداث ألف يوم ، كل شيء يمضي في
سرعة مذهلة ، وأنا أتصرف في جنون وشجاعة من ابتسم له الحظ ..
كانت إنصاف قد غادرت البيت وذهبت إلى الكلية ، وتركتني وحدي مع
جريدة الأيام ، أنا وصورتي وجهاً لوجه ، وفكرت في أن أوقف أمى ، كنت
أريد أن أصبح وأتكلم وأهمل .. أريد أن يصحو البيت الغائم .
ويشاركني في هذا الضجيج الذي أشعر به ، ولكنى خشيت أن تشتمني
أمى . فجلست أقرأ الكلام المكتوب عني ، وأعيد قراءته ، وأنظر إلى
صورتي ، إنها ليست جميلة مثلي .. أنا أجمل من الصورة ألف مرة ، من
أين حصل يوسف على هذه الصورة .. لابد أنه أخذها من الأستديو .
وذهبت إلى المرأة ، لأتأمل وجهي وقوامي .. نعم أنا أجمل من الصورة
بكثير ، وأمسكت بالجريدة أنظر إلى الصور الأخرى المنشورة ، صور
زملائي المشهورين ستالين ، وفيتشسكي ، وأبور سامي ومحمد
الجدي لاعب الكرة في النادي الأهلي ، وأم كلثوم ، وشارلي شابر

أنا مثل هؤلاء ، أصبحت واحدة منهم ، يرى الناس صورتي إلى جانب صورهم ، أنا مشهورة ، لماذا لا تستيقظ أمي الآن ، إنها لن تستيقظ حتى الظهر ، لتشكو من الصداق ، لابد أن تفهم أمي وضعي الجديد ، لم أعد بهية عبد الرحمن ، أنا سامية سامي ، لنا في حاجة إلى قسنتين جديدتين ، فساتين كثيرة ، لابد أن أذهب إلى رامو مرة كل ثلاثة أيام على الأقل .. ولماذا لا أذهب إلى سقراط ، يجب أن أعتني بجمالي ، وهذا البيت ، كيف نعيش فيه ، إنه بيت فقير .. كيف أرضى أن أنام مع إنصاف في حجرة واحدة ، إنها لا تفهمني ، لا أحد يفهمني هنا ، كلهم غرباء عني ، كلهم أغبياء ، لا يدركون أهميتي ، يجب أن تعطيني أمي نقوداً كثيرة ، لو كانت عاقلة لفعلت ذلك ، مصاريف زينتي أهم من مصاريف كلية إنصاف ، ماذا ستصبح إنصاف .. دكتورة .. هه .. كلام فارغ .. سأشتهر ، وسأفقتني ، وسأصرف عليهم ، سأصرف على أمي وعلى إنصاف ، وسأشتري فيلا في شارع الهرم ، وسأسمح لهما بأن يسكنا فيها ، وسأشتري عربة فضة كاديلاك ، يجب أن تعطيني أمي كل ما أريده من نقود ، وإذا لم تعطيني فسأترك البيت ، سأتزوج مدحت ، ولكن مدحت لم يرث بعد ، ولا أظن أن أباه سيموت قريباً .. إنه كسلان ، مازال نائماً ، ولم يقرأ جريدة الأيام ، ولم ير صورتي ، هل اتصل بيوسف وأكله ، لابد أن أفعل هذا ، ولكني لن أربخه على صورتي ، يجب أن أجامله ، يجب أن أسيطر عليه حتى يواصل نشر أخباري ، وسأختار له صورة جديدة ، سأذهب اليوم إلى سقراط وأغير تسريحة شعري ، يجب أن تعطيني أمي النقود .. ترى متى يذهب يوسف إلى الجريدة ، الساعة الآن مازالت التاسعة ..

ودعيت إلى الناعذة أطل منها على الشارع ، وبحثت عن باعة الجرائد ، فلم أجد أحداً ، وكانت سيارات قليلة تحري .. أف .. كل الناس مازالوا نائمين .. لم يقرأوا جريدة الأيام بعد ، لم يروا صورتي ، لو ذهبت إلى سقراط ، هل سيعرفني الناس في الشارع ، لو كانت صورتي أكبر

العرفوا .. ربما عرفوني ، نعم سيعرفوني ، وسيتهامسون ، ها هي سامية سامي ، إنها أجمل من الصورة .. لن أركب الاتوبيس ، لن أقف عند محطة الاتوبيس ، منذ اليوم سأركب عربة أوتاكسي ، يجب أن تعطيني أمي النقود لأركب التاكسي ، لابد أن تفهم ظروفاتي الجديدة .. رأسي يدور ، لماذا لا تستيقظ أمي ، سأصنع هجان قهوة ، وأدخن سيجارة ..



كنت في المطبخ أصنع القهوة ، عندما دق جرس التليفون ، فجريت وأنا أتوقع أن يكون يوسف هو المتكلم ، وقبل أن أصل إلى التليفون كان الجرس قد سكت ، نظرت إلى التليفون في غيظ ، ترى من الذي كان سيتكلم ، ليكون مدحت ، ربما .. هل أنتظر ..

ودعيت إلى المطبخ وأحضرت القهوة ، وأشعلت سيجارة .. لماذا لا يدق جرس التليفون ..

ونفذ صبري ، فرفعت السماعة وطلبت جريدة الأيام ، أريد أن أسأل عن يوسف ، وإذا لم أجده فأسأل عن رقم تليفون بيته ..

وسمعت صوتاً يقول :

- جريدة الأيام ..

فقلت رغماً عني :

- الأستاذ محمد ناجي موجود ؟

في لحظة خاطفة ، تملكنتني رغبة غامضة ملحة في أن أكلّم محمد ناجي بدلاً من يوسف ..

وسمعت الصوت يقول :

- مين عليزه ؟

قلت بسرعة :

- بس وصلتي بيه

قال الصوت :

- ما أقدرش يا أهدم .. لازم أعرف مين اللي عايزه ؟
قلت في حدة
- قول له واحدة موش عايزه تقول اسمها ..
وسكتت الصوت برهة ، ثم سمعته يقول :
- اتفضلي .. ناحي بك معاكلي .
مادا أقول له .. مادا طلته ؟ ..
وسمعت صوتاً ناعماً رقيقاً يتكلم هامساً
- ألو .. مين يا أهدم ؟
سألته :
- حضرتك الأستاذ محمد ناجي ؟
- أيوه .. أي خدمة .
قلت بغير تفكير :
- أنا واحدة معجبة ببك يا أستاذ .
قال في أدب :
- متشكر ..
- أنا دايمًا بأحب أقرأ لك كل حاجة بتكتبها ..
قال في سرور
- متشكر قوي
وخيل لي أنه لا يريد أن يمضي في الكلام ، وكنت أفسس بجرأة غريبة ،
وبتصميم على أن أشتبك معه في حديث طويل ، فقلت له بصوت وضعت
فيه كل أنوثتي :
- أنا خايفة أكون بأعطلك عن شغلك .. وانت غالي عندي قوي
يا أستاذ ..
فقال ضاحكاً :
- إذا كنت حلوة .. تنقي موش بتعطليتي .
فاطلقت ضحكة معطوطة فيها إغراء .. وقلت

- لا . اطمئن .. أنا حلوة موت ..
- إزاي أعرف ؟
- أوصف لك نفسي .. أنا عندي تمتاشر سنة ..
- موش معقول ..
- ما تحبش الصغيرين ..
- بالعكس ..
- وطولي متوسط ، وقوامي رشيق وعيبي سود وطويل وشفايفي
صغيرين لكن مليانين .. وكل حاجة فيه حلوة .. إيه رايتك باه ؟
قال فجأة :
- ومين باه اللي مملطك علشان تكلميني ..
- ما فيش حد .
- بدمتك .. قول لي وعش ح أقول ..
قلت ضاحكة :
- ياترى مين دي اللي أنت خايف منها ؟
قال في ارتباك :
- أنا موش خايف إلا منك ..
فضحكت ساخرة وقلت :
- ليه . عجبك ؟
- باين عليك عفرينة .. أنت اسمك إيه ؟
- مانستعجلش .. كل شيء بأوانه ..
- يعني فيه أوان ؟
- بس ما تستعجلش ..
- احنا في عصر السرعة ..
- إلا ده .
- إيه هو .. ده ؟
- اللي أنت بتفكر فيه ..

قال في وقاحة

- أنت أليمة

قلت ساخرة

- أنت اللي أليمة

- طيب بس اديني فرصة .. لا انا اعرف نعمة تليفونك .. ولا اعرف اسمك .

ولا اعرف انت حقيقي حلوة والا وحشة ..

قاطعت .

- ايه رايت في صوتي ؟

- حلو ..

- صوتي أحل والا صوت دلال ؟

- انت بتفني ؟

- لا ..

- لما اشوفك أقول لك ..

وفجأة همست متصنعة الخوف :

- أنا ح اكلمك بعدين .. أحسن جوزي باين عليه صحي ..

قال في دهشة

- أنت متجوزة ؟

- أه ..

قال في لهفة وقلق

- طيب المرة الجاية اطلبيني في نموتي الخصوصية ..

وذكر لي رقم تليفونه الخاص ، فجعلت أرده بعد أن وضعت السماعة ، حتى وجدت قلماً وورقة فكتبت الرقم ، واحتفظت به في حقيبتي

قلت لنفسي ، يا محنونة ، ما الذي تريدينه ، ماذا بك ؟

- وابتسمت .. إذن فهذا هو محمد ناجي إنه اسمك ما كنت اتصور ،

الرجال كلهم سواء ، وكلما تقدمت بهم السن أصبحوا أقدم سهولة ، إني

استطيع أن ألعب به ، ومتصيح جريدة الأيام راحة تحت قدمي ،
وماصيح أنا المسيطرة على يوسف .. المسكين .. إنه لا يدري إني
استطيع أن أطرده من الجريدة ، وأستطيع أن أحصل له على ترقية .. هل
أطلبه .. لا .. سأنتظر حتى يكلمني مدحت .. سأطلب منه أن يلتقي
بيوسف الليلة لأشكره تشر صورتي ، سأطلب من مدحت أن يدعونا
الليلة إلى الأوبرج ..

وقيل أن أبتعد عن التليفون ، سمعت رنينه ، فرفعت السماعة وأنا
واثقة أن يوسف هو المتكلم ، ولكن فوجئت بصوت غريب يسألني في
مرج

- أنت كنت بتتكلمي مع مين من ورايا ..

سألته في دهشة .

- أنت مين ؟

قال معاتباً :

- اخبر عليكي .. موش عارلاني

قلت في لهفة :

- والنبي انت مين ؟

قال : أنا أبوكي ..

لا يمكن أن يكون هذا هو يوسف .. عرفت .. إنه أنور سامي ، ولكن لم
أكن واثقة .. فقلت

- إذا كنت أبويا شقي بتكلم من الآخرة .

فصاح : أعوذ بالله .. إن شاء الله انت .

ثم قال :

- ازيك يا حلوه ..

- ازيك أنت

- عرفتني أنا مين ؟

- أبوه -

- طيب أنا مين ؟

- أنت بابا أنور ..

- برافو .. أنا حبيبك بابا .. هيه .. ح تسهر فين الليلة دي ؟

- قلت له في دلع :

- أنا معزومة ..

- فهتف :

- سيبك من العزائم الفالصور .. أنا بأحتفل النهاردة بيكي ..

- فلم أستطع أن أخفي فرجي ، وصحت :

- والنبي ؟

- أمال .. أنا ماعنديش غير سامية واحدة ..

- قلت متظاهرة بالحزن :

- لكن صحيح أنا معزومة الليلة دي ..

- فصاح محتجاً

- إزاي يا بنت تاخدي مواعيد من ورايا .. موش تستأذني بابا الأول ..

- قلت ساخرة :

- اسم الله عليك ..

- قال بصوت جاد

- أنا عايزك في شغل ..

- وكنت ضحكة ساخرة .. إنني أعلم نوع الشغل الذي يعنيه ، ولكنني

- تظاهرت بأنني أصدقه وقلت في سذاجة :

- إذا كان شغل صحيح .. اعتذر .

- طبعاً تعتذري .. ده شغل مهم .. أنا راجل جد .. أفوت عليك

- الساعة كام .. تسعة كويس

- حليها تسعة ونص ..

- أحسن .

وسألته

- ح نروح فين ؟

- فقال

- موش ح نروح .. الحفلة عندي في البيت ..

- ومين فيها ؟

- فصاح

- يابنت انت خاليفة .. فيه ناس كثير .

- قلت في تحد

- ها أحاف من إيه ؟

- فصاح في غيظ :

- إن شاء الله تموتي ..

- ثم عمس في رقة :

- خلاص يا حبيبتي .. تسعة ونص .. ح أزم تحت .. بس أوعي

- تلطميني .

- أنت عارف البيت ..

- طبعاً ..

- ووضعت السماعة ، وقد زادت دهشتي من نفسي ، لم بعض على نشر

- اسمي في جريدة الأيام ساعتين ، حتى أصبحت في دوامة ، اقتحمت دنيا

- مجهولة كنت اتحاشاها حتى الآن ، غازلت رجالاً لا يفكرون في الزواج ،

- عرفت رقم تليفون محمد ناجي الخاص ، وارتبطت بموعد مع أنور سامي ،

- رجلان مشهوران وقعا تحت سيطرتي .. سيفتحان لي طريق الشهرة

- والمجد ، سأغزو بهما السينما .. هل أقول لامي .. أخشى ألا تفهمني ..

- إن تفكرها محدود ، طموحها محدود ، كل ما تفكر فيه هو أن أتزوج من

- شاب غني .. هل أخطأت .. هل يجب أن أختار بين أنور ومحمد ماضي ،

- أم أجمع بين الاثنين .. هل أستطيع أن أجمع بين الاثنين ، ما الذي

- يجعلني أفكر هكذا ..

لماذا لم يتكلم يوسف .

هو وحده الذي يتحاملني ، هو وحده الذي لا يهره جمالي ، لم يفكر في الاتصال بي منذ تركني في الاستديو ، ولكنه نشر صورتي ، وكل ما يحدث لي الآن بسببه هو .. لا بد أن أراه ، ولكنني سأخرج الليلة مع أنور ، ماذا أفعل ؟

واستيقظت أمي ، رايتها تخرج من غرفتها متجهة إلى الحمام ، وعيناها شبه مغمضتين ، نظرت إلّ في وجوم ، وتكاسلت عن تحيتي .. ولكنني صحت فيها وأنا أقدم لها الجريدة :

- ماما .. شوفي صورتي في الجرنال ..

قالت في إعيا .

- نشرها خلاص .

وامسكت بالجريدة .. ونظرت إلى الصورة بعينين متعبتين ، ثم مضت إلى الحمام دون أن تقول شيئاً ..

ودق جرس التليفون . لا بد أنه يوسف هذه المرة .. ولكن سمعت صوت الأستاذ حلمي يهتني بفشر صورتي ، كان يكلمني في حماس ، وقال إنه اتصل بيوسف وشكره ، ونصحني بأن أطلبه في الحال وأفعل نفس الشيء ..

وخرجت أمي من الحمام ووقفت تبصت إلّ ، حتى نهمت أمي أنكلم مع الأستاذ حلمي ، فاخترطت مني السماعه ، وقالت بلهجة غاصية - إيه يا حلمي التي أنت عامله في البيت ..

وانفجرت أمي تنهمه بأنه سيفسدني لأن النبات لا يشتغل في السينما بهذه الطريقة . كانت نصيح

- يا لمرحتي بصورتها .. الاسم بس معتلة .. واحنا لا شغنا منكم لا أبيض ولا أسود ..

وعجاة قالت أمي في تهديد

- أنا ح أكلم محمد ناجي وأطلب منه يكذب المكتوب في الجرنال ، إلا إذا مضيتو معانا عقد .

ضحكت في سري ، وأنا أسمع اسم محمد ناجي ، إيهما لن تتصل به تري ماذا تقول لو علمت إني كنت أتحدث معه من نفس هذا التليفون .. ولكن طريقة أمي في الكلام ، أزعجتني ، إذ جعلتني أحس أنها لا تفكر في شهرتي ولا مجدي .. لا يهمها إلا النقود التي ستحصل عليها من ورائتي ، إنها تتكلم عني كما لو كنت بضاعة ستبيعها وتأخذ ثمنها إنها واهمة ، لن تأخذ مني مليماً واحداً بغير رضائي ، بل سأطلب منها أن تعطيني المزيد من النقود ، وسأهددها ، إذ لو رفضت فسأجرمها من كل شيء .. لقد كبرت ، ولن يضحك عليّ أحد ، حتى ولو كانت أمي .. ورايتها تضع السماعه ثم ثلثت إلّ باسمه ، وليس بوجهها أثر من الغضب الذي كانت تتظاهر به وهي تخاطب الأستاذ حلمي ..

وقالت :

- لازم تأخذ بالنا .. بتوع السينما دول كلهم نصابين .. فاكيرين إنهم ح يضحكوا علينا بصورة في الجرنال ، ويشغلوكي بلاش . صحت :

- يا ماما .. دي موش طريفة .. أنت عايزه تطفشيهم ..

فهاجت ، وشتمتني ، وقالت لي بشراسة ، إنها تعرف ما تقول ، ولا تريد مني أن أتدخل وأفسد كل شيء .. وانهارت لهجة على المقعد ، وجعلت تندب حظها الأسود ، يوم تزوجت أبي ، ويم ولدتني ، ويوم اضطرت لأن تلعب القمار لأكل العيش ..

ومضت تعدد ألامها ، وتتمن عليّ بكل فرش حرمة عليّ ، وكل لقمة قدمتها لي ، وكل خروقة اشترتها لأرتديها .. وتتمن عليّ جمالي وكأنها هي التي منحته إياي ، وتتمن عليّ المبرير الذي أمام عليه ، وتتمن عني الهواء الذي استنشقه في البيت ، وتتمن عليّ أنها تزوجت ، وأنها لم تحصل على المال بجسدها ..

ابطلقت الكلمات من فمها . لاذعة . مريرة . قاسية . وجاء عمي محمود مرعاً محاولاً أن يهدئها ، فزادها حدة وغضباً ، وانتهالت عليه هو الآخر بالشتائم ، وهو صابر عليها ، يربت على كتفها ، حتى سحبها إلى حجرتها .

ارتيمت على سرير أبيكي ، وقد صمعت على هجر البيت ، وعقلي يبحث عن المكان الذي أحتمي به .. فكرت في أن أذهب إلى يولاندا . وفكرت في أنور سامي ، سأذهب معه إلى بيته هذه الليلة واستقر هناك .. وفكرت في الأستاذ حلمي لو أعطاني بعض النقود للجان إلى بنصيون ، وطلبت من مدحت أن يساعدني .. وكنت أمكر في نفس الوقت ، أنني يجب أن أذهب إلى سقراط لأغير تسريحة شعري ..



تكلم مدحت في موعده ، فقلت له متوسلة :

- أعمل معروف يا مدحت .. تعالى حالاً خذني من البيت .

فسألني في دهشة :

- إيه اللي حصل ؟

قلت له .

- اتخانقت مع ماما علشان صورتني اللي في الجرنال ..

وظن مدحت ، أن أمي سيدة محافظة ، وأنها غضبت لنشر الصورة ..

فقال وهو يتصنع انشغامة

- أنا جاي حالاً .. بس نروح فين ؟

قلت .

- أي حنة .. بس أخرج من هنا .

قال في حماس :

- عدي فكرة . نروح حمام السباحة في النادي الأهلي .

ووافقته في الحال .. وأنا أقول :

- بس أنا كنت عايزه أشوف يوسف علشان أشكره ..

فقال .

- أنا ح أقول له يحصلنا على هناك .

بعد ساعة ، كنت ممددة على الحشيش بحوار حوض السباحة ، وقد ارتديت مايوهاً أصفر وإلى جانبي يرقد يوسف على بطنه يعرض ظهره للعاري للشمس ، أما مدحت فكان يقوم قاطعاً الحوض من أوله إلى آخره ، وكلما وصل إلى ناحيتنا ، رقع يده ملوحاً ، ثم يغطس تحت الماء ، ولا يظهر حتى يقطع عشرة أمتار أو أكثر . كنت قد نسيت أمي وكلامها ، نسيت كل شيء إلا صورتني في جريدة الأيام . وعيناي تبحثان عن عيون الشباب والبنات والأطفال ومراقبي الحمام .. أحاول أن أعرف من نظراتهم لي ، إذا كانوا قد رأوا صورتني ، وعرفوا من أنا ..

التقت عيناي بكل العيون ، إلا عيني يوسف ، كان لا ينظر إلي ، وبحثت في اتجاه نظراته عن بنت جميلة أو نبيحة ، فلم أرسو بعض العجائز لهم كروش كبيرة ووجوه سمينة محمرة ، كان منظرهم مضحكاً . وقد وقف أمامهم مدرب في فمه صفارة ، ينفخ فيها وهو يصيح واحد اثنين .. واحد اثنين . فينتنون بصعوبة يميناً وشمالاً . ثم يندحنون إلى الأمام ، ثم يقفون وقفة اعتدال ، كانوا في حال إعياء شديد ، فتحو منظرهم المضحك إلى منظر يثير الشفقة ..

أهذا المنظر أهم عند يوسف مني .. شعرت بالحيرة والغيظ ، ووددت لو أستطيع أن أكرر دماغه وأفئذهها لأري كيف يفكر . لقد قابلته بترهاب شديد ، وشكرت له في حرارة مساعدته لي ، فتمتم بكلمات قليلة مرتبكة ، ثم غرق في صمته ، ولما طلب منا مدحت أن ننزل معه إلى حوض السباحة ، قال يوسف إنه يفضل الحلويس في الشمس فحلت معي لأعطيهِ فرصة لأن يغازلني أو بالقليل يجاذبني الحديث .. ولكنه لم يفعل ، ومصل عني منظر العجائز .. كيف أنفذ إليه .. كيف أسيطر عليه ..

وجاء الخادم مرحاحتي كوكاكولا ، فمسيت زجاجتي في الكوب ، حتى ارتفعت الرغايوي ، وهاضت على جانبه وسقطت على المايوه .. فصرخت ، وسألت يوسف أن يعطيني منديله وأعطاه لي ، وبينما أنا أمسح الكوكاكولحت نظرة غريبة منه يصوبها إلى المايوه . نظرة سريعة مختلعة ، ولكنني فهمتها

إنه يقاوم جمالي
واستهزت العروسة ، فبدأت الهجوم .. سألته
- عمرك ما حبيت ؟
نظر إلى يوسف في قلق ، وقال بصوت كانه أت من بعيد .
- أيوه حبيت ..
رحول بصره إلى العجائز ، وكانوا قد رقدوا على الأرض كالمتي .. شعرت أنه لا يريد أن يقول أكثر مما قال ..
فللت ساخرة :
- موش باين عليك ..
فتغير وجهه وسألني وهو عابس :
- موش مصداقاني ؟
قلت في سخرية أكبر :
- يالتييم ..

فالتفت إلى في حدة ، كان وجهه غاضباً ، وعيناه غاصبتين ، وقال بصوت غاضب
- أما ما بكدهش ..
كانت لهجة حاسمة ، قاطعة ، جعلتني أحس أنه صادق ، واضطرتني لهجته إلى العدول عن سخريיתי .. فسألته جادة
- وما تجوزتهاش ليه ..

فالتفت ناحية حوض السباحة ، وهز رأسه في قلق ، حتي خيل إلى أنه يفكر في أن يتركني ويقفز في الماء هرباً من سؤالي .. وتذكرت أن أباه قد تزوج من

خادمة ، هل ذكره سؤالي بزواج أبيه ، والتفت إلى ، وفي عيني نظرة طويلة حائرة ، وبدأ عليه التردد ، ثم قال بصراحة -

- اتجوزت واحد ثاني ..
فسألته :
- وليس بتشوفها ..
قال في دهشة :
- طبعاً لا ..
قلت وأنا أتنهد متصدعة السذاجة :
- أنا نفسي أعرف يعني إيه الحب .
فأطرق برأسه .. ثم رفعها فجأة ، ورشق عيني في عيني ، في جراحة لم أعدها فيه وسألني :
- عايزه تعرفي صحيح ؟
شعرت أنه يريد أن يتحدث بإخلاص .. وأنه يهرق نفسه بهذا الإخلاص ..

قلت في حذر :
- صحيح عايزه أعرف
فسكت برهة ثم قال :
- الحب هو أن الواحد يحب ..
سألته ضاحكة :
- قصدك إيه ..
فأشار بيده في ضيق وقال
- الإحساس بالحب ما يتغيرش ..

وظهر عليه التعب فجأة ، كانه فكر سنة ، وتكلم عشر سنوات .. ما هذا ..
لماذا يحول حديثنا عن الحب إلى شيء مرهق حاد .. لقد تعودت عندما أتكلم عن الحب أن أسمع حدوتة أو نكتة ، تعودت أن أضحك وأسخر ، تعودت أن أكون

دكية ، اقول كلاماً براقاً ، وأشعر بأنني خفيفة مرحة ... لم اتعود هذا العوس . وهذا القليل الجاد والاجهاد الذي ظهر عليه .

شعرت بالافائدة عن مواصلة الحديث معه .. إنه غامض غريب . فسكت ، ولكنه فجأة انطلق يتكلم في حرارة

- تعري الحب زي ايه زي المراية .. أنت لما بتقصي في المراية موش بتشوفي نفسك بتشوفي لور شعرك .. بتشوفي المستبان اللي لايعناه .. شكله ايه . تفصيلته ايه اهو الواحد لما بيحب يتبقى اللي بيحبها زي المراية اللي بيشوف فيها نفسه .. بس بيشوف حاجات ثانية ..

كان يقول كلاماً غريباً ، لم اسمع مثله في حياتي ، ورغم غرابه كلامه شعرت بأنه يهزني ويؤثر في .. لسبب لا افهمه .. همست - بيشوف حاجات زي ايه .

قال :

- بيشوف حياته الحقيقية .. بيشوف اللي جواه .. المستخفي في نفسه بيشوف قوته .. ضعفه .. الحاجات اللي عايز يعملها . الحاجات اللي خايف منها ، بيشوف ازاى ممكن يبقى فرحان .. فرحان بحق وحقيق .. وبيشوف ازاى يبقى زعلان .. زعلان بحق وحقيق ..

ثم قال بنهفة كأنه تذكر شيئاً هاماً .

- الواحد لما بيحب بيعيش .. فاهمة قصدي ..

فاحترت ماذا اقول له .. كنت احس كلماته ، اشعر اني افهمها ، ولكني لا ادري كيف احسست بها ، او كيف فهمتها

وكانت عيناه في عيني ، فشعرت برجفة في قلبي ، وكان شيئاً يمزاج من فوق عيني ، فيجعلني الى عالم جديد ، عالم لم اعرفه من قبل .. عالم رقيق وحنون وحرير

في تلك اللحظة خطر لي سؤال مفاجيء ، لا ادري كيف قفز إلى رأسي ، لا ادري كيف فكرت فيه ، سألته

- الحنان عندك اهم والا الحب .

فابتسم ، ابتسامة حلوة ، طيبة ، عاقلة ، وقال :

- الحنان والحب شيء واحد ..

ثم قلل كأنه يخاطب نفسه :

- اظن كده ..

قلت بصوت غريب عني ، كأنني مخلوقة اخرى تتحدث

- أنا عايزه حنان ..

فسألني في وجوم :

- أنت ما حبيتش أبداً .

قلت وقد تذكرت ماركو :

- حبيت وأنا عيلة صغيرة

فنظر إلّي يطلب مني أن استمر .. ولكني لمسكت قائلة

- كان حب عيال ..

وقارمت رغبة مفاجئة في البكاء ..

من بين عشرات الشبان الذين عرفتهم ، وغازلوني وغازلتهم ، لم يقل لي واحد منهم شيئاً كهذا عن الحب ، حتى أنا ، لم أكن اعرف اني ابحت عن الحنان حتى هذه اللحظة . نعم أنا محرومة من الحنان ، ولا أحد يعطيني الحنان ، ربما كان يوسف يستطيع أن يعطيني الحنان ، إن ما يقوله يثير في الشجن ، حقاً إنه شخص غريب جديد ، واحد ليس كالأخرين .

أممكن هذا ان يكون يوسف مازال يحب تلك التي تزوجت غيره ، إنها مجنونة ، إذ تترك حباً مثل هذا ، ليتني أجد من يعبنى هذا الحب وتنهدت وأرخيت جسدي ، فقد شعرت أنا أيضاً بالارهاق ، والتعب .. وسرحت مع سحابة في السماء تشبه البطة ..

ماذا يحدث لي لو أحييت حياً مثل هذا الحب الذي يتحدث عنه .. في المساء كنت أجلس إلى جانب أنور سامي في عربته اللكزول البيضاء ،

يفرح العطر من جسدي ، ويفرح العطر من جسده ، تضحك كالمجانين ، وهو يروي نكاتاً بديئة متلاحقة

ورغم ذلك كأي مازال في قلبي ذلك الشجن الذي أحسست به وأنا مع يوسف ..

ظل شبح يوسف يلازمني ، يجلس بيني وبين أنور ، ويدفعني إلى المقارنة بين الاثنين ، حاولت أن أنساه ، وأن أغرقه في ضحكاتي العالية ، فلم أفلح . وكان أنور يسير بعمرته في بطء .. يتلکابها ، وهو ينظر إلى كل سيارة تمر بنا نظرة سريعة خاطفة ، ليتأكد أنهم رأوه وعرفوه ؛ وكان ينظر إلى المارة على الرصيف ، الرجال والنساء على السواء ، كأنه يقول لهم هانذا نجمكم الكبير العظيم أنور سامي ، وإذا عرفوه وأشاروا إليه ، ابتسم وأسرع قليلاً حتى يبتعد عنهم ، ثم عاد وتلكأ باحثاً عن معجبين آخرين .

كان الجميع يعرفونه ، عساكر المرور ، المنادون ، حتى المتسولون كانوا يعرفونه .

وشعرت بزهو لأنني معه ، ولأن الناس كلهم كانوا ينظرون إليّ في اهتمام ، والبنات تحديق في تحسديني ، ولم يضايقني أنهم كانوا يهتفون .. أنور سامي ، أنور سامي .. ولا يهتفون باسمي .. كنت أشعر أن يومي قريب ، يوم يعرفونني كما يعرفونه ، ويهتفون باسمي كما يهتفون باسمه .. لم أشعر نحوه بغيرة أو حسد ..

ولكنني شعرت بغروره .

وكان يلف ويدور في الشوارع كلثائه ، فسأته .

- أنت عايز تروح مين ..

قال

- أهو بنتفسح شوية قبل ما تروح البيت .

- والناس اللي عازمهم في البيت ..

قال ضاحكاً :

- ناس مين ..

قلت في غيظ

- يعني ما فيش حفلة .

قال في وقاحة

- أقول للتوسر .. ما فيش حفلة .

ثم أردف :

بس ده سر بيني وبينك .. لو عي بتقوله لحد ..

فسأته وكانني لا أعرف الجواب

- طيب عايزني أروح البيت ليه ؟

فنظر إليّ كمن يتهمني بالغباء ، وقال ساخراً :

- أنت باين عليك عبيطة ..

قلت في عناد :

- أبوه عبيطة ..

فمضمت شفتيه في استنكار وقال :

- ياه اسمعي .. أنا ما فحيش العبط ..

قلت :

- قسمتي .. ظلمت كده ..

قال :

- في البيت ح أغسل كل العبط اللي في مخك ..

قلت في حدة :

- أنا موش جاية محاك البيت ..

نروح أي حته تانية ..

فصاح غاضباً في شراسة :

- اسمعي يا بت .. ما توجعيش دماغني .. أنا موش بتاع لف ودوران ..

واوقف العربية فجأة وصاح :

إذا أنت ح تستعيطي .. اتفضلي أنزلي من العربية

أذهلتني المفاجأة ، لم أتوقع أن تبلغ وقاحتها إلى هذا الحد ، إنه يعاملني كما لو كنت حادته .. حاريتة .

أردت أن أصرخ .. ولكنني فوجئت بكل قواي مشلولة ، كأن قوة هائلة قد سحقنتني ، كل شيء في عاجز عن الحركة ، حتى الكلام عجزت عنه كنت يائسة ، مصعصة وابتسم ..

كنا في شارع قصر النيل ، الناس من حولنا ، والعربات مزاحمتنا ، ومئات العيون ترقبنا ، ولم يكثر بشيء ، مد ذراعه وأحاط به كتفي ، وجذبني إليه فلم أقاومه .. وهمس :

- أنت مجنونة .. لسه طايشة .. عايزه تعقل ..

كان يتكلم وكأنه ينصحنني ، وكان صوته رقيقاً حنوناً ، كاذباً ، اطرقت براسي ، وفكرت في يوسف .. لم أفكر فيه .. تذكرته وهو راقد إلى جانبي في النادي .. تذكرته وكأنني أفكر فيه .. وسمعت أنور :

- موش عاجبك تيجي معايا البيت .. أسألي أي بنت .. أسألي أي واحدة ست في البلد دي .. شوفي تقول لك إيه .. شوفي إن ما كنتش تتمنى تيجي عندي . وأنت بعد كل اللي عملته موش عايزه تيجي معايا بقول لك أنت هبلة موش غاهمة حاجة .. أنت ما قرئتش اسمك في الجرنال الصبح .. ما شفتيش صورتك جنب صورتي .. موش شايفاني ماشي في الشوارع وأنت راكبة جانبي . بكرة البلد كلها ح تتكلم عنك .. عايزه إيه أكثر من كدة .. عمل لك إيه أكثر من كدة ..

سكت ولم أحب ..

فصاح حانقاً .. كأنه لا يصدق أنني رفضت الذهاب معه

- عايزه إيه « قوليلي »

همست

- ولا حاجة ..

قال فجأة في رقة بالغة

- أنت زعلتي ..

قلت :

- أيوه ..

فضطك قائلاً :

- حقك عليه .. أصل أنا مجنون .. ما تعرفيش دي ..

وضطك كالمجنون ..

وجمت ، وأصبح كل همي أن أفكر في طريقة للخلاص منه .. هل أستطيع أن أتخلص منه دون أن يؤذي نفسي ، دون أن يفسد مستقبلتي في السينما .. ووقف بالعربة أمام عمارة الايموبيليا ، وتقدمني وهو يتمايل في مشيته ، وصعدنا إلى شقته في الطابق الرابع عشر

ما كنت أهرب إلى الداخل ، حتى أحسست أنني في سجن جميل ، أريد أن أفر من المكان ، ولكن كل شيء تقع عليه عيناي يشدني إليه ، الأثاث بسيط وبديع ، مودرن ، والإضاءة موزعة ، والستائر صفراء ، وفي الحائط الكبير صورة زيتية لأنور وهو يبتسم في وقاحة ، وتبينت فجأة أنه ليس هناك حجرات ، بل أنا في مكان فسيح ، قد قسمه الأثاث الموزع إلى مكان للجلوس ، ومكان الطعام ، وبار ، وفي الركن البعيد مكتبة مليئة بالكتب .

لم أجلس ، سرت وكأنني في معرض ، أتلقت حولي ، بينما انشغل أنور بإعداد كأسين ..

سألني :

- اللويسكي بالصودا والا بالميه ،

قلت هامة .

- بالصودا

كيف أفر من هنا ، هل أقتله ، هل استسلم له ، لو كان رقيقاً معي ، لو كان

مهذباً ، إنه لا يحترمني ، لا يحترم شيئاً على الإطلاق ، لا يفكر إلا في نفسه ،
 إنه وقح ، مجرم .
 وقدم إلى كأس الويسكي ورفع كأسه قائلاً :
 - في صحة حبنا ..
 شربت في صمت ، وطرق حصري وجذبتني إلى كنية ستوديو قعاشها أصفر
 وأسود . وجلس إلى جانبي وذراعه مارالت حول حصري .
 وأفرغ كأسه بسرعة ، ونهض وعاد معه كأسان ..
 ورفع كأسه وهو يسألني في غضب
 - مالك ..
 لتملكني الرعب ، وابتسمت قائلة :
 - ولا حاجة .
 قال :
 - آمال مكثره ليه ..
 وجلس إلى جانبي ، ولف ذراعه حول رقبتني ، وعبث بأصابعه في شعري ،
 ثم قبلني .. قبلني بقسوة ، فتركت له شفتي ، كأنها قد انفصلت عني ،
 وابتعد عني فجأة . وسألني باسماً ..
 - إزي عنايات ..
 - عنايات مين
 فصاح
 - عنايات أمك .. هي موش أمك .
 قلت : أيوه ..
 فصاح منتعشاً :
 - أمك دي ست كويسة .. أمورة .. بس يا خسارة ..
 - خسارة ليه ..
 - حظها وحش ..
 قلت وأنا أتشهد :

- أمي عيشة

فصاح :

- أنت متعرفيهاش زي ما أنا اعرفها ..

فأشار إلى كأسه قائلاً :

- اشربي كأسك .. أنت موش ماشية معايا .. طبعاً اعرفها ..

وقام متجهاً إلى البئر ..

إنه يحطمني ، يفضحنني ، يعريني .. كيف أتخلص منه ليتني قلت
 لامي إني ساقبله .. كانت نصيحتني ، شتمتني ، ضربتني ، قتلتنني لتمنعني
 من مقابله .

ذات ليلة ، قبل أن تتزوج أمي من عمي محمود ، كنت أذاكر في غرفتي
 بمنزلنا في غمرة ، كنت في الثالثة عشرة من عمري ، وكانت الساعة الحادية
 عشرة ، وإنصاف نائمة ، وعادت أمي من الخارج ، ومعها رجل ، لم أقل لها
 شيئاً ، ولكنني خرجت وصممت على الجلوس معهما . قالت لي أمي إنه المحامي
 الذي يتولى قضية النعقة ضد أبي ، حاولت أن أصدقها ، ولكنني تمسكت
 بالبقاء ، رفضت أن أعود إلى غرفتي .

كان الرجل الذي تقول أمي إنه محام ، طويلاً ، وجهه ضخم مربع ، له
 أنف مفلطح وشارب صغير مضحك ، وهيناه ضيفتان ، وكان يضطك بصوت
 عال سمج ، وسألني عن دروسي ، وحاول أن يسترضيني ، فقال لامي إني
 أبودكية وشاطرة ، طلبت مني أمي أن أنام ، قالت لي أن أذهب لغرفتي
 لتتحدث معي في القضية ، فقلت لها إني لا أريد أن أنام ، قالت لي اذهبي
 وذاكري ، قلت لها لا أريد أن أذاكر ، وتوالت أن تشتمني أمي ولكنها سكنت
 وكف الرجل عن الضحك ، ونظر إلى في قلق ، ونظر إلى أمي في قلق ، وتكلم معها
 في أشياء مخيفة ، كان كلامه مهذباً ، ولكنه قال لها إن ساقبها جميلتان ،
 لا أذكر المناسبة التي انتهزها ليقول هذا لامي ، وبعد قليل نهض وقال إنه
 سينصرف لأن الوقت قد تأخر ، وعند الباب همس في أذن أمي بكلمات لم

اسمعه ، ولكني سمعت أمي تقول له : ما قيش قايدة ، مرة ثانية .. ثم رفعت صوتها قائلة .. ده كله غلط ..

في تلك الليلة قاومت النوم ، قاومت كأني ساموت لوتعت ، ومع ذلك شعرت بالنوم يغالبني ، ويتسلل إلى جفوتي وإلى قمي وصدري وسلقي ، شعرت بالنوم في رأسي وفي بطني ، وقبل أن أصرخ .. لا أريد أن اتلم .. كنت قد نمت ، كنت قد مت ..

أنور يعرف أمي ، متى عرفها ، أيعرف ذلك المحامي ، أيعرف ما حدث تلك الليلة في غمرة ، أيعرف أشياء أخرى لا أعرفها أنا ، أكانت له علاقة بأمي .. لماذا لم تحدثني أمي عنه .

عاد أنور ومعهم كائنات أخران ، وكنت قد أفرغت كأس .. لا فائدة الليلة ليست ليلتي ، لن أستطيع الفرار منه ، لن أستطيع الفرار من نفسي ، لماذا لا أنسى كما تعودت أن أنسى .. إنني مازلت أذكر يوسف .

قال أنور وهو يقبلني في شفتي .

- إيه رايك في البيت موش حلو

- حلو أوي

- تحبي تعيش فيه

- جنة

تكلت بلا وعي ، وشربت بلا وعي ، وضجعت ، وبادلته القبلات ، قبلته بنفس القسوة التي يقبلني بها ، لم أعد أحس بغير هذه القسوة كنت أقبله وكأنني سأقتله بقبلاتي واستسلم له ليقبطني بقبلاته ، وضغط بصدره على صدري حيناه في رموشي ، وأنفاسه تلسع جفوني ، وتهب على لمي وأنفي ، ما نوع العطر الذي يستعمله ، لم أشمه من قبل ، لا وقت للسؤال ، يداه تشددان لحصي ، أنه يلهث وأنا الهث . ارتطمت أنفه بأنفي ، أنفه تزلزلي ، أمسكت بشعره ، جذبته ، إنه يتألم ولكن لا يصرخ ، أسنانه تقطع شفتي ، أذنه ترتطم بأنتي ، يده تشد صدري ، الفستان سيتمزق ، دفعت بيدي لما مسك بعنقي وضغط بأصابعه عليه يخنقني ، عيناه في قمي ، أسنانه في رجليتي .

أصابني في عيني ، يداه تهبط إلى ذيل الفستان يريد أن أرفعه ، قمت جالسة ، قطوطني ، حاصرني بذراعيه والصق صدري برأسه ، أنفي ترتطم بكتفه ، يداه تعيث بزازير الفستان ليفكها

همست :

- أنور .. موش ح أقدر ..

لم يسمعني .. أمسكت بيده أبعداها عن الزواير ..

- ما تزعلش مني .

قال في لهفة :

- إيه يا حبيبتني ..

- موش النهاردة

- ليه

- مرة ثانية

- موش ممكن ..

- موش ح أقدر .. أنا متضايقه زيك كمان .. لكن اعمل إيه ..

- مستحيل ..

- والله العظيم ما أقدر .. ليلة ثانية ..

- بعد ده كله

- والله .. والله ح أجبك بنفسي ..

- وما قلتيش ليه من الأول ..

- كفاية نبوس بعض ..

- وتسيبيني كده .

- ما تزعلش .. أنا مكسوفة منك .. ضايقتك .

- هايزه تعوتيني ..

- والله العظيم ما أقدر ..

وتركته في تلك الليلة وأنا أتساءل ما قيمة الشيء الذي أنقذته منه بعد كل ما

فعله بي .

قال وأنا اترك عربته امام بيتنا

- ح أشوفك امتي

قلت : بعد يومين ..

- إن شاء الله تموتي ..

- ما تزعلش .. حقه على .. ح أعرضها لك ..

- ح اكلمك

- امتي .

قال غاضباً :

- لما أقضى ..

وانطلق بعربته . قبل أن يصل إلى باب العمارة ..

في الصباح طلبت جريدة الأيام وسألت عن يوسف . سمعت صوته :

- الو ..

لم أرد عليه ..

- الو .. الو ..

واقفلت السكة ..

وأسرت القروس ، وطلبت محمد ناجي في سيفونه الخاص ، وجاخي

صوته ..

- الو ..

- أنت فاكروني ..

●●

وتعددت مكالماتي مع محمد ناجي ، واستطعت أن أسيطر عليه ، وأجعله ينتظرني في شوق ، ويتلفف إلى الحديث معي لفترات طويلة ، وكأن لا عمل له سوى الحديث معي ، وكان إذا دق جرس التلفون الآخر في مكتبه ، يطلب مني أن أنتظر ، ويتحدث مع وزراء في السياسة . ويتحدث مع مليونيرات ، كان صديقه المليونير شهدي باشا يتصل به فيروي له محمد ناجي الأخبار والفكك والتشبيعات ، وكانت سيدات تتصل به وأشعر أنه يستمع إلى فضائح بيرونها

له ، وكان يتصل بالطبعة وبالحررين الذي يسفونه الأخبار ، الدنيا كلها كانت تتصل به ، والأخبار كلها تصرع إليه وهو جالس في مكتبه ، وأنا على الطرف الآخر من تلفونه الخاص أصمت في مصول وأسمع بعض ما يقول ويفوتني الكثير مما يهمس به فأشعر بأنه يعيش حياة باهرة مثيرة ، وأشعرين هو كبير لأنه يهتم بالحديث معي أكثر من اهتمامه بكل هؤلاء الذين يعرفونه .

سألت مرة عن عدد التليفونات التي في مكتبه فقال بسرعة :

- أربعة ..

ثم عاد وقال :

- خمسة .

فضحكت قائلة :

- أنت موش عارف عدد التليفونات التي في مكتبك ..

فقال في خجل ، وهو أحياناً يخجل بغير مناسبة :

- والله ما عدتهمش أبداً ..

أحياناً كنت أسمعته يتحدث مع يوسف ، أسمعته يناديه ، أو يطلب منه أن ينشر خبراً عن عبد الوهاب ، أو يقول له إن أم كلثوم غاضبة من كلام قراته في الجريدة ، فتتناهني رجفة ، وأقاوم رغبة مجنونة في أن أقول له إنني أعرف يوسف وأساؤه عنه .

كان محمد ناجي قد اقنع بأني زوجة فاشلة في زواجها ، وكنت أخترع له كل يوم خناقة جديدة مع زوجي ، فأشكوه بخله وغيباه وحيوانيته ، وحدث بعد تلك الليلة التي قضيتها في بيت أنور سامي ، أن قرأت في جريدة الأيام أن أنور طار إلى بيروت ، وأدهشني الخبر ، ولكي تذكرت أنني سألته ليلتها متى سيتصل بي فقال غاضباً : لما أقضى .

بعد أن قرأت الخبر اتصلت بمحمد ناجي ورويت له ما حدث بيني وبين أنور على أنه وقع بيني وبين زوجي بالأمس ، قلت له إنه وحش ولم أعد أطيق الطريقة التي يحبني بها ، كل ما يهمه هو جسدي ينال منه ما يريد ثم يهملني ، لا يقول لي كلمة حلوة ، ألفاظه بديهة جارحة ، وإنه عاد بالأمس فطلبت منه أن

نذهب إلى السينما أو نشاؤل عشاءنا في مكان فرقص فيه ، فرفض وادعى أنه متعب ثم قال لي إنه جائع مأكّل ، وظننت أنه سينام ، ولكنه هجم عليّ في قسوة يريد أيفترسني ، ثم عط في ثومه ، وتركني مذعورة من بشاعته .

استمع إلّو باهتمام ، وسألني عن كل التفاصيل ، كيف قيلتي ، ما الذي أحسست به بحوه ، نوع قميص النوم الذي كنت ارتديه .. سألني عن كل شيء .. حتى كدت أسيّ أني أروي له ما حدث لي مع أنور منذ أيام ، وإنّى متروجة فعلاً .

وسألني : - هو جوزك أصله إيه ، فلاح ، قلت : أبدأ

- باين عليه كان محروم وهو صغير .. عنده كبت .. قلت متظاهرة بالفضب :

- عمره ما كان محروم .. هو الل كده .. - أعوذ بالله ..

فقلت ثائرة :

- قرفلني من الرجالة ..

فضحك قائلاً :

- لا .. أنا لازم أدافع عن سمعتنا ..

قلت لأغيظه .

- لو خنته موش ح يكون معاك ..

فصاح .

- ليه باه ..

- كده ..

- رح تختاري مين ..

- شاب صغير

فقال منفعلاً وقد صدقني .

- ح يتصرف معاك يي العن من حورك . كلهم محرومين ومتوحشين ..

ثم صاح في خوف .

- أوعى تعملي الخططة دي .. تصدمني ..

قلت ساخرة

- حتى لو كان معاك ؟

- لا .. دي ما تبقاش خيانة ..

- امل يبقى اسمها إيه .

- تبقى علاج نفسياني ..

كان ماكراً ، يحاول أن يتسلل إلّو بطريقة لبقّة ، وكان يصمم على رؤيتي فاراوغه ، ولكنني لا أجعله ييأس أبداً ، وكنت أرسم له بخيالي صورة زوج وهو مزيج من أنور سامي وعمي محمود ، استرحت لهذه الصورة ، واسترحت لأن أوجه إليهما شتائمى وثورتى ، وكنت أنظر إلى عمي محمود بعد أن أفرغ من حديثي مع محمد ناجي فأشعر برغبة في الضحك .. وتعرّبي لحظات سعيدة .

قال لي محمد ناجي ذات مرة :

- أنا لازم لشوفك النهاردة

- اشبعنى النهاردة ..

- عايزك ضروري .. ح أقولك فكرة قصة جديدة .. عايز أعرف رأيك فيها ..

قلت في لهفة .

- القصة عنى .

- أيوه .

- أنت بتضحك علّو

فصاح غاضباً :

- يعني ما فيش منك أي فائدة ..

قلت متراجعة

- أنا خايقة ..

- خايقة من إيه ..

- لوحد شافني داخلّة الجربال وقال لجوزي .

- وبين قال إني ح أشوقك في الجرنال ..

- ح تشوقني في ..

- في بيتي ..

- اللي في الزمالك ..

- لا .. عمدي بيت ثاني ما حدش بيعرفه .. في شارع ماسبيرو ..

ثم أرفف قائلاً ببساطة :

- الساعة أربعة كويس ..

- بس ح أقول لجوزي إيه .

فصاح :

- يعني موش ناقص إلا دي موش قادرة عليها .. سنالك ما بتوجهكيش ..

ما بتروحيش للكوافير .. وما بتزوريش واحدة صالحتك ..

- ماتقول لي القصة في التليفون .

صاح في ضيق

- ما ينفمش .. ثم ده سر .. موش عايز حد يدخل على وأنا بأحكيتك ويعرف

إني باستشير حد في قصتي .

- ابقى اسكت لو دخل عليك حد ..

- يا ستي ما ينفمش .. احكيتك القصة بالقطاعي . تفقد تأثيرها .. ثم أنا

عايز أعرف بعض التفاصيل منك ..

كان الإغراء كبيراً ، تخيلت قصة يكتبها محمد ناجي هني . ثم أمثلها في

السينما ..

لهمست :

- طيب . أنا ح آجي .. الساعة أربعة بالضبط ..

قال في فرح .

- أنا مستنيكي ..

ووصف لي العمارة ، ورقم الشقة .. سأركب المصعد إلى الدور الخامس ،

واتجه إلى اليسار حتى نهاية الممر ، وأضغط على زر الشقة ٥٤ .

واسرعت إلى حجرتي ، وأعلقت على الباب ، وأما أشعر ببرودة في أطرافي ،

كانت تجريرتي مع أنور ما زالت تفرغني ، إنه أنور آخر ، أنور في أسلوب ناعم ،

ولكنه أنور ، لن يتزوجني ، إنه أوشك على الخمسين من عمره ، عحور ، حديثه

عذب ولطيف ، ولكن هل أحتمل أكثر من هذا ، هل أستطيع أن أتركه يقبلني ..

لو علم أنني صامية سلمى الممثلة .. ولست الروجة التي تخون زوجها . لن

يصاب بخيبة أمل ، لن يتهمني بأنني خدعته ، ربما حاربي ، وانتقم مني

لهذا السبب وحده .

تزايدت مخاوتي ، فأسرعت إلى التليفون ، واعتذرت له بأن زوجي رفض

خروجي .. فلم يصدقني ، فحاولت أن أداعبه فقلت له ضاحكة .

- أنت عارف .. الدكتور كتب لي في الروشة قرص فيتامين ، وحبه مهدئة

للأعصاب قبل النوم . ومكالمتين تليفون معاك واحدة الصبح واحدة

بالليل .. وبس

قال في ضيق .

- والدكتور العبقري ده ما وصفش لكى إنك تقبليني

- لا .. قال لي كلميه وبس .. واستعمليه بحد ..

- ليه .

- قال لو استعملته كتير ح .. أدمن عليك .

فصاح

- وأنا دكتور الأعصاب بتاعي قال لي ما تكلمش واحدة ما تعرفهاش ..

قلت في لسي :

- خسارة ..

قال بعصية :

- أوفوفوف ..

وأغلق سماعة التليفون .

بعد خمس دقائق كنت أطلبه من حديد واعتذرله .. ووعدته بأنني سأراه قريباً ،

ولكنني طلبت منه أن يعيطني قليلاً ، استسلم ، واعتذر لي عن غضبه المفاجئ ..

وشعرت بأنه مرح كالطفل لما كلمته .. إنه على عكس أنور تماماً مهذب ، ألفاظه باعثة رقيقة ، ناجي يريد نفس الشيء الذي يريده أنور ، ولكن بأسلوب آخر ، أسلوب لمق لا يجرح ولا يخدش ، كان يشعرني أحياناً بأنه أجرامته ، وإنه خجول جداً .

فوجدت صباح يوم ، وأنا أقرأ جريدة الأيام ، أن محمد ناجي قد كتب في يومياته حواراً دار بيننا ..

« اتصلت بي تشكو زوجها » قالت

- زوجي هيوان ..

قلت : ليه ؟

قالت :

- يريد قتل روحي .. ولا يعترف إلا بجسدي .

قلت :

كثيرات قلن لي زوجي يقتل جسدي ، لا يعترف إلا بروحي .

قرأت الحوار بسرعة ، حتى وصلت إلى نهايته ، فوجدته ينصح الزوجة بكلام فارغ مضحك .. ينصحها بالصبر وبأن تكون عاقلة . والا ترتكب شيئاً تندم عليه ..

وكلمته ..

- إيه يا استاذ الى أنت كاتب النهاردة في اليوميات ..

- هيه .. قريتيه

ضحكت من قلبي :

- أنا مت على روحي من الضحك . بقيت أقول اه التي بيقرأوا يعرفوا الحقيقة .. حقيقة إيه .

- إنك بصحت الزوجة بأنها تيجي تتعالج عندك .. والا تقرأها قصة .. فصحك :

- بعدين كلهم ييجوا .. ما اقتدرش عليهم ..

إنه مغرور مثل أنور ، ولكن غروره محتمل ..

وسمعت جرس التليفون يدق في مكتبه ، ثم سمعته يتكلم ..
- الو .. أبوه يا يوسف . طيب نزل المطبعة وبعدين أشوفه .. أما مشغول بلوقت ..

ثم صرخ في حده :

- الولد دهما تتزولوش أحبار .. أنت شفت الخبر اللي نزل النهاردة عن شهدي باشا .. أنا ح أرغده .. ح أوديه في داهية .. ده شيوعي .. بلغ عنه الماحث .. بعدين ابقى فكروني أبعتك لشهدي باشا تعمل معاه حديث ..

قلت له بعد أن فرغ من الصباح :

- ياساير .. ده أنت صعب خالص .. إيه الزعيق ده ..

فقال في صوت رقيق كأنه لم يزعل في حياته أبداً :

- محررين نصابين . حرامية .. شيوعيين .. شهدي باشا صديقي ويتشتم في جرنالي .. ده معقول ..

قلت ساخرة :

- لو كنت أنا شيوعية تبلغ عني البوابيس ..

قال ضاحكاً :

- لا .. ابقى شيوعي ..

ثم سألني في خوف مفاجئ :

- أنت شيوعية صحيح .

قلت وقد خفت أنا أيضاً .

- هيه الشيوعية دي تمس إيه ..

- ما تدوشيش دماغك بالحجج دي ..

فسألته في مراءة :

- مومين يوسف اللي كنت متكلمه

سواحد بيتخل هنا ..

قلت في غير اكتراث :

- وده موش حرامي كلمن ..

قال لحد دلوقتي موش باين عليه ..

قلت ضاحكة

- بكرة يتعلم ..

وسألته فجأة :

- الحب أهم والا الحنان ..

- إيه اللي خلاكي تسألني السؤال ده ..

- عايره اعرف ..

- الحب طبعاً

- خسارة ..

عليه

- انا مابلدوروش على الحب .. عايزة حنان ..

- ليه .. انتي عيانة .. العيانيين هم اللي بيفكروا في الحنان .. والا يمكن شكك

وحش ..

- ياريتني عيانة .. والا وحشة .. والا لقي حنان ..

فاستدرك قائلاً في حيرة

- انت عايزة حنان صحيح

- أيوه .. بادور عليه موش لاقياه ..

- تعالى شو فيني .. وأنا أدكي كل الحنان اللي انتي عايزة ..

- ح تديهر لي إزاي ..

- بس تعالى ..

- لا .. موش ح الاقيه عندك ..

وكدت أبكي .. وهولا يدري اني أكاد أبكي ..

قال في حرارة :

- اسمعي .. صحيح أنا نفسي اكتب قصة عنك .. موش ممكن اعرفك أكثر من

كده ..

- أنا دلوقت موش عايره قصة .. أنا عايزة حنان ..

بعد حديثي معه ، حاولت أن أتخلص من رغتي في البكاء ، فبحثت عن جريدة
الأيام لأقرأ الخبر المكتوب عن شهدي باشا ، كنت أريد أن أقرأ الشتيمة التي
أثارته ، ولكني قرأت وقرأت ، وبحثت في كل صفحة وفي كل سطر ، ولم أعثر على
شيء ، وكدت أجن ، وأخيراً أذهقت بالجريدة يائسة .

وفكرت في الاتصال بيوسف ، ثم عدلت ، كنت قد سألت عنه مرتين ، وفي كل مرة
كان عامل التليفون يسألني عن اسمي فأقول له :

- قوله واحدة عايزاه ..

فيجيبني في حدة :

- موش موجود ..

وكنت أعلم أنه موجود بالجريدة ، إذ أكون قد سمعت محمد ناجي وهو يحدث
فيتملكني الغيظ وأقسم ألا اتصل به ، والا أراه ، والا أفكر فيه ، ثم أعود وأقول
لنفسى إنه معذور ، لأنه لا يعلم أنني التي طلبته واكتشف أنني أفكر في الاتصال به من
جديد ..

ولكن أعود وأتردد .. أخاف لو قلت اسمي لعامل التليفون ، ثم سمعت نفس
الإجابة « موش موجود » ، عندئذ سأناكد من أنه لا يريد أن يحدثني ، وإنه يتهرب
مني ، وهذا شيء فظيع لن أحتمله .

أنا لا أطيق أن يعاملني أحد بجفاء ، لا أطيق أن أتصور أنني غير مرغوبة ،
أو أن أحداً لا يريدني ، أفضل أن أموت ولا أواجه هذا يوماً ما .. ماذا يبقى لي لو
أصبحت غير مرغوبة .. لا شيء ..

وبيوسف يمثل لي هذا الخطر ، هو الوحيد الذي يندرنى بأن هناك في هذه الدنيا
رجالاً أسيولون لي ظهورهم ، ويتجاهلونني ، ولن يفكروا في الاهتمام بي ، ولن يفلح
جمالي في السيطرة عليهم .

قلت لندحت ونحن نشرب البيرة في الكافتيريا :

- ما شفقت صاحبك ..

- صاحبي مين ..

قلت في غيظ لأنه اضطرنى إلى ذكر اسمه :

-يوسف-

قال في غير اكتراث .

-كل ما أسأل عنه ألقيه مشغول ..

-بيحب

-يمكن

-لازم بيحب .

قال هارثاً

-كل الناس عندك لازم يتحب ..

قلت في عباد :

-هو قلالي إنه بيحب واحدة متجوزة .

-امتي قال لك .

-واحدنا في النادي ..

قال في دهشة :

-غريبة .. إزاي ما قلليش .

-أمال صاحبك إزاي ..

قال مدحت وقد تحولت دهشته إلى حيرة :

-ودي حبها امتي ..

-من زمان .. من قبل ما تتجوز ..

ثم هتفت وقد خيل إلى أني اكتشفت السر

-أه .. أنا عرفت .. لازم حب الخدمة اللي اتجوزت أبوه ..

فصاح مدحت وقد ضاقت عيها :

-واشه يمكن .. معقول ..

قلت في ثقة :

-ما قيش غيرها .. هي اسمها كان إيه ..

-مبروكة

وانفعل مدحت بالنبا فقصصا بقية الليل ونحن نؤكد لأنفسنا أن يوسف أحب

مبروكة الخادمة التي تزوجها أبوه .. واسرفنا في شرب البيرة . فزاد انفعالنا بما

نقول وصاح مدحت فجأة .

-معنى كدة إنه بيحسوها دلوقت ..

قلت مؤكدة

- ضروري .. وأنت موش نريان .. شكلها إيه مبروكة ..

قال وقد رجع رأسه إلى الوراء محاولاً أن يتذكر :

-بنت جسمها مليون شموية إما مشر .. حلقوري .. ولها عنين واسعين ..

سود .. وكانت حلوة .. ما قيش فيها عيب إلا أيديها ورجليها .

ومطشفتي قائلأ

-كانوا مقشفين .

قلت له في غيظ

-وحضرتك بأه كنت بتحبها .

فضحك في استخفاف وقال :

-ده كان زمان ..

ثم صاح مدافعاً عن نفسه :

-ما أنا قلت لك .. موش فاكدة يوم ما قابلنا يوسف أول مرة ..

قلت في اشمزاز

-وكانت بتستعمل القشف اللي في أيديها ورجليها إزاي ..

فاحتار ثم قل في بلامه

-الحقيقة .. مبروكة دي .. عمرها ما خلقتني أحس إنها خدامة .. ولا حتى

عندها قشف .. تلاقيها فيه نفسها ما كيتش حاسة بيه .. كانت دايماً شايقة

نفسها .. وزوي ما تكون واحدة قريبتنا من بعيد ..

قلت ساخرة :

-قرايكم بالمشكل ده ..

قال بسرعة .

- لازم تتسوق فيها علشان تعرفي اللي أنا بقوله ..

قلت في حدة

- تغور . وأنا أشوف حته واحدة خدامة لا طلعت ولا تزلت ليه .

وكنيت في قرارة نفسي أتمنى أن أراها ، بل كان يضايقني أنني أشعر بغيرة نحوها ..

وعدت إلى التفكير في الاتصال بيوسف . إذ ألهم أراه مع مدحت خلال اليومين القادمين ، فلأبد أن اتصل به .. أيتجاهلني هذا الأحمق ، لأنه يحب خادمة .. لو كان هذا صحيحاً فسأفضحه .. سأواجهه بكل ما أعرف .. علشق الخدامات .. ومضى اليومان ، ولم أرى يوسف وقال لي مدحت إنه سأل أمه عن مبروكة وأين ذهبت .. وعن صلتها الآن بيوسف ، فقالت له إن مبروكة قد جاءت تزورها في البيت ، وشكت لها يوسف لأنه لا يعطيها نقوداً ، فأعطتها جنيهات وانصرفت . قلت له :

- وصدقت ..

قال متردداً :

- لو كان يوسف معاه ما كانتش جت تشمت ..

فصحت هازئة من تفكيره :

- دي حركات بتعملها علشان ما حدش يعرف إنها عايشة معاه ..

وخطر لي أن أكلم محمد ناجي في التليفون وأقول له كل ما أعرفه عن يوسف . قاومت هذه الرغبة بشدة ، شعرت أنني سأرتكب خطأ ، وجعلت أقنع نفسي بأن كل هذا لا يحليني .. ولا شأن لي بيوسف .. سواء أحب أميرة أو أحب خادمة .. ورغم ذلك وجدتني أقول لمحمد ناجي كل شيء ..

قلت له :

- موش عرفت حكاية غريبة عن الراحل اللي عندك ..

- راجل مين ..

- اللي موش حرامي ..

- قصديك مين ..

- يوسف ..

- اه .. ماله .

- واحدة صاحبتني قالت لي إنه بيحب خدامة كان متجوزها أبوه . ولما أنوه مات عاش معاهما ..

فسألتني في غير تصديق :

- إيه الكلام ده .. مين اللي قال لك ؟

- واحدة صاحبتني .. والخدامة اسمها مبروكة ..

- موش معقول ..

- طيب أسأله ..

- صاح في استنكار .

- وأسأله إزاي بس ..

قلت بصوت حاد :

- على العموم .. لازم تعرف الناس بتقول إيه ..

لم أشعر بحقارتني يوماً ما .. مثلما شعرت بها ذلك اليوم ، وقفت أمام المرأة في غرفتي أنظر في وجهي في غضب ، ألعن نفسي ، وألطم على وجهي في غل ، ولم أتم ليأتي .. وفي الصباح أمسكت بالتليفون وسألت عن يوسف ..

سألني عامل التليفون عن اسمي . فقلت له وأنا أضغ أصبعي في فمي ليتغير صوتي

- مبروكة ..

فصاح العامل

- ميا ستي قلت لك ميت مرة إنه موش موجود .

وأغلق السكة في وجهي

إذن قيوسف يقطع مبروكة . لماذا ما الذي يجعله يقطعها ويتهرب منها يوسف إنسان طيب خجول ، فلماذا أيرفض الحديث مع زوجة أبيه . إلا لسبب

خطير . لأنه يخاصمها . لأنه على علاقة معها ثم تشاجرا .

وطلبت يوسف من جديد وقتت للعمل .

- الاستاذ يوسف موجود .. قل له من فضلك .. سامية سامي .

وفي لحظة كان يوسف يهتم في مرح غير عادي .. وحرارة لم أتوقعها ..

- اهلا .. اهلا .. أنت فين .. وحشتيني ياسامية ..

مضى أسيرج ، ربما أكثر ، وأنا اتصل بيوسف كل صباح ، وأسمع تلك

السيرة الحسنة في صوته وهو يهتم في مرح « ازيك ياسامية » .. أحببت اسمي

الجديد وهو يناديني به ، واسترحت لصوته ، كان يسئل إلى صدرى ،

يهدئنى . يغسلنى .. يهدئنى .

وكنت بعد أن أكلته أشعر بالمرارة ، كيف خدعت هذا الصوت

الحنون .. أنا التي تبحث عن أى شيء حنون . أى شيء نفسى جعلنى أقول

لمحمد ناجى عن علاقة يوسف بمبروكة .. أهو يعلم .. هو يعلم إنى جرحت ،

وإن الدم ينزف منه وهو لا يدري ..

يجب أن أصنع شيئاً من أجل يوسف ، يجب أن أكثر عن ذنبى ، سأظل

أكلته وأكلته حتى تجرء اللحظة التي أشعر فيها بأنى لست شريرة .. لابد

أن أثبت لنفسى أنى لست شريرة ، لقد فقدت عقلى لأنه لم يهتم بى . ولكن ..

كيف يهتم بى .. ألم يبشر اسمى ، ألم يبشر صورتى ، أكان لابد أن يهتم

بجمالى ، أن يغازلنى ، أن يطلب الثمن مثل أنور سامى ، إنه ليس مثل أنور ،

وليس مثل محمد ناجى إنه طيب ، ساذج ، حنون ، إنه يحترمنى ، صوته

المرح الحنون ، كلامه المرح الحنون ، يؤكدان لى إنه يحترمنى ، به يعاملنى

كما لو كنت شقيقته أو أخته ..

هذا شيء مصحك .. هل كنت أتصور أن هناك رجلاً واحداً في هذه الدنيا يعاملنى كما لو كنت شقيقته أو ابنته .. ربما لأنه يحب واحدة غيرة .. لأنه يحب مبروكة .. حرام .. إن طبيته هى التى جعلته يقع في حب خادمة ، سأساعده ، سأنتشله من هذا الحب الحقيق ، لا بد أن أخلصه من حبه لمبروكة ..

كنت أحدثه بصوت رقيق ، لم أعد أسخر منه أو اتحداه ، بل لم أعد أستطيع أن أضحك وأنا أكلمه .. أصبحت أشعر بطمأنينة غريبة وأنا أسمع صوته ، طمأنينة لا يعكرها شيء ، وأتمنى ألا يعكرها شيء . وكنت أقول له بصوت خافت حالم :

- ازيك أنت .. عامل إيه .. لازم تاخذ بالك من نفسك .. علشان خاطرى .. كنت فين امبارح .. نمت الساعة كام .. أنت بتشتغل كثير يا يوسف ..

كنت أعيش معه عشر دقائق كل يوم ، استسلم بعدها لوخم لذيذ ، وأسرح في لا شيء ، وأحياناً أقمض عيني وأكاد أنام .. ثم انتبه لنفسي فأنسى يوسف ، وأنسى ما كنت فيه ، فاتصل بمحمد ناجي ، وأقابل مدحت وأعود إلى أفكاري وحياتى التى تعودت عليها ..

لم أكن كاذبة فيما أقول ، ولا متصنعة ، كنت أشعر حقيقة أنه يجب أن يستريح ، وأن يحافظ على نفسه ، أقنعت نفسي بأنى مسئولة عنه ..

لم يطلب منى يوسف أن يقابلنى .. لم يطلب منى أى شيء ، وشعرت أنه يفسر اتصالى به برغبته في معرفة أخبار السيما ، وأخبرنى أنا بالذات .. فكان يعدنى عن الشركة الجديدة للإنتاج بين حلمى كامل وأنور سامى .. وقال لى إنه سمع من حلمى أنه سيكتب معى عقداً لثلاثة أفلام ، وأنه ينتظر عودة أنور من بيروت ليأتى لى في البيت ويوقع معى العقد ..

سألته

- تفكر ح يدفعولى كام

- ما اعرفش .. إنما لازم ح يصحكوا عليكى ..

- اخص عليك .. ح تسيهم يصحكوا على ..

قال بصوت جاد

- علهش .. المهم أنك تطهرى الأول ..

- يعنى أرضى بأى حاجة ..

- أيوه ..

- أنت مستشار موش فامع ..

- ماتفكرش بلوقت في الفلوس

- وأنت ماتفكرش في الفلوس ..

- أبدأ .. أنا بأشتغل

فبيضطروا يزودوا مرتبى ..

- تفكر أنا ح أبقي ممثلة كبيرة ؟

- طبعاً ..

- وانت ح تبقى صغفى كبير ..

- يمكن ..

- احنا الاثنين ح نجبر مع بعض ، موش كده ..

- فضحك قائلاً :

- انت ح تسبقينى ..

قلت محتجة

ليه .. أنت بتشتغل كثير

خيل لى أنه غير طموح ، ربما لأنه يحب خادمة ، إنها لن تفكر في دفعه ، لن تحركه ، إنها ليست مثلى . تفكر في أن تكون لها فيلاً فضة وسيارة فضة ، لو كنت أحبه لجعلته لا يهدأ حتى يصبح أحسن الناس وأعنى الناس ، لجعلته أحسن من مدحت ، وعنده عربة أكبر من عربته ..

كان الأستاذ حلمى كامل قد انقطع عن البيت ، وكانت أمى كلما تذكرته تشتتته وتقول عنه أنه نصاب ، إذ هرب منا بعد أن طالبناه مكتابة العقد ، وحاولت أن أطمئن أمى بعد ما سمعته من يوسف ، ولكنها رفضت أن

تصدقني ، إلى أن اتصل بما الأستاذ حلمي صباح يوم وقال إنه قادم معه
العقد .

قلت ليوسف

- أنا ح أمضى العقد المهادرة .

- مبروك ح انشرك للخبر بكرة ..

- أما خايفة من ماما ..

- ليه

- تتخافق على الفلوس ..

قال ضاحكاً

- خديها تتخافق .. فيمكن تاخدي فلوس أكثر ..

- وإن مارضييش الأستاذ حلمي

- أمضى العقد ..

- ولو ماما عندت ..

- تفكرى .. لهماها إن ده في مصلحتك ..

كنت أعترف له أن أمي لا يهمها شيء سوى النقود ، ثم عدلت واخفيت عنه
قلبي ..

وجاء الأستاذ حلمي ، فجلس يتحدث مع أمي دون أن يلتفتا إلي ، قال إنه
سيدفع مائة جنيه ، فصرخت أمي رافضة ، وسأومته ، وأنا صامته كنسى
بضاعة .. قطعة قماش يتجاذبها الشاري والبائع ، وقال حلمي أخيراً بصوت
حاسم خفق له قلبي

- ما أقدرش أدفع أكثر من كده ، دي مبتدئة .. لسة حام .. ح تكلفني
كثير .. أنا باحاراف معاه ..
فصاحت أمي تتعداه

- يعنى احنا اللي موش باحاراف ياسى حلمي .. هيه بسيطة لما يقولوا عليها
معتلة .. مين ح يتجوز بنتى .. أنت بتجازف بفلوسك .. واحنا بنجازف
بسمعتنا ياسى حلمي

فضحك ساخراً وقال :

- هتوفيه حد بيتجوز يا ست نعمات غير المثلث في الأيام دي . سمعتها
إيه .. كفاية الدعاية اللي ح نعملها لها . دي عايزه دعاية بعشرة آلاف جنيه ..
وأخرج شيكاً ومد يده إلى أمي ، فأحتفظته منه ، وبظرت فيه ثم صرخت :
- خمسين جنيه .. أنا أخسرهم في ليلة يا استاذ ..
ولكنها أخذت الشيك ..

قلت لها بعد انصراف حلمي :

- ماما .. أديني الشيك .. فصبوت إلى نظرة حادة وشحطت :

- عايزاه ليه ؟

- الشيك ده بتاعى ..

- أخرسى .

- أنا عايزه فلوسى .

- فلوسك ياقليلة الأدب .. امشى من قدامى ..

- هاتى فلوسى .. وأنا سائبالك البيت ..

- روحى مطرح ما تروحي وما فيش فلوس ..

وجاءت إنصاف على صوت صراخنا .. وحاولت أن تهدثنى ، فقلت لها وأنا
أبكي : إن أمي سرقتنى .. وسمعت صوت عمي محمود يقول معاتباً
- عيب تقولى لماما الكلام ده .. فأنفجرت فيه :
- أنت مالك .. هيه دي فلوسك .. والا عايز ماما تصرفها عليك .. فأسرع
بالخروج من الحجرة وهو يتمتم في ذلة
- الله يسامحك .. دي آخره ترويتي فيكى ..
فصرخت كالجنونة :

- أنت ماريتنيش .. اللي رمانى مايا .. أنا عايزه أموت زيك يا بابا . أنا
عايزه أموت زيك يا بابا .
كنت محاصرة بعيونهم ، بجشعهم ودمست رأسي في الوسادة أبلىها

بدموعى ، وأعجب من ذلك الصوت الذى يهمس فى داخلى ، ويلج على أن
أتصل بيوسف

بعد قليل ، نهضت من السرير وأمسكت بالتليفون وطلبت يوسف .

- ريك ياسامية .. عملتى إيه ؟ ..

- خلاص مضيت العقد ..

- ألف مبروك .. مبسوطة ..

- فيه حاجة مهمة عايزه أقولها لك ..

- إيه ؟

- اسمع .. أنت لما فى دلوقت ؟

- ايوه . قولى ..

- موش ح أقدر أتكلم فى التليفون ممكن أشوفك ؟

- ااا . طبعاً .. أنا تحت أمرك

أحسست بارتباك ، ولكنى كنت مصممة على رؤيته ، شعرت أنه الوحيد
الذى ساستريح معه .

- أقدر أشوفك دلوقت ؟ ..

- تيجى لى هنا ..

- أشوفك بره أحسن ..

- هين ؟ ..

- قول أنت ..

قال متردداً

- فى جروبى المغربى ..

- ح أكون هناك بعد ساعة .. فى الجنينة .. أوعى ملقكش ..

- ح تلاقينى .. ماتحافيش .

- وحدته ينتظرنى فى ركن تحت شجرة بالحديقة ، حددت فيه وأنا أخطو

بحوه ، وكأنى أراه لأول مرة . كان يبتسم فى خجل ، بدلته تبدوا واسعة عليه ،

ورباط عنقه قبيح ، لا يعرف كيف يعقده ، وعندما وصلت إليه رأيت كتفه ملوثاً
ببقعة بيضاء سقطت من عصفور يعيش فى الشجرة ..

- العصافير وسخت مدلتك .. قاعد ليه هنا ..

فأخرج منديله ، وقد اختلط ارتبأك بهجته ، فأخذت منه المديل وبظفت
كتفه ، كانت شفتاه ترتعشان رعشة خفيفة ، وعيابه قنقن . جسداً وسط
الحديقة ، بين الناس ، وطلبنا الشئى والجاتوه .. وانتظرت أن يتكلم ، أن
يقول شيئاً ، أن يسألنى عن سبب رغبتى فى مقابلته ، ولكنه جعل يتلفت حوله
فى عصبية ، وحيات العرق تبل جبهته ، كان يتململ كأنه غير مستريح إلى
مقعده ، أو غير مستريح للقائى . وفتح فمه ، ثم أطلقه ، وفتح من جديد ، ثم
قال وقد خفض بصره

- ارى مدحت .

- كويس .

وعاد إلى صمته وقلقه ، لماذا يسألنى عن مدحت . يظن إننى أخون مدحت
لأنى أقابله بعده .. أهذا هو ما يفكر فيه .. لماذا أنسى دائماً أنه ساذج ، وأنه
طيب إلى حد البلاءة ..

- ما بتسألنيش ليه عايزه أشوفك ؟

همس :

- مستنى لما انتى تقولى ..

سألت فى غيظ

- تفكر عايزه أشوفك ليه ؟

- ما اعرفش ..

- متهيا لك إنى ببصيص لك .

نظر إلى فى زعرو كنت مائرة ، مازالت خباقة البيت تلهب رأسى .

- أنا بأقول لك عايزه أشوفك فى حاجة مهمة .. تقوم أول حاجة تسألنى

عنها .. هى مدحت ..

قال فى وجوم

- أنت مهمتى علط .

- لا .. أنا مهمك . وعارفه اللي بتعكر فيه .. أنت ماكرى واحدة بتلعب ..
تخرج مع أى واحد .

كانت عيناه تتوسلان إلیّ أن أكف عن الكلام ، أن أرحمه ولكنى مضيت
أتكلم بلا وعى ، وقد فقدت سيطرتى على نفسى
- أنت موش فاهم إيه اللي بينى وبين مدحت .. دى موضوع صداقة ..
مفيش بيننا حاجة أبدا هره قال لك حاجة غير كده ؟

همس :

- لا

- إذا كان قال لك حاجة تانية يبقى كذاب .. وموش ح شوفه بعد كده
أبدا ..

هز رأسه . ثم ثبت عينيه فى وجهى . وشعرت أن ثغيراً مفاجئاً قد طرأ
عليه ، كان متماسكاً يشع من عينيه حنان جارف ، وسألنى بصوت خفيض
ولكنه ملء بالثقة :

- أنت مالك .. فيه حاجة مزعلاكى ؟
كدت أرتعى عليه ، وأبكي على صدره أمام الناس ، لقد أحس بى ، فهمنى
استطاع أن ينفذ وراء ثورتى وكلامى الغاضب ، وواجهنى بالحنان الذى يشع
من عينيه ..

- أنا متأسفة يا يوسف .. قلت لك كلام سخيف ..

- ولا يهمك ..

- أنا متلخطة ..

- قوليلى إيه اللي حصل ..

ماذا أقول له ، إن شجارى مع أمى لا معنى له الآن ، لم أعد أفكر فى
النقود ، لا أريد نقوداً ، يكفينى هذا الحنان الذى يشع من عينيه ، لو كان كل
الناس مثل يوسف ، لاسترحمت .. أنا أشعري بالراحة الآن ، وأشعري بالخيال ..

- ٣١٠ -

- كنت عايزه أعرف رأيك . اشتغل فى السيما والا ما اشتغلش ؟
ضحك

- أنت غريبة .. بتفكرى بعد ما مضيتى العقد ..

ثم قال بسرعة وعلى وجهه علامات الجهد

- لكن أنا فاهم كويس شعورك .. ده نفس اللي حصلنى يوم ما اتعينت فى
الأيام ..

وانحنى بجسمه على المضدة التى تفصل بيننا ، وشبك أصابعه ، وددت
لو كانت يدي بين يديه .. وقال :

- الواحد وهوو بره بيحلم .. بيتخيل حاجات كتيرة .. لكن أول ما يدخل
الشغل .. خلاص .. مفيش أحلام .. هيه شغل وبس ..

- السيما موش زى الصحافة .

- كله شغل ..

- معندكوش واحد زى أنور سامى ..

نظر إلیّ فى غير فهم .. كنت قد قررت أن أحكى له ما حدث بينى وبين أنور ،
لن أدوى له كل التفاصيل .. سأكتفى بأن أقول له إنه يطاردنى ، وإنى خائفة
منه ، ولهذا جئت لأستشيريه ، ولأعرف رأيه هل استمر فى عمل أم أرفضه ..
- أنا عايزه أقول لك حاجة بس أوعى تقولها لحد ..

أطرق برأسه موافقاً .

- أحلف أنك موش ح تجيب السيرة دى تانى على لسانك ..

قالت عيناه إنه يقسم ..

قال فى رقة بالغة :

- متقوليش إن كنت خائفة منى .

- لا .. أنا واثقة فيك

وقلت له إن أتورك كلمى فى التليفون قبل سفره إلى بيروت ، وغارلنى ، وقال
إن مستقبلى فى السيما بيده ، لو استسلمت سيرفعنى ، لو رفضت سيقصى
عليّ .

- قلتيله إيه ؟

- شتمته

- فلمعت عيابه ، وزهر هواء كان يحسسه في صدره .

- لكن أنا حايفة . تفكر يعمل حاجة ؟

- ما تخافيش

- ده شريك الأستاذ حلمي .. قطب جبينه ، وقال غاضبا :

- فيه ألف منتج و... غيره ..

- لكن أنا مضيت معاهم عقد ..

- وخيل إني ان هذه المشكلة لم اخترعها ، شعرت أنها مشكلتي الحقيقية ،

هي التي كان يجب علي أن أفكر فيها ، وأخاف منها ، واستشعره في حلها

كيف لم أفكر في كل هذا حتى الآن .. كيف لا أدرك الخطر الذي أنا فيه ، إذ
عندما أبحث عن كذبة .. اخترعت كذبة بها حقيقة ..

- اسمعي .. لو حصل منه أي حاجة قوليلي .. أنا ح أعرف أسكته .

- ح تعمل إيه ؟

- ح أعمل أي حاجة .. لكن تأكدي أنني ح أسكته ..

- هو ح يرجع من بيروت أمي ؟

- لقال في دهشة

- أنور . أنور في مصر من أول أمبارج ..

شعرت بخوف مفاجيء ، كان أنور سامعني ، وسيأتي ليضحك في

وقاحة .. ويصيح بأعلا صوته أنني أكذب . لقد وعدت أنور أن أعود إليه ،

وربما كان يتصل بي الآن في البيت ، يطالبني بما وعدته به . هل أستطيع أن

أقاومه ، هل يستطيع يوسف أن ينقذني منه ، أنا خائفة من نفسي ، ماذا بي ،

كأنني لست أنا ، أنا لست سامية التي قابلت أنور وذهبت معه إلى شقته . أنا

سامية ثانية ، حائرة خائفة ، ولكني أشعر بالحنان .

- أنا ماشية بقي ..

- مدرى ..

- قلها في أسي .

- موش ح أقدر أتأخر .. لو صمم علي بقائي هسأبقى ، نتعشى معا

ونذهب إلى السينما ، ونامشي معه في الشوارع .. أريد أن أمشي معه في

الشوارع .. لا أريد أن أعود إلى البيت وأسمع صوت أنور في التليفون ..

- أنا كمان ورايا شغل ..

- لا فائدة .. سيتركني .. إنه ينظر في ساعته وينادي الجرسون .. بعد قليل

سأعود سامية الأولى .. هه .. أجبت ..

- ح تسهر قين بالنيل ؟

- في الجرنال ..

- بدمتك .

- والله صحيح .

- موش رايح هنا ولا هنا ..

- ياريت .

- والسبت المتجوزة ..

- مين ؟

- اللي بتحبها ..

- انتي لسه فأكرة

- يعني انت اللي نسيته

- أنت اللي بتفكريني بيها .

- يا شيخ . بص في عنيه . ما تكذبش . يعني خلاص ما بتحبهاش

- دلوقت . لا

- أيعني ما يقول .. أفهمت ما يقول .. أم فهمت ما أريد أن أفهمه .. أممكن

هذا .. أريد أن يقول لي إني أنسيته حبه ..

- قصصك إيه ؟!

- فاحمر وجهه ، وخفض بصره ، يريد أن يزوغ من الإحانة ، فالححت

- عليه .

- صحيح مصداق إيه .. يعنى إيه ما بتحبهاش دلوقت ؟
- قال مبهرت من سؤالى
- ولا حاجة . ما بقتش ناصى أفكارهيا .
- ضايقتنى إجابته ، وبهصا خارجين .. مالتنى وهو يودعنى
- ح تعمل إيه دلوقت ؟
- ح أعمل إيه . ولا حاجة .. ح أعمل سامية .
- واندمعت مبتعدة عنه ..
- فى الصباح كلمته فى التليفون
- قورلى .. الكرافتة التى انت لابسها لونها إيه ؟
- بتسالى إيه ؟
- بس قول لى .
- لونها رمادى منقط بأبيض .
- والبدة ؟
- مالها
- لونها إيه ؟
- رمادى ..
- ارعى تكون البدة التى كنت لابسها أمبارح ..
- أيوه هيه .
- أعوز باده .. ارميها .. دى واسعة عليك ومبهدة .. أنت مين الل
- بينقيلك كرافتلك ؟
- مفيش حد .. أنا .
- ذوقت موش عاجبنى .. تسمح لى أبقي أختارك كرهاتك . هدى ليس
- كرافتة رمادى عى بدله رمادى
- أما بالبس اللى بتطلع فى ايدى
- لا .. أنا ما أحبش الراحل الل موش شيك ..
- هو أنا ح أمثل فى السينما .

- لا .. لازم تبقى شيك .. أنت شكك حلو ..
- أشكرك ..
- والله صحيح .. ممكن تبقى أشيك من كده بكثير .. هى الل كنت بتحدها
- ذوقها إيه .. ماقلتكش ازاي تلبس .
- ماكتش يهملها .. كانت بتشوعنى ألبس أى حاجة ..
- طبعاً .. موش ..
- ووقفت الكلمة فى حلقى .. كنت أقول له « موش خدامة » .. بالمعصيبة ،
- يجب أن أكون أكثر حذراً فى الكلام .
- موش إيه ؟
- بلدى .
- أبداً .. دى من عيه ..
- كذاب .
- والله بنت ناس أغيا ..
- بلاش نصب .. بس بس .. أنا ما أحبش أسمعك بتكذب ..
- أنا اللى تكذب .. كنت سعيدة لأنه يكذب ، لأنه يدعى أن مبروكة بنت
- ناس .. إنه يخجل منها .. سأعلمه كيف يخجل منها .. سأعلمه كيف يخجل
- منها أكثر وأكثر ..



- أنت شفتى يوسف امضى ..
- من يومى ..
- ومقلتلش ليه ..
- لازم أقول لك كل حاجة .. كنت عاجزاه فى شغل .
- شغل إيه ..
- السيفما ..
- كان مدحت يستجوبنى ، وقد بدا عليه الضيق ، وامتلأ صوته بالشك
- « والريبة ، صوب إلى نظرات سريعة غاضبة ، ثم التفت إلى الطريق .. وتقدم

بالعربة في مطء ، باحثا عن منطقة مظلمة في الشارع لنقف فيها .

- كنتم تتكلموا في الشغل والا في حاجة ثانية .

أطلقت ضحكة عالية ساخرة

- لا والى إيه .. أبوه كنا بتكلم في حاجة ثانية ..

وقفت العربة تحت شجرة كثيفة بالقرب منها بوابة من أغصان الشجر
تفصى إلى سلام حجرى ترسو في أسفله عوامة مهجورة ، كانت الرطوبة ثقيلة ،
تكلم أنفاسي ، والهرجهم ، والمثل يزهو روجي ..

رحبت بالشجار الذي سينشئ بيني وبين مدحت ، إنه أفضل من أن أتركه
يقبلنى ويعذبني يلعب أنفاسه .. ويلوئني بعرقه ..

- عى العموم هو قاللى

ونكس رأسه ، ونقر بأصابعه في عصبية على عجلة القيادة . إنه يتكلم في
ضعف وتردد على غير عادته .. ماذا قال له يوسف .. أقص عليه حكاية أنور ..
مستحيل

- فالك إيه باه ..

راح عينيه في بطم وحولهما بعيدا ..

- موش عيب تروحي تقولييه كلام زى ده ..

أيقنت أنه يعنى حكاية أنور . انهار يوسف أمامي .. إنه طفل ، عيل
كيف وثقت به .. وشعرت بحزن يجتاحني .. لقد فقدت يوسف .. وسمعت
مدحت وقد راح صوته :

- أنت فاكركه إنك ح تخرجيني .

- أهرحك

قال في عصبية :

- فاكركه إنى ح اتجوزك بالطريقة دى .

- اتجوزك .. أنت متقول إيه .

وإذا ما يقول لى إن يوسف طلب أن يقابله ، وسأله إذا كان يحبني ونصحني
بأن يتزوجنى ..

- كان بيكلمنى زى ما يكون وصى عليكى .. أبوكى .. وعرفت منه إنكم

اتقابلتم في جروبي المغربي ، قهمت في الحال آيه اللي حصل .

صرخت مدافعة عن كرامتى :

- أنا مقلتلوش حاجة .. ما اتكلمناش إلا في السينما والشغل

قال وعلى شفتيه ابتسامة تكذيبى وتتحدانى

- اسمعيني كويس .. الطريق دى موش ح تنفع .. جواز بالقوة مفيش ..

كدت أبكى من الغيظ .

- هوه . أنا مجنونة أتجوزك ..

- يعنى هو أنا مجنون اللي أتجوزك ..

لا أدري ماذا قلت له بعد ذلك ، ولكنى واثقة أنى لم أترك سبأاً واحداً لم

أصفحه به ، وطلبت منه أن يعود بى فوراً إلى البيت ..

ونحن في طريقنا إلى البيت .. لمحت دكان سجائر ، فأمرته أن يقف ..

وطلبت منه أن يتصل من الدكان بيوسف .. لأواجهه أمامه .. فتردد ، ولكنى

صممت ، كنت أريد أن أرى يوسف ، أريد أن أراه الآن في الحال .. إنى في

حاجة إليه .

وهبطت مع مدحت ، وأدريت قرص التليفون بنفسى ..

- واه الأستاذ يوسف موش موجود يا مود موازىل سامية ..

كان عامل التليفون قد أصبح صديقى وينادىنى باسمى ..

- ما تعرفش راح فين ..

- هوه خرج مع ناجى بك .. سألت في الحاج :

- وراحوافين ؟

- ما أعرفش واه ..

كنت على استعداد لأن أذهب إليه في أى مكان ، أقترح عليه أى جلسة .

حتى ولو كان مع محمد ناجى ورئيس الوزراء .. أو الملك .. كنت أريده ..

أريده بأى ثمن .

قلت لمدحت وأنا أعادر عريته :

- الحمد لله الذي حث على كده .

- أنا متأسف يا بهية

- خلاص . معيش داعي للأسف

- ح اكلمك بكره .

- أوعى تتكلم

- ما تزعليش أنا علطان . تعالى هنا .. رايحه فين ..

- أنا موش عابره أشوفك .. ولا عابزه أشوف يوسف .. ولا عابزه أشوف

حد في الدنيا دي كلها

وجريت إلى داخل العمارة .. لحق بي البواب عند المصعد وقدم لي ورقة ..

لأنا سألته إلى استديو مصر ومضى فستان سواريه أسود في الساعة الخالية
عشرة صباحاً .

نقّ قلبى وأنا اسمع الأستاذ حلمى يحدثنى في انفعال عن مشروعه الكبير ،

سيساهم مع شركة إيطالية في إنتاج سينمائى مشترك ، فيلم بالألوان ستسجل

فيه سيلفانا مانجانو مع أنور سامى ، وقال إنه يرشحنى لأن أمثل دور فاطمة في

الفيلم ، دور كبير سيشهرنى في العالم ، وسيصورنى اليوم بالألوان ويرسل

الفيلم إلى روما لتجنيصه ، ويرى المخرج صورتي ..

لم أصدق أذننى وهو يقول :

- أنا متأكد أنه ح يوافق عليكى .

شعرت برأسى يتخضم ، ودقات قلبى تشتد ، والدنيا تتسع وتدور من

حولى ، وتذكرت يولاندا والسنيورا جراتيسيا وماركو ، كائننى أقنع نفسى بأننى

على صلة بإيطاليا ، وأن المخرج الإيطالى سيحببنى ، كما أحببنى هم ..

أصبحت قلقة ، وتعנית لو أغض عيني وافتحهما فأجد أن كل شيء قد

ثم ، جاءت سيلفانا مانجانو ومثلها الفيلم ، وأنا أحضر حفل الافتتاح في روما ،

والناس تصفق لى ، وصحف إيطاليا تكتب عني ، وتنشر صورتي ..

ولكن .. كان على أن أنتظر وكل دقيقة تمر تزيد من قلقي ، كان البلاطوه

مشغولاً بتصوير فيلم لأنور سامى ، فكرت في أن أذهب وأتفرج عليه وهو

يمتل ، ولكنى ترددت ، خفت أن يظن أننى قادمة من أجله ، ولكن الوقت طال

قلم أصبر ودخلت .. رأيته يقف وسط البلاطوه يضحك بصوت عال ويلوح

ببيديه وعيناه تشعان بذلك الطريق الوقح المقتحم ، الذى يخيفنى .

رأى أنور ، فوقعت متسمرة مكاسى ، لا أحد في نفسى الشجاعة لأخطو

نحوه ، نظرت إليه بوجه جامد وثقب يرتعد ، أما هو فقد حو عيني بعيداً

عنى ، وكأنه لا يعرفنى ، عجبت لتصرفه ، أليكون قد نسيتى أم هو غاضب

منى .. على أية حال لقد نجوت منه ..

بعد قليل نادونى إلى حجرة الماكياج حيث أسلمت وجهى للماكياج يلطخه

بالمساحيق والألوان ، وأنا احتج وأقول له إن شكى أصبح كالعفريتة ،

فيطالبنى بالسكوت لأننى جاهلة لا أفهم في الماكياج أحاصر بالتصوير الملون .

وفتح الباب وظهر مرسى مساعد الأستاذ حسمى ، وقال لى وعلى وجهه

ابتسامة أكدت لى إن شكى كالعفريتة :

- الأستاذ أنور عابزه في أوضته .

انفجست ، وهرب الدم من جسمى .. قلت لى وجوم .

- أنا بأعمل ماكياج ..

قال لى حدة :

- ده مستحيل .. فوتى عليه دلوقتى ويعددين تكلمى .. نظرت إلى الماكياج

استنجد به ، فقال لى برود :

- روحى شوقى عابزه إيه ..

- أروح بالشكل ده .

فهزكتفه كأنه يقول إنه غير مسئول عن تأخيرى في تلبية رغبة أنور .. فكرت

في أن أخرج من الحجرة وأقرب من الأستاذ ، وليكن ما يكون .. ولكن لماذا أنا

خائفة ، سأواجهه بصراحة ، إننى أعرف كيف أدافع عن نفسى .

كان أنور يرقد مستلقياً على ظهره فوق كتبه ، وفى يده مجلة نشرت صورته

بالألوان في صفحة كاملة ، لم يتحرك من مكانه ، وهتف وسيجارة لم يشعلها

تهتز بين شفتيه .

— إزاي مابتسلميش عليّ .

— شفتك مشغول .

— إيه . ما وحشتكيش ..

— أطرقت برأسي ، فصحك وقال :

— أما شكك مسخرة ..

— بأعمل ماكياج علشان فيلم بالألوان ..

— قال في بروه .

— تعالى أقعدى ..

— وأشار بيده المسكة بالمجلة إلى الكتبة التي يرقده عليها ، ترددت ، فصاح

— أقعدى ..

— جلست ، فالتصقت بصدرة ، فنظر إلى وجهي وهو يبتسم وقال في تراخ

— اعمل حسابك على الليلة دي .

— عدت إلى التفكير في القيام ، والخروج من الاستديو ، وسمعت يهمس ويده

تعبث بخصري :

— أنت وحشتيني يابنت الإيه ..

— قلت بصعوبة ..

— الليلة دي مش غاضية ..

— كنت أشعر وكان شيئاً يكتم أنفاسي ، وددت لو ابتسم ، أو أكله في مرج ،

كعادتي ، ولكن عجزت ، صدري متقبض ، وحزن طاع يخيم عليّ ..

— اسمعي يابنت .. أنت ح ترجعي للإسطوانة إياها ..

— اسطوانة إيه ..

— فقف بالمجلة على الأرض ، وبرزت عيناه من محجريهما ، وخيل لي أنه

سيطبق عليّ ويخمد أنفاسي ، نظرت إليه في بلادة ، وكان قد جلس .. وقال

وعيناه مثبتتان على عيني :

— اسمعي يا شاطرة .. خلينا كويسين مع بعض .. بلاش تعكنني مزاجي ..

— قلت وكان في كابوس أحاهد للخلاص منه :

— احنا ملقيش بينا أي حاجة .. قال وقد اتسعت عيناه من الدهشة

— كده ..

— ثم صرخ ..

— احنا موش متفقين يابنت .. عايزه تصحكي على أنور سامي .. قلت في

تحد ..

— احنا متفقناش على حاجة .. فشتمنى شتيمة بدبّة ..

— قلت غاضبة

— أرجوك ماتشتمنيش ..

— فصاح

— بصراحة إن ماجيتيش الليلة دي معايا .. مافيش سينما .. مافيش تصوير

بالألوان .. مافيش حاجة خالص ..

— كتر خيلك .. أنا موش عايزه حاجة .

— قال في غير تصديق

— إيه .. أنا موش عاجبك .

— فسكت ..

— والا عايزه فلوس ..

— وانهرت الدموع من عيني ، فقام مفزوعاً ، ووقف وسط الحجرة ، وصاح

في دهشة :

— أنت بتعيطي ليه ..

— أنا همري ما سمعت كلام زي ده ..

— أنا متأسف .. ما كنتش أعرف إنني لازم أكلك بحساب . بالاتيكيث ..

— يا حضرة البرنسيمية ..

— قلت في حدة والبكاء يمزقني :

— ماتتريقش عليّ ..

— صاح ساخراً :

— إن كنتي قافكره إنني ابن ذوات تبقى غلطاه أنا ابن كلب .. اتمرغت في

التراب .. أكلت رطب .. مشيت حاق .. لبست جزمة مقطوعة .. كنت يا شحت
بص ريال .. كنت بأروغ من الكمساري في الترمي .. كنت بأمشي من شبرا
للأوبرا .. الدنيا علمتي ، مرحلتى مدارس ، يا غالب يا مغلوب .. يا قاتل
يا مقتول .. ما أعرفش أنكلم زى أولاد الذوات .. أمثل زيهم بسر .. أنا أشتيم
أحدع واحد .. بأشتيم أمي .. هاهمه دي .. موش عايزانى اشتيمك يا بنت
سمعات .. عايزانى أقف لما تدخل .. وأحنى وأبوس إيدك ..

كان يتكلم في مرارة تحولت سريعا إلى هياج وثورة .. يصرخ :

أنت مين .. تبقى إيه .. حتة كومبارس بتشتغل عندي .. يعنى أعمل فيكي
أبي عايز أعمله .. أنا أندرسامى .. أنا معايا ميت ألف جنيه في البنك .. ميت
ألف جنيه .. يعنى اشتريكي .. أنت وأمك .. وميه زيك وزى أمك ..

فتح الباب ، ورأيت وجوها تطل علينا ، فأخفيت وجهي بين يدي ، وسمعت
يصرخ

— عايزين إيه ..

صاح أكثر من صوت

— ولا حاجة يا استاذ ..

قال ضاحكا ..

— بتخانق مع البنات بتاعتى .. موش راضية تسهر معايا الليلة .. عايزانى
أركع قدامها وأبوس إيدها .. واكلمها بالفرنساوى .. حضرتها بنت ذوات ..
وسمعت أكثر من ضحكة .. ثم صرخ ..

— غوروا من وشى ..

وسمعت صوت الباب يفلق علينا ..

مرت لحظة صمت ، ثم ضحك في عصبية

— أنت أصلك عشيمة .. عمرك ما ح تبقى ممثلة كويسة .. طول ما أنت
مكتفة نفسك

كانت أصابعي تصفط على عيني ، كأنى أريد أن أفقاهما ، لا أريد أن
أراه ، أريد أن أموت .. أريد أن تبطلعنى الأرض ، وارتجفت .. كلنت يده تريت

على كتفى

— أنت بوظتى الماكياج .. قومي روجي صلحيه ..

بقيت جامدة مكانى ، كأنى لا أسمع .. فحطبت يدي ببعدها عن وجهي ،
وشدنى ، ففقت منهوكة القوى .. أشعر بدوخة ، وأمسك بكتفى ، ورفع
رأسى ، وقبلنى في جبهتى قائلا بصوت رقيق
— خلاص ح أشوقك الليلة ..

رأيت من خلال دموعى ابتسامة بضعة تكشف عن أسنانه البيضاء ،
أطرقت برأسى ولم أقل شيئا ..

— ح أقوت عليكى تسعة وبص .. زى المرة اللي فاتت ..
ههههه

— أعمل معروف .. ماتعوتش

قال في دهشة

— لسه برضه دماغك ناشفه .. ده موش ح يلبيك في حاجة .. أعقل
تركته ، وعدت ذاهلة إلى حجرة الماكياج ، وبعد أن انتهى تصوير الفيلم
الملون ، انتحى بين الأستاذ حلمي جانبا وسألنى في قلق
— أنت عملتى إيه مع أنور ..

لم أجب ،

فهمس

— ده زعلان منك ..

قلت والرغبة في البكاء تعاربنى :

— هو اللي زعلان منى .. أمال أنا أقول إيه ..

قال بصوت جاد :

— أنت ناسية انه شريكى ..

قلت يائسة :

— انت عارف هو عايز منى إيه

فقال في برود :

— حديه على أد عقله . ده مجنون وضحك ..

— ما اقدرش .

فقار في ضيق

— أنتوح تحبوسى معاكم .

— يعنى يرضيك

قال مقاطعاً وكأنه يلومنى

— ما أنت رحى شفته قبل كده .

همست في زعر

— مين اللى قالك ..

قال وابتنسامة خبيثة ترتسم على وجهه ، وعينه تلمعان ببريق ماهر :

— هوه ..

شعرت بأنني ارتام ، وفقدت قدرتى على الكلام أو التفكير ، لا فائدة .. لن أستطيع مقاومة أنور .. لا أحد يريد الوقوف بجانبى .. لا أحد

عدت إلى البيت ، ورأسى يفى ، وفكرت في يوسف ، هو الوحيد الذى يمكننى أن أطمئن إليه ، ولكنى لا أستطيع أن أقول له ما حدث .. كل ما اتعناه الآن هو ألا يصله كلام أنور ، ألا يعرف ما حدث بيننا في الاستديو ، ألا يسمع ما قاله أنور لكل الناس ..

ماذا أفعل ..

كنت يائسة ، مضطربة ، مضطهدة .. ماذا جرى لي ، ما الذى يفرغنى من أنور كل هذا الفزع ، لماذا لا أسايره ، واستفيد من ورائه ، ألم يكن هذا هو ما أفكر فيه أول الأمر

ولكنى عدت إلى التفكير في يوسف .. هو الوحيد الذى أجد عنده الجنان ..

يارسى .. ماذا سى .. هل أحببت يوسف .

لم اطق أفكارى ، فكلمت محمد ناحى ..

— اريك يا أستاذ .

وقبل أن يرد على ، كنت أبكى .

— إيه . مالك .. بتعيطى ليه .

اشتد نحيبى ، وهو يحاول أن يهدتنى ..

— موش معقول تعمل كده مافيش حاجة في الدنيا تستحق ابعياطده كله .

كان في صوته مزيج من التأثر والانزعاج والفصول

— أنا كذبت عليك .

— إزاي .

— أنا موش متجورة

— هيه ..

— زعلت منى

— ح أزعل ليه ..

— صحيح .. أوعى تزعل منى ، أنا ح أقولك كل حاجة . ماليش في الدنيا

صديق غريك .

— اطمئنى .. بس هدى نفسك أنا مش مستحمل أسمك بتعيطى .

— أنا ح أقولك أنا مين .. علشان تنقذنى ..

— انقذك .. ليه .. إيه اللى حصل ..

— أنا خايفة تزعل ..

قال ، وقد ثار غضبه .

— ح أزعل ليه .. بس قولى ..

— يمكن ماتت كرتيش . لكن اسمى وهسورتى انتشروا عندك في الجرنال ..

— كده .. امشى ..

— اسمى ساميه سامى ..

هتف في دهشة :

— أه .. طبعاً فأكرك .. دا أنت حثوة قوى .. حتى لما شفت هسورتك قلت إن

ده وجه جديد مفيش عندما زيه في السينما . اريك ياسامية .. وليه خبيتى

عنى المدة دى كلها .

وحكى له ما حدث بينى وبين أنور ..

قال ضاحكا

- كان لازم يحصل كده .. هو انت ماتعرفيش اثور .. ده مجنون ..
- الاستاد حلمي قال كده برضه لكن عايزني اسايده ..
- وانت راك ايه ..

— اموت احسن

قال في بساطة كأن لا مشكلة هناك :

- يبقى ماتروحيش معاه .. ولا تسأل فيه ..
- ولو عاكسني .. وسوا سمعتي .. ح يهدلني ..

قال ضاحكا

— خلاص .. اعتبري المسالة منتهية ..

— إزاي ..

— مالكيش دعوه .. سييهاى ..

— ح تعمل ايه .

— اطمئني وبس ..

— لا .. والنبي انا عايزه اعرف ح تعمل ايه .

— انا ليه طريقتي ..

وسألني فجأة .

— قول لي بصراحة .. أنت بتحبي . مش كده

.. قلت وانا أفكر في يوسف :

— أيوه

قال ضاحكا

— يابخته ماليش حظ

قلت بسرعة

— وباحبك أمت كمان

فصاح

— أوعى تكوني بتقصيه زيني .. من بعيد لبعيد ..

— حاجة زي كده ..

قال ساخرا :

— صحيح انت لسه صغيرة ..

فوجئت بيوسف يتصل بي قبل أن أتصل به في الصباح ، لم يعودني أب يكون هو البادئ بالسؤال عني ، وقابلته في جروبي ، جاء متأخرا عن مواعده ربيع ساعة ، واعتذرياً أنه كان عند شهودي ماشا فعطله ، كنت أتوقع أن يحدثني عن شجاري مع مدهت ، ولكنه لم يذكر لي شيئاً ، وظل يثرثر في كلام عادي ، ثم دعاني للغداء معه فوافقته في الحال ، فرحت لأنني سأقضي بضع ساعات معه ، وتمنيت أن يكون قد تخلص أخيراً من خجله وبدأ يحس بصداقتنا .. وقلت لنفسى ربما هو يعلم بما حدث بيني وبين مدهت ، وراض عن خصامنا إذن لن يجد حرجاً الآن في الخروج معي ، وأعجبني هذا التفسير لتصرفاته .. إذ أشعرني أنه يريدني ، وأنه دبر خطة ليقطع علاقتي بمدهت ، وأنه أذكى مما أتصور ، ويريدني على عكس ما كنت أظنهم ..

قلت لنفسى ، لن أذكر له شيئاً عن مدهت الآن ، سأنتظر حتى تتوطد علاقتنا ، ويقبلني ، عندئذ سأسأله عما قال لمدهت سرنا في الشارع جنباً إلى جنب ، وقال في خجل .. ونحن نعتبر مفترق الطرق :

— أنا متأسف .. معنديش عربية ..

أيقنت أنه يفكر في مدهت .. فقلت في حرارة لأشجعه .

— اخص عليك .. أنت فاكروني ايه .. يعني فوه أنا اللي هندي عربية ..

ووقفت معه أمام عدة فترينات : أشير له إلى الكرافات التي تمجيني وأختار له قمصاناً وأقمشة لبده ، وأقول له

— لما يبقى عندك فلوس انقز قوللي .. وبسرل نشترتهم سوا ..

ودخلنا مطعماً صغيراً في شارع شريف ، كنت سعيدة بمظلات الزبائن لنا ، إذ ظنوا أننا عاشقين ، وبعد أن فرغنا من الطعام ، أخرج يوسف سيجاراً

ضخماً وشرع في تدخينه

وكان واضحاً أنه يدخن السيجار لأول مرة ، إذ سعل بشدة حتى أحمرت
عيناه ، وضحك قائلاً

— شهدي باشا أدهولي ، عمري ما دخنت سيجار قبل كده .

ضحكت ، وسألته بغير تفكير .

— هو له سه رعلان من الخبر اللي نشرته ..

وتدتمت هلى ماقلت ، إني أعرف هذا من محمد ناجي ، ونظر إلى يوسف
متقرساً في وجهي وسألني :

— وإيه اللي عرفتك ..

قلت في ارتباك .

— كان عندنا أمبارح ضيوف بيتكلموا في الحكاية دي ..

— قالوا إيه ..

— قالوا إزاي محمد ناجي يشتم صاحبه في الجرنال بتاعه .

وكانت عيناه تقولان إنه لا يصدقني وسألني

— أنت لدريتي الخبر .

قلت بسرعة :

— أيوه ..

فأبتسم ابتسامة غريبة ، وسكت ثم نادى الجرسون ودفع له الحساب
وخرجنا إلى الشارع .. وسألني

— عايزه تروحي دلوقتي ؟

— أنت ح تعمل إيه ..

— ولا حاجة ..

ابتسمت قائلة ..

— وأما كمان ..

— طيب فروح في

— زى ما انت عايز ..

التفت إلى في حدة ، وسألني وصوته يرتعش من الانفعال .

— إيه رأيك تيجي عندي ؟

تظاهرت بأنني أفكر ، ثم قلت في هدوء :

— وإيه يعني معنديش مانع .

كان في قعة انفعله ، وقد انتشرت حبات العرق على جبينه ، ودار حول نفسه

زائغ البصر ..

— بتعمل إيه ..

— بادور على تاكسي ..

احسست وكأنه في مأزق ، كأنه كان يتمنى أن أرفض الذهاب معه إلى

بيته .. وسألته

— هو فيه حد عندك في البيت ؟

قال بصوته المنهدج :

— لا ..

قلت وأنا اتخذ مظهراً جاداً ..

— أنت ح تكون عاقل . أنا واثقة فيك ..

قال في حدة

— طبعاً ..

وعثرنا على تاكسي ، وركبناه . وسمعته يقول للسائق

— شارع ماسبيرويا اسطى ..



أنها نفس العمارة ، نعم ، نفس العمارة التي وصفها لي محمد ناجي ، لم
يبق إلا أن نصل إلى الدور الخامس ونتجه إلى اليسار حتى نهاية الممرانجد
الشقة ٥٤ ، إنني أتذكر بدقة كل كلمة قالها محمد ناجي
وصعدنا إلى الدور الخامس ، وانحرفنا إلى اليسار حتى نهاية الممرانجد
ووقف يوسف أمام باب عليه رقمان معدنيان بارزان يؤكدان أن هذه الشقة هي
٥٤ ، شقة محمد ناجي التي أراد أن يقابلني فيها
أخرج يوسف مفتاحاً صغيراً من جيبه وأداره في القفل ، قلت لنفسي أول
مدينة سأستقر فيها له ستكون سلسلة مفاتيح ، شعرت أني قادمة على مفاجئة ،
ولم أكن خائفة ولا قلقة .. بل أشعر بفضول شديد ، ماذا يريد يوسف مني ..
لماذا كذب علي وقال إنه ذاهب إلى شقته ، أه لو يعرف .. لو يعرف إنني أعرف .
دخلنا صالة كبيرة مفروشة بأثاث قديم ، ولكنه فخم . المقاعد ضخمة
وثيرة . والأباجورات من العتيقة الخضراء ، لها قوائم من الخشب المنقوش
وستارة خضراء كبيرة تغطي باب شرفة تطل على النيل ، وسحادة فارسية ضخمة
تغوص فيها أقدامنا وتغطي اتصالها كلها ثمناً لا يقر عن حسمات جنية ،
وراديو وبيك آب قطعة واحدة من الموبيليا ، واسطوانات كثيرة ، كانت
الجدران مطلية بالزيت في لون مستقر فيه طيف من اللون الأزرق الفاتح ،

علقت عليها لوحات زيتية لمناظر في ريف لوريوى . المكان يوحى بالوقار والثراء والراحة .. وهناك ممر ضيق يخرج من يمار الصلاة ويغضى إلى بقية الحجرات ..

وقفنا في الشرفة نطل على السيل .

فلححتنا شمس قوية ، وهمس يوسف :

- تشرى كوكاكولا

كان مسغلاً ، قدماء قلقتان . وعيناه قلقتان . وتحرك إلى الداخل فتبعته إلى المطبخ ، كان نظيفاً مرتباً . وفيه فريجيدير ، فتحها يوسف فلم يجد بها سوى زجاجات بيرة وكازوزة .. قلت ساخرة :

- أنت موش هارف عندك إيه .

فارتبك وأحمر وجهه ، وفتح زجاجة الكازوزة بيد مرتعشة . وعدنا إلى الصلاة وجلسنا على مقعدين متقابلين ، بيني وبينه حوالى مترين ، نظرت إليه فوجدته يبدو واجماً مهمراً .. فانطلقت أضحك . نظر إلى في قلق وريبة وسألنى :

- بتضحكى على إيه ؟

- ولا حاجة ..

- صحيح بتضحكى على إيه .

- مبسولة .. عايزنى أكثر .

فزاد ارتباكك ، وحاول أن يتكلم فتعلم وقال كلاماً غير مفهوم . كان يحدثنى في السياسة ، وبدأت أشعر بالقيظ نحوه .. فقررت أن أماجمه - تعرف أنا كنت بضحك ليه ؟

- ليه ..

- علشان أنت بتكذب عر ..

ابتسم في عصبية ودارت عيناه في قلق ، ثم هتف بصوت مشروح

- ليه بأه

- ماتنكرش الشقة دي موش بتاعتك ..

قال بسرعة فاجأتنى :

- ليوه موش بتاعتى ..

رغم المفاجأة ، شعرت بالراحة أنه لا يستطيع أن يعضى في الكذب

- بتاعة مين يآه ؟

- واحد صاحبي ..

- مين هو ..

- بتسألني ليه ..

- موش أعرف أنا في بيت مين .

فتح فمه ، ثم أغلقه ، خشى أن يعترف لي بالحقيقة ، وتوقعت أن يخترع لي أى اسم .. ولكنه رفض . وصمم ألا يقول من هو صاحب الشقة ، رغم استفزازي له . كنت أقول له من وقت لآخر : أنت باهن عليك خايف منه ، أو أوعى توسع حاجة بعدن ياخذ منك المفتاح ، أو : أنت خايف تقول اسمي لحسن لحي معاد بدالك . فكان يبدو عليه الألم ولكنه لا ينطق باسم محمد ناجي ..

مضت ساعة أو أكثر . وهو يتصرف وكأننا في محل عام ، بل كان يعاملنى وكأننا غريباء ، فاحترت ولم أفهم فرضه الحقيقي من المجهىء بس إلى هنا ، وشعرت بالملل ، ففقت معلنة إنى ذاهبة ، فلم يعترض وصافحنى باليد ، وسار معى حتى الباب ، وحتى تلك اللحظة كنت ما زلت أتوقع أن يقبلنى ولكنه لم يفعل ، وخرجت وأنا أشعر بضيق وغموض ..

●●

سكنى محمد ناجى :

- إيه رأيك في الشقة :

كان يتكلم في مزح ، وتمنيت لو كنت أراه ، خيل لي أن عينيه تشعان بالمر ..

- شقة عراجزى ..

- معجبتيكش ..

- بالعكس دى حمة قوى ..
- عنبريها شفتك . أنا قلت ليوسف ..
- صرحت مقاطعة دى احتجاج
- هوہ يقول كل حاجة
- وى ما أنت بتقولينى
- أنا موش فاهمه هوہ عايز منى إيه .
- لسه موش عارفة .. بيجبك
- ياسم .. أعوذ بالله
- بلاش علبه .. وأنت كمان بتحبينه
- أنا . سالفنش غير الكلب ده عشان أحبه ..
- قسمتك كده .. حبيتى واحد غشيم ..

حدثنى قلبى أن محمد ناصر يقوم بلعبة غريبة ، لعبة مأكرة ، إنه يلعب ليوسف ويعب بي ، لقد أعطاه فتاح شفته وشجعه على أن يأخذنى هناك ، لاشك أنه يريد أن يستدرجنى . الشقة ، ولعله يقول لنفسه إنى إذا ذهبت مرة مع يوسف فسأذهب معه هومرة أخرى ، لابد أن أحذر منه ، ولكنه قال لى شيئاً هاماً ، يوسف يحبنى . إنى أشعر بهذا ، رغم ارتباكك ووجوه وتصرفات الغريبة ونحن وحدنا فى الشقة ، صحيح إنه غشيم ، وأنا أجد نفسى مندفعاً وراء هذا الحب الغشيم ، محمد ناجى على حق ، يوسف يحبنى ، وأنا أحبه . أليس هذا غريباً من بين كل الناس فى هذه الدنيا ، أحببت يوسف ، أحببت شاباً لا يملك عربة ، غشيم ، يحجل من أن يقول لى إنه يحبنى أصبح يوسف يكلمنى كل يوم أكثر من مرة ، وتقابلنا فى جروبى عشرات المرات ، حتى عرفنا الحرسونات ، وكانوا يذكرون لنا طلباتنا ، الشاى والحاتره ، قبل أن نطسها معهم . وسألنى يوسف أن أذهب معه مرة ثانية إلى اشقه ، فرعصت ، كنت خائفة من أن يتكرر نفس ما حدث فى المرة السابقة . فيعاملنى سرور .. وكنت خائفة من أن يحدث شيء آخر . لقد حدث لى تطور غريب ، لم أعد أفكر فى القللات ، أصبحت حاملة سارحة . أستريح لحديثه

عن أى شيء ، أستريح لصوته الهادئ ، أستريح لعيبه الحويتى ، وكلماته الرقيقة ، شعرت أنى ألتخص وأنا معه من أشواك ، وأبر كانت تسوخ صدرى ، تعودنا أن نذهب إلى الميما ويتكلم عن الفيلم بعد أن سرح منه . كانت آراؤه جديدة ، تدهشنى ، وكان يببهنى إلى أخطاء فى القصة وأخطاء فى التمثيل ، وكان يببهنى إلى أشياء جميلة لم ألاحظها ، ولكنه بعد أن يببهنى إليها أحس وكأن شيئاً أشرق فى رأسى ، وأحس أنى بدأت أهم أكثر وأكثر .. أحياناً كنت أحتار ، وأشك فى كل ما أحس به نحو يوسف . وأسأل نفسى ماذا هو الحب ، ولا تنتهى حيرتى إلى شيء . كل ما أصل إليه بعد تفكير طويل ، هو أنى فى حاجة إلى يوسف ، لا أريد أن يمضى يوم واحد دون أن أراه ، وأسمعه .. وأحياناً كنت أنظر إلى وجهه وهو يحدثنى فلا أهم ما يقول ، وأجد نفسى أفكر فى أبى .. تكرر هذا كثيراً ، تدهشنى فقد تعودت أن أطرده ذكرى أبى من رأسى ، وأساها حتى لا أتأم ، وبكى أصبحت أذكره فى وجه يوسف بلا ألم ، أذكره بحزن وحنان . فى أيامنا القديمة وأنا طفلة صغيرة يوم أخذنى إلى لونا باريك .. وربكت المراجع . وبكى فمسح دموعى بمنديله واشترى لى جيلاتى ..

وكنت أحكى ليوسف ما أذكره ، لم أحدثه سوى عن طفولتى وأبى ، أما أمى فقد تحاملتها تماماً ، كان أمى هى التى مدت ، وأبى هو الذى ما زال حياً يعيش معى .

كنت أذهب فى فناء المدرسة مع الأطفال ، كنت أجد لاهة ، أطارده صديقة لى اسمها بوال ، وفجأة رأيت أبى أمامى ينظر إلى ضاحكاً . وقفت لدعة واحدة وقد رفعت عينين مبهوتين إلى قامته المديدة .. ورأسى لا يكاد يصل إلى ركبتيه ، وأخذنى من يدي وخرج بى من المدرسة والدراسة لم تنته بعد ، وذهب به إلى مقهى وجلس معى .. واشترى لى شيكولاته ثم ذهب معى إلى الحاتى وأكلها ، أكلت كفتة وكريم كرمة .. وعدنا إلى البيت وتشاور مع أمى .. رويت ليوسف القصة كلها ما عدا نهايتها حتى لا أذكر شيئاً عن أمى .

كنت أجلس معه عند الحائى ، وكان يستمع إلى ، وأنا لثرت ولثرت ، وبى
رغبة في أن أتكلم إلى الأبد ، وعندما عدت إلى البيت استلقيت على سريرى
واجهشت بالبكاء .

قالت لي إنصاف لي انزعاج

- مالك ..

- مفيش

- أمار بتعيطي ليه ..

قلت لها وأنا ابتسم وابكى .

- مبسومة ..

فنظرت إلى يائسة من أن تفهمنى .. ثم تمتعت :

- أنت باين عليكى اتجننتى ..

قلت وأنا أمسح دموعى بكفى :

- آه ..

قلت وهى تتنهد :

- ربنا يخليكى بعقلك ..

وأردت أن أسألها .. إذا ما كانت تذكر بابا ، ولكنى عجزت عن المطق

بالسؤال .

وأدركت لحظتها إنى لن أستطيع أن أتكلم مع أحد عن أبى سوى يوسف .

في اليوم التالي سألنى يوسف مرة أخرى أن أذهب معه إلى الشقة ..

- موش محقول تكرنى خايقة منى ..

قلت مترددة .

- أنا موش خايقة .. لكن ح نعمل إيه ..

قال جاداً

- عايز أقولك حاجة مهمة ..

ونذهت معه ، فعاد إليه ارتباكاه ، ووجومه ، وسألته بعد أن قضينا وقتاً

طويلاً بثرثر بكلام عادى ..

- يعنى مفيش حاجة مهمة عايز تقولها لي ..

- لا فيه ..

- إيه .. هيه ..

- موش عارف أقولك إزاي ..

قلت في رقة :

- قول ملتخافش .. أنا مستعدة أسمع منك أى حاجة ..

- يهدين تزعلي ..

هتقت :

- أزعل منك .. مستحيل ..

ثم قلت ببطة :

- أنت موش عارف قد إيه انت عزيز عندي ..

قال بصعوبة :

- وانت كمان ..

ثم غرقنا في صمت طويل مرهق .. كنت أسمع خلاله أنفاسه وأنفاسي ،

وكانتا تصعد سلالم لا نهاية لها ..

- ساميه .. أنا لازم أقول لك .. أنا بأحبك ..

رغم أنى كنت أتوقع الاعتراف ، إلا أنى أطارت براسي ، وقد سعد الدم

إليه . وسمعت طنيناً في أذنى ، كأنى أسمع الكلمة لأول مرة . نعم إنى

أسمعها لأول مرة ..

وانطلق يتكلم ، وقال كلاماً غريباً .. سمعته بقلبي .. سمعته بكل ذرة في

جسمي ..

- أنا موش عارف إيه اللي حصل لي .. أنا حاسس إنى بأحبك من زمان ..

بأحبك من قبل ما أشوفك .. زى ما أكون فهمت ليه أنا اتولدت وحييت في الدنيا

دى .. بأحبك وأنا بأكتب والقلم في أيدي .. بأحبك وأنا راكب الاتوبيس

ومستعجل .. بأحبك وأنا قاعد قدام شهدى باشا وبأحد منه سيحار بأحبك

وأنا نايم بأحلم .. بأحبك وأنا نايم من غير ما أحلم .. لما سأتنفس بأحبك .. لما

يا شرب يا حبك لما أعطش يا حبك . سامية أنا تعبان أنا يا حبك .

همست

.. أنا موش عايزه أتعتك يا حبيبي .

ونكيت

.. سامية أرجوكي .. أنا ح أعيط أنا كمان .

قلت ودموعي تلال كلماتي :

.. أنا كمان بحبك . لكن موش عايزه منك حاجة .. موش عايزه منك حب ..

كهايه عني حنانك

.. ماتقوليش كده يا حبيبتي .

سألته بعينين تتوسلان إليه

.. ح تديني الحنان الي أنا عايزاه . موش ح تعذبني .. موش ح تقوللي كلام

يضايقني .. أنا خايفة . موش ح أقدر أتعذب منك ..

.. حبيبتي .. إنت بتعذبيني بالكلام ده

.. بكره ينتهي الحب . ومالكش جنبى .

.. مستحيل .. حياتي تنتهى وأنا لسه يا حبك .. يا حبك وأنا عايش . ح

أحبك وأنا ميت .

.. بعد الشر .

وانتظرت أن يقوم ويقبلني .. ووضعتني إلى صدره ، كنت أريد أن أقبله ..

وأن أشعر بذراعيه تطوقاني .. وأنعاسه تدفئني ، ولكنه لم يتحرك من مكانه ،

هل أقوم وأقبله أنا ، ماذا له ، ألم يعترف لي بحبه .. ألم أعترف له بحبي ، لقد

تجمد مكانه ، عيناه زائغتان ، وشفتاه ترتعشان ، وقد فقد القدرة على

النطق

قمت ، وذهبت إلى اسراديو .. وعشت بمفاتيحه وهو صامت .. لا يفكر في

النهوض ولا اقتراب مني .. لاند أن أخلصه من هذا الغباء

.. الراديو يشتغل إرأى ..

سألته دور أن أنظر إليه ..

فأحسست به يتقدم نحوى . وارتحف جسدى ، وأنا أتوقع يديه تلمسان

خصري في أية لحظة ، ولكنه وقف إلى جانبي في عدا . وأدار الراديو وسألني في

بلاهة

.. عايزة محطة إيه ..

قلت يائسة

أي محطة

والثقت إليه عيني في عيبه ليس بين وجهي وبين شبر واحد

كان العشق يشع من عيبه وسجل أيضاً وكان لعشق يطل من

عيني والحيرة أيضاً . وعدت إلى مقعدى ، وعاد إلى مقعده .. ولراديو

يقنى .. سأفونى .. سأفونى دا أمور ..

سأغيره . سأغير طباعه . سأجعله الشاب الذي أريده ، سأعنه كيف

يحب . إنه خام ، غشيم ، ولكنى أموت في حبه

.. فيه حد يعرف إنك بتحبني

قال في عصبية .

.. لا

.. فيه ناس تحب تحكى لصاحبهم .

.. ما أقدرش أحكى

.. إذا كنت قلت لحد قوللى .

.. والله ما قلتش

.. محمد ناجى يعرف

.. يعرف إيه

.. إنك بتحبني

.. بيشك

.. قلت له حنحة

.. لاحظت إننى مهتم بكى . يوم ماشرت الصورة

.. أرجوك ماتقوللوش

أطرق برأسه موافقاً فعدت الح عليه ..

- بذمتك .. أوعى تقوله ..

تظنر إلى كأنه يقسم ..

- موش ح أقوله .. تأكدي ..

- حتى الشقة دى بلاش .. مشوف شقة ثانية أحسن ..

- حاضر ..

- يتقول حاضر كده .. وبعدين موش ح تدور على شقة ..

- لا .. ح ادور ..

- امنى ..

- بكرة ..

- ح تقولى فى التليفون ..

- أبوه ..

شعرت براحة كبيرة .. وتخليلت نفسى فى شقتنا الجديدة . لن تكون
بهذه الضخامة . ولا بهذه الفخامة ، ولكنها ستكون لنا .. لنا نحن
الاثنان ..

وابتسمت له ..

- مانفسكش لى حاجة ..

قال لى ارتباك ..

- ايه ..

- موش عايز تيرسنى ..

كان منظره يثير الشفقة ، لا يكاد يصدق ما سمعته أثناءه . ولكنه قام
متأقلاً كأنه يحمل فوق رأسه حملاً ثقيلاً يتوء به ، وتقدم منى فمدت له
يدى ، ورفعت له رأسى وأصبحت عينائى ، وانحنى على وقيلنى فى جيبينى ،
ثم قبلنى فى شفتى قبله سريعة ، وفتحت عينى لأراه واقفاً يلهث ، ووجهه
شاحب وانفاسه تتلاحق ، والتفت عيوننا ، وأقبل على يريد أن يقبلنى ،

فدفعته بعيداً فى رفق ، خفت أن تضايقنى قبلاته ، لقد تأكدت أنه
غشيم .. ربما كانت هذه هى أول مرة يقبل فيها فتاة
همس فى لهفة :

- عايز أبوسك ..

فضحكت ملتفة

- روح أقعد مكلتك .. خليك عاقل ..

وأطاعنى فى الحال ..

- احكيلى عن البنات اللي حبتها قبل كده ..

- عايزه تعرف ليه ..

كنت أتوقع أن يقول لى إننى أول حب له .. رغم أنى أعرف قصة
مبروكة .. ورغم أنه اعترف لى أنه أحب من تزوجت غيره .. فى تلك اللحظة
كنت أشك فى أنه أحب مبروكة أو أية فتاة أخرى .. وكنت فرحة بهذا . إذ
خيل إلّا أنه ملاك . أرسله الله من السماء ، ليحطبنى الحنان ،
وإبظهرنى ، ولينقذنى ..

قلت فى غيظ :

- عايزه أعرف كانت تستحق حبك وإلا لا ..

- الحكاية دى خلصت ..

- أنا موش ح استريح إلا لما تقولى كل حاجة عنها ..

قال فى حزم :

- خليكى عاقلة .. أنا نسيتها خلاص ..

وانتابتنى رغبة مفاجئة فى أن اتحداه ، شعرت أنى أختنق بحبه
وحنانه ، إنها أكاذيب .. أوامام .. ليس صحيحاً أن هناك من يعبنى كل
هذا الحب ، إنه مثل الآخرين ، مثل مدحت ، مثل محمد ناجى ، مثل
أنور ، لن أجد شيئاً عنده سوى العذاب ، إننى ساذجة إذ اصدقته وأحبه ،
سامتحتنه ، سأعذبه .. سأعذبه لأرى كيف يتحملنى ..
.. إن ماكتش تقولى . موش ح أقولك أنا كمان ..

تقوليلي ايه

- عن ابي حبيته قبلك
- اصغر وجهه ، وحطط عيابه .. وقال في غضب
- فصدك مدح .
- صحكت صحنه عابيه ، في غير مباله
- مدحت ده ايه .. واحد تاني
- مين هو .
- موش ح اقولك
- مقلب إلى حيران ثائر وصاح
- إن ما قلتش ح اضريت ..
- فأصابني فزع قاتل .. وصرخت
- أوعى تقول الكلفه دى تاني .. أسيبك وعمرى ما أشوفك بعد كده .
- انهار يائساً ، وقال مستعظفاً .
- ساميه . أنا متأسف ..
- أنا عمرى ما سمعت كلمه زى دى في حياتي ..
- قلتها وأنا أصدق نفسي .. وظل يستعطفني حتى هدأت ، فشعرت
- بالخجل ، إنني أكذب عليه ، أعطيه صورة غير صحيحة عن حياتي ، إنه
- لا يعلم كم سمعت وكم عانيت .. إنه لا يعلم ما صعبه بي أنور ... عندي
- الوحيد أني أتمنى لو كنت تلك الفتاة التي لم تسمع طوال حياتها الكلمات
- القاسية ، ولن تسمعهم أبداً ..
- شعرت باحريه التي ارتكبتها . إنني أحطم كل شيء . أقتل حبي في
- لحظة مولده .
- حبيبي .. أنت صدقت ..
- قالت عيابه .. اما لا أهمك .. مادام تقولين .. عن أي شيء تتحدثين أما
- متعب .. وأحبك .. وحرين ..
- كده تصدق إني حبيت واحد غيرك ..

همس .

- أنت اللي بتقول

ابتسمت .

- كنت عايزه أشوفك ح تعبر عليه ولا لا .

- صوب إلى عيني غاضبتين .. عيان تنفد إلى قلبي .. تجرفن- قلبي . ذهبت إليه وطوقت رأسه بذراعي وهمست في حن .
- ماتزعلش ..

- وقتلته على جبينه ، وقتلته في شعتيه .. كان ما زال حزيناً لأنه قال لي- إنه سيفتريني ، ولأنه رأى العزح في وجهي .
- خلاص سامحتك ..

قال والدموع تكاد تطفر من عينيه :

- ساميه . أنا مقصديش أقولك غير كلمه واحده . باحبك .. أي كلمه- تسمعيها مني . معناها إني باحبك .. أقولك أوفوار يعني باحبك ..
- أقولك موش عايز أشوفك يعني باحبك . أي حاجه اعلمك أيه كلمه
- أقولها .. مالهش غير معنى واحد .. باحبك
- حبيبي .. إيه الكلام ده كله .

- عدت إلى مرحي . أما هوفقد بذل مجهوداً كبيراً ، قبل أن يتخلص من- تأنيب ضميره . وتشرق الابتسامه عن وجهه

- وتركنا الشقه . خرجنا إلى الشارع ، إلى شاطئ النيل . وسرنا .- قلوبنا تدق معاً . وأنفاسنا تعلق وتهبط معاً .. وأقدامنا تضرب لأرض
- معاً .. مشينا ومشينا .. دون أن ينادي تاكسي ، ولكن صممت عن ركوب
- الأتوبيس . جلسنا فيه وقد تعانقت أصابع يدينا .. وتعانقت عيوننا ..

●●

- إيه اللي حصل بينك وبين يوسف

- ولا حاجه ..

- إزاي الكلام ده ..

- هو قال لك حاجة .

وهحك محمد ناجي متأخراً

- انت ح تحبى على .

- والله ما حصل حاجة ..

- ده بيقول إنكم زعلتم من بعض ..

تنهدت ، إنه لا يعرف شيئاً .

خدعه يوسف وقال له إنا تخلصنا .. قلت في غير اكتراث :

- ولا تخلصنا .. ولا تصالحنا ..

هو ماله ومالى .

قال في ثقة :

- يعنى اتخانقتم ..

قلت في حدة .

- وح أخانقه ليه ..

- بس . بس .. أنا لازم أصالحكم

ودعاني محمد ناجي إلى حفلة سيقمها في بيته بالزمالك .

- شوقى بآه .. تيجى أنت ويوسف مع بعض .. أنا عامل حفلة كبيرة ح

يحضرها وزراء وكل الناس المهمين في البلد .. ولازم تبقى موجودة ..

كان الإغراء اكبر من أن أقاومه .. لم أستطع كتمان فرحتى ..

وهتلط كطفلة ساذجة .

- والنبي ..

قال في صوت رقيق

- موش لازم الناس اللي في البلد يعرفوا تجمتهم الجديدة

وكأن صواريخ نارية تفجرت في رأسى .. لقد نسيت من أنا .. أنا لست

مجرد حياة عادية تحب يوسف .. أنا سامية سامى النجمة المشهورة هاهو

د . محمد ، عريض يفتح أمامى .. ولكنى لن أتخلي عن حبيبى ، سأحصل

على محمد والحب .. نعم .. سأحصل على الاثنين معاً .

وضعت الساعة .. وانطلقت باحثة عن أمى ..

- ملما .. أنا عايزه حالاً فستان جديد ..

صرخت أمى

- الساعة لسه تسعة إلا ربع يا حبيبتى .. ح تروحي بدري ما حدش

ح يشوفك وانت داخلة وح تتهدلى قبل المعازيم ما بيعو ..

كان كلامها مقنعاً ، ولكن يوسف كان ينتظرنى داخل التاكسى عند الباب ،

فهبطت إليه ، وأمى تودعنى في حسرة ، لقد فرحت عندما علمت انى ذاهبة إلى

حفلة في بيت محمد ناجي ، ونصحتنى بأن أبتسم في وجه الجميع ، وأن أكون

مرحة ولا أكف عن الضحك ، ولا أكف عن الكلام ، وحذرتنى من أن تسرق

إحدى المدعووات الحفلة منى ، إنها فرصة العمر ، لو نجحت في هذه الحفلة ،

فسأصبح مشهورة ، وسيدعونى الباشوات والوزراء إلى حفلاتهم ، ولم تقردد

أمى عندما طالبتها بالنقد لأفصل فستاناً جديداً ، انتهت منه نعيمة الخياطة

في يومين ، فستان أحمر مكشوف الظهر والساعدين ، واشتد الحماس بأمى

ففتحت لي زجاجة برفان « ريان كتوا » كانت تحتفظ بها

في الساعة التاسعة تماماً كنت أهبط أنا ويوسف من التاكسى أمام فيلاً من

طابقين في الزمالك ، وأسرع بواب نشيط بالوقوف ، فدخلنا إلى حديقة صغيرة

ولكنها جميلة ، أشجارها مقصوصة ، كأنها خرجت من تحت يد كوافير ،

وسمعت نباح كلب ، كانت الأنوار تنبعث من الطابق الأول بكثرة ، وخيل لي

أنى سمعت صوت موسيقى ، ولكن قطع نباح الكلب الذى جرى نحونا ،

وما أن رأيت حتى ذعرت ، كان كبيراً كالحصان ، وصرخت :

- إيه ده

فابتسم يوسف ابتسامة هادئة :

- يتخاف من الكلاب .. ده تونى

وهمس للكلب

- تونى . تونى . تعال هنا

وأشار بيده ، فاقترب الكلب منه ، وجعل يدور حولنا ، وأنا أسير نحو
لسلم ، وأتخاشى أن يلعسنى .

— الكلب ده بيعص ..

— أبدأ . ده عحوز ..

— وقدر أن نصل إلى الباب ، همس يوسف

— متى عارفة الكلب ده متاع مين .. بتاع المرحومة دلال ..

فتح لنا الباب مخلوق عريب ، يرتدى جاكيت السهرة الأبيض ، كان ينحنى
في أدب شديد ، وعيناه لا تفارقان الأرض ، وضمت بصعوبة أنه خادم ،
وتقدمنا إلى بهركبير كبير جداً ، ليس فيه أحد ، كان المكان يصيح في النور ،
ويفضي إلى صالون واسع يسبح هو الآخر في النور وليس فيه أحد ، ولم اسمع
صوت لموسيقى التي خيل إلى أني سمعتها من الخارج ، كان الهدوء يطن في
أذني ، ورائحة غريبة تنفذ إلى أنفي ، رائحة قرفل ، واختفى الخادم وراء
ستار ، بينما جلست على مقعد ، كل شيء من حولي كان يتأرجح ، كأنني وسط
بوماء ، وقلبي يخفق ، نظرت إلى يوسف استغيث به ، كان يجلس بالقرب
منى ، ساهماً ، عيناه تهافتان لا تنظران إلى شيء ، لم يكن منتبهاً إلى ،
واهتزت الستارة ، وظهر الخادم من جديد ، ومضى إلى باب آخر ، فتحه وأغلقه
وراءه ، كان الصمت يتراكم بسرعة ، عندما انتفضت على صوت رنين خافت
ينبعث عن شمالي ، رأيت تليفوناً أبيض على الأرض ، رنينه لا يكاد يسمع ، ثم
انقطع الرنين ، وسمعت صوت محمد ناجي من خلف الستارة ، كان يتكلم في
تليفون آخر ، وضحك ، وهتف

— ده مش معقول . أيوه .. أنا مستني .. موش ج نتعشى لحد ما بيجي ..

ثم ضحك مرة أخرى ، وقال بصوت رقيق

— أيوه يا حبيتي .. حاضر

واهتزت الستارة ، وظهر محمد ناجي ، مشرقاً معطراً كأنه خارج من الحمام
مشي نحوي وعيناه لا تفارقان عيني ، على شفثيه ابتسامة خفيفة ساخرة ،
حاولت أن أضحك كما نصحتني أمي ، ولكنني ارتبكت ، وضغط على يدي

وربت عليها بيده الأخرى ، وقال كأنه يعرفني عند سنوات

— ازيك يا سامية ..

لم يصافح يوسف ، اكتفى بأن ينظر إليه متودداً ، ثم جذبني وأجلسني على
كثبة عريضة ، وجلس إلى جوارى وأخذ يدي بين يديه ، كان يتصرف
ببساطة ، وكأنه يعطف علي عطفاً أموياً

— كويس أنكم جيتم بدرى علشان أعرف أقعد معكم شويه .

وسألني وهو يربت بكفه على ركبتي القريبة منه

— إيه رأيك في يوسف ؟

بذلت مجهوداً كبيراً كي اتخلص من ارتباكى وقلت

— أنت تعرفه أحسن مني ..

مصباح

— لا .. أنت مكسوفة تتكلمي ؟

ضايقتني أنه شعر بخجلي ، لو عرفت أمي لعزنت ، ولأثبتني وجذبني
محمد ناجي وهو يقف قائلاً

— تعالو نروح البار ..

دخلنا الصالون ، وكان يفضي إلى حجرة أخرى أصغر منه ، في أحد أركانها
بار أمريكي أمامه كراسي عالية ، ودخل محمد ناجي البار ، وطلب منا أن
نجلس على الكراسي العالية أمامه .. وقال كأنه يحدث نفسه ، وهو يفحص
الزجاجات الكثيرة خلفه

— تشربي إيه . عندي كل حاجة .. ويسكي .. حن .

وضحك مشيراً إلى زجاجة في نهاية الصف

— والا فريكا ..

وظهر الخادم في صمت ، دون أن يناديه أحد ، وقد أحضر الثلج ، وضعه
أمامنا ثم انسحب في هدوء .

وسألني من جديد .

— أو أعملك كوكيتيل

وأعجبته الفكرة ، فهتف

نشرب كلنا ما رتبني .

والتفت إلى يوسف قائلاً :

— أنت ما بتشربش إلا بيرة .. لكن لليلة دي .. ح أسكرك ..

وشرع يمزج الجن بالعمود ويخلطه بالثلج ، داخل وعاء معننى مخروط الشكل ، وقال وهو يضع زيتونة خضراء في كأسى .

— أنا شفت دوق وندسور في نيويورك .. كنت نازل في الوالدورف أستوريا ، وكما الساعة تسعة الصبح ، كنت داخل أظفر ، فلقينته قاعد لوحده ، وقدامه ستة مارتينى راصصهم جنب بعضى .. وقعد يشرب واحد ورا التانى .. من ساعتها وأنا متأكد أنه خد مقلب في جوازته .. طبعاً .. واحد يسبب عرش انجلترا .. يسبب امبراطورية علشان حب عمره ما يدوم .. مسكين ما كانش بيفوق ابدأ ..

في صحبتك ..

رفعنا الكئوس وشربنا ..

— إيه رأيك في طعمه .. موش حلو .. أنت ساكت إيه يا يوسف .. لسه بتفكر في دوق وندسور أظن لو كنت مكانه كنت عملت نفس الشيء .. تتنازل عن الامبراطورية في سبيل الحب .. لكن أنت معذور .. سامية حلوة .. حلوة جداً ..

كنت قد أفرغت نصف كأسى ، واسترجعت شجاعتي ، فقلت محتجة :

— أنت ح تتكلموا عنى من غير ما تاخدوا رأيى ..

صاح محمد ناحى مقاطعاً

— يوسف بيحكك .

— حليه هو اللى يقول

— موش ح يقول حاجة . أنا باتكلم بالنيابة عنه ..

— يبقى ما بيحببش

وتضحك يوسف في عصبية ، ورشف من كأسه .. وقال محمد ناحى وهو يعد

المارتينى ليعلا كنوسنا ..

— لسه موش عايزه تقوليل رأيك في يوسف ..

— لما أسمع رأيك أنت الأول ..

— رأيى ..

ونظر إلى يوسف وعيناه تبرقان في سخرية ..

— رأيى إنه نصاب ..

هتف يوسف :

— ليه بأه ..

— إنسان موش حقيقي .. مؤذبة زيادة عن اللزوم ، صريح زيادة عن اللزوم ،

عاطفى .. برضة زيادة عن اللزوم .. عاقل زيادة عن اللزوم .. بيعمل كل حاجة

صح زيادة عن اللزوم .. موش ممكن واحد في الدنيا يبقى كده .. لازم يبقى

نصاب .

— أمل بتشفه عندك ليه ..

ضحك قائلاً :

— علشان نصاب ..

— الصحفيين نصابين ..

— طبعاً ..

— حتى ..

كدت أسأله وحتى أنت ؟ ثم بلغت السؤال ، ولكنه فهمنى فصاح

ضاحكاً -

— عايزه تقولى حتى أنا .. أيوه .. أنا نصاب .. انت عارفة يعنى إيه

نصاب .. دى موهبة .. حاجة موش سهلة .. إنك تلغى مشاعرك الحقيقية ..

تلغى أفكارك الحقيقية .. وتظهرى .. للباس بالمظهر اللى هم عايزينه ..

تخليهم يعيطوا وانت في قلبك بتضحكى .. تخليهم يشعروا .. من غير

ما يعرفوا هم ثايرين ليه .. انت لسه صغيرة . بكرة لما تبقى معئلة كبيرة

ح تعرفى ..

— ح أعرف إزاي أبقي بصابة .

— ح تبقي نصليّة قعلاً ..

— لكن يوسف موش مصاب ..

صباح :

— يوسف استاذ في النصب .. ده نوع جديد ما ظهرش زيه في العالم ..

علشان كده له مستقبل .

— أنا شايقة إنه طيب جداً وما بيعرفش يكذب

صباح في لتفعل :

— يوسف لما يقول الحقيقة يبقى كذاب .. لما يظهر طيبته يبقى قاسي

سالته في قلق :

— يعنى ما بيعجنيش ... ؟

— لا .. بيعبك .. إنما موش ح يتنازل عن العرش علشان حبه

همس يوسف بصوت مرتبك ..

— أنت رأيك فيه وحش قوى يا استاذ ناجى ..

— بالعكس .. أنا رأيي فيك كويس جداً .

قلت في حدة :

— أنا مش فاهمة حاجة ..

— بكره ح تفهمي ..

لما ذا يهالجم يوسف بكل هذا العنف ، أيفار منه ، لأن يوسف شاب ، وهو

عجوز ، لأنى أحب يوسف ، ولا أحبه هو ، ما الذى يريد ، إن عنده كل

شيء ، وهو جريء واثق من نفسه ، كأنه يريد أن يقول لى أمام يوسف ، اتركه

وانضمى إلّى ، انضمى إلى حريمى .. من تلك المرأة التى كان يحدثها في

التليفون منذ قليل ويقول لها في رقة يا حبيبتي .. دلال أخرى .. وتذكرت

الكلب ..

— الكلب اللي بره خوفنى .. كبير زى الحصان .

— موني ما يعرض ..

— جيته عنين ..

صوب إلّى عيتين فاحصنين ، وقز .

— ده كان كلب المرحومة دلال .. الوصية الوحيدة اللي قالتهاى .. لو مت

يا محمد أبقي خد بالك من تونى .. كانت فعدة هوا على الباز .. مكالك . لا .

مكان يوسف .. وكانت شريت كثير ، يومها رفضت الصبح فيلم بحمستاش

ألف جتية المنتج حاول بيوسها وهو بيدبها الشيك ، قطعته ورمته في وشه ،

سألته ليه عملتي كده ، قالت علشان ربحه بقه كانت وحشة من السيجار .

معجونة .. كان لها ردود غير متوقعة ، ونصرفات لا يمكن أن حد يقتبأ بيها .

كلمة تخليها تضحك ، وكلمة تخليها تعيط أسبوع .. كانت هريانة من همت

باشا ناظر الخاصة الملكية ، وكان في عزه كلمنى رئيس الوزارة وقالى أطردھا

وما تعملناش دوشة .. قلت له يا باشا ما أقدرش ..

قال لى أنا موش ح أقدر أحوش عنك المصايب اللي جلايك ، قلت له ولو ..

ورجعت في يوم لقيتها هربت علشان تنتحر ، شريت قنبوية أسيرين في بيت

امها ، وأنقذناها من الموت ، الدكتور زيدان ، ح تشوفوه دلوقت هنا .. عمل

لها غسيل معدة ، بعد ما فاقت رجعت تانى عندي ، وكنا قاصدين هنا .. فافكر

كنت بأقول لها .. ويهدين يا دلال .. موش تهدي شوية يا حبيبتي .. قالت

لى .. يعنى إيه أهدي .. أنا ح أهدي لما أموت وح أشبع هدوء .. ح أسيب

الدنيا وأنا موش نادمة على شيء . حاجة واحدة بس لللى عايزاك تعملها لى ..

تاخذ بالك من تونى .. لو مت يا محمد أبقي خد بالك من تونى ، قلت لها ..

وأنا مين ح ياخذ بالك منى .. ضحكت وقالت انت تصلب ..

وجال بعينييه يبحث عن أثر كلامه في وجهينا ، وفي وجهي أنا بالذات وضحك

قائلاً

— ما يتشربيش ليه .. عين يا محمود المزه

كان الخادم قد ظهر وقد أحضر معه مزيداً من اللّنج .

وقال محمد ناحي وهو يصوب نظرات غاضبة إلى الخادم الذي تراجع

مسرعا .

— لسه الحفلة ما بدأتش وحضرته ح يسرح ..

ثم قال بصوت خفيض .

— فيه أول واحدة نيهتني إلى أن كل الفنانين والصحفيين والمشهورين نصابين . كانت بتقول على نفسها نصابة .. موش راضية عن أغانيها وموش راضية بحسوتها . لكن ترعل لو الناس ما اتهيلتش وصفقت لحد ما تجرح ايديها .. ترعل لو حد كتب في جرنال إنها عنت موش ولا بد .. تبقى مصيبة ثم التقت إلى رسالتي :

— تفنكري ممكن تبقى زى دلال

همست

— أنت خوفتني من حياتها ..

قال في هدوء :

— لو كنت خايفة .. يبقى ما فيش فائدة منك .. ح تفضل طول عمرك كومبارس ..

قلت محتجة :

— معنى لازم أعيش عيشتها .. علشان أبقي حاجة ..

فمط شفتيه وقال وهو يقرب الكأس من فمه

— لا موش ضروري .. بس ح يبقى ناقصك حاجة .

وشرب بقية ما في كأسه وقال :

— لما أعرفك كويس .. ح أقولك أنت ناقصك ايه .

وسمعنا صوت جلبة عند الباب ورجل يصيح .

— استولفين يا جماعة

وظهر الرجل ، قصير ، ملء ، أسمر ، رأسه مربع ، وشعره الاكروت منفوش كالسماير المدببة .. وفي فمه سيحار ضخيم ينفث منه دخاناً كثيفاً . كان مزهوا بنفسه ويدخله المسرحي وهنف عندما رأى محمد ناجي وراء النار .

— انتو بديتم من بدرى ..

وصاح محمد ناجي

— أهلا دكتور ..

ثم التقت إلى قاتلاً في مخزية :

— أهو النكد جه ..

قال الدكتور وهو ينفث الدخان في وجهي ..

— الحق عليه اللي بيعالك ..

وقدمنى محمد ناجي للدكتور زيدان ، ثم قدم له يوسف ، وناولته كأس

مارتينى .

بعد ربع ساعة ، كان البيت قد امتلأ بالمدعوين ، أغلبهم يرتدون ملابس الصيف العادية ، الشباركسكين أبيض أو الفريسكا الكحلي أما السيدات ، فكان جميعاً عاريات الظهر عاريات السواعد مثلى ، يفوح منهن العطر ، والاصباغ تخفى بعض قبحهن ، كنت أصفرهن ، وهناك واحدة نصف جميلة في حوالى الخامسة والثلاثين من عمرها ، تتكلم بصوت منغم ممطوط وتلوح بيديها في حركات مضحكة ، أما الباقيات فمجانز لفرق الخامسة والأربعين ، صيفن شعورهن ، أو تركن البياض يجبل رموسهن بتيجن من الوقار ، ولكنهن يضحكن من غير وقار ، ويدخن في شراة ، ويشربن الويسكى في شراة .. كان الشيء المشترك بين المدعوين هو كبر سنهم ، وفيما عدا ذلك فهم الغرباء ، كالجرر المنزلة في بحر كبير ، يتبادلون النظرات والابتسامات في تصنع ، وينفثون الدخان في وجوه الآخرين ..

لم أعد أشعر بالقلق ولا بالخوف وكان المارتينى قد بعث براسى ، فرسعت على شفتى ابتسامة ، والقيت بنعسى في غمار الناس ، وقدمنى محمد ناجي إلى كتلة مستديرة من اللحم ، وقال لي إنه قدرى باشا وزير الأوقاف ، إنه بالون ضخيم مفوخ ، يهدد بالانفجار في أية لحظة ، وجهه أملس ليس فيه بقوه تهببت بصعوبة الثقلين اللذين يشيران إلى أنفه ، كأنهما مرسومان في بالون صغير فوق جسمه البالون الكبير ، عيناها منحرفتان ، واحدة تحده إلى اليمين ،

والثانية تنحه إلى اليسار ، كأنهما عينا ضعيفة .. تحركت عيناه نحوى
وحمدته مكبهما عيان لا حياة فيهما ، تلجيتان ، وقال بصوت رفيع ، صوت
عمر .

— اريب يا مدمو اريل .. ما شاء الله .. كل اللي شافوكي بيقلولوا إنك مثلي
كوسر .. ولب مستفل عظيم
قلت في ذهنة

— لكن أنا نسه ما مثليش يا باشا
هأدار رأسه في حيرة ، واستجد بشاب رياضي يقف إلى جانبه ، له وجه
حيوان مفترس وعضلاته بارزة وفي عيبيه نظرات تحد واستعداد للقتال ..
وسأل أباشا الرياضي

— به . هيه موش ممثلة

فقال الرياضي وهو يرسل إلى نظرات تهديدية :

— أيوه .. مغبوط يا سعادة الباشا

فتمتم الباشا في بلاهة ..

— ما شاء الله . ما شاء الله . وبغنى .

— لا . بامتل بس ..

فتمتم من جديد ..

— ما شاء الله .. ما شاء الله ..

وقال الحيوان ذو العضلات

— أباشا معجب بيكي يا مدموازيل . أنت حظهك من السما

وتمتم أباشا من جديد بصوته الرفيع .

— ما شاء الله . ما شاء الله

وامتدحت أول فرصة وهرمت من العاشا ، بحثت عن يوسف فوجدته يتحدث

مع الدكتور ريدان وقبل أن اقتربا منهما ، اعترض طريقى محمد ناجي

هاتعاً ..

— تعالى هدا يا سامية . رايحة فين .

— ولا حاجة

— موش مبسوطه

— مبسوطه ..

— فين الكأس بتاعك

وجذبتني من يدي ، وأخذني إلى البار ، وقال

— عملتي إيه في الفيلم الجديد اللي بالالوان ..

— لسه مستنية النتيجة

قال في هدوء :

— ح أشوفك لوحدك امنى ..

— ليه ..

— خايفة .

— أبدا

— انت عايزه تتخلفى من أول وجديد .. أنا ح اتولى للإشراف على

مستقبلك ..

وناولني المارتينى .. قلت

— تفكر .. يعنى ح تعمل لى إيه .

قال في ثقة .

— ح أغرمك

— ماله ..

قال وعيناه تمولان في جسدى .

— لازم تبقى عبيطة شوية ..

— عبيطة .

— أنت عارفة كل المثلث اللي وصلو كانوا إيه كانوا طدى غبط

شغايف تخينة . وعين رى النقر . أو شكل سادج عبيط وعين فيهم براءة

وغباء .. البراعة ما تنفعكيش . إيم العبط بيعطك ح يحليكي جنار

— وإن ما كنتش عبيطة .

— ما حدث ح يشـفـاك .. ح يخافوا منك .. إنما مقرورة مطهش .. كل
المعتلات المشهورات في منتهى الغباء ، وفي منتهى القصور ..
— أعوذ بالله ..

— عيبك إنك ذكية أكثر من اللازم ..

— عرفت منين ..

— بتفكرى كثير .. أنت عابرة إيه .. عابزة توصلى .. عابزة تبقى مشهورة ..
ده موش بالبساطة اللي أنت فاعها ..

— أنت بتتكلم زى أنور سامى ..

هتف وهو ينظر خلقى :

— جينا سيرة القط .. جه ينط .. ازبك يا أنور ..

وتعانق الاثنان ، وصرخ أنور في وجهى ..

— امشى من قدامى يا بت .. أنت ورايا مطرح ما أروح ..

ثم التفت إلى محمد ناجى متظاهراً بالدهشة ..

— مين اللي جابها هنا ..

قال محمد ناجى :

— أنا ..

فصاح أنور

— والله وصلتى يا بت .. خلاص ما حدث ح يقدر عليكى .

ثم رفع يده بالتحية :

— السلامو عليكم .. أنا ماشى ..

سأله محمد ناجى :

— رايح هين ..

قال وهو يهز كتفيه :

— مالناش عيش في البلد دى ..

ثم صاح أنور في وجهى وهو يبتسم :

— أمردلوقت أنا مهمت ليه بتتكبرى علينا .. لك حق يا بنتى ..

واتحنى في حركة مسرحية قاتلاً :

— احترقتمنا يا أقندم .. احنا خدامين السيادة .

والتفت إلى محمد ناجى قاتلاً وهو يغمز بعينه :

— حضرتها يقتل على .. موش كويسة دى ..

كان يوسف يقف عند الباب ، ينظر إلينا ، وليس على وجهه أى تعبير ، ولما

التفت عيوننا ، استدار واختفى ..

ودخلت امرأة عجوز تبحث عن أنور قالت له وهى تتهد :

— أنت رحى هين يا أنور ..

فصاح أنور على أنفى وهمس ..

— شايبة الكركوبة دى .. أوصى تسيبنى ..

ثم التفت إلى الكركوبة هاتفاً ..

— أنا جاي يا روحى ..

وجذبني من يدي ، وذهب إلى شلة من العجائز وجلس وسطهن وأجلسنى

إلى جواره .. قال لهم مشيراً إلنا :

— تعرفوا بنتى .. سامية سامى

وارتفع أكثر من تطليق ساخر .. فصاح :

— أيوه اشنموها أحسن والنبي مغلبانى ..

وجمعت ، وقد لحقت قدرتى على الكلام ، وانطلق أنور يلرثر ..

— ما فيش حد مريحنى في الدنيا دى .. هياتى كلها شقا في شقا .. وأنا فقير .

ما كلتش حد يسأل عنى .. أى حنة واد هلفوت لابس جزمة مقطعة .. قلت

بلاش يا واد تبقى فقير .. وحرقت دمي لحد ما بقى عندى فلوس .. دلوقتى

بيقولوا .. شوفوا عنده إيه . شوفوا الهلفوت الكحيان بأه معاه فلوس

إزاي .. إن شاء الله يموت ..

صاحت أكثر من واحدة في صوت تلعب به الضمير ..

— بعد الشر عليك ..

فنظر في عينيهم واحدة واحدة وهو يقول :

- يعرفوا . حتى أمي .. يتتبعني موثي . علفان مورثتي . الست اللي
بتكح . سر معددهاش أسنان .. أه يباري . أما لومت صحيح .. بيعني أكبر
مقلب عمله عيه رينا .. ح أوصي أتني أندفن ومعايا فلوسي . والا شوفهم
ينمتعو بالعلوس .. وأما رمي متلفح في الكفن . دنا كنت أموت ثاني . كنت
أتشبح . وأمسك في الكفن وأرقع بالصوت

ومال عني أدسي ، فأتار فصول من حولنا ، وهمس بصوت خفيض .
- ح تروحي معايا الليلة ..

همست

- لا .
فصاح بأعز صوته ..

- إن شاء الله أنت اللي تموتني يا سامية يابنت أنور .. واقترح فيكي .
ثم عاد ومال على أذني وهمس بصوت فيه خبرة خوف

- أوعى تقولي لحمد . أمي دي أموتك فيها بصحيح .

وصحكت ، وجاء الرياضي ، واقترب مني ، وقبل أن يميل برأسه ، صاح
فيه : نور .

- حاسب . أحسن دي بتعض

وهمس الرياضي

- تسمعني يامدموازيل في كلمة .

نهضت وسرت معه إلى أحد الأركان . وقال لي وهو يضع كفه الغليظ على صدره

- أنا بيسيوي سكرتير معالي الوزير .

وهرش قفاه ، ثم قال وهو يقر بأصمعه على كتفي

- معالي الوزير عنده حفلة بكرة الساعة أربعة بعد الظهر .. حفلة على
الصيق . أنا ح أفوت عليك وأحدك هناك .

حوت رأسي في حدة ، فالتفت عيناى بيوسف ، كان مازال يتحدث مع
لدكتور زيد . وحول عيبيه بعيداً عني . كنت أصيح وأناديه .. كنت خائفة

من الحيوان الذي يعف أمامي ..

قلت بصوت غير مسموع .

- موثن ح أقدر ..

قال الحيوان بلهجة أمره ..

- ما تزعليش معالي الوزير .. احنا ما بعدرش على زعله .. ولو عرف إبت موثن

جاية .. ح يزعل من محمد بيه . ويسيب الحفل دلوقت ..

قلت متوسلة

- طيب كلمني بكرة .

قال في هدوء وحشي :

- ح اكلمك .. أنا عندي تمرة التليفون ..

وجريت ناحية يوسف ، فلم يبد عليه أى شيء ، وتذكر الدكتور زيدان عندما

رأني أن سيجاره غير مشعل ، فأخرج علبة الثقاب ، وقال وهو يشعل

سيجاره :

- أنا شايك مبسوطة يا مدموازيل .

وقبل أن يكمل حديثه ، كان يوسف قد ابتعد عنا .

ماذا به .. أهو غاضب مني ، أخاصمني ..

وسمعت الدكتور يسألني :

- هيه .. عاملة ايه في السينما ؟

- ولا حاجة .

- أنا بأسمع منك كلام عظيم ..

- كله دعابة ..

قال وهو يفت الدخان في عيني :

- لو السينما ما هجبتكيش تعالى عندي في المستشفى ..

صححت في استنكار

- معرضة ..

قال محتجاً

— وهيا إيه .. ح تكسبي فيها زى السينما واكثر ..

ثم قال بلهجة مسرحية

— دى مهنة شريفة .

ثم ضحك قائلاً وهو يشير حوله إلى المدعوين :

— تعرف أنا بتكسب إراى . لأن فيه بنات حلوة زيك فى الدنيا .. الأحلام بتداعب خيال العواجين .. عايزين يبقوا شباب .. يشوفوا واحدة زيك .. وتانى يوم يكونوا عندى فى العيادة .. أو واحدتين لوصة فى المستشفى .

قلت وأنا أقاوم ثورة من التحدى تجيش فى صدرى :

— كلهم نصابين ..

فنفث الدخان من جديد فى وجهى وقال :

— لا .. ما تقوليش عليهم كده .. دول كبارات البلد .. وانت لسه شابة صغيرة .. بكرة تقمى .. وتقدرى ظروفهم .. دول عندهم مسئوليات .. وعايزين يتحببوا شوية .. عايزين يفرحوا .. عيشتهم موش سهلة .. وقال لى بيتا من الشعر العربى القصيح ، لا أذكرك ..

وفجأة جحظت عيناه وهتف كاللسوع :

— شهدى باشا وصل ..

وقبل أن انتبه ، كان كل من فى الحفل قد هب واقفاً ، السيدات والرجال .. وتزاحموا على رجل أبيض سمين ، وجهه محمر ، شعره مسجوب ، وفى فمه سيجار أكبر من السيجار الذى كان يشربه الدكتور زيدان .. كانوا يحيونه فى احترام شديد ، ما عدا أنور ، صاح فيه .

— ادبى قرش يا باشا .. والنبي ادبى قرش ربنا يخليك ويجعل بيت المحسنين عمار .. بيقولوا فلوسك بتحبب البركة ..

وأعطاه شهدى باشا نصف ريال فأخذه وقبله ، ووضع على رأسه ثم عاد وقبله ، وجعل يتفرل فيه . تقدمت بغير وعى منى إلى شهدى باشا ، كالغنى مومة ، وبفدت عيناها الضيقتان فى عينى ، وسمعت صوت محمد فالحى يقدمنى له :

— مدموازيل سامية سامى .. تجمة جديدة فى السينما ..

قال وهو يصافحنى بيد لينة طرية :

— بونسوار يا مدموازيل ..

فى أصبعه خاتم فيه قص على لا يقدر بشئ .. وفى رباط عنقه ياقوته حمراء .. كان يتحرك وكان حوله هالة من نور ، والعيون ، كل العيون تراقبه ، ولح يوسف مبتهج ، وصاح لأول مرة :

— ازيك يا يوسف .. بقالى مدة ماشفتكش .. هيه عامل إيه يا ابنى ..

ولف ذراعه حول كتف يوسف ، وانتحى به ركناً ، وجلسا وحدهما ، وكان

محمد ناجى ينظر إليهما وعلى وجهه علامات انفعال غريب ..

وصاح أنور سامى من بعيد مخاطباً شهدى باشا ..

— يا باشا .. أنت قاعد بعيد عنا ليه .. احنا عايزين نلعب روليت ..

قال محمد ناجى :

— بعد البوفيه ..

وتقدم من شهدى باشا وقال :

— اتفضل يا باشا اتقدمنا ..

والفت شهدى باشا إلى إحدى السيدات ، وقال لها :

— اتفضل ..

وثبهم جميع المدعوين ..

وجدتني أتاخر .. حتى ذهب الجميع إلى البوفيه ، ما عدا يوسف

قلت وأنا أقترب منه :

— موش ح تقمى ..

— ما ليش تقمى ..

— أنا كمان .. ح اتقدم معاك ..

قال وهو شارد :

— أنا عايز أمشى ..

— وأنا كمان ..

— ما تخليكي .

— تعالى .. نخرج .

وأمسكت بذراعه .. وسرنا ناحية الباب ، وقبل أن ينتبه أحد إلينا ، كما عبرنا الحديقة ، ووصلنا إلى الشارع . لم ينتبه إلينا سوى توني الذي يبح مرة واحدة ، وكأنه يتتاعب .. ثم سكت

بالرغم من كنوس المارتنيزي التي شربتها ، كنت متيقظة ، منتبهة العواس ، أشعر بتحفظ وحيوية دافقة ، وكان تفكيري صافياً ، وهكذا خيل لي ، وكان يوسف يسير إلى جوارى صامتا ، لا يشعر بوجودي ، أو يتجاهلني ، وقبل أن أقول له شيئا .. فكرت .

هناك بين عالين ، بين حياتين ، تلك الحياة التي تركتها ورائي في بيت محمد ناجي ، المجد والشهرة والحياة الصاخبة ، والثراء ، والأتوار ، والعيون التي تتخاطفني . وكل الأشياء التي أحلم بها وأتمناها .. كل هذا ، أو .. أو يوسف .

إبه ليس واحداً منهم ، ولو أبقيت عني حبه لسيضيع مني كل شيء آخر ، ولو قبلت العروض التي تهامنت عني في بيت محمد ناجي . سيضيع مني يوسف

لأنني أن أختار الآن ، فهنا أن أصالحه وأتمسك به ، وإما أن أتركه هذه اللحظة وبفترق .

كانت أفكارى واضحة ، إلى حد يثير دهشتي من نفسي ، المستقبل مفتوح أمامي محدداً ومرسوماً كالطريق الذي تسير فيه ، ونظرت إلى يوسف ، وجهه شاحب صامت ، يبدو عليه الإجهاد ، ولم أتردد في الاختيار ، كنت أحس

بقوتى وشبابى وجمالى . لقد اخترت يوسف . هو الذى احبه . هو الذى اريده . هو مثلى الاعلى .. نعم . اخترت لك الشاب الذى يسير الى جانبى . الذى لا يحوطه مجد ولا شهرة . الذى لا يملك عريه .. نعم اخترته .. فهو وحده الذى يملك ان يقدم لى الحنان .

وكما يصعد يوسف سلم الصحافة . ساصعد انا سلم التمثيل . ساقاوم الإغراء . ساقاوم الشهرة السهلة . ان ما يعرضونه على ان يشفيئى . ولن يخلصنى من تعاستى . انا الان اعقل واذكى من ان احطم نفسى . سأتحدى الجميع . وساصبح اعظم ممثلة . واعظم عاشقة .

- يوسف .. أنت ساكت ليه !

- تعيلن ..

- باين عليك متضايق ..

- ابدأ ..

- انا زعلتك فى حاجة ؟

- لا ..

- طيب كلمنى .

- الاول إيه !

- أنت بايخ ..

- قال متنهداً :

- صحيح .. انا بايخ ..

وكنا قد وصلنا إلى مفترق طرق يقف عنده تاركى . فاتجه إليه يوسف .

- ح نروح هين !

- قال فى حدة :

- ح اروحك ..

- انا موش عايزه أروح .

فنظر إلى مستفسراً . فهمست :

- تعال نروح الشقة .

قال فى دهشة :

- دلوقت ؟

- قلت متوسلة :

- عايزه أقعد معاك شويه ..

وزهبنا إلى الشقة .

حاول ان يجلس بعيداً عني . ولكننى جديته إلى الكفة . وجلست بين ذراعيه .

- يوسف يا حبيبى .. موش معقول ماتقوليش إيه اللى مضايك .

زفر الهواء وقال فى ضيق :

- انا نفسى موش عارف .

- انا عارفه .

فسألنى بعينه عما أعرف ؟

فقلت :

- الناس اللى كانوا هناك .. حاجة غريبة .. موش كده . زى المجانين ..

فابتسم ابتسامة حزينة . فأسرعت أقول :

- ومحمد ناجى .. تعرف . الراجل ده موش بيحبك زى ما أنت متصور ..

- تفكرى كده ..

- شفت كان بيهاجمك إزاي .. هو فاكرك إيه .. إلا ساعة ماجه شهدى باشا

وأخذك على جنب وقعدتم تتكلموا سوا . ياساتر على عنيه .. كان بيوصلكم

زى ما يكون فيه حاجة بينكم أنتم الاثنين وح يموت هلشان يعرفها .

فقال فى عصبية .

- ح يكون بينا إيه .. أنت بس متهيا لك .. ما فيش حد ساعدنى زى محمد

ناجى ..

- الحقيقة انا موش فاهمها ..

- راجل طيب .. بس بيحب يتكلم عن نفسه كثير ..

- ياي .. ده مغرور ..

- يستحق إنه يبقى مغرور .

قلت له في حدة

- يوسف أنت موش عاجبني تعرف إيه اللي مضايقتك . إنك مستسلم لهم .. سايب نفسك يعملوا فيك زى ما هم عايزين .. يقولوا عليك زى ما يقولوا .. لعدة في أيديهم .

وأنا أقول له هذه الكلمات ، أدركت أنني أتحدث عن نفسي أنا أيضا .. فلقد كان هذا هو حالى وصمت ..

- دول هاكرينك أهبل

كانت كلمة قاسية ، صدمته ، وجعلت وجهه يحمر ، وصدره ينتفض ، وكأنه يريد أن يتعد عنى - أنا ضايقتك يا حبيبى .
قال في ألم :

- عايزانى اعمل إيه .. أنا ما فيش بينى وبينهم حاجة غير الشغل . وباعمله .

قاطعته

- لكن أنت .. أنت عايز إيه . عايز تبقى إيه ؟

نظر إني في حيرة ، فسألته

- عايز تبقى زى محمد ناجى ؟

قال بسرعة .

- لا ..

- أعمل عايز إيه ؟

- موش عارف .. موش عايز حاجة ..

قلت وأنا أقبله في جيبه :

- لكن أنا عايزاك تبقى أحسن منهم كلهم .. موش ده اتفاقنا .. أنت ح تبقى أحسن صحفى في مصر .. وأنا أحسن ممثلة .. وقيلته .. وهممت في أنه .

- بكرة يبقى لك الجرنال بتاعك .. وأنا يبقى في شركة أفلام ..

قابقسم في مرارة وقال

- أنت بتعلمي .

قلت محتجة

- بأعلم ليه .. هم الناس دول أحسن منى ومنك في إيه . اتولدوا من طينة ثانية ..

- زى ما يكون كده ..

قلت في عار

- بكرة تشوف ..

ورأيت في عينيه لغة غريبة ، وضمنى إليه بقوة ، وقبلاني . استسلمت لقبلاته ، كنت أشعر أنه في حاجة إني ، وأنى يجب أن أعطيه وأعطيه ، أحسست بشفتيه تمرحان في وجهى وعنقى ، وكأننى سابحة في الهواء ، بعيدة عن الناس ، بعيدة عن الدنيا كلها ..

وأغمضت عيني ، ولم أعد أفكر في شيء ، حتى يوسف لم أعد أفكر فيه ، لم يبق لي إلا ذلك الشعور الغريب بانى في عالم مجهول ، عالم لي أنا وحدي ، دافئ ، ساحر ، ليست فيه أفكار ولا خيالات ولا عراطف ، وإنما فيه نشوة وحنان ، ولم أعد أسبح في الهواء ، وكأننى أطفو على صفيحة محيط كبير عميق هادئ .

وفتحت عيني ، وكان يوسف راقداً إلى جوارى ، ول عينيه حب وكسل وحنان .

وأبتسمت .

وأبتسم ..

كأننا نتعارف لأول مرة ، وحكيما لعصنا حكاية طويلة بلا كلام ..

في تلك الليلة ، أيقنت أنى ارتبطت بيوسف طوال حياتى ، إنه حياتى ، وقررت أن أبذل كل ما أستطيع كي لا أتركه يفرمنى . سأتزوجه ، سأهجر

أمي ، سأهجر التمثيل واتزوج .. سأهجر كل شيء ، وسأتزوج يوسف وأعيش معه .

●●

اتصل بي بسيوني في الصباح ، ذلك الحيوان الرياضي ذو العضلات ، كان يذكرني بموعدي بعد الظهر مع الوزير ، رفضت طبعاً ، فحاول أن يهددني ، ولكنني شتتته ، وأنهيت المكالمة .

قلت لنفسي ، إنني أتصرف كما لو كان حتى أقوى من أي شيء ، كائني تحررت من حياتي السابقة في غمضة عين ، ولكن .. هل أستطيع حقاً أن أتحرر من حياتي السابقة ، إنها مليئة بالأشباح .. مدحت ، وأنور ، ومحمد ناجي ، كلهم لن يرحموني ، كلهم يعرفون يوسف وقد يقولون له ما يحطم هبي .

لأبد أن أجد مخرجاً من هذا المازق الذي أنا فيه .

وبأجاء الليل ، ذهبت مع يوسف إلى الشقة ، والحزن يطبق على صدري ، وشربنا البيرة ، وأسرفت في الشراب ، حتى دارت رأسي ، وبكيت . لم يدرك يوسف سربكائي ، ونظر إلي في أسى وحيرة ..

وفجأة ، وجدته أنطلق في الكلام .

قلت له والدموع تنهمر من عيني

- أنا قتلت بابا يايوسف .. فأصفر وجهه ، وقال بصوت مرتعش :

- ما تقوليش كده يا حبيبتي ..

- أنت ما تعرفش إيه اللي حصل .. أنا ما كنتش كده زمان يايوسف ورويت له

قصتي مع أبي ..

●●

كما نسينا في العباسية ، أبي وأمي وأنا وشقيقتي إنصاف ، وكنت سعيدة دائماً بالمرح ، فخورة بأبي ، لأنه يرتدي بدلة ضباط الجيش ، على كتفه تاج وحملة ، والعساكر تهبط واقفة كلما رآته ، وترفع له يدها بالتحية ، كنت أظن أنه لا يوجد إنسان في الوجود أهم من أبي ، إنه أحسن من كل الناس ، حتى

الملك ، وكان يحبني أكثر من أي فرد آخر في أسرنا ، إذا تشاجر مع أمي وخالصتها ، أخذني معه ، وساربي في الشوارع ، وجلس معي في المقاهي بين أصحابه .. ثم عاد بي إلى البيت ، وطلب مني أن أنام في أحضانه ، وتكون أمي قد تركت حجرته ، وذهبت لتنام مع إنصاف . لم أكن أفهم لماذا يتشاجر أبي مع أمي ، ولكنني كنت أحتاج له ، بل كنت أغار من أمي إذا صالحت ، ورأيتهما تضحك معاً ، وتتركني لأنام مع إنصاف ، وتذهب هي لتنام مع أمي في حجرته ، وتغلق عليهما الباب ..

ثم كان عصر يوم ، خرجت فيه أمي في الصباح ، وتركنا في البيت بد طعام ، وكنت أظن أن أبي مسافر إلى أرضه بالقرب من طبعاً كما قالت لنا أمي ، ومضت الساعات وأمي لا تعود ، وأبي غائب . وشعرت بالخوف ، حتى أن موعد الغداء فات دون أن أحس بالجوع ، وزاد من خوفي أن إنصاف شرعت تبكي لأنها جائعة ، هبطت السلم وصعدته مائة مرة وأكثر ، أنتظر عودة أمي عند الباب ، أو عودة أبي ، وكنت أتمنى أن يعود أبي قبل أمي ، لأشكوها له ، ثم أبعده وأنتظر عند النافذة ، ولا أحد يجيء ، لا أبي ولا أمي ، وإنصاف لا تكف عن الصراخ .. أنا عايزة ماما .. أنا عايزة ماما .. ولم أتمالك نفسي فبكيت أنا أيضاً ، حتى كان العصر ، فرايت من النافذة عربة حنطور تهبط منها أمي ، قابلاًها عند أول السلم ، وكان وجهها حزيناً وفيه قسوة ، وبلاوعي سألتها باكياً :

- بابا غين ياماما ؟

قالت في خشونة :

- أوعى تجيبني سيرته على لسانك أنت فاهمة ..

- ليه ياماما ؟

صاحت في قسوة لن أغفرها لها

- خلاص .. أبوكم سابكم .. موش عايز يشوفكم ..

- هوه فين ياماما .. أنا عايزة أروح له ..

- أخري يابنت .. إحنا اطلقنا خلاص ..

لم أفهم ماذا تعنيه أمي بالضغط .. ولكنني أدركت أن شيئاً خطيراً قد وقع .
وعندما مرت الأيام وطال غياب أبي ، بدأت أدرك أنه لن يعود . ومنذ ذلك
الوقت ، ذهب عسى مرجى ، وفقدت سعادتي .
كنت أصحك والعب . وبعد ذلك بسنوات كنت مازلت أضحك والعب ،
ولكني لم أكن سعيدة أبداً ، حياتي كلها أصبحت تظاهراً بالحياة .
وعندما كبرت ، كنت أتودد لأمي ، لتحكي لي عن أبي ، وكانت تذكره
بسوء ، وتسب إيامه ، وتلعن عيشتها معه ، ولكنها أحياناً كانت تضحك ،
وتروي كيف تزوجها .

كانت وقتها في مصر الجديدة ، ولم تكن مدينة كبيرة كما هي الآن ، مجرد
بيوت قليلة متفرقة ، وصحراء ممتدة لا أول لها ولا آخر ، وكان أبي يغزلها ،
يمر أمام بيتها في أوقات محددة ، ويقب رافعاً رأسه إلى النافذة المغلقة التي
تقف وراءها ويظل يدور ويحيى ، حتى تفتح النافذة خلسة للعظة خاطفة ثم
تغلق خشية أن يراها أحد ، وتقدم أبي ليتزوج منها ، ولكن أهلها رفضوا ،
وزوجوه من رجل عجوز ولكنه غني .. ولم يدم الزواج أكثر من ستة شهور ،
فقد ابتكرت أمي كل ما عندها من حيل ، حتى طلقها العجوز ، وتزوجت أبي ..

تقول لي أمي شيئاً لا أصدق ، ويخيل لي أنها اخترعته لترضي غرورها ،
إنها تقول إن أبي كان يذهب في الليل ومعه أصحابه إلى بيتها الذي كانت تعيش
فيه مع زوجها الأول العجوز ، وكان يغني لها على أنغام العود ، وكان العجوز
يبدى دهشته من الضجة خارج البيت ، ولا يفهم سرها ، إذ يظن أنهم جماعة
من البسكاري ، لم أصدق هذه القصة ، ربما لأنني قراتها في رواية سيرانودي
برجرالك .. وأمي كانت دائماً تتباهى بحمالها ، وتحب أن تفتخر القصص
التي تؤكد سحر هذا الحمال .. وربما كانت القصة حقيقية ، ولكنني لم
أصدقها ، لأنني أعلم من أمي ، ولا أريد أن أصدق أن أبي كان يغني لها في
الليل ، بينما هي تشتمه ، وتضطره إلى طلاقها ..

ومع مرور السنين ، اكتشفت أن خير طريقة للخلاص من عذابى هو أن

أسمى أبي ، وأصدق أمي ، وكان يحز في نفسي أن أبي لم يسأل عني ، كان هذا
فوق طاقتي

وذات يوم ، وأنا صبية في الخامسة عشرة من عمري ، نادتنى أمي ، وكان
في يدها خطاب ، وقالت لي وهي تمصص شفيتها هارئة :
- عايزه تشوفي أبوكى .. بعد كل الصنين دى ، باعت يسأل عنكم ، ويقول
إنه قاعد يومين في مصر في لوكاندة النيل .. لو حبيتى تزوجيله أنت وإبصاف .
اسألوا عليه هناك .

تريدت ، ولكن سرعان ما تغلبت على ترددي ، وقررت أن أذهب إليه رغم
امتناع أمي ، أما إبصاف فرفضت أن تذهب معي .

كان أبي قد أحيل إلى الاستيداع ولم يعد يرتدى بدلة الضابط .. واشتعل
رأسه بالبياض ، قابلى في بهو الفندق ، وجلسنا على مقعدين حجريين ، وسط
ضجة الداخلين والخارجين ، وتبادلنا بضغ كلمات خجولة لا معنى لها ، كان
اضطرابه أكبر من اضطرابي ، ولم يكف عن التدخين ، وكان صوته مرتجفاً
حزيناً ، وسألني عن أمي وعن إبصاف ، وسألني عن عمي محمود ، وكنت
اجيبه ، ولكنه بدا كأنه لا يستمع لي ، وطلب مني أن أسافر معه إلى طنطا
واقضى معه يومين ، فقلت له :

- لما أقول لاما ..

ولكنني لم أكن أرغب في السفر معه ، إذ شعرت أنه لم يعد أبي ، إنه
شخص آخر ، أحس نحوه بمشاعر تحميتي ، لا أدري ما هي ولما تركته ..
مشيت في الطرقات ذاهلة ، وكان مطرقة ضففة هوت فوق رأسي وهشمت ..
قبل العيد الكبير ، وصلني خطاب منه ، لم يرسل الخطاب إلى أمي ، بل
كتب اسمي على الخطاب ، وكان فيه كلام قريب . إنه بانس ومحب ويريد أن
يراني ، حتى أدخل البهجة على قلبه في العيد .

قلت أمي بسخريتها المعتادة

- ومن امتي بيفتكرك حضرتك في العيد !

قلت لها في حيرة .

- أعمل إيه ياماما ؟

صاحت

- أظن عايره تسافري له .

وشجعتنى كلمات أمى فتجاهلت الخطاب ولم أسافر له ، وفى الحقيقة كنت مدعوة مع يولاندا إلى عزبة صديق لها عدة حمراء كبيرة شيفروليه ، وكنت أقصّل أن أذهب مع يولاندا على أن أبى طلب أبى .
كانت العزبة فى العياط ، دهننا إليها ثانى يوم العيد ، وتضينا اليوم كله هناك ، ولما عدت إلى البيت فى المساء ، كانت هناك البرقية .

مات أبى ..

أتدري كيف مات ، قذف بنفسه من الشباك ومات .. انتحّر .

حاولت أمى أن تمنعنى من السفر ولكنى هربت منها فى الصباح ، واقتضت من يولاندا النقود ، وسافرت إلى طنطا وحدى
هناك فى شارع البورصة ، بيت صغير من ثلاثة طوابق ، أبى كان يسكن فى الطابق الثالث ، وحده .

كانوا قد دفنوه ، واستضافنى جاره ، رجل سمين طويل ، له زوجة سمينة طويلة مثله ، بيتها مليء بالأطفال ، وأخذونى إلى المقابر وبكيت وبكوا معى .
وقال الرجل السمين ، إنه واثق أن أبى لم ينتحّر ، لأنه رجل صالح وتقى ، وقال : إنه يشك فى أن أحد أعدائه قد قتله ، لأنهم كانوا ينازعونه على أرضه .
تلقت هذه القصة وعشت بها . ولما رويتها لأمى لم تصدقها ، فثرت عليها ، ولكننى فى قرارة نفسى كنت أعلم أن أحداً لم يقتل أبى ، وأنه قد انتحّر .

انتحرت لأنى لم أذهب إليه ، لو كنت ذهبت لأدخلت على قلبه البهجة ، ولنسى همومه ووحدته ، ولكننى لم أذهب إليه ، فانتحّر ..

أنا قتلت أبى .. أليس كذلك .

●●

شعرت براحة كبيرة بعد أن رويت ليوسف كل شيء .. وأحسست برغبة فى

القوم ، كأتى لم أتم منذ سنين ، صدورى استراح .. ولم يعد هناك شيء يؤرقنى ، حتى مخلوق من أنور ومحمد ناحى ، تحولت إلى تفاهات ، بعد أن قتلت ليوسف قصتى مع أبى ، أستطيع أن أعترف له بكل شيء ، بلا حجل وبلا خوف .

سأستريح قليلاً ، أريد أن أقضى بصبح دقائق فى صمت ، قبل أن أمضى فى اعترافاتى . نعم .. سأقول له كل شيء .. إيسى أعرف أن صاحب هذه الشقة هو محمد ناحى ، وأنه دعانى لقائه هنا ، وما زال يدعونى ، سأقول له إيسى ذهبت إلى شقة أنور ، وإنى كنت استسلم له .

سأجعله يرانى كما أنا ، لم أعد أطبق الكذب ، ولم أعد أطبق الخوف وسمعت صوت يوسف ، متهدجاً عميقاً وكأنه صادر من مكان سحيق .

- تعرق يا سامية ..

وسكت .

ماذا يريد أن أعرف ..

ثم قال :

أنا كمان قتلت أبويا ..

بعد ليلة الاعترافات ، لم يعد بينى وبين يوسف حجاب يستر خبايانا ، عرف كل شيء عنى ، وعرفت كل شيء عنه ، إنه شيء لا أستطيع أن أصفه ، يكفى أن أقول إنى أصبحت أنظر إلى يوسف .. فلا أرى وجهه بل أرى أيضاً حياته وذكرياته . كنت أرى روحه ، ولا أشك أنه كان يرانى أيضاً بهذه الطريقة .. حدثنى أولاً عن أمه التى ماتت وهو صغير ، كل ما يذكره عنها أشياء تبدو نافهة ، ولكنها محفورة فى قلبه ، يذكر جسدها السمين وهو يجرى مندفعاً إليه فيسقط على الأرض قبل أن يصل إليها ، يذكر عينيها الواسعتين وهما تبتسمان له ، يذكر فستاناً فضياً بالترتر كانت ترتديه مساء يوم كثير الأوار ، وقد بهره جمالها حتى أنه لم يحول حينها طواس الليلة حتى نام ، ما مناسبة تلك الليلة ، إنه لا يذكر .

كان يحبها ، ولم يكن يهتم كثيراً بأبيه ، ولا يشعر به ..

تعرف ياسامية .. أنا ما حبيتش أبويا .. لما شفته بيعيط .. تصدقنى دى ..
كان بيعيط كل يوم زى اسعيل الصغير .. كنت أبص له وأشوف دموعه نازلة على
حدته وعيديه لوبها أحمر ، وابسط لانه ح يموت نفسه عليها .. و حبيته ..
موش بس حبيته .. احترمته .. كان حزنه على أمى هو أول صلة حقيقية بينى
وبيه ..

تعود أن يعيش مع والده بعد موتها معترلة ، يذاكر ، ويجتر أحزانه ،
ويحلم بأمه ، كانت تأتيه في المنام وتقلبه وتعانقه وينام معها في السرير .. كما
كان يفعل وهو طفل صغير ، أويرى نفسه معها في مركب شراعى في بحر هائج ،
وهو يبكى والدموع تبلل وجهه ، ومعى تضحك ، وكان يفيق من حلمه فرعاً
بخشى أن يموت ، ثم يمتقدها ويعتقد حنانها ، فيبكي وهو يقظان ..

وكان يستيقظ في الصباح ، فينظر إلى وجه أبيه ويتذكر أمه .. ويتسائل ،
لماذا ماتت ، لماذا تركت أبييت ، أهو عقاب نزل عليه ، وما الذى جناه حتى
ينزل عليه هذا العقاب ، ويتناول افطاره صامتاً ، ثم يخرج إلى المدرسة حيث
يقضى اليوم منظوياً على نفسه لا يلعب مع أحد ، ولا يهتم بالضجة التى تدور
حوله ، كان المدرسون يعجبون بهدوئه وأدبه ، ولكن حتى هذا الإعجاب لم يكن
يعنيه فى شيء .

كان التلامذة يبهسدونى لأنى شاطر .. كانوا متفانين منى ، وفكرين
أنى ما بالعيش معاهم علشان أنا والد صمام عايز أطلع الأول .. لكن تصدقنى
أنا ما كنتش عايز حاجة أبداً .. لا أطلع الأول ولا الآخر .. وكان يقعدوا في
الفسحة يحلموا ، إلى عايز ييقى ظابط ، وإلى عايز ييقى طيار وإلى دكتور ..
وأسأل نفسى فى سرى ، أما عايز أبقى حاجة .. أمى دنيا أنا عايش فيها
والسلام .. كل اللى بافكر فيه هو أيام ما كانت أمى عايشة .. بلشوقها ..
وأقولها ياماما .. وتنادينى ..

تعرفى .. أنا اتعودت ما أطلش حاجة أبداً .. إيه اللى ح يجينى أحسن من
أمى ، وأمى راحت .. ولو اخترت أى حاجة من الدنيا دى ما هى ح تروح
منى برصه .. مفيش فائدة

وكبير يوسف .

وعرف أن لوالده أقارب أغنياء ، راتب يك . واسه مدحت .. واسه
سعاد ، كان يحسد مدحت ، لا لأنه غنى ، ولكن لأن له أمأ ، وحين إليه في ذلك
الوقت أن سر ثراء مدحت وسرفخامة بيته ، هو وجود أمه

.. كنت بأقول فى سرى .. ده عنده أم ، وعنده أخت .. وأنا الوحيد ، عديش
حد .. ويمكن علشان كده حبيت سعد .. استنكرتها على مدحت .. قت
أخدها لنفسى .. لما حسنها ما فكرتش أنها غنية وأن فقير .. كنت بأقابلها في
سطوح بيتهم ونقرقز لب .. وأبوسها ويتكلم في حاجات عبيطة لحد
ما فوجئت أنها اتعظبت ، زعلت ، إنما حسيت أن ده كان لازم يحصل ،
راحت زى ما راحت أمى .. لكنى فضلت أفكر فيها .. ولتت لنفسى دى غنية
وأنا فقير .. واللى اتجوزها دكتور من عيلة غنية وكبيرة ، وأنا لسه طالب في
الجامعة ما أسواش سليم .. قلت ، لو كنت استنت لحد ما اتخرج واشتغل ،
لكها ما فكرتش ، كانت مستعجلة عن الجواز . الناس كلها بتجرى وراء
حاجة .. اللى عايز غلوس .. اللى عايز يتجوز . اللى عايز يبقى حاجة مهمة ..

أنا كنت عايز سعد وبس .. لكن علشان أوصل لسعد ، لازم أعوز حاجات
تانية كتير .. موش قادر أوصل لها .. وفي الحقيقة موش عايزها . تعرف
ياسامية .. أنت الوحيدة اللى سيبتى كل حاجة علشانى .. موش غريبة دى ..
مع كل الظروف اللى أنت فيها .. لو كنت جيتى هنا مع محمد ناجى كان يبقى
لكى عذر .. لو كنت مشيتى مع انور سامى ماكانش حد قالك حاجة .. لو كنت
فضلتى مع مدحت كنت اتجوزتية .. لكن أنت سيبتى كل شيء . ورضيتى
ببيه .. شفنى قد إيه احنا زى بعض . على العموم كل ده يهون قدام المصيبة
الللى حصلت لأبويا .. تعرفى إيه اتجوز خدمة كانت بتشتغل في بيت مدحت
وروى لي قصة مبروكة ..

كان مدحت يحدثه عنها ، وروى له يوم صبطته أمه معها على السم . وكان
يستمتع إلى حكايات مدحت في فضول ، ويدعش من حراته .. فما انتقلت

مبروكة إلى بيت يوسف . وجد نفسه مندفعاً إلى مغازلتها .. ولم يجد صعوبة في ذلك ، إذ شجعتة هي

في عصر يوم كان أبوه خارج البيت ، وهو جالس يذاكر ، فسمعها تغنى في الحمام ، ولم يستطع أن يقرأ حرفاً ، فقام وذهب إلى الحمام ، فوجد بابها مفتوحاً ، وهي واقفة أمام المراة تمشط شعرها ، ولما رآته ابتسعت في دلال ، ولم تكف عن العناء ، اقترب منها ، فنظرت إليه في جراءة ، فطلب منها أن تصنع له فمجان شاي ، وعاد إلى حجرته ، وبعد قليل دخلت عليه وفي يدها كوب الشاي ، وضعت أمامه ، ثم وقعت إلى جواره وقد ألصقت جسمها به . وسألته عن الكتاب الذي يقرأ فيه . ولم يتمالك نفسه فجذبها فسقطت على حجره . وكانت هذه بداية علاقته بها ..

وجاء يوم ، فلاحظ أن مبروكة تجلس مع والده ، لم يصدق عينيه وانتهر أول فرصة غاب فيها والده عن البيت ، وسألها عن سر جلوسها معه . فقالت له في وقاحة : إنها ليست خادمة ، ولماذا يريد أن يعاملها أبوه معاملة الخدم ، بينما هو يعاملها كمشيقة .

ومرت شهور ، فإذا بالموقف يتطور إلى ما هو أخطر ، فيقع الأب في براثن مبروكة ويقرر الزواج منها ..

- كنت عايز أقول على اللي بيني وبينها .. لكن ما اقدرتش .. خفت أقوله إنها بنت فاسدة وخبيثة ، وبعدين ما يسمعش كلامي ويتجوزها برضه .. طفشت من البيت ، واحتقرت نفسي ، واحتقرت أبويا .. قلت ده موش أبويا اللي اهرقه .. أبويا مات .. أبويا موش ممكن ينسى أمي ولا يفونها .. بعد شويه مات أبويا ، حسيت بالندم ، ماكاش لازم أسببه لو كنت قلت له يمكن ماكنش اتجوزها .. ولا كنش مات .. سكوتى وبعدي عنه هو اللي قتله .. بقيت موش طابق نفسى .. الدنيا دي بقت كلها كذب في كذب .. ماكفش مريحنى إلا حاجة واحدة .. أن أبويا اتخلص من مبروكة . ورجع لأمي .. حاولت مبروكة أنها تشوفنى بعد كده .. لكن رفضت ، بقيت أهرب منها .. دى واحدة معندهاش شرف ولا أخلاق .. مستعدة تعمل أى حاجة .. تصورى لو عشت معاه ،

ورجعت علاقاتنا ببعض يبقى شعورى إيه . حاجة تعرف . تفكرى عملت إيه . يوم جت الجرنال تصال عنى ؟ شافت واحد رسام اسمه شوقى بيشتغل عندنا ، صاحبتة في بقيقة وراحت تعيش معاه .. كده بساطة .. يبقى دى واحدة أسأل عنها ، والا أفكر أساعدها .. بتصعب على بعض ساعات لما تتمسكن . وتمتل نور الطبانة .. لكن ده كله تمثيل في تمثيل .. أول ما تيجي لها فرصة تعيش فيها ، ولا حدش يقدر يقف قصاصها .

وسكت يوسف برهة ثم هز رأسه وقال في بطء وعمل شفثيه ابتسامة :
- ياه محمد ناجي عرف حكاية مبروكة منك .. الراجل ده هرب ما قليش حاجة

همست :

- مانفיש شيء قدمت عليه في حياتى زى العملة دى ..
ضحك قائلاً :

- تعرنى .. مانفיש حاجة نأكد لى أنك بتحبينى زى اعترالك بكل شيء .. أنا مش مصدق أنى لقيت حب بالشكل ده .. أنت ح تعوضينى عن حاجات كتير كانت ناقصانى .. أنا سعيد .. أسعد مخلوق في الدنيا .. سامية .. أنا موش قادر أصدق نفسى .. زى ما اكون اتجننت .

قلت والسعادة تضج في قلبى .

- احنا الاثنين مجانين .



عثرنا على شقة صغيرة من حجرتين في الطابق الرابع من همارة جديدة خلف سينما بارادى . كانت بلكونة الشقة تطل على شاشة السينما ، بعد أن دفع يوسف الإيجار والتأمين أعطانى خمسة جنيهات هي كل ما تبقى معه ، فذهبت إلى دكاكين الموبيليا القديمة في العتبة الخضراء واشتريت من هناك سريراً معدنياً ومرتبعة من الفش حملتهما على عربة كارو ، وقضينا ليلتنا الأولى في الشقة على ضوء شمعة . احضرنا صندوقتشات من الأكسلسيور وبطيخا ونقلنا المرتبة إلى البلكونة وجلسنا نتفرج على فيلم بالألوان اسمه « سالى »

لريت هيرارث وهيكتور ماتير ، واكلنا البطيخ بأيدينا واستفنا ، اكلنا بنهم ،
وعرحا منهم .. وكنا سعداء .

ولم يكن يضايقني إفلاس يوسف لم أشعر بحاجة إلى النقود وأنا معه ..
كنت ألس أي فستان وأصع في قدمي أي حذاء . وتنطلق في الشوارع ونعود
إلى بيتنا . وكأننا نملك كل شيء .

واحياداً كنت أكذب على أمي . وأقول لها : إني سأذهب إلى الاستديو
وأطلب منها أجرة التاكسي . مبدا أعطتها لي دعوت يوسف إلى العشاء في
الأمريكين . واكلنا جيلاتي ثم نعود إلى الشقة ونشاهد الفيلم الذي تعرضه
سينما بارادي حتى ولو كنا رأيناه من قبل أربع مرات . ولكني ذهبت إلى
الاستديو مرة بعد أن اتصل بي الأستاذ حلمي وكانت الأخبار قد وصلت من
روما تقول إن المخرج الإيطالي أعجب بشكلي ، وأنه وافق على أن أمثل دور
فاطمة .

دخل علينا أنور سامي ، وما كاد يراني حتى صاح في مزح ..

بتعمل إيه هنا ياسامية ..

قال حلمي :

- خلاص وافقوا في روما عليها فبدأ عليه الفرح .. وهنأني في حرارة .. وقال
فجأة ..

- أنت ح تبقى ممثلة عظيمة .. أنا متأكد ياسامية ..

كان يتكلم في تأثر وحرارة ، حتى أنني لم أصدق أنه هو أنور سامي الذي
أعرفه ، والذي يطاردني ويسخر مني كلما رأيته .

وقابلته مرة ثانية وأنا خارجة من الاستديو ، وكان يركب عربته فناداني ،
وعرض علي أن يوصلني ..

صاح ضاحكاً :

- اركبي ، ماتخافيش .. أنا موش بعيع ..

وركبت لم أستطع مقاومته ، بعد أن تحول إلى إنسان رقيق في معاملته لي ،
ولكني قلقت ببني وبين نفسي ، ماذا أقول ليوسف ، وهل يصدقني ، وزاد قلقي

عندما وصلنا إلى منتصف شارع الهرم ، إذ تعيرت لهجة أنور وعاد إلى
سخريته .

- شوقي .. أنا عارف أنك بتحبني .. حبي زي ما أنت عايره . واتحوري زي

ما أنت عايزه .. لكن وحياتك ح تلاقى كله كلام فاضي .. وموش حيفضل من ده

كله غير التمثيل . وأبو الأنوار ..

ونظر إلى يطرف عينه وسألني .

- موش مصدقاسي ..

ضحكت في عصبية .. فقال متهدأ .

- بكرة نشوف ..

ولكنه عاد قبل أن يصل بي إلى البيت ، إلى لهجته الأولى . الطيبة . وقال .

- ما تصدقنيش ياسامية . أنا أكبر كذاب في العالم .. لو كنت بتحبني بحق

وحقيق . قامسكي فيه بأسنائك .. أوعى تسبيبه .. الحب موش حاجة

بسيطة .. موش موجود ولا في السوق السوداء .

وصمت وبدأ عليه التفكير ، ثم قال بصوت جاد .

- بس سيك من السينما .. الشغل فيها ما ينفعش مع الحب والجواز .. هو

اسمه إيه .

- مين ..

- اللي أنت بتحبيه

- واحد ..

- موش عايزه تقوليلي اسمه ..

أطوقت براسي ، كأنني أقول له وأنت مالك . فصاح مهلاً ..

- مافيش حاجة بتستخبي .. ابقى سليميل على يوسف ..

احمر وجهي وارتيكت . فأمزع بقول

- ما تخافيش .. موش ح أقوله حاجة على اللي حصل بينا .. ده حتى أنا

اتكسف أقول إني ما أقدرتش أوصل لشي معاكى .. تنقي فضيحة ..

وايتسمت . وظن انى فرحت لانه سيكتفم سرى ، ولم يعلم انى ايتسم لانى
قلت ليوسف كل شىء ، وقبل ان اغادر عربته .. سألنى :

- ح تتجوروا امتى .

- كمان شويه ..

- اوعى تنسى تعزمينى على الفرح .. انا ح اعملك فرح ولا ألف ليلة وليلة ..

واطلق زغرودة من فمه ..

رويت ليوسف مقابلتى لأنرر وأنا أضحك .. ولكن وجهه تجهم وبدا عليه

الضيق ، وسألته لى خوف ..

- أنت اتضايقك ..

- آيره ..

- بس أنا لازم ح أشوفه .. دى شغلتنى ..

تنهد وقال .

- أنا عارف ..

- تحب أسيب التمثيل .. أنا مستعدة ..

هتف لى حرارة .

- لا يا حبيبتنى .. أنا اللي غلطان .. لازم أعود نفسى انى ما اتضايقكش من

الحاجات دى ..

●●

أول الشهر اعطانى يوسف ثلاثة وستين جنيهاً .. هى كل ما بقى من

مرتبه بعد أن دفع حساب البوفية لى الجريدة لم أكن أتوقع أنه سيفعل هذا ،

أخذت منه المقود بيد مرتجة . وأيقنت لحظتها أنه سيتزوجنى ، قلت وأنا

أضحك لى بلاهة :

لما تتجوز ح تبقى تعمل كده وتنبت لى انى قلت شيئاً خطيراً بلا وعى .

هذه أول مرة أصرح له فيها برغبتى لى الزواج . وأجابتنى بسرعة وبسلطة ..

- طبعاً يا حبيبتنى ..

فهجعت عليه لقليله .. فعانقت شفتائى أنفه .. لم أكن لرى شيئاً أمامى وقد
غامت عيائى .

يومها ذهبت لى خان الخليلى واشترت ابا جورتن من النحاس بثلاثة

جنيهات .. واشترت وابور جاز وسكراً وبناً ، واشترت ليوسف سلسلة

مفاتيح ليضع فيها مفتاح بيتنا . وكلن لى السلسلة قرص صغير إذا دار بسرعة

قرأ كلمة .. أحبك ..

ونصبت لى شارع غزاد وشارع سليمان ، واشترت له ثلاث كرافات

وقماش بدلة شتوى واشترت لنفسى قماش فستان جديد .. صرفت أكثر من

عشرين جنيهاً لى يوم واحد ، وكنت ما زلت لم أدفع إيجار الشقة وهوتسعة

جنيهات .. ورايت النقود تتبخر من يدى ، وهناك أشياء كثيرة أريد أن

أشترتها ، أريد أن أذهب لى نجار واتفق معه على صنع أثاث للبيت ، أريد

شراء سجادة ورايدو ، أريد شراء أدوات المطبخ ، أريد شراء ملابس للحمام ،

أريد وأريد ..

قلت ليوسف وأنا أكاد أبكى من الغيظ ..

- الفلوس ح تخلص ..

ضمت قائلاً :

- أمان أنت واخداها ليه ..

- وح نعيش إزاي لآخر الشهر .

- ولا يهمك ..

أشعرتنى إجاباته بالثقة ، أشعرتنى بالسعادة التى أنا فيها هاهى النقود

معى أستطيع أن أصرفها كما أشاء . إنه ليس كأمى قحاصبى على الملهم .

وتعطينى القروش وكأنها تعطينى من لحمها ، قلت لنفسى إن ستين جنيهاً ليست

بالشئ القليل . وسيكسب يوسف أكثر وأكثر . وسأكسب أنا من السينما

وبعد سنتين أو ثلاثة سنحقق أحلامنا .

ونصبت لى النجار واتفقت معه على صنع حجرة نوم . وكنية أمريكانى

ومقعدين ، وسأومته حتى قبل أن أدفع له مائة وخمسين جنيهاً بالتقسيط ، كل شهر عشرين جنيهاً

●●

كنت قد اتفقت مع يوسف أن أقطع مكالماتي مع محمد ناجي ، ونفذت الاتفاق ، ومضت أسابيع وقد غاب محمد ناجي عن بالي ، نسيته تماماً ، ولكنه اتصل بي ذات صباح ، وسمعته يقول في لهفة :

- سامية . أقدر أعتد عليكى ؟

- في إيه ..

- أرجوكى أولاً تنسى كل اللغات .. صحيح أنا كنت بأغارك لكن ده موش ذنبى .. أنا راجل أعزب وأنت بنت حلوة .. وموش عيب أنى أغارك .. بالعكس كان عيب أنى ما أحاولش .. لكن دلوقت خلاص .. أنت بتحبى يوسف . ويوسف بيعبك .. وأنا بأكلمك في حاجة لمصلحت

- فيه إيه ..

- بس ثوبعدينى أنك ما تقوليلى موش إننى كلمتك ..

- أوهدك ..

- اسمعى ياسامية .. يوسف بيعرض نفسه لحاجات خطر عليه .. ولازم تنلذيه بسرعة قبل فوات الأوان ..

- سألت في زعر ..

- إيه اللي حصل ؟

- دى حكاية طويلة . وما أحبش أحكيها في التليفون .. ممكن تفوتنى عز .. قلت بسرعة ..

- لا ..

- صدقيني ياسامية .. أنا موش بأهزر .. ولا بأضحك عليكى .. لو تحبى تيجى الحرنال تعالى .. بس في وقت يوسف ما يكش موحود فيه .

- بس يوسف لو عرف ح يزعل .

- لازم يوسف ما يعرض .. كان صوته حاسماً ، فزاد زعرى ..

أنا محتارة ..

قال في حدة ..

- أنت ما يهيكش مستقبله .. أحسنت بأن كلماته تخنقنى .

اسمعى .. أنا رأيى تيجى الشقة أحسن .. ح أستناكى الساعة خامسة

بعد الظهر ..

ثم قال في لهجة تهديد :

- ما تحاوليش تخدعيني ياسامية . لو قلتى ليوسف كلمة واحدة . ح

تفسدى كل شيء . وموش ح نعرف يشتغل مع بعض .. أنا مستنيكى الساعة

خامسة .. أوريغوار ..

مضت الساعات وأنا أتعذب . ماذا يحدث ليوسف ، ما هذا الشيء الخطير

الذى يتحدث عنه محمد ناجي ، وما دخل أنا ، وما الدور الذى يريد منى أن

العبه . ولم اتحمل مغاول فأتصلت بيوسف وقابلته . وبينما كان محمد ناجي

ينتظرني في شقته . كنت مع يوسف في بيتنا أقول له كل شيء ..

لم يدهش ، بل ابتسم وقال في هدوء :

- الرجل ده اتجنن ..

- أنت مغيب عنى حاجة ..

صاح :

- بلاش كلام فاضى .. ده شخص مراقب .. متساليش فيه ..

- أمل فيه بيقول إن مستقبلك في خطر ..

هتف في انفعال ..

- متصدقيش .. متصدقيش .. واحد بيعاكسك ويضحك عليكى .. ما فتيش

أكثر من كده ..

وتجههم وجهه . وقال بصوت حفيظ ..

- على العموم أنا موش ح أقدر أستمر في الشغل معاه .. أنا رايح أقدم له

استقالتي ..

صرخت ..

- ما تخليش أندم انى قلت لك .. خليك عاقل يا يوسف ..
ولكنه لم يكثر بكلامى حتى بعد أن توسلت إليه .. وتركتى وأنا
يائسة .. ألعن غباثى .. لقد أفسدت كل شىء .. سيسبقيل يوسف ، وإن
يستطيع الزواج منى ..
- فى المساء عاد يوسف وعلى شفقيه طيف ابتسامة ..
- عملت إيه ...
أحمر وجهه ولم يتكلم ..
صرخت فى غيظ ..
- ما تقول ..
- ما استقلتش ..
كان مطرفاً برأسه .. والضجل يبدو فى صوته ..
قلت فى ارتياح ..
- الحمد لله ..
ضحك وقال بصوت غريب ..
- الدنيا دى غريبة ..
وهز رأسه .. ورفع يده إلى ذقنه وحكها فى عصبية .. ثم قال :
- رحت علشان أستقيل .. فكانت النتيجة انى أترقيت ..
هتلت وأنا لا أصدق ..
- موش معقول ..
لوح بيده وقال ..
- ده اللى حصل .. موش قلت لك أنا صبرى ما طلبت حاجة .. كل حاجة
بأعملها عبارة عن توريطة .. أنا باتورط أكثر وأكثر .. دى هيه قصتى فى الدنيا
دى .. ياناس أنا موش عايز حاجة .. سيبنى فى حالى ..
- قصصك إيه :
كان كلامه غامضاً وأخبره تحينى ، وحيل إلى اللحظة أنه ليس يوسف
الذى أعرفه ..

- تعرف انا مرتبى زاد الليلة دى .. من سبعين لائة وعشرين ..
كان يتكلم بوجه حزين .. وكأنه يروى لى كارثة ..
- يوسف .. أوعى تكون بتكذب علئ ..
- ح اكتب عليكى ليه .. مرتبى زاد فعلاً .. وأول الشهر ح اديكى القلوس ..
أنا بقيت نائب رئيس التحرير ..
- ازاي .. أنا موش مصدقة ..
- ولا أنا لكن أهو ده اللى حصل ..
- لكن إيه بس اللى حصل ..
قلت لمحمد ناجى إيه .. وقالك إيه ..
رفع صوته فى حدة وقال :
- قلت لمحمد ناجى بانى بأحتقره .. انى فقدت احترامى له ..
قلت له إنك قلت لى إنه اتصل بيكى .. وإنه عايز يشوفك وأنه همدك
بمستقبل .. رعبت الاستقالة فى وشه وخرجت .. رحت مكتبى أشيل الحاجات
بتاعتى مافيش خمس دقائق كان عندى فى الأوضة بيعيط زى الكلب ..
بيترجاني انى استنى فى الجرنال .. كان ناقص يوطى بيوس جزمى ..
تصورى أنه عيط .. عيط بالدموع .. رغم كده رفضت .. عاملته بقسوة ..
خنت زى المجنون .. وبعدين قال الجرنال ح يتخرب .. ح يتففل بكره لو أنا
مشيت ..
وضحك يوسف وقال
- أوعى تفنكرى أنه ح يتففل علشان أنا مهم للدرجة دى .. الجرنال ممكن
يطلع بكره وبعد بكره ولليون سنة .. ولو خرجت سه أنا وعشرة زبى .. لكن
الأوامر هسدوت ..
وسكت .. ويخلق أمامه .. كأنه يرى أشباحاً مفرعة ..
أوامر مين ؟
- شهدى باشا .. الراجل اللى يمول الجرنال محمد ناجى بعد ما قعد
يترجاني معك التليفون وطلب شهدى باشا .. وقاله ياباشا أنا أترجيتك وهو

الفصل الثامن

موش راضى . وسعدين التفت لى وإداني السماعة . وقال لى خد كلم الداشا .
ما تكلمش معيا كثير . قال لى . يابوسف يابنى أنا طلبت إنك تترقى .
ولازم تفعل لوست الشغل أنا ح أقفل الجرنال بكره .. وأعمل اللى انت
عايره .. بصيت لمحمد ناجى لقيت الدموع فى عينيه .. ما أقدرتش أرفض
قلت بعد شوية كان محمد ناجى يتقسم ولا كأن حصل حاجة .. وأنا بقيت
بائب رئيس تحرير وماهيتى مائة وعشرين جنيهاً
وعاد يحك دقته .. ويحدق بقوة فى الأشياء التى تقزعه .. ثم صرخ ..
- هم عايزين منى إيه .. أنا موش فاهم حاجة ..

حاولت أن أعرف مر ما حدث ، كنت واثقة أن يوسف يخفى عنى شيئاً ،
لست بلهاء حتى أصدق أن محمد ناجى ينهار ويبكى ويتوسل إليه أن يقبل
الترقية ، محمد ناجى الذى أعرفه مفروراً ، له كبرياؤه ، مستحيل أن يفعل
هذا ، ما الذى يخفيه يوسف عنى .

شعرت بخيبة أمل ، لقد تعودنا ألا يكون بيننا أسرار ، إنى أحس وكأن
يوسف يتخلل عنى ، يخسح حاجزاً بينى وبينه .. لابد أن أعرف لى حتى
أحطم هذا الحاجز ، ولكنى رغم إلحاحى عليه لم أحصل منه عن شيء ، اكتفى
ذات مرة بأن قال إنه يشك فى أن هناك شيئاً ما بين شمس وشا ومحمد ناجى ،
شيئاً يجعل شمس يسيطر على ناجى ويذله

سألته لى إلحاح ، ما هذا الشيء ، فهز كتفه وقال لى غموض .
- وأنا مالما .

صمت .

- يوسف لازم تقول لى أنت تعرفه ..

فأقسم وأنا واثقة أنه يكذب ، بأنه لا يعرف شيئاً

وخيل لى أنه خائف أو مذعور من هذا السر الذى يعرفه ويكتمه عنى ..
وذات يوم قال يوسف إن زملاءه فى الجريدة يريدون الاحتفال به بمناسبة

ترقيته ، وقال إنه ذاهب إلى الحفلة في المساء ، قلت له إني أريد أن أذهب معه .
مدا عليه التردد ، فاعترضت قائلة .

— أنت مكسوف منى .

متراجع في الحال ، ووافق على أن يأخذني معه ، فرحت . كنت خائفة من أن
يرفض ، فلما قبل شعرت بالأطمئنان ، إنه لا يتردد في إعلان حبنا ، وهذا
معناه أنه لا يتردد في الزواج منى ..

كانت الحفلة في بيت غريب بالقلعة ، صعدنا سلالم حجرية تقضى إلى درب
ضيق ، على جانبيه بيوت عتيقة كأنها قلاع تسكنها الأشباح ، دخلنا أحد هذه
البيوت ، فقابلنا فتاة واسعة مظلّم ، وصعدنا سلماً حجرياً ضيقاً ، وكانت
تقابلنا ضجة عالية ، وضحكات صاخبة ، وصراخ وهتاف ، كأننا صاعدون
إلى مجانيين ..

كان مصدر الضجة شبانا وبنات ، معتشدين في حجرة واسعة ، سقفها
عالٍ ، أرضها مفروشة بالحصى ، والكنب الاستامبول ، والجدران كلها
مزينة بعشرات اللوحات ، هجموا علينا ، وفي أيديهم زجاجات البيرة .. وفي
أقل من دقيقة كنت أجلس بينهم .. وكأنني أعرفهم منذ سنوات .. أعطوني
زجاجة بيرة في يدي ، ووضعوا في حجرى طبقاً من الكرتون فيه سندوتشات
وخيار مخلل .. وجلسوا حولي يأكلون من الطبق الذي قدموه لي ..

ولاحظت أن شاباً أسمر نحيلاً يضع على عينيه نظاراته ، يطيل النظر إلى .
فلما التقت عيوننا ابتسم ، وتقدم منى وقال كأننا أصدقاء

— إزيك ياسامية ..

قلت في دهشة :

— أزيك انت .

مجلس بجوارى وقال

— أنا أسعى شوقي محمود .. وسام باشتغل مع يوسف ..

أدركت في الحال أنه شوقي الذي تعيش معه مبروكة ، نظرت ناحية يوسف
في ارتباك ، هرايته يتقدم منا ، يريد أن ينضم لنا ، فصاح فيه شوقي في جراءة .

— ٧ .. أبعد عنا .. احنا عايزين نتكلم مع بعض ..
فايتسم يوسف ، وأدار لنا ظهره وأبتعد .. وسألتني شوقي
— إيه رأيك في يوسف ؟

تذكرت محمد ناجي ، لقد سألتني نفس السؤال في أول مقابلتنا .. أجبت
ولما أعلم أنه سينقل كل كلمة أقولها إلى مبروكة :

— أعظم واحد في الدنيا ..

قال بصوت جاد :

— أنا باتكلم جد ..

شعرت أنه يتحدّثني ، فقلت محتجة :

— ليه .. أنت موش موافق .. قال وعيناه تحدقان في عيني .

— يوسف موش عايز واحدة تدلعه ..

— أمال عايز إيه ؟ ..

— عايز واحدة تقول له الحقيقة ..

— وإيه هيه الحقيقة ..

فتلفت حوله ، ثم همست :

— تسمعني تيجي معايا بره ..

— فين ..

قال بصوت أمي وهو ينهض .

— تعالى بص ..

قمعت وراءه ، وخرجنا إلى السلم وصعدت إلى السطوح ، كانت ليلة معتمة
بلا قمر ، وتعثرت بتعائيل ملقاة على الأرض كأنها جثث ، ورغم الظلام كانت
المانن واضحة في ارتفاعها الصامت إلى السماء ، وقدم لي سيجارة ، وأشعل
عود ثقاب ، فبدأ وجهه صارماً ولعت عيناه في قسوة ، وقال وهو يشير إلى
البيوت من حولنا .

— دي أول مرة تيجي فيها هنا .

— أيوه ..

قال عجاة

— اسمعى ياسامية . احنا منعرش بعض .. لكننا موش أغراب .. ما فيش حد فى الدنيا دى غريب عن التانى .. كلما بيشر .. لنا قلب .. ولنا عقل .. وكلنا نحب الآخر لبعض .

وسكت برهة ، وكنت قد تعودت على الظلام ، فاستطعت ان ارى وجهه الملىء بالانفعال ، وخيل لى انه سكران ، أو مجنون ، وشعرت بالخوف ، فلذت بالصمت

وسألتى .

— أنت بتستغبرى من كلامى ..

— أيوه ..

— أنت ممثلة .. موش كده ..

— أيوه ..

— عندك فكرة عن الفن ..

كان سؤالاً أوقعا ، ورغم ذلك لم أجسر على الاحتجاج ، شعرت انى ضعيفة أمامه ، كما داخلنى إحساس بأنه لا يريد أن يهرجنى ، وهمسست :
— أهو . باتعلم ..

قال فى حدة :

— قلت لك ماتزعليش منى .. أنا باهاجمك علشان أعرفك أكثر . صحيح أنا ما عرفت كيش .. وماليش حق أحكم عليكى .. إنما أنا أعرف إن يوسف بيعبك . كل اللى فى الجرنال عارفين شافوكم كتير مع بعض .. وأنت عارفة إن يوسف مركزه كبير فى الجرنال ومستوليته كبيرة .. علشان كده يهمنى أعرف بيعب من .. وإيه تأثير الحب ده عليه ..

أعجبنى كلامه ، إذ اشهرتنى بأهميتى ، وتشجعت فقلت :

— وأنت خايف أحسن أكون نصابة ..

قال بسرعة :

— لا مش خايف ، إنما عايز أعرف أنت فاهمه موقفك والا لا .. عارفة الدور

الى يتلعبيه والا موش عارفاه .

— دور إيه ؟

فألقى بعقب سيحارته على الأرض وسحقه بقدمه وهو يقول .

— أنا عايز أسألك سؤال .. ممكن تجاوبينى عليه ؟ ..

— سؤال إيه ؟ ..

— أنت عارفة يوسف اترقى إزاي ؟

خفق قلبى بشدة ، باعتنى سؤاله .. إنه نفس السؤال الذى يحيرنى ، قلت

فى ارتباك :

— علشان يستحق الترقية .. ضحك ساخرأ وقال .

— صحيح ما تعرفيش .. لزمنا الصمت ، فعضى يقول .

— أنت عارفة أن يوسف بيمر بنقطة تحول خطيرة فى حياته ، كان شاب رينا ،

شاب شريف ، بيشتغل وبيحاول أن يعيش .. ويعدين اصطاده واحد رأس

مال .. شهدي باشا .. طبعاً سمعتى عنه .. الجرنال بتاعنا عبارة من برق

دعاية لشهدي باشا ، كلنا بنشتغل موظفين عنده .. حتى محمد ناجى صاحب

الجرنال . اللى بنى الدار شهدي باشا .. اللى اشتري المطابع شهدي باشا .

محمد ناجى عميل عنده .. خدام .. مجرد خدام .. شهدي باشا عايز يرفع

أسهم البورصة ، نكتب أخباراً نرفع أسهم البورصة .. عايز يخسف

بالبورصة الأرض .. نكتب أخباراً تخسف بالبورصة الأرض .. وزير

ملوافقش على طلب لشهدي باشا ، نهاجمه ، وزير بيعمش أشغاله نرفعه

للسما .. أدى شغلنا .. شغلة حقيرة .. طبعاً أنا موش ساكت .. أنا باخد

منهم فلوس علشان أكاربهم .. علشان أنتصر عليهم .. شغلتنى فى الأيام ،

زى شغلتنى فى أى حجة تانية ، وسيلة لأننا نقضى على الرأسمالية .. نقضى على

اللى بيحصروا دمننا .. ويوسف كان ممكن يبقى واحد منا .. لكن باين عليه أنه

عايز يختار السكة الثانية . عايز يختار يبقى زى محمد ناجى خدام عند

شهدي باشا .. أشرح لك إزاي . افرضي أن واحد منتج جه علشان يشغلك فى

السينما ، وخلاص عايز يكتب معاكى عقد بألف جنيه ، ويعدين اكتشفتنى أنه

ح يدفع الألف جنيه قصداً إنك تعيش معه .. موش يتمصل .. نصن الي
اشتعلوا في السبيما يحصلهم كده والعن من كده .. توافقي والا تقطعي
العقد وترمي في وشه .. لازم تختاري .. إما أن تحاربي المنتج الراسمالي ،
وتقصي عن النظام الفاسد الي يمكنه من السيطرة عليكى ، أو تستسلمي
وتبغى نفسك .. تعرفى أنا رانى إيه .. يوسف باح نفسه ..
صححت وأما أتذكر لنور سامى ومحاولاته معى ..

- يوسف مستحيل يعمل كده ..
صاح ..
- امال قبل الرشوة ليه ..
قلت محتجة

- دى ترقية موش رشوة .. فأطلق ضحكة غريبة وقال :
- محمد ناجى على علاقة بزوجة شهدي باشا . وشهدى باشا عارف .. إنما
زى أى رجل أعمال ما يخليش عواطفه تسيطر عليه . محتاج لقلم محمد
ناجى .. محتاج للحالات . الفلوس الي ح يكسبها أهم عنده من شرف
المدام . إنما ينتقم بطريقته . يذل محمد ناجى .. محمد ناجى يقول : أنا
عايز أرفد يوسف . شهدي باشا يقول . لا .. وقية . شهدي باشا بيقتل
محمد ناجى على نار بطيئة .. بيسلخ جلده على مهله . ويبحضر خليفته
قدامه .. بيقول له ح أموتك وح أدفك .. وح أخى يوسف يقعد مكانك ..
انتقام مليونير . ويوسف بينفذ الانتقام ..
همست ورأسي تدور .

- لكن يوسف ما يعرفش .
- صاح .

- مايعرفش . والا بيتعابى وموش عايز يعرف .
- أنا متأكدة انه ما يعرفش
قال ملهجة غريبة

- يوسف من عادته انه يتغالى .. ويتظاهر بأنه مايعرفش حاجة .. لكن أنت

- ح يكون موقفك إيه ؟
فتت أريد أن أتحدث .

- ماتتساش إنى باحب يوسف .. وأنا ما أقدرش أصدق عه حلة
وحشة ..
فقاطعتنى

- لو عايزه تحتفظى بحبه .. لازم تخليه يبقى إنسان .. لو سبتته يحرقه
التيار .. ح يتحول لواحد ما يعيش في قلبه ذرة عاطفة .. واحد ما يعرفش
الحب . مايعرفش الحنان . واحد مستعد يدوس على قلبه وعواطفه في سبيل
مصلحته ..

كان صوت التصفيق على الرعدة يرتفع إلينا من تحت ، وأغنية جماهيرية لم
أسمعها من قبل يمشدونها ، وشعرت بضيق ، كأننى في كابوس ، لا أعرف
وسيلة للخلاص منه ، وتدمت لأنى أتيت إلى هذا المكان ، إن قلبى يحدثنى بأن
أشياء ستحدث ، تقصى على أحلامى في الحب والزواج ، الظلام الذى
يحترقنى يأكل صدرى ، والمآذن العالية تكاد تنهار فوقى ، الظلام بحر عميق
أكاد أغرق فيه ، إن شوقى يعذبنى ، ولكنى لا أستطيع أن أتركه وأجرى إلى
تحت ، لا أريد أن أرى يوسف الآن ، بعد كل ما سمعته ، إنى متعبة ، أريد
أن أهدأ واستريح ، ثم أفكر على مهل .

- بيرقصوا بلدى .. تحبى تنزلى تتفرجى ..
تجاهلت ما يقول ، وسألته ..
- أنت بتكوه يوسف ليه ..

- ماياكرهوش .
- أنا عارفة في بينكم حاجة ..
ورفع رأسه وقال في صوت جامد .
- هو قتل لك
- أبوه ..
فهمسى ..

- مبروكة بنت شريفة ..

قلت ساحرة

- علشان عايشة معاك

فتحبهم وجهه ، وقال في غضب .

- البنت دي عمرها ما جابت سيرة يوسف بحاجة وحشة رغم كل اللي عمله معاها .. أنا نفسي ما أقدرش أقول لها رأيي بصراحة في يوسف علشان ماتزعلش .. اللي قولتهولك ده هيه ماتعرفوش .. وموش ح تعرفه .. رغم كل شيء هيه متمسكة بأنه ابن جوزها .. اسمعي .. انا بصراحة شيعوي .. وماخافش أني أقولك .. يوسف نفسه عارف .. النهاردة سالكت عليه .. بكرة ممكن يوشى بيه ويوديني السجن . إنما ده موش مهم .. أنا واضح ده في حسابي .. إنما مبروكة مستحيل توشى بيه مبروكة اديتنى الفلوس اللي معاها علشان نطبع بيها منشورات .. من غير ما تعرف هيه بتدينى الفلوس علشان إيه . من غير ما تقدري حتى تقرأ المنشورات اللي دافعة فلوسها . دي واحدة بتؤمن بالناس .. عندها قلب .. وعاييزه تعيش مع الناس .. وموش عاييزه مجد ولا شهرة .. موش عاييزه أنوار كشافة مسلطة عليها .

- أنت بتحبتها ..

- أيوه باحبها ..

هزنى صوته ، تمنيت لو اسمع يوسف يعلن أنه يحبني بنفس هذه القوة

- أنا خايفة يكون حبك لمبروكة مآثر على رأيك في يوسف ..

- الحب مالوش دعوة بأرائي .

وسمعنا صوت يوسف .. بهتف .

- أنتم ياللي فوقي .. بتعملوا إيه ..

فصاح شوقي ..

- اطلع يا يوسف ..

- ماتنزلوا أنتم

- لا .. اطلع أنت .. عاييزتك

وصعد يوسف . وقال وهو يقترب منا .

- بتعملوا إيه ..

قال شوقي في بساطة :

- اتكلمنا في كل حاجة ..

ضحك يوسف في براءة وقال .

- برافو .

والتفت إلى شوقي وسأله باسمه .

- وشتمتني .

- طبعاً

فالتفت يوسف إلى وسائلني في صوت رقيق ليس فيه أثر انزعاج .

- قال لك إيه سامية ..

ضحكت في عصبية واجبته :

- شتمك شتيمة وحشة فوى .. فقال شوقي في هدوء :

باختصار عرفت كل حاجة .. أني شيعوي .. وعرفت رأيي في أنك بيعت نفسك لشهدى باشا وعرفت أنك ممكن ترشى بيه وتوديني السجن .. مافيش حاجة ماتعرفهاش .

قال يوسف جاداً ..

- سامية عارفة أني كنت متضايق يوم ما ترقيت .. وعارفة أني كنت ملحد استقللتني ..

صاح شوقي

- لكن قبلت الترقية ..

قال يوسف محمداً .

- علشان مايتقعلش الجرنال

صاح شوقي ..

- وعلشان يتنزل محمد ماحى وعلشان يفرح شهدى باشا ..

قال يوسف ..

— اسمع يا شوقي الى بين محمد ناجى وشهدى باشا ما لكش دعوة بيه .
احيا موش ح نرد شائعات .. انا ما لحش احيب سيرة الناس وانا موش
متأكد

فنظر إلى شوقي في انفعال وهتف .

— شعنى .. موش قلتك انه بيتغالى ..

أمال أنت اترقيت ليه .. إيه اللي خلى شهدى باشا يصمم على ترقيتك ..
قال يوسف في هدوء :

— اسمع لو تقول لي انا ما استحقش الترقية دي .. ح أكتب استقالتي في
الحال .

قال شوقي في وجوم ..

— لا .. ما تستقلش .. بس ما تبقاش لعبة في يد شهدى باشا ..

قال يوسف مهلجاً ..

— ليه موش عايزنى استقيل ..

أجاب شوقي ..

— علشان أنا كمان موش باستقيل ..

قال يوسف في انفعال ..

— أنا بأعمل اللي حاسس بيه .. ما يخالفش ضميرى .. يوم ما حد يطلب
منى حاجة تخالف ضميرى ح أقدم استقالتي ..

وساد بيننا صمت سخيف . فطلبت منهما أن نهبط ، فقال شوقي إنه
سينصرف .

همست في أذن يوسف .

— جيت ليه وأنت عارف أنه ح يبقى موجود ..

قال في ضيق ..

— ح أعمل إيه .. موش ممكن أرفض ..

ثم أبتسم قائلاً ..

— على العموم أنا متعود على الشيوعيين .. إذا ما كنتش الراحدي يبقى شيوعي

زيهم . يبقى خاين ومجرم وفيه كل الجبر ..

ولاحظت أن يوسف كان ساهماً أثناء عودتنا . وقال لي عند باب العمارة وأنا
أودعه .

— فأكبر شوقي موش عايزنى استقيل .. بالعكس هو يضمنى أنى استقيل ..

لكن خايف يصارحنى .. خايف منى أحسن أوشى بيه وأبلغ عنه ..
بينالفنى ..

قلت مقوسلة ..

— انصاه ..

قال ح أقدم استقالتي بكرة ..

صحت ..

— ماتبقاش مجنون ..

قال وهو يتألم ..

— أعمل إيه .. ملهو صحیح الترقية دي ما كنتش لها مناسبة ..

— أنت موش قلت موش ح تعمل حاجة تخالف ضميرك ..

قال والدموع تطفر من عينيه ..

— أنا خايف أنسى ضميرى ..

صرت بصنان إليه ، وتهدت كل شكوكى نحوه .. فضبطت على يده ،
وأرسلت له قبلة .. هممت .

— أنا بأحبك .. وعازاك تشغل ، تجيب فلوس وتجاوز .. شوقي بيحب
فلوس لمبروكة ، علشان يعمل منشورات شيوعية .. وأنت بتجيب فلوس

طشاني .

همس ..

— وعلشان إيه كمان ..

سأله في دهشة ..

— عايز الفلوس علشان حاجة ثانية غيرى .

قال متأثراً ..

— شوقى شيوخى ، لكن انا ليه .. عايز إيه ..

قلت فى ثقة .

أنت عاير تبقى محلص مع نفسك .. موش عايز تسيء لحد ، ولا تكذب على حد .. عايز تكون نضيف .. لو حاجة ضايقتك يا حبيبى قدم استغفارتك ولا يهكمش .. أنا راضية بيك حتى ولو كان معكش ملهم ..

قال فى حرارة .

— خدى بالك منى يا سامية ..

قلت وأنا أخفض عينى ..

— بس ماتقاش تخبى عنى حاجة ..

صاح فى دعر ..

— زى إيه ..

— زى حكاية محمد ناجى مع شهدى باشا . أنت كنت مكسوف تقولى ..

قال فى خجل ..

— أبوه كنت مكسوف .. ما قدرتش أقولك إنى اترقيت علشان حكاية قدرة زى

دى .. إنما ما كذبتش عليكى وقلت لك إنى اترقيت علشان حاجة ثانية ..

تحول خجله إلى دفاع عن نفسه .. فسارعت أقول :

— ما تنكسفش منى يا حبيبى .. أنت اترقيت فعلاً علشان كويس .. وعلشان

أخلاقك كويسة .. وشهدى باشا يمكن فاكرا أنه ح يعرف يستفك .. لكن أنت

ح تقاوم .. زى ما بأقاوم فى السينما .. ح نعمل إيه . الناس فى أيدهم

الشغل كلهم كده .. إنما لازم نفنهم بأن الشغل الشريف أحسن من

طريقتهم ..

ضحك يوسف فى عصبية وقال .

— احنا بنضحك هل نفسينا ياسامية ..

قلت فى أسى ..

— يمكن .. لازم نحاول قبل ما نياس . طول ما احنا بتحب بعض ح تشجع

بعض . وساعة ما نقولهم السلام عليكم .. يبقى يفرجها ريتا .. إيه رأيك لا

نسيب شغلنا ونعشى ببيانولا فى الشارع ..

وضحكنا .. ولكن ضحكاتنا كانت مفعمة بالمرارة ..



وضحكنا فى مرارة صباح اليوم التالى ، وأنا أسمع صوت الأستاذ حلمى فى

التليفزيون يصيح :

— أنا عندى لك شغل ياسامية . قبل أن أجيبه ، طاف برأسى فى لحظة خاطفة

كل ما حدث بالأمس . وسمعت الأستاذ حلمى يقول :

— ح تمثلى مع الأستاذ يوسف وهبى .

وقضيت ثلاثة أيام فى الاستديو صباح مساء ، من أجل دور صغير أرتدى

فيه الملامه اللف ، وأسير فى ديكور حارة ، فى حركات مثيرة ، ثم

أستدير خلفى ، وأغمر بعينى وعندئذ يدخل يوسف وهبى الكادر ويسير

ورائى ، وبعد أن يتبعنى ثلاث خطوات ، آف وأستدير له وأسأله :

— أنت عايز منى إيه ..

فيقول لى .

— أنا ياست ..

ويتهى المنظر .

ثم يصيح الأستاذ حلمى :

— ستوب ..

أعادوا التصوير ثلاث مرات .

فى المرة الأولى ، لأنى سألت الأستاذ يوسف وهبى بلهجة ذواتى ، وفى المرة

الثانية تكلمت من حلقى كنت شرشوحة كما قال الأستاذ حلمى ، ولكن

مهندس الصوت لم يعصبه التسجيل ، وفى المرة الثالثة أخطأ يوسف وهبى

فدخل الكادر متأخراً وفرجت لأنه أخطأ مثل ..

— إيه رأيك يا يوسف ميه فى تمثيلي ..

فنظر إني فى ترفع ، وقال بصوت هادر :

— أنت يا دموازيل فاكرة اللى بتعملية ده تمثيل ..

شعرت سخوبة في راسي ، وحفون عيني ، وقلت في لهفة .

— أنا عابرة اتعلم التمثيل ..

مايتسم ابتسامه غريبة وقال :

— وأنا معنديش موهبة ..

قال من أنفه :

— التمثيل يامدموازيل موهبة .

— لا .. روجي ياشاطرة دوريلك على عريس .

وتركني . وابتعد عني ، كأنه ملك اعترضت طريقه منسولة حقيرة .. كنت أموت من الفيلظ ، وسمع الأستاذ حلمي ما قاله يوسف وهبي ، فهمس في أذني

— ماتسمعيش كلامه .. يوسف بيه هل عيني وراسي .. لكن ده بشاح مسرح .. بكرة لما يشوفك في القيلم الطلياني ح يغير رايه .

ولكني لم اهتم بكلام الأستاذ حلمي ، كنت أتمنى أن اسمع كل اناس يقول إنني لا أصلح بتمثيل ، ولكن يوسف وهبي يعترف بموهبتي .

وفكرت في اعتزال السينما .. وتذكرت ما قاله لي شوقي ، نعم أنا نصابة ، ليس ما أريده فعلاً ، هو الشهرة والمال ، وأن أكون ممثلة مشهورة ، هذا هو ما أحلم به ، أنا لا أحلم بالفن ، ولم يعلمني أحد الفن ، كلهم يكتفون بجمالي ، وكلهم على استعداد لأن يجعلوا مني أعظم ممثلة ، لو رضيت .. خرجت من الاستديو ، وأنا أعجب للتغيير الذي حدث لي ، أين كنت ، وكيف كنت أفكر ، وأين أنا الآن ، وكيف أفكر .. لقد أصبحت الدنيا هل غير

ما كنت اتوه ، إنها ليست سهلة ، الفرحة صعبة ، والسعادة بعيدة ، ونفسي لم تعد راضية عن شيء ، لم تعد راضية حتى عن نفسي .. الدنيا كالطاحونة ، تطحن الناس ، طحنت أمي فأصبحت ما هي عليه وهي تريد أن تطحن يوسف وتطحنني .. اهذا هو مصيرنا .. جريت إلى شقيقتي إنصاف .. إنها لا تفكر في غير دورسها .. كانت خارجة من الحمام ، وقد ريطت رأسها ، وسألتها :

— أنت حتشغلي فين لما تبقي دكتورة

نظرت إلى في دهشة ، إذا لم تتعود مني الاهتمام بحياتها ، وقالت .

— في أي حته ..

— ما فكرتيش .

قالت وهي تتنهد :

— لما اخطم أبلي افكر ..

قلت لها في حرارة :

— أنت ح تبقي أحسن واحدة فينا ياإنصاف ..

ضحكت في حمرة ، وكأنها لا تصدقني ، فمضيت أقول

— عشان أنت اتعلمتي .. روح تبقي دكتورة .. ولو ما هجيكيش الشغل في

الحكومة ، تقدرى تفلحي عيادة ..

قالت في لسي :

— افتح عيادة .. وأجيب فلوسها منين ..

صحت ..

— اوعي تفكري في الفلوس .. لازم نجيبهاك بأي طريقة ..

نظرت إلى في ريبة وسألتني .

— أنت مالك النهاردة ؟ ..

— ولا حاجة .. بس بأتعسر على نفسي ..

فصاحت .

— أنت .. هوفيه حد مبسوط فذك .

كنت أبكي وأنا أقول :

— ماتصدقيش .. ما فيش واحدة تعيش في الدنيا قديم .

وحكيث لها ما قاله يوسف وهبي .. وقلت لها إنني لن أمثل بعد الآن ..

فلم تهتم بكلامي ، وأقبلها فرحت في قرارة نفسها ، ولكنها أخفت فرحها ،

وقالته لي برود :

— طول عمرك بتعمل اللي أنت عابزاه .. لو قلت لك بلاش تمثيل .. مين

عارف .. بكرة تغيرى رأيك .. وتمثل عشرة اللام ..

رفضت أن تفهمنى ، وذهبت إلى سريرها ، وفتحت كتاباً ، وانهمكت في القراءة .

قلت لها بعد قليل

— ما بتفكريش في الجواز . فأغلقت الكتاب ، وهدت في الفضاء أمامها ثم قالت .

— ماقيش فائدة .. الناس كلها عرمانا .. وسمعتنا والحمد لله ما تشرفش .. البركة في الست ماما .. وفيكى .. أنا بآتمنى على الله .. أنى اشتغل في حنة بعيدة ، في اسكندرية .. في أسوط .. في أى داهية .. وأتجوز واحد ما يعرفناش .. موش من البلد دى .. وأعيش معاه على طول ..

— وتسببنا يا أنصاف ..

قالت في حرقه

— روح لعد معاكم أعمل إيه .. لا أنتم عايزنى .. ولا أنا عايزاكم . وانقطع الكلام بيننا ..

لا بد أن أسرع بالزواج . لابد أن أهرب من هذا البيت .. سأطلب من يوسف أن يتزوج في الحال ..

الفصل التاسع

كانت ليلة شتاء ، والمطر يهطل بخزارة ، وقد فر الناس إلى بيوتهم وتركوا الشوارع مهجورة ، قد انتشرت فيها البرك الصغيرة ، كان الجو مقبضاً يثير الشجن في صدرى فلجأت مع يوسف إلى بيتنا الصغير .. وكان النجار قد أتم صنع الكنية الأمريكاني والمقعدين ، فوضعتهم في الحجرة الأولى ، ونقلت السرير المعدني والمرقبة الفخ إلى الحجرة الثانية في انتظار انتهاء النجار من غرفة النوم ..

قمائش الكنية لونه أخضر ، ومسانداتها لونها أسود ، اخترت اللون الأسود لأنه وقور ، وكنت مصممة على أن أجعل بيتنا الصغير وقوراً محترماً ، لا أريد أن تكون ألوانه زاهية ، وكأننا في جرسونية .

كنا صامتين ، ولكنه صمت هادى هنون ، أنا جالسة ويوسف راقد وقد وضع رأسه على حجرى .. وأصابعى تبعث بشعر رأسه .. أنهت إلى رذاذ المطر كان تساقطه الرتيب ينشط خيالى ، كأنى أرى فيلماً في سينما بارادى المجاورة لما ..

كنت أفكر في زواجى ، مضت أسابيع وفكرة الزواج تلح على ، تخيلت أنى أفتاح يوسف ، أقول له هيا نتزوج ، فلا يقول شيئاً ، ولكنه ينهض ويظهر لى في حنان ويحدثنى من يدى ، ويذهب بى إلى المائدة ويتزوج ، ثم يعود إلى البيت

إلى هذه الكنية ، ونجلس عليها كما تجلس الآن ، ليس هناك ما هو أبسط من هذا ، لا توجد عقبات ، أى عقبات ، فلماذا لا يحدث هذا ، لماذا لا نتزوج الآن . الآن ، فكرت فى أمى ، ولكنى رفضت أن أواصل التفكير ، لا يهمنى أن تفاجأ بزواجى ..

فكرت قليلاً فى الشهود ، وتذكرت شوقى ، لماذا لا يناديه يوسف ويكون شاهداً للعقد سيربضينى هذا ، حتى يعود إلى مبروكة ويقول لها إنه كان شاهد زواجى من يوسف ، ويصف لها سعادتنا ..

لماذا افكر فى مبروكة الآن .. لا .. لا داعى لأن نضيع الوقت فى البحث عن شوقى ، سأرضى بأى شاهدين يحضرهما لنا المأذون .. ترى ما الذى يفكر فيه يوسف الآن .. وتنهدت ..

المعيلة الحقيقية ، هى كيف أقول ليوسف إنى أريد أن أتزوج الآن .. فى الحال .. فى هذه اللحظة .. لا أريد أن أعود إلى بيتنا .. لا أريد أن أرى إنصاف .. ولا أمى .. ولا عسى محمودة .. لا أريد أن أرى أحداً فى هذه الدنيا .. أريد أن أحبس نفسى هنا .. فى هذا البيت الصغير .. وأعيش مع حبيبى .

أه .. كيف أقول له ..

وتنهدت مرة أخرى :

.. مالك ..

سألتنى يوسف ، بصوت يفالبه النحاس :

قلت فى ضيق :

.. المطر لسه نازل ..

.. كتبت عايزة تخرجى ؟

.. لا .. بس نفسى مقبوضة .. زى ما يكون فى فيلم مخيف فى سينما

بارادى .. فيلم بتمثله عفاريت ..

صحك ، وسكت .. تتأهب ..

تمنيت لو كان دار بيننا حوار آخر ، يسألنى لماذا أشعر بالانقباض فأجيبه ، لأننى لا أريد أن أعود إلى البيت .. بيت أمى .. فيسألنى ، لماذا .. فأقول له لأننى تشاجرت معهم . ثم أقول له إبنى سابقى هنا ، فهذا هو بيتى فى الوقتى ويقول لى ، نعم هذا هو بيتك ، تعالى نتزوج الآن ، وأبقى هنا . فى بيتك .. فى بيتنا ..

وقفز إلى رأسى خاطر ، إنه لا يعرف شيئاً عن أمى ، لا يعرفها على حقيقتها .. لماذا لم يسألنى حتى الآن كيف أعيش معها ، لقد حدثته طويلاً عن أبى ، ولم أحدثه عن أمى .. ترى ماذا يقول لو عرفها على حقيقتها .

شعرت بانزعاج ، لأنه لم يسألنى عن أمى ولأنه لا يعرف شيئاً عنها .. كدت أقول له ، لماذا لا تسألنى عن أمى .. ثم هدأت السؤال فأصبح ، لماذا لا تسألنى عن بيتنا .. قبل أن أنطق بالسؤال ، سمعته يقول فى بلادة :

.. أنا جعان ..

كدت أصرخ يائسة ، لو كان يرى وجهى لفاجأته التعبيرات المرتسمة عليه ، ولكنه مضى يقول فى كسل .

.. بس .. مش قادر أخرج .. كسلان ..

مهمست :

.. بكرة يبقى عندنا مطبخ .. ونعمل الأكل فيه ..

لم يعلق على كلامى بشئ ، لم يكن متحمساً للكلام ، وتتأهب .

إنه متعب ، منذ ترقبته وهو يعمل بجهد مضاعف ، يريد أن يثبت لنفسه أنه جدير بالترقية التى حصل عليها .

أحياناً يعود ويحدثنى عن متاعبه .. وأحياناً يعود مرهقاً حتى أنه لا يستطيع أن يحدثنى عن أى شئ ، فيصمت ويتأهب كما يفعل الآن . إن هذا لا يضايقنى لا تعب ولا صمته يضايقانى ، تكفينى عودته إلى ، وحصوله على الراحة وهو راقد ورأسه فى حجرى ، إنه يلوذ بى ويستريح ، تعود على ، وهذا يريحنى أنا أيضاً ، ويطمئننى إلى حبه ، عندما أحنو عليه وتتسلل أصابعى فى شعر رأسه ، أشعر كأنه هو الذى يحبو على ويغمرى بحبه .

في إحدى الليالي التي تكلم فيها عن متاعبه ، قال لي إن شهدي باشا عليه
فذهب إليه فسأله شهدي باشا ، هل هوراض عن عمله الجديد ، وقال له إنه
يعتمد عليه ، لأنه يثق فيه وفي موهبته ، فقال لشهدي باشا متعبداً ، إن كل
شيء قد تعلمه في الصحافة ، كان بفضل محمد ناجي ، فهو أستاذ ، وتوقع أن
يغضب شهدي باشا ، أو يبدو عليه الضيق على الأقل ولكنه على العكس ،
ابتهج بإجابته ، وقال له :

- ماقيش عندنا في البلد غير محمد ناجي واحد .

ثم ذهب مع شهدي باشا إلى نادي محمد علي ، وتناول معه الغداء
وجدهما ، كان يرى حوله ألمع أسماء في البلد ، محمد محمود خليل ،
وإسماعيل صدقي ، ولطفى السيد ، قدمه شهدي باشا لهم وجلس يستمع إلى
أحاديثهم عن الطاولة والفرق بين جمال الباريسيات والسويديات ، لم
يتحدثوا في السياسة ، انتظر طوال الوقت أن يسمع من شهدي باشا أوامر أو
توجيهات خاصة بالعمل ، وكان يرتب في رأسه الكلمات التي سيذف بها في
وجه الباشا ، ولكنه لم يسمع منه هو الآخر غير قصص وحكايات مسلية ،
حدثه وهما وهدما على الغداء عن عشيقات الملك ، وعن بارتيتة بركر لعبها
الملك في نادي السيارات ، وضبطوه وهو يقش ، ولكن أحداً من اللاعبين لم
يجسر على تحدي الملك ، تركوه يسرقهم وقال شهدي باشا محتجاً إنه لو كان
مع هؤلاء اللاعبين لواجه الملك ، فهو لا يضرب الأرض لتطرح له النقود ، إنه
يكسبها بعرق جبينه ولن يسمح لأحد أن يسرق مليماً من أمواله حتى ولو كان
هذا السارق هو الملك ..

شهر يوسف ، إنه رجل وطني ، عصامي ، لا يجب للفساد ، وأنه معجب
..
ثم رفع صوته وقال لي :

- لكن تعرفي .. رفضت أخذ منه سيجارزى كل مرة .. أنا موش عايز منه
حاجة .. كنت مسننى غلطة واحدة منه وأهيج فيه ..
لم أسترح لكلام يوسف ، لشعور غامض في نفسي ، فقلت :

- إذا كان راجل كويس زى ما بتقول .. أمل فيه ساكت على علاقة مراته
بمحمد تلجي ..

فأجابني في حرارة :

- أنا متأكد بعدما سمعته بيتكلم عن محمد ناجي .. إن الكلام ده كله
شائعات ..

سكت وحاولت أن أقنع نفسي بأن هذه هي الحقيقة .. ثم عدت أسأله :

- طيب لي اتحدى محمد ناجي وهدده بقتل الجرمال بسببك ..

فأجاب بسرعة وكأنه على يقين مما يقول :

- شهدي باشا راجل عصامي .. عنده مبادئ .. بيحب يشجع الشبان

المكافحين الصغيرين .. ويبقى في صفهم .. تلاقيه عمل الهيصه دي كلها ..

علشان المبدأ .. علشان ما يقضيش على مستقبل واحد واثق منه ..

أجبرت نفسي على التسليم بإجابته ورغم ذلك ، ظل ذلك الشعور الغامض

يلعب في صدري .

وقال لي يوسف مرة أخرى .. والحماس يشتعل في صوته :

- الراجل شهدي باشا ده .. صحفي درجة أولى .. تعرف كل الأخبار

السياسية اللي كتبها الفهارة .. هو اللي قالها لي .. أسرار ما كنتش أحلم

أوصل لها ..

ولم يكن حديث يوسف مقصوداً على شهدي باشا وحده ، روي لي ذات ليلة

شجاراً حدث بينه وبين شوقي الرسام ، كان نادماً على هذا الشجار ، رواه لي

وهو في حالة عصبية ، وعلى فمه ابتسامة متفجرة ، ابتسامة حزينة أحياناً ،

معتذرة أحياناً ..

ناداه محمد ناجي ، وأخبره أن تقريراً من المباحث وصله عن نشاط بعض

الشيوعيين في الجريدة ، وطلب منه أن ينادي كل من يشتبه فيهم وينذرهم

بالطرد وذكر له شوقي بالذات ، وقال له محمد ناجي إنه يعرف أنهم

سينكرون ، ولكن مجرد الكلام معهم سيخفيهم ويرهمهم .

لم يسترح يوسف لهذه المهمة ، إنه لا يريد أن يهدد أحداً ، ولا يريد أن

يهدد شوقي ، ولكنه فكر في أنه يستطيع أن يتفاهم معه ، فهذا أفضل من أن يتأديه محمد ناجي ويخاطبه بلهجة حشنة ، وقد يتهور شوقي فيطرد به محمد ناجي في الحال .

نادى شوقي ليتحدث معه وسأله ضاحكاً ، كأنه لا يعرف هل هو شيعي ، كان سؤاله يريد أن يشعر شوقي بأنه يتجاهل كل ما يعرفه عنه ، ولم يكن ينتظر إجابة من شوقي ، كان يريد أن يعضي في الكلام فينصحه بأن يكون أكثر حذراً في هذه الأيام ، ويحبره بتقرير المباحث ، ولكنه فوجيء بشوقي يحدث عليه ، ويصيح بأعلى صوته أنه شيعي ، وأنه سيظل يدعو إلى الشيوعية رغم أنف الجميع .

لقد يوسف أعصابه ، وأنذر شوقي بالطرد من المجلة فخرج غاضباً ، وشعر يوسف بنادم على اندفاعه وتهديده لشوقي ، خاف أن يظن شوقي أنه يتعسف معه ، بسبب حديثه معه ليلة بيت القلعة وبسبب علاقته بمبروك . وهذا هو آخر ما يفكر فيه ، كان يريد أن يذهب إلى شوقي ويعتذره ويوضح له حقيقة الأمر ، وقبل أن ينهض من مقعده ، رأى شوقي يدخل عليه خائفاً مرتعداً ، منكراً أنه شيعي ، مهاجماً الشيوعيين ، معلناً أنها وشاية ، وأنه كان على صلة يوماً ما بالشيوعيين ، ولكنه تركهم ، وأصبح يحقرهم .

هزن يوسف من أجل شوقي .. كره كذبه .. وكره جبنه .. إنه لا يطبق الكذب ولا يتحمل النفاق .. استمع إلى شوقي في غفلة وعامله بجفاء ، ولم يعتذر له ..

أزعج هذا الحادث يوسف بشكل غير عادي ، وفي اليوم التالي قال لي - أنا ذهبت لشوقي النهاردة ، واعتذرت له .

وسكت قليلاً ثم قال :

- وعملت حاجة غريبة .. تصوري .. صأرحته بكل اللي في نفسي .. قلت له أنا خايف تكون فاكراً إنني هددتك علشان علاقتك بمبروك .. إذا كنت فاهم كده ، تبقى غلطان ، وأنت أول واحد يعرف أنني قطعت صلاتي بيها ، وتسيئتها .. لا أنا عايز أذنبها .. ولا عايز أكون السبب في آذية أي حد

يعرفها .. عايزها تنساني زي ما أنا ناسيها .. تعرف .. حسيت أن شوقي استمرح لكلامي .. لأنه رجع لطبيعته بعد ما فهم كل حاجة .. وبدأ يتهمني بأنني أناني .. بورجوازي .. عارفه يعني إيه بورجوازي . يعني من الطبقة المتوسطة اللي عايزه تفتني .. اللي عايزه تتعسف في أولاد الذوات .. اللي بتفكر أصلها .. ضحكك .. وضحك هو كمان وقال لي كلمة غريبة .. قال لي مبروكه زيك تمام .. بتفكر بعقلية بورجوازي .. قلت له ، إزاي ما عرفتش تخليها شيعية .. قال لي .. دي هي اللي ح تخليها بورجوازي كمان ..

ونظر إلى يوسف مبتسماً كأنه روى نكتة وسألني :

- تعرف أنك كمان بورجوازي ..

قلت ضاحكاً :

- طبعا .. وليه ما ابتلاش بنت ذوات .. والفكر أنني اتفنى .. ليه أفكر في الفكر والنكد .

- لكن البورجوازي عايز يفتني بأي ثمن ..

أجبتة على الفور

- أي ثمن .. إلا أنني أخسر هيك ليه .. أنا مستعدة أسبب كل المال اللي في الدنيا علشانك ..

قال ضاحكاً :

- تبقى موش بورجوازي

- أمان أبقي إيه ..

- تبقى في نظر الشيوعيين عبطة .. وفي نظر البورجوازيين عبطة

قلت ساخرة :

- وفي نظرك أنت

قال وعيناه تصلمان المرح

- أنا كمان عيطت عليك .. لا حصلت شيوعيين ولا بورجوازيين .. ولا أنا عايز أبقى من دول ولا دول .. أنا موش عايز حاجة في الدنيا دي كلها عيرك أنت

كان هذا هو نوع الأحاديث التي تدور بيننا أحياناً عندما يعود من عمله وهو متعب . كنت أحس ونحن نتكلم كأننا ننبش أعماقنا ، نفتش عن كل شيء في داخلنا ، وكان أكثر ما يشغلنا ويقلقنا هو كيف نعيش وكيف نحفظ حياتنا ، هو خائف أن يضيع في الصحافة ، وأنا خائفة أن أضيع في السينما ، ولكن كلما جابهتنا مشكلة معقدة ، كنا نسخر منها ، ونجد لها الحل السريع في حبنا ، نحن نعيش ، لأننا نحب نعمل لأننا نحب ، أنا أحبه وهو يحبني فلنترك العالم كله يتشاجر وشوقي يشغل نفسه بالشيوعية ، وشهدى باشا يشغل نفسه بجمع الثروة ، وأنور سامي يشغل نفسه بمغامراته وشهرته ، أما نحن ، فمالنا ومال هذه الهوسه .. لقد اكتشفنا دواء كل المشاكل . اكتشفنا الحب . في تلك الليلة الممطرة ، لم أكن أفكر في الحب ، لقد تحول الحب في رأسي إلى زواج ، ولكن لم أستطع أن أبوح له بسرى . اليس هذا عجيبي . إنى أستطيع أن أقول ليوسف كل شيء .. أى شيء .. إلا أن أقول له تزوجنى .

ولكن لم أهدأ ، قلت لنفسى ، سانتظر حتى تأتى حجرة النوم ثم أصارحه .. وربما كان هو أيضاً ينتظر وصول الحجرة ليفاتحنى في الزواج . وجاءت حجرة النوم في يوم خميس ، كان يوسف مشغولاً بأزمة وزارية ، وكان يقضى أغلب وقته بين الجريدة ومكتب شهدى باشا ونادى محمد على ، ولكنه ترك كل شيء ليأتى إلى البيت ويشاهد معى حجرة نومنا .

سرير عريض له أرفف متحركة لنضع عليها صينية الإفطار ، ونمتطفئ فيها بالكاتب والمجلات ، وراديو صغير .. وتواليت بسيط له مرآة كبيرة . ودولاب ، الخشب زان ، جديد ، يبرق ، والغرفة شكلها جميل ، حولت البيت إلى قصر .. حولته إلى جنة .

قال يوسف وعيناه مغممتان بالحنان .

- احبا بقى لما بيت

قلت وأنا أقهر من الفرح

- أنا موش عايزه أسويه .. تعالى نعيش فيه من دلوقت ..

نظرت في عينيه ، فعرفت أنه قد فهمنى .. ومصت لحظة كأنها سنوات وعينائى مشدودتان إلى شفتيه ، تنتظران الكلمة التى سيتطرق بها قال منفعلاً :

- إيه رأيك .

- بأقول لك مستعدة أعيش هنا من الليلة دى ..

- وعندك فى البيت ..

- نقول لهم بكرة الصبح .

قال بلهجة مغايرة ، كأنه أفاق من نشوة

- وبعدين يقولوا علينا مجانين

صحت محاولة التشبث بعلمى

- ما احنا مجانين ..

أطرق برأسه وقال :

- موش لازم أكلم ماما الأول

كنت أصيح فيه ، أمى ليس لها شأن بس ، ولكنى تراجعت ، حقا أنى أتمنى لو تزوجنا في هذه اللحظة لقد عشت الشهور الماضية ، وأنا أوهم نفسى أنى سأتزوج في نفس اليوم الذى تصل فيه حجرة النوم حتى صدقت هذا الوهم ولكن .. ماذا أقول له .. هل أشرح له شعورى نحو أمى .. لا داعى لهذا .. فليات إلينا فى البيت ، ويقابلها إنها تستطيع أن تمثل دور الام ، وأو لبضع دقائق ، وسأضطرها للموافقة على زواجنا فى الحال ، لن أطلب منها شيئاً .. لا نقود .. ولا مساعدات .. ولا فرح .. ولا حنان .. لن أكلفها مليماً واحداً .. كل ما أرجوه هو أن تتظاهر بأنها أم طيبة ، لبعض الوقت .. ثم أفر

منها ومعنى يوسف إلى الأبد

- تهيب تشوف ماما أمتى ؟

قال فى حماس :

- بكرة ..

قيلته بشفتين قيهما كل حرارة قلبى .

ما كادت أمي تسمع أن مرتبه مائة وعشرون جنيها حتى وافقت في الحال ، رغم أنها مطت شعيتها وقالت إنه ليس غنياً ، ورفضت أن تظهر لي أي علامات فرح بزواجي ، حاولت أن تدو وكانها وافقت مضطرة ، لأنها يائسة مني . إنصاف هي التي فرحت من قلبها وقبلتني ، وأظهرت لي حياً لم أترقبه منها ، وزادت دهشتي عندما رايت الدموع في عينيها .

وصاح عني محمود ، معلناً أنه سيقدم لنا الفرح ، فقلت له في قسوة إنني أرفض ، وأنى سأزوج بلا ضجة ، فسكت وهو يكتف حيرته والله ، ولكني لم أكن ملي استعداد لأن أسمع له بجمع أصدقائه المقامرين في ليلة فرحي . وجاء يوسف .

اتفقت أمي دورها ، وبالفعل فيه تحدثت وكانها من عائلة أرستقراطية هريقة ، وروت قصصاً هجبية كنت أسمعها مع يوسف لأول مرة .. من أين جاءت بكل هذه الحكايات عن عائلتها وجدودها ، وأطيافهم وعبيدهم ، خلطت بين الخيال والحقيقة ، وحولت بعض الأصدقاء إلى أقارب وحولت بعض من قابلتهم مرة أو مرتين في حياتها إلى أصهار ذكرت أسماء عدد لا بأس به من البلاشوات الذين ماتوا . وقالت إنهم جميعاً من أقاربها ، رسمت صورة باهرة لماضيها ، تحدثت عن أيام العز ، أيام كانت تلعب مع بنت رفيقي باشا ، ونعيش في أحضان جلدان هانم بنت عم السلعدار باشا ، وذكرت قرابة أمها برشدي باشا .. كانت كلما ذكرت اسماً لابد أن يكون لقبه باشا ، أوله صل بباشا . بهرت يوسف ، الذي كان ينصت إليها في حجل وأدب شديدين ، وكان إذا تكلم خرج صوته ضعيفاً مرتجفاً ، نظراته مرتبكة .. وقع المسكين ضحيتها جعلته ينسى أثاث حجرة الصالون التي يجلس فيه ، بكل قذارته وقدمه ، وسحرته بحديثها وكأنه في سراي عابدين .

وكانت اللحظة الرهيبة عندما بدأت تستحويه .

- وأنت منين ..

أجابها

- من مصر ..

سألته في الحال

- لكن بلدكم إيه ..

أجاب في ارتباك

- مصر ..

فنظرت إليه في ترقع ، وسألته في وقحة

- يعني ملكوش عيلة ..

قال بصوت لا يكاد يسمع

- عيلتنا في مصر ..

- لكن دي بهية قالت لي إنك قريب راتب بك ..

قال وهو ينظر إلي مستنجداً

- أيوه .

- تقرب لهم إيه ..

- قرايب من بعيد ..

من يسمع هذا الاستجواب ، يكاد يقطع أن أمي ستعلن بعد ذلك رفض زواجنا ، ولعل يوسف توهم هذا في لحظة ما ، ولكني كنت أعلم أنها تستعرض مواهبها ، وقلت لنفسى وأنا أضحك في سرى ، سأعترف ليوسف يوماً ما بعد زواجنا بما فعلته به .

وسرعان ما أعلنت أمي موافقتها وقالت في بساطة .

- اعملوا اللي أنتم عاوزينه .. أنتم تفهموا بعض أحسن مني ..

كان تفازلاً عظيماً منها قابله يوسف في امتنان شديد وهو مصفر الوجه ..

وحينما موعد كتب الكتاب بعد أسبوع .. يوم الخميس القادم .

بعد انصراف يوسف ، بكى أمي وأست أدري هل كانت تبكي حسرة على

ما تخيلته عن ماضيها أم لأنها تأثرت كأي أم ستزوج ابنتها وقالت وهي

تمسح دموعها

- الشباب ده يابن عليه طيب .. أنا حبيته .

أرجعتني كلماتها ، أكثر من قرحت بها ، كنت مصممة على أن أبعد بينها
وبن يوسف
أما يوسف ، فقال لي في نفس الليلة :
- أما كنت خايف أمك ما توافقي .. لكن الحمد لله .. كانت تبقى
مصيبة ..

كان مرجى شديداً بموافقتها لقد خدعته تملأ ، وكأنها سحرته .

●●

قبل الزواج بيومين اتصل بي الأستاذ حلمي ، ليخبرني بوصول المخرج
الإيطالي « روسانو » .. وقال إنه سيقوم بحملة له يوم الخميس ، اعتذرت له عن
الحضور لهاتف في غيرهم .

- إيه .. بتقول لي إيه .

لم يصدق ما أقول ..

فشرحت له السبب ، وجدتني اندفع في شجاعة وبغير تفكير قائلة :

- على أي حال أنا موش متأكدة أنني ح أمثل بعد الجواز ..

توقعت أن أسمع صوته نائراً محتجاً ، أو متوسلاً ، ولكنه لم يهتم كثيراً ،
واكتفى بأن يقول في هدوء وهو يهزئ بكلمات تقليدية .

- على العموم فكرى في مصلحتك ياسامية ..

ثم ضحك وقال :

- والا اسمك ح يرجع ثاني ويبقى بهية ..

فاطنتني إجابته ، ولم أجد مفرأ من أن اندفع في تصميمي ، مؤكدة له
اعتزالي التمثيل .. وسمعتني أمي وأنا أصيح في التليفون ، وأقول :

- خلاص موش ح أمثل بعد الجواز ..

فأسرعت إلى ، وعيونها ترسل شرراً ، وزعقت .

- إيه يابيت الهبل بتاعك ده .. هاتى السماعى خليلينى أكله ، زاننى

زعيق أمى عناداً ، فرفضت أن أسمع لها بالكلام مع حلمي ، فشتمتني ،

وقضيت ليلة تعيسة وهي لا تكف عن الصراخ ، تهددني بأن الزواج لا أمان
له ، وإني سأندم على ما فعلته ، إذ لا يوجد رجل في هذه الدنيا يستحق أن
أضحي له بمستقبلي .. كانت تصرح

- لو طلقك .. ح تعمل إيه .. أظن ح تيجي تتلقى ثاني هنا . أنا
سألش دعوة بيكي .. أبقي روحى أتمرطى في الشوارع ..

جريت إلى المريز .. ووهضت الوسائد فوق رأسي حتى أصم أذني
ولا أسمع صراخها ، ولكنني شعرت بالراحة عندما وجدت إصفاً تتدخل
لمصلحتي ، وقدافع عن قرارى وتثور في وجه أمي ، وتبادل معها الشتائم ..
ربما لأول مرة في حياتهما .

ليلة الخميس ، لم أريوسف سوى بضع دقائق ، رغم الحاجة في أن نسهر
معاً كنت مشغولة بأشياء كثيرة برزت لي فجأة ، أشياء أريد أن أشتريها ، لي
ولبيتنا ، كنت مصممة ألقي بين البيت وشارع فؤاد ، والأفكار تخرج في رأسي
بلا ضابط .. أفكر في دعوة يولاندا ثم أعدل عن دعوتها .. أفكر في إقامة
فرح .. ثم أتردد .. وأرى أن الوقت قد فات ، ألف فكرة ، وألف خاطر .. موعد
مع الحلاق فستان .. عند الخياطة .. بيجامة جديدة ليوسف .
ولم أتم الليل ..

في الصباح سمعت عمي محمود يصرخ خارج الحجرة .

يوسف سافر .. يوسف سافر .. عملها وسافر ..

لم أفهم ماذا يقول ، أصابني غباء مفاجئ .. وكأنني في كابوس ولكن لم
تمض ثوان ، حتى قفزت من السرير لأصطدم بعنق محمود وهو يلتحم على
الحجرة مستمراً في صياحه .

كانت جريدة الأيام في يده .. ووجهه شاحب مصفر من الانفعال وأصابعه
المرتجفة يشير إلى صورة يوسف في الجريدة . وقد كتب تحتها في بروجراف
العين ..

« سيطر صباح اليوم يوسف عبد الحميد نائب رئيس تحرير الأيام إلى
سوريا ، لمتابعة قراء الأيام بأنباء انقلاب حسنى الزعيم » .

وهم أكمل القراءة ..

لم أعد أرى .. لم أعد أسمع وتوقف كل شيء ..

لم أعد أحيأ ..

طالبته محمد نلحى في تليفونه الخاص ، ماكاد يعرفنى حتى قال في صوت بارد ليس فيه أى ترحيب :

— أزيك . أنا مشغول بلوقت .. ممكن تكلمنى بعد شويه ..

صحت في ألم

— أنت عارف اللي حصل ..

هتف في ضيق

— بعدين .. بعدين .. أنا عندي اجتماع ..

كان واضحاً أنه يتهرب منى ، وكدت أنهى المكالمة يائسة ، لولا صرخة انطلقت منى :

— أنا لازم أشوفك ..

لعله أحس بتصميمى على رؤيته ، لعله خاف من صرختى ، إذ قال مندفعاً .
— طيب .. فرشى عليه في المكتب ..

وذهبت إليه ، لم يرفع عينيه عن ورق أمامه يقرأ فيه ، حتى وصلت إلى حافة مكتبه ، نظراً إلى جمود ، وطلب منى الجلوس على مقعد أمام مكتبه ، وكأننى غريبة عنه ، تتطفل عليه ، وعاد إلى أوراقه يتفحصها ..

كانت الحجرة كبيرة تغطي جدرانها مكتبة مكدسة بمئات الكتب .. والستائر مسدلة تحجب ضوء النهار وقد اكتفى بضوء الأباجرة على مكتبه ، ورأيت التليفونات عن يمينه وشماله وخلفه ، أردت أن أهدأ ، ولكنى لم أواص العد ، كنت أشعر بمقاض وريبة ، أفكارى مشتتة ، وكان هدوء الحجرة غير حقيقى ، هناك أصوات تطن في راسى ، وحول أصوات مبهمة تطاردنى .

ذكرنى ووجهه بطبيب عيون ذهبت إليه مع أمى وأنا صغيرة ، كل ما أنكره الظلام في الحجرة ، ووجهه الطبيب وهو يمد يده في قفاز جلدى إلى جفونى ، ثم

صراخى ..

أردت أن أصرخ ، ولكنى عجزت وربما خفت منه .. بعد قليل سألنى وهو يبتسم في فتور :

— خير .. أى خدمة .

كدت أقول له ، لا أريد منك شيئاً ، وأقر منه ، ولكنى همست :

— يوسف سافر ..

قال في هدوء غريب :

— أيوه . الساعة خمسة الصبح .

— ماقلش ..

— غريبة ..

— أنت عارف أن أحنأح نتجوز النهاردة .. أطرق برأسه ، كأنه متردد في الكلام ، ثم قال في فتور :

— أنت عايزه نصيحتى ..

نظرت إليه في جزع ، فاستمر يقول :

— أنا ماأحبش أتدخل بينكم .. وأحسن أنك تعتطفلى بمشاكلك الخاصة لنفسك .

قلت يائسة :

— بس أعمل إيه .. أنا مش متصورة اللي حصل .. امبارح كنت معاه .. وسابنى على أننا حنشوف بعض النهاردة .. كل حاجة جاهزة .. ده كلم ماما ..

ولم أتمالك نفسى فسكيت .. نهض من مقعده ، وتقدم منى وربت على كتفى مررداً بصوت رقيق :

— وبعدين ياسامية .. لا لا .. أنا فاكرك أحسن من كده .. العيطده إيه قايسته .. بالعكس أنت لازم تيننى إنك مش سائله .. وموش ضعيفة ..

زابتنى كلماته انهياراً فهمست وأنا أريد أن أصرخ :

— لكن أنا يا حبه .. وكنت فاكراة بيحبى ..

فسمعته يقول

— شوفي يا بنتي .. كل اللي متقوليه ده صحيح .. لكن أنا ما أحيش أضحك عليكى وأخدعك ، ممكن أقولك كلمتين كويسين يهدوكى ويصبروكى لحد ما يرجع . وده فى الحقيقة اللي أنا كنت عايز أعمله .. كنت عايزك تكتشفى كل شىء بنفسك .. لكن الطاهر إنى موش ح أقدر ..
وضحك ثم قال :

— أعمل إيه .. المهمة ثقيله لكن أنا مضطر .. هرام أسبيك تعزبى فى نفسك بالشكل ده

كانت كلمات غامضة ، ولكنها أثارت فضولى ، فكفكت ، وأنصت له .. لم أكن أنظر إليه ، ثبتت عيني فى حجرى ، وكنت أرى قدميه وهو يتحرك أمامى يذرع الحجرة جيئة وذهابا ..

— أنت حبيبتي يوسف ، ويوسف حبك .. لكن ما فهمتوش بعض .. لو كنت فهمتى يوسف كنت عرفتى من الأول انه مش ممكن ح يتجوزك ..

رفعت رأسى ، فصاح :

— ماتزعليش منى ..

كنت أبعد فى وجهه عن شىء يقول لى إنه يكذب ، ولكنى عجزت عن رؤية شىء ، فأطرقت من جديد ، بينما ذهب هو إلى التليفون وتكلم فيه ..

— ماتحوللش أى مكالة ..

ثم قال وهو يتمشى أمامى :

— أنت لما كره ليلة ما جيتم عندى فى البيت ، وحكى لك عن دوق وندسور اللي ساب عرشه علشان بيعب .. أنا كنت عايز أسبلك فى الوقت ده .. يوسف مش أمبراطور .. موش ملك .. موش قاعد على عرش .. أنا متأكد انه كان سابه علشان يتجوزك .

كان يعملها بمنتهى البساطة .. إنما للأسف ما عندوش .. علشان كده ح يسبب حمة ويدور على العرش .. بنفس البساطة .. ماتفتكرش إنه غلطان

ودق بيده على مكتبه .. دقات عنيفة متوالية .. وصاح فى انفعال

— يوسف عايز العرش ده .. عايز يقعد هنا .. إن ما كنتيش تعرفى ده تبقى ماتعرقش يوسف ، هو مستعد يسبيك . ويسبنى علشان المكتب ده .
وسكت برهة ثم قال فى حدة :

— يوسف فى الشهور الأخيرة اتغير بسرعة .. موش هو يوسف اللي أنت تعرفيه الأول .. خلاص ، اكتشف نفسه .. شاف المستقبل مفتوح أمامه .. شغل .. مسئوليات .. علاقات اجتماعية على مستوى كبير .. مستوى وزرا وبلديات .. أكثر من كده .. إنه افتكر إنه له دور ممكن يلعبه .. فى السياسة .. موش فى الحب .. أقنع نفسه إنه عايز يصلح البلد ، يقضى على الفساد . يرفع مستوى الفلاحين .. يشجع الصناعة الوطنية .. تفتكرى سامية سامى إيه مكانها لى ده كله خيلنا نتكلم بصراحة .. سامية سامى ممثلة ناشئة .. حلوة .. من بتوع السinema .. المنتجين والممثلين وحتى .. حتى وزير الأوقاف طمعان فيها .. أرجوكى يا بنتى ماتزعليش من كلامى .. أنا باحترمك .. وعارف إنك ممكن تكونى زوجة كويسة ليوسف .. ويمكن يوسف نفسه عارف كده .. لكن .. لو اتجوزتبه ..
ودق على المكتب بعنف صائحا :

— موش حيقدر يقعد هنا .. لأن كلمته اللي ح بكتبها .. ح تبقى متجرحة .. ح يكتب فى السياسة ، يقوم خصومه يقولوا .. بدل ماتحاول تصلح البلد .. روح شوف مراتك بتعمل إيه . ح يطلعوا عليه شائعات .. ح يبقى متجوز واحدة ارتعت ..

وعدت الى البكاء ، فأنهنى على حتى شعرت بأنفاسه ، وهمس :

— سامية .. ماتعيطيش يا بنتى .. أنا عيطت فى يوم من الأيام لنفس السبب .. أنت عارلة قد إيه أنا كنت يا حب المرحومة دلال .. وكنت بأعيط علشان اتجوزها .. كنت مستعد أسبب كل حاجة .. وأسمع كل التشجيعات وللتهم بس اتجوزها .. لكن تعرفى .. هيه اللي رفضت .. هيه اللي قالت لى الكلام اللي أنا يا قولك دلوقت . كانت فاهمة الموقف كويس . كانت عارفة

هي عايشة فين .. وإيه المجتمع اللي حواليتنا .. كانت بتعبنى أكثر من حبك
ليوسف .. لأنها ضحت .. لأنها كانت .. ولأنها كان عندها حاجة ثانية .. كان
عندها صوتها .. وأنت والحمد لله عندك التمثيل ..

همست في زهول :

— أنا سبت التمثيل ..

فصاح :

— لا ... تبقى غلطانة .. ليه تسببي التمثيل .. ده مستقبلك ، ولازم تحصرى
تفكيرك فيه .. مافيش حاجة تستحق منك أى اهتمام غير التمثيل .. لا حب
ولا جواز شول يوسف عمل إيه .. أنت لازم كمان تعمل زيه .. لازم تكونى
قوية زيه ..

ماذا أقول له .

إنه لا يعرف أن يوسف وهى نصحنى بأن اترك التمثيل وأبحث عن
هريس ، إنه لا يعرف أنى لست ممثلة ولست موهوبة ، إنه لا يعرف أنى
اكتشفت الكذبة الكبيرة التى صنعتها ، أنا لست مثل دلال ، ولا مثل هدى
مراد ، ولا مثل فاتن حمامة ، أنا مجرد فتاة هادية ، بلا موهبة ، أبحث عن
الحنان ، أبحث عن الرجل الذى يحمينى ويبادلنى الحب ، ولقد وجدت ،
فتخلطت عن كل شيء ، واكتشفت أنى كنت أكذب على نفسى ، وأنهم أنى
ممثلة .. أنا لست أكثر من فتاة تحب ، لا أريد شيئاً من الدنيا سوى حبيب ،
مالى والناس وكلامهم ، مالى والشهرة والمجد ، مالى وهذا المكتب الذى يريد أن
يجلس عليه يوسف ، فليجلس عليه وعلى هشرة مثله ، ولكن ما الذى يمنعه من
الزواج بى .. أه .. ماذا أقول له .. إنه لا يفهمنى ، أنا أن أتحل عن يوسف
سأجرى وراءه ، سأركع على قدمى وأتوسل إليه ألا يتركنى ، سأتحلرو
هجرنى ، ليست لى حياة بعده

ودق جرس التليفون فذهب إليه والنقط للسماعة وتكلم ، لم انتبه إلى كلامه

حتى سمعته يقول :

— أنا مستنى يكلمنى بعد الصهر من دمشق ..

غمرنى فجأة شعور بالكراهية نحو يوسف ، إنه هناك فى دمشق يعمل ،
ويكتب ، ويقابل الناس ، ويتكلم فى التليفونات ، وكأنه لم يهجرنى ، السافل ،
سأنتكم منه ، سأجعله هو الذى يركع على قدميه ويتوسل إلى ، سأجعله هو
الذى يجرى ويلهث وراءى ، سأجعله هو الذى يبكى ، سأذله ، سأعطيه .
— إيه رأيك بآه فى كلامى .. كان قد فرغ من حديثه فى التليفون ، وعيناه
تبتسمان محاولاً أن يدعونى للاهتمام مثله

وأدهشتى ، أحسست أن شيئاً ثقيلاً ينزاح من فوق صدرى .. ووجدتني
أبتسم .. وقلت :

— الحمد لله التى علمت إنه سافل قبل الجواز ..

فصمت قائلاً :

— مقدروش أقول سافل .. السافل ما يتصرفش بالشكل المصيطر .. ما كانش
يورط نفسه للدرجة دي ، وما كانش يخاف يقول لك إنه مسافر ، ده تصرف
بطريقة صبيانية وهرب .. إنما على أى حال حصل خير .. اخبرنى إنك
اتجوزت .. تفكرى كتكم ح تعيشوا كريس كنت ح تندمى على إنك طسحتنى
بموافيك .. كنت ح تلاقى نفسك ست هادية محبوبسة فى البيت .. فى الوقت
اللى هو فيه بيشتهر واسمه بيلمع .. أوى تقولى إنك مستعدة تقسنى
بنفسك .. ده كلام ممكن أسمعه منك النهاردة .. لكن موسى بعد ستة والا
سنتين .. الحب بعد الجواز بيبرد .. والحياة بتبقى روتين .. ومملة .. وكان
ح يبقى أغلب الوقت بعيد عنك .. مشغول بعمله وسفريات ومقابلات .. تعرفى
إيه الذى كان ح يحصل .. كنت ح تسببيه قبل ما هوه بسميك .

كان لكلامه أثر عكسى فى نفسى ، أشعر بحنين جارف إلى الحياة التى
يصفها ، ونسيت كرهى ليوسف ، ورغبتى لى الانتقام منه .. ووجدتني أقول
وغماً عنى والدموع تظفر من عيني :

— أنا بأحبه ..

فهمت :

— آوه .. أنت بتتكلمنى بصيطة كده ليه .. ده لا هوه لول حب بولا أخر حب ..

الحب ياستى على قفاس يشيل .. بكرة تحبى غيره .. وغيره .. وتضحكى على نفسك ، لما تفكرى إنك فى يوم من الأيام كنت بتضحكى عليه .. ولم أحتمل كلامه ، فتركته وأنا اشقى مما كنت ، قال لى وهو يودعنى عند باب حجرته :

- أبقى كلمينى وقت ما تحبى .. ممكن تعتبرينى كصديق .. أنا عايزك ترجعى زى ما كنت الأول .. البنيت المدرجة اللى بتضحك من قلبها .. ظلت كلماته تتردد فى رأسى ، نعم ، لماذا لا أعود كما كنت .. البنيت المدرجة ، ولكنى شعرت أن هذا مستحيل ، لقد ضاع منى كل شىء ، ولم تبق لى سوى الأحزان .

وعدت إلى البيت ، لتقابلنى أمى قليلة فى لهجة أمرة :

- كنت رايحة الليلة دى حفلة حلمى .. أنا كلمته فى التلفزيون .

ولم أستطع معارضتها ، إنها منذ علمت بسفر يوسف ، وهى لا تكف عن الصراخ وإصدار الأوامر .. أنت لازم لما يرجع تروحى له المكتب وتشيل الجزمة وتنسليها على رأسه .. أنا ح أشوف لك هريس لحسن منه ألف مرة .. ويرجع يلاقيك متجوزة .. أنا ح أكلم واحد محامى يرفع عليه قضية تعويض .. الجرنال ده ما يخطبش البيت .. ده اللى بيكتبوه ناس دن .. وكنت أسمع لها فى سمعت واستسلام ، حتى ينفذ صبرها فنزعنى فى :
- ما تقول حاجة .. مالك ساكتة كده ..

فأخس أن ضيقها بى ، أكبر من ضيقها بيوسف .

وذهبت إلى الحفلة ، قابلنى حلمى عند الباب ، وعلى وجهه قناع من الحزن والأسى .. وسألنى بصوت ملهوف :

- إيه اللى حصل .. إزاي صاغر من غير ما يقول لك ، أما دى حاجة غريبة خالص . ده طلع ولد صاغل صحيح .. ولا يهيك .. اضحكى تعالى لما أقدمك لروسانو ..

كان ينظر إلّ فى إنزعاج ، كأنه يتوقع أن يصدر عنى شىء شاذ ولا بد أن وجهى كان غريباً ، يدعوه إلى الخوف منى .

وتقدمنا إلى حجرة الصالون . وكان يقف لديها رجال ونساء كثيرون .. كلهم وجوه رأيتها فى الاستديو .. المصور ، ومهندس الصوت ، ومساعد المخرج ، ويجوار باب الشرفة كان روسانو يقف مع هدى مراد .

رجل عجوز فى الخامسة والخمسين من عمره ، شعره أبيض ، ووجهه الأحمر على بالفضون ، عيناها منتفختان ، وله كرش مستدير ، يرتدى بدلة كطية أنيقة ، ورباط عنق أبيض ، وعيناها تلمعن ببريق مكرر ..

سألنى بالفرنسية بمجرد اقترابى منه :

- ما رايك .. هل تقبلينى زوجاً ..

قلت له فى ارتباك :

- نعم ..

فصاح :

- ولكنى عجوز .. وأنت صغيرة .. كيف تقبلين الزواج من رجل عجوز مثلى .. انظرى إلى كرشى .

احتريت ماذا أقول له .. وخيل إلّ أنه مجنون ..

وهتف روسانو فجأة بصوت حاد أفرغنى :

- قولى أى شىء .. لماذا لا تجيبين على سؤالى ؟

همست فى خوف :

- أنت تضحك طبعاً ..

فقال بصوت جاد :

- ابدأ .. أنا لا اضحك .. أنا أناقشك مناقشة جادة ، يتوقف عليها تعاوننا

معاً .. لماذا تقبلين الزواج منى وأنا رجل عجوز ولّى كرش ..

زاد ارتباكى ، وتلعثمت .. وأطلقت هدى مراد ضحكة ساخرة وثقلت حولى

فرايت العيون كلها تضحك ساخرة منى ..

وقدم لى الأستاذ حلمى كأساً من الويسكى ، وهمس من بين أسنانه

- خدى بالك .. الرجال عايز يشوفك ملطحة والا لا ، اضحكى

ابتسمت على الفور ، ابتسامة وحلة مصطنعة . وشعرت أن عيون روسانو

قد زادت انتفاخاً وسألنى :

— الا تحبين شاباً صغيراً ؟

— لا ...

— لماذا ؟

كدت أجرى هاربة منه ومن البيت .. كانت صورة يوسف تملأ عيني
وصوت كالطارق يدوي في راسي هاتفاً .. يوسف .. يوسف .. يوسف ..

وصاح روسانو :

— هل أنت ممثلة ..

همست :

— نعم ..

فضحك قائلاً في سخرية :

— أنت تلميذة في المدرسة

نظرت إلى حلمي استنجد به ، فرايته ينظر إليّ في أمي ، وقال بالعربية ..
— ما تتدري .. أنت ملك يا سامية .. اتكلمي معاه ..

شعرت أنني اختنق .. وأصبح خروج الكلام من فمي شيئاً لا تحفه
إلا معجزة . والتفت روسانو إلى حلمي رساله :

— ماذا تقول لها ؟

قال حلمي بالفرنسية الركبة :

— أنا اطلب منها أن تتكلم .. فبدأ على روسانو الضيق ، وقال له :

— إنها ليست كما توقعت ..

ثم نظر إليّ وقال ساخراً :

— ما هذا الذي تحملينه فوق رأسك ..

نظرت إليه في دهشة وإعيا ، لم أعد قادرة على الصمود أمامه ..

فقال وهو يمثل بيديه :

— أنت يا مدموازيل تحملين فوق رأسك أطناناً من الحديد ..

ثم أمسك بيديه كأنهما مقيدان وقال :

— لابد أن تتخلصي من القيود التي تأسرك .. أنت تحبين روحك داخل

قلعة .. حطمت هذه القيود ..

وحرك يديه ، كأنه يكسر قيوداً حديدية .. ثم ضرب بكلتا يديه على فخذه

وسألني :

— هذا يجب أن يزل .. ما وزنك ؟

— ٥٦ كيلو ..

قال :

— اتكلمي ستة كيلو .. من هنا .. من هنا فقط ..

لماذا فعل يوسف بي كل هذا ، لولاه لما تعرضت لكل هذه السحرية .. لو لم
يسافر ، لكننا معاً الآن في بيتنا . لماذا تركني وحيدة ، بلا حب ، ولا هنان ،
مستحيل أن تبلغ به القسوة إلى هذا الحد .. لو عرف ما يحدث لي الآن ، لترك
كل شيء وجاء لينقذني ..

لم أعد أسمع ما يقوله روسانو كنت أفكر في يوسف ، في عيني وفي صوته ،
حبي يكتم أنفاسي ، عيناى تهتلان بين الحاضرين عن يوسف ، سوف يدخل
الآن ، سوف يسأل عني .. أه .. كيف لم أفكر في هذا .. سيطلبني في التلفزيون
من دمشق ..

وتركت الجميع ، وخرجت أبحث عن التلفزيون حتى وجدته ، وسمعت

صوت أمي ..

— حد سأل عني يا ساما ..

— لا ..

انقبض صدري ، وسمعتها تقول :

— يتسألني ليه ..

— يولاتدا كانت قالت إنها ح تتكلم ..

— لا ما انتكلمتش .. أنت فين ..

— عند الأستاذ حلمي ..

— طيب يابنتي فرقيش .. وما تبهزيش ..

— لا يا ساما ..

ورقفت حزينة ، ویدی متشنجة على سماعة التليفون ، اتعنى أن يدق ،
وارفع السماعة وأسمع صوته .
وارتجف قلبي ، كان جرس الباب هو الذى يدق ، وبخل أنور سلمى ومعه
بنتان لم أراهما من قبل ، وماكاد يراننى حتى هتف وهو يجذب البنتين معه إلى
الداخل :
- خللكى عندك .. أنا واجع لك ..

وذهب البنتين إلى روسانو .. وقدمهما له ، سمعت قرحيب روسانو
البنتين ، وضحكات روسانو ، وضحكات أنور .. وأدركت على الفور أنهما
منافستان لى ، أحضرهما أنور ليعرضهما على روسانو ..
وأم أكثرث ، كنت لا أحس بشيء ولا أهتم بشيء ، وصورة يوسف مازالت
في هينى ، والمطابق في رأسى تدوى .. يوسف .. يوسف .. يوسف ..
وسمعت روسانو يصيح .

- يجب أن تنقضا وزنكما .. ماذا تأكلين يلمدموازيل ..
وصاح أنور :

- سامعه .. نوسباجتى .. موش كده ياخواجة والا إيه ..

وتعلت الضحكات .. وقبل أن تهدأ الضحكات رايت أنور خارجاً إن ،
وجذبني من يدي ، وجلسنا على مقعدين متجاورين .. ونظر إلى ساخرأ ، وهو
يهز رأسه ، وسألنى متهمكأ :

- أنت شربتى كام وسكى ..

- ده الثانى ..

- موش كفايه .. أنت لكى قزازه لوحده ..

ورفع كأسه وهتف :

- فى صحتك ..

ثم ضحك وقال ..

- مايطب الا الشاطرين .. كده برضه تخلصى الواد العبيط ده يضحك
عليكى .. موش كنت تسمعى كلام بابا ..

قلت مقوسلة ..

- أرجوك أنا موش مستحيلة تريقه .

فصاح :

- ومن قال أنا باتفريق .

ولعت عيناه وهو يسألنى :

- إيه بآه اللى حصل يلجميل ..

- خلاص .. سيبك من السيرة دى ..

- مافيش حاجة اسمها خلاص ، أنا بابا .. ولازم أعرف .. موش كده والا
إيه ..

كان المرح يفيض من عينيه .. وإيقنت أنى لن أستطيع الخلاص منه
فقلت

- ولا حاجة .. بعد ما اتفقنا على الجواز النهارده .. خد بعضه وسالر .

صاح فى لهجة تمثيلية :

- الورد الزنيم .. سوف آتله .. يابراكين الأرض .. يارعد السماء .. ياالله
الانتقام .. أنزلى غضبك وانتقامك على المجرم اللعين .

ثم ضحك قائلاً :

- أحسن حاجة عملها .. علشان تصدقنى وتطلعنى من مخك الصغير ده إن
فيه حاجة اسمها حب لو كنت قلت لى إنك كسبتى وراة يانصيب بمليون جنيه
كنت صدقتك .. لكن لقيتى واحد بيعب بإخلاص .. هو .. هو .. ده كان
زمان الحب ده بطل . فيه ناس بتتسل مع بعض ويقولوا ده حب .. إنما حب
بحق وحقيق .. مافيش كلام فاضى زى ده أبداً أبداً ..

وسألنى فجأة :

- روسانو شافك .

- آه .. ومعجبتوش .

- ليه ..

- قل إتنى تخينة .. وزى تلامذة المدارس .

- ولا يهمك .. أنتِ اللي ح تاخدي الدور ..

ونظر إلى نظرة غريبة ، كأنه يمثل دور عاشق في فيلم غرامي .. ووضع يده
المصنكة بالكأس على قلبه ، وقال بلهجة تمثيلية :

- يا حبيبتي ياسامية .. أنا عارف إنك الليلة دي عايزه تسكري وتبقي ..
وخدي كمان بكرة .. وكمان بعده .. لكن بعد بعده .. لازم تكوني نصيتي كل
حاجة .. موش كده ياروحى .. وبعدين تبقى تتقبل .. وأعمل لك امتحان
أشوفك نصيتي والا لا ..

فهمت ماذا يرمى إليه ، ووجدتني أقول في استسلام :

- ح تساعدني أنسى ..

صاح بصوته الطبيعي :

- وأنا ليه شغلانا غير دي .. أنا من خبراء النسيان .. ما حدش قال لك عنى ..
وضحك ..

واسرعت في الضرب ، فكنت أضحك وأبكي ، ولم يتركني أبدا .. كان إذا
رأني أضحك بكى .. وإذا رأني أبكي ضحك ، وأصبح منظرنا مسلما
للجميع ، حتى أن الأستاذ حلمي هجم على رعمس في أذني :

- براقو ياسامية .. أنتِ وأنور بتمثلوا أحسن دور في حياتكم .. الراجل
روسائوج يتهمل عليكمي بيقول ما فيش غيرك تمثل الدور استمعت إليه في غير
فهم ، وكل ما أذكره بعد ذلك ، خروجي مع أنور في سيارته ، ونحن مغنى ،
حتى ولققت السيارة داخل جراج كبير .

ومالت أنور :

- احنا هين ..

قال .

- احنا وصلنا ..

- وصلنا فين ..

- البيت ..

- لا .. ده موش بيتنا ..

- والله العظيم ده موش بيتنا اللي في شارع شريف

ولا أدري كيف تفجعت إلى أمه أحدي إلى بيته .. وتذكرت يوسف وعادت

المطارق تدوي في رأسى يوسف .. يوسف .. يوسف

- أنا عايزه أروح بيتنا

- ما احنا في بيتنا يا حبيبتي .. وفي الصباح استيقظت لأحد دعسى في فراشى

بالجيزة .. وأطياف غامضة مما حدث بالأمس تدور في رأسى وتذكرت

محاولة أنور وتذكرت أنى رفضت الصعود معه وابستمت ..

ثم بكيت .. فقدت تذكرت يوسف ..

كلها مريوم زاد شعوري بالصدمة ، فلم أعد أعرف طعم النوم ، ولم أعد
أذوق الطعام وأصبحت أكلم نفسي ، وأهذي ، وأبكي ، تراودني الأفكار
السوداء .. الموت .. الانتحار .. سمعت حالي .

حاولت أن أتماسك ، ولكني فشلت .. فشلت حتى في أن أبدأ المحاولة ، إذ
كيف أقنع نفسي بأن يوسف لم يكن شيئاً في حياتي ، أنه مجرد حلم جميل ، ثم
استيقظت منه ، يوسف في دمي ، في أنفاسي ، في عقلي ، كيف أنساه أو
أنتباهه ، كيف أصدق أنه كان مجرد حلم ..

أشد ما يعذبني ، إنني لا أجد مخرجاً ، لا أجد طريقاً أهرب فيه من حبي ،
ماذا أفعل ، هل أعود كما كنت ، تلك الفتاة التي تتعرف كل يوم على شاب جديد
يملك عربة ، أخرج معه في سهرات سخيطة ، نأكل ونشرب ، ونرقص في
بلاهة ، كالحيوانات ، ثم أعود إلى البيت والقرف يطفح مني .
مستحيل أن أعود إلى هذه الحياة ، لن أجد فيها شيئاً ، لم تعد مسلية لن
أجد فيها ما يثيرني أو يلهيني .

ماذا أستطيع أن أفعل الآن .. لا شيء .. سوى أن أرقب الحقد الذي ينمو
في صدري نحو يوسف .. أه .. لو أستطيع أن أفعل شيئاً يغيظه .. يؤرقه ..
يعذبه .. لو أستطيع أن أجعله يبكي ..



ربما لو دهمت مع أنور سامى لشعر بالقيظ .

أهذا صحيح ، أم أنا أخدع نفسي

لا لى أذهب مع أنور سامى حتى لا اتبع له الفرصة كي يربح ضميره ،
سيقول لنفسه إنه كان على حق إذ رفض أن يتزوجنى سيطمئن عندما يعلم أنى
أصبحت عشيقه أنور لا لا أريد له راحة الضمير ، أريد له العذاب ..
ولو بعض عذابي ..

قالت لى أمى

- ما تروحي تشوولى مدهت .. اسألى عليه ..

وزفرت الهواء ثم استطرقت :

- أنا لو منك .. أكون متجوزة مدهت فى أربعة وعشرين ساعة

سألت نفسي ، لو تزوجت مدهت فهل هذا يغيظ يوسف . ربما

لقد شعرت أكثر من مرة أنه كان يغار منه ، وخطر لى خاطر مفاجئ . لقد
أحببى يوسف ، لأنه وجد مدهت يحببى ، ألم يعترف لى أنه كان يحسد
مدهت ، ألم يحب سعاد لأنها شقيقة مدهت .

تذكرت كلمات يوسف وهو يروى لى عن حبه لسعاد ، كنت بأقول فى سرى .

ده عنده أم ، وعنده أخت .. وأنا لوحدى ما عنديش حد . ويمكن علشان

كده حبيت سعاد .. استكترتها على مدهت ، قلت أخذها لنفسى ،

أضاعت الكلمات فى رأسى ، فرأيت كل شيء بوضوح ، وكلما رددت هذه

الكلمات ، زدت يقيناً أن يوسف أحببى ، لأنه يحسد مدهت ويغار منه ، لقد

كرر معى نفس ما فعله عندما أحب سعاد .. أراه أن يأخذنا نحن الاثنين من
مدهت .

نعم .. هذه هى الحقيقة ، ولذلك لابد أن أعود إلى مدهت ، لا شيء يغيظ

يوسف مثل هذا ، أمى على حق ، لقد نهتنى إلى ما يجب أن أفعله دون أن
تدرى .

وبغير تردد ، اتهمت بمدهت .

سمعته يهتف فى التليفون وقد عرف صوتى :

- أزيك ياسامية .. أهلاً أهلاً .

- يعنى فلاننى ..

- وأنا أقدر أنساكى ..

- مايتسألش عنى ليه ..

- خايف أصليقك ..

- خايف والافيه حاجة ثانية .

فتلحثم ، حاول أن يتهرب من الإجابة ، فضحك فى بلاهة . وانتظرت أن

يسألنى أن أراه ، ولكنه لم يفعل ، فاضطرت أن أقول :

- أنا عابزه أشوفك .. صباح فى دهشة :

- تشوفينى ..

ثم أدرك خطأه فسارع يقول فى ارتباك :

- أنا تحت امرك ..

احسست أنه لا يرحب برؤيتى ، وتأكدت أنه على علاقة بفتاة أخرى ،

ولكنى لم أراجع ، فمضيت أقول :

- ممكن أشوفك النهاردة ..

جعل يردد فى غباء

- النهارده .. النهاردة .. ثم صاح فى عصبية

- امتى .

- فى أى وقت .. أناضية

قلل فى صوت خفيض كأنه يخشى أن يسمعه أحد

- طيب ح أقوت عليكى الساعة ثلاثة .. بس تنزل على طول

بعد أن فرغت من اتفاقى معه ، فترحماسى ، وندمت على أنى كلمته ..

انتابنى وجوم ثقيل ، ورغبة فى أن أحبس نفسى فى حجرتى ولا أخرج للقاءه ..

انه ليس مدهت الذى كنت أعرفه ، وأنا لست الفتاة التى كان يعرفها ، وأنا

واقعة أنه يحب فتاة أخرى ، لذلك هو خائف من مقابلتى ، لماذا لا أتركه

وشأنه ، ولا أقصد عليه حبه .

لم أستطع المضي في التفكير ، ولكنني في الدقائق الأخيرة ارتديت ملابس على عجل ، دون أن أهتم بزيّنتي ، وهبطت إليه .

نطلق بعريته في شارع الهرم ، وذهب بي إلى مطعم صغير مهجور ، لم نتردد عليه من قبل ، كأنه يريد أن يختفي عن الأنظار ، وكنت حتى وصلنا إلى ذلك المكان ، صامتة في حالة إعياء ، أستمع إلى ثرثرته دون أن أفهم ما يقول .. بعد أن جلسنا سألني :

.. مالك ؟ ..

وبكيت ..

نظر إليّ في ذعر ، ثم ثلثت حوله خائفاً ، وهمس :

.. إيه .. فيه إيه ..

كانت خطتي قد تبددت ، لن أستطيع أن اتصنع أمامه ، لا يمكنني أن أخدعه وأجعله يتزوجني ، فقدت كل ما كنت أعرفه لإثارة إعجاب الرجال .. أنا مخلوقة ضعيفة منهارة يائسة ..

.. حصل إيه ..

وجدتني أبوي له قصتي مع يوسف ، أستمع إليّ وعلى وجهه علامات ألم حقيقي ، ثم ضحك فجأة وقال محاولاً أن يسري عني :

.. وإيه يعني .. تلاقي ألف واحد أحسن منه ..

قلت في ألم :

.. لكن أنا بأحبه ..

هز رأسه وقال في لهجة حزينة :

.. وبين بيتحرز اللي بيعبه ..

والتفت عيرنا ، فحول عينيه بسرعة ، وأحمر وجهه وتهدج صوته :

.. أنتي عارفة أنا ح اتجوز ..

نظرت إليه في صمت ، ولعله ظن أنني أفهمه ، إذ قال معتقداً :

.. واحدة ما بأحبهاش .. لكن أبويا وأمى مصممين إنني اتجوزها علشان عنية

أخرجتني كلماته من أعمالي للحظات قليلة . وسألته :

.. ولأزم تتجوزها ..

قال في استسلام غريب :

.. أعمل إيه ..

شعرت بمرارة في فمي ، ولم أقل شيئاً .. ومضى هو يقول في سخرية حزينة

.. الظاهر إن الجواز حاجة .. والحب حاجة ثانية .. الواحد يتجوز زي ما أهله عايزين .. علشان يفرحوا بيه .. وبعدين يحب زي ما هو عايز ..

نفس الكلمات التي كانت ترددها أمي .. لا فرق بين عائلة راتب الغنية المحافظة على التقاليد ، وبين أمي التي خرفت كل التقاليد .

وتركته ونحن نتمتم بكلمات فارغة لا معنى لها ..



مررت في الطريق ببائع الجرائد كان يصرخ لي وجهي « الأيام .. الأيام » ..

بغير وعي ، مددت له يدي بقرش ، وأخذت منه الجريدة وقتشت عن يوسف ..

رأيت اسمه بارزاً في الصفحة ، وقرأت : « منذ هودتي من دمشق وأنا » ..

لقد عاد ..

متى عاد ..

وأصبحت بشغل منمنى من الحركة بعد قليل . استطعت أن أمشي بصعوبة .

لخفيت الجريدة في حقيبتي . وذهبت إلى البيت .. وأغلقت على نفسي

الحجرة ، وقرأت المقال ، قرأته عدة مرات ، لم أكن أبصت سوى عن شيء

واحد ، متى عاد ، الأمس ، منذ يوم ، منذ أسبوع .

أريد أن أعرف كم يوماً استطاع أن يقضيها في نفس البلد التي أعيش فيها

دون أن يحاول الاتصال بي .. وعجزت عن معرفة شيء . فصريت وجهي في

للسادة ، وبللتها يدموعي ، ومزقتها بأسناني .

كنت في قمة الجنون والالام ، عندما سمعت جرس التليفون يدق .. جريت

إلى التليفون ورفعت السماعة وقلت بصوت متحشرج .

وسمعت صوته

صوت يوسف .

كان يهتف في حماس .

- اهلاً حبيبتي .

وكان شديداً لدغسي في يدي لدغني في قلبي ، فوضعت السماعة مكانها ، ووقفت ذاهلة ، بعد لحظات سمعت رنة خفيفة تدل على إيمه وضع سماعته هو الآخر ..

امتلاً قلبي بالحب ، كدت أمسك بالتليفون وأعطيه ، كدت أصرخ حتى يسمعني على بعد آلاف الامتار ، لن أكلعك .. إني أكرهك .. أنت سافل .. أكرهك . أكرهك ..

ظل قلبي يردد كلمات الحقد التي تمنيت لو قلتها له . حتى وجدتني رغماً عنى أردد كلمات الحب ..

ونظرت إلى التليفون في لهفة ، يجب أن يتكلم مرة أخرى .. الآن .. الآن .. لابد أن يتكلم . أنا واثقة أنه سيتكلم ..

كان قلبي يأمر جرس التليفون أن يدق ..

ودق جرس التليفون ..

رفعت السماعة وأنا واثقة أنني سأسمع صوته ..

وسمعت صوته .

- سامية .. أرجوكى ما تغليش السكة . اسمعيني الأول وبعدين اعلمى الى أنت عايزاه ..

ماكدت أسمع صوته ، حتى استولى على الحقد . وبكل قوتي ضربت بالسماعة فوق التليفون ..

وجريت مبتعدة ، لا أدري ماذا بهي ، كنت خائفة من نفسى ، لا أطلق نفسى ، أحبه وأكرهه ، أريده ولا أريده ، أكاد أبكى وأكاد أضحك ، كائنى معلقة في الهواء ، لا أدري ما إذا كنت أرتفع وأطير ، أو أهوى لأتحطم على

الأرض

ودق جرس التليفون ، وسمعت صوته . يائساً متوسلاً .. ملهوها

- سامية . أنا باتعذب .. أرجوكى ..

صرخت

- عايز إيه

- عايز أشرح لك كل حاجة

قاطعه :

- موش عايزه منك شرح مايفيش بينى وبينك حاجة

- أرجوكى تفهمينى .. أنا بأحبك ..

صعقت في جوارى

- لكن أنا موش بأحبك .. ولا عايزه أسمع صوتك .. من فضلك ما تزعجناش بالتليفون .

- كده برضه ياسامية ..

- قلت لك .. بلاش إزعاج ..

وأغمدت السماعة فوق التليفون .. أغمدتها في قلبي .. وكان حقدى قد

سيطر على ، وحولنى إلى مخلوقة بلا عقل ، فجريت إلى حجرتى وأغلقت

الباب ، ووقفت وراءه أنتظر صوت الجرس من جديد .. ولكن الدقائق مضت ،

وقد انقطع الرنين . ومضت الساعات وأنا أنتظر .. ولم تعد تحيا سوى أذننى

في انتظار صوت يوسف ، ولكن كلما دق جرس التليفون كان المتكلم شخصاً

آخر سواه ..

في صباح اليوم القالى ، تكلم يوسف مرة أخرى . قال بسرعة

- بأحبك .

وأقلل المسكة قبل أن يسمع صوتى ..

وقد ردت أن أعيطه ، فرفضت أن أردد على التليفون ، وتركت هذه المهمة

لامى ..

قلت لها

- يوسف عايز يكلمنى .. سألتنى غير مصدقة -

- وكلمتيه

- لا

قالت في تردد .

- موش كنت تشوف عايز يقول إيه

همست في إعياء :

- خلاص ياماما .. مايقتش اصدق حاجة يقولها .. ابقى كلميه أنت وشوفي عايز إيه ..

وعندما تكلم يوسف ، سألته أمي .

- أنت عايز منها إيه ..

ثم سمعتها تصرخ :

- هيه خرجت .. لو عايز حاجة كلمنى أنا ..

وقبل أن أفهم ماذا دار بينهما كانت أمي قد انطلقت في سبيل لا آخره ..

سألتها

- هوه قال لك إيه .

فصاحت :

- مصمم إنه يكلمك أنت . عارف أنه موش ح يعرف .. يضحك علي .. عايز الهابلة اللي يقدر ياكل بمضها حلوة ..

وأصبح جرس التليفون يدق ، فترفع السماعة .. وما أن تقول : آلو ، حتى تنقطع المكالمة في الحال .

دعاني أنور سامي إلى حفل أقامه في بيته للمخرج روسانو ، وافقت على الذهاب ، وأخذت مرعداً مع الحلاق في العصر .

كان قد مضى اسبوع منذ بدأ يوسف محاولاته للعودة لى ، وكنت قد هدأت قليلاً ، ولكنى لم أكف عن التفكير فيه لحظة واحدة بالنهار أو الليل .

كنت أشعر أنى سأعود إليه إذ لا فائدة من المقاومة ، إنى أقاوم وأقاوم لاغيظه ، ولاسترد بعض كرامتى ، وأطمئن إلى حبه ، ولكنى لا أقاوم لأقطع

علاقتى به ، أنى أعلم أنى لن أعيش بغير حبه ..

كنت خارجة من دكان الحلاق ، عندما رأيته واقفاً على الرصيف الآخر ينظر إلى ، حولت عيني بعيداً عنه ، فلم أعد أرى شيئاً أملئى ، ومشيت مسرعة في الطريق ، بعد خطوات قليلة كان يمشى إلى جانبي .

وقفت . والنفت إليه

كان وجهه شاحباً ، مصفراً كأنه لم ياكل ولم يذم منذ سنوات وفي عينيه بكاء متحجر ..

- سامية .. إدينى فرصة .. حرام عليكى ..

صحت في غضب

- أرجوك ماتكلميش ..

رفعت صوتى في حماسة ، كأنى أريد أن ألفت أنظار الناس ، فشاف وتراجع ..

ومشيت مندفعة إلى وسط الشارع أريد أن أعبره إلى الرصيف المقابل .. وقبل أن انتبه ، كنت ملقاه على الأرض ، أشعر بلهيب في ركبتي وألم حاد في كتفى ، وصراخ ، وصياح ، والسماء تدور ، ووجه حولى ، ودراجة ملقاة على الأرض ، وإلى جوارها شاب في ملابس العمال .

كنت بين اليقظة والفيبوبة ، ووجه يوسف يطل علي ، ويداه تجذبانى ، فأتقف ، وأتقمص في ذهول فستائى ، أنفض عنه التراب .. ثم أكتشف تسليخات في ركبتي ودماً قليلاً ، وصوت يوسف يطمئننى والناس من حولى تتكلم وتتكلم ، ويوسف يتكلم معهم ، ثم يجذبنى برفق فأسير معه ، ومن ورائنا الناس ، حتى ندخل صيدلية ..

شعري ..

رأيت شعري في المرأة ، وقد اختلط به التراب ، وقد تغيرت معالم التمريرة ..

لم لكن خائفة ، ولا مذعورة .. كل شىء كأنه لاشىء ، يكفينى أن يوسف معى ، أنه يستطيع أن يصلح كل شىء ..

ظهر الصيدلى ركبتى . وأصلحت شعرى بسرعة . وخرجنا من الصيدلية
هنادى يوسف تاكسيا .. ركبت الى حواره مستسلمة ، صاغرة ، اشعريوادر
راحة لم أعرمها منذ زمن بعيد ، كأتى اتفق من كابوس .. كأتى أعود الى
الحياة ..

ودهنا الى بيتنا الصغير ، صعدنا صامتين ، ودخلنا الشقة صامتين ،
وذهبت الى الحمام ، أحاول إصلاح ما أفسده الحادث فى شعرى وفستانى ..
وعدت الى يوسف ، فاستقبلتنى واقفا ، جلست ونظرت إليه فى هدوء
واطمتان ، فتقدم منى ، وانحنى على يدي راکماً .. وقبلها ومرغ وجهه فى
يدى ، ثم انهمرت الدموع من عينيه كان يبكى فى حرقة ، يهته كأنه لن يكف
عن البكاء ، وامتدت يدي الى شعره أمسح بها عليه ، أحاول أن أجعله يهدأ ،
فيشتد نحيبه ..

ضممته الى ، ودفنت رأسه فى صدرى ، ولم أتمالك نفسى فقبلته فى خده وأنا
أهمس

— خلاص . خلاص يا حبيبى .. ما أحبش أشوفك بتعيط .. خلاص
ما فيش حاجة . أنا رجعتنا لبعض أهه ..

قال بصوت مختنق وهو يتشبث بى :

— أنا موش ح أقدر أعيش من غيرك ياسامية .. بلحبك .. بلحبك لا أريد

شيئاً آخر ..

كل ما أريده الآن ، هو أن أغفر . أنا .. التعب يزول ، الارق يزول ، الآلام
والأهزان تزول ، البكاء يزول ، قلمت رغبة فى أن انتاب . كنت أضحك من نفسى ،
لأنى أكاد انتاب فى هذه اللحظة .

قال يوسف فجأة وكأنه يحدث نفسه :

— أنا عايز أعترف لك بكل اللي حصل ..

ما فائدة الاعتراف ، يكفينى أنه عاد إلى ، وأن المحنة قد انتهت ..

همست

— خلاص أنا سميت اللي فات



وايتسمت لا دعوه أن يشاركني النسيان .. لا أريد أن أعوه اللحظة التي
نحن فيها . لا أريد أن أسمعها الآن وهو يتكلم عما حدث .. لا أريد أن أتذكر
ولكنه نظر إلى بعينين بريئتين فيهما طفولة وقال في عناد .

- موش ح استريح إلا لما أقولك .

ثم خفض عينيه وقال في افعال :

- أنا عايز تصيحتك .. أنا خايف يا سامية ، موش بس حبان .. شرير ..
سافل ..

فمست أقاطعه محتجة :

- خلاص أنا سامحتك .. موش عايزه أسمع منك حاجة ..

مضى يقول وكأنه لم يسمعني :

- يوم الاربع . ليلة ما شفكتك .. كنت عارف أنني مسافرتاني يوم دمشق .
وكنت عارف الجريمة التي باعملها .. محمد ناجي طلب مني أسافر . قال لي إن
دي فرصتي علشان أظهر قدام القراء كصحفي سياسي .. ح اكتب عن انقلاب
سوريا التي كل الناس مهتمة بيه .. لقيت نفسي بأقول له .. أنا موافق
وبياشكره .. قلت له كده وأنا عارف أن إحنا محددين ميعاد جوازنا بكرة ..
كنت عايز أقول له أجل سفرى .. علشان ح أتجوز . مقدرتش ، وخرجت من
عنده وأنا موش شايف التي قدامى .. كنت خايف .. همري ماكنت خايف زي
كده . حاولت أعرف إيه التي خللاني أوافق على السفر .. حسيت أنني عايز
أهرب .. عايز أهرب من الجواز .. أنا بأقول لك الحقيقة .. بوركي نفسي زي
ماهي . بكل ضعفها .. بكل سفالتها .. إن كنت ح تسمى دي سفالة . أنا
بأحبك يا سامية ، موش ح أقدر أعيش يوم واحد وأنت بعيدة عني .. وح
أتجوزك لكن لازم أعالج نفسي .. وأنت التي ح تعالجي . تعرفي إيه التي
كان مخوفني من الجواز .. حاجات كتير .. من يوم أمي ما ماتت .. وشلت
جوازها بابويا بيتهى . من ساعاتها وأنا شاعرمان في الدنيا دي حاجة غلط
انتين بيحبوا بعض . متجوزين بعض .. لازم يفضلوا مع بعض على طول ..
ما يسيبوش بعض أبداً .. أبداً .. غلط إن واحد منهم يموت ويسيب الثاني ..



دى حنانة حنانة من الل مات وسباب الحى . وخيانة من الحى وسباب
المبت . برأى ممكن يبقى فيه حب وجواز .. طول مافيه موت . يفرق الحب
واحوار . امى لما ماتت أبويا عيط . وانا عيطت .. ليه أبويا يعيط .. ولية أنا
أعيط . واحس امى يتيم وأعيش تعيش .. من ساعتها وأنا خايف من الجواز ،
لانى شفت أن وراء تعاسة .. يمكن ما كنتش عارف الكلام الل بأقوله دلوقت .
ما كنتش هافه . لكن كنت حاسس بيه وكان مخوفتى .. ولما كبرت شفت
سعاد حببتها . قنت إياها تأخذ مكان امى .. أحبها وتحبنى وأعيش معاهما
وأتجوزهم . بصيت لقيتها بتجوز واحد قانى .. الجواز خطمها منى
وسكت يوسف برهة ، وصحك ضحكة سريعة عصبية مشبعة باليأس

وقال :

- أنا فاكر يوم ما سبت الجامعة الصبح .. ورجعت لها البيت بحجة انى أخذ
منها كتاب كانت مستغاه . كنت مصمم أقول لها سيبك من خطبك .. وتعال
نتجوز .. ووقفت سعاد قدامى .. وبصت لى زى ما تكون بتترجاني ..
عايزانى أقولها نفس الكلام الل أنا جاني مخصوص أقرله .. وسألتنى .
اعمل إيه .. سكت . مقدرتش أقول لها أتجوزك . خفت .. زعلت منى .. وأنا
مشيت فى الشوارع أعيط .. كنت بأقول لنفسى .. أنا لسه تلميذ .. ومعدنيش
فلوس للجواز .. واهلها ح يرفضوا . حجج بأقولها . إنما فى الحقيقة كنت
خايف .. اتهمالى انى باطل حاجة موش بتاعتى .. إن ربنا خلقنى علشان
أعيش لوحدى على طول من غير جواز . به .. وبعدين أبويا أتجوز مبروكة ..
اهتقرت الجواز ، بقى ممكن يتجوز امى . وبعدين يتجوز خدامة . قرفت
من الجواز ، وخفت منه أكثر وأكثر .. لحد ما حببتك .. وعرفت انى لازم
أتجوزك .. ونسيت كل العرف الل كان عندى .. شهدى باشا قالل بلاش
الحوازة دى .. أنت صحفى وورك مسئوليات كتير .. ولسه ما عملتش
حاجة . لازم تشتغل ليل ونهار علشان تكون مستقبلك ، وعلشان تبقى رئيس
تحرير . مسألتش فيه .. وقلت له أنا مصمم على الجواز . وكنت فرحان من
نفسى .. قدرت أخلص من مخاوفى . ما يهمنيش مستقبل ولا صحافة ..

ولا رئاسة تحرير .. مستعد أسبب كل حاجة .. بس أتجوزك .. وبعدين جت
حكاية السفر .. لقيت نفسى بأوافق . ولقيت نفسى خايف .. وشغفك ليلتها ..
بقيت عايز أقولك .. مقدرتش . كنت ح أتحسن .. كنت عايز أشرح لك حالتى
بالظبط .. خعت ماتهمنيش .. هربت .. زى اى جبان .

ورفع رأسه والدموع فى عينيه

وقال :

- سامية .. تعال نتجوز دلوقتى

هتقت فى حدة

- ٧ ..

كانت اعترافاته قد هزتنى ، وأخرجتنى من حبنى وحولت صدرى إلى بركان
من الغضب والثورة . لم أعد أحس ببرامته اللى يضعها فى عينيه ، لم أصدق
صراعته ، لم أصدق أنه يريد أن يتزوجنى الآن .. خفت منه ، ومن تلك
الأفكار اللى تدور رأسه . كنت واثقة أنه يخذمنى . كان يستطيع أن يقول
ببساطة ، لن أتزوجك لأن شهدى باشا رفض .. كان يستطيع أن يقول نفس
ما قاله محمد ناجى . وهو يذق على مكتبه ويصيح « يوسف عايز العرش
ده . عايز يقعد هنا .. إن ما كنتيش تعرف ده تبقى ماتعرفيش يوسف .. هو
مستعد يسيبك ويسببى علشان المكتب ده » .

واستعدت وجه محمد ناجى وهو يقول : « خليفنا نتكلم بصراحة .. سامية

سامى .. ممثلة .. من بطرح السيمة .. لو أتجوزتية مرش ح بقدر يقعد هنا .

ح يطلعوا عليه شائعات .. ح يبقى متجوز واحدة أرتست ..

هذا هو نفس مايقوله لى يوسف الآن .. ولكن بطريقة أخرى .. إنه صادق

كاذب ، صريح منافق ، جرىء جبان ، إنه حقير .. حقير .. ولكنى أحبه .

صاح يوسف :

- لازم نتجوز دلوقت ..

فصرخت :

- أنت موش عايز تتجوزنى ..



- أنا بأحبك يا سامية

صحت كالجنونة

- وأنا كمان بأحبك . لكن بلاش نكذب على بعض ، ويقول إنك عايز
تحوّزتي ..

هتف متوسلاً

- ما تسيبينيش يا سامية .. إديني فرصة أثبت لك أنى بأحبك وعايز
أتجورك ..

قلت في مرارة

- الفرصة كانت عندك .

هتف

- اديني فرصة علشان أحترم نفسي .

قلت وأنا لا أدري ماذا بي ، وكلماتي تنبض بالسخرية

- إنت عايز إيه .. موش عايز نكون مع بعض .. خلاص .. أنا بأحبك ..
وإنت بتحبني .. بلاش تفكر في الجواز دلوقت .

كانت كلماتي تجرحني ، تهينني ولكني كنت راضية بها ، إنها الكلمات
الوحيدة التي تريحني الآن . أن أحطم نفسي ، ولا أتركه هو يحطمني . أن
أرفض أنا الزواج .. ولا أتركه هو يرفض الزواج .. أن أكذب على نفسي ..
ولا أتركه هو يكذب على ..

في تلك الليلة ، استسلمت له ، كأني فتاة من الشارع تستسلم لغريب ..

●●
أنا عازلت أحبه ، ولكن أعماقي تغل ، أنا عازلت أحبه ، ولكن القلب والحيمة
واللباس يذاحمون الحب في قلبي ، كانت علاقتنا تبدو هادئة لأيام أو أسابيع ثم
يأتى يوم غشائه :

كنت غير .. سألت عليك في التليفون .

- عند شهدى باشا ..

أقول ساخرة :



- يا فرحتي بيك .. ويشهدى باشا
 - جرى إيه يا حبيبتي ..
 أصبح :
 - أنا موش عايز أسمع اسمه ..
 يجيب مدعنا ..
 - طيب ..
 ويتجهم وجهه ، فاحتد قائلة
 - أنت مبوز ليه ..
 - ماقيش حاجة ..
 وأجذني مندفعة إلى إثارة شجار حاد ..
 - تفكر يعني مزاجي إني أقعد مع واحد مبوز ..
 بحثج ...
 - عايزاني أعمل بهلوان ..
 - ليه .. لا .. موش لازم تسليني ..
 - سلمية .. إيه الكلام اللي بتقوله ده ..
 - أنا عايزه أتسل ..
 أنت انتفختي ياسامية ..
 - أهو أنا كده .. عاجبك وإلا موش عاجبك ..
 - احنا ح نتخانق
 - أنت اللي عايز .. قصدك تقول إن أنا اتغيرت ..
 ويحكم انفعاله . ويحاول أن يعتذري ، ويتقدم مني ليقبلني ، فادفعه بيدي
 بعيدا عني ، فيترجع حزينا ، وأشعر بسرور خفي .
 كنت أسأل نفسي ، هل هو يحبني حقا كما أحبه ، أم هو لا يريد أكثر من
 جسدي ، وكلما مضى يوم ترأيت إحساسي بأنه يعاملني كمجرد جسد ، فأنفر
 منه ، إذا لمستني يده ارتجفت ، وابتعدت مذعورة منه ، أرغض قفلاته ،
 لا أسمع له أن يأخذني بين ذراعيه ، حتى يفحص بي حتى ملا أستطيع أن

أقاومه ، ولكنى حتى في تلك اللحظات القليلة ، كنت أخرج منها وأنا مشتملة
من نفسى . أكره جسدى ..

أحيانا كنت أتعمد أن أحلس أملمه في أوضاع تنعده ، وأبتصم له في إغراء ،
وتدعوه عيناى لأن يقترب منى ويقبلنى ، ولكنه ما يكاد يقترب ، حتى أصرخ
فيه . وتتناسى قشعريرة ، وأدفعه بكل قواى .. فيبعد وهو ينالم ، وفي عيتيه
يأس ورغبة .

وفي إحدى المرات هجم على ، وقد صمم على أن يئالنى بالقوة ، ودارت بينى
وبينه معركة ، وصمغته على وجهه .. فأصيب بذهول ، وصرخت فيه .. لن
أراك بعد اليوم وخرجت بسرعة إلى الشارع .. لو كان جرى ورائى ، ولحق بى
في الطريق ، لكنت عدت إليه ، ولكنك أنا التى قبلته .
فأنا مازلت أحبه .

ثم تجيء أيام يصفو فيها حينا ، تكون قد تعبت ، ويكون هو تعب ،
فنستريح معا .. ننسى ما نحن فيه ، ونبادل الحب في غياب . ولكن سرعان
ما أشعر بالملل ، وتعود الثورة تتأرجح في صدري ، ونتشاجر .

كان إذا ارتبط بموعد في الليل لأبد أن أخرج أنا أيضا ، ولذلك وجدت
علاقتى ببولاندا من جديد ، وكانت تأخذنى معها في سهراتها مع شبان تعرفت
بهم ، فأشرب وأرقص ثم أعود إلى يوسف لأروى له كل شىء بالتفصيل .. أروى
له كيف غازلنى أصدقاء بولاندا فيثور ويغضب ، ويعلن أنه لن يرانى بعد
اليوم ، وعندئذ أصالحه ، لم أكن أباده أبدا ثورة بثورة ، إذا صار صالحه ،
وإذا هدا ثرت أنا

أكنت أريد أن أذله .. أكنت أريد أن أتأكد أكثر وأكثر من حبه .. أكنت
أظن أن أسلوس هذا هو الذى سيضطره إلى الركوع عند قدمى ليطلب منى
الزواج .. لست أدري .. إذ لم أكن أتصرف بناء على خطة ، بل أنا مدفوعة
بحيرتى وقلقى إلى أن أفعل ما أفعله ..

ولما سألت نفسى ما هى نهاية كل هذا ، وحدثنى عاجزة عن التفكير ،
وتصميت لو أن أحداً بجانبى ينصحنى ويرشدنى ، وتذكرت شوقى ، فاتصلت

به :

التيقينا في أميريكين عماد الدين ، جلسا في الطابق العلوى ، وكان مرحاً
بشوشاً ، لم يسألنى لماذا أردت مقابلته ، وكأنه سعيد برؤيتى ..

- أنا عايزه أسألك سؤال سن تجاوبنى بصراحة .. وما تصحكش عليه ..
- انتفضل
- إيه رأيك في . أنت شايف أنا إيه
ضحك قائلاً :

- بنى آدم .. يعنى ح تكونى إيه .. إنسانة .
سأله فجأة

- أنت بتحترمنى يا شوقى ..

نظر إلى في ثبات وقال بصوت جاد .

- طبعا .. إزاي تتصورى غير كده ..

- أنا حاسة إننى بنت وحشة .. وأن كل الناس بتقول عنى إنى وحشة ..
قال في حرارة :

- اللي يقول الكلام ده موش ممكن يكون وحش . أنت بتفاجئنى
ياسامية ..

قاطعته وأنا أفكر في مبروكة ..

- أنت ح تقول الكلام ده لحد ..

قال في صوت حاسم

- طبعا لا ..

- أنا شعبانة يا شوقى . أنت عارف حكايتى مع يوسف .. أهنا
ما تجوزناش .. هو مش عايز يتجوزنى .. لكن بيحبنى .. وأنا بأحبه .. وفي
الوقت نفسه بالتصرف تصرفات غريبة .. بأصايقه .. وبأسبيه وأخرج .. زى
ما أكون عايزه أغبطه .. ما بأعملش حاجة وحشة .. إنما أنا مابقتش أنا ..
أنا خايفة ..

قل في هدوء شديد ، وعمل وجهه علامات التفكير :

- أنا عارف أنه سافر .. ومهرب من الحواز

هتقت في ألم

- عرفت إرأى

قال بسرعة ليحفي ارتباكاه

- أهر الحكاية انعرفت ..

وطغى على شعور بالحقد على يوسف ، وعلى نفسي ، هذا الشعور ان يتركني
أبدأ ، وسألني

- لكن انتم اتفقتم عن إيه ... بتتصوروا حياتكم إزاي في المستقبل همست
في ضيق :

- هوه بيقول إنه لسه عايز يتجوزني .. بس أنا موش مصدقاه .

قال في حزن

- خسارة .. أنتي فقدتي ثقتك بيه ..

- ده صحيح .. فيه حاجة في حبنا اتشرخت .. وموش ممكن ترجع زى
ما كانت ..

قال بعد بره وشفته السفلى ترتعش

- أنا رأيي ياسامية .. أنك ماتخديش يوسف زى ما هوه .. حاولي أنك

تصلحيه .. أنتي بتعبيه .. موش كده .. يبقى بتعبي حسناك وسيئاته ..

حاولي أنك تصلحي سيئاته .. اعمل يوسف بايدكي . شكليه رى ما أنتي

عايزه .. لو عملتي كده ح تشعري أنه بتاعك وح تتخلصي من أزمته ..

قلت بصوت ضعيف :

- تفكر اقدر اعمل كده ..

- طبعاً .

وسألته فحاة :

- تفكر ح تكون نهاية الحب ده إيه ؟ ..

قال بسرعة :

- ما اعرفش . ده يتوقف عليكم انتم الاثنين .

شعرت ببعض الأمل .. بعد لقائي بشوقي ، وأسرت اتصال بيوسف ،
لأنك من موعدى معه في الليل ، فصدمني باعتذاره ، لأن وراءه عملاً
كثيراً .. توسلت إليه كما لم اتوسل منذ زمن طويل ، - حاولت جهدي -
وطلبت أن أراه .. ولكنه صمم على اعتذاره .

كيف اصنع يوسف ، كيف أشكل يوسف كما أريد ، إن شوقي يحلم ، أن
الذي يصنع يوسف هو جريدة الأيام ، وشهدى باشا ، أين مكاني وأين دوري
الذي أستطيع أن أعبه في حياة يوسف .

لقد تعبر كل شيء .. كنت أظن أن يوسف هو الذي سيصنعني ، هو الذي
سيحولني من فتاة يائسة إلى زوجة وحببية ، ولكنه تخلى عني . حتى لو
تزوجته ، فقد تخلى عني .. إن مصري معتم .. ليس فيه ومضة نور .. ليس
فيه حنان .

عندما قابلت يوسف في اليوم التالي كنت قد سمعت عن أن اطلب منه
الزواج في الحال .. قلت له في حدة .

- احنا لازم نتجوز دلوقت .

ابتسم وقال :

- طيب يا حبيبتي . بس موش بالطريقة دي ..

- موش أنت كنت عايز نتجوز .

قاطعني :

- بس موش اليومين دول .

- ليه .

قال في هدوء غريب :

- أصل فيه حاجات كثيرة في الشغل .. الدنيا مقلوبة .. ما كنتش بأحكيك

علشان أنتي ما بقتيش مهتمة تسمعي حاجة عن شغل .. لكن علشان أدبكي

فكرة .. محمد ناجي ح يسبب رياسة التحرير .. عايز يسافر أوروبا .

بيقول إنه تعب ومحتاج لفترة راحة .. ووح يكتفي بأنه يكتب .. وأما ح أبقي

رئيس التحرير . بمجرد ما تنتهي الدوشة دي نتجوز

سألته في تحد .

- ولية مانتحورش دلوقت .. فتجاهل سؤالى وقال ..

- خلليكي عاقلة يا حبيبتي

صرحت .

- أنت مكسوف تتحورنى

صاح

- بلاش كلام فارغ .. أنت عارمة كريس أنى ح اتجوزك ..

قلت في ثورة .

- يا تتجوزنى النهاردة .. يادى اخر علاقتى بيك ..

أذهلنى أنه لم يتأثر بتهديدى .. وأدهشنى أنى لم أبك .. بل تماسكت ،

وصفقت الباب ورائى . وأنا واثقة أنى لن أعود إليه ..

ولكنى عدت ...

عدت بعد ثلاثة شهور وخمسة أيام ، وكان هو قد أصبح رئيس تحرير ..

أما أنا ، فكنت مخلوقة أخرى .. ولكنى مازلت أحبه ..



خلال فترة طيعتنا ، حاولت أن أعيش في عالم السينما ، كنت أكتب كل

صوت يذكرنى بيوسف ، أحقد عليه ، وأحقد على قلبى الذى يحن إليه ،

وأحقد على جسدى الذى يشترق إليه .. كنت أجد لذة في القسوة على نفسى ..

تناسيت كل شيء ، كما كنت أتناسى أبى في الماضي .. وعدت أكتب على نفسى ،

وأصدق كذبنى . أنا سامية سامى الممثلة ، أنا سامية سامى الفاتنة التى تتبر

الرجال ، والتى ستصبح نجمة مشهورة .. تعيش في المجد ، وتسلط عليها

الاضواء .. اتصلت بالأستاذ حلمي ، وسألته عن الفيلم الإيطالى .. قال في

أسى

- تعيش أنت

- ايه حصل ايه

ظننت أن روساى قد مات . ولكنه قال :

- الاتفاق ببط .. مخرج مجنون فأكبر نفسه في هوليوود .. عايز يصرف مائة

وخمسين ألف جنيه .. اديتى عقلك .

ولما لاحظ أنى حزين ، حاول أن يطمئننى .

الجليات أكثر من الراحات .. يعنى هو ده آخر فيلم .. أصبرى شوية ..

أنا طالع بقتيلة جديدة ..

كنت أريد أن أتريد على الاستديو ، وأمثل ، وأتورط في هذا العالم العريض

الذى يضم أهل السينما ، ولكن ها هو الأستاذ حلمي يطلب منى أن أنتظر

وأصبر .. هل أستطيع ..

تجاهلت كلام الأستاذ حلمي . واتصلت بأبور سامى .

- أنت لسه عايشة ..

- غصب عنك ..

- ما أنت بسبع أرواح ..

- أنا بكلمك غشمان أسألك عن الفيلم ..

- فيلم إيه ؟

- الطليانى ..

- هو أنت معرفتيش ..

- إيه ..

- ولا حاجة .. تعالى لما أشوفك وأنا أقولك ...

- امتى ..

صاح في غير تصديق :

- امتى إيه ..

- امتى أجى ..

هتف :

- دلوقت ..

ثم صاح مرتبكا :

- هو لحن امتى .. الساعة كام .. إحنا الصهر .. أشوفك بالليل .



- طيب
- طيب
- قال و شك
- أوعى تكونى بتهزى
- لا أنا عايزه أشوفك
- وال مساء ، جاء ليأحدسى فى عرسته .
- تحبى نروح مين ؟
- فى شقتك
- هتف فى دهشة غير عادية ..
- شقتى ..
- ضحكت قائلة .
- أنت خايف ..
- هتف والفرح يضح فى عينيه .
- الله .. الله . إيه اللى جرى ..
- ثم ضاقت عيناه وسالنى مستريباً .
- بدمتك بتتكلمى جد .
- أيوه ..
- لمد يده ، راقبى على معصمى . وهتف :
- يا حبيبتى .. اعترف لك بصراحة .. أنت أجمل وأعجب وأجن مخلوقة
- شفتها فى حياتى ..
- وذهبت إلى شقته ..
- وهنا سكنت سامية سامى عن الكلام .. وبذلك انتهى القسم الثانى من
- الرجل الذى فقد ظله .

**الرجل
الذي فقد
ظله**

الجزء الثاني

القسم الأول برويه :

ناجسي

••

القسم الثاني برويه :

يوسف

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>



هذا الكتاب

هذا إنها رماحية القاهرة - ولست أرى إذا على الفنى
 غام على علم بمطوية لورانس داريل في المصصة ثم لا
 ولكن القارة ميمها مفيدة - فما وجد داريل باهراً في
 امراته ، كان قرأ غلباً بالمصبة للفنى غلام - وما كان
 ماله رومانسكا عند لأول عن مدة للحياة اليومية عند
 الفنى - وحيث بدت الاستعمارية متلفاً فيها عند داريل
 كانت القاهرة تكون عامية عند الأهر - والدوافع الخاصة
 والمنقوية والمرسة والسعوية ، كما رلقها عينا رجل من
 الشغل - ثموات إلى مجتمع الال قداماً كما قدبه الفنى
 غلام

إن المستطفي المصريون بمدون وكنتهم أبناء هم
 للمستطفيين عندما

وقل مدلل معروف - وجل من يصرب لو يطمعن الإهريين في
 سهورهم ، يشبه كثيرين ممن اعرفهم بينما - والفرج في
 مستورد لايجنرا قعمر - بلصاحب السعوية - كاضل
 لمطوب لخاصية اللوريات هنا

لترنوك والفيل

بهد المصداق تكبر - ٦ فبراير ١٩٦٦

مطابع

مكتبات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>

الرجل الذي كان الكسامة

فتحي عاتق



الرجل الذي فقد ظله



نظرة الشاب

محمّد حسن - كوسيت

فتحي غانم

**الرجل
الذي فقد
ظله**

القسم الأول يرويه

ناجسي

القسم الثاني يرويه :

يوسف

يناير ١٩٨٨



الإهداء
... إلى صلاح جاهين

الخديرة الفاضلة عدلى فهميم
رسوم الغلاف: الفنان جمال كامل
الرسوم الداخلية: للفنانين جمال كامل • مأمون
الحفص • ماري ميخائيل • مشيرة صبرى



القسم الثالث يرويه :

نـسـاجـي

أنا ناجى ..

محمد ناجى .. أكبر والمج الصحفيين والكتاب في مصر والشرق العربي ، أو هكذا كنت يوماً ما ..

الآن .. تغير كل شيء ، أخذ مكانى ذلك الصعلوك العبقري في النفاق . استأذ النفاق .. يوسف عبد الحميد السويلى .. شيء مضحك ، يثير الرثاء . هذا الولد أصبح أهم وأخطر منى . الدنيا انقلبت رأساً على عقب ، كل شيء في مصر اليوم مضحك يثير الرثاء ، الحياة لم تعد هي الحياة ، ومصر لم تعد هي مصر ، طردوا فاروق ، وأقصوا الباشوات عن الحكم ، وأصبحت الأمور في يد حفنة من الضباط الشبان بلا خبرة ولا تجربة ، لا يفهمون شيئاً في السياسة .

إنهم لا يقبلوننى ، وأنا لا أقبلهم . أكرههم كما أكره العمى ، لا أستطيع أن أتحمل لغتهم الغليظة الخشنة ، وأمل الوحيد هو في نهايتهم القريبة . من حسن الحظ أنهم ارتكبوا أكثر خطأ في حياتهم ، أممو قتال لسويس ، وتحذروا إنجلترا وفرنسا .. وهذا معناه بساطة أنهم انتحروا .

جريدة « الموند » تتحدث عن استعدادات الأسطول الفرنسى في طولون ، والجميع هنا في باريس يقولون إن غزو مصر سيتم خلال أسابيع .. هذه هي فرصتى ، ستعود الحياة إلى ما كانت عليه .. ستعود الوحوش التى أعرفها



وتعرفنى ، سيعود العقلاء الذين يتصرفون في ذوق وإيافة . وسأعرف كيف انتقم ، لن أستريح حتى أرى يوسف معلقاً في حبل المشتقة .

الشمس ساطعة ، والجو لطيف ، الحرارة ليست مرتفعة مثل الأمس ، لقد بدأ الخريف في باريس ، وبعد قليل ستهب رياح الشمال .. رياح الشمال تنكس الأوراق الميتة ، هكذا تقول الأغنية التى سمعتها مع سامية في الليدو مند ليلتي.

سامية مبهورة بباريس ، إنها تعبدنى لأنى جئت بها إلى هنا ، كلما رأت شيئاً أعجبها ، زاد حبها لى ، كانى أنا الذى صنعت باريس .

هذا الصباح استمعت إليها وهى تتحدث في التليفون مع موظف الاستعلامات في الفندق ، وتطلب منه حجز تذاكرتين في كازينو بارى ، قالت له في ثقة كبيرة : أنا مدام ناجى .

قالتها وكأنها زوجتى منذ عشرين سنة ، لقد تغيرت سامية ، ربما هى الوحيدة التى تحس بالسعادة ، ترى إلى متى تدوم سعادتها ، إنها راضية ببقائنا بعيداً عن مصر ، راضية بأنى لم أعد رئيساً لتحرير الأيام ، راضية لأنه لا يوجد في حياتى ما يشغلنى عنها ، لو تعلم كم أنا تعيس ، إنى لم أكأصح طوال حياتى من أجل أن أصبح مجرد زوج لسامية وأب لشريف .

منظر الشانزليزيه من النافذة رائع .. اثنا عشر صفاً من السيارات .. نصفها يتجه إلى الاتوال والنصف الآخر يتجه إلى الكونكورد . المدنية والحضارة تتحركان أمامى .. لو زحفت هذه السيارات وحدها على مصر لتم الغزو .. ولانتهت متاعى ..

ماذا أكتب لمصر .

هذا الخطاب الذى أرسله يوسف بشير غيطى . استاذى العزيز . كيف يجزى على أن ينادينى بأستاذة العزيز ، لو كان كتب ضحيتى العزيزة لاحترامته ..

يريد منى مقالاً عاجلاً عن الموقف هنا ، لو تركت لقلسى حريته لكتبت الموقف رائع .. أنا متفائل . كلها أيام ويغرونا الانجليز والفرنسيون ويحزروننا من حكم الغوغاء ..

لكن يوسف لن ينشر حرفاً واحداً من هذا ، سيضع مقالاً في مظهر ويريسله إليهم ، ويقطعون عنى النقود .. سامية في حاجة إلى نقود كثيرة ، إنها لا تكف عن الشراء ، إنها لا تفكر في شيء ، كأنها بلا ماضى ، نسيت أيام السينما ، وأيام حبها ليوسف ، أنا واثق أنها نسيت ، ولكنى لن أكف عن الحيلة والحذر . وسأظل أمتحنها من وقت لآخر ، لاتأكد أنها لا تفكر في يوسف

ما الذى أكتبه ، لو شئت الفرنسيين فمن يدري ماذا يكون موقفى بعد انتصارهم . يجب ألا اتورط في هذه المعركة ، سأرسل تلغرافاً إلى يوسف أعذره بمرضى وأطلب نقوداً للعلاج .

مازال أمامى ساعتان قبل أن التقى بسامية وشريف عند « فوكيه » .. سنذهب لتناول غذائنا في مطعم كرك هاردى ، ستقافاً سامية بحفاوة صاحب المطعم بنا ، سيعزى لها مسيو شارل عن زبائنه المشهورين ، وستتفرج على الديوك الخزفية في البار ، والدولار المعلق داخل بروان ، والذى منحه ايزنهاور بفشيشاً أيام كان القائد الأعلى للحلفاء . سأطلب لها طبق بط الصيد بالصليحة وقطع البرتقال وسأرقبها وهى تأكل في دهشة ..

لماذا أفكر على هذا النحو ، أشعر كأنى ممثل يبحث عن جمهور ، وسامية هى جمهورى الوحيد . أريد أن أقنعها بأنى صانع المعجزات ، أنى أستطيع أن أبهرها وأدهشها في كل لحظة ، وأن باريس ملك يدى .. أريد أن أجعلها تشعر بالخجل من نفسها كلما تذكرت يوسف ..

أنا محمد ناجى .. الرجل الحقيقى .. كل شيء في مصنوع سعادة وتفوق .. ملائسى ورباط عنقى .. وأفكارى .. وأسلوبى .. وطعامى .. وتصرفاتى .. أنا لا أحتمل الشيء الرخيص ، ولا أحتمل الشيء المتوسط .. كل شيء حولى يجب أن يكون أنيقاً رائعاً ممتازاً .

الأغبياء . السوقة .. كم أكرههم .. يفضلون يوسف على .. يتقنون في يوسف ولا يتقنون بي .. يقولون على ابن ذوات وأرستقراطي ورجعي إلى آخر هذا الكلام القافه الفارغ

إنهم لا يعلمون ماذا صنعت بنفسى .. لقد عشت طوال حياتى من أجل أن أصل إلى هذا الذى يتهمنى به .. كنت فقيراً فحاربت حتى أصبحت غنيا .. كنت ملاحاً فحاربت حتى تحولت إلى ابن ذوات .. أصبحوا يقولون إن الدم الأزرق النبيل يجرى فى عروقى .. كنت مغموراً فحاربت حتى أصبحت مشهوراً ، اسمى على كل لسان .. حاربت ..

اتفهمون أيها الأغبياء .. حاربت .. حاربت كل لحظة من عمرى ، لاكون ممتازاً متفوقاً ، ونجحت وتفوقت ، ثم تأتون أنتم للقضاء على ، للقضاء على ثروتى وشهرتى وامتيازى .. لن أسكت عليكم ، لكم يوم أعود فيه وحداى فوق رقاب الجميع .

أتريدون أن أظل كما كنت .. أنتم لا تعلمون ماذا كنت .. لا تعلمون اسمى الكامل .. لا تعلمون أن اسمى محمد ناجى عبد ربه الحنك .. أترضون عنى لو أضفت هذه الاسماء الشعبية إلى اسمى الأنيق .. لقد مسحتها من ذاكرتى ، وأخفيتنها عن العالم .. مسحت اسم أبى عبد ربه ، ومسحت اسم جدى الحنك ، ووضعت موهبتى وذكاى مكان أصلى ونسبى .. كان أخطر رئيس وزراء يقابلنى وهو سعيد بأتى أزوره ، ويتملقنى ويسمى إلى إرضائى .. كان الباشوات يرتجفون إذا غضبت ويفرحون فى بلاهة إذا رضيت .. كان بيتى كعبتهم ..

يجب أن أرسل الرقية ..

- ألو الاستقبال . أريد من فضلك إرسال برقية إلى مصر نعلم .. العنوان التلغرافى . أيام .. القاهرة مرضت فجأة .. أرسلوا خمس مائة جنيه للعلاج نحيانى ناجى .. مرسى ..

سينزعجون ، ولكن المهم هو أن يستطيعوا إرسال النقود فى هذه

الظروف .. سيفعل يوسف المستحيل .. من حسن حظى أنى تركت له رئاسة التحرير فى الوقت المناسب .. إنه يستطيع أن يتفاهم معهم لولاه لكانوا وضعونى فى السجن .. من كان يصدق أنى سأحد نفسى يوماً ما فى حماية يوسف .. اللهم إنقذنى من هذا البلاء .. إن يوم القيامة أفضل من هذه الحياة .. لو كنت محل إيدن أوجى موليه .. لما ترددت ، وصريت القاهرة بالقنابل الذرية .. سيشكر لهما الناس هذا الموت الذى هو أفضل من الحياة ..

أعجبنى أكرم بك عندما قابلته فى السفارة ، كان رائعاً وهو يقول إنه لا يفهم هذه الأعمال الشيوعية التى يرتكبونها فى مصر والى ستقضى على كل الناس الطيبين أصحاب العائلات الكريمة .. لقد سال المرجودين واحداً واحداً .. عن معنى الحياء الإيجابى والقومية العربية ، فابتسموا فى غباء ، وقال بعضهم إنها كلمات لا معنى لها .. لزممت الصمت ، فمن يدرى ربما كان هؤلاء المهاجرون جواسيس يكتبون التقارير .. والتقت إلى أكرم وسألنى .. أنت ساكت ليه يانا جى بك .. أنت أستاذنا .. وما حدش يقدر يفهمنا الحاجات دى غيرك ..

وفى لحظة خيل إلى أن أكرم نفسه جاسوس ، فادعيت أنى أعرف الإجابة ، وانطلقت فى كلام طويل أشرح فى حلس الحياء الإيجابى والقومية العربية .. لعل أصحاب التقارير يكتبون ما قلت ليرضوا عنى .

قبل أن تغادر السفارة ، انتحى بى أكرم وهمس :

- بينى وبينك .. أنت مقننح بالكلام التى بتقوله ..

همست بدورى :

- ما تسيينى فى حالى ..

فنظر إلى فى رثاء وقال :

- قلبى عنك .. شد حيلك .. يكره تفرج ..

ولاحظت سلمية أثناء عودتنا لفندق كلاريدج أنى مهموم .. فقالت فى ضيق :

- احدا موش عايزين مشوف مصريين تاني . موش ده اتفاقنا ، احنا جايين
نفسه

قلت مستسلما

- حاصر يا حبيبتى

إنها لا تشعر بأمرتى .. لا تفكر فى السياسة ، ولا يخطر على بالها ما أنا
فيه ، ربما هذا هو ما يجعلنى أتمسك بها ، إنها لا تعرف شيئا عن مأساتى
كل ما تعرفه أنى محمد ناجى العظيم الذى يبهرها . وهذا يريحنى
ويساعدنى على نسيان نفسى أحيانا .

لا بد أن ارتدى ملابس حتى لا أتاخر عليها ، يجب أن أقل من خروجى فى
هذه الأيام ، حتى لا تصل الأخبار إلى القاهرة بأنى لست مريضا . ولكن
ما الذى أقوله لشامية ، لا أريد أن أكشف عن ضعفى وخوف أمامها ، اه .
سأقنعها بأن شريف مريض ، إنها تصدق أى شيء أقوله لها ..
حبيبتى سامية ..

لو تحببى نصف حبى لها .. إنها صغيرة مازالت فى العشرين وأنا على
أبواب الستين . سيأتى اليوم الذى ينتهى فيه الحلم الذى تعيش فيه .. لن
أستطيع مواصلة التمثيل أمامها إلى الأبد ، يوما ما ستكتشف ضعفى ،
وستسخر منى ، وستتركنى . لا بد أن أقاوم . لا بد أن أحارب . لا بد أن
تنتصر أنجيترا وفرنسا فى المعركة القادمة . وأعود منتصرا .. عندئذ
سأكسب سامية إلى الأبد ..

أين مفتاح الباب ، لا أستطيع أن أترك الغرفة قبل أن أغلق الباب ،
مجوهرات سامية فى الدولاب . رفضت أن تحتفظ بها فى خزانة الفندق ..
قالت فى غير الكترات :

- لو ضاعوا نشترى غيرهم

وسكت . لا أستطيع أن أقول لها إن هذا سيكلفنى الكثير ، ولكن إلى متى
استسلم لها ، سأحمل المجوهرات معى وأصعبها فى الخزانة . سأؤيخها
لأنها تركت المفتاح فى الحمام . كيف حملته إلى هناك .. إنها تتصرف كطفلة

صغيرة فى حاجة إلى عريية ، شيء عظيم .. محمد ماجى أصبح مربية أطفال
يكفينى شريف . هذا الطفل يكاد يحولنى إلى محمول .. حتى له جنون ..
إنه كل ما بقى لى .. إنه ليس قرأتى .. ولست بحاجة إلى التمثيل أمامه ..
إنه أنا . من أجله أرى بالذل ، وأتسم فى وجه يوسف ، وأتسم فى وجه
شهدى باشا ، حتى أظل محتفضا بنصيبى فى الحريدة ، ليرثه شريف
لولا شريف لما تزوجت ..

- بنهور

- بنهور مسير ..

- هل أستطيع أن أحتفظ بهذه المجوهرات فى خزانة الفندق ..

- بكل تأكيد مسيو .

- إنها ليست كثيرة كما ترى .

- ولكنها رائعة ياسيدى ..

تفضل الايصال ياسيدى .. فى خدمتك دائما ..

الهواء بارد ، والغيوم بدأت تظهر فى السماء ، ربما كان الأفضل أن نزل
غدا فى كوك هاردى .. إلا لو صممت هى . يجب أن أحافظ على نفسى ..
سأستشير طبيبا آخر . لا توجد طريقة للاحتفاظ بالشباب هذا الشاب الذى
يسير وقد لف ذراعه حول الفتاة ، ذراعه مفتولة ، قامته كهود زان ، الشباب
جميل ، لقد مضى شبابى دون أن أتمتع به ، موظف فى قسم لتشريع بوزارة
المالية .. ما أسف تلك الأيام ، الطربوش على رأسى ، وشربى ممتع وفى
نظراتى كبرياء هى أقرب إلى الغباء ، لورأت سامية صورتى فى تلك الأيام
لسخرت منى .. فى صورة مع حورية إبراهيم ، كانت أشهر راقصة ، وكانت
تخينة ، كيف أحببت كل هذا الشحم واللحم كنت مارلت فلاحا ، لا أستسيغ
الرشاقة والنحافة ، وأعشق الدسم . أعوذ بالله

عندما تعيش سامية إلى جانبى فى الشارع ، ترى ماذا يقول الناس ، هل
يتصورون أنها زوجتى ، أم يقولون إنها ابنتى . لا يهمنى رأى الناس . كل
ما يهمنى هو رأى سامية ..

هل البرد يشتد أم أنا متعب ، وعجز . المسافة إلى قركيه قصيرة
 ساسرع الحظي أين أيام ما كنت أتسكع في الشانزلزيه بالساعات ..
 وأعود إلى الكلاريدج آخر كل ليل وفي ذراعي باريسية حسناء .
 في إحدى الليالي عدت وحيداً ، فأنزعج النواب ، وسألني في قلق :
 - سيدى سيصعد إلى غرفته وحده ..
 - نعم ..
 - هل سيدى مريض ..
 - أبدا ..
 - أريد سيدى أن أحضره من تونس وحدته ..
 - أشكر لك اهتمامك .. ولكنى متعب وسائنام ..
 ولم يصدقنى الرجل ، فالح عليّ وكأنه رائق أنى حزين أو يائس من
 الحياة .. وهتف :
 - أنت في باريس ياسيدى .. يجب أن تنام مستريحاً ..
 ولم يستسلم حتى أكدت له أنى سائنام بملابسى من التعب ، وبمجرد
 دخولى حجرتى ..
 كانت أهام .. لو يعيد الله شبابى أسبرعاً واحداً ، لتعرفنى سامية كما
 كنت ..
 فاهو قركيه .. ساجلس بعيداً عن الباب .. إنها لم تأت بعد ..
 - راحد دراي ماريتنى من فضلك ..
 - اعترفت لى سامية أن أول مرة شربت فيها المارتينى كان في بيتى يوم
 دعوتها مع يوسف .. قالت إنها أحببت المارتينى ، ولكنها لم تحب الحفلة ،
 كرهت المدعويين ، أحست أنهم يسخرون منها ، وكرهتني لأنى كنت أسخر من
 يوسف ..
 وسألتها وأنا أشعر بالغيرة .
 - أنتِ حبيبتى يوسف صحيح ، قالت وفي عينيها نظرة جادة حزينة :
 - طبعاً حبيبتى

- واسه بتحبيه ..
 - طبعاً لا ..
 - ليه طبعاً .. دى ..
 - قالت في ضيق :
 - زى ما يكون حلم .. بأقول لنفسى ده موش حقيقى .. ما حصلش .. وإن
 كان حصل يبقى من زمان قوى ..
 - وسألتني في اهتمام :
 - موش كده .. موش كان حلم ..
 - قلت في حيرة
 - أنتِ لسه بتحبيه ..
 - فأجبت في هدوء غريب :
 - والله أبدا .. خلاص ..
 - ثم قالت بصوت شارد :
 - لعل هو ما بقاش هو ..
 - قلت مؤمناً على كلامها .
 - ده صحيح ..
 - فأردفت قائلة :
 - وأنا كمان ما بقيتش أنا .. أنا اتغيرت خالص ..
 - وسألتها :
 - وعملتى إيه في الغيبة الطويلة دى .. كنتِ فين .. ورحتى فين .. وهبيتى
 مين ..
 - قالت في برود .
 - لا كنت .. ولا رحى .. ولا حبيت ..
 - لم أصدقها ، وسألتها في وقاحة :
 - وأنور ..
 - رفعت إلى عيني خاليتين من أى تعبير ، وهمست :

- ماله

- ما كنتيش بتشوفيه

- قالت بسرعة كأنها تطلق رصاصة

- لا

- أبدا

- أبدا

- ولا مرة واحدة ..

- ولا بص مرة

- امال كنت بتعمل إيه

- قاعدة حاظه ايدى عنى خدى .

- وما سالتيش عنى ليه ..

- ح أسأل ليه .

- قلت فى غيظ ..

- طيب سالتى عنى دلوقتى ليه

- أطرقت برأسها وقالت فى وجوم وكأنها تخاطب نفسها

- فكرت فيك ..

- وإيه المناسبة ؟

- قالت فى لهجة غامضة .

- علشان أنت زى بابا ..

- أزعجتني إجابتها وقلت ساخراً :

- متشكر

- قالت فجأة

- وعلشان كده محبك

- لم أقهم ماذا تعنيه بالضبط
هاقتربت منها ، وقبلتها ، فلم تعترض ..

- وطلت تردد فى سداحة

- بحبك بحبك قوى

- ١٨ -

- ويغير مناسبة تقول

- انت زى بابا ..

- حتى بعد أن أصبحت العلاقة بيننا ليست علاقة أب بنت

- وسافرت إلى أوروبا عدة مرات ، وكانت تبكى قبل سفرى وتبكى من

- للفرح عند عودتى إليها محملاً بالهدايا ، ولم أكن أمكر فيها أثناء غيابى ، كنت

- أتسأله بمجرد ارتفاع الطائرة فى سماء مطار القاهرة ثم أذكرها فى لحظات

- خاطفة ، وأنا اشتري لها الهدايا .. ولكنى عندما أعود إلى القاهرة ، لا أجد

- صواها الجأ إليه .. أحس بالاختناق لا أطيع دخول مبنى الجريدة ورؤية

- يوسف .. لا أتحمل الأنباء التى أسمعها كل يوم ، تواجهنى عيون الرثاء ،

- وعيون الشفقة فى كل مكان أذهب إليه الجميع ينافقون ويكذبون ..

- ويتهربون منى إذا سمعوا أنى مغضوب عنى ، ويتسّمون فى وجهى إذا رأوا

- أنى مازلت أكتب . ولكنهم جميعاً كانوا يعرفون أن يوسف هو كل شيء .. وأنه

- هو الذى يحركنى ويحمينى .

- كان إما أن أشرب زجاجة ويسكى كل يوم حتى أسكر وأغيب عن وعى ، أو

- ادخن الحشيش وأمن عليه ، أو أعيش مع سامية كل ليلة نتقابل فى شقتى

- بشارع ماسبيرو ، ونشرب النبيذ المعتق والشمبانيا الفاخرة ، ونبادل وهم

- الحب ..

- بعد شهر ، فوجئت بأنها حامل ..

- قلت لها .

- اتخلصى منه ..

- قلت فى برود :

- لا ..

- ما تيقش مجنونة ..

- مالكش دعوه .. ده ابنى ..

- ح نقول جليباه منين ..

- ماتخافش .. موش ح أجيب سيرتك ..

- أهلك ح يدبموكى .

قالت مازنة

- أهلى مين مالهمش دعوة بيه ..

- يعنى عايزه تقضحى نفسك .

قالت فى هدوء قاتل .

- أنا موش ح أموت أبني .. أنا محتاجة لواحد يحبنى .. وأحبه .

غضبت منها ، ولطردتها ، قد هبت ولم تعد .. بعد أسبوع كنت أبحت عنها .. وسألتها

- هيه .. اتخلصتى منه ..

- لا ..

كنت أجن .. وكنت قد شعرت خلال غيابها عنى ، بوحشتى ، وانكرت انى هريت من إدمان الويسكى والحشيش ، لأدمن سلمية ..

وتزوجتها وهى حامل فى الشهر الثالث ..

- ميتر .. واحد دراي مارتينى .

هاهى قادمة .. إنها لا تراتنى .. شريف ينظر حوله فى دهشة . أنا هنا ..

انظروى إلى هذه الناحية .. أه .. راقنى .. تشير إلى شريف ناحيتى .. الولد بيتصم .. يفتح ذراعيه .. ويجرى نحوى .. أهلا حبيبى ..

- اتاخرت ..

- لا يا حبيبتى .. فى ميعادك بالظبط .. لكن وحشتينى ..

- شريف عمل لحصل فى لا هيبىت .. دخل بين رجلين واحدة ست ، ووقف يضحك .. الصت مانت على روحها من الضحك .. وقالت لى يامدام .. خدى

بلك من أبك .. أنا ما عنديش مانع أبقى عشيقه .

- الولد طالع شقى

- زى أبوه ..

إنها جميلة ترى هل يأتى اليوم الذى تتخذ فيه عشيقا لها ..

وقصونتى .. إيس حاتف لو كانت تمرض .. يصيبها شلل فى قدميها يعجزها

- ٢٠ -

من الحركة .. تموت قبل أن يفترحبها لى ما هذا الذى أقوله .. إنى

أهذى ..

- الولد وشه أحمرليه ..

- مش كثير .

- تعال هنا يا حبيبى .. الولد سخن ..

- ازاي ..

- إنها فرزة .. صدقت للكنبة ..

- ياللا نرجع اللوكاندة .. نتغدى هناك

- نجيب له دكتور

- إذا ما تحسنتش صحته .. نشوف الدكتور ..

- لا .. لازم نجيب الدكتور دلوقت ..

- حاضر يا حبيبتى .. حالا نجيب الدكتور ..

أنا أعرف نقطة الضعف عندك .. كلما رأيته جميلة .. كلما رأيته مرحة ..

تتألقين بالحياة والشباب .. سأضربك فى نقطة ضعفك .. سأهددك بابتك ..

سامعنى .. اعزبنى .. أنا أفعل هذا لأنى أحبك .

لست نادما لأنى أفزعته ، لقد اضطررت إلى الزواج منها من أجل شريف ..

وأنا مضطر إلى الاحتفاظ بها عن طريق شريف .. هى التى أرشدتنى إلى

أسلوب معاملتها ..

رغم كل شيء ، ها نحن ندخل كازينودى بارى ، لم نحتمل الجلوس وجها

لوجه فى جناحنا بالفندق ، عندما نكون وحدنا ، أحس أنى لى مأزق ، يجب أن

أقول شيئا مسليا لويجب أن أقول شيئا حاراً مثيراً .. كانت تريد البقاء بجوار

شريف ، وكان ناتما .. ارتدت قميص النوم واستلقت على السرير فى سلى ..

صعمت على المجيء إلى هنا ..

- هو ده ثباتى ..

- أبوه يا حبيبتى ..

- غريبة .. كنت فأكوه كباريه رى الليدو ..

- هل ذكرها المسرح بالتمثيل .. إنها منذ أن تزوجنا لا نتحدث أبداً عن الممثلين ..

- محمد .. واحد ببسدهك .

- مير

- أهه جاي ناحيتك .. باين عليه مصرى ..

شكري محمود ، أطول لسان في العالم ، ما الذي جاء به إلى هنا فلا تقدم

نحوه ، قبل أن يلحق بي ، لا أريد أن أهدم ساميه له

- حليكي هنا .. أنا ح أروغ منه في دقيقة

- أهلاً ناجي بيه .

- بونسوار يا شكري ..

- والله كنت لسه بأفكر فيك .. كنا في الكافيه دي لابيه .. مع شلة من

إخواننا .. إيه ده يا ناجي بيه . الأيام باطت . سايبين يوسف يكتب كلام

فارغ .. كله تفاق .. حرام .. والله حرام

ماذا أقول له .. لا شيء سوى أن أهز رأسي وأبتسم ..

- أنا موش فاهم ساكتين على يوسف إزاي .. أنت عرفت حكاية ريدي ..

- لا ..

- إزاي يانا جى بيه .. دي إشاعة بتطبل في البلد ..

واحدة من إياهم .. واحد صاحبنا حلف أنه دمع لها في ليلة جنيه ..

سكرت .. وقعت تحكى له .. أن يوسف يبقى ابن جوزها .

ريدي .. أهى مبروكة .. ربنا ينتقم من يوسف بطريقته ..

- يا شيخ ما تصدقش الكلام ده . كل الصنف ده بيخترع حكايات عن

أصله وفصله .. اللي بت باشا .. واللى أخت وزير .. واللى خالها أمير ..

- لكن الحكاية دي صحيح .. أنا متأكد منها ..

أنا أعرف أحسن منك .. نعم انها حكاية حقيقة ..

- غريبة .. متأكد إزاي .

- كل الناس عارفه ..

- يمكن ..

إذا كانت الإشاعة انتشرت ، فلماذا لا انتهر الفرصة ..

أه .. هناك أكثر من طريقة لاستغلال مبروكة . ريدي ..

للقضاء على سمعة يوسف ..

الفصل الثانى

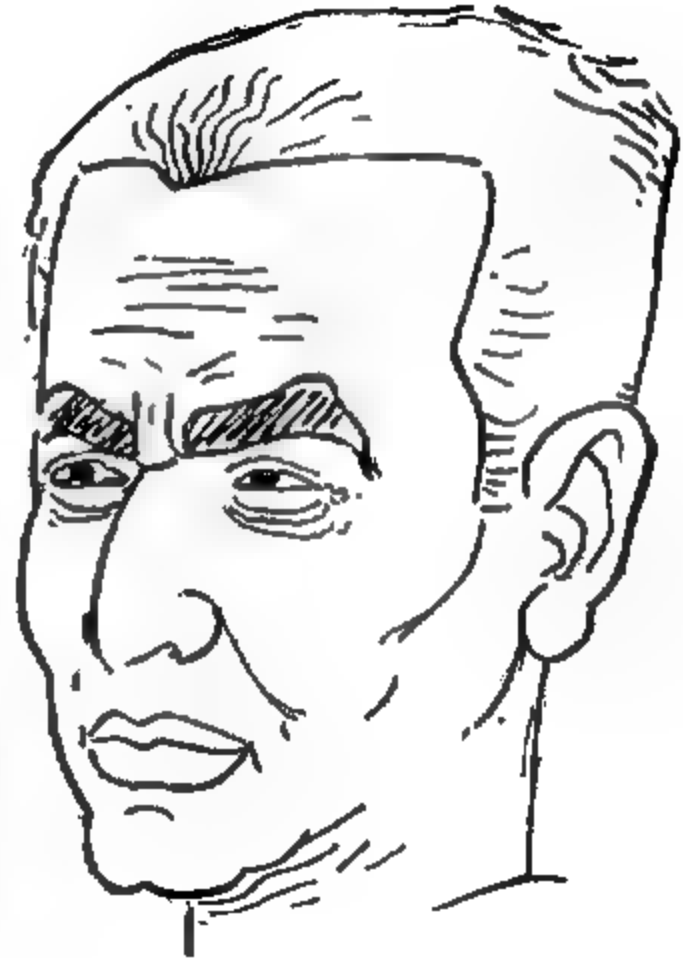
كم الساعة الآن ..

أخشى أن أضيع الحجرة فتستيقظ سامية .. نائمة ملء جفونها . ملء شبابها .. ستستيقظ في الصباح نشيطة مرحة ، وساكن أنا مكدوداً محطماً ، الأقراص المنومة لم يعد لها تأثير .
هل أوقظها وأقول لها إنى مريض ..
- سامية .

لا تسمعنى ، نومها ثقيل ، نوم بنت في العشرين ، حيوية وصحة ونوم ورغبة .. وأنا لا شيء . جفاف .. أرق ..
كم الساعة الآن ، أنا محبوس في الظلام .. ما هذا ؟ .. ما هذه الأصوات التى في الشارع .. طلقات رصاص .. صوت صراخ بعيد ..
ماذا يحدث في الشانزليزيه ..
الساعة الثانية والنصف صباحاً ، النور لم يوقظ سامية ، ولا صوت الرصاص والصراخ ، يجب أن أعرف ما حدث ، أهبط إلى تحت ، ولكنى سأصاب ببرد ..

ولكنى صحفى ..

سأكتب أنى شاهدت الحادث بنفسى ، سيكون المقال مثيراً ، رصاص في الشانزليزيه في الساعات الأولى من الصباح .. جريمة ..



الو .. ببيير .. ما الذى حدث فى الشارع .. سمعت طلقات
رصاصة

.. أوه حادث عظيم ياسيدى

.. ما الذى حدث ..

.. لحظة ياسيدى .. إن مادلين معى عليها ..

.. ماذا

صوت ببيير متهدج ، ترك سماعة التليفون قبل أن يرد على ، لابد أن اهبط ،
لست عاجزاً إلى هذا الحد لم تنه أيامى بعد ، مارلت أستطيع أن أتابع
الحوادث ، أريد أن ترانى سامية وأنا أعمل ، وأنا أحقق جريمة مثيرة فى
باريس .. أريد أن أشعرها بشبابى ، وبالمجهود الذى أبدله ، إنها صغيرة ،
تبهرها المفامرات .

كدت أفرغ من ارتداء ملابسى وهى لا تتحرك ، سأفتح الدولاب وأغلقه
بقوة مرة أخرى .. ها هى تلتفت إلى ، تفرك عينيها فى دهشة .

.. إيه يامحمد .

.. ماتتضيش يا حبيبتي

عيناها مفتوحتان فى عياء ..

.. لا بس ليه .

.. نازل

.. هيه السدة كام دلوقت ..

جلست على اسرير .. تنهت إلى أن النهار لم يات بعد .. خائفة .. غزعة ..

هذا ما كانت أريده .. سأتكلم فى هدوء ، سأبدو وكأننى غير مكترث ..

.. ولا حاجة يا حبيبتي .. كان فيه ضرب رصاص فى الشارع من شوية ..

.. رصاص وبارر .

.. إنها تصرخ ..

.. لازم اعرف إيه البى حصل ..

.. وأنت مالك ..

.. سأتجاهلها ..

.. محمد ماتتزلش

.. نهضت من السرير تهجم على .

.. يبقى فيه رصاص وتترزل

.. ماتزعقش يا حبيبتي .. شريف يصحى .

.. لكن أنت موش نازل .. فاهم .

.. لابد أن أتصرف فى حرم .

.. اسمعى .. ده شعل .. وأنا متعود عليه .. أنا شفت أحمد ماهر وهو

بيخرب بالرصاص .. كنت واقف جنبه .. كان ممكن رصاصة تيجى فى ..

.. لكن شغلتنا كده ..

.. أنت مش صحفى صغير ..

.. شغلتنا مافيش فيها صغير ولا كبير .. البى بيعمله ولد عنده عشرين سنة

أعمله أنا .. لازم أشوف البى حصل .. أنا نازل

.. محمد

.. صوتها فاجع ، وجهها يتعذب ، أنفاسها تنهت

.. أنا راحم بسرعة

.. محمد

.. أغلقت الباب فى حدة ، أخشى أن تلحق بى وهى عارية فى قميصها

الشفاف .. لا أعلن أنها تفعل .. لن تمام بقية الليل . قنقت . سيطر عليها

الغزع

.. فى الصباح لن تكون نشيطة ولا مرحة .

.. اليهودى .. بالحسنات الثلاثى يقعن أمام باب كلاريدج طوال الليل ..

.. ببيير ، والحسنات يلتعن حول مادلين ، مدات تعيق .. يحاربون .. فى

.. وجوم .

.. أوه مسيو تلجى . لماذا هبطت .. أسعف لارعاك

- ماذا حدث يا بيبير .

مادلين ترتجف ، بيبير ينقل عينيه يفتي ويميتها ، لا أحد يريد أن يتكلم ، أنا لا أجروء على إلقاء السؤال من جديد ، شئ خطير حدث ..

عينا مادلين تتسلمان ، تحرك شففتيها ..

- قتلوه . قتلوه أمامي .. كان يسير على الرصيف .. واضعاً يديه في جيوبه .. يصفر .. لال أن روز . فجأة جاعوا . القذرين .. البوليس ..
« ميرد » . سلطوا عليه الأموار الكاشفة .. فزع .. جرى خطوتين . أوه . القذرين .

سكنت مادلين ، والتفتت ناحية شارل ، والتفتنا جميعاً إليه ، كل قادم من الخارج ، لاهثاً ، مسرعاً ، ولكنه يقترب منا في ببطء شديد .. جرى ناحيتنا في سنوات ، تكلم كأنه يهذي ..

- أخذوا الجثة معهم . كانوا يظنون أنه جزائري ..

- وهل هو جزائري .

- لا .. مسيونا جى . إنه فرنسي .

خسارة ، كان حادثاً خطيراً فأصبح حادثاً طريفاً .

شعراء تصرخ في شارل

- هذه جريمة ..

شارل يجيبها ساخراً

- هل نبلغ البوليس .

وجه الشعراء يفيض بالشراسة ، صوتهما اجش ، يعوى ، كدسب جائع

سأقتل أول واحد أراه منهم .. أريد أن أخرج لأرى مكان الحادث ، لهلي أرى

مقعة دم على الرصيف ، ولكن معطى ليس معي ، سأصاب ببرد ، من

يدري ، قد يأتي البوليس ويطلق رشاصة أخرى على .. الحساوات ينظرن

إلى كثيراً ما تبادلوا النظرات معي وأنا عائد مع سامية بعد السهرة

ملابسهن البهجة العطر يعفوح مبهن . والعرق . ينظرون إلى نظرة تأنيب .

نظرة معدما ، إذا جئت بروحك معك أيها الغريب ، لو كنت وحدك لقضينا

سهرة معا ، ولا خذنا منك بضعة آلاف من الفريكات .. هل يمكنك أن تتخلص من زوجتك العرقية ولوليلة واحدة .. تحلص منها .. ولك خصم عشرة في المئة .

كانت سامية تسألني دول واقفين قدام الباب بي عملوا إيه ..

- يعني مش عارفة .

فتبتسم وتقول .

- أظن لو كنت هنا لوحده .. كان زمانك طالع كل ليلة مع واحدة ..

- أعوذ بالله .. ملتقيش غير الأشكال دي ..

- ماله .. شقر .. وعيون زرق .. وآخر شيانة ..

- عمري ما عملتها ..

- محمد ..

- عمري مادفعت لواحدة سليم .. أنت عارفة أنني ماحبش الحاجات

الرخيصة .

إحداهن تتقدم مني وهي تضحك ..

- مسيو .. وحيد الليلة ..

- لا . زوجتي تنتظرني فوق ..

- عندي سيارة . نستطيع أن نذهب إلى مكان آخر .

- ليلة أخرى .

- عشرة آلاف فرنك .

- ليلة أخرى ..

- من يدري أن هناك ليلة أخرى .. هذا المكان أصبح خطراً .. الرصاص في

الشانزليزيه .. لم يعد هناك مكان للحب ..

- لا تخافي .. أنت جميلة .. وستعيشين ألف سنة ..

- ولماذا أعيش ألف سنة .. لأقف كل يوم أمام باب كلاريدج .. أتمس في

أن كل رجل .. مسيو .. هل تدعوني للعشاء . مسيو : هل تريد أن تحبني ..

فينظرون إلى أول ينظرون ويبتسمون أو لا يبتسمون . ويأتي العجول لا أحد

يحيى أوزيقوار ياسيدى .. إذا غيبت رأيك فأنا واقفة عند الباب .. إما أن
تأتى أو تأتى رصاصة

هذه المرأة تذكرنى بنفسى .. هل أريد أن أعيش ألف سنة ، أنتظر كل يوم
مصيبة بعد مصيبة .. إما أن يأتى الرصاص إلى مصر ويقضى على أعدائى ..
وأما أن أنتظر .. هى تنتظر عند باب كلاريدج وأنا أنتظر فى حجرة فى
كلاريدج

رصاص الرصاص

- بيير هل أزعجك وأطلب زحاجة افيان .
- سأحضرها فى الحال ياسيدى .. هنا أم فى حجرتك
- هنا . سأجلس هنا ..
- أسف مرة أخرى ياسيدى . إن هذا لا يحدث فى باريس كل يوم ..
- إنه ينظر إلى منظر تعقياً على كلامه .. لن أقول شيئاً
- حسن ياسيدى .. سأذهب وأحضر زحاجة افيان ..
- الرصاص . الرصاص .

البهو الفرعونى .. البرلمان فى القاهرة .. أيام الحرب .. أحمد ماهر يضيق
المكان بجسمه المربع ووجهه السمين الصريح وعينيه الذكيتين .. المحامى
يتقدم منه شاحب الوجه غريب النظرات أحمد ماهر يبتسم ويمد يده
مرحباً .. طلقات رصاص .. الجسد يترنح ، اليد الممتدة تنكمش نحو القلب ،
الوجه السمين الصريح يتقلص . الجسد المربع يهوى إلى الأرض ..
سبق صحفى . رأيت الشهيد بعينى . غداً يرتفع التوريع . شهدى باشا
تخلص من خصم بطارده ويعمل مناقضاته رئيس وزراء جديد .. مناورات
سياسية جديدة .. اتصالات جديدة . لابد أن أعمل بسرعة ..

- قبل أن أكتب حرفاً واحداً كنت عند شهدى باشا أروى له ما حدث
- إيه رأيك باشا
- رأى إيه .. وشاع إيه . البلد بقت فرضى .. ده جتوت .. لعب عيال ..
- قلت فى برود

- ٣٠ -

موشى ده اللهم .. نكتب الخبر إزاي .. أنت عمرك ما حبيت أحمد ماهر
صاح لدهشتى

ما فيش يا محمد حب ولا كره دلوقت إحنا كلنا فى خطر . شوية العيال
ضلح يخربوا البلد لو سكتنا لهم . اقلب الدنيا هيج الراى العام ضد
الإرهاب .. طالب يحبس كل ولد عصبي مشبوه بلاش يا أخى تعليم
ولا هيب .. إذا كان كل واحد يتعلم ح يطلع فى دماغه أنه زعيم سياسى .
كان ثائراً وخائفاً . إحدى اللحظات القليلة فى حياته التى فقد فيها
أعصابه .. منظره ممتع وجديد .

- ياباشا أنا عابر رأيك وأنت هادى بعد ما تفكر فى الموقف من جميع
النواحي ..

قال غاضباً :

- أنا عارف كويس اللي بأقوله . معندناش وقت لمناورات .. دى حاجة
أكبر منا كلنا . بييجى أى واحد الحكم .. صاحبى والا عدوى .. بس يخلصنا
من الولاد المجرمين دول .. البند بقت وسخة .. مليانة واغش .. شيوعية على
إخوان مسلمين على اشتراكية .. على وطنية .. على هباب أزيق .. صعاليك
فلاحين معندهمش حاجة يخافوا عليها ح يخسروا إيه .. إحنا اللي ح نخسر
كل حاجة ..

- زحاجة افيان .. مسيو ..

- مرسى بيير ..

أشرب هذا الإفيار ، وأصعد إتيها ، لعلها تبكى الآن . هذا أفضل من أن
تستريح وتتشط وتختل نفسها فى شهر عرس لست شاباً حتى أستطيع أن
أبى رغباتها كل ليلة ..

لو كانت تمرض .. أو يستولى عليها القلق فتصاب بمرض

لن أحتمل الفشل معها لو مشلت فلن أطيق نفسى لو فشلت فلانى
عجوز . حقن البوجوملتر لم تعد .. والبراندين .. والهرمونات . وعدد
القرود والثيران . البروقسير جوفيه فى زيورخ .

- ياسيدي .. أنا لا أستطيع أكثر من أن أحتفظ لك بما تملكه الآن .. أما إعادة الشباب .

وابتسمت عينا اللروقسير في خبث وقال .

- من يدري .. ربما وصلنا إلى شيء في السنوات القليلة القادمة .

عندما فشلت مع ثريا ، كان ذلك شيئاً آخر .. كنت وقتها خائفاً من حضور شهدي باشا في أية لحظة .. فيضبطنا متلبسين ..

كانت ثريا سكرانة ، وكنت سكران .. شربنا ملذا زجاجة جن بالكوكاكولا ، المنظر كان ساحراً نيران متقدة في كتل خشبية منصوبة على الرمال ، السنة الذهب الحمراء تمزق الليل ، وتعكس ضوءها على رمال الشاطئ ، وعلى أمواج الباسفيك .

كانت أيام ..

قال لي شهدي باشا .

- ثريا عايزة تستنى في هوليوود خد بالك منها .. أنا رايع واشنطن يومين ، وبعد كده مينيا بوليس .. روح ابعتلكم يانتقابل في نيويورك ، يانتقابل في سانت لويس ..

ونحن نودعه في المطار ، حدث عمل في الطائرة آخرها حتى الثامنة مساء ..

اثناء عودتنا قالت ثريا :

- أنا موش مطمئنة للطيارة ..

- بالعكس .. دي كشفوا عليها وصلحوها ..

ضحكت وقالت .

- مرة في جنيف ودعت الباشا على أنه خلاص مسافر .. وشفت الطيارة بتختفي في السماء .. رجعت البيت .. بعد شوية لقيته داخل .

بعد قليل كانت تسألني :

- ح قويدى فين الليلة دي ..

- أنا تحت أمرك ..

قلت ضاحكة ..

رجعت فين إمبراح ..

- كنت معزوم في بيت واحد اتعرفت بيه ..

- واحد والا واحدة .. أنا عايزاك توديني مكان من بتدعك .. إلى عرفت من صاحبك الأمريكانيات ..

لم يكن هناك مجال لأن أظهار امامها بالتقى والودع ..

قلت .

- حاضر ..

ذهبنا إلى بار مينيوني ، على الشاطئ ، وكانت الرمال والنيران والمحيط

والوج الأبيض والظلام داخل البار والجن بالكوكاكولا ..

- أنا عايزاك تحكي حكايتك مع دلال ..

كلون سراء ، يسمعن عن حبنا ، فينتابهن الفضول ، وتسرح كل واحدة مع خيالها ، وتتمنى لو تكون دلال ، حرة مثلها ، مجنونة مثلها .

حكيت لها عن دلال .. أنا أجيد هذه الحكاية .. إنها تبهر أي امرأة

تسمعها ، وتشعلها غيرة ، حتى تقول لنفسها ما الذي في دلال أحسن مني ..

فلأثبت لهذا المجنون بدلال .. أنني أحسن منها .. أجمل منها ..

- لكن إزاي بتحبها وتخونها ..

- عمري ما خنتها .

- ياكذاب .. إمل إيه اللي بتعمله هنا ..

- ياتسأها ..

كنت أتكلم في غير اكتراث ، معترأ بنفسى ، سعيداً بمحاولاتهما معي ، حتى

خرجت من دور الكلام إلى دور استعمال الأيدي .. نضع يدها على يدي .. على

كتفى .. على شعري ..

خرجنا من البار ، وقد جنت النار على الشاطئ ، وكنت أقود السيارة ،

فالتصقت بي .. أحطتها بذراعى ،

وقبلتني في خدي وفي مصعد الفندق همست .

- ح تيجي عندي .

- معد خمس دقائق ..

كانت تنتظرني في السرير ، ما كدت أخطو خطوة واحد داخل الحجرة ،
حتى تذكرت شهدي باشا وعطل الطائرة .. إنها صدفة ولكنها قد تحدث ، هي
روت لي بنفسها ، إن هذا حدث مرة ، أليس هذا إنذاراً من الله .. تقدمت
نحوها وقلتها ، والهوا حس تنصخم في رأسي .. وحاولت .. وحاولت .. ولكنني
مشلت .. أي صوت كان يزعجني .. صوت سيارة .. صوت باب .. صوت
أنوهم أنني أسمع .

دفعتنى بيدها غاضبة ، حاولت أن اعتذر فقالت في حقد بالفرنسية .
- أنت تعودت على الساقطات .

تركتها وعدت إلى حجرتي ، لم تمض دقائق حتى دق التلفون ..
نمت .

- ٧ ..

- أنت كنت خائف .

- أيوه ..

- طيب أنا حاجي عندك

ثريا الجمال التركي .. الجمال البارد .. امتلات بالغضون ، وجهها
مكرمش ، ومازلت أغارلها . لعلها تفازل يوسف الآن .. من يدري .. امرأة في
الخمسين .. وشاب رئيس تحرير الأيام في الثلاثين . لا أظن أن يوسف
يقبل .. إن له طريقته الخاصة في الوصول .. أنه أبرع مني بكثير .. أنا
الماهر .. الشاطر .. انتهت مدرستي .. لم يعد لها سوق .. يوم أصبحت مدام
شهدي باشا عشيقتي .. كنت أظن أنني سيد العالم ..

- ثريا أنا عايز الباشا يحضر الحلة بتاعتي الليلة دي .. ضروري ييجي ..
حاضر يا حبيبي .

- ثريا .. الباشا موش مهتم بالحرنا .. كلميه .. عايزك تشتميني .. قوليله

- ٣٤ -

ما فيش حاجة بتقريبها .. قوليله عايزة ريسورتاجات من الخارج .

- ولما يتخاف معاك ..

- أنا عايزه يتخاف .. عايزه يهتم .. ويدفع قرشين ..

- ثريا المطبعة بقت قديمة ..

- ثريا .. الورق موش كويس .

كانت حملة يارعة .. هنأت نفسي عليها ، وهربت ثريا بها .. كانت تشعر

بأهميتها من خلالي .. وتثبت لي ولنفسها قدرتها في التأثير على ..

كيف أثر يوسف على شهدي .. هذا هو ما يحيرني .. أنا أستاذ الوصول ..

أستاذ تخطي العقبات .. كيف يعلبني هذا الولد الضعيف ..

- مسيروناجي .. التلفون ..

- من

- المدام ..

- قل لها إني صاعد حالاً .. صاعد .. صاعد .. أقص ما أستطيع الصعود

إليه هي حجرتي في الطابق الخامس .. لا صعود غير هذا .. أنا هابط ..

هابط .. هابط ..

سألتني ثريا .

- أنت اتجنتت يا محمد .. إزاي تتجوز كومبارس ..

- أعمل إيه ..

- بآه ده محمد ناجي اللي مايمجوش العجب .. أخرة العمر يبهدل نفسه

مع كومبارس ..

- ما هي أخرة العمر .. ما فيش باقي حاجة ..

سأفتح الباب ، لأراها تبكي . ليتني خرجت إلى تلك المرأة الواقعة عند

الباب .. عشرة آلاف فرك .. لو أعطتني ابشامة .. لمنحتها عشرين ألف

فرك ..

- إيه يا محمد .. إزاي تمسبتي لوحدي مخضوضه عليك .

- مخضضه ليه يس .. أديني رجعت

الفصل الثالث

- أنا واجه اقبال كرم بك ..
- أنت موش قلت ح تقعد جنبى .
- صدقت أنها مريضة ، وجهها شاحب ، الصداع يدق فى رأسها ، هى وشريف مريضان ، نظرات المرض تمنحنى الصحة والعافية ..
- حاولى تنامى يا حبيبتى ..
- مش قادرة ..
- لازم اقبال اكرم .. مسافر بكرة مصر .. فيه حاجة مهمة ح نتكلم فيها ..
- إيه الحكاية دى .. أنت موش قلت عايز تبعد عن المصريين ..
- معلش يا حبيبتى .. ده شغل ..
- شغل إيه يا محمد ..
- بعمدين تعرفى ..
- نظراتها يملأها الشك ..
- أنا ح البس وأخرج معاك ..
- أنت اتجنتنى .. والصداع اللى عندك ..
- ح آخذ كمان أسبريتيه ..
- لا .. ده يضعف القلب .. ولو جيتى معايا موش ح نعرف نتكلم .
- إنها حائرة ..

- أنا قعدت أعيط .
- ويعددين معاكى ..
- خفت عليك . نازل بعد نص الليل .. ورصاص فى الشارع .. إيه اللى حصل .
- البوليس قتل واحد ..
- ليه ..
- افكروه جزايرى ..
- يقوموا يقتلوه ..
- حبيبتى .. أما تعبان عايز انام ..

ها هى الهجرة تعود إلى ظلامها .. أنا حبيس هذا التلام .. لا نوم .. لا شيء .. غداً سأكتب عن الحادث .. لا .. يجب أن أكتب أولاً لعمدى .. عزيزى حمدي .. هل تذكر المرأة التى كلمتك بالسؤال عنها ، مبروكة زوجة أبو يوسف ، أريد منك أن تبحث عنها وتقابلها ، علمت هنا فى باريس أن اسمها ربرى .. أذهب وأعطها كل النفقة التى تطلبها وحرصها على رفع قضية فى المحاكم تطالب بنفقة من يوسف .. أنت فاهم ماذا أهنى ..

هل أطمئن لعمدى .. كان مخلصاً لى ، ينفذ كل طلباتى ، لعله تغير هو الآخر .. هل أجازف وأكتب له .. وأنا مقعب .. أريد أن انام ..

عزيزى حمدي .. عزيزى حمدي .. لا .. من الخطر أن أكتب له ..

يحسن أن أؤجل التفكير إلى الصباح أريد أن أهدأ وانام .

عزيزى حمدي .. أذهب لمبروكة .. اجعلها تنتقم من يوسف .. هذه هى فرصتها . وفرصتى .. كيف لم تفكر حتى الآن فى الانتقام .. إنها جاهلة .. ربما خائفة . فى حاجة إلى توضيح .. قضية ترفعها على يوسف تقضحه .. اللد كلها تتكلم عن صلتها بيوسف .. القصة مثيرة .. ستهدم يوسف .. ستهدمه ..

عزيزى حمدي .. أريد أن انام ..

١ - أنتم ح تتكلموا في إيه .. إيه الأصرار اللي بيترك وبين أكرم .. لازم تقول لي

صوتها ملهوف ، لابد أن أثور ، وافاجئها بشيء خطير ..

- بصراحة ح نتكلم في السياسة .. احنا ح تفضل ملكتين لأمتي .. دي فرصتنا علشان نتخلص من العيشة الهباب اللي احنا فيها .. الأخيار كلها بتأكد أن الإنجليز والفرنساويين ح يحاربوا .. جمعية المنتفعين ح تبعت مركب ووراهها جملة عسكرية في القنصل تفنكري ح اتعد وأحط ايدي على خدي لحد ما ييجوا يسلمونا بلدنا .. لازم نشغل احنا كمان .. لانا لسه مامتش .. أنا لسه عايش .. أقدر أصرب .. أقدر أثبت أسي موجود .. طموح الجواب ده .. فيه ناس مستنيين في مصر .. أكرم ح يسلمهولهم .. أنا عملت اتصالاتي .. يوم ما يبتدي الغزو ، ح يبقى لنا دور .. أنا في معركة .

- يا محمد لازم تاخذ بالك ..

وجهها أصفر .. وجه ميت قتله الفزع ..

- ماتحولي ش توقييني .. ياتقني جنبى .. ياتسكتي .. أنت ما اتجوزتيش وأجل عادى .. أنا غرقان لشوشتي في سياسة البلد ، وأنا قاهم كويس اللي باعمله .. موش ح اتعد أنطسح في باريس ، وأنا شايف المصايب اللي نازله فوق بلدى ..

- أنا موش مطمئنة ..

- خللي الكلام ده لنفسك .. تصبهي على خير ..

في عينها استسلام وإعجاب وخوف .. أه لو علمت ما في الخطاب .. محاولة جبانة لإقناع مبروكة برفع قضية على يوسف والقضاء على سمعته .. هذا كل ما استطعت أن أفعله .. لا مؤامرة .. ولا اجتماعات خطيرة .. موعد مع أكرم في كريزي هورس أشهر حانات باريس للعرايا .. ساحارب من كريزي هورس ساقود الانقلاب وأنا أتفرح على الستريبتز .. أنت مضحك يا محمد .. لم تعد محمد ناجى القديم ، لا سياسة ولا مقاورات .. لا لحد

- ٢٨ -

يصال عندك .. لماذا لا تفعل ماتفكر فيه .. لماذا لا تحاول الاتصال بالفرنسيين ..

لو أسافر إلى انجلترا .. وأقابل أصدقائي في مجلس العموم .. لاند أن اتحرك .. اصنع شيئاً

- تالكسي .. كريزي هورس من فضلك ..

لماذا ركبت التاكسي .. إن الحانة على بعد خطوات .. سيطن السائق أني أجهل باريس .. لن أتركه يخدعني .. ولكنه يسير في الطريق الصحيح .

- كريزي هورس مسير ..

محمد ناجى يقضى ليلته في حانات باريس ، نهاية مؤسفة ، لو أعود إلى كلاريدج فأجد برقية من القاهرة تقول : « عند فوراً نحن في حاجة إليك » ..

أهبط من الطائرة فأجد عربة تنتظرني وتسرع بي إلى القصر الجمهوري ..

- احنا محتاجين لمقاتلك يا أستاذ ناجى .. ما عيش حد يقدر يرفع الروح المعنوية غيرك .. أنا عايزك تكتب كل يوم مقال .. البلد بتمر بمرحلة حرجة ..

وكل كلمة منك ح يكون لها أثرها ..

- حاضر يا أستاذ .. أنا جتدي في خدمتك ..

- بكرك عايز أقرالك ..

- إن شاء الله .. بس يا أستاذ في حاجة صغيرة .. وضعي ح يكون إيه في البرلمان ..

- أعمل اللي أنت عايزه ..

مسأطرد يوسف ..

لن أسمع له بدخول الجريدة .. كيف أسمع له بالبقاء والشائعات تلوته .. في اجتماع المحررين أذاع عن يوسف ..

- والله يا جماعة يوسف ولد طيب .. أنتم عارفين ما عيش حد بيعبه زيي

لنا كنت باعتبره إبنى وتلميذى .. وسببت له مكانى .. إنما الظروف المؤسفة

هي اللي اضطررتنا لإبعاده مؤقتاً .. البلد بتمر بمرحلة خطيرة .. واحنا محتاجين

لأقلام يثق فيها الجمهور .. وأنا شخصياً واثق في يوسف وفي وطنيته لكن ما

أقدرش أشرح لكل واحد يشتري الجرنال أن يوسف مظلوم في الضائقات التي حوالية ..

ربما ذكرت اسم ويرى .. سيضحكون ، وساقومهم ..

- الضحك الذي بأسمعه ده سخيف .. مالوش معنى .. ده موقف نأسف عليه كلها

- إيه يا محمد بك أنت موش شايفنى عمال أشاورك من ساعة مادخلت ..

- ازيك يا أكرم متأسف ماخدتش بالى ..

- أنا حاجز لك ترابيزة قدام .. اتفضل ..

ابتسامته صفراء .. عيناه لزجتان يجب أن أحمله حتى يأخذ معه الخطاب .. المكان مزدحم .. موسيقى صاخبة .. السقف واطى كلهم سواح .. أكثاف اللثام .. شمطأوات أمريكية .. ستار المسرح مازال مسدلا ..

- ح تشوف من هنا كويس .. تشرب إيه يا محمد .. أنا باشرب وبسكى ..

- اشرب معاك ..

الحيوان .. ينادينى يا محمد .. كأننا أصدقاء .. لا تكليف بيننا .. أريد أن أبصق في وجهه ..

- خلاص مسافر بكرة ..

- أيوه .. الطيارة تقوم الضهر ..

- ماكنت تستنى لحد الدوشه ماتخلص ..

- فلوسى خلصت .. تفتكر فيه حرب يا محمد ..

- مؤكد ..

- ربنا يستر .. وأنت راجع امتى ..

- أنا عندى شغل ..

لو أعود إلى الفندق فأجد تلك البرقية .. أوام .. لا أحد يذكرنى .. الأنوار تطفأ .. الموسيقى تعرف لحنا مجنوننا .. المستر يرتفع عن ظلام دامس ..

- ٤٠ -

شمع نور يتسلسل إلى المسرح .. شقراء واقدة على سرير .. في قميص نوم .. جميلة حقا .. لجعل من سامية .. تتلوى .. تتناعب .. الدنيا حر .. الموسيقى ساخنة .. تخلق القميص .. عندما تشفى سامية سأسهر معها هنا .. لورات هذه اللبثات العلويات لشعرت بالخلل من نفسها .. لن تتناهى بحسدها .. ستغار .. ستعرف معنى الإغراء الحقيقي .. ستتهم نفسها قبل أن تتهمى .. غدا ساقنعها بأنها شفيت ..

ولكنى مجنون .. لا حدود لجنوني .. إسى أقتل بالجملة .. إسى أقتل شريف .. وأقتل سامية .. لو يعلم أكرم ماذا يدور في رأسى .. إنه يظن أنه يجلس إلى جانب محمد ناجى الذى كان يعرفه في القاهرة .. محمد ناجى .. الأنيق .. الأرستقراطي .. الذى يتعاهر بالجلوس مع أى إنسان .. الحيوان ينادينى .. يا محمد .. هذه البثت السمراء التى تخلق السوتيان .. إنها أجمل من بقية البثات .. الموسيقى تزار .. صوت قطار .. العجائز ينظرن في نهم أكثر من الرجال .. أكرم يتنفس بصوت مسموع .. عندما ينتهى المشهد سأعطيه الخطاب ..

- حلوة دى يا أكرم ..

- أه .. تهوس ..

- شيجى نعزمها ..

- أنا تحت أمرك ..

- فروح عنك ..

- أوى ..

- شبقى تكلم المدام .. وتقولها احنا اشتغلنا للصباح ..

ستصدق سامية .. إنها ساذجة .. ستتصور أننا جلسنا نقامر وندمر

الخطط حتى الصباح ..

- إيه رأيك في دى يا محمد ..

- موش زى الثانية ..

- لكن برضه حلوة .. هه ..

- نجيبها كمان .
- أنا كل اللي معايا ستين ألف فرتك .. مستعد اشطب عليهم ..
- ماتخافش .. معايا فلوس .
- لأن .. أنا حالف أرجع مصر .. وجيوى منفضة ..
- اسدل الستار ولا أحد يصفق .. الجميع ينظرون أمامهم في وجوم .
- موش ملاحظ يا أكرم ماحدث ببسقف ..
- مكسوفين .
- جرسون .. اتنين ويسكى دوبل .. سودا من فضلك .. أنا معايا جواب عايزك تأخذه معاك ..
- مقالة ..
- لا . جواب خصوصى من راجل غلبان .. كان بعتلى وبارد عليه .. لكن أرجوك تهتم وترمى الجواب في البوستة أول ما ترصل . أنا باهتق بالرد على الناس دول .. علشان مايفتكروش اتنى بالتكبر عليهم .
- إنه يضع الخطاب في جيبه . بعد قد يتسلم حمدى الخطاب . وسيذهب إلى مبروكة .. لا أحب هذه الاسكتشات الفكاهية ، إنها تضيق للوقت ، لقد جننا للعرايا .. هذا الممثل البدين ثقيل الدم .. حمدى شاطر .. عندما كلفته بالبحث عن مبروكة عثر عليها في يومين ..
- إيه أخبارك يا حمدى
- الكلام اللي سعادتك قلته طلع صحيح .. وموش صحيح .. يوسف أبوه اتجوز خدامة .. ده صحيح .. واسمها مبروكة . كانت بتشتغل في بيتهم في شارع العلكى . وبعدين اتجوزت الراحل العجوز وخلفت منه ولد . بعد شوية مات .. عرلت على بوابة المتولى .. حاولت تتصل بميوسف .. وجات لحد هنا . كان يزوغ منها .. حكى لعدد المستر اقتدى في الاستعلامات .. أن الولد اللي معاها أخويوسف .. نزل وقابلها مرة .. وبعدين كلمه .. وقال له لو رجعت تانى أطردها ..
- ومرة تانية طردها عم رشوان .

- وبعدين ..
- تعرف سعادتك هيه عايضة مع مين دلوقت .
- كانت عيناه متسعيتين لفرحة الانتصار .
- مع واحد رسام هنا ..
- مين ..
- شوقى محمود ..
- هذا منظر بذيء .. أعوذ بالله .. لا يمكننى أن أحضر سامية هنا .. أنا راجل محافظ قبل كل شيء . الأفضل أن تظل مريضة لا داعى للعب بالنار كائننى أريد أن أهد لها الطريق لتخوننى . يجب أن تظل مريضة .. ساقطتها بوهم المرض . سأنتقم من كل لحظة عاشتها مع يوسف .. كانت تحبه .. رغم أنها تعرف قصة مبروكة .. هي التي نبهتنى ..
- موش عرفت حكاية غريبة عن الراجل اللي عندك ..
- راجل مين ..
- اللي موش حرامى ..
- قصيدك مين .
- يوسف .
- كنت أثق في يوسف .. لا أتصور أن سيسرقنى يوما ما .. سيسرق حياتى . عندما علمت حكاية مبروكة أشبقت عليه .. وفرحت به .. ظننت أنه ضعيف .. مجروح .. زوجه أبيه عشيقه زميل له .. وهو لا يقوى على فعل شيء .. جبان . نليل . أستطيع أن أفعل به ما أشاء .. يصلح لأن يكون خالما لى .. يمكننى أن أسيطر عليه .. استغل ضعفه .. كلما فكرت في مصيبتى قلت لنفسى هذا هو الرجل الذى يجعله يكبرون أن أخشاه .. هذا هو الذى سيقال نليلاً إلى الأبد .. إن يرفع عينيه .. ثبتيته .. لعبة اصنعها وأحركها كما أشاء .. مخلوق حقير يستمد سلطانه منى .. كنت مغفلاً .
- اكلم الجرسون يا محمد ..
- علشان . إيه ..

- تشوف حكاية البنات دول ..

- أنت عايزهم

- ده اقتراحك

- والله أنا متردد ..

- خلاص .. بلاش ..

نعم أنا متردد .. هذا هو عيبي فقدت قدرتي على اتخاذ قرار .. لماذا
لا أتخلص من هذا العيب

يجب أن أفعل شيئاً حاسماً .. ماذا .. لأشياء ..

عندما قررت أن أصنع يوسف لم أتردد ..

- يوسف .. أنا عايز أعرفك بشهدى باشا .. الجرنال ده يتاعك .. وانت زى
ابنى .. أنا باعتبرك واحد من المسئولين .. ولأزم صلتك بشهدى باشا تبقى
كويسة

استمع إني في خجل .. ولامنى شهدى باشا ..

- إيه الولد اللي أنت باعتهولى

- ده واد طيب وغلبان يا باشا .

- تفنكرينفع ..

بكرا تشوف يا باشا ..

بعد نشر الحديث ، قال .

- والله الحديث طلع مرش بطل . كام واحد كلمنى عنه . هو اسمه إيه
الشاب ده .

- يوسف ..

ظلمت انى كسبت عوباً جديداً لى ، أواجه به شهدى باشا ..

- الويسكى تعنى يا أكرم ..

- ده صنف كويس

- موش قادر أنا قايم

- ٤٤ -

- أومه نمرة مذهشة .. رقصة التعيان ..

- مطهش .. خليك أنت .. أبقي سلملى على مصر .. ماتتعباش الجواب ..

- أنا مريض .. أنا المريض الحقيقى .. لا يشغيبى إلا العودة إلى سامية .

أراها هي وشريف ينظران إني بعينون المرض ، فأستعيد صحتى وعافيتى ..

الهواء بارد ، ولكنى سأمشى . لعل أصاب ببرد وأموت .. لعل سيارة

تدهسنى .. لا قائدة هذا عذاب مستعز .. لا يهدأ أبداً .. الموت هو راحتى

الوحيدة .. صدقت دلال ..

- وبعدين يادلال .. موش تهدى شوية يا حبيبتى ..

- يعنى إيه الهدى .. أنا ح اهدى لما أموت .. روح أشبع هدوء .. ح أسيب

الدنيا وأنا موش نادمة على شيء ..

أنا ساترك الدنيا يادلال وأنا نادم على كل شيء .. الموت لن يريحنى .. قبل

أن أموت .. يجب أن ألقى على يوسف .. أنا خائف .. ستعود سامية إليه .

ستتركنى وحيداً ستأخذ معها شريف وتعيش معه . إنها تحبه .. مازالت

تحبه .. أنا لا أحبها يادلال .. لم أحب أحداً غيرك ..

- حاجة واحدة بس اللي عايزاك تعملها لى .. تأخذ بالك من تونى .. لو مت

يا محمد أبقي خذ بالك من تونى ..

- وأنا مين ياخذ بالك منى ..

- أنت نصاب .

هه .. نصاب . نصاب يسير فى الشانزليزيه بعد منتصف الليل .. نصف

سكران .. نصف ميت .. نصف مجنون .. نصف قاتل .. نصف مففل ..

لا .. لست مغفلأ .. لقد حاولت منذ البداية .. شعرت أن يوسف سيكون

مصدر خطر على ، قبل أن يصبح خطراً .. وشرعت أسلحتى . واجهته بما

أعرقه عن مبروكة لآنله ..

- يا ابنى فيه حكاية سخيقة عايز أكلمك فيها . الموظفين يتكلم . الست

اللى بيتجى الجرنال .. وشايله على كتفها عيل بتقول إنه أخوك قاطعنى فى

خجل .. ولكنه خجل غريب .. خجل جرى ..

- ٤٥ -

- أيوه . دى مرأة أمويا . قلت فى وقاحة .
- أنا عارف كل حاجة . عارف أنها مع شوقى ..
- أيوه .

مطره ضعيف .. يكاد يتهاوى . ولكنه لا يتهاوى . يرفع عينيه فى عيسى

- أبويا اتجورها .. اتحانقت معاه وسبت لهم البيت .. لكن أنا ما بأنكرش صلتها بيه .. وإن ابنها أخويا .. موش مكسوف .. لو تحب أقوت على كل واحد فى الجربال أقول له مستعد . فيه باشاوات اتجوزوا خدامين .. أنا ح أعمل إيه .. موش ذنبى ..

يجب أن أوجه إليه الضربة القاضية ..

- لكن علاقتها بشوقى ..

- هيه حرة .

- أنا موش فاهمك .. إزاي تسكت ..

- أنا مالى ومالها .. هيه فى حالها وأنا فى حالى ..

- اسمع يا ابنى . أنا زى والدك وبانصحك .. ما يصحش تبقى محرك كبير فى الجربال والناس حوانيك عارفين أن شوقى على علاقة بامرأة أيوك .. أنا ح أرغد شوقى ، أطرق برأسه .. وسكت ..

- وعايذك أنت اللي ترفده .. عشان يشعر كل واحد هنا بمركزك ..

- ما أقدرش .

قالها وكأنه يطلق رصاصه على نفسه ..

- أنت موش ح تقول له أنا بأرغدك عشان علاقتك بامرأة أمويا .. الولد ده سمعت أنه شيوعى . قول له تنوع المباحث اتكلموا . ونبهونا لخطورته .. وارعه .

لم اكن اعنى ما يقول .. رغد شوقى أم لم يرغده .. المهم هو أن يعرف أنى أعرف .. رغم ذلك لم يتحطم .. لم يتدلل .. عاش بضعة .. انتصر بضعة .. وضعه إلهى

الضعف غلب القوة .. العذاجة غلبت المكر .. ما سر هذا . لأنه شاب وأنا عجوز . أهو حكم القدر أن يأخذ الشاب مكان العجائز .. ولكن ليس بهذا الأسلوب . ليس كما فعل يوسف معى .. إنه شيء خارق .. ملاك . شيطان .. ساحر .. أسطورة .. لن أهدأ حتى أعرف سر يوسف .. كيف غلبنى .. كيف غلبنى

هاهن واقفلى أمام باب كلاريدج .

- أوه .. مسيو وحيد هذه الليلة أيضاً ..

- لا أحد يسأل عنى .

- مستحيل .. أنا صديقتك هذه الليلة .

- هذه الليلة فقط .

- كل الليالى إذا شئت ..

يجب أن أتخذ قراراً ، أنا لم أمت .. مازلت محمد ناجى . سادعوها إلى حساء البصل فى الهال .. سأقضى معها الليل كله .. سامية تعرف أنى مشغول فى عمل خطير .. عندما أعود إليها فى الصباح ستكون هى يقين أنى كنت أهد نلافلاب ..

- مارايك فى حساء البصل فى الهال

- أوه .. بكل سرور مسيو ..

إنها تجذبى من ذراعى .. لا تصدق إنى رضيت ..

- لحظة واحدة ..

- هل عدل مسيو عن دعوتى

- لا .. ولكن انتظر برقية .

- سأسأل عنها ..

أنا مجنون .. أيه برقية انتظرها .. لو استدعونى فلن أعود .. بمجرد أن أهبط من الطائرة سيقبضون على . وسأعيش فى سجن تهال عليه القبائل .. هل أصعد لسامية .. أنا مريض .. ما أددى ورطى مع هذه المرأة .. إنها رخيصة عشرة آلاف فرنك .. محمد ناجى لا يصطاد قطط الرصيف ..

الفصل الرابع

ليست هذه نهاية محمد ناجي ..

- بيير .. ها عندك رسائل لي ..

- لا مسيو

- ولا برقيات ..

- لا .. مسيو ..

لا .. لا .. طبعاً لا .. الجميع لا يهتمون بي .. حتى سامية .. إنها عشيقه

يوسف .. هذه المرأة التي تنتظرني عند الباب أشرف منها .. زوجتي .. هه

مدام ناجي .. الساقطة .. وكم مرة قبلها يوسف .. احتواها بين ذراعيه ..

قالت له أميك .. تركته يعبت بها بغير زواج .. عندما أعود سأدقق في وجهه ..

سأبحث عن ملامح يوسف ..

- مسيو .. وجد البرقية ..

- لا ..

- أكان فيها شيئاً هاماً ..

- لا أعرف ..

- أوه .. أنت مهموم .. سأجعلك تنسى كل شيء .. تاكسي .. تاكسي ..

- أعجبك حساء البصل ..

- لذيذ ..

- ولكنك تركت نصفه .. اشربه قبل أن يبرد ..

- ممكنه .. إنها جائعة .. سأطلب لها شيئاً آخر تأكله ..

- لا أستطيع .. الويسكي اتعب معدتي .. هل تريدين شيئاً آخر ..

- لا .. مرسى

- ولكن الحساء لا يكفي ..

- أوه .. إنه يكفيني .. أين شربت الويسكي ..

- في كاريبي هورس ..

- أنت ولد شقي .. لم أكن أعرف أنك تحب رؤية الفتيات العاريات ..

- ابتسامتها حلوة ، إنها رقيقة صوتها حنون ، جميلة .. الآن فقط بدأت

أشعر بالراحة .. بعيداً عن سامية .. بعيداً عن مصر .. بعيداً عن كل شيء ..

الآن فقط أنا في باريس ..

- أوه .. مسيو بيتسم .. أخيراً رأيته تبسم ..

- لأنك معي ..

- تشعر بالسعادة ..

- أنت سعادتي ..

- أنت لطيف .. ما أسعدك ..

- تلجى .. وانت .

- جابى ..

- جابى .. انت حلوة وصغيرة ..

- اوه .. انت اصفر منى بكثير ..

- لا داعى لهذا الكلام .. لست خجلاً من سننى الكبير ..

- انا لا اكذب .. قلبك اصفر من قلبى ..

- انت لا تعرفين قلبى ..

- اعرفه .. اعرفه .. القلوب الصغيرة تذهب إلى كريزي هورس .. هل اعترف لك بشيء ..

- ماذا ؟ ..

- لقد تراهنت مع صديقاتى أنك رجل مهم .. لست مهماً .. إنها مسلية ..

- ترى ماذا رسمت في خيالها عنى ..

- ما رايتك انت ..

- مهرابا .. أو .. باشا .. اليس كذلك ..

- شيء قريب من هذا ..

- الفرح ينتشر في وجهها ..

- اكبر من باشا

- في رأيي .. نعم ..

- إذن فأنت أمير ..

- لا ..

- ملك سابق ..

- لا .. أنا كاتب .. اكبر كاتب في الشرق ..

- عيناها تتسمان من الدهشة ، إنهم في هذا البلد يحترمون الكتاب .. صوتهما يرتجف من الانفعال ..

- هذا شرف كبير في ياسيدي ..

- صديقي .. أنا الذى تشرفت بك ..

- ٥٠ -

- اوه .. إننى لا أصدق نفسى .. ستحصدنى صديقاتى عندما أروى لهن ..

- هل ستكتب عنى ..

- ربما ..

- لماذا ستكتب عن جابى ..

- ملكة باريس ..

- لن يصدقك أحد ..

- ما أكتبه بصدقه الجميع

- هل تأخذنى معك إلى بلادك .. إننى على استعداد لأن أفعل أي شيء ..

- فقط .. خذنى معك .. هذه هى فرصتى .. أنا لا أقابل كل يوم رجلاً عظيماً

- مثلك ..

- سأخذك معى

- صحيح ..

- إنها في قمة سعادتها وانفعالها .. لماذا لا أخذها معى .. سأفعل أي شيء ..

- سأحبها .. سأزوجها .. سأصنع منها أعظم مانيكان في مصر ..

- أعظم ممثلة .. سأرفعها .. أنا قدار على ذلك ..

- سأفعل لك كل ما تطلبين .. هجعت على تقبلنى ، والدموع في عينيها ،

- لابد أن أتمالك نفسى حتى لا تطفر الدموع من عيني ..

- ادفع الحساب .. هيا نذهب ..

- إلى أين ..

- عندي يا حبيبى .. عندك اقتراح آخر ..

- أنا تحت أمرك ..

- يا طفلى الشقى ..

- ليكن ما يكون ، سأذهب معها أينما تذهب .. لابد أن أفعل شيئاً والى

- جنت ، أنا لم أفقد القدرة على الحركة ، لست محبوساً ، سأتحرك .. انتهت

- تلك الأيام التعيسة التى قضيتها في السجن .. سجن عمرى .. سجن المامى

- الذى ذهب .. سأقتحم المستقبل .. ستكون في أعمال ومعامرات لو غضبت

سامية سأطلقها .. لن يقف في طريقى شيء ..
 أين يعضى بنا التاكسي في هذه الطرقات المربية ..
 - أين نحن
 - سان ميشيل ..
 - بيتك هنا ..
 - سنصله بعد قليل ..

جسدها البص يملأنى رغبة ، جمالها ينمو في عيني ، إنها ليست امرأة
 عادية ، إنها شيء باهر .. أميرة .. كونتيه .. لو لم تكن .. فسأجعلها
 أميرة .. كونتيه ..
 الشارع مهجور ، والبيت عتيق أسود .. السلم معتم .. السلم طويل ..
 أين أنا .. أهذه مصيدة .. كمين .. ما الذى سيأخذونه على حياتى ، لو
 أخذوها فسيعطوننى شيئاً .. أنا أقوى رجل في العالم .. لا أحد يستطيع أن
 يأخذ منى شيئاً .. مئة سريعة هنا هي خير نهاية لى ..
 - انتظر .. حتى أفتح الباب ..

هذا السرير الكبير في الصخرة الضيقة ، هذه الرائحة النفذة .. رائحة
 خشب عفن .. ما الذى جاء بى إلى هنا ، في أيام الماضى لم أكن أذهب إلى أحد ،
 لم أخلع ملابسى في بيت غريب لا أعرفه ، لم أتم على سرير غريب .. كانوا يأتون
 إلى .. كان بيتى هو مملكتى ، هو مركز سلطانى ، لم أذهب إلى مملكة أحد ..
 إلى بيت أحد .. كنت أعاملهم كضيوف ، وفي الموعد المحدد ينتهى كل شيء ..
 ويذهب .. يخرجون متعبات .. النوم في عيونهن ، الخمر في وجوههن يتمايلن
 ذليلات مرهقات لا أدري كيف يخرجن .. كيف يعرفن طريقهن .. لم يكن
 يهمنى هذا .. كنت أرقهن وأنا أجلس في بيتى أتمطى وأتأهب وأستريح ..
 - عندي زحاجة بورتو .. سنشربها معاً ..
 - ترى ما الذى سيحدث في اللحظة القادمة ..
 - في بيتى .. أعرف من في الحجرات الأخرى .. الخدم .. قوئى .. أعرف

من قد يدخل عنى .. أعرف .. أعرف .. الآن .. أنا لا أعرف شيئاً .. البورتو
 لتعذ ، لا أريد أن أعرف شيئاً ..
 - أه .. كل هذا الجمال .. لم أرمته في كريزي هورس .. كل هذا الجمال
 لى .. وحدى .. لا أحد يعلم .. استطعت أخيراً أن أحصل على شيء .. هاهو
 أمانى .. ملك عينى .. ملك يدي .. ملك أمانى ..

جسدها الأبيض يعينى .. أنفاسى لاهثة .. أين الهواء .. أختنق .. لا ..
 .. سأستطيع .. تنتظر إلى في دهشة .. اصبرى .. العرق يتصبب من جسدى ..
 أنا أغرق في بحار العرق ..
 - ماذا بك يا حبيبى ..

- لا شيء ..
 - أه .. يا طفلى المسكين .. انتظر ..
 - ففزت إلى أين ..
 - ما هذا ..
 - بيها ما ..

- بيها ما حريية .. كم رجل ارتداها قبل ..
 - العرق يتصبب منك .. ارتديها حتى لا تصاب ببرد ..
 جسدها الأبيض يملأ الغرفة كالنار .. يتحدانى .. إنها تقترب ..
 تلمسنى .. تقبلنى .. لا فائدة .. ساموت .. يارب .. ربى لا تخذلى .. في
 عينيها خيبة أمل ..
 - أنت متعب يا حبيبى ..
 - ماذا أقول ..
 - نعم ..
 - لا أريد أن أنام ..
 - نعم .. سأطلىء النور ، سأوقظك في الصباح ..

- لا أريد أن أنام .. لا أريد أن أفتح عيني على الصباح ..

- م

وهل استيقظت حتى لنام .. أما متعب .. إيلم الماضي كنت اتحمل التعب
وكان عددي المكان الذي أستريح فيه .. الآن .. التعب يهاجمني في كل لحظة
من حياتي ولا أجد المكان الذي أستريح فيه .. أنا مطارد .. في الخارج
يبحثون عني ..

- أوه .. لماذا لم تنم

لا تتكلمي .. بادليني القبلات اشعلي النار في هذا الجسد الميت .. لا بد أن
تشعلي فيه النار .. جسدها الأبيض يتلوى .. يتعذب .. ليته يتمزق .. همامة
في هيني .. قلبي يخفق خفقات غير عادية .. خفقات قاتلة .. يدق .. يوم ..
يوم .. قلبي ينفجر .. عبد الرموف مات بنفس هذه الطريقة .. وجدوا جسده
العاري في الجرسونية .. لا بد أن أهدأ .. لا فائدة .. لا فائدة ..

- لا ترهق نفسك يا طفل .. إني معك إلى الأبد .. حاول أن تنام ..

في الماضي كانت قواي لا تخونني .. كنت واثقاً من نفسي .. انظر في عيونهن
بكبرياء .. لهجتي ناعمة .. مؤدبة .. أمرة .. أعصاب من حديد .. أعصاب
مقامر .. كم خسرت في القمار دون أن يهتز لي رمش .. أه .. كان عقلي كالألة
الحاسبة .. لا عواطف .. لا خيال .. لا ضعف .. كل شيء مرسوم مدروس ..
أندفع واحقق ما أريد .. أشوفك الساعة خامسة .. أشوفك بعد بكرة ..

أشوفك الساعة اثنين بالليل .. أنا الذي أحدد الموعد والمكان .. عيونهن
تنخفض في نشوة .. صوتهن يهمس في نشوة .. أرقنهن في غرور .. كانت لي
أسنان وأنفاس وحسد .. كنت أعمرهن بالعواطف .. أغمر كل الناس
بالعواطف .. ما أكثر العواطف التي أغدقت بها على الناس .. عواطف أخرجهما
من جيبى .. من محفظتى .. من ثاياتي ملاس .. من بين أصابع يدي
كالخاوي .. ولكني لا أخرج العواطف أبداً من قلبي .. ومع ذلك كانوا
يصدقون حبي .. يصدقون انفعالاتي .. أنت يا محمد قلبك كبير .. محمد ده
راجل شهيم .. محمد رقيق وحساس .. محمد عاطفي .. البلهاء الأغبياء ..

يصدقون أي شيء .. لم أحب أحداً .. لم أصادق أحداً .. حدثتهم جميعاً ..
ما أسهل خداعهم .. يوسف .. أنت مستهلك يابى في إيدك موش في أيد حد
تأني .. أسمع نصيحتي بكرة .. تنقئ راحر عظيم .. أنا عايزك متفكرش في
حاجة غير مستقبلك .. البنت دي موش بتاعت حوار .. أنت اتحدثت غير
تجوز واحدة ماشية مع نص البلد .. ماتعرفش حكايتها مع أنور سامي ..
أنور حكى لي بالتفصيل .. صرخ

- أنا موش مصدق الكلام ده ..

- ماتعرفش عبيط ..

- أنا بأحبها .. مشيت مع أنور .. مشيت مع البلد كلها بأحبها ..
وح أتجوزها ..

- ما أقدرش أقول أكثر من كده .. بس أنا محرج .. لازم أوك ربني كنت
أعرفها قبلك .. ما حصلش بينا حاجة .. بس موش بسببها .. بسببي أنا ..
قلت لها أنا موش عيل صغير قدها .. أنا خايف يا يوسف تكور بتجري وراك
عشان تغيظني أنا .. دمعت عينه .. وأطرق رأسه وخرج ..

كنت مصمماً على الحصول عليها .. بأي وسيلة .. بالسفالة ..
بالكتب .. بالغش .. سأحصل عليها

غيرت سياستي .. رسمت خطة جديدة .. ستكون بيني وبين سامية صلة
سرية يجهلها يوسف .. سأتظاهر بأنني صديقها .. وأني أنصحبها من أجل
مستقبل يوسف .. سامية .. أقدر أعتد عليك .. أرجوكمي أولاً تسمى كل اللي
قلت .. صحيح أنا كنت بأعازلك .. لكن ده موش دننى .. دلوقت خلاص
أنت بتحبني يوسف .. ويوسف بيحبك .. وأنا بالكلمك في حاجة لمصلحته ..
بس توعدينى إنك ماتقوليلوش إنني كلمتك .. اسمعي ياسامية .. يوسف
بيعرض نفسه لحاجات خطر عليه .. لازم تنقذيه سرعة .. اسمعي .. أنا رايب
تيجي الشقة أحسن .. ح استأكر الساعة خامسة بعد الظهر ..

لم تأت .. وفي المساء جاء يوسف يتشاجر معي .. الكلب الوفي ينبح في
وجهي .. أحد أصابع قدمي يتحداشي .. كيف أخطأت الحساب .. أكانت هذه

الغلطة التافهة هي بداية النهاية .. تحالف يوسف مع شهودي باشا ضدى ..
إلى أين وصلت .. وصلت إلى هذا السرير الكبير في هذه الحجرة الضيقة ..
أرتدى بيجامة حريرية تغطي صدرى العجز ويغطي الترهلة .. جسد حائر
عاجز لا فائدة منه ساقان ضعيفتان .. طريتان .. عقل زائع مشئت ..
لولم أكن محمد ناجى ..

لولم أكن ذلك الرجل العظيم .. فانت النساء .. معبود القراء .. لولم
أكن ..

منذ خمس سنوات .. خمس سنوات فقط .. كنت أمير الطاحونة الكبيرة ..
أطحن الناس .. أسحقهم .. أعجبهم في الحبر والورق .. كنت خباز البشر ..
صانعهم .. الخبز الجيد من صنمى .. الخبز المحروق من صنمى .. فيه
سقطت من مكائى .. أصبحت مثل بقية الناس .. أرتدى نفس البيجاما التى
يرتدونها .. معند بلا حراك .. تطحننى الطاحونة ..
يوسف هناك يدير الطاحونة ..

كنت أقول لنفسى المفلين وحدهم هم الذين تتنابهم الهموم .. وكنت أطردهم
الهموم .. أي هموم .. حتى هموم صبايا .. أمى .. أمى اسمها نفيسة .. هذا
الجسد العارى النائم بجوارى اسمه جابى .. نفيسة .. جابى .. بساب
الشعرية .. باريس .. أه .. ما أعجب هذه الطاحونة التى تدور .. عربات
الرش نجرى وراءها وذيل الجلابية فى أسنانها .. هم زكى يصطاد القطط
والغريبان ويأكلهم .. مخزن الكارو فى الحوش بجوارنا .. البنت سنية وأنا فى
الحوش .. العريس والعروسة .. أمه أدينى سليم .. لم ننادها فى حياتى
ماما .. لو سمعت ماما لما فهمت .. لو فهمت لصفعتنى على وجهى .. صالح ..
ونج شمال .. كنت أخاف منه .. انتهزت فرصة وقوعه على الأرض وضربت
بحجر .. مرق حاجبه .. صرخ والدم يسيل على عينيه .. رأيت الدم .. ضربته
بالحجر فى الجرح .. صرخ .. والدم ينسكب على البلاط .. ضربته فى عينه
لافتأها .. وجريت .. جاضى فى مكتبى بجريدة الأيام .. ذليلاً .. خائفاً ..

يريد مصاعبتى لأوتلف أبته .. كنت مازلت أشعر بالكراهية نحوه ..
استقبلته لأنله ..

حاضر يا صالح .. ح أعمل كل جهدى ..
البركة فيك يا سعادة الله .. حاول عبثاً أن يرانى بعد ذلك .. أين هم
الآن .. أمه فى القبر .. أبوه فى القبر .. سنية راقدة فى غرفة مكدسة بالأولاد
والأحفاد .. صالح يرتفع شخيره فى انتظار الصباح ليذهب إلى المقهى ويقرأ
جريدة الأيام .. محمد ناجى ده صاحبه .. أعرفه من زمان .. لا أحد
يصدقه .. وأنا هنا على هذا السرير .. فى هذه الحجرة الضيقة .. قبر .. قبر
من نوع جديد .. عندما أموت سيكتبون الخبر فى سطر أو سطرين .. مات
الكلب .. مات محمد ناجى ..
خد بالك من تونى يا محمد .. ماذا فعلت بذلك الكلب .. لا اظن أنها
مدقت لحظة واحدة أنى سأعتنى به .. إنها دلال .. الوحيدة فى هذا العالم
التي عرفتني على حقيقتى ..

بتحبينى يا دلال ؟
أحنا ح نضحك على بعض ..
أنا عمرى ما اهتمت إنى أحب أو أتحب .. لكن أنت يا دلال ..
عايز حبك ..
قالت فى برود
عايز أقول لك يا حبك .. طيب .. يا حبك ..
نظرت إليها متوسلاً .. فقالت هازئة :
إيه يا حبيبى .. عايز أقول لك .. بأموت فى حبك .. حاضر .. على عينى
وراسى .. قالى والطلب رخيص .. بأموت فى حبك ..
دلال ..
أبوه ياروحى ..
أنت بتعذبتى ليه ..

صرحت

- أنت التي بتعذبني .

- أنا

- عايرني أكسر قلبي ليه .. علشان واحد زيك .. بذهمتك أنت فاكرك انتك بتحبيني صحيح .. يامحمد عيب .. الكلام ده تقوله لواحدة غیری .. عيلة صغيرة .. واللا واحدة من الستات المخاليل بتوعك .. أنا دلال يامحمد . عاچبناك وهايزاك .. أنت شخص إناني .. مفرور .. عمرك ما فكرت في غير نفسك . أنت مدهش يامحمد .. سافل .. لكن معاهش .. اناباچبك بطريقتي .. الحب ده شيء كبير .. الحب الحقيقي موش زي حينا وماله حينا ؟

- يعني مانتش عارف .. حينا حبوب لمنع الحمل .. علشان مانجيش أولاد .. حينا ويسكى نبعه .. زي كده .. أهو ده حينا .. حينا سرير منكوش .. هها .. كل ما أفكر في حينا .. الفكر في هدمي معلقة في الحمام .. والدش مفتوح .. ده أعظم شيء وصل له حينا يا اكسلانس .. حينا كلام كذب في كذب أسمعه واهزراسي . حينا أنت نايم وفرقة مزينة بتلعب في مناحك أعوذ بالله . وأنا نايمه جنك .. خايفه من نفسي .. هايزة أسيك وموش قادرة .. عايزة أصلي لربنا وموش قادرة .. مين غيرك يفهمني .. ومين غيري يفهم

- انت .

- محمد . عيب .. مانتشتمش .

- طيب .

- لا .. موش طيب .. أنا بأقول لك الكلام الي متقعه .. أنا موش موظفة عندك في الحريال لو كان قلبك أبيص لو كان عندك قلب .. لو كنت صحيح راحل كويس و بن بس .. كنت كلمتك بطريقة ثانية . لكن أنت مين . أنت أسفر محبوق عرفته في حياتي .. وعلشان أنا عارفه ده .. أنت بتحبيني

أسفل مخلوق .. واكني كنت أقوى مخلوق .. الآن .. دهست السفالة لم أعد أستطيع أن أفعل شيئاً . لا أستطيع . لا أستطيع . آخر ما فعلت . كان توني .

- ح تعمل إيه في الكلب يامحمد واحدا مسافرين ؟

- ح أموته ..

- إيه ؟

- ح أموته ..

لم أعد أحتمل وجود ذلك الكلب بعد ، مجيء سامية إلى البيت .. إنه ينظر إني فينفتح في راسي مذياع لا يكف عن الكلام . يردد كل أغنيات دلال . وشتانها .. وجنونها .. وحبها .

هذا الكلب عرفني أيام مجدى .. كان يأتي معنا إلى الاسكندرية في الصيف ، وإلى أسوان في الشتاء .. كنا نوقف أحسن أطباء البلد من نرمهم لأنه أصيب بوعكة .. كانت أخباره وصوره في المجلات أهم من أخبار بعض الوزراء . أنا الذي صنفته .. جاعني به دلال بعد ظهر يوم وهي تحمله بين يديها .. كان صغيراً جداً . أصفر من القطة .. أبيض له عيناان حالمقان .. بصوصو .. ويهز ذيله بشراهة .. يلعبه بلسانه ثم يلحق يد دلال .

- نسميه إيه يامحمد ؟

- توني

- اسمعني ؟

- اسم ضابط انجليزي صاحبي .. مات في العلمين ..

- صاحبك مايزعلش ؟

- بالعكس .. كان بيحب الكلاب ..

- أنا كنت عايزة أسميه طرزان ..

- أعوذ بالله . إيه الاسم للسخيف ده ..

- طيب ما تزعش .. ح اسميه توني ..

وحملته بين ذراعيها .. وقبلته .

- تونى تفتونى .. تون .. تون ..

- والله عال .. أنا ح اعير من الكلب ..

- ده حبيبي .. هوه اللي ح يفصل لى

صدقت .. منذ ماتت وتونى حزين .. أحياناً يرفع عينيه وينظر إلى

متسائل .. وأهم .. إيه يسألنى .. أين هى .. أين ذهبت .. وأشعر أنه

الوحيد الذى يفهمنى وأفهمه .. أحياناً أتوهم أن روحها تقمصت جسده ..

- ح تموته إراى يا محمد ؟

- ح اضربه بالرصاص ..

- مين اللى ح يموته ؟

- أنا ..

- اخص عليك .. ما تسبب الحكاية دى للدكتور ..

ولكنها كانت تكتم فرحها .. كانت تمنى أن أقتل الكلب بيدي .. لأن كلب

دلال .. وكنت أريد أن أقتل الكلب بيدي .. لماذا .. لست أفرى .. أريد أن

أقضى على هذا الكابوس الذى يطن فى رأسى ..

ما الذى جعل هذا الكلب يعيش بعدها كل هذه السنوات .. لقد مضت

أيامه .. الدنيا تغيرت .. البلد ليست هى البلد .. والناس ليسوا هم الناس ..

وأنا لست أنا .. ما الذى يبقيه .. أم شاهد من الماضى على تعاستى .. لا أريد

أن أراه ..

سأرحمه .. سأقتله ..

- ح تموته امتى يا محمد ؟

- بكرة الصبح ..

- ح يتألم ؟

- طبعاً

- شوف بيبص لنا إزاي .. زى ما يكون حاسس ..

كان تونى ينصت إلى أسئلة سامية وإجابتي .. كان راقداً على الأرض

جسده الأبيض .. عيناه حالمتان .. الشيخوخة ظهت فى أعضائه ..

- موش ح يعرف أنه ح يموت .. إلا ساعة ما يموت

- محمد .. أنا موش قادرة .. حرام ..

لم أتأثر بكلامها .. لم أكن أفكر فى شيء .. كل ما أريده هو أن أمسك

بالمسدس .. وأصوب .. وأطلق .. ويخترق الرصاص الجمجمة ..

ويصرخ .. ويموت فى الصباح .. قبل الإفطار .. أخرجت المسدس من الدرج ..

براون ست طلقات .. أنهم لا يقتلون الكلاب بهذه الطريقة .. ولا بهذا

الرصاص .. ولكنى لا أريد استشارة أحد .. لا أريد أن أعرف كيف يقتلون

الكلاب .. على الأقل سأقتله كما يقتلون الناس .. وضعت ست رصاصات فى

الخزانة .. ووضعت المسدس فى جيبى ..

- ح تموته دلوقت يا محمد ؟

- أيوه ..

- أنا جليه معاك ..

إنها تريد رؤية الدم .. نسيت قاتلها بالأمس .. موش قادرة .. حرام ..

نسيت كل هذا .. تريد أن ترائى أقتل .. وأريد أن ترائى أقتل ..

- تونى ..

جاسنى مسرعاً .. يهزئ به .. ابتعدت عنه .. تحاشيت أن ألمسه .. جسده

الأبيض يملأ عيني .. جسده الأبيض كالناردينو أمامى .. لو انتظرت لحظة

سأخاف ..

- تونى .. تعال هنا ..

جرى ورائى .. إلى الحديقة .. عند باب المطبخ .. وقف منصور الطباخ

فاتحاً فمه .. لا يصدق ما يراه .. وسليمان كاد يهتج .. عيناه تأثرتان ..

همست :

- الكلب ده .. عيان .. لازم يموت ..

قال سليمان بصوت متحشرج :

- سييهولى يا سعادة البية ..

- عشان تبهدله .. يموت فى عره أحسن ..

رفع توبى ساقيه الاماميتين . ونبح .. ظن انى الاعبه .. احس ان هناك شيئاً غير عادى في البيت .. احتفال ما . قربت فوهة المسدس من راسه .. مهجم عليه يريد ان يختطفه بقمه .. سحب يدي مسرعاً .. وصحت :

توبى ..
وقف مستمراً ينظر الى في غباء .. كأنه يعتذر لأنه لم يفهم اللعبة ..
هتف منصور

.. عنك يا سعادة البية .

صحت

.. لا ..

كان جسده الأبيض يملأ عيني .. اكاد ارى شعره الأبيض .. شعرة شعرة .. عيناه واسعتان .. حالتان ، راسه ترتفع تشق الفضاء .. صاحبت سامية :

.. موته بقى .

ارتجفت يدي . فزعلت :

.. توبى ..

انتفض جسده الأبيض . كأنه بقرة سمينة .. ووقف امامي بلا حراك .. قربت المسدس . واطلقت رصاصة .. دوت الرصاصة .. انفجر ثقب في راسه .. انبثقت الدماء .. صرخ .. ارتفع في الهواء .. عوى .. وسقط واثقاً .. حاول ان يرفع جسده . ولكن راسه انحدرت الى اسفل . اطلقت رصاصة .. ارتفع في الهواء . قفز قفزة صغيرة . وهوى على الأرض .. سيفقنه تتحرك .. يحاول ان ينهض .. إنه لا يريد ان يموت .. العجز .. القدر .. لماذا يقاوم الموت .. لم اقر على اطلاق الرصاص .. هجمت عليه .. اركله بقدمي .. عوى .. فتح عيبيه .. عيناه حالتان .. تتلألأ .. تتسائلان في غباء .. مامى اللعبة التي تلعبها .. ركلت راسه بحذائي .. سقط على الأرض مازال صدره يعلو ويهبط .. أنفه ترمر الهواء وتستنشق .. الحياة في جسده تشتد .. تنتفض .. عنقه يتلوى .. ذيله يهتز .. ساقه الامامية ترتفع .. سيقوم من

جديد .. لوقام سيهجم على .. سيقطنى .. صوبت المسدس ..

.. محمد .. كفاية ..

كبت اهجم عليها . خطر لي ان اطلق الرصاص عليها وعلى منصور وسليمان .. اطلق الرصاص عليهم جميعاً .. هذا الرصاص لا يقتل .. إنه لعبة .. لا يقتل ..

همست :

.. موش راضى يموت ..

.. ما خلاص .. عايز ايه اكثر من كده ..

.. موش راضى يموت

اصدر انة طويلة .. ورفع ساقه الخلفية .. وتلوى .. وكاد يقوم .. ثم سقط من جديد .. إنه لا يموت .. لا يموت .. الدم انتشر على الأرض .. جسده الأبيض يتحول إلى جسد رمادى .. مقرب .. جسده المارد ينكمش .. ولكنه يرتعش .. الحياة مازالت تدب فيه .. لو جاءه طبيب فريما شفاه .. يخرج الرصاصتين ويشفيه .. يجب ان يموت ..

.. موش راضى يموت ..

.. سمعت اصواتاً مبهمة ..

.. خلاص مات يا سعادة البية . إنهم يكذبون .. إنه لا يموت .. ارى رعدة خفيفة في جسده .. صدره يعلو .. أذناه تتحركان ..

.. مات ؟

.. أيوه يا سعادة البية ..

اهذا هو الموت .. مازلت اراه يرتعش .. ينتفض .. كجسد جابى .. إنها ترمر الهواء وتستنشق ..

ولكنه مات ..

- بونجور ..

ما هذا الصوت ، ما هذا الوجه الجميل الذي يطل على ، من هذه المرأة
الغريبة ..
أين أنا ..

- بونجور يا صغيري ..

أين سامية ، ما الذي حدث .. هذا السرير .. هذه الحجرة .. أم .. ليلة
أمس .. لقد جئت إلى هنا .. أي حمالة ارتكبتها .. هذه جايي ، نعم اسمها
جايي ، المرأة الرخيصة ، استطاعتني بالأمس وجاءت بي إلى هنا ..
باللبشاعة .. كيف انتخلص من هذه الورطة ..

- بونجور .. كم الساعة الآن ؟

- العاشرة ...

إنها تضحك ، لا شيء على يائها جسمي متعب .. لو يمر هذا اليوم
بسلام .. لو يمر هذا اليوم بسلام ..

- تأخرت ..

- تأخرت على أي شيء يا صغيري

- يجب أن أعود إلى كلاريدج ..

- أوه

- تأخرت ..



- أنت خائف منها ..

- نعم ..

- اه يا صغيري ، انظر إلى وجهك .. هذا شيء مصل .. وجه طفل لم يذاكر

دروسه .. يجب أن تكون شجاعاً .. ماذا تقول لها ..

- لا أدري ..

- النوم مازال في عينيك .. لو كنت مكانك لنامت ..

- لا أستطيع ..

- اخترع لها كذبة كبيرة .. ما ... ما ..

- جابى ..

- ماذا يا صغيري ..

- لا تضحكى ..

- اوه .. أنت خائف حقاً ..

- لا تسخري مني ..

- انا لا أسخر منك .. ولكنك خائف ..

- جابى .. كفى ..

- أضيقتك ...

- أنت لا تعلمين لماذا أنا خائف ؟

- لا أصدقك .. كيف يخاف رجل عظيم مثلك ..

- رجل عظيم ..

- ألن تأخذنى معك إلى بلادك ،

- أنا ...

- نعم أنت ..

- أقلت لك هذا

- أنسميت .

- لا لم أنس ولكن

- ماذا يا حبيبي

- ٦٦ -

- كذبت عليك .

- كذبت ..

- لا أستطيع أن أخذك معي ..

- كنت تسخر مني ..

- لا . لم أسخر منك .. فقط .. كذبت .

- اه .. أنت لا تريدني ..

- جابى .. جابى .. أنت لا تعلمين ..

- أعلم ماذا ..

- ماذا أقول لك .. أنا مثلك

- مثلى ..

- لا أستطيع أن أعود ..

- إلى زوجتك ..

- لا أستطيع أن أعود إلى بلادي ..

- كيف ؟

- وأنتك انى أستطيع أن أعود إلى زوجتى ..

- ما السبب .. ؟

- أنا مسكين .. رجل مسكين ..

- مسيروناجى .. اثبكى ..

- نعم أبكى ..

- لماذا تبكى ..

- هذا هو كل ما بقى لي ..

- لأنى مسخرت منك .. أنا ..

- لا .. ليس هذا ..

- أرجوك .. لا تبكى يا صغيري .. لا أحتمل رؤيتك تبكى ..

- لم يبق لي شيء .. أنا مطرود من بلادي .. من عملي .. لا فائدة منى ..

- عجوز لا قيمة له ..

- طردوك .. هذا قطيع ..

الدموع تنهمر من عيني .. ماذا جرى .. انى ابكى ، ابكى امامها .. ضاع كل شيء ، تبدد خيالها ذهبت احلامها تجربت امامها من كل شيء .. لم اعد مهراحا ولا ياشا .. لست أميراً ولا ملكاً .. لست كاتباً عظيماً .. لست عاشقاً .. لست رجلاً .. فشلت امامها في كل شيء .. بقيت للدموع .. إنها تقبلنى ، تمسح بيدها على شعرى ، تدلنى ، تنادينى بطفلها الصغير هل أستحق كل هذا ، لماذا لا تتركنى اما شيء منفر ، كريبه ، عجوز .. الصداح يعلأ رأسى ، الضباب الساخن في عيني .. انا مريض ..

- اقم يا صغيري .. كفى .. كفى ..

استسلم لها كطفل رضيع تغسل وجهى بماء الكولونيا ، تمشط شعرى .. تخلع البيجاما الحريرية .. اعتذر لك ايها البيجاما .. هذه اول مرة يرتديك فيها جسد محطم ، خدعتك ، أنت تسخرين منى ، تقارنين بين جسدى وأجساد الآخرين ، وأنت أيها السرير .. اعتذر لك لقد شهدت إهانتى . لا أستطيع أن أرفع عيني وأنظر إلى شيء في هذه الحجرة لا أستحق أن أستنشق هوائها ، لا أستحق أن أعيش فيها .. لا فائدة من هذه الملابس التي تساعدنى على ارتدائها . القميص ، رباط العنق ، البنطلون .. هه .. كانى رجل حقيقي .. انا محموم .. مريض . كيف أستطيع الخروج من هنا .. ساقاى لا يسعفاننى .. الأرض تميد تحت قدمى ..

- جابى ..

- ماذا يا صغيري ..

- أنا متعب ..

- لا ..

- سأذهب لاحضار طبيب

- مستحيل

- ولكنك تشكو

- ليس بي شيء .. يجب أن اذهب ..

- واتركك هكذا ..

- الطبيب لن يساعدني ..

- لا تياس يا صغيري ..

يجب أن أمشي .. أواصل السير بهذا الجسد الذي لا يستطيع الحركة ... أحمل جسدى وأذهب .. أمسى في طريقي إليها طيبة ، لم تعد تسخر منى ، في عينيها شعقة هائلة ، في عينيها حزن صارخ .. ولكن ليس في عينيها حب .

- آسف لاني أزعجتك ..

- لا تأسف على شيء يا حبيبي

- آسف لاني كذبت عليك .

- لم تكذب علي ، أنا التي أخطأت .. ما كان يجب أن أذكرك ..

- لو عرفتني منذ خمس سنوات .. خمس سنوات فقط

- انت حبيبي الآن .. وغداً .. وبعد سنة .. وبعد خمس سنوات ..

- تشفقين علي ..

- لا .. أحبك .

- ليتنى أصدقك ..

- ليتنى أصدق نفسي ..

لا بد أن أعطيها نقودها .. أجورها .. عشرة آلاف فرنك لا تكفى ..

سأعطيها عشرين أيضاً .. لا .. هذا المبلغ لن يعوضها عن تحملها لي .. لن

يمحو من ذاكرتها بكائى وذلى ..

- مسيو .. ما هذا ..

- تقبل هذا المبلغ المتواضع ..

- ثلاثون ألف فرنك .. مسيو هذا كثير ..

- هذا قليل جداً ..

- لا .. أنت في حاجة إلى هذه النقود ..
- لابد أن تأخذها ..
- لن أأخذ منك شيئاً ..
- لا تزيدني من تعاستي ..
- ولكنني عرفت الآن كل شيء .. أنت بعيدة عن بلدك .. في حاجة إلى هذه النقود ..
- أنا في حاجة إلى أن تأخذني مني شيئاً ..
- سأأخذ ما اتفقنا عليه .. عشرة آلاف فرنك ..
- جابي .. خذي النقود كلها ..
- لا يمكنني أن أفعل هذا .. أنت لا تفهمني ..
- وأنت لا تفهميني .. لو كانت هذه هي آخر نقود معي .. فلن يريحني إلا أن أعطيها لك ..
- مسيو .. كلامك يزعجني ..
- إنه وأحتي الوحيدة ..
- أنت تخيفني .. ماذا تريد أن تفعل بنفسك ..
- لماذا تسألين ..
- أخشى أن تكون أفكارك .. أرو .. مستحيل ..
- تخشين أن أنتهر ..
- مسيو ..
- لا .. لن أفعل هذا .. خذي النقود ..
- سأأخذها .. ولكنني سأحتفظ بها .. ربما أحتاجتها يوماً ما ..
- هل تسمحين لي أن أقبلك .. لا .. أريد أن أقبلك .. أنت .. لا أجد وصفاً لك يا جابي
- أنا حزينة من أجلك
- مه .. اليس هذا غريباً

- ما هو ..
- أنت الوحيدة في العالم التي تشعر بالحزن من أجل .. لا .. لا تنظري إلى هكذا .. لن أبكي .. لن أعود إلى البكاء .. أتعرفين .. هذه هي أول مرة أبكي فيها .. أمامك .. لو أمام أي شخص آخر .. أوحتي أمام نفسي .. إني أعلم الآن ما سأفعله ..
- ماذا ستفعل ..
- مه .. هل قلت لك سأفعل شيئاً ..
- هذا ما تقوله الآن ..
- أخطأت .. لن أفعل شيئاً .. لن أفعل شيئاً على الإطلاق ..
- هل أنت بخير الآن ..
- نعم ... نعم ... أوريغار ..
- سأذهب معك ..
- لا .. أريد أن أذهب وحدي ..
- واثق أنك تستطيع ..
- جابي .. لا تسيئي الظن بي إلى هذا الحد .. نعم أستطيع أن أعود وحدي ..
- أتعرف ما الذي أفكر فيه ..
- ماذا ..
- سأحصل من أجلك ..
- أنت تصلين ..
- كل يوم أحد ..
- هذا جميل .. أذكرك في صلاتك دائماً ..
- سأفعل ..
- الآن وجدت وصفك الذي كنت أبحث عنه .. أنت قديسة .. قديسة باريس ..

- أوه .. مسيو ..

- صدقيني .. أنت قديستي .. أوريفوار ..

- سأراك أمام باب كلاريدج .. لا تخف لن أزعجك إذا رأيته معك ..

- جايي ...

- لا تقل شيئاً أوريفوار ..

- أوريفوار ..

كيف سعدت هذا السلم بالأمس .. إني لا أكاد أقرى على الهبوط عليه ..

أين شجاعته يا محمد أين شطارتك ومكرك .. أين ذكائك يا محمد .. لا تنظر

إلى أسفل حتى لا يصيبك الدوار ، تجاهل أنك تهبط ، أرفع رأسك وأهبط كأنك

صاعد .. شد قامتك ، لا تسال كم طابق هبطت .. لا تسال .. صوت بيانو

يخرج من هذه الشقة ، أنغام حزينة جنائزية ، البيانو يدق في قلبي بخلعه

السلم مظلم .. لا .. عيناى مظلمتان .. لا تقف يا محمد .. الهت .. نأوه ..

ولكن حرك قدميك .. هذا الطفل الواقف عند الباب عيناى تشب عيون القطط ..

ينظر إني في خبث نظراتك خطيرة ، أنه يراقب حركاتي ، يسفر مني يعرف إني

هجوم .. أه .. أرفع رأسك .. الطفل يسرع ورائي .. يقفز درجات السلم

الفرأ .. هبط .. التفت إلى .. عيناى جانتان ، نعم يابتي أنا لا أستطيع أن أهبط

مسرعاً مثلك .. أنت أضطر مني . جرى وأختفى .. تشجع يا محمد .. هيا

يا بطل .. كلها درجاتين وتصل إلى النهاية .. هذا البيانو اللعين ، أنه يخفق

أنفاسي .. أه ..

هذا عمل مجيد .. هذا عمل مجيد .. استطعت أن أهبط السلم ..

لم يبق أمامي سوى الشارع .. أنه ليس شارعاً واحداً .. شوارع كثيرة ..

بيني وبين الشانزليزه عمر طويل ، أجيال ، عندما أصل إلى هناك ، أدخل

الكلاريدج ، أدخله في وقار ، لن أخطب أحد سأركب المصعد وأذهب إلى

حجرتي وأرتقى على السرير ، وأمرض .. لن ادع لسامية الفرصة لأزعجني

لن تجد من يصرخ فيه .. متحد أمامها كومة معطاة .. جسداً مهشماً ...

جثة يغازلها الموت .. سأتركها تتكلم وتتكلم وأغمض عيني ، وأصم أنتى ..

فلتكن كما تشاء .. فلتنشط كما تشاء .. ستعود إليها حيوياتها وصحتها ..

ستقارن بين شبابها وشيخوختي .. لا يهمني . لا فائدة من مواصلة هذه

اللعبة .. لم استطع أن اتحداها .. افعل ما تشاءين وأتركيني أستريح .. فقط

أستريح ..

الشارع طول بلا نهاية .. الضوء ساطع يبهر عيني ، الزحام شديد ،

الضجة عالية ، ليس هذا عالمي ، إنهم يمرون بي مسرعين ، حركاتي البطيئة

تعرقل حركتهم . أكتفهم تضرب كتفي .. عيونهم تنظر إلى شئنا .. أذهب إلى

سريرك أدخل المصحة ، ليس لك مكان هنا بيننا .. لا يمكنني أن أواصل

السير .. سأهبط بعد الخطوة القادمة .. الشارع يدور ، والناس يدورون ..

تحمل يا محمد .. لا تستسلم هكذا .. لا تسقط على الأرض وسط الناس ..

لن تستريح على هذا الأسفلت .. بعد ساعة واحدة ستكون في السرير .. ساعة

واحدة .. لقد تحملت كل هذه السنوات .. ما بالك تنهار في الساعة الأخيرة ..

سيمر هذا المذاب .. وسنستريح .. سير مريح في حجرة مريحة ، الستائر

مسجلة على النوافذ .. لا شيء يقلقك .. ستحقق أملاك .. ستحققه ..

سنستريح ..

تحمل يا محمد .. يارب .. يارب لا تشغلني ، أنا لا أضحك عليك يا ربي ،

سأذكرك دائماً . لن أنسى لك جميعك .. ليست هذه ساعة ضيق الجأ فيها إليك

ثم أنساك .. أنا عائد إليك .. لا حيلة لي بفورك .. لا ملجأ لي سواك .. أنا عبدك

المسكين .. سأكفر عن ذنوبي . سأمرغ وجهي في تراب عثبتك .. أنت العلي

القدير على كل شيء .. أنت الغفور الرحيم .. سأصلي .. سأصوم .. نورك

يملأني .. أمنت بك يا إلهي .. أمنت بك ، اعترف أني نسيتك .. أصابني

الغرور فلم أعد أذكرك ، يارب لا تقسو عليّ .. هانذا أدركك . لا أطلب منك

شيئاً .. لا أريد شيئاً .. كل ما أريده هو الراحة كي أعيدك . صدقني

يارب ..

تاكس .. هذا التاكس أرسلته لي ياربي .. هذه معجزتك .. لولاءت هنا ..

- كلاريدج .. الشانزليزه من فضلك ..

سأبحث عن مصحف وأضعه تحت وسادتي .. سأصلي وأقرأ القرآن ..
وسأفزع سامية بأن تصلي .. أه لورضيت .. لا ياربي .. لا أريد لها الإيمان
من أجل .. أريد لها الإيمان من أجلك .. ومن أجلها هي .. النشاط يمشي
الشوارع .. إنيهم لا يدرون أي نعمة هم فيها ، هذا الرجل الذي يمشي مسرود
وق يده حقيبة جلدية رجل أعمال ، أيها الاحمق إلى أين أنت ذاهب ، لتعقد
صفقة ، لتكسب مليون فرك .. أه لو تعرف .. لا فائدة لو كنت تعرف لقدنفت
بحقيبتك بما فيها من أوراق هامة ، ما قيمة الصفقات ، ما قيمة ملايين
الفرنكات ، النهاية تنتظرك .. تنتظركم جميعاً أيها الناس .. أه لو عرفتم ..
لقررت من الشوارع ، لعدتم إلى بيوتكم .. لا أمل .. لا أمل .. النهاية
تقترب ، والموت يدب حثيثاً نحوكم . كل خطوة نحو الحياة هي الخطوة نحو
الموت .. هذا السائق على بالحوية والعافية .. يسابق السيارات ويقتحم
الطريق ، ترى كيف قضى ليلة الأمس ، كان يسكر ويعربد ولكنه يفيق في
الصباح متفتهاً بالشباب .. سيأتي لك يوم . راحت أيامي ، يجب أن بتغير
كل شيء في حياتي .. الهدوء .. السكينة .. الراحة للتامة .. لا انفعالات .
لا أزمات .. بائع الصحف يلوح بصحف الصباح .. هذه الصحف ليست لي
يا بني .. إنها للمضدوعين .. للذين يعيشون .. للذين تسرى الدماء في
عروقهم .. للذين يصدقون تلك الكذبة البشعة .. الحياة ..
يوماً ما كنت أصنع الصحف ، كنت صحفياً مشهوراً ، مه أيام كالحلم ..
لا أريد أن أذكر شيئاً .. لا تهمني أخبار الصحف . فرنسا تغزو مصر ..
مصر تغزو فرنسا .. سيان عندي .. لن أخذ معي شيئاً إلى القبر .. أريد
السلامة .. كل ما أريده هو السلامة .. رحمة الله .. الفاه في سلام .. أذهب
إليه في سلام .. أرحمني يارب ..
- كلاريدج . مسيو .

وصلت

هاجر الشانزليزيه ، لا أكاد أرى شيئاً .. كآني مغمض العينين . ولكني
أعرف كل ما يدور حولي .. اثنا عشر صفراً من السيارات ، نصفها يتجه نحو

الاتوال ، ونصفها يتجه نحو الكونكوردي ، حركة لا معنى لها ، فاضت رائحات
غاديات يشترين ويشترين .. حتى يأتي يوم لا يستطيعن فيه الشراء ، شنار
يغازلون البنات ، يغازلون ويغازلون ، حتى يأتي يوم لا يستطيعون فيه
الفرل ، القدام تدب على الطريق حتى يصيبها التعب ، سيارات تحرى حتى
ياكلها الصدا ..

الوداع يا شانزليزيه .. الوداع .. سأدخل الآن كلاريدج .. ولا أدري
متى سأخرج لك من جديد ..

- يونجور مسيو ..

- يونجور ..

- المدام تنتظر في البهر .. إنها منزعجة يا سيدي ..

- أصعد بي إلى حجرتي ..

- والدام يا سيدي .

- لا نقل لها شيئاً .. انتظر حتى أصعد ..

- حسناً يا سيدي ..

- لم تبق إلا لحظات واستريح .

- لحظات .. لحظات ..

هذا الممشى الطويل ليس له نهاية لا أحد يراني وأنا أستند إلى الجدار
وانحسب طريقي إلى حجرتي .. هناك الحجرة .. في آخر الممشى ، من
يحملني إليها .. ما هذا الوجه الغريب في المرأة .. أهذا وجهي .. وجه ميت ..
ستون عاماً من أجل هذا الوجه .. أهى دعابة ، أعيش ستين عاماً لأصل إلى
هذا اللعبة .. اغفر لي يارب .. لم أقصد أن أكفر بنعمتك .. لاشك أن لك
حكمتك التي نجعلها .. لا اعتراض .. اللهم لا اعتراض .. أنا راض
بمشييتك ..

أفتح هذا الباب واستريح .. لا بد أن أخلع ملابس أولاً أخلع الملابس
التي ساعدتني جالبي على ارتدائها ، أخلع مظهر الرجولة .. وأكتشف عن هذا
الجسد المهان .. واستريح ..

أه .. أه ..

كيف أستريح

ها هي تفتح الباب .. وجهها ثائر .. أحمر .. غاضب .. جميل ..

إيه ده يا محمد .. أنت اتحننت ..

لن أجيب ، سأغمض عيني ، وأصم لأنني .. إنها غير موجودة .

رد عليه .. كنت فين .

تقترب مني كوحش مفترس .. لا أصلح للافتراض .. أنا جيفة تكلمني
الوحوش ..

ساكت ليه ..

اصرخي ماشئت .. أقلبه الدنيا زلزلي الأرض .. لن أجيب ..

والله عال .. أنا لازم أعرف أنت كنت فين .. وقصدك إيه من ده .. أنت

ح تتكلم والا لا ..

هجمت على تهزني ..

سامية ..

انطلق .. قول .. أنت لماكرني ح أسكت على كده .. أنا واحدة مستحسنة

على إيه .. مضيفة شبابي معاليه .. هلشان تسييني لوحدي في بلاد غريبة ؟

عيب يا سامية ..

لا موش عيب .. أنت لازم تفهم كريس إني مستحيل أعيش العيشة

دي .. احنا نرجع مصر دلوقت حالاً .. ونرجع معاليا وجزمتي على رقبتك ..

يا تسييني ونطلق ..

حرام عليك يا سامية .. أنا بأموت ..

اشمعنني بتموت دلوقت .. تقدر تقولي كنت فين حضرتك الليلة اللي

فانت ..

كنت مع أكرم ..

كذاب .. أنا لسه مكلماه في التليفون قبل مايسافر .. قال لي إنك سببت

الساعة واحدة ..

بعضين يا حبيبتي تتكلم .. أنا تعبان ..

لا .. تتكلم دلوقت لازم أعرف كنت فين ..

ارحيتي .. أنا موش مستحمل أكثر من كده ..

اللي بيات برة .. يستحمل كل اللي يجراه ..

عائزة تموتيني ..

إيه حكاية الموت اللي بتهددني بيه ده .. ما تموت في سنين داهية ..

والا عايز تموتني معاك ..

الله يسامحك ..

عامل مسكين .. غلبان .. لازم تعرف نفس على حقيقتك .. أيوه أنت

مسكين وغلبان .. ولانم تعدد ربنا إنك لقيت واحدة مغفلة زيني ترضي بيك ..

كنت فين حضرتك الليلة اللي فانت ..

أنا قلت لك يا سامية ..

كنت بأقابل ناس في السر ..

ليه .. عايز تعمل مؤامرة .. تفكر تقدر تعمل حاجة .. أنت قادر تقسم

نفسك ..

لك حق .. خلاص مايفش فائدة ..

احنا مسافرين بكرة ..

حاضر .. بس اعمل معروف سيبيني استريح ..

أنا سيبالك الأوضة .. وخارجة ..

رايحة فين ..

رايحة مطرح ما أنا رايحه ..

الفصل السادس

- سيداتي سادتي نحن بطير الآن فوق ميناء الاسكندرية ، ترونها عن
شمالكم .. الطائرة على ارتفاع ثمانية آلاف قدم ، سنصل مطار القاهرة بعد
عشرين دقيقة ، الجو هناك معتدل والسماء صافية .. شكراً ..

- اسكندرية اهي يا محمد ..

- ايوه ..

- موش عايز تبص .

- شفتها من الطائرة كثير .. صحى شريف .

- انا شايقة نور الكورنيش .. ياه .. ده طويل قوى ..

- صحى شريف ..

- ياترى التلغراف بتاعك وصل

- صحى شريف ..

- طيب يا محمد .

لماذا تسألين عن التلغراف ، لماذا أنت قلقة على وصوله ، انا اعلم ما يدور
في رأسك .. أنت تسألين عن يوسف ، ترى هل ارسلت له أنت أيضاً لينتظرك ،
أم أنت واثقة انه سيجي .. إذا وصله التلغراف الذي ارسلته أقرا ما في قلبك
يا سامية ..

- أعرف .. أعرف ..

أنت مازلت تحببيه ، تاريخ طويل بينكما .. أنا عائدة من احله ، لقد



اعتذرت لي ألف مرة عن كلامك القاسي .. لن أسامحك .. إنني أعرف ..
أعرف .. في لحظة واحدة تكشفت لي حقيقتك .. في لحظة واحدة فضحت
نفسك .. صارحتني بما تشعرين به نحوي .. عيان .. اتفلق .. أنت تعلم أنك
عجزت .. متجاوزك على إيه بسى أفهم .. مستحملك على إيه .. مضيفة
شبابي معاك ليه .. احنا نرجع مصر وجزمتي على رقبتك .. نعود إلى مصر
لتقابل يوسف لتخونيني مع يوسف ..
إنني أعرف .. أعرف ..

يوماً ما سأضبطك معه .. سأواك بين ذراعيه .. إنني أعرف .. أعرف ..
أعرف .. لقد رأيت هذا المشهد .. مازلت أراه .. عندما دخل شهدي باشا
عليها .. كانت ثريا بين ذراعي .. ترتدي قميص النوم .. كنا في حجرة النوم .. من
حسن حظي أنني لم أكن قد خلعت ملابسي .. كيف لي أن أتوقع أنه سيهجم ..
كنا واثقين أنه في الاسكندرية .. والخدم الملاحين لم ينبهونا .. تركوا البيت
لنا ..

- أخرج برة يا كلب ..
- تسمح لي يا سعادة الباشا ..
- قلتها في ذلة وذعر .. فقاطعتني صارخاً ..
- ولا كلمة .. بأقول لك أخرج برة يا كلب ..
- هاتري يا الهندم ..

خرجت

الدموع في عيني .. كنت أفضل أن يصفعني على وجهي .. يطلق علي
الرصاصة .. ولا يطردني كخادم .. محتقراً لثمانى .. أنا مجرد كلب غير
مرغوب في البيت ..

أيقنت أن كل شيء قد انتهى .. الكلب الذي طرده من البيت .. سيطرده غداً
من الأيام .. عندما وصلت إلى الشارع بدأت أفكر بسرعة .. أين أجد عمل
الجديد أي وزير اتصل به .. أي سياسي أعتمد عليه .. هل أذهب إلى خصوصي
لايد أن أدير موقفى بسرعة ..

لم أستطع التفكير .. صافرت زجاجة ويسكى في جوفى ونمت .. كانت
أعصابي تتحمل في تلك الأيام .. استيقظت في الصباح والصداع يطن في
رأسي .. حاولت أن أفكر من جديد .. ففشلت أرجأت التفكير .. ولم أذهب
للجريدة وشغلت نفسي بمعالجة الصداع ..

- شهدي باشا على التليفون طالب سعادتك ..

جريت إلى التليفون وأنا أتحنس راه .. لا أمل لي .. سيفقدني
بالشتائم .. ويعلنني بالطرد ..
- للو ..

صباح الخير يا محمد ..

- صباح الخير يا سعادة الباشا

ماذا وراءك .. لما يخاطبني بهذه اللهجة الناعمة .. تلعلعت .. ارتبكت ..
أصبحت غيباً .. فقدت قدرتي على الكلام ..

- أنت عيان يا محمد ..

- لا يا باشا ..

- طيب ما تروح .. مسمتنى إيه ..

- ح أكون هناك في عشر دقائق ..

لم يذكر شيئاً عن الأمس .. كأنه لم يضبطني في حجرة نوم زوجته .. كأنه لم
يحدث شيء على الإطلاق ..

أيعلمنى حقيقة ككلب .. لا يريد أن يقارن بيني وبينه .. لا يريد أن يشعر
بخيبة مني .. أهو مجنون أم ماذا ..

ذهبت إلى الأيام وأنا أرتجف .. لا أكاد أصدق أنني ذاهب إليها لا أكاد
أصدق أن رشوان البواب يفتح لي باب العربة ويرفع يده بالتحية .. لا أكاد
أصدق أنني صاعد السلم .. أنني أدخل حجرتي .. أجلس إلى مكتبي .. أدير
العمل ..

نق جرس التليفون .. وسمعت صوتها .. ثريا .. شعرت بسخوة في رأسي ..
- أنت هين يا محمد ..

- بتتكلمى منين ..
- من البيت .
- أجم لسانى ، ماذا أقول لها خيل إني أن شهدى يا شابينصت إلى حديثنا ..
- سيصطنعنا مرة أخرى ..
- الو .. محمد ..
- أيوه ..
- فيه حد عندك ..
- لا ..
- أمال موش عايز لتكلم ليه .
- ح أقول إيه بعد اللى حصل
- موش تسال عنى ..
- كنت ح أسال ..
- لا .. أنت خلقت .. افرض كان عمل لي حاجة .. ماكنتش ح تسال عنى ..
- أبدا يا حبيبتي . إزاي ..
- اخس عليك ..
- وبعدين يا ثريا .. ح نزل مع بعض .. موش كفاية اللي احنا فيه ..
- افرض كان موتنى
- هو عمل إيه ..
- افرض كان طلقنى .
- إيه اللى حصل ..
- بشال بعد إيه ..
- يا حبيبتي أنا كنت عايز أتأكد أنه خرج من البيت .. كنت مستنى .
- على العموم أنا عمرى ما كنت أنتظر منك غير كده .
- ماتزعليش يا حبيبتي ..
- أنا موش زعلانة

- هو إيه اللى حصل ..
- ولا حاجة ..
- صحيح إيه اللى حصل ..
- يا أقول لك ولا حاجة ..
- ما قلقش حاجة ..
- ضحك .
- موش معقول ..
- والله ضحك وهو بيكز على أسنانه .. الراجل ده غريب .. أعصابه
- حديد .. وبعدين ..
- وسكنت ... كأنها تذكرت شيئاً ..
- وبعدين إيه ..
- كان قلبي يدق بعنف ..
- وبعدين سألنى .. الحكاية دى من أمتى ..
- هيه ..
- ح أقول إيه .. زعقت فيه .. قلت له حكاية إيه .. محمد ده زي أخويا ..
- وكنت باشمكى له منك ..
- هيه ..
- هز رأسه .. طبعاً مصدقش .. وقال .. بكرة تتفرجى على الكلب ده ..
- قصده إيه ..
- موش عارفة ..
- الآن .. أعرف .. أعرف .. أصبحت فرحة .. استعمت يا شهدى .. وأنا
- لا أملك إلا أن أعود إليك .. محلاً بالهدايا لك ..
- أعرف . أعرف .. انتكمت يا يوسف .. وأنا لا أملك إلا أن أعود لأقدم لك
- حبيبتك .. لأقدم لك سامية .. زوجتى ..
- مهزلة ..
- شريف بيكلمك .. موش تيص له .

- عزيز ايه يا حبيبي ..
- في نور .. تحت ..
- ايوه .. يا حبيبي ..
- يتاخ ايه النور ده يا بابا ..
- دي بلاد ..
- بلاد ايه ..
- بلاد نلس عايشين فيها
- ومولعين النور
- ايوه ..
- بيعملوا ايه ..
- في بيوتهم ..
- يبيصوا علينا ..
- مين عارف ..
- هم يبيصوا علينا .. وشايفين الطيارة ..
- كده ..
- واحنا موش شايفينهم ..
- لا .. موش شايفينهم ..
- احنا شايفين النور بس ..
- ايوه ..
- الله .. النور مشي .. النور راح ..
- بس من الشباك .. دلوقت تشوف نور ثاني ..
- فين ..
- دلوقت تشوفه ..
- ما قيش نور ..
- بس .. دلوقت تشوفه .. بس خد يالك ..

يجب أن ترى النور يا بني ، يجب أن تراه النور الذي لن يراه أبك ..

- يوسف يا بني .. أنت يلين عليك موش شايف .. موش واخد يالك ..
- من ايه ..
- دي حكاية دقيقة وحساسة موش عارف اشرحها لك إزاي ، أنت عارف
- أنا اللي قدمتك لشهدى باشا .. وأنا اللي اقتعته بيك .. يمكن ما تعرفش
- لكن شهدى باشا زعل منى يوم مابعتك تعمل الحديث معاه .. افتكرت ولد
- صغير .. ما كاش سمع عنك ، ولا قرالك حلحة .. المهم .. أهو دلوقت اقتنع
- بآنتك كويس .. لكن أنت عارف هو هيز ايه .. عارف ..
- عزيز ايه ..
- عزيز يستعملك سلاح ضدى
- مستحيل ..
- كان وجهه اصفر كالليمونة ، خيل إن أنه سيجرى من أمامي ، وينطلق
- إلى شهدى باشا ليقنته .
- لا مستحيل .. ولا حاجة .. أنت لسه صغير .. ومعندكش خبرة ..
- الحكاية ببساطة .. أنت موش غريب .. هو متصور أن فيه علاقة بينى وبين
- المدام .. ما تستغربش .. ولاد الحرام فهموه كده .. وده اللي مظليه هازل
- يضايقتى بأي طريقة ..
- وأنا إيه دورى في الحكاية دي ..
- شهدى باشا راجل واعى .. ممكن يحاول يستدركك علشان يعرف منك
- لخباري .. ممكن يحاول أنه يسيىء العلاقة بينى وبينك .. علشان يخليك
- ضدى ، ويخلينى ضدك .. ويقدر يسيطر علينا احنا الاثنين .. احنا صحفيين
- أحرار .. بتخدم مهنتنا .. واطن موش من المصلحة أننا نبقى ضد بعض ..
- موش كده ..

قال في حماس المؤمن بشيء مقدس ..

- أنت ما تعرفش يا استاذناحى .. أنا تلميذك .. أنت اللي علمتني .. وأنت
- صاحب الفضل على .. موش ممكن أفكر أنني لزعك في يوم من الأيام .. دي

موش أخلاقى .. أنا أسيب الصحافة .. لموت قبل ما تحصل متى حاجة
تزعلك .

لكنك لم تعتزل الصحافة يا يوسف ، لم تحت يا يوسف .. اندفعت
تحدانى . خدعتنى ابتسامتك الخجولة .. خدعتنى صوتك الحار اليرى ..
خدعتنى مظهرك الحار اليرى .. عرفت سرى وانقلبت على .. ورضيت بلى
تكون السلاح الذى يشهره عدوى فى وجهى ..
- بابا .. النور أه .. تحت أضواء النور .. اللوحة تعلن .. شد حزامك ..
ممنوع التدخين ها هى المضيئة تعلن التبا ..

- سيداتى وساداتى .. بعد لحظات سنهبط فى مطار القاهرة .. أرجو أن
تشدوا الحزام ، وأن تمتنعوا عن التدخين حتى تقف محركات الطائرة ..
الوقت المحلى فى القاهرة الحادية عشرة وسبع دقائق مساء ، ودرجة الحرارة
سنة وعشرون سنتيجراد ، والسماء صافية .. أرجو أن تكونوا قد استمتعتم
برحلة طيبة ، ونأمل أن نراكم على طائرتنا فى رحلتنا القادمة .. ونقبلوا
تحيات كابتن فان دورن وملاحيه .. شكراً .. رحلات قادمة ، هه ، لا أظن أن
هناك رحلات قادمة لى .. لا أظن أنى ساراك أيتها المضيئة مرة أخرى .
مالى أتتبع كلماتها فى غياب ، شىء ثقيل يرتطم بقلبى ..

- مالك يا محمد ..

- ولا حاجة ..

- احنا وصلنا .

- أبوه يا حبيبتي ..

- يا ترى فيه حد مستئينا .

- ح نعمل بيهم إيه ..

- أنا خايفة من الجمرک .. معايا حاجات كتير ..

- ما تخافيش ..

الجمرک .. إنها تكذب .. يوسف هو الذى تسأل عنه .. لنا حيتون ،
أحمق ، مغفل ، ما الذى جاء بى إلى هنا ، لو استطعت أن أنهب ، أعود من

حيث ألتيت ، ما زالت عندى فرصة .. لا أهبط من الطائرة . نعم .. عندى
فرصة .. لموت فى الطائرة .. تتحطم أثناء هبوطها .. أختسى فيها . ليتنى لم
أعمل فى الصحافة ، ولا أى شىء آخر .. ليتنى كنت مثل اسى .. كفاءة الأزهر ..
لكان الخردوات .. والقبر .. قات الأوان .. محمد ابحك أصبح محمد
تاجى .. لقد ابتلعت لقمة كبيرة من الحياة .. وقعت فى حلقى .. كان يجب أن
أكون أكثر تواضعاً .

- ياللا يا محمد ..

- بس خدى بالك من شريف .. غطيه كويس ..

من هؤلاء القادمون فى الظلام . الهراء يصفعنى ولكنه لا يسعفنى لا أكاد
أستنشق ، إنهم يقتربون بسرعة ، يخيل إلى أنهم من الأيام .. النور وراءهم
يعمى عينى .. سامية تنظر إليهم ..

- دول جاين لنا يا حبيبتي ..

- باين كده ..

- مين ..

- موش شايفه كويس ..

صوتها يرتجف ، لا بد أنها رآته . اه لو كان بينهم ، إنه لن يأتى إلا من
أجلها .. أين وجه يوسف فى هذا الظلام .. لا بد أنه بينهم .. جاء ليأخذها ..
ها هو .. ها هو يوسف عبد الحميد السويلى .. أنه يتقدم منى .. لا .. إنه
يتقدم نحو سامية .. يتقدم نحو حبه .. أقسم أنه سيبتسم ، أقسم أنها
ستبتسم ..

ها هو يبتسم

ها هى تبتسم ..

يده فى يدها ، عيناه تحدقان فى عينيها ، عيناها تحدقان فى عينيها ، لا تحول
عينيها عن عينيها . ترى هل ضغط على يدها .. أنا مغفل حتى أسأل هذا
السؤال .. نعم .. لا بد أنه ضغط على يدها .. أحست بقوته . أحست

برغبته .. صدرى بارد .. بارد كالثلج .. قلبى محاط بالثلج .. جيبتى
 مثلحة .. كائى فى ثلاجة مشرحة .
 - أهلاً .. ازيك يا يوسف .. ليه كلفت خاطوك .. لا .. لا .. لا .. تعالى لا
 ابوسك .. أنت واحشتى خالص ..
 يدها تحوطان بي ، يعانقنى ، يقبلنى ، صدرى صاخن ، صاخن كجهنم ،
 قلبى محاط بالنار .. جيبتى ملتهبة .. احترق .. ما هذا الزحام .. كل هؤلاء
 جاموا من اجل .. أم جاؤا من اجل يوسف ..
 جاموا لأنه جاء ..
 عندما اموت ستعيش سامية من جديد .. كل هؤلاء كانوا موظفين عندى ،
 ياتمرون بامرى ..
 - البلد نورث ..
 - ازيك يا يوسف ..
 - موش هارفين نعمل حاجة من غيرك ..
 - البركة فيك ..
 - صحيح .. أنا ملخوم قوى ..
 - ده أنا اللي محتاج لك ..
 - يا خبر .. أنت استاذى .. بس الامر ..
 - هابز أقعد اتكلم معاك ..
 - امتى ..
 - ليجمي تنغدى معانا بكر ..
 - حاضر ..
 - سامية .. اعلى حسابك يوسف ح تنغدى معانا بكرة ..
 هانذا ارتب لكما الظروف ، افضل من أن يحدث كل شيء فى الخفاء دون أن
 اعلم ، لن احتمل البقاء فى الظلام ، هل خايتنى اليوم ، هل تخوننى غدا ..
 ستقتلنى هذه الاسئلة ، عجلي بالخيانة يا سامية .. عجلي .. الانتظار
 يعذبنى ..

- يوسف .. أنت ما سلمتش على شريف ..
 وجهه يحمر ، عنقه يتلوى ، رأسه تنخفض وترتفع ، كائى اكبل له
 الصفحات .. ينظر إلى سامية ، حثراً متردداً ، ينظر إلى شريف ..
 - ازيك يا شريف .. سلم على .. الله أنت مكسوف ..
 - سلم على اونكل يا شريف ..
 سلم على عشيق امك ، انظر إليه جيداً ، ربما استطعت أنت أن تفعل
 شيئاً ..
 وجهها يحمر ، عيناهما قلقتان ، صدرها يعلو ويهبط .. شفقاتها تتحركان
 بصعوبة :
 - أ أصله كان نايم ..
 - عملت إيه فى لوروبا يا شريف
 - كان عيان ..
 - عيان ازاي ..
 الحديث بدأ يدور بينهما ، الآن احكى له عن مرضى شريف ، غدا عن
 مرضى .. ربما وشيت بي .. عندما تقابلينه وهدك ، تروين له ، ولكن يوسف لن
 يفعل شيئاً يؤذيني .. أنه يريد أن يتظاهر أمامك بأنه قادر على حمايتي ، أنه
 وحده الذى يحمينى ، لو قلت له انى أعدت اخطر انقلاب ، لن يفعل شيئاً ..
 سيصمت من اجلك .. انى اعرف ، لابد أن تعرف هى انى اعرف ، لابد أن
 يعرف هو انى اعرف ، سأتركهما ..
 - هن اذنكم ..
 ينظران إلى فى دهشة ..
 - بس أروح اسلم على باقى اخوانا ..
 هانذا ابتعد ، ولكن فى ظهري ألف عين تراهما ، ماذا يقولان عنى الآن ..
 لا يهم ..
 ما هو حمدى .. لماذا لا يتقدم .. أهو خائف من يوسف .. العبيط ..
 تصرفاته المريبة تفصحها .. ترى ماذا فعلت معه مبروكة ..

- اريك يا حمدي
- حمد لله على السلامة يا سعادة البية ..
- ما يتجيش تسلم ليه ؟
- انتسامة بلهاء ، في عيبه حذر .. المجنون . يبدو أنه يريد أن يتكلم ..
- أنا وصلني جواب سعادتك
- بعدين .. موش وقته ..
- اتصل سعادتك ؟
- بعدين . بعدين .. سبيني دلوقت ..
- لو سمعوا حديثنا لقصى على في الحال ... ترى ماذا فعل مع مبروكه ..

●●●

الليل كئيب ، كل شيء في البيت يحمل رائحة القراب ، يحمل رائحة العدم .
سامية نائمة في حجرتها ، وشريف نائم في حجرته .. أنا وحدي الذي ينهت
إلى الليل ..
أين توني ..
هذا البيت من غير توني لا معنى له ، لو اسمع نباحه .. مستحيل .. لقد
قتلته .. صوت الرصاص مازال يدوي في أذني ..
ما هذا ؟
جرس التليفون يدق .. ما الذي حدث ، أهو يوسف .. شهدي باشا ..
البوليس ..
الو .. الو ..
سعادة البية ..
مين بيتكلم ؟
أنا حمدي يا سعادة البية
إيه يا حمدي ؟
أنا عايز أقول لسعادتك عن الجواب ..
تقوم تكلمني في نص الليل .. إيه . حصل حاجة ..

- أنا قابلتها زي ما سعادتك طلبت ..
- وبعدين ؟
- كلمتها في الموضوع .. ما رضيتش أبداً .. وشتمتني .. أنا خايف
يا سعادة البية ..
- خايف من إيه ؟
- تروح تقولله ..
- لا ما تخفش ..
- رفضت مبروكه .. شتمته .. لست وحدك الحائف .. أنا حائف أكثر منك ..
أو لو كنت ذكرت لها شيئاً عن خطاسي .. الخطاب لا بد أن استعيد هذا
الخطاب ..
- اسمع يا حمدي .. أنت قلتها حاجة عن الجواب ..
- أبداً يا سعادة البية ..
- طيب اسمع .. أنت لازم تقوت على الصبح بكرة .. بدرى .. الساعة
سابعة بالكثير ..
- حاضر يا سعادة البية ..
- وهات معاك الجواب ..
- الجواب ..
- أيوه .. لازم تجيبه معاك ..
- موش معنيا يا سعادة البية .
- عملت فيه إيه .. مين خده منك ؟
- وقعت الكارثة .
- قطعته يا سعادة البية ..
- ها تهوى مقطع ..
- رميته يا سعادة البية ..
- لاقائدة .. لا أستطيع أن ألاحمه .. إيه يملك حياتي في يده .. السائل ..

أخذ الخطاب ليهددنى به .. سيذهب به إلى يوسف .. يريد أن يحمى نفسه ..
لا فائدة

- طيب يا حمدى .

- أنا متأسف يا سعادة النيه ..

- معلش .. بس فوت على بكرة ..

سواء جاء لى القدر .. أو لم يجىء أصبحت عمداً فى يده .. أينما ذهبت أينما
لحرت ، مهما حاولت . أنا عبد كل من أقابله ، كل من أحادثه ، كل من تقع
عليه عينى ، وكل من تقع عيناه على ..

الفصل السابع

الساعة السابعة والنصف ، حمدى لم يأت بعد ، إنه لن يحضر لقد باعى
ليوسف ، أعطاه الخطاب الذى يديننى .. اليوم سيحضر يوسف على الغداء
تري هل سيحضر .

لا اظن ، سيفتدرباية حجة . سأضطر أنا إلى الذهاب إليه .. سامية لم
تستيقظ بعد ، كل شيء من حولها دى ومريب ، هذا الهدوء يطفى فى طياته
الاحداث القادمة .. بعد قليل تحصل بشهدى باشا ، سأحتاج إليه ، سأحتاج
إلى نقوده . وربما رضى أن يعيننى فى مجلس إدارة إحدى شركاته ، سيكون
صريحاً معه .. ليس فى احد غيرك يا باشا ، أنا خادمك ، أنت صاحب الفضل
على ، كلهم قد تنكروا لى ..

لا .. لن أقول هذا الكلام الذليل . سيدرك أنى انتهيت ، لا فائدة منى ، أنه
لا يجب الضعفاء ولا يتكامل معهم ، أنه أسد فى غابة ، نحن نعيش فى غابة ،
القوى يفترس الضعيف .. لابد أن أظهار باني قوى ، أظهار باني مارلت
حيا .. مارلت قوياً .. سأذهب لزيارته .. وأخبره أن يوسف مدعو عندى على
الغداء ، ربما قلت له إن يوسف دعا نفسه على الغداء عندى ، سأؤهمه بأن
يوسف يعتمد على ، وأنه أطلعنى على أسرار خطيرة ، سأؤهمه بأن هناك أشياء
خطيرة تحدث ، وأنى أعرفها .

الايام تقول هذا الصباح إن وزير الخارجية سيسافر ليتفاوض مع الانجليز

والفرنسيين ساهمس في أذنه ، اننا سنسلم بكل شيء ، مستقرا جع ، سنعيد القتال إلى الشركة الفرنسية بطريقة ملتوية .. أظن أن هذا هو ما ستقطعه الحكومة ، ليس أمامهم حل آخر ، اننا أضعف من أن تقاوم ، سنستسلم ، سنرضخ ...

- الأستاذ حمدي حضريا أفتد .. بيقول عنده ميعاد مع سعادتك .

- حضر .. دخله الصالون ..

- اسمع .. الست صحيت ..

- لسه .. يا أفتد ..

كيف أحصل على خطابي منه ، الوغد ، لابد أن أعرف حقيقة ما فعل .. لقد ارتكبت خطأ بشعاً بكتابة هذا الخطاب ، كان قلبي يحدثني بأن هذا سوف يحدث .. هذه الورقة لن تخلصني منها إلا سامية .

- صباح الخير يا حمدي . كويس إنك جيت في الميعاد .

- ما أقدرش أتأخر على سعادتك ..

- أحنأح نطرمع بعض ..

- فطرت يا سعادة البية .. متشكر ..

ما أغبانى ، محمد ناجى لا يدعو أمثالك إلى مشاركته الطعام ، انى اتصرف بحماقة ، لقد تعودت أن أصدر أوامرى لامثالك ، لا أن أصدر أوامرى لامثالك ، لا أن أنافقهم وأرفع الكلفة بينى وبينهم ،

- أنا عايز تقولى أنت عملت ايه مع مبروكة بالضبط .

- رحت لها يا سعادة البية ..

- فسین ؟ ..

- في بيتها ..

- كان فيه هناك حد ..

- ده بيت زى ما سعادتك عارف .. افتكرونى زيون .. طلعت لى لابسطة قميص نوم بمبة .. وبصت لى من فوق لتحت . زى ما تكون بتسال نفسها .

الزيون ده معاه فلوس والا لا .. كانت يتمضخ لبانة . شاورت لى بطرف صباعها .. وبخلنا أوضة .. نامت على السرير وهى لسة يتمضخ اللبانة . وقفت محتار عايز أكلها .. ضحكت وقالت : واقف كده ليه .. ما تيجي .. الحقيقة أنا اتلخمت .. القصد .. قلت لها أنا جاي لك في موضوع بس سريني وبينك .. استقرت وبلان عليها أنها موش مصداقانى .. قلت لها : إبت موش تعرفي يوسف عبد الحميد السويقى .. الراجل اللي البلد كلها بتتكلم عنه .. غمضت نرس عين وقالت : وأنت مالك بيه .. قلت لها : أنا جاي أكلكك علشان مصلحتك .. يوسف بيه غنى وفلوسه كثير .. وتقدرى تكسبي منه ألوف .. رمت اللبانة من بقها وقامت من على السرير .. وقالت لى وهى خائفة .. أنت مين اللي هتلك .. لازم يوسف .. حلفت لها إنه ميعرفش حاجة عن الموضوع .. مصدقتش .. وشتمتني .. وشتمته .. وقالت كلام وحش .. كلام ما يتقلش يا سعادة البية .. وزعقت .. أنا خفت .. قعدت أترجاها تسكت .. مافيش فائدة .. بصيت لقيت الأوضة اترشلت نسوان .. ومعاتهم راجل بجلابية صدره مفتوح ، وشعره منكوش .. إيه يا ريري .. حصل إيه يا ريري قالت لهم كل حاجة .. شوفوا اللي باعتولوا ابن الحرام .. عايز يوريني لى داهية .. أنا ساكتة عليه .. وهو موش ساكت .. والله لانا رايحة له ونضجاء .. أنا وشى أصفر .. كنت خلاص ح أوطى وأبوس رجلها .. كنت ح أعيط ، سألوني أنت مين .. أنا بصراحة واحد جاي برسالة .. واحد كبير في الحكومة ضد يوسف باعثنى .. علشان عايزها ترفع قضية عليه ، قضية نفقة .. هيه تكسب لها قرشين .. وهو يستفيد بانه يطلع يوسف من شغلته .. والقضية احنا مستعدين ندفع فلوسها وفلوس أكبر محامى في البلد .. هوو معقول ياناس يوسف بيه يرفع قضية على نفسه ..

يدأوا يصدقوننى ..

- ومبروكة قالت ايه ..

- ضحكت .. وقالت والكبير ده يبقى مين ..

- قلت لها ايه ..

- طبعاً ما فتش حاجة يا سعادة البية .. هره لنا عبيط .. قلت لها هوه موش
عايز حد يعرفه .. وما أقدرش أقول لسمه .. قالت قول له .. كان غير
أشطر . يوسف ده إبليس محدش يقدر عليه .. قلت لها لكن الكبير ده يقدر ..
قالت أمال جاي ليرى ليه . وبعدة ضحكت وقالت كلام بلخ ..
قالت إيه ..

- مالوش لازمة ..

- قالت إيه ..

- قالت . صاحبك ده ما بين عليه واقع زىي .. ماتزعلش على بختك يا ويرى
أهو كبارات البلد وانتم في الهم سوا .. وبعدة ما رخصتيش .. هستي
فهميني . أعمل معروف مفيش فايدة . أنا مسامحاه .. هو في حالة وأنا في
حالي .. موش عايزة منه حاجة ..

- تفكر ح تقول ليوسف ..

- ده اللي أنا خايف منه يا سعادة البية ..

- هيه شليقة الجواب ..

- إزاي يا سعادة البية .. أنا قلت لسعادتك هي ما تعرفش حاجة ..

- يعني ما شافتش ..

- مستحيل يا سعادة البية ..

- والجواب لين دلوقت ..

- والله العظيم قطعت ..

- أنت مقطعتوش .. أنت اديته ليوسف .

- سعادتك مالكتش حق تقول كلام زى ده .. يعني سعادتك موش
مصدقنى ..

- أنا عايز الجواب يا حمدي

- والله العظيم اتقطع واترمى .. ولا أعرف له مطرح ..

- أنت بتكذب ..

- عيب يا سعادة البية .. اكذب عليك إزاي .. ده أنا خدامك ..

- اسمع .. بلاش كلام كثير .. إذا كنت فاكرك إنك تقدر تعمل حاجة بالجواب
ده .. تبقى غلطان .. ح لوبيك في داهية .. أنا ما أنتهتس .. أنا أقدر
النيك ..

- يا سعادة البية ولازمة الكلام ده إيه .. أنا راجل عبد المأمور

- أمشي اطلع يره ..

- بس ..

- موش عايز اسمع كلمة واحدة . اتفضل

- خرج الوغد .. ليكن ما يكون ، إني ميت ميت .. الكارثة محتمة ، فلاعجل
بوقوعها ، فقد مللت الانتظار ..

- محمد ..

- الله .. أنت خارجة ..

- رايحة للكوافير ..

- طبعاً .. لابد أن تستعدى لاستقبال يوسف ، تنزينين له ، ألا تخجلين من
مواجهتي .. ترى هل تقابلين يوسف قبل الكوافير أم بعده .. ستقابلينه بعد
الكوافير .. ستقولين له لا تمس شعري يا يوسف .. ولكنك ستضحكين له في
إغراء ولن يتحمل إغراءك ، سيمد يده إلى شعرك ويهبط به ، ولن تمنعني
ستكونين سعيدة ، مستهترة ، عاشقة .

- ح ترجمي امتي يا حبيبتي ..

- على طول ..

- بس متأخرش .. احنا مستنيين يوسف على الفدا ..

- موش ح أتأخر .

- ملها متجهة الوجه . تمط شفتيها في قرب هناك شيء محبوس في
صدرها ..

- ميوزة ليه ..

- ولا حاجة ..

- لا صحيح .. فيه حاجة مضايكاكي ..

- يعني أنت حاسس إني متضايق ..

- باين عليك

- موش عارف أنا متضايقه ليه ..

- أبدا .. قول لي ..

- مافيش حاجة ..

- لازم تقول لي يا حبيبتي ..

- أنت موافق على اللي بتعمله ده ..

- عملت إيه يا حبيبتي ..

- محمد .. أنت ذكي .. وفاهم كل حاجة ..

- كلميني بصراحة ..

- إزاي تعزم يوسف في بيتنا ..

- أنت شوقتيه كثير بعد جوازنا ..

- لكن موش في بيتنا ..

- ولها إيه ..

- يبقى خلاص .. موش ح اتكلم ..

- إيه اللي مضايكك بس ..

- موش شايف حاجة في إنه بييجي بيتي ..

- ده اللي مضايكك ..

- طبعا ..

- المفروض أن خلاص .. نسينا الماضي ..

- لكن أنت بتخرجيني ..

أي نوع من الحرج تشعرين به يا سامية .. أبحرج رؤية يوسف أم
يخرجك رؤيتي مع يوسف ، رؤية عشيقك وزوجك في آن واحد ..
هل أصدقك ..

كيف أصدقك ..

أنت تذكرين تصف الحقيقة .. تصف الحقيقة فقط .. علمك يوسف

الكتب الصادق .. البراءة المريبة .. أنت تلميذته .. أنت ظله الذي يتبعني ..

- أنا متأصف يا سامية .. الحقيقة كنت بأفكر في الشغل .. ما جاش على

بالي .. فعلاً كان لازم أأخذ رأيك ..

- إذا كنتم ح تتكلموا في الشغل .. تبقى فرصة .. ما أقعدش معاكم ..

- لا .. ما يصحش ..

- يا محمد أنا موش قاهمك ..

- متخرجنيش أنت كمان ..

ماذا أقول لك ..

إني لا أحتمل غضب يوسف الآن ، لابد أن ترحبني به ، أهتمد عليك

يا سامية .. أنت التي تحميني من غضبه ، إن خطايي معه .. سلمه حمدي

إليه .. لو غضب علينا لفقدنا كل شيء ، هذه مسألة حياة أو موت .. أنا

مضطرب .. مضطرب يا سامية .. لا أملك إلا أن أسلمك له فليفعل معك

ما يشاء .. فلتكوني عشيقته .. لابد أن أعيش .. أنا عجوز أعيش

محطم .. غير قادر على فعل شيء .. لابد أن أبحث عن حماية .. أنا لا أطلب

منك الكثير .. أريد منك وهو يقبلك أن يسمع كلمة طيبة عني ، توسلي إليه ،

استدري عطفه .. قولي له حرام عليك يا يوسف .. إنه مسكين ضعيف ..

امنحه فرصة ليعيش .. أليس من حقى هذا .. أشركيني في علاقتك

بعشيقك .. أرحميني .. اسمعي لي لن أستفيد من هذه العلاقة ..

أنت شابة وهو شاب ..

أنت تحبينه وهو يحبك ..

أليس هناك مكان لرجل عجوز مثلي بينكما .. مكان متواضع لرجل له طلب

متواضع .. لا أريد أن أفقد أكثر مما فقدت .. أريد أن أظل أقبض مرتبي أول

كل شهر .. أريد أن يظل الناس يتوهمون أنني محمد ناحي القديم .. أريد أن

يعاملني الناس باحترام ، إنني أتخل عن كل شيء من أجل هذه المظاهر البسيطة ..
هل تضمنين بها علي ..

- شوقي يا حبيبتي .. أنا موش عزيز منك أكثر من مقابلة ضيف بيتي وبينه
شغل .. احنا نسينا اللي فات .. يوسف اللي جاء النهاردة واحد تاني .. رئيس
تحرير الأيام .. مالوش صلة بيوسف بقاع زمان .. أنا نصيت زمان .. وأنت
لازم كمان تثبتى لي أنك نسيته

- أنا كنت بأفكر ما أرجعش البيت بعد الكوافير .. ولروح أنور أمي ..
لا .. خليكي عاقلة .. يا حبيبتي .. فكرى كويس .. ح يبقى شعورى
إيه .. ح أقول لنفسى إيه .. أنت لسه خايفة من يوسف .. خليفة من تكتيره
عليكي .. يوسف ح يفسر غيابك إزاي .. موش قادرة توجيهه .. بتفكرى في
حبكم القديم .. ح يفسر غيابك ألف تفسير .. كلهم موش كويسين .. أحسن
نولفه ده كله .. روحى يا حبيبتي للكوافير .. خليه بعملك تسريحة حلوة ..
شيك .. علشان يوسف لما ييجي .. يشوفك حلوة يعرف أنك سعيدة معايا ..
موش من حتى برضة إنني أثبت له أنك سعيدة معايا ..

- أنت بتحبني يا محمد ..
نظراتها تفيض بالشك .. صوتها يفيض بالياس ..
إيه معنى السؤال ده ..

- بعض ساعات بأحس إنك ما بتحبينيش ..
مستحيل .. املى بيجيك الشهور ده ..
دلوقت ..

- يا حبيبتي ده كلام فارغ ..
طبعا أنا بأحبك ..
موش قادرة أصدقك ..
ليه ..

- أنا خايفة ..
خايفة ..

- ١٠٠ -

- ليوه خليفة .. منك ..

- يشهد عنى .. في الأول كنت معايا شاعرة بيك في كل لحظة .. بتهتم بيه ..
ومايتسبينيش دقيقة ... حيلتى مليانة .. دلوقت شايفك سرحان على طول ..
بعيد عنى .. شوق يوم مابت بره طول الليل وأنا لوحدى في اللوكايدة ..
ح ترجع تانى ..

- أنا موش قاسرة أفهمك .. أنت اتغيرت ..

نعم أنا تغيرت .. أنت أيضاً تغيرت .. أنت لا تعلمين معنى كلامك ..
غريبتك تتكلم بلا وعى منك .. لقد سقطت في عينيك .. لم أعد ذلك الرجل الذي
كان يبهو .. لم أعد أبهرك يا سامية .. لم أعد أهلا حيلتك .. أنت التى
تبتعدين .. أنت التى تتحدين كهلتي بشبابك .. عندك أحلام وليست عندي
أحلام .. عندك سنوات وسنوات تعيشنها في المستقبل .. وليس عندي سوى
أيام .. اليوم أنت خائفة .. والغد أنت هاربة .. هاربة مع يوسف ..

- أنت موش سعيدة يا سامية ..

- لا موش سعيدة ..

- وإيه للحل ..

- موش عارفة ..

- تحبي أعترف ليوسف ..

- ليوه ..

- بس ح أقول له إيه ..

- تعرف أنا حاسة بأيه .. حاسة إنك بتعتمنى .. أنك عازمه مخصص
علشان تشوفه وتشوفنى مع بعض .. وتشوف إيه اللي ح يحصل .. أنا
ما قبلاش ده يا محمد ..

- ده تفكير غريب ..

- لا .. ترى هيه الحقيقة ..

- موش ممكن .. أنت بتخونى لقد أبركت الحقيقة .. عرفت كل شيء .. إنها
تهاجمنى قبل أن أهاجمها .. الآن فقط أيقنت أنها على علاقة بيوسف ..

متى بدأت هذه العلاقة .. متى بدأت .. منذ سنة .. منذ سنتين .. أم إن
علاقتها به لم تقطع أبداً .. تزوجتها كأي مففل .. لابد أنها تحقرنى ..
لا حدود لاحتقارها لى ..

- أنا موش بأخرف ..
- أنت بتقولى حاجات ما اتصورش أنها بتخطر على بالى ..
- اعتذرله .. موش عايزاه يدخل بيتى ..
- لا .. يوسف جاي .. وأنا أرفض اعتذر علشان سبب سخيى زى ده ..
- وأنا كمان ح اتصرف ..

- قصدك إيه ..
- قصدى ح اتصرف ..
- تعمل إيه ..
- ما أهرش ..
- بتهددينى ..
- افهم الى أنت عايز تلهمه ..
- عيب يا سامية تتكلمى معايا باللهجة دى .. أنت عايزة تؤلمينى وبس ..

ماذا جرى .. إنها تبكى ..
لماذا تبكى ..

لا أصدق دموعك .. أنت تكذبين بدموعك .. تبكين لأنك تعلمين أنى
أعرف .. تبكين حسرة لأنك لم تتزوجى منه .. ليمك تبكين حتى نهاية حياتك ..
تتألمين كما أتألم .. لن أهول أسكانك ..

- أنا متأسفة يا محمد ..
- على إيه ..

- قلت لك كلام سخيى ..
- معلش ..

- سامحنى ..
- اتعودت خلاص على مفاجأتك ..

- سامحنى ..

- محصلش حاجة أسامحك عليها ..

- يتحببنى ..

- أبوه بأحبك ..

- أنا كمان بأحبك .. أنا ماليش حد غيرك فى الدنيا .. لو سببتى ح أعمل

- إيه .. أنا كنت رايدة الفهردة لأمى وأنا موش عايزة أروح ..

- ما تقولش الكلام ده يا حبيبتي ..

- أمك موش قادر تفهمتى ..

- صدقيني أنا بأحبك .. بأحبك يا لالا روى بابه ..

- بابه أنا أتأخرت على ميعاد الكوافير .. أوريقوار يا محمد .. موش

- ح أتأخر ..

- أوريقوار يا حبيبتي ..

- موش عايز تيوسنى ..

- تقبليننى فى حرارة .. أيتها الكاذبة .. هذه الحرارة تدافع عن خيانتك ..

- تتظاهرين بحبى بنفس الحماس الذى تجرين به إلى الكوافير .. هذا هو كل

- حبك لى .. هل تظنين إنى أبله .. ساذج .. تخدعه بضع كلمات وبضع

- دموع .. اذهبي إلى الكوافير .. اذهبي إلى يوسف .. وعودى لتقولى لى إنك

- مازلت تعبيننى .. لست بحاجة إلى هذه الاعترافات الكاذبة .. لن أتركك على

- أية حال .. لو خبطك بين ذراعيه .. لن أتركك .. أنا فى حاجة إليك .. وإليه ..

- أنا فى حمايتكما ..

- ولكنى أكرهك .. وأكره اليوم الذى رأيتك فيه .. وأكره الدنيا التى دفعتنى

- إليك .. أنا لم أتزوجك إلا لأنى تحطمت .. ضعفت .. أنت الحضيض الذى

- وصلت إليه ..

- ثلاثتنا نجلس إلى مائدة واحدة .. نأكل من طعام واحد .. نأكل فى هدوء ..

- هذا هو الهدوء المريب ..

لو انفتحت صدورنا لما احتملنا أن نجلس معاً - لفكر كل واحد منا إلى أقصى مكان على الأرض أنا الضحية بينهما ، أنا الهزيمة ، أنا الموت .. كلما فكرت في أنى ميت شعرت ببعض القوة ، استطعت أن أيتسم ، أرحب بيوسف ، أمضغ اللقمة ، وأقول بضع كلمات .. الآن أعرف ما هي صحة الموت

- أنا زيت النهاردة شهدى باشا يا يوسف ..

- أخساره ايه ؟

- بيني وبينك موش مبسوط ..

- خايف من الحرب ..

- خيلنا نتكلم بصراحة .. ده راجل رأسمالى .. موش ممكن يقدر يتفاهم مع النظام ده .. أما موش عارف هم ساكتين على له ..

- قال لك حاجة ..

- ما كنتش أحب أقول الكلام اللي سمعته .. لكن أنا برفضه عندى وطنية .. ومضطرب أنبهك وأنبه المسؤولين لخطورة الناس اللي زي .. احنا لازم ندافع عن الثورة بكل قوتنا .. أنا من ثلاثين سنة وأنا باكتب في السياسة .. من قبل ما سامية تتولد .. وعندى أمل كبير في أن الأزمة دي تعدى .. المهم هو أننا ناخذ بالناس من دعاة الهزيمة .. فيه ناس الانبيار في نفوسهم .. ما فيش فليدة انهم يقاوموا .. مستعدين يسلموا البلد للانجليز زى ما حصل أيام عرابي .. أنا شفت ناس بالشكل ده .. حتى في باريس .. فأكبر يا سامية .. فأكبره ..

- قصصك مين يا محمد ..

- بقى موش فأكبر ليلة ما قللنا أكرم بك ..

- اه صحيح ..

- سامية تقولك يا يوسف خايفاً تحكى لك .. الناس اللي بيعتوهم في السفارات علشان يمتلوا البلد .. موش فاهمين حلجة .. ياريت موش فاهمين ويس .. إنما خونة .. تعرف يا يوسف .. أنا بافكر أكتب سلسلة من المقالات الحرية ، أطالب فيها بتصحيح الأوضاع ..

إنه ينظر إلى لي صمت ، لا يبدو عليه أنه يرحب بالفكرة أو يعارضها .. منذ دخل البيت وهو يتكلم بحسب ، يقول كلمات مقتضبة غامضة .. يبتسم في خجل .. لم ينظر إلى سامية نظرة واحدة .. لابد أنه يعرف كل شيء عن الخطاب .. لابد أنه قابل سامية قبل أن يأتى إل هنا .. إنها أيضاً صامتة ، تتكلم بحسب .. تسريحة شعرها بسيطة .. من السهل العبث بها .. وإعادتها كما كانت .. أنا لا مضايقتى ما ارتكبتاه .. تكلمنا .. اضحكنا .. أنت تحوونى يا يوسف .. ولكن ضحكك مستريح لأن في جيبك الخطاب .. ضحكك مستريح لأنك المنتصر وأنا المهزوم .. أنت الذي سعد .. وأنا الذي سقط .. ولكنى لا أشعر الآن بشيء تعوك .. لا حقد ولا كراهية .. كل ما أريده هو الراحة والهدوء .. صدقنى أنا أشعر هذه اللحظة وكأنى ولدت من جديد ، نسيت الماضي .. أريد أن أبدأ من البداية .. أغيب نفسى من ذكرياتى .. لا أهران ولا مرارة .. ساكتب في حماس .. ساشعل الوطنية في القلوب .. سأتهدى كهولتى ..

- موش فكرة كويسة يا يوسف ..

- طبعا فكرة كويسة ..

- موش باين عليك متحمس ..

- بالعكس .. أنا متحمس جداً .. امتى ح تكتبها ..

- أبدأ من بكرة ..

- طبعاً ..

لست متحمساً على الإخلاق .. تنطق بالكلمات من شفطيك لا من قلبك .. انت لا تصدقنى .. تستريب في قصدى .. ولكنى أريد أن أكتب المقالات النارية .. أريد أن أثير القنابل ذات الدوى الضخم .. الناس في المقاهى والشوارع والنوادرى .. يصيحون .. هل قرأت ما كتب محمد ناجى اليوم .. أنت مالك ساكت يا يوسف ..

- أبدأ ...

- دى سامية كان عندها كلام كثير عاينه تقوله .. الموضة في باريس ..

تقارير باريس .. ممكن تعديل اخباركم كويسة .

- أنا لازم اسمع الحاجات دي كلها ..

- هيه ساكنة كمان النهاردة .. موش عارف ليه ..

- الظاهر أنا تعبت يا محمد ..

- بقى الشحات تعبان ، والعواجيز اللي رى حالاتي مليونين نشاط .. ساييني

اتكلم .. واتحمس .. واستعد لكتابة مقالات ..

نار تلسعني في صدري .. إبرة حادة تنغرس في لحمي .. ملذا أكلت ؟ !

السلك عبر طازج .. مادا يقول يوسف .. إنها تحدثه عن الموضة .. باريس ..

باريس ثقب البار يتسنع .. ألم غريب .. هل أخبرهما .. لا داعي

لازعاجهما .. سأتركهما يتناجيان .. أنا في حاجة إليهما .. غدا أكتب المقالات

الوطنية .. شيء مضحك .. لا أحد يوافق الصعود .. كل من وصل إلى

فوق .. لابد أن يتدحرج إلى تحت .. الألم يستد .. دائرة اللهب تحرق قلبي ..

دوي قطار يسير داخل رأسي .. لابد أن أشكو .. لا أراهما .. ضباب فوق

عيني .. ولكني ما زلت أجلس إلى المائدة .. الطعام في حلقى .. ماذا تقول له ..

لا اسمعهما .. كل شيء يذهب .. يبتعد .. يحفت .. أهذا هو الموت .. أمي ..

أهذا هو الموت .. يا والد أنت ضريته ليه .. والنبي ما هو أنا يا أمه .. خذ بالك

من توفى يا محمد .. هو موش راضي يموت ليه .. مات خلاص يا سعادة

البيه .. الرصاص في الشانزليزيه .. القذرين .. قتلوه .. كان يصفر في

الشارع .. لا في أن روز .. مديده ليصالحه .. ضربه بالرصاص .. سقط

الجسم المربع .. أنت مہراجا « يا شا » أعظم كاتب في الشرق ..

أخرج بره يا كلب .. توفى ..

أه هذا البيانو المزعج .. الأنغام تدوي في رأسي .. الطفل ينظر إلى .. يلتفت

وراءه .. لا تراحموس .. هذا الشارع يلفظني .. ينظرون إلى شذراً ..

لا مكان لشيخ عجوز .. سامية حبيبتي .. شريف عيان .. بص يا حبيبي ..

النور مشي .. النور راح .. دلوقت تشوفه .. بس خذ بالك .. شوف الجرنال ..

- ١٠٦ -

المطابع .. المانشتات .. ألو .. مين بيتكلم .. آخر خبر .. صفحة أولى بقلم

محمد ناجي .. بقلم الكاتب الكبير محمد ناجي ، محمد ناجي

- سامية ..

ملها تصرخ .. إنها تقرعني .. تكلمي في هدوء .. اني استريح ..

- آند .. آند .. آند .. آند .. آند ..

وهنا سكوت محمد ناجي عن الكلام ، وبذلك انتهى القسم الثالث من الرجل

الذي فقد ظله ..



القسم الرابع يرويهِ :
يوسف

أنا يوسف

يوسف عبد الحميد السويدي .

عندما أتمس باسمي بيني وبين نفسي يخين إني أني أردد اسم شخص آخر لا أعرفه ، شخص غريب عني ، لا أحبه ولا أكرهه ، ولكنه يزاحمني ويرتبط بي ، ويلزمني لسبب غامض لا أفهمه .
من أنا ..

من يكون هذا اليوسف عبد الحميد السويدي ، هل هو ذلك الصحفي المشهور رئيس تحرير جريدة « الأيام » إن صموتاً ملحاً يهمس في قلبي ليل نهار ، يسألني ، هل حقيقة أنت يوسف الذي يعرفه الناس ؟ هل حقيقة أنت يوسف الذي يجلس إلى مكتبه ويدق الأجراس ، ويتكلم في التليفونات ، ويكتب المقالات ، ويعطي الحفلات ، ويقولون عنه إنه ناجح وإنه وصل .

إذا لم أكن أنا يوسف الذي يفعل كل هذا ، فمن أكون

من أكون أيها الصوت الذي يهمس في قلبي بالسؤال ..

هذا الصباح كنا نشيع محمد ناجي ، كان النعش محمولاً على اكتاف عمال المطبعة ، ومن ورائه يسير المئات ، يقطعون رحلة الوداع بين ميدان التحرير وجامع جركس . كنت أسير وراء النعش في نفس الصف الذي يسير فيه مدوب



رئيس الجمهورية ، ووزراء ، وكبار رجال المال ، بينهم شهدى باشا ، كنت
اشئ منكمس الرأس ، حزيناً ، وفجأة انطلق ذلك الصوت الذى يهمس فى
قلبي ، انهال على بأسئلته ، هل أنت واثق أنك حزين ، هل أنت حزين حقاً على
الرجل الذى أدخلك هذا العالم العريض ، عالم الصحافة وأجلسك على
مقعد .. أنت فى قرارة نفسك لست حزيناً ، أنت تفكر فى أشياء لا صلة لها
بالحزن أنت تفكر فى سامية ، تفكر فى حبك لها ، هل تعود لها .. هل تتزوجها .
حاولت أن أفر من هذه الأسئلة التى تهشنى ، قلت لنفسى ، عيب
يا يوسف ، كن مخلصاً فى حزنك ليس هذا هو وقت التفكير فى مثل هذه الأمور ،
محمد ناجى يسمع الآن صوتك الحفى وهو فى نعشه ..

امتنعت عن التفكير ، وقطعت جيبينى ، كأتى أقسر نفسى على الحزن ولكنى
لم أستطع أن أقسر نفسى على الحزن ، تشاغللت بمراقبة المشيعين ، بعضهم
حزين ، ولكنه حزين على نفسه ، لأنه صبور يذكره النعش بنهايته القريبة ،
بعضهم جاء ليظهر بيننا وقد ارتدى الخرملابسه كأنه فى إحدى الحفلات
الرسمية ، يمشى منتصب الرقبة ، عينا زائفتان وراء عيون الآخرين كلما
التفت ورأى لتلقى عيناى بواحد منهم ، فيبتسم ، ثم يتذكر أنه فى جنازة ،
فيرسم على وجهه أحزانا مضحكة .. كان شهدى يهمس بلا انقطاع فى أذن
سيد شحات مدير بنك الاقتصاد ، يلوح بيده مؤكداً شيئاً يقوله ، ثم ينظر
خلصة إلى ساعته .. لا أحد حزين ، وسطكل هذه المظاهر الحزينة ، والناس
يقفون على الرصيف يشاهدون الموكب وهو يمر ، بعضهم يتفرج علينا ، ويشير
إلينا بأصبعه وبعضهم يقرأ العاتحة دون أن يرى من الميت .

ولكنها كانت جنازة فخمة ، لا تنقصها إلا الموسيقى العسكرية لتكون مثل
الجنازات التى كانت تبهرنى وهى تمر أملسى فى الشارع ولنا طفل .

هأنذا أهرب من صوت قلبى .. هل أفلحت .. أبدا ..

لقد بكيت وهم يهبطون بالجثمان إلى القبر ، بكيت مخلصاً ، ولكن حتى وأنا
أبكى ، كان ذلك الصوت العنيد يسألنى ، هل تبكى محمد ناجى ، أم تبكى

الورطة التى أنت فيها .. تبكى لأنك فشلت فى أن تحزن على الرجل الذى يجب
أن تحزن عليه .

أم تبكى لأنك تفكر فى سامية .

أم تبكى لأنك كنت تظن يوماً ما أن محمد ناجى هو مثلك الأعلى ثم
احترقته ، وسقط من عينيك ولم يعد لك مثل أعلى ..

وكما انفجر فى قلبى سؤال أشد بكائى ، والناس من حولي ينظرون إلى فى
ارتياح ، لأنى ألوم بواجبى وأبكى فى اللحظة المناسبة .. خيل لى أنهم
يستريحون مثلى فى سبب بكائى ، ولكنهم راضون تماماً عن هذه المظاهرة التى
ألوم بها ..

أه .. كيف أستطيع إخفاء هذا الصوت .. كيف أقنع قلبى بأن يكف عن
أسئلته ..

ولكنى لا أستطيع ..

لا بد أن أواجه هذا الصوت ، وأحاول الإجابة على كل سؤال لابد أن أواجه
نفسى ، كل ما أعرفه عن نفسى هو أنها غير راضية ، تباغتنى بالأسئلة ، أنا
لا أعرف نفسى على حقيقتها ..

أحياناً ينتابنى إحساس موير بأننى فقدت كل شيء ، فقدت نفسى ،
اضعتها ، ذلك عندما تخرج أسئلة الضك من قلبى ، تتهمنى لى كل ما أفعل ..
عندئذ تدهمنى وحدة قاسية ، ولا يدهشنى إذا تلفت ورأى فلم أجد ظلى .
وأنا صغير ، كنت أخرج إلى الشارع وألهم مع ظلى ، أرقبه وهو يتمد
ويطول ساعات الغروب ، علقاً على الأرض ، فيملأنى الزهو ، وأحطم
بالسنوات القادمة عندما أكبر وأصبح فى طول ظلى فى ساعات الظهيرة ، كنت
لقف فى فناء المدرسة فوق ظلى .. أراء قزماً صغيراً ، واستخر منه . وأشعر
أنى أكبر منه ..

الآن ، لا أظن أنى سأجد ظلى لا طويلاً ولا قصيراً ، لا يملأنى بالزهو لو
المستقرية .. ما الذى يبقيه معى ، وقد هجرتنى نفسى .

نعم .. أنا الرجل الذي فقد ظله ..

٦ سبتمبر عام ١٩٢٢ ، منذ تلك الليلة حتى اليوم ٩ أكتوبر ١٩٥٦ ما الذي حدث لي .. كيف كبرت وعشت ، وتعلمت واشتهرت واكتسبت أشياء وأشياء ، وفقدت نفسي ..

إننا نبدأ في الموت منذ أن نبدأ في الحياة ، نبدأ الخسارة منذ الكسب نشرع في رحلة الضياع في نفس اللحظة التي نشرع في رحلة الوصول ..

في الساعة الواحدة بعد منتصف تلك الليلة من سبتمبر ولدتني أمي ، صرخت أم فهمي الداية .

- خسارة .. ده ولد ..

كانت أم فهمي تظن أنني ولدت ميتاً ، لم أكن ميتاً ، ولكنني جئت إلى هذه الدنيا ، لا أبكي ولا أبتسم ، جئت صامتاً محايداً ، ولم يعجب هذا أم فهمي ، ظففت أني ميت ، لماذا لا أبكي مثل الآخرين ، قلبتني في يدها على ظهري ، وضربتني ، وظلت تضربني حتى بكيت ..

عندما بكيت ، أطلقت زفردة .. علمت أنني حي ..

كان أبي غائباً عن البيت ، في الانصر ، يُدرّس الجغرافيا في المدرسة الابتدائية ، ليلتها سهر على غير عاداته مع أصحابه ، وتهور على غير عاداته ، وشرب كروب بيرة ، وقال لزميله صبري أفندي مدرس الحساب وهما عائدان في منتصف الليل :

- أنا حاسس يا صبري أن مراتي بتولد ..

في الصباح وصلته البرقية وهو في الفصل ، وأمر الناظر بتسليمه البرقية في الحال ، ففضها أمام التلاميذ ، وقرأ .. « مبروك بيوسف » .. لم يتمالك نفسه ، فصاح بين التلاميذ

- أنا جيت ولد

وضج التلاميذ بالتهليل والضحك

كانت أمي تحكي لي قصة ولادتي وفي عينيها لمة فرح ، وفي صوتها تهديج كأنها تعيش تلك اللحظة من جديد .. شهور الحمل .. ولد أم بفت .. لو تكن

ولداً ستمسميه يوسف على اسم شقيقتي الذي مات .. المخاض .. صراخ أم فهمي .. خسارة .. قطعة اللحم الحمراء وأم فهمي تقلبها في يدها .. كف أم فهمي وهو يتهاول بالضربات .. الصوت الحاد الرفيع الذي انفجر باكياً .. ولد .. أبني .. يوسف .. يوسف عبد الحميد السويقي ..

فيما مضى ، كنت أصدق حكاية أبي ، أنه شعر في نفس الليلة بأنني قد ولدت ، وأن قوة خفية جعلته يسهر ويشرب البيرة على غير عادته .. ولكنني الآن أشك في أنه حدد موعد ولادتي وهو بعيد عنا .. أشك في أنه اخترع هذه القصة لأمي . ربما ليعتذر لها عن غيابه أو ليثبت لها أنه شاركها بعض قلقها والآمها .. لماذا أشك . لا أعرف السبب .. ولكنني أصدق في أنه سهر تلك الليلة وشرب البيرة ..

كنا نسكن في ذلك الوقت في حارة زكي المتكرمة من شارع السد ، أمامنا مستوصف عرفت بعد سنوات أنه للأمراض السرية ، وأن النساء اللاتي يترددن عليه ، يثرن تعليقات لاذعة من أهل الحي ، وكان تحت بيتنا دكان وحيد ، نعم برعى بائع الطرشي .. إنه مازال يشغل مكانه حتى اليوم ..

كنت أسأل أمي :

- وضربتوني ليه ياماما ..

- علشان تعرف انت صاحي والا .. لا ..

لم تكن تجسر أن تقول .. صاحي والاميت .. ولكنني كنت أريد ما لنفسى ..

صاحي والاميت .. ثم أحاول إقناع نفسي .. بأن الصاحي لابد أن يبكي ..

والميت لا يبكي .. والسلكيت يضرب حتى يبكي ..

- هوه لازم أعيط ياماما علشان تعرفوا أنني صاحي ..

- أبوه ..

- ليه ياماما ..

كنت أسألها في غيط وهشة ، فكانت تجيبني وهي تضحك :

- كده ..

- كده ليه ياماما ..

فتحترق ، وتتهرب من أسئلتى اللوحية ..

ولكنى كنت جادا في سؤالى .. كلما فكرت في هذه البداية لحياتى شعرت بأننى استقبلت استقبالا مسخيا ظالما وشعرت بالعناد .. ما الذى جنيته حتى أضرب ، لماذا تضطروننى إلى النكاح .. اتركونى لحالى ، لا تلمسونى .. الا توجد حياة بغير بكاء وضرب ..

أنا ملأت أحلم بذلك الشعور بالبراءة الذى عرفته وأنا طفل .. البراءة التى لم أكن أعرف أنها براءة .. شعور صريح مباشر حلو .. هذه هى الحياة كما يجب أن تكون ، كما يجب أن تظل لنا حتى النهاية .. ترى ما الذى يفسد هذه البراءة في نفوسنا .. لقد فقدتها .. كنت أرى أمى هناك في اخر رسالة البيت ، فأندفع نحوها في شوق ، لا يحول بينى وبين شوقى إليها شيء .. افتح ذراعى ، وأجرى نحوها وأضرب رأسى في جسدها ، حتى تتشبث يدائى بساقها ، وتحضننى وتقبلنى ، فأشعر أنى أضم الحياة ، وأشعر أنى أحيها ..

لا التواء ولا تعقيد .. أجوع فأصرخ بأعلى صوتى .. أنا عاوز أكل .. يخيلى لى أنى عطشان ، مجرد وهم بالعطش ، فأصبح في منتصف الليل .. هاليز أشرب .. أصمخ أبى يكلم أمى في جفاء ، فأزعق فيه .. انت وحش يا بلبل .. أنا موش بأحبك .. لا شيء أكتبه ، لا خاطر أردعه .. أنا هو أنا ..

ما أريده .. هو ما أريده ..

لا التواء .. لا تعقيد .. لا خجل .. لا شيء يفصل بينى وبين نفسى .. عندما كبرت ، أصبحت الرجل الذى يلف ويدور ، عرفت الخجل ، قلبى قال كلاما لم يسمعه أحد ، ولسانى قال كلاما لم يسمعه أحد الناس ، براءتنا تنوب ، ونفوسنا تنهزم ، عندما أحببت سامية ، قضيت الليالى موقعا أتعذب ، لا أدري هل أنا أحبها أم لا ، هل هى رغبة ، مجرد رغبة لريد إشباعها ، هل هى شفقة ، هل حبى بلاهة وحمافة ، هل اعترف لها بحبى ، هل أكتف مشاعرى ، لم اعترف لها حتى كانت هى تعترف لى .. لماذا لم تندفع نحوها

مادأ ذراعى ، أطوقها وأعانقها وأقبلها .. وأقول لها بصراحة الطفل - أحبك ، أريدك .. ما الذى يعقد الحياة ، ما الذى يحول براءتنا إلى سداجة محرمة .. ما الذى يحول الصراحة إلى خجل أو نفاق .. ما الذى يجعل العيب عيبا .. أريد أن أعرف ، أريد أن أعرف ..

أول شيء أحب ، أول شيء أذكره في حياتى ، هو نور قوى لا أدري من أين يجرى ، مسلط على ، ووجه أمى إلى جانب النور ، وجه أبيض حلو مدور ، وعينان عسلتان حنونتان ، وجسمى عار ، وأصابع أمى تمتد إلى ظهري فتضع عليه شيئا لزجا باردا ، صورة خاطعة لا أستطيع أن أنساها ، لا أذكر ما كان قبلها ، ولا ماذا كان بعدها هذه الصورة ترتبط عندى بالحنان ، لا أشعر بالحنان حتى اليوم ، إلا وتذكرت النور القوى ، ووجه أمى الأبيض ، وعينيها ، والشيء البارد تضعه أصابع أمى على ظهري .. كانت سامية تلاحظ أحيانا شرودى ، وتساألنى ، ماذا أبى ؟ فأقول لها أى شيء ، ولا أذكر لها تلك الصورة التى أذكرها ..

سألت أمى ذات مرة :

- أنا فاكرياماما وأنا صغير .. كنت بتحطى مرهم ساقع على ظهري .. سألتها باهتمام ، وكانت استعيد أخطر ذكرياتى ، ذكريات طفل في السابعة من عمره ..

وتذكرت أمى في الحال ، وأظهرت دهشتها ..

- أنت فاكريده ..

- أبوه ياماما ..

- ده كان عندك أربع سنين إلا .. كنت صغير قوى ..

- وفأكر كان فيه نور ..

- نور ايه ..

- نور جامد قوى ..

- يمكن ..

- موش فأكراه ياماما ..

- هوه أنا كنت في ايه والا ايه .. ايامها كان عندك الجديري .. وكنت خاليفة خالص عليك ..

وقاجاني ما علمت .

أهذا الحنان ، كان مرضاً .. مرضاً مخيفاً .. لا .. إني أرفض هذا .. لنتم ايها الكبار تسمونه أي شيء ، أما أنا فلا أنكر إلا ما أنكره ، إنها ذكرى جميلة تعلمت فيها الحنان ..

وسألتني أمي وقد فاضت بها الذكريات .

- وفكر لما كنت بتصحى في نص الليل .. وتصرخ ..

- لا ..

- ياه .. ده أنت غلبتني .. قعدت أربع ليال ما أشوقش فيها النوم ..

لقد هذبت أمي ، أرمقتها وأنا لا أدري .. أنا لا أريد أن أعذبها ، ما ننبى أنا ..

ولكني شعرت بالذنب ..

مثل تلك القصة التي سمعتها من أبي ألف مرة ، يرويها وهو يتعجب ويتندر .. هذه القصة أيضاً أشعرتني بالذنب ..

كان عصر يوم ، وكنت سأدخل بعد شهر المدرسة الابتدائية ، وقال أبي لأمي إنه خارج لمقابلة رجل كبير في وزارة المعارف .. وكرر أبي كلمة « جروبي » ..

- ح أقابله في جروبي ..

جروبي ده حلواني كبير قوي ما يدخلوش إلا الذوات « هنجاي قهوة بتلاتة صاغ » نص فرنك ثمن القهوة .. وقرش صاغ بمشيش والتفت إلي أبي يسألني ..

- تحب ثيجي معايا جروبي ..

- ايوه يابابا ..

فقال لأمي :

- أنا عايز منصور بيه يشوقه .. ويعرف إن عندي ولد في ابتدائي وأنا عايز اتنقل علشان أعرف أريه .

كان أبي يعمل وقتها في دمهور ، وقد أوشكت إجازته على الانتهاء . وشعرت وأمي تلبسن القميص والنبطون القصير ، وتمشط شعري ، أني مقبل على شيء خطير .. سأظهر أمام منصور بيه ، وسيقعه هذا إن يبقى أبي معنا ..

لا أنكر بعد ذلك ، إلا جلسة ممتدة في حديقة مريحة ، وأربعة أو خمسة رجال يجلسون بينهم منصور بيه ، الذي كان قصيراً جداً ، يضع على عينيه نظارة ، وأسنانه ذهبية تجعل ابتسامته مخيفة . خاصة عندما صوب إلي ابتسامته وأبي يحدثني عنى . وسألني منصور بيه سؤالاً . أنكر فقط ، أني رفضت الإجابة عليه ، وعيناي معلقتان بأسنانه الذهبية .

واذكر صياح أبي :

- أنت مكسوف ليه .

لم أكن خاجلاً من شيء ، كنت أفكر كيف يأكل منصور بيه بهذه الأسنان ، وكنت لا أريد أن أقول شيئاً ..

وفجأة قال أبي ..

- لا .. ده أنت طلعت حمار ..

واتسعت ابتسامته منصور بيه ، وضحكوا ، أما أنا فقد خفضت عيني أنظر إلي قميصي الجديد . وينطلونى ، وحذائى .. أرفض في عناد أن أقول شيئاً .. ثم تشاغلتن عنهم بمراقبة طفل على مائدة بجوارنا يأكل الجيلاتى .

بعد قليل قال أبي :

- ياللا بيتنا نقوم يا يوسف .. أنت باين عليك عايز تمام ..

قلت ببساطة :

- لا .. فسمتني شويه ..

- ليه ياسيدي ..

- لما الولد ده يخلص الجيلاتى يتاعه ..

وضجوا بالضحك . ما الذى يضحكهم .. إني أرقب طفلاً سعيداً .. ياكل
الجيلاتى في نهم .. هل ارتكب شيئاً .. ما ذنبى ..
وعاد أبى إلى البيت ليقول لأمى

- ابنك كسفى وسط الناس .. منصور به يكلمه ما يردش عليه .. عامل
زى البنت ..

وتقول أمى :

- ليه كده يا حبيبى .. موش عيب .. لما حد يكلمك ترد عليه .
وينفجر أبى ..

- ياريت هلى كده وبس .. أمى ما بتوكليش ابنك .. طالع عينه زايفة على
حاجة الناس ..

كسفى .. أقول له ياللا بينا نروح .. يقول لى .. استنى لما الولد بخلص
الجيلاتى بتاعه .. ولد قاعد على الترابيزة اللى جنبى .. فضحنى .. يقولوا ايه
ما بنجبلوش حاجة ..

وتضحك أمى فى خجل ، ثم تقول له فى تحد :

- وايه يعنى .. ماجبتلوش جيلاتى هو كمان ليه ..

- قلت له .. قال لا هايز كانوزة ..

- كنت هات له جيلاتى كمان .

- مارضيش .. الظاهر انه اتكسف لما ضحكرا عليه ..

لم أخجل .. أنتم لا تفهموننى .. تحولون الأشياء إلى غير معناها .. لم أكن
أريد الجيلاتى ..

كل ما حدث ، هو أنى أصعبت بمنظر الولد .. شعرت بما يشعر به .
أصعبت أنى الفهم . قريب منه .. يبدو الا فائدة فى أن اتفاهم مع الكبار ..

هذا الحادث مارال عالقاً فى ذاكرتى أظن أنى لن أنساه أبداً .. ما الذى
يجعلنا نتذكر أشياء ، وننسى أشياء . ترى أى أشياء حدثت لى وتسيبها ،

لا أشك أنها كثيرة . كثيرة جداً . الأشياء التى نذكرها تحركنا فى الظاهر ،
والأشياء التى ننساها تحركنا فى الأعماق ..

هل أنا لتفلسف .. على أية حال هذه فرصتى كى اتخلص من يوسف
عبد الحميد الصحفى الذى يعيش معى .. أنه يغير من نفسه ليفرق فى مشاكل
الآخرين ، يلهث وراءهم ، علمت الصحافة أن يهرب من نفسه .. لا أظن أنى
لتفلسف .. كل ما أريده هو أن أكون مخلصاً مع نفسى ، أن تكون هناك
صداقة بينى وبين نفسى ، أقول كل شيء . أواجه نفسى بكل شيء .. حتى
لو جرحتها .. حتى لو أهنتها ..
أريد أن استعيد الذى فقدته ..



كنت أقطع شارع السد مرتين كل يوم فى ذهابى وإيابى من مدرسة خليل
أغا الابتدائية ، كنت أسير والذعر يملأنى ، عيناى مضطربتان زائفتان ،
انفاسى مضطربة كل رجل أمر به سيخطفنى ، كل امرأة فى الملاحة اللف ترقبنى
من خلف البرقع وتصوب إلّى عينيها السوداوين لتسدنى ، كل طعام أراه
وأشم رائحته مسموم ، براغيث الست مسمومة ، الكثرى مسموم ، والكنافة
مسمومة والخيار مسموم هكذا قال لى أبى ، وهكذا قالت لى أمى تنفيذاً
لتعليمات أبى ، كنت أصادف أحياناً الحامى وهو ياكل النار ويلعب
بالنعلين ، أو النقرزان يرقص والصولجان مرتفع على أسنانه ، أو القرداتى
وهو يامر القرد المعجوز ليبعجن عجينة الفلاحة ، وكانت الحركة فى الشارع تكاد
تقف ، لتشاهد هذه الألعاب ، الذى يهبط من دراجته ليتفرج ، والذى تحمل
الصاج وتتدس بين الزحام لتتفرج ، والذى يقرض أسنانه ويتفرج ، والذى
يشب على أصابع قدميه ليتفرج ، وأنا وحدى لا أستطيع أن أتفرج ، تدوى فى
أذنى تصائح أبى ، هادرة راعدة . كل هؤلاء الحوام لصوص وقتلة ، والأولاد
القاسدون هم وحدهم الذين يقفون ويتفرجون ، أولاد ليس لهم أهل وتنقصهم
التربية ..

كنت أسرع كالمطاردة إلى البيت ، وأصعد السلم وأنا الهث ، لا أدري كيف

سجوت من كل هذه الاحطار التي تعترضني في الطريق ، ولكني اطل من النافذة في ساعات العصر ، ارقب الشارع في فضول ونهم ، ارقب بهجت وجودة وانفاس يلعبون الكرة ، ويجرون وراء عربات الرش ، حفاء ، رفعوا جلاليتهم ، فتعرت سيقانهم وافخاذهم لتستقبل المياه المتدفقة ..

كنت ألعب معهم في مكاني خلف النافذة ، احارب ، واركل الكرة بقدمي فتصعدم بالجدار اسفل النافذة ، واشعر بالماء يغسل ساقي ، والوجل والطين يلوثان اصابع قدمي ، واسمع السباب والشتيمة ، فتنتابني رجفة خوف ، واتسائل : هل استطيع ان ارد مثلهم هذه الالفاظ .. هل استطيع ان لرددها ولو همسا ..

وتأتي ساعة الغروب .. فأتوه مع خيال غامض ، الببوت تنكمش ، وناموسية شفافة تفسدل على الشارع بمن فيه ، وكأن الضجة تبعد ، والزحام يتفرق ، والناس تتمهل في مشيتها ، والشارع يلين ، يغوص فيه المارون ، وهندئذ الملح عفرية اللير قادما من بعيد ، يجري ، يرتدى بدلته الصفراء ، وتغطي رأسه طاقية من الصوف الابيض حولتها الذبابة إلى لون رمادي ، يحمل في يده عصا طويلة جدا ، في رأسها لهب ، وأكتم أنفاسي وأنا أرى في دهشة .. المصابيح تصوء واحدا تلو الآخر .. ويختفي العفريت في صمت وسرعة ، بينما يقاوم أنفاس الفتنة ، ليراصل اللعب ، ثم يهدأ مع بقية الاولاد عند مصباح غاز ، وتطل من نوافذ المستوصف الممرضات ، واحدة في شباك ، واثنان في شباك آخر ، اليد على الخد ، والاذن في القم ، وضحكة عالية تطرق بين لحظة وأخرى ..

في ذلك الوقت ، قبل أن يشتد الظلام ، ويشد ضوء المصابيح ، كنت اتمتع بسماع نداء الباعة ، كان بانع الجميز يقترب في بطء شديد ، يدفع عربته ، منشدا

« لبي أمك يا »

« على صمك يا »

« جميز »

والخيار والياذنجان المخل ، ويوريك سخن جبنة وعجمية وتوبي .. كلها سموم يتلوى عليها الباعة ، واسمع النداء ، واتسائل لماذا لا اذوق السم .. وفجأة اسمع نداء أمي ، وانقنه إلى أنني مازلت داخل البيت ، خلف النافذة ، فانسحب إلى الصالة لأجد الرغبة وقطعة الحلوة الطحينية وقطعة الجبن الرومي والزيتون الاسود ..

- ماما .. أنا نقي في سمك مقل ..

- بكركه أعمل لك سمك ..

- أنا عايز من السمك اللي في الدكان اللي على الناصية ..

- بابا محرج علينا نشترى سمك من السوق .. اللي بياكلوه بعد الشر عليك بيتسمعوا ..

- ريحته حلوه ياماما ..

- بكركه أعمل لك أحسن منه ..

- لا .. أنا عايز من اللي في الدكان ..

- بكركه أعمل لك أحسن منه ..

- ما اقدرش يا ابني .. يجيبك اسمبال .. أبوك يموتني ..

واكل الحلوة والجبن ، وأفكر في كل هذه الشرور والسموم التي تحيط بنا وننتظرنا في الشارع ..

لم اخف من الشارع وحده .. خفت أيضا من المدرسة ، كان انفش يجلس خلفي في الفصل ، رغم أنه أكبر مني وأطول مني ، له أنف ضخمة لم أره مثيلاً في حياتي ، صوته غليظ ، وكان المدرس يضربه ، فيثور في وجهه ولا يبكي أبداً ، وعندما نخرج إلى الحوش ينتقم انفش لنفسه ، يتحول إلى غول شرس ، يصب نقمته على كل من يلقاه ، ويصب نقمته على بالذات .

كنت نحيفا قليل الجسم ، لا اشترك في الضفاقات ولا انضم للعصابات ، بل أنزوى في الحوش ، وأجلس على دكة تحت الناقوس ، لأنني كنت أحب مراقبة عم بسيوني ، وهو يقف ممسكا بساعته ، ينظر إليها في قلق ويده ممسكة بسلسلة الناقوس ، ثم يتجههم وجهه ، ويضع الساعة في جيب

الصدري ، ويدق الناقوس بكلمات يديه ، فيتحرك اللسان الضخم في داخل الناقوس ، محدثاً ذلك الرنين الكبير الذي الصدى العريض .. وكان أنفـس يرانى أحياناً ، فيعربى وهو ينظر إلى شراً ، ثم يقف ، وكأن نظراته لم تشف غليله ، ويتقدم منى ، وينخرنى بأصبعه في صدري ، منهكاً ..

- يا واد أنت قاعد لوحدك ليه ..

متدور راسي ، ولا استطيع الكلام ، ويستأنف أنفـس صراخه ..

- ماترد على .. بتتقنـزح ليه ..

أهـس وجلا ..

- أنا بتقنـزحش ..

- لا .. أنت بتقنـزح .. فأكـر نفسك مين ..

- ويلقت إلى من معه .. ويقول ساخراً كأنه يشتـمنى ..

- علشان أبوه مدرس ..

ويصيح واحد ..

- وأبوه مدرس صحيح ..

يقولها في دهشة وحسرة .. بينما يصيح آخر ..

- متصدناقوش ..

فيعصرخ أنفـس ..

- أيه يعنى مدرس .. المفتش أحسن منه . المفتش برفد أبوك يا واد ..

ويتحول خوفي إلى غضب ، ولكنى لا أجسر على فعل شيء .. أهـس بصوت متحـرج ..

- والله لاشتـكيك للأندى ..

- تشتـكيني يا واد ..

ويركنى في قدامى بحذائه الغليظ ، ويجذب قميصي يريد أن يمزقه ، ويصيح وهو يرتعش من الانفعال ،

- أنت عايز تتخانق معايا يا شاطر .. هو .. ياروح أمك ..

واسمع الشتائم الجارحة ، فأكاد أبكى ، ولكنى لا أبكى - ويبدو أن

متطري كان يثير الشفقة ، إذ يتدخل الآخرون ، ويحاولون مين أنفـس ويبينى ، فيتركنى وهو ينظر إلى في حقد ، ويبتسم ابتسامة من يتشفى .. ومع ذلك أشعر وهو يبتعد ، أنه خائف ..

كنت أتحاشاه ، ولم أشك لأحد .. حتى عندما كان يتمزق حذائى بسبب

ركلة قوية صوبها أنفـس عامداً .. وأعود إلى البيت ، وأدعى أنى كنت لعب

الكرة ، ويويخنى أبى ، ويتهمنى بأنى لن أفـلح ، ويتهم أبى بأنها الفسدتنى ،

فتحزن ، وأحزن من أجل أبى ..

كان خوفي من أنفـس مقصوراً على ملاقاته ، ولكنى عندما أعود إلى البيت

وأرقب من النافذة أتحمس له . وهو يسيطر على الكرة بجسمه الضخم ،

والعابه الخشن . وصوته الغليظ وشتائمه التى يطلقها في غل وكأنه فقد

عقله .. كنت أشعر بنشوة غريبة .. عندما أشاهده يتشاجر ، ويتمزق

جليبه ، ويسير غير مكترث بشيء ، وقد كشف التمزق عن ظهره أوكتفيه .

ذات يوم تحولت مخاوفى من أنفـس إلى صداقة ، كان قد جاءنا مدرس

حساب مجنون يدخل الفصل ومعه حقيبة سمسـونيت وكنا نلـه ، له كعادتنا

ونرفع أيدينا بالتحية ولكنه منذ أول يوم وأول لقاء .. لم يقل لنا « جلوس » بعد

التحية بل صوب إلينا نظرات غريبة بأسمه وفتح الحقيبة السوداء وأخرج

منها مسطرة خشبية مضلعة ، وقال بصوت هادئ :

- خليكـم واقفين .. انتم شايقين إيه اللى فى إيدى .. دى اسمها ست

الحاجة ..

وشخط شجاة بصوت رهيب :

- كله يفتح أيده ..

قبل أن نفهم ماذا يريد كان قد أنطلق يضرب الفصل كله ، واحداً واحداً

بغير استثناء ، وإذا صدر من أحداً صوت ، أو أنين ، هاج وهقد سيطرته على

نفسه . وناقوس حاجباه ، وظل يضرب صاحب الصوت ، حتى ينهار ويتكوم

على الدرج ، ويعد أن يفرغ من الضرب ، يعود إلى مكانه ويبتسم في هدوء ،

وكانه لم يفعل شيئاً ، ولكنى كنت الاحطحيات للعرق تتقاطر من جبهته ، كما
الاحط تلاحق أنفاسه وشحوب وجهه ..

ذات يوم رقص أنفش أن يمد يده ، فصاح سفعان أفندى ..

- اهتج ايدن يامجرم ..

فاجابه أنفش بصوته الغليظ المتحدى ..

- لا موش فاتح .. هو يه هو ده ..

فضربه بالمسطرة على كتفه ضربتين وقبل أن يضرب الثالثة أمسك أنفش
بالمسطرة وانزعها منه .. وفجأة تغيرت ملامح وجه سفعان أفندى ، ذكرنى
بشحاذ يمر أمام بيتنا فى الصباح ، وجهه ذليل ويده ترتعش ويقول بصوت
معطوط . أدونى حقة لقمة غموس ش .. وكانت أمى تضحك وترسل له مع
فاطمة الخدامة رغيف عيش وصحن ملحوخية أو بامية .. وتقول فى عجب ..

- أنا عمرى ما سمعت شحات بينادى على غموس إلا الراجل ده .

ثم تقول كأنها تخاطب نفسها

- إنما والله معذور . ح يعمل ايه بالرغيف لو ده ..

وكانت فاطمة تبدى الامتعاض وهى تحمل صحن الطعام وتنتم ..

- وجع بطنه .. شحات وهما يظفح ملحوخيه ..

وكنت ابتسم .

تذكرت هذا المنظر ، وسفعان أفندى يمد يده متوسلاً إلى أنفش .

- هات المسطرة علشان أضربك يا ولد .. يامجرم

وأنفش يرقص .. فى عداد وتصميم ..

ويرداه وجه سفعان أفندى دلة وتوسلاً ..

- يا اننى هات المسطرة .. أما بآدبك ..

وابتسمت

وكان ابتسامتى هى المخرج الوحيد لسفعان أفندى من الورطة التى وقع

فيها ، إذ ترك المسطرة ، وأنفش ، وانقض على صارخاً فى جنون ..

- اطلع عند المسبورة يامجرم .

خرجت وأنا أتصور إنى ميت لا محالة ، وكنت أخرج من الفصل وأهرب
من المدرسة كلها ، وعاد سفعان أفندى إلى أنفش ، وأخذ منه المسطرة ، ثم
عاد إلى ووقف يتأملنى عابساً ، وفجأة تهال وجهه وصاح مشيراً إلى صندوق
خشبي يستعمل فى إلقاء المهملات ، وأمرنى أن أجلس داخل الصندوق .

وضج الفصل بالضحك ، أما أنا فخيل إنى أحلم ، اسى فى حياة أخرى
غير مفهومة .. ترددت ، ولكنه لوح بالمسطرة فى وجهى ، فافتنحت بضرورة
الامتثال للأمر فى الحال ، وجلست القرفصاء داخل الصندوق .. كنت أجلس
على حافته وقدمائى داخله ، وحك سفعان أفندى طرف المسطرة فى ذقنه ،
وعيناه تضيقان وتتسعان وحاجباه يتقلصان ويرتفعان وينخفضان ، ثم
استدار ناحية أنفش وصاح فيه .

- أنت يلوح - تعال هنا ..

خرج إليه أنفش ، وهو يتمايل مبرزاً عضلات ساعديه - ووالف أمامه
واستدار سفعان أفندى إلى بقية الفصل وأشار إلى اثنين آخرين ، خرجا ووقفا
بجوار أنفش ، وصاح فيهم بوجهه يفيض بالسعادة ، وعيناه تلتمعان بفرح
وحشى ..

- شيلوا الزبالة دى .. وحطوها على الشباك ..

نظرت إلى أنفش وزميليه . فوجدتهم يترددون فى تنفيذ الأمر ، عيونهم
قلقة بينى وبين النافذة ، ولكن سرعان ما اشرقت البهجة على وجوههم ،
وكانهم اكتشفوا لعبة مسلية ، وحملونى بالصندوق ووضعونى على حافة
النافذة .. كنا فى الطابق الثانى

صاح التلاميذ مهللين ، وتركهم سفعان أفندى يهلولن ، وأنا ارتعد
وارتجف مكانى ، أية حركة قد تبهرمنى ، ستقذفنى محطماً .. لم أخف فى
حياتى مثل ذلك اليوم ، وكلما خفت تذكرت ذلك اليوم دوار فى رأسى ، قلبى
ينق بعنف ، الهواء البارد يضرب ظهرى المبلل بعرق متلج ، صور محمومة

تعريدي في رأسى ، أبوى أبى تصرخ ، أبى يلف مستسلم هو يرانى أسقط من
النافذة ، سعفان القدي يهجم على في أية لحظة ويدقنى بالصندوق ..
بعد انتهاء الحصة ، جاء أنفش ، وريت على كتفى وقال :
- معلش ماتزعلش .. روح اشتكى للناظر .. قول لأبوك بييجى يتكلم مع
الناظر .. ده يقرئ ..

والتقت أنفش للملتفين حولنا وقال ..

- سعفان افندى مايعرفش ان أبوى يوسف مدرس ..

ثم علم يقول لى .

- ده والله يا أبنى بقدر يعديه في داهية .. ولاد المدرسين ما حدش بقدر يعمل
لهم حاجة ..

وسألنى احدثهم وهو خائف ..

- أنت كنت خايف ..

فهمست :

- لا ..

فصاح أنفش .

- ده أشجع واحد فيكم ..

وصوب إلى نظرة من يريد أن يتفاهم معى ، ويدعونى إلى صداقته
وابتسم ، وابتسمت .. وسرنا معا في الحوش ، وهو يحاول أن يكون رفيقا
مؤدبا في كلامه ، كان يتحدث بماطفة ، والدموع تكاد تطفز من عينيه ..
وقال :

- أنا ح أقول لخالى كمان .. يكتب شكوى لوزير المعارف .

أطرقت برأسى .. وسكت .. فمضى يقول ..

- أصل أبويا مات .. تعرف يا يوسف .. أنا أبى بتقوللى إن احنا كنا ناس
أغنيا .. تصدق .. كان عندنا فلوس كثير .. ويعدين أبويا ضمن واحد في
تجارته .. جه الواحد ده .. الله يخرّب بيته .. فلس .. وراحت فلوس أبويا ..
مات من الحسرة ..

- البقية في حياتك ..

- خال موش غنى زى أبويا .. إنما أهوى بقدر يدع لأمى حاجة .. بيشغل
مقتش في التروماى .

سأله في اهتمام .

- بيفتش على الكمسارية ..

قال في زهو :

- وعمل الراكب .. بالك لوركب التروماى .. لو أجدع باشا ركب التروماى
ولا دفعش للتذكرة . خالى يعمل محضر للكمسارى .. ويدع الباشا ثمن
التذكرة .

ومرنا بضع خطوات قبل أن يقول أنفش :

- دى وظيفة مهمة يا أبنى .. أحسن من مدرس .. حتى اسأل أبوك .. زى
الظابط . بيلبس بدلة في الصيف سفرة بزراير نحاس ، وفي الشتاء بيلبس بدلة
زرقه صوف إنجليزى ثخن كده .. وزراير أبنوس ..

صدقت كل حرف قاله لى .. وشعرت بشيء من الأسى .. أبى ليس مثل خال
أنفش ، وعندما عدت إلى البيت ، لم أقل شيئا لأبى عن حادث صندوق
المهمات ، وطبعاً لم أقل شيئا لأمى ..

وفي اليوم التالى سألتنى أنفش .

- قلت لأبوك ..

- لا ..

- ليه .. خفت ..

قلت في حيرة .

- ما اقدرتش ..

فبدأ عليه الانشغال بالتفكير . ثم هز رأسه وقال ..

- ماتزعلش .. أنا ح أضربوك في الشارع وهو راجع من المدرسة ..

فهاكتى الفكرة ، وحاولت أن أجعله يعدل عن قراره .. فسأله .

- وخالك .. موش ح يشتكى لوزير المعارف ..

فصحك في عصبية .. واشتد ضحكك عالياً ، صاخباً ، كأنه يتكلم من الضحك .. وقال وعيناه مفرورتان بدموع الضحك :

- خال مين يا ابني .. ومن يسأل عنه هو حياته حاجة ..
سألته جاداً .

- هو .. موش مفتش ..

قال في مرارة :

- ويعني ايه مفتش .. ده عمر ما كان في جيبه نص ريال .. عمال يشعبط في الترومايات .. ويرجع آخر الليل عنده روملتيزم .

وهز راسه وقال ساخراً :

- أنت لسه صغير ..

- يعني أنت اللي كبير ..

- أنا عندي ثلاثاشر سنة ..

كنت وقتها في التاسعة من عمري في فصل ثالثة ثالث ..

وكنت أشعر أنني لا أفهم أشياء كثيرة ، ورغم ذلك أشعر كأن إحساسا مبهما يقودني ويحركني ، وكان هذا الإحساس يقول لي امتع أنفك من ضرب سعفان أفندي ، ان هذا عمل خطير ، لا يمكن الاقدام عليه . ومع ذلك استسلمت لأنفك وهو يجذبني من يدي بعد انتهاء اليوم الدراسي قائلاً في اهتمام وعلى وجهه علامات الجهد .

- تعال معايا ..

- ح نروح هين ..

- ح نضرب سعفان أفندي ..

وصرت مع أنفك ..

●●

تلفت حولي وقد أيقنت أنني تائه .. هذه الشوارع لا أعرفها ، إننا نبتعد عن طريق عودتنا إلى البيت نخوض في طرق لا نهاية لها ، مجهولة . وأنا لست

واتقاً أن أنفك يستطيع أن يعود بي إلى شارع السد ، ولكني لا أستطيع أن أقول له إنني لا اتق به ، رغم كل شيء هو طيب وغلان ، لا أريد أن أهقد صداقته ، وأجعله عدواً لي من جديد . إنه قوة باطشة بلا عقل ، الفاظنا بية بلا خجل ، ولكنه طيب ، سأتركه يتوه ، وسأتحمل كل ما يحدث ، سأتحمل قلقهم في البيت ، وكلمات التوبيخ التي سيستقبلونني بها ، لو كان أبي في البيت سيضربني ، لو كان في المقهى مستقرصني أمي في هخدي ، سأرى علامة زرقاء في فخذي .. قرصاتها تؤلني ، سأتحمل من أجل أنفك .. لست خائفاً منه ، ولكني لا أريد أن اتخلى عنه .. لا أستطيع أن اتخلى عنه ..

المشي في الشوارع مع أنفك له طعم جديد ، لا يهمني شيء ، لا أكره بدير الترام ، ولا أبواب السيارات ، لا أخشى عيون الناس ، أنا مع أنفك القوي ، مع صديقي أنفك ، ومع ذلك فإني أئن نحن ذاهبان .. كيف سنمشي على سعفان أفندي .. كيف سنضربه .. ما أدرأه أن هذا الطريق الذي نسير فيه يؤدي إلى سعفان أفندي .. أسئلة تلح عليّ ، ولكن لن أبوح بها ، لا أظن أن أنفك سيستريح لو سألته ..

وداخل شعور بالاطمئنان .. لن نطر على سعفان أفندي ، لن نذهب إلى أي مكان .. أنفك لا يعرف شيئاً عن الاطلاق .. إنه تائه مثلي ولا يريد أن يعترف بأنه تائه ..

سرت وعيناي مصوبتان إلى نهاية الطريق ، لا تريان شيئاً ، ولكنهما تتوقعان شيئاً مفاجئاً يبرز أمامهما في أية لحظة .. شيئاً قريباً لا يخطر على بال

ويبلغنا محطة ترام ، وكان ترام رقم خمسة يغادر المحطة ، عندما صاح أنفك فجأة وهو يجري مندفعاً نحو الترام ..
- تعال تلحقه .

لم ينتظرنني ، وقبل أن أفكر في إطاعته كان قد قهر إلى سلم الترام ، الذي انطلق مبتعداً ، وهو يلوح لي بيده يستحثني على اللحاق به . وقفت ذاهلاً بلا

حركات .. وكان الترام قد قطع نصف المسافة إلى المحطة التالية . عندما اندفعت أجري وراءه .. الترام يجري وأنا أجري وراءه .. وصيحات تحذير تنبؤ في أذني ، وأوراق السيارات وشتائم وصرخات تطاردني .. جريت وجريت حتى شعرت بألم في قلبي ، وأنفاسي تمزق صدري وسلقاي تخزهما إمر ، ولم أعد أستطيع مواصلة الجري ، والترام يبتعد مسرعاً ، ولم أعد قادراً على الوقوف ولا المشي ، قدماي تتدحرجان ، والعرق يتصبب من وجهي ويقطعي عيني كالدموع والدماء من حولي تتسع وتبتعد ، وفي خلقي طعم جرح ينزف دماً شعرت أنني عاجز ، ضعيف ، صاع مني أنفسي وهو وحده الذي يعرف طريق عودتي ، قبل أن أفيق من مخاوفي رأيت لنفسي قادمًا يضحك ولكنه زعق غاضباً عندما اقترب مني ..

- ما ركبتهش ليه ..
- مالحقتهش ..
- مالك بلمت .. وأنا عمال اشاورك .. لحد ما التروماي مشي .. ده أنت خيبة قوى ..

أطراقت خجلاً ، وهو يسخر مني إلى أن قلت له في ضحك .

- إهنا رايعين فين ؟
- باب الخلق ..
- هو سعفران الهندى ساكن هنالك ؟
- أيوه ...
- واية اللي عرفك .
- أنا عارف ... بأهلونه يركب تروماي نمرة خمسة كل يوم ..
- وتعرف بيته منين
- نسال عنه .. فيها إيه ..
- عايز تضربه في بيته ..

كنت أتخيل ونحن الاثنان ونقتحم بيت سعفران الهندى ونضربه .. كنت أتخيل بيتنا ، وسعفران الهندى مكان أبى ، وأنتا بتنى قشعريرة ..

- ١٣٢ -

قال أنفسي في ضيق :

- كان زماننا وصلنا ..

قلت مستسلماً :

- فركب التروماي اللي بعده .

قال في تردد :

- أنت ما تعرفش تتشعبط .. ولا تعرف تنط .. أنا يا عم ما أدعش فلوس

في التروماي ..

ثم سالني في لهفة :

- معاك فلوس ..

- معايا نص قرنك ..

- هاته ..

قلت خائفاً وأنا أضع يدي في جيبى لأخرج القرشين :

- ورح نرجع البيت إزاي ..

أيقنت أن نقودى ضائعة ، وبعد أن أسلمها له لن أستطيع العودة إلى

بيتنا ..

قال وهو يمد لي يده في انتظار النقود :

- أنا ح أرجعك .. ما تطفش . بس هات النص قرنك .

خطف النقود ، وتفحصها كأنه يراها لأول مرة في حياته ، وضحك وقال لي

حرارة :

- أنت زى أخويا ..

قالها في تأثر شديد .. فصدقته ..

ثم أريد قاتلاً :

- إحنا ح تفضل صحاب على طول .. ح يلعب مع بعض .. وننفس مع

بعض ..

وقطع كلامه وبخل دكان بقالة وقال للدائع وهو يتناول نقودى

- ابيني سيجارتين قبيل ..

ونظر إلى باسما ، ولعله وجد وجهي مصفراً . إذ قال مشجعاً ..

- دول ثلاثة ملهم بس ..

لم أقل له إسي خائف من شرائه للسجائر ، وتركته يظن أن خوفه على النفود ، وأخذ السيجارتين ، وعد الباقي أكثر من مرة ، وأنا أتوقع أن يعيده إلى ، ولكنه وضعه في جيبه مع السيجارتين وقال :

- بلاش تضرب سحقان أفندي النهاردة .. تعال نتفصح ..

- فين ؟

- تعال ندروح نتفرج على القطارات .. همرك ما شفت قطار ...

هذا مشروع خطير ، القطار هو الذي يسافر فيه أبي عندما يعمل في بلد بعيد .. رأيت القطار مرة واحدة ، كنت أودع أبي إلى المحطة لأن صديقه عباس أفندي كان معنا ، وقال إنه مستعد لإعادتي إلى البيت .. كان مع أبي حقيبة كبيرة أهدتها أمي ، وفي المحطة كان أبي يجري وراء العمال الذي يحمل الحقبة ثم تذكر أنه يجب أن يقطع تذكرة السفر فصاح في عباس أفندي أن يجري وراء العمال ولا يتركه يغيب عن عينيه ، وجريت أنا وراء أبي ولكنه أمرني أن أذهب مع عباس أفندي ، وغضبت بيني وبين نفسي من أبي .. ولكني سامحته عندما دخلت القطار وركبت إلى جانبه ، وقطع أبي حديثه الطويل مع عباس أفندي وسألني :

- هيه .. تيجي معايا بمنهور . قلت مصدقاً :

- أيوه ..

فضحك ولم يقل شيئاً وواصل حديثه مع عباس أفندي ، بينما سرحت ونشوة حارة تملأني ، سأسافر إلى دمنهور مع أبي ، إنها البلد التي يعمل فيها ، سأعيش معه بعيداً عن أمي .. لقد كبرت أنا أيضاً .. دمنهور مليئة بالبيوت والمدارس ، القطار يمرح في شوارعها وتخبلت أنني كبرت ، وأني أعمل مع أبي ، لم أتخيل عملاً بالذات ولكني كنت أتصور أنني قفزت إلى المستقبل ، وكان رحلة القطار ستقطع سنوات عديدة من عمري ، وسأصل إلى دمنهور وأنا كبير .

إلى أن دق جرس القطار .. وإذا بابي يقول لي :

- يا لالا إنزل باه مع عمك أحسن القطار يقوم بيك ..

قلت له في همشة :

- هوه أنا موش جاي معاك يا بابا ..

ضحك وقال :

- لا .. أنت ح تقعد هنا مع ماما .. علشان تروح المدرسة ..

لم أصدق أنني لن أسافر معه .. ظننت أنه يمزح ..

قلت وأنا واثق إنه لن يرفض

- لا .. أنا جاي معاك ..

قال لي هدوء أعرفه .. هدوء يسبق الغضب :

- انزل باه يا يوسف .. وخليك عاقل ..

- لا .. موش نازل .. أنا جاي معاك ..

كان السفر بالنسبة لي أمراً مفروغاً منه ، ألم يمدني به ، ألم يسألني بنفسه لن أسافر معه .. لا بد أن أسافر إلى دمنهور .. لا بد أن أرى كل ما كنت أتخيله من لحظات ..

صاح

- انزل .. ما فيش وقت ..

وتدخل عباس أفندي ..

- ياللي يا حبيبي ..

قلت لأبي متوسلاً :

- أنت موش قلت آجي معاك مازلت واثقاً أنني مسافر معه ولكنه صاح غاضباً :

- يا وإد انزل .. القطار يمشي ..

إنن قلن أسافر ، لماذا يكذب علي ، لماذا يغير رأيه ، لماذا يتخلى عني ، لماذا يحرمني من كل ما تخيلته .. لقد صدقته .. لا بد أن أذهب معه ، لن أتزجر من مكاني .

ومد أبى يده ، وجذبني من مقعدي ، ضاع كل أمل في الصفر .. ضاع كل أمل في تصديقه ..

وبكيت

لطمنى على وجهي ..

- أما أنت حمار صحيح ..

أنت تكذب .. أنت تكذب .. لا تكذب يا أبى ..

- يا لى امشى انجر ..

تحركت فرعاً والدموع تغسل وجهي ، وعباس أفندي يجبرني إلى باب العربية ويحملني إلى الرصيف .. وقفت أبكى ، وأبى يطل من النافذة .

وصاح

- قـرب ..

تراجعت خائفاً ..

- يا ولد قـرب ..

ارتجفت فرعاً ..

- قرب منى ..

حملني عباس أفندي إلى النافذة فأخرج أبى منديله ومسح دموعي وهو يردد في صوت غلبه التأثر :

- أنا كنت فاكرك عاقل ..

اختلطت مشاعري .. انه يكذب إنه حزين ، إنه يحبني ، ولكنه لطمنى على

وجهي

- ما تخلفنيش أرعل منك . وأسافر وانت بتعيط ..

هذا كلام غير مفهوم . أنت السبب في كل هذا .. أنت الذي عرضت عليّ السفر .. لماذا تحرمني منه . أردت أن أكف عن البكاء ، ولكنني لم أستطع ..

ودق جرس القطار ، وانطلق صوت صفارته ، وتحرك القطار ، تحرك وأنا لست فيه ، القطار ذاهب إلى دمنهور .. إلى ذلك البلد البعيد الذي عمل فيه الكبار ، وانفجرت في البكاء ..

بكيت وأنا اسير إلى جانب عباس أفندي في الشارع ، بكيت وأنا أكف أمام دكان يشترى لي منه شيكولاته .. بكيت عند محطة الترام . بكيت وأنا أرى يد عباس أفندي تمزق ورق الشيكولاته ، وتدس قطعة منها في فمي . بكيت وطعم الشيكولاته الحلو يملا فمي . لم أكف عن البكاء حتى ركبنا الترام وجاء الكمساري ليقطع التذاكر ، وعباس أفندي يشير إليّ ويطلب نصف تذكرة لحظتها فكرت في إني صغير .. وبمنهور لا يذهب إليها الصغار أمثالي .. ولكنني عدت إلى البكاء وأنا أدخل باب بيتنا ..

ظننت أمي أنني أبكى لأنني أفضل البقاء مع أبى على البقاء معها ، لم تعلم لماذا بكيت ، لم يعلم أحد أنني بكيت لأن أبى كذب عليّ ، خدعني .. ولم يعلم أحد أنني بكيت لأنني لوركبتي للقطار وسافرت إلى دمنهور لأصبحث كبيراً .. ولقد ركبتي للقطار ، ولكنني هبطت منه قبل أن يتحرك .

هل سأستطيع ركوب القطار مع أنفس .. هل سيقفز أنفس إلى القطار كما قفز إلى سلم الترام . لو فعل فسأنتبه ، وسنسافر إلى دمنهور أو إلى المنيا ، أو إلى أي بلد من تلك البلاد التي كان يذهب إليها أبى ..

سرت مع أنفس وعبرنا شوارع وميادين ، والدنيا تزداد اتساعاً ، وتزداد ارتفاعاً ، وتزداد ضجة ، حتى خيل إليّ أنني ابتعدت عن بيتنا سنوات وسنوات ، وضعف تفكيري في قلقهم وانتظارهم لي ، وتراجع خوفهم منهم ، واشتد تعلقى بأنفس ، وتضخم إعجابي بتعبي وإرهاقي وآلام ساقي وقطع أنفاسي .. سرت اقتحم طريقاً بعد طريق ، ميداناً بعد ميدان .. عبرت الشوارع بلا خوف أو تردد ، متدفعاً إلى الأمام تاركاً وراءني يوسف الطفل ، كأنني أصبحت يوسف المعجوز .. حتى وصلنا إلى ميدان فسيح ، كل شيء فيه صغير بالنسبة لحجمه ، البيوت لعب ، والترام لعبة ، والسيارات لعب ، والغاس لعب .. ووسط الميدان تعال فلاحه وأبى الهول ، تحيط به حديقة واسعة .. ارتعينا على حشائش الحديقة ، وأخرج أنفس سبيجاً من جيبه .. لم يدعشني أنه سيدخن ، ولم يدعشني أنه سألني :

- معاك كبريت ..

فنهض ، وتركتني ، تبعته بعيني وهو يلتفت حوله ، وينظر إلى الأرض متفحصاً ، ثم يعترض طريق رجل ويسأله ، ثم يعبر الميدان ويتنهد ، فكرت في أن أقوم وأتبعه لولا خوف من السيجارة التي معه . وضايقتني أنني خائف من السيجارة . لماذا أنا خائف منها .. خائف من النار .. خائف من الدخان .. خائف لأنها للكبار . ذات يوم اشترى أبي علبة سجائر ليقدّمها لضيوفه ، وغضبت أمي ، قالت له : إنه يضيع نقوده في كلام فارغ ، يحرق نقوده بالنار كالمجانين ..

كانت أمي ترتدي فستاناً بالترتر الأسود ، كان الفستان يعجبني لأنني كنت أعبث بالترتر بأصبعي ، وأحاول إخراجها من مكانه وكلما نهزتي أمي ضحككت ولم أكف عن العبث بالترتر ، ما مناسبة ارتدائها ذلك الفستان . لا أذكر .. ليتني أستطيع أن أتذكر ..

أمي كانت واقفة عند باب الحجرة وأبي خارج من عند ضيوفه ، وشممت أمي فمها ثم قالت في نفور وبصوت كالهمس :
- أنت شربت سجائر يا عبد الحميد ..
- نفس واحد ورميتها .
- أهوذا بأحد .. ريحتك وحشة ..

ضايقتني أن رائحة أبي لا تعجب أمي ، ونظرت إليه في ضيق ، وابتعدت يدي عن الترت ، لم ينتبهها إلى أنني أسمعها ، وأفهم ما يقولان .. لم يشعر بما أفكر فيه ..

عاد أنفش وفي يده سيجارة مشتعلة ، وقال لي باهتمام :
- خذ نفس ..

قلت لي جزع :
.. ٧ ..

- خذ ما تخفش ..

كان يتكلم في هدوء خفيض :

ما أقدرش ..

- لازم تأخذ نفس ..

- بلاش ..

- عسرك ما دخلت سجائر ..

- لا ..

- لازم تدخن ..

- موش عايز ..

- اشمعني أنا ..

- قلت متوجعلاً

- بلاش .. موش عايز ..

- خايف من إيه ..

كان يتكلم في غيظ :

- لا بلاش ..

فمد يده بالسيجارة بعد يأسه من الكلام ، ودسها في فمي .. اجسست بها ثقيلة هنيئة الرائحة ونفخت الهواء من فمي ..

قال أنفش بصوت جاد :

- اشفط الهواء ما تنفخوش ..

- إزاي ..

- خذ نفسك ..

سحبت الهواء إلى فمي فاندفع إليه دخان أربعيني ، فأبعدت السيجارة ، لم يصخر أنفش مني ، وتفت الدخان بوجه جامد وهو يرقبني صامتاً ، وكأنه يقوم بعمل خطير .. لاحظت أن الغروب ينتشر في السماء ، والسيارات تضيء مصابيحها ، والهواء يبرد ، والليل يطبق علينا كعدو لا يرحم ، فانتفضت واقفاً وقلت في جزع :

- ياللا بينا نروح ..

ويكفي ..
بكيت وأنا أسمع على الرصيف .. ويكيت وأنا أحاول عبور الشارع .. حتى
رايت رجلاً كبيراً مقبلاً تحوى .. فجريت هارباً منه ..
وعدت بالكى إلى النفس ..
قال سلخراً :
بتعيطليه يا شاطر ..
والنبي تروحني ..
يقولك أنا مسافر ..
بلاش تسافر النهاردة .. علشان خاطري ..
ضحك وقال في شماته :
موش عايزني أسافر ..
أيوه ..
عايزني أروحك ..
والنبي ..
بوس إيدي وأنا أروحك ..
وجعت .. مستحيل أن أفعل هذا ..
فل ينتظر أن انحنى وأقبل يده .. ثم أصابه الملل فقال في إلحاح :
بوس ايدي ..
لزمت الصمت ..
فقال .. ومد يده إلى فمي .. وقال وعيناه تلمعان بفرح شرس ..
بوس ايدي .. وأنا أروحك ..
واردف يقول مكرراً :
بأقولك بوس إيدي .. بوس إيدي .. بأقولك بوس إيدي ..
كان يريد طلبه .. في عناد وإصرار .. وارتفع صوته ، وازداد حدة وعنفاً ..
يا واد بوس إيدي .. بوس .. بوس .. لازم تبوس إيدي .. طيب والله
العظيم .. والله العظيم ثلاثة .

- موش ح نتفرج على القطار ..
لا .. أنا عايز أروح ..
وأوشكت على البكاء ..
ما أغرب هذه المحطة .. دائماً لا أصل إلى القطار .. لا أسافر .. دائماً
هناك شيء يدرس في فمي .. منذ سنوات كان هذا الشيء حلوا .. قطعة
شيكولاته .. اليوم دهان يوسع الحلق ..
دائماً أبكي ..
قال أنفش ..
أروح إزاي .. إحنا بعيد قوى ..
كانت كلماته حاسمة في إثارة كل مخاوفي .. ليس هنا مكاني .. أنفش ليس
صديقي .. لقد تورطت معه .. لا أريد أن أغادر الطريق المرسوم لي .. البيت
المدرسة .. المدرسة البيت .. مكاني خلف النافذة .. حيث ألقب وأتفرج ..
أنا مالى .. عايز أروح ..
قال في هدوء :
روح أنت .. أنا رايح المحطة ..
ح تعمل إيه هناك ؟
ح أركب القطار ..
ح تروح فيه ؟
ح أسافر ..
صديقتي .. وحسنته لأنه مسافر ، أما أنا فكننت قد تخانلت ، الذعر لم يتو
لي سوى الرغبة في العودة إلى البيت ..
القيت عليه نظرة يائسة ، ومشيت خطوتين في طريق عودتي ، ولكن ..
طريق العودة .. إلى أين أنته ، الميدان واسع واسع .. والشوارع مفتوحة
مزدقة في كل ناحية .. كلها تزدى إلى مجهول .. لا بد أن أسأل الناس ، ولكن
أخجل من سؤال الناس ، أخاف الاحتكاك بهم ، لا أجسر على مخاطبة أحدهم
منهم .. وهذا الظلام .

فكرت في تقبيل يده .. ولكنى لم اتو على أن أقبل .. وهمسكت .

- لا .. موش ح أبوس إيدك

- طيب لا تكلمنى .. ولا اكلمك

أقبل يده .. لن تعرف أمى ، إنها لن ترانى .. ها هى يده .. ظهر كفه الاسمر المكدوش لسة سريعة بشفتى ويستوى الأمر .. ولكن عينيه تلعبان بهذا الفرح الشرس لا . مستحيل .. حتى لو لم أذهب إلى البيت ، حتى لو مت . لا أريد منه شيئاً ، هذه هى نهاية صداقتى به . ليكن عدوا لي ، فليضربنى ، فليشتمنى .. لن أقبل يده .. كانت أمى تخرج أحياناً لتزور المست الكبيرة أم راتب بك . حاجة .. وجهها .. مضى كالبلور ، سيدة صالحة لا تغارق سجادة الصلاة ، كلما زارتها أمى طلبت منها الدعوات ، لم تكن أمى تهدثنى عنها ، ولكنها كانت تفيض في وصف زيارتها للمست الكبيرة مع أبى ، وكان يسمعها باهتمام ، وكنت أنصت لهما ، وكأننى أسمع حكاية عجيبة .. وأتخيل وجهها كالثلج ، وأخاف ، بعد أحدى الزيارات قالت أمى لأبى إنها رأت أولاد راتب بك .. مدحت وسعاد شقيقته ، سعدا وهى تجلس مع المست الكبيرة ، وقبلأ يدها .. مؤدبان ، تربية صالحة .. وتنهدت أمى قليلة .

- أمو يوسف لما يكبر .. أنا نفسى أجوزه سعد ..

صمكت أبى ساخراً وقال :

- وهم يرفضوا ..

احمر وجهى ، كنت جالساً على الأرض ، كاتنى لا أسمع ولا أفهم ، وتخيلت سعد ، فتاة كبيرة ، كمروسة كبيرة ، شعرها ذهبى ، فستانها أبيض ، لا تتكلم ولا تتسم ، خداهما متوردان ، وأنا واقف بالقرب منها ، لا أجسر على مخاطبتها ، وحسرة تاكلنى ..

قلت لنفسي ، لماذا لا أتزوجها ، سأتزوجها ، إنها لن ترفض مادامت أمى تريد ، أبى هو الذي يرفض ، إنه لا يريدنى أن أتزوج ..

وشغلت طوال اليوم بالتفكير في سعد ، أراها كالعروسة اللعبة ، وهى تصعد إلى الست الكبيرة وتقبل يدها ، وأريد كلمات أمى عن أبيها ، وخيل إلى

أن أمى لم تفكر في زواجي بها إلا لأنها رأتها تقبل يد الست الكبيرة . وخطر لي
لنى لم أقبل يد أمى ..

لم أقبل هذا أبداً ، وهى لم تطلب منى أن أقبل يدها الآن ، شعرت بالخجل ، ولكنى قاومته ، وفي الصباح رايت أمى خارجة من باب حجرتها ، فاندفعت إليها بغير تفكير .. وهجمت على يدها ، فسحبته مذعورة ، فتشبثت بيدها وقيللتا .. لم تكذ شفتاى تلمسان ظهر يد ما حتى انتزعتها صانحة :
- بتعمل كده ليه ؟

انفقد لسانى ، ورأيت وهجا أحمر في عيني ..

وسمعتها تقول غاضبة

- أنت راجل .. ما تبوسى إيد حد ..

ثم ضحكت ، وربتت على كتفى ، وجريت لانزوى بعيداً ، حائراً في تفسير كلامها عن أدب سعد ومدحت بالأمس ، وتعنيفها لي اليوم .. رغم ذلك استرحمت لأنى لست مضطراً إلى تقبيل يدها .. إنى أخجل من تقبيل يدها .. وكما تذكرت رأسى وهو ينحنى ، ويدي وهى تهذب يدها ، وشفتاى لبعثان عن ظهر كلها .. انتابتنى رجفة وخيق .. وندم .

قلت لأنفسي بصوت غاضب :

- أنا موش عايز لأروح البيت .. مالكش دعوة بيه ..

وتركتك مبتعداً ، وقد صممت هذه المرة ألا أعود إليه .. مشيت دون أن التفت ورأى ، حتى سمعت وقع أقدامه تسرع الخطى خلفى ..

وقال بصوت معذر :

- انت زعلت ..

صممت :

- ياقولك مالكش دعوة بيه ..

- طيب ما تزعلش .. أنا ح أروحك ..

شعرت أنى انتصرت عليه ..

وقال طوال الطريق يؤكد في أنه صديقي ، وأنه لا يريد أن يلعب مع أحد

غيري ، وكنت أستمع له صامتاً ، وهو يظن أنني موافق على ما يقول ، بينما كنت قد قررت أن ابتعد عن أنفسى ، وأقطع كل صلة بيئنا ..
عدت في الليل ، أفكر في استقبالي ، كأنه للعقاب الذي لا يدمنه .. لا مفر من أن يضربنى أمى .

●●

عندما سمعت المهمة في أعلى السلم ، انخلع قلبي ، وابتعدت عنى المقصود بهذه الأصوات . استطعت أن أميز صوت أبى ، متفعلاً متهدجاً ، جعلنى أكمش ، وابتباطاً في صعودى . ولكن ما هذا الآخر . صوت رفيع حاد ، إنى أعرف صاحب هذا الصوت .. الدكتور برعى ..

هل ظن أبى أنى أصبت في حادث ، فنادى الدكتور برعى ، لقد انزعج أكثر مما كنت أتوقع ، وسيتحول إلى غضب عنيف جامع .. سينتقم منى جزاء كل لحظة تلقى سببها له .. أكاد أحس اللطمات على خدى ، الكلمات في صدرى . أكاد أسمع صراخه .. ربما أنقذنى الدكتور برعى ، إنه طيب ، وجهه ضاحك ، وهو يحبنى وأنا أحبه ، لا شك أنه سيمنع أبى من ضربى ، ولن يتركنا حتى تهدأ ثائرة أبى .. فلأسرع بالصعود ..

كانا مازالا يتحدثان دون أن يلتفتا إلى وجه أبى متهم ملامحه غريبة ، وجه أزرق ، والدكتور برعى لا يضحك ، منكس الرأس ، وجهه شاحب أصفر كأنه يعتذر عن شيء ..

كل هذا لأنى تأخرت .. لماذا لا يلتفتان إلى ..

كنت أقف على بعد خطوة واحدة منهما ، دون أن يشعر أبى ، أبى يصدق أنى ذاهلاً ولا يرانى ، والدكتور برعى لا يريد أن يعترف بحضورى .. صمتا .. وجما ..

ما الذى حدث ..

كدت أفتح فمى وأقول شيئاً ينبههما إلى عودتى ، ولكنى عدلت .. خفت ..

- ١٤٤ -

كلمة واحدة تبتدر منى ستفجر صمت أبى إلى عاصفة تقتلعنى .. صمتها يفرغنى ..

خطوت إلى داخل البيت .. وكأنى أسمع صوت نشيج .. فاطمة تبكى .. وفجأة طعننى صوت أبى ثقيلًا يانسأ ..
- رايح قين يا يوسف ..

إنه لا يسألنى من أين جئت .. يسألنى إلى أين ذاهب .. ما هذا الكبوس الغريب ..

وقفت ، واستدرت إليه ، وكأنه اكتفى بوقوفى ، فعاد إلى صمته وذهوله ، بحثت في وجه الدكتور برعى عن بارقة أمل تساعدنى على فهم ما يحدث .. رفع عينيه خلسة وخفضهما بسرعة ، وقد ازداد وجهه شحوباً واصفراراً ..
أمى .. أين أمى ..

تحولت عنهما متجهاً إلى غرفتها وكأنى أتجه إلى مكان مستحيل الوصول إليه ، فطعننى صوت أبى مرة ثانية ، متهاكاً ، مرتعشاً ..
- تعال هنا يا ابنى ..

يا ابنى . ينادينى ابنى .. إذن فهو ليس غاضباً منى ، غير قلق لغيابى ، بل إنه لا يدري أنى غبت ..
أمى . أين أمى ..

جمعت كل مخاوفى ، وكل شجاعتى ، وسألت ..
- حصل إيه يا بابا ..

كان السؤال الحقيقى في قلبى .. ما الذى حدث لأمى يا أبى قتل وهو يرفع صوته في قوة وجهه ، ويهرده في حركة عصبية :
- ملما تحيانه ..

وقطع كلامه .. اختنقت أنفاسه .. وبكى .. ارتفعت يده التى تهتز في حركة عصبية وغطت عينيه واهتز رأسه ، واهتز صدره .. إنه يبكى ،
أمكن هذا يا دكتور برعى ، إنى أستعجد بك ، قل شيئاً ، أفل شيئاً ، ولكن ظل منكس الرأس ، كان بكاء أبى شيء عادى وطبيعى

أمى ليست مريضة .. لقد ماتت .. ماتت .. أنا واثق أنها ماتت .. يكاء أبى يقول إنها ماتت .. نشيج فاطمة يقول إنها ماتت .. وأمس الدكتور برعى المنكر يقول إنها ماتت .. هذا اليوم الغريب المجنون الذى قضيت مع أنفنى يقول لى إنها ماتت .. ماتت .. ماتت ..

كان الصراخ يمزق الليل ، والوجوه الغريبة تلتحم البيت ، والأبواب تفتح وتغلق نساء تدق الصدور ، ورجال يتمتمون بكلمات وأقدام تصعد متعاقلة ، وأقدام تهبط مسرعة ، وأنا واقف عند باب البيت لا أستطيع الدخول ، لا أنهم ولا أمى ..

جارنا الذى يسكن تحتنا ، الشيخ محمود سليمة ، سعد وتحدث مع أبى بصوت مرتفع ، وكتبنا معا أسماء كثيرة فى ورقة لينشر للنمى فى جريدة الاهرام ، كنت اسمعها ولا أراها ، حتى خرج الشيخ قرأنى ، وصمم على أن يهبط بى إلى الشقة ..

رقدت على حصيرة مع خمسة من أولاده الصبيان ، لم أتم طوال الليل ، كنت أستمع إلى الصراخ ، وإلى مار يقرض شيئاً فى ركن الحجرة ، ولما أوغل الليل ، سمعت طرقات فى الشارع ، وصوت أخشاب تتساقط ، وصياح هائل ، وضوء غير عادى قادم من الشارع إلى الغرفة .. كانوا نياما ، فقامت متسللا ونظرت من النافذة .. رأيتهم يقيمون السرداق ..

هذا كذب ، غير صحيح .. أمى شهض ، سيمود الدمتر برعى ضاحكا ويدخل عليها ويشفيها . انهضى يا أمى . سأعوض عينى وأعد إلى رقم عشرة . وسأقول .. يارب . وسأفتح عيسى فأراك أمامى .. كل هذا كذب . الأخشاب التى ترتفع ستسقط ، والوجوه الغريبة ستذهب ، والصراخ سيكف .. وسأصعد إليك .. لا أدري كيف تمت ..

فى الصباح كان معى أولاد الشيخ سليمة الثمانية ، الأولاد والبنات ، وقد تطلقوا بنافذة الحجرة يطلون على السرداق ، يتضاربون ليأخذ كل واحد منهم مكانا يتفرج منه .. والصغار ييكون ، لا ييكون حزنا على أمى ، ييكون لأن اخواتهم الكبار يتمتعونهم من الرؤية ، وأنا منزو فوق وسادة على الحصير أسمع كل كلمة يقولونها .. وصلت عربة سوداء كبيرة وهبط منها رجل . الحرية لها سائق يرتدى معطفا أبيض .. الشيخ سليمة أبوهم يدخل السرداق .. عبد الحميد أفندى .. أبى .. يصافح عم برعى بائع الطرشى .. الحاج موسى الجزار يدخل السرداق .. حسنين أفندى مدرس الألعاب .. من هذا الرجل السمين .. كرشه ضخم .. عامل الكلوبات ينفخ الكلوب ..

كانوا لا ييكون عن التعليق ، وأحيانا يضحكون ، ثم يتذكرون أنى معهم فى الحجرة ، فينتابهم وجوم مفاجىء ، ويختلسون إلى النظرات .. ثم ينسوننى ويستأنفون تطبيقاتهم وضحكاتهم .. لا يعنبنى ما يحدث ، لست معكم ، فى رأسى صورة ثابتة لأمى وهى راكدة على فراشها .. ممددة بلا حراك ، متصلة الأطراف ، مغمضة الجفنين ، على شفتيها طيف ابتسامة .. لو تنهض .. نجاة .. وينفض هذا الجمع السخيف .. لو تنهض ..

كان صوت الصرخات لا ينقطع ، ودبيب الأقدام فوق رص سنا يهز البيت ، وصوت كالفناء الحزين لا أكاد أثبينه يطرق أذننى .. أو يخيل إلى أنى أسمع .. بين وقت وآخر أسأل نفسى .. لماذا لا أبكى ..

وفجأة .. اشتد للصراخ ، واشتد دبیب الأقدام ، واهتز البيت اهتزا عنيفة ، واهتز قلبى ، واشتدت رغبتى فى البكاء ، ولكنه استعصى على ، وزاد تعلق الأولاد بالنافذة .. وبكى الأطفال الصغار ، فرفعهم الكبار ليروا ما يريدون رؤيته .. وصاح أحدهم :

.. انفض له ..

وصاح آخر ..

.. الجزار بيدى العجل ..

أمى خارجة من البيت ، إلى أين أنت ذاهبه يا أمى .. السماء تستعد

وأمر الشيخ ابنه محمود أن يحمل للصحن ويأكل البيض ..
وطلب منى الشيخ سليمة أن أهبط إلى السرداق ، فلما لاحظ ترددي ، قال
في لهجة أمرة لا تخلو من الغضب :

- أبوك عليك .. لازم تنزل له ثم لردف مستنكراً :
- أنت ح تقعد في البيت ليه .. هو أنت بنت .. والا فافكر نفسك لسه صغير ..
أنت ح تاخذ الابتدائية السنة الجاية .. أنت من الفهارة بقيت راجل كبير .
لازم تعتمد على نفسك .. ولا تتعش أبوك .. اللي زيك ياخذ باله من أبوه
ويساعده .. قوم أليس هدومك .

هبطت إلى السرداق ، فوجدت أبى يجلس عند مدخل السرداق ، ومد يده
وأمسك بكتفى ، وأجاسنى بجواره ، كانت عيناه مغمضتين ووجهه محتقناً ،
وقال بأساً وهو يحدق في بعينين باكيتين :

- احنا فضلنا لوحدا .. عملتها فينا وسابقتنا ..
شعرت أنه من الضروري أن أبكى ولكنى لم أستطع .. ومسح بيده على
شعري وقال :

- بكرة أنت كمان تكبر وتتجوز وتسبيني ..
تذكرت سعاد ، وخطرت لي أنه كان على حق في رفض زواجي ، لن أتركه
يا أبى .. لن أتزوج أبداً .. لن أفعل شيئاً سوى انتظار عودة أمى .. ستهود
حننا إليك .. وستعود إلى .. أنا لا أصدق كل هذا يا أبى .

وكان يتركنى ليلجى نداء أحد الرجال ، يقدم الرجل له ورقة ، ويتهامسا ،
ويمسك أبى بالورقة يراجعها ويلتفت حوله ، ثم يعود ويراجعها وأخيراً ،
يضع يده في جيبه ويخرج بعض النقود ويعطيها للرجل .. ويعود ليرتس
متهاكاً على المقعد بجانبى ، ويردد مخاطباً نفسه :

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله ..
ثم قال والبكاء يعاوده :

لاستقبالك ، سيهبطون بك إلى القبر ، وستصعد روحك إلى السماء .. كيف
تصعد الروح ، أترقتين سلماً لا مراه ، لتطيرين في الهواء .. ستلبسين
ملابس بيضاء وستقفن أمام باب حديقة واسعة .. يحرس الباب رجل عجوز
له ذقن بيضاء مدببة ، وسيفتح لك باب الحديقة ، ويتخلل .. وتعيشين
هناك ، بين الأشجار ، تشربين اللبن ، وتفكرين في ..
تري هل تفكرين ١٩

سمعت صوت بهجت أكبر الأولاد ، وكان أكبر منى ، فهو تلميذ في
الثانوى ..

- موش ح ثيجي تشوف ..
لم أقل شيئاً ..

فالتفتوا إلى جميعا ، كأنى جزء من المشهد المثير ، يجب ألا تفوتهم رؤيته
وتقدم بهجت وجذبتى من زراعى ..

- تعال بص .. دى جنازة أمك نهضت ، فافسحوا لي مكاناً .. السرداق يلفح
أفواج الناس .. النعش يهتز فوق أكتاف المشايخ .. أبى يبكى .. رجل إلى
جواره يجفف عرقه بمنديل .. رجل آخر يمسك عصا يتوكأ عليها .. النعش
يتحرك في ببطء .. يتمايل .. الصراخ يعلو ويعلو .. بعض العيون تنطلق إلينا ..
بكت بنات الشيخ سليمة .. وفجأة بكى بهجت ، فشعرت بعرج وضيق ..
ونظرت إلى بهجت بعينين تفصلهما الدموع وسألنى :

- موش بتعيط ليه ..

ماذا أقول له .. لن أكثرث .. لا أستطيع البكاء .. لا أفهم شيئاً مما يحدث
أمامى .. أرفض كل هذا الجنون ..

بعد المغرب ، صعد الشيخ سليمة ، ووضعوا أمامى صحناً فيه بيضتان
مقلبتان وتكاثروا حولي وقد صمموا على أن أكل .. كنت جوعان أتمنى لو
يتركوننى لألتهم البيض .. ولكنهم لا يتركوننى . وبس للشيخ سليمة
أصابعه بلقعة خبز في البيض وصمم بصوته الجهوري على أن يدسها في فمى .

٢٠ ماما سابتنى يا ابنى .. انا عايزك تعتمد على نفسك وتبقى راجل .. وتذاكر دروسك كويس .. مين عارف .. يمكن أحصلها ولم استطع البكاء ..

كان الشيخ يقرأ القرآن ، والناس تنصت إليه ، عندما طوى صوت بوق سيارة تخترق الشوارع في بطة إنها نفس السيارة السوداء الكبيرة التي كان أولاد الشيخ سليمة يتحدثون عنها ، وهم يتلرججون على الجنازة .. استدارت كل العروس ناحيه السيارة ، وهبط السائق ذو المعطف الأبيض ، بينما انقضض أبى واقفاً ، وجذبتى من يدي هلمسا ..

٢١ تعال سلم على راتبك .. نظرت إلى السيارة ، وكأني انظر إلى خيال ، إلى شيء خرافي أسمع منه في الحكايات ، ها هو راتبك الذي يعيش مع الست الكبيرة التي كانت تزورها أمى .. أبو سعاد .. العروسة اللعبة .. التي أرادت أمى أن أتزوجها ..

للمحظة توهمت أن هذا الرجل قادم ليعيد أمى ، وأنه قادر على أن يفعل ذلك ، كان وجهه مربعا مستقيحا وعيناه ضيقتان وفي رأسه صلع خفيف مستدير لاحظته وأنا أمشي ورائه ، حتى بلغنا نهاية السرداق من الداخل ، فجلس وإلى جانبه أبى وجلست إلى جانب أبى .. وجاء الخادم ليقدم له القهوة والسجائر فرفضهما ، ولكنه بعد برهة أخرج علبة سجائر ودخن سيجارة لها طرف ذهبي .. إنه يعرف كيف يدخن .. مثل انفسى لو رأى انفسى هذه السيجارة لفرح بها ..

أمى .. هل كنت قلقة على وأنا غائب .. هل قلقك هو الذى جعلك تنهين .. أريد أن أعرف .. ما الذى حدث .. أهذا هو العقاب .. هل أنا السبب يا أمى ..

٢٢ اتسمعت أنثاى وأنا أسمع راتبك يهمس لأبى ..

٢٣ حاجة غريبة .. والله ماكنت مصدق ..

٢٤ قسمت .. ح نعمل إية يا سعادة ألبه .. ربنا عايزكده ..

٢٥ أنا لسه كنت مع الدكتور فهمى باشا .. قاللى إن الذبحة في السن دي تادره قوى .. لازم كان فيه ضغط وأنتم موش عارفين ..

- ١٥٠ -

همس أبى :

٢٦ ح نعرف قين يس .. عمرها ما شكت من حاجة .. كانت ساعات .. الله يرحمها .. تقول جنبى بيوجعنى .. ايديه مملة .. لكن ماكتش يخطر على بالنا ..

وقطع أبى الكلام .

٢٧ اكمل يا أبى أريد أن أسمع .. أريد أن أعرف .. كيف ماتت .. ما الذى حدث بالضبط .. إنى لا أستطيع أن أسالك .. قل .. تكلم .. وتكلم أبى ..

٢٨ أنا رجعت البيت .. لقيتها في المطبخ .. كانت لماكرانى يوسف زعقت .. أنت اتأخرت ليه .. قلت لها : ماتاخرتش .. طلعت من المطبخ شافتنى .. ضحكت .. وقالت : أنا افكرتك يوسف .. قلت لها هو لسه ماجاش .. قالت لازم فيه حاجة في المدرسة أخرته .. ماكانتش قلقانة .. كانت بتضحك .. رجعت المطبخ .. بعد شوية سمعت البت الخدامة بتصرخ ويقول الحق ياسيدي .. لقيتها مركونة على الترابيزة .. ونفسها مكرووش .. وديناها الأرضة .. ونزلت أجيب الدكتور برعى .. جه في عشر دقائق .. إنما .. وتنهى أبى ..

٢٩ كان كل شيء انتهى .. لا حزن .. ولا تدايك .. ولا تنفس صناعى .. أجل ..

٣٠ لم تقلقى لفيابى يا أمى .. هل أصدفه .. أم أخفيت قلقك عن أبى .. ضحكت لقدافى عنى .. حتى لا يضربنى .. أمى .. أريد أن أعرف الحقيقة .. أه لو يعلم أبى أين كنت .. لو يعلم أنى دخنت سيجارة .. ذهبت مع أنفسى لأضرب سعفان أفندي .. كنت أريد أن أركب القطار المسافر إلى دمنهور .. أمى كانت تعلم كل هذا .. وغضبت .. وسافرت .. تركت البيت غاضبة .. أريد أن أموت .. في المرة القادمة ، عندما أذهب إلى المحطة .. سأركب القطار المسافر إلى أمى .. لا أريد شيئاً غير أمى .

انطلق راتبك في كلام لا ينتهى عن الطب والأطباء .. وأنا أرقده في اهتمام

باحثاً عن شيء يعلمه ، ويستطيع أن يعيد أمي إلى الحياة .. حتى ضيطني وأنا
أحرق في وجهه . فقال أمي .

- موش ده ابنك

- أيوه .

- في سنة إيه ..

قال لي أمي :

- جابوب سعادة البية ..

هاهو البكاء يهجم على عيني ، ولكني أقاومه ، لن أبكي أمام هذا الرجل .

قلت بصوت باك :

- سنة ثالثة

قال محدثاً أبي :

- زى مدحت .. بس أوعى تكون خيبة زيه ..

- قال أبي مدافعاً عني :

- لا .. الحمد لله .. يوسف شاطر .. ومؤدب .

شاطر .. مؤدب .. كان يدخن سيجارة مع أنفسي .. وأمه تموت .. أنت

لا تعرف شيئاً يا أبي .. ولكني لن أعود إلى أنفسي .. هذه هي نهاية صلتني بكل

الناس .. بالشوارع .. بتلك الدنيا التي تهت فيها .. من يدري لو خرجت مرة

أخرى ، ماذا سيحدث عندما أعود ..

الطريق إلى قبر أمي يصعد فوق تل من تراب ، على يمينه اصطبلات

خيول ، لا أذكر من قال إن الموتى الراقدين في تلال زينهم لا تتعفن

أجسادهم .. وإنهم أول من يسمعون النفر يوم القيامة فيستيقظون قبل

غيرهم من الموتى .. ربما سمعت هذا من محمود نقلاً عن أبيه الشيخ سليمة ..

باب خشبي في سور من الطوب الأسمر ، يفضي إلى حوش صغير في أحد

جوانبه شاهد من الحجارة البيضاء .. بالقرب منه شجرة صيلار .. هنا ..

تحت هذا الشاهد الحجري تنام أمي ..

المقريء الأعمى يثلو القرآن ، ورجل يرش الأرض بالماء ، وأنا يقف

سمتما بالمفاتحة .. ثم يتقدم من القير وينحني عليه ويجهش بالبكاء ..

أحاول أن أبكي قليلاً أستطيع .. أهو عقاب آخر نزل بي . إنني لا أستطيع

البكاء .. أمك ماتت يا يوسف .. ماتت .. اتفهم هذا .. أبك حتى تحمر

عينك .. حتى تصاب بالأعمى مثل هذا المقريء .. أبك حتى تموت .

ولكني لا أبكي ..

عصر يوم وأنا عائد من المدرسة بعد أسبوع من وفاتها . تذكرت ما روثه

أمي عن ولادتي .. عندما ظنوا أنني ميت لأنني لا أبكي ، ضربوني واضطروني

إلى البكاء لأعيش .. قلت لنفسى .. أنا أرفض البكاء حتى أموت ..

واسترحمت ..

ولوبكيت على أمي فلن أموت ..

الفصل الثانى

بيت ليس مثل بيتنا ، حوله حديقة واسعة ، يجلس على بابيه بواب ، ويستقبلنا خادم ، ونصعد سلما من الرخام الأبيض ، ندخل إلى صالة واسعة وحجرات مفتوحة لاستقبال الضيوف ، حجرات صامتة ممتعة فخمة نظيفة ، إن من يسكن هذا البيت لا يطبق مجرد النظر إلى بيتنا .. هذا البيت أحسن من بيتنا بكثير ، لا وجه للمقارنة ..

هذا هو ما اكتشفته وأنا أدخل بيت راتب بك لأول مرة في حياتى .

اكتشاف همزى وأربكنى ..

قبل زيارتى لبيت راتب بك ، كنت قد شاهدت مئات القصور والبيوت الفخمة ، شاهدتها من خارج الأسوار طبعاً ، ورايت أناساً يركبون السيارات الخاصة ، حتى راتب بك نفسه كنت قد شاهدته يوم جنازة أمى مقبلاً فى سيارته السوداء ، فأنا أعلم أنه صاحب سيارة ، وأعلم أن أبى يركب الترام . كما شاهدت الدوابين والخدم الرجال من قبل ، وأعلم أن ليس فى بيتنا بواب ولا خادم ، بل خادمة فاطمة الحافية التى كانت تأمرها أمى أن تغسل رأسها بالجاز وتمشط شعرها بالعلاية لتتخلص من القمل والسبان ..

أعلم كل هذا ، ومع ذلك لم أشعر أبداً أننا أقل من بقية الناس ، وأن الأغنياء وحدهم هم الذين يملكون السيارات الخاصة وعندهم الخدم الرجال ، وأن الفقراء يركبون الترام ويستعينون بالخدمات الحافيات ، لم



أدرك أن هناك أغنياء وفقراء ، لم أكن أدرك أننا فقراء .. حتى دخلت بيت راتب بك ، منذ اللحظة الأولى ، دهمتي شعور بالحسرة والدمعة ، صدقت فجأة أن في الدنيا أغنياء يعيشون حياة غير حياتنا ، واكتشفت أنه شبه مستحيل أن يأتي يوم فنعيش في مثل هذا البيت ، ليس في استطاعتنا أن يكون لنا بيت في هذه الفخامة ، نحن أقل من هذا ، فقراء ، ليس هذا غريباً .. أنا الذي كنت أتباهى بيني وبين نفسي بأنني أبن مدرس ، وزملائي في المدرسة يحسدوني ، وبعضهم لا يصدق أن أبي مدرس .. فحينتابني شعور بالراحة والثقة ، انفض خاله مفتش ترام ، بهجت أبوه للشيخ سليم الذي ينال على حصير مفروش على الأرض ، أنا أحسن من هؤلاء جميعاً ، لا أخرج مثلهم حافياً وأجرى وراء عربات الرش ، لا ألعب معهم الكرة الشراب ، لا أتقوه مثلهم بالشتائم في بيت راتب بك ، إن رأسي يدور .. والرهبة تملأني ، هنا عالم جديد باهر ، لا صلة لنا به ، هنا نحن فقراء لا حول لنا ولا قوة ..

كنت جالساً مع أبي في البهو الداخلي ، وقد ران علينا صمت يزهد انفاسي ، أبي يسعل بين وقت وآخر ، ولا يقول شيئاً ، كأنه خائف مثلي ، يطرقه مع كل صوت يأتي من بعيد ، وأنا أتسائل لماذا لا يقابلنا أحد ، أين راتب بك ، أين مدحت ..

هل من المحتمل أن أرى سعاد ..

إن خيالي كان قابضاً عن أن يتصور مثل هذا المكان ، السنائر مسدلة على النوافذ ، ليس في بيتنا سنائر ، هذه الصور المعلقة على الجدران ، ليس في بيتنا صور ، هذه المقاعد ، كلها تلعب ، ليس فيها أثر خدش ، مقاعدنا محطمة الأرجل . أسلاكها بارزة .. قعاشها ممزق .. شيء مخجل ، ترى كيف ينظر إلينا راتب بك ، ألا يشعر بأنه أحسن منا ، في قمى مرارة .

وجاء الخادم يقدم لنا عصير الليمون ، همس صوت عنيد في رأسي ، أرفض هذا الليمون ، لا تشربه ، ولكنني لم أجسر على قول شيء ، ومدحت يدي إلى الكوب .. وضايقتني أن أبي تجاذب الحديث طويلاً مع الخادم ، كأننا جئنا خصيصاً للحديث معه ، كانت ضحكات أبي تثيرني ، وتدفعني إلى الخجل

منه ، ومن نفسي ، وأخيراً سأله أبي :

- البية ح يتأخر يا إسماعيل .

- والله لسه تايم يا عبد الحميد أفندي ..

قال أبي في استسلام :

- سعادة البية قال أجي الساعة خامسة .. وأنا جيت الساعة خامسة بالدفقة ..

قال الخادم ضاحكاً في وقاحة كأنه صديق أبي :

- يعني ما انتاش عارف يا عبد الحميد أفندي ..

قال أبي وهو يبتسم :

- طبعاً ياسيدي .. لسه عُبال ما يصحى ويدخل الحمام .. قدمنا ساعة بالقليل ..

راتب بك .. عبد الحميد أفندي .

بك .. أفندي .. ما الذي جعل راتب بك أحد البكوات ، وجعل أبي أحد

الأفندية ، لماذا لا ينادون أبي بلقب بك ..

وفزعت لخطر خطري ، أمي كانت تجيء إلى هنا ، كيف كانوا يستقبلونها ، كيف كانت تتحدث إليهم ، هل كان يضحك معها هذا الخادم متلماً بفعل مع أبي ، إن كل ما بيننا وبين هذا البيت مذلة ..

وابتسم أبي وقال وهو يفرك يديه :

- طيب قول للسبت يا إسماعيل .. إن أنا جيت ..

وأريد قاتلاً في لهفة غير عادية :

- سلم عليها .. وقول لها عبد الحميد أفندي جه في الميعاد علشان الدرس

يتاع البية الصغير

البك الصغير .. يعني مدحت .. وما لقبى أنا .. الأفندي الصغير ، كيف

يرضى أبي بكل هذا ، لعله لا يفكر في مقارنة نفسه بهم ..

ذهب الخادم ، وعاد بعد قليل وطلب من أبي أن يتبعه ، فصعدنا وراءه مسلماً خشبياً داخل البيت ، كان وقع أقدامي يثير الرعب في قلبي كأنه يفصح

وجودى ، ويحولنى إلى مجرم يعتدى على الصمت الجاثم على المكان ، صعدنا طابقاً ، وطابقاً آخر حتى بلغنا السطوح ، وانتهينا إلى حجرة صغيرة فيها مكتب قديم ، ودولاب ، ومقاعد خيزران ، استرحت لنظر الحجرة ، هذه المقاعد عندنا أحسن منها في بيتنا ، والدولاب الذى فى حجرة نوم أبى أفضل من هذا الدولاب .
وقال الخادم :

- مدحت بيه جاى دلوقت ..

قال أبى فى لهفة :

- طيب وحياتك يا إسماعيل .. أوعى نفسى تقول للبيه إنى جيت .
وتحرك الخادم خارجاً من الحجرة فناداه أبى كالمستغيث ، وقال له فى رجاء حار

- فاكرك يا إسماعيل البهن اليعنى المعتبر .. المحروق .. أنا فوية شريت من إيدك وموش قادر أنساه .. اعمل لى فتجان وحياتك ..
قال الخادم متنازلاً -

- حاضر .. من عينى ..

وجاء مدحت ، فتذكرت أنفث .. لو كان هذا الولد معنا فى المدرسة ، لضربه أنفث ، وجهه أبيض حلو التقاطيع ، شفتاه دقيقتان شعره طويل ناعم ، مفروق من الجانب الأيمن ، قميصه حريرى ، بنطلونه القصير نظيف وجديد .. وجهه جرى .. واثق من نفسه .. إنه يعرف أنه أحسن منا ..
صافح أبى فى غير تردد أو خجل
أريك يا عمى

قابله أبى واقفاً ، مرحباً فى حرارة ، يتكلم بلا انقطاع ، كأنه يتحدث مع رجل كبير ، وسعت أبى يتكلم عنى ، محاولاً اقناع مدحت بالصدقة التى يجب أن تنشأ بيننا ، لم أفهم ماذا يعنى أبى ، كنت أسقط فى صغتى ، كانى أسقط فى هوة بلا قرار

مد مدحت يده وصافحتنى ، كنت واقفاً مثل أبى ، لم أتبس بكلمة ..

وصالنى ..

- أنت فى مدرسة إيه ؟

لم أجب ، وقال أبى بسرعة :

- فى مدرسة خليل أعا .. مدرسة على قد حالها .. موش زى مدرستكم ..
الناهرية ..

كل لحظة تمر ، كل كلمة يفوه بها أبى ، كل شيء تقع عليه عيناي ، يبعد بينى وبين هذا المكان ، يدفعنى إلى حيرة لا نهاية لها ، من حول حياة غريبة ، لم أعرفها من قبل ، حياة اكتشفت وجودها منذ لحظات .

وشرح أبى فى الدرس . وبدأ بالجغرافيا لأن مدحت يخشاها ولا يفهمها ، كان مدحت يعترف بجهله فى ثقة وأطمئنان وكأنه يفخر باعترافه ، كانت ثقته بكراهيته للجغرافيا تحرمنى من الشعور بأنى أفضل منه ، حتى فى مذاكرة الدروس .

ولست أدري أكان فى ذلك اليوم أو فى يوم آخر عندما سألنا أبى ذلك السؤال الذى لن أنساه ، والذى أذكره دائماً كلما واجهت فى حياتى مشكلة يجب أن اتخذ فيها قراراً ..

كان أبى يشرح أنواع الرياح .. الهبوب .. الخماسين .. السموم .. وكان يصف لنا رياح الهبوب فى السودان عندما توقف عن الشرح وقال فجأة :

- أنا عايز أسألكم سؤال .. وأعرف تعرفوا تجاوبوا عليه والا لا ..

اثارت كلمات أبى ، انتباهى وحماسى ، توقعت سؤالاً يكشف عن ذكاء الإجابة ، ونظرت إلى مدحت ، وأحسست أنه لن يستطيع الإجابة على سؤال يمت إلى الذكاء بصلة ، إنه يبدو وكأن الذكاء يتعبه ، أو كأنه فى غنى عنه ، إنه فوق الذكاء وأقوى منه ..

صاح أبى

- لوجه واحد وقال لكم خدوا ألف فدان تزرعوها وتبقى ملككم .. بس الألف فدان دى فى السودان .. تقبلوا الأرض والا لا ..

ما مناسبة هذا السؤال ، كنت أفكر بسرعة ، محاولاً أن أعرف الإجابة

قال مدحت في غباء :

- ألف فدان .. دى ثروة كبيرة .. أروح برضه وأشرف عليها بنفسى .

هتف أبى مهلاً :

- براقو .. أنت ابن راتب بك .. دينا ببارك فيك يا ابنى .. ثم أشار إلى مشمئزاً كأنه يتكرر أبوته لى وقال ساخراً :

- موش زى وش الفقر .. فقير ومتعنتز .. موش عايز يشقتل ويرقص الثروة .. يرفض النعمة عطشان الحر ..

وحدثنا أبى في حماس ، عن الإنجليز الذين تعودوا على البرد والثلج في بلادهم ، وكيف أنهم مهاجرون إلى خط الاستواء ، ويزرعون الأراضي هناك .. وقال متحكماً :

- معنى ح تكون أحسن من الإنجليزى ياسى يوسف ..

كانت صدمة عتيقة لى ، انهمتنى كلمات أبى بسياط الندم والياس ، أنا فقير ، لا أفهم الغنى والثراء ، ولا أفكر بعقلية الأغنياء ، مدحت الذى يسكن هذا البيت الفخم يفكر بعقلية أخرى ، لأنه ابن راتب بك ، ولأنه سيصبح غنياً مثل والده .. سيعيش حياة باهرة مثل الإنجليز .. يسمى وراء الثروة ، ويحصل عليها ، ويتمتع بها ، أما أنا ، فلا فائدة .. سأظل فقيراً كما أنا .. لم يكن أبى يمتحننا في الجغرافيا ، ولا الذكاء .. كان يمتحننا في الفقر والثراء .. وسقطت في الامتحان ..

في اليوم التالي كنت أسأل أنفسى في المدرسة نفس السؤال .. حدثته أولاً عن الجو الحار في السودان ، وحدثته بخيال عن الحيوانات المفترسة في الغابات ، ثم قلت وأنا أدفعه إلى أن يقف في صفى ويجيب نفس أجابتنى :

- بآه لو يسولك ألف فدان هناك تروح .. وتشتغل فيها ؟

قال أنفنى ساخراً :

- والله لو يسولنى مليون فدان .. وأنا ح أعمل إيه بالفلوس هناك .. قلت .

- أنا أروح واشتغل ..

الصحيحة ، إن أبى كان يحدثنا منذ لحظات عن رياح الهبوب .. إنها تملأ السماء بالغبار حتى يتحول نهار السود إلى ليل .. آه .. أبى يمتحننا ، يريد أن يعرف هل قهمننا ما قال عن الهبوب .. هذا سؤال سهل ..

قلت بسرعة قبل أن يجيب مدحت :

- لا .. ما اقبلش الأرض ..

قال أبى وعلى شفتيه ابتسامة غير واضحة :

- ليه ؟

- عطشان الجو هناك موش كويس .. فيه رياح الهبوب ..

توالت استهسانه لإجابتنى ، ولكنه لم يفعل ، فاصرعت أضيف :

- وعطشان فيه هناك غابات فيها أسود وحيوانات مفترسة .. والنمل فى تماسيح .. والحياة خطر ..

نظر إلى فى برود والتفت إلى مدحت وسأله :

- وأنت إيه رأيك يا مدحت ؟

قال مدحت متردداً :

- أخذ الأرض ..

- ليه ؟

- دى ألف فدان .. تجيب فلوس كثير ..

قال أبى مستريباً :

- والجو الحار .. والحيوانات المفترسة .. والأمطار .. والهبوب

قال مدحت :

- وإيه معنى .. ما أنا أدخل فلوس تشتغل في الأرض ..

فصاح أبى محتجاً :

- لا .. أنا بأقول أنت اللي تشتغل فيها .. يعنى تقعد جنب الأرض وتشترق

عل راعتها بنفسك

فرحت باعتراض أبى .. أن مدحت غنى .. لا يفهم ما قاله أبى عن الهبوب

الخيفة .

- ثقبى مجنون :-

- أحوش الفلوس ويعددين آجى اصرفها ..

- موش ح تلحق .. يا ابنى ده الاسد ياكلك من أول يوم ..

كنت أناقشه ، وأنا أشعر بآنى لكذب عليه ، إنه يقول نفس ما قلت
بالأسس ، إنه فقير مثلى ، أنا وهو غير مدحت الفنى ، ولكنى أظن الآن أمامه
بآنى أفكر كالأغنياء .. هذا هو كل ما أستطيع أن أفعله ، إن أظن بآنى من
الأغنياء ..

قلت لأنفسى :

- فيه واحد قريبنا عنده ألف فدان فى السودان وغنى جدا .. عنده عربية
سودة كبيرة .. وعليش فى سراية

نظر إلى فى غير تصديق وقال متحدياً :

- ألف فدان فى السودان ما يسووش حاجة .
قلت :

- وعنده ألف فدان فى مصر ..

قال فى حدة :

- أنت كذاب ..

- طيب واه العظيم فيه واحد قريبنا غنى جدا ..

صرخ غاضباً :

- يا ابنى هره انتم هيلكم حاجة

والم يرحمنى أنفث ، جمع حول التلاميذ ، وروى لهم ما أقوله سلفاً ،
حتى أحسست أنهم سيهجمون على ويضربونى .. ورغم ذلك كنت أشعر
بارتياح غامض لأن لى قريباً غنياً وليس لهم مثل هذا القريب .. وكنت أشعر
أيضاً أن الصدق الذى أرويه لهم هو كذب على نفسى ..

كنا قد خرجنا من بيت راتب بك بعد انتهاء الدرس الأول دون أن نقابله ،

سأل عنه أبى ، فقال الخادم إنه خرج ، وعلم أبى إلى السؤال متفعلاً :

- موش قلت له يا إسماعيل .. فأجاب معتذراً :

- قلت له . لكن الظاهر كان مستعجل ..

فلحقتن وجه أبى ، ولم يقل شيئاً ، وجذبى من يدى وخرجنا وكان مدحت
قد فرمنا واختفى داخل البيت .. خرجنا كالطرويس ومشينا فى الشارع ،
وأبى يقرق الهواء وأبى ظاهر فى وجهه ، وقلبى ثقيل كآنى الدوسه بقدمى وعند
محطة الترام قال لى :

- أنا عايزك تصاحب مدحت ..

أما زلت مصر يا أبى .. أفرض صداقتى على من لا يريد ها .. أنا لا ألبس
مثله ، ولا أعيش مثله ، ملامح وجهه ليست كملامح وجهى .. لا أعرف كيف
أتبادل معه كلمة واحدة .. لماذا تدفعنى إلى هذا الضل من نفسى .. ألا تتور ..
ألا تغضب .. خير ما نفعله هو أن ننسى وجود هذا البيت ، وأهله ، وكل من
فيه .. حتى الخدم .

وسألته :

- هو يقرب لنا إيه يا بابا ؟

اعتدل فى وقفته ، ونفث صدره وقال بصوت قوى كأنه يشرح الدرس ..

- يبقى جوز بنت ابن عم خالى

لم أفهم .. حاولت أن أتفهم صلات وعلاقات ، ففتشابت واختلطت ،

فعدت إلى السؤال متشككاً ؟

- - يعنى دول قرايينا ؟

قال كأنه يدافع عن نفسه :

- أمال إيه .. طبعاً قرايينا .. واللى يقولك غير كده .. تحط صوابك فى عينيه

اللاتين .. قرايينا ونص .. أنت موش شفت راتب بك جاي بنفسه فى الجازة ..

كدت أسأله ، وهل يعلمون بقرابتهم لنا ، ولكنى عدلت عن السؤال

تذكرت جنازة أمى .. وقلت لنفسى : إنها الآن فى مكان أفضل من بيت راتب

بك ..

كان إحساسى بالصبر والخجل يتلاشى للحظة قصيرة خاطفة ، عندما

يأمرنى أبى بالاستعداد للذهاب معه إلى هناك ، أفرح وأمتعش ، وكأنى مقبل

على معامرة ساجرة ، وسأعيش في حدوده .. أذهب بقرحة خائفة ، وأمنية
تتطلع إلى تأكيد قرابتنا ، ويأس من فهم معنى هذه القرابة ، ولهفة على الذهاب
والعودة ، لأخلو إلى نفسي وأفكر فيما رأيت وسمعت ، ورغبة خبيثة في أن أروى
في المدرسة عن زيارتنا لقريننا الغني .. شيء واحد كان يثيرني شعوراً غامضاً
يرتجف له جسمي .. حتى أرى سعاد ، وكيف تلقاني ، وما الذي ستفكر فيه
عندما تراني ؟

كان يوم جمعة ، فذهبت مع أبي في الصباح ، وانشغلنا بالدرس ، وفجأة
سمعنا ضجة في السطوح ، وأصوات عمل وخيم ، وقبل أن نتبين ماذا
يحدث ، فتح الباب ، ورأينا راتب بك .. انتفض أبي واقفاً عاتفاً بصوت
مبحوح :

- أهلا سعادة البية ..

ولم يتمالك نفسه ، فأخرج منديله وجعل يجلف العرق الذي يتصبب من
جبينه ، كان جسده يرتعش ، والكلمات تخرج من فمه متقطعة متعشجة ،
أما أنا فقد شعرت وكأنني أحمل أبي لرقى كنتي ، وبودي لو أن يختفي راتب بك
من أمامي في الحال حتى أتخلص من هذا الحمل ..

قال راتب بك :

- إيه يا ولاد ، حاملين إيه .

أجاب مدحت بمسافة غريبة

- بنذاكر يا بابا

- هيه ، وقاهم دروسك

- أيوه يا بابا

- مير أشطر أنت والا .

وتردد مره ماحنا عن اسمي ، ثم سألني ..

- اسمك إيه يا شاطر ..

قلت بصوت خافت

- يوسف .

وكان أبي قد استرد بعض أنفاسه .. فاطلق في الكلام :

- أنا متأكد إن سعادتك تمر علينا .. وتسالهم .. وتشوف بنفسك مدحت بيه
عمل إيه ..

- يعني مطمئن يا عبد الحميد أفندي

- مطمئن جداً يا سعادة البية .. واعتمدني على الله وعني سعادتك ..

- عظيم ..

وضحك راتب بك فجأة .. وقال مخاطباً مدحت :

- تعرف إيه اللي بره ..

- إيه يا بابا ..

- اطلع شوف ..

خرج مدحت ، وعاد صارخاً ..

- دي بنج بنج .. بنج بنج يا بابا ..

- بس أنا موش عايزك تنسى دروسك .. تذهب شوية وتذاكر شوية .. موش
كده يا عبد الحميد أفندي ..

قال أبي بسرعة وقد باغته السؤال :

- كده يا سعادة البية ..

وقال راتب بك :

- والسبب يوم الخميس بس .. صاح مدحت محتجاً :

- ويوم الاثنين كمان يا بابا .. فالتفت راتب بك إلى أبي وسأله ..

- إيه رأيك يا عبد الحميد أفندي ..

قال أبي ضحاكاً هو يفرك يديه :

- زي بعضه .. اللي تشوفه سعادتك ..

بنج بنج . سينما .. مرتين في الأسبوع .. أبي يوافق مع كل هذا ، وأنا

لا أذهب إلى السينما ، شاهدتها مرة واحدة مع أبي وأمي ، يوم ذهبنا إلى

سينما رويال وتفرجنا على الوردة البيضاء .. كم مرة ألححت فيها على أبي أن

أذهب إلى السينما ، فرفض في عنف ، وقال مؤكداً : إنها ليست للصغار

أمثال . المعاملة تختلف ، وعنف أبى يذوب ، إنه يوافق على الذهاب مدحت إلى
السينما مرتين في الأسبوع في كلام طويل معك يا أبى .. لا بد أن أذهب إلى
السينما ..

انفض الدرس ، ودعانى مدحت لألعب معه البنج بذج ، ووقف أبى يتفرج
علينا .. كان مرحاً مثلنا ، يجرى ويلتقط الكرة ، ويحاول أن يشرح لى اللعبة
التي لا يعرفها ، ولا يكف عن القول :

- مدحت أشطر منك .. شوف إزاي بيضرب الكرة

كنت راهمأ يدي بالمضرب ، على استعداد لضرب الكرة ، عندما رايتها تدخل
منذمة لاهة ، لم تلف حتى اصطدمت بمدحت ، وهي تصيح
- عايزه اللعب .. عايزه اللعب .. هات المضرب بتاعك ..

لو أعطاهها مدحت مضربه ، فستلعب معى .. ولكنى لا أقوى على اللعب ،
يدأى ترتعشان ، الخجل ياكلنى ، المضرب يكاد يسقط من يدي ، ربقى
ناشظ ، في رأسى طبل يذل ، عيناى لا تريان شيئاً ..

سمعت مدحت :

- خدى مضرب يوسف ..

فالتفتت إلى ، واقتربت منى من خلال غمامة ، وأخذت المضرب ، وابتعدت
بصعوبة ، وكان أبى يقول :

- اتفرج باه على اللعب .. علشان تتعلم ..

هذه هى عروستى ، زوجتى التي اختارتها لى ، وجهها شاحب
مستطيل ، ليست مثوردة الخدين ، شعرها منكوش ، صوتها رفيع حاد ،
عيناها قويتان جريئتان .. ولكنها حلوة ، أحبها ، أريد أن أتزوجها ..
لو ترضى لو ننقل من بيتنا حتى لا تراه .. لن تراه أبداً .. وسأفكر
كمدحت ، سأقبل الآلف فدان في السودان ، سأعيش تحت وطأة الحر ،
وأحارب الأسود والتماسيح ، وأصبح غنياً .. غنياً جداً .. وستقبلنى
عريساً ، لو كان عندنا سيارة سوداء كبيرة مثل سيارتهم ، من أين النقود ..

أبى واثق أنها سترفضنى .. ولكن لى واثقة أنها ستقبلنى .. أما أصدق
لى .. عيناها تشبه عيني لى .. وانفها ..

سقطت الكرة وتخرجت نحوى ، فأنحنيت فلا وعى والتفتها ، ووقفت
مكانى ذاهلاً .. حتى صرخت في :

- ملتجيب الكرة ..

وزعق أبى :

- ادنى الكرة لسعاد هانم .. مالك واقف زى الخيبة ..

كرهت أبى ، ومشيت إليها ماداً يدي بالكرة ، فأخذتها ولم يعبها ضحك ،
ثم التفتت إلى مدحت وقد أطلقت سراح ضحكاتها قائلة :

- ليه موش بيرمي الكرة .. وجايبها لحد عندي ..

أسرع أبى قائلاً :

- مؤدب ..

فالتفتت إلى قائلة في سخرية :

- ابقي أرميها ..

واستأنفت اللعب ، كانت سخريتها واضحة ، إنها لا تحبني ترفضنى ،
لا أمل لى ..

وسقطت الكرة مرة أخرى .. ونفذت من باب السطوح إلى الداخل

وصاحت سعاد وهي تجرى وراء الكرة ..

- مبروكة .. بامبروكة ..

وعادت سعاد ولم يدها الكرة ، ومن ورائها خادمة .. صغيرة في مثل
سنى ..

في هذا البيت خدمات أيضاً ، مثل قاطمة التي عندنا ، ولكن هذه الخادمة
أكثر نظافة ، وفي قدميها صندل ،

وقالت مبروكة الخادمة :

- أقنم ياستى ..

الفصل الثالث

- خليكي هنا علشان تجييلنا الكورة لما تقع ..

قالت الخادمة في أدب شديد

- طيب لما أروح أقول لستى الكبيرة ..

ودهمت مبروكة ، وعادت تقف إلى جانبنا أنا وأبى ، تجمع الكور كلما

سقطت ، كما كنت أفعل منذ لحظات ، أنا وأبى ..

ولماذا بعد ..

انمضي في مرد ذكرياتك ، تلوكها . أنا أشم رائحة الخطر ، أسمع صوتاً قوياً يحذرنى ، يقول لى .. قف يا يوسف ، لا تندفع في هباء لاهثا وراء ذكرياتك .. سينسى ما كنت تبحث عنه .. ستفقد مرة أخرى ما فقدته .. أنت تنبش ، تمزق ، تجرح ، تريد أن تعرف كيف ضاع الذى ضاع .. كيف فسد .. ذلك الحادث النافه .. كأنه تافه .. إنه حادث خطير .. مبروكة تدخل السطوح لتجمع كرات البنج بنج .. أخطر من موت أمى .. أخطر من فقرى .. من يصدق أن هكذا بدأت المطاردة .. وفسد الذى فسد وضاع الذى ضاع .. من يصدق ..

كيف كان لى أن أعرف ، فأستعد وأحذر واتحصن ، هذا فوق ما يستطيع . إنسان ، لكن هذا هو ما يحدث للإنسان .. هى مبروكة وأنا يوسف .. هى خادمة .. خادمة في بيت غريب .. بيت غير بيتنا .. وأنا ابن مدرس .. هى فلاحه من الريف ، وأنا من المدينة .. هى في طريق وأنا في طريق .. لا صلة بيننا .. لا أحد سوى مجنون يتوهم أن شيئاً قد يربط بيننا .. ولكن هذا هو ما حدث .. اللقاء تم ، الصدام وقع ، وحدث ما لا يتوهمه مجنون .

كانت تكبر وتتغنى ، وكنت أكبر وأنمو ، أفكار تدور في رأسها وأفكار تدور في

رأسى ، مشاعر تدب في جسدها ومشاعر تدب في جسدى ، هى تخدم ، تكس وتمسح ، تلبى النداء ، وتذهب إلى الكواء ، وأنا اتعلم الجغرافيا والهندسة والانجليزية والفرنسية وأدرس القانون ، ولجأة أجدها أمامى كالقدر العسيف ، تقتحم حياتى وأقتحم حياتها ، تطاردنى وأطاردها تدفعنى وأدفعها ..
كيف أصدق .

كل شيء بدأ فى صمت ، بدأ بخادمة تدخل السطوح لتجمع الكرات لا شيء أتفه من هذا ولكنه كان الشيء الحاسم الخطير .. وكلانا لا يدري ..
الآن .. فى هذه الليلة .. تستلقى مبروكة على فراش ، وتروى لرجل أنها قريبتى .. جسدها عار مكشوف .. الجسد الذى احتضنه أبى .. تزوجه .. استشهد من أجله .. الجسد الذى ولد أخى إبراهيم .. لا شيء يغطى ذلك الجسد .. كل رجل فى جيبه نقود يستطيع أن يعرفه .. صوتها يهمس فى أذنه بالعكاية .. بالفضيحة .. أتعرف يوسف عبد الحميد السويفى .. تعرفه .. إنه مشهور .. أليس كذلك .. تزوجت أباه .. إنه شقيق ولدى .. لا تصدقنى ؟؟ .. أسأله .. أقسم لك أن ما أقوله صحيح ..

ما تقولينه صحيح . ولكن من الذى جعله صحيحاً .. أهى مشيئة الله وليس لنا إلا أن نستسلم .. استسلم لعيون السخرية الخائفة من سطوتى ، كلمات النفاق المتعلقة لقلمى .. ابتسامات الرياء الساعية وراء نفوذى .. لا شيء يستر جسدها .. لا شيء يسترنى .. أنت غارق فى الفضيحة حتى أنذيك .. مهما تجاهلت .. مهما ابتعدت .. مهما حاولت النسيان .. مهما فررت ..
اتفهم هذا ..

لقد وقعت على اكتشاف .. التفكير فى حياة الإنسان يفضى إلى الجنون ، لا منطق لحياتنا .. أنا الذى أكتب عن الاشتراكية ، أنا الذى أدعو إلى الإيمان بالتخطيط والأمل فى المستقبل ، أنا الذى أقول لهم إن للحياة منطقاً وخطة مدروسة . هل كنت أملك منطق حياتى حتى أرسم لهم منطق حياتهم ..

أنت تصاب يا يوسف .. كفى تكريات .. كفى غباء .. كفى حماساً كادياً ، كل ما فى هذه الدنيا غير حقيقى .. الذى سيحدث سوف يحدث .. التفكير خداع متصل ، لو أردت أن تخوض الطريق الوعر ، طريق مراجعة نفسك فاترك المسرح الذى تؤدى فوق خشبته تمثيليك الزائفة .. ابداً بكتابة استقالتك .. يوسف عبد الحميد السويفى يستقيل من رئاسة تحرير الأيام ، يترك عمله فجأة .. إن يصدق أحد سبب استقالتي .. سيقولون إنى مغمصوب عليه ، طردونى من عمل ، لا يهمى هذا ، سأفلس ، أتخل عن هذا البيت ، لا سيارة ولا تلفون ، ولا قلم .. قد أصاب بالجنون ..

يوسف يشاهد كل يوم وهو يحدث نفس فى الضوارع ، ذقنه نابته ، بدلته معزقة ، أظافره ، لا يعرف أحداً .. ستقودنى قدامى إلى بيت مبروكة ، دموعى تغسل يديها .. لا .. تغسل قدميها .. ولكنها لن تفهم .. ربما احتقرتنى وطردتنى ، ما حاجتها إلى مجنون مثل .. اقبلينى يا مبروكة خادماً عندك .. سأستقبل زبائنك ، سأفتح لهم الباب ، وأنظم دخولهم وخروجهم ، اتحمل معك العرى ، استحم فى الفضيحة معك .. لا شك أن نهايتى ستكون فى مستشفى مجانيب .

ستنهارة نفة الناس فى كل كلمة كنت أقولها .. استمر فى عملك .. أكتب المقالات ، تحمس ، حتى ولو كنت تكذب على نفسك .. إنهم لا يريدون حقيقتك ، يريدون تمثيلك ، يريدون الصنعة التى تجيدها ، الكلمات التى ترصها .. يريدون أكاذيبك ، كلام فارغ . إنهم لا يريدون شيئاً على الإطلاق .. ليس هناك صواب ولا خطأ .. لا معنى للاستمرار فى شيء .. إننا لا نعرف إلى أين نحن ماضون .. خادمة صغيرة ، بخفية فى قدميها صندل .. مبروكة .. مبروكة .. تلبى النداء .. تظهر قادمة وراء سعاد ، وتقف بينى وبين أبى لتجمع الكرات .. بعد سنوات تكرر مبروكة ، وتزوج أبى ، مادام هذا يحدث ، فأى شيء قد يحدث .. ما أدرانى أن حامى الذى كان يصب القهوة منذ لحظات سوف يكون سيداً لمرأى على بعد سنوات ، بعد أيام .. أتروح سامية لتكون عشيقته هذا الخادم .. ما أدرانى أنى قد أتروح خادمة أنجب ..

ولداً يصبح قاتلاً .. أو يصبح زعيماً .. أى شيء قد يحدث .. لا ضمان ..
لا منطق .. إننا لا نملك شيئاً .. لا نملك إلا قتل أنفسنا .. ما نحن نعيش في
هذه الدنيا ، فعلياً أن نخضع للضربات العمياء .. للقسمه البلاء ..
للمجهول للثأر قلت لأبى لا تتزوجها ثرت وغضبت وتركت البيت ، ولكنه
تزوجها .. أنا لم احتر أبى ، لم اختر أمى .. جاءوا بى إلى هذه الدنيا ،
وأعطوني اسماً ، وأعطوني حياة ، وألقوا بى في المكان الذى أقيت فيه ،
ودعوني إلى ما حدث .. لست مسئولاً عن شيء ..

إذا هو ما كنت أريد أن أصل إليه ، أن أقول لنفسي إنى لست مسئولاً عن
شيء ، ألقى مسئوليتى واستريح . كأنى أدافع عن نفسي أنت لا تدافع عن
نفسك يا يوسف .. أنت تحاول أن تفهم ، تريد أن تعرف حقيقة حياتك ..
لا تنفجر إلى النتيجة السهلة بهذه البساطة .. تلقى بالعيب كله على القدر .. على
مشيئة الله .. على جنون الحياة .. لا تضحك على نفسك .. لا تتعجل .. اطلب
فنجان قهوة آخر ، ولا تهرب من عذابك ، لاتجن قبل أن تذوق المرارة كاملة ،
لا تخدع نفسك بأن الحياة خداع أمض في ذكرياتك ، انبش وفتش ومزق
وأجرح ، أجب على ما يجب أن تجيب عليه ، لماذا رفضت زواج أبىك من
مبروكة .. ما الذى جعلك تعادى الخادمة على أنها خادمة ، حتى بعد أن لم تعد
خادمة .. ما سر عنادك .. ما سر خجلك .. ما سر حياتك ..
لا تترك شيئاً .. أعرف ما الذى صنعك ، وما الذى ورطك .. أنت ما زلت
لم تتخذ القرار ..

ما زال هناك أمل .

الطريق بينك وبين مبروكة تقطعه في عشرة دقائق ، لو اتخذت القرار لو فهمت
ما تريد أن تفهمه ، تستطيع أن تذهب إليها في الحال أو لا تذهب ..
تستطيع أن تتزوج سامية ، لو فهمت ما تريد أن تفهمه ، تتزوجها
وتسعدنا ، ترغبها على السعادة ، وترغم نفسك على السعادة . أو لا
تتزوج

أه لو فهمت .. في داخلي إحساس نبى . مسيح يلحق البرص . مغرور يظن
نفسه أقوى من الغرور صادق الصدق الذى لا يصدق أحد .

لم يكن دخول مبروكة المسطوح هو البداية .. مبروكة لا شأن لها بما
حدث . حياتنا ليست ساذجة إلى هذا الحد ، إنها معقدة أفكارى ، عندما
دخلت مبروكة المسطوح ، كانت مجرد صبية وكنت مجرد صبي .. هناك
أحداث أخرى يجب أن أتذكرها ..

كنا قد كبرنا ، ومنضدة البثج قد تحطمت ، وتحولت إلى أشلاء ، من ألواح
الخشب ملقاة في أحد أركان المسطوح ، ولم يكن يعنينى في ذلك الوقت سوى أن
سعاد قد أصبحت حبيبتى .

حبى تسال إلى قلبها خلسة ، كان حبى أقوى من أن تتجاهله أو تعبده ،
كنت واثقاً أنها ستحبني وتتزوجني ، تلك الليالى الطوال التى قضيتها والكتاب
مفتوح أمامى أقرأ صورتها فيه وأحدثها وتحديثى ، وقفاتى الأبدية أمام
المرأة انغرس ملامح وجهى ، أحاول أن أجعله وسيماً ، وكان في استطاعتى أن
أفعل ما أريد ، وأخلق لنفسي شكلاً جديداً ، أزم شفتى لتصبعا رقيقتين ،
أسرح شعري وأفرقه وأستعين بالصابون لتصفيفه ، نظراتى الحاملة مقلداً
كلارك جيبيل ، أفتح عيني وأسعين ، وأضع فيهما فيضاً من حرارة قلبى ،
أحرق ، ثم أكرع عيني اليمنى ، واتنهد كم مرة فعلت هذا أمام المرأة ، في غرفة
مظلمة على ، أتدرب واستعد للحظة لقاء . تلك الأغنية التى كنت أرددها
بصوتى الجديد .. صوتى الخشن الذى اكتسبته فجأة ، كان في جزيرة
كبرى .

عندما رايته ..

الكتب التى قرأتها ، رواية توفيق الحكيم ، « عودة الروح » ، سنية في
عودة الروح ، كلما قرأت اسم سنية ، حولته إلى سعادة وكيت بلا دموع ،
دقات قلبي ، الخيالات في رأسي ..

نعم .. لقد بذلت جهداً غير بشرى ، كى أصل بحسب إليها ، نسيت أبى
فقير ، واثنى أسكن شارع العمدة ، نسيت أن أبى مدرس خائف من راتبه بك ،

اندفعت مع حبي ، فأحببت مدحت وأحببت البيت الذي يسكن فيه ، وأحببت راتب بك ، والست الصغيرة ، والست الكبيرة .. اقتنعت نفسي أنى واحد منهم

كنت في الثانية عشرة من عمري تلميذاً في الخديو إسماعيل الثانوية ومدحت في السعيدية ، وأبى مازال يدرس لنا الانجليزى والجغرافيا والتاريخ ، ويسلمه مدحت أول كل شهر مطروفاً فيه ثلاثة جنيهات ، يأخذ أبى المظروف في صمت ، ويخفيه في جيبه بسرعة ، ثم يقول أى شىء بصوت مرتفع يقلبه الانفعال وعندما نخرج من البيت ، نبعد خطوات من باب الحديقة ، يخرج أبى المظروف ويقتحه ، ويفحص الجنيهات الثلاثة بعناية ، ثم يضمها في حافظة نقوده ، كنت أكره هذا المنظر ، ولكن حبي لسعاد كان يجعلنى أنساه بسرعة ، ولا أفكر فيه .. لعل كنت أنسى أن أبى هو أبى من بيت مدحت تعطى ذلك المدرس جنيهاته الثلاثة ثم دروسه .. هكذا جعلنى حبي لسعاد أفكر في أبى .

إذا حدثنى مدحت عن العزبة فهي عزبتي ، سيارته السوداء الكبيرة هي سيارتي ، إذا تعطلت انزعجت مثله وعندما اشتروا سيارة « ناش » جديدة ، فرحت بها أكثر منه ، لم أعد أحلم بأنى أبى يشتري سيارة يوماً ما ، لم أعد أقارن بينى وبينهم ، لا أحسدكم ، ولا أشعر بمرارة نحوهم . أحببتهم لأنى أحب سعاد .

ذات يوم حضرت مع أبى ، فوجدنا مدحت مريضاً ، وكان من حسن حظ أبى أن راتب بك رضى أن يقابله ويجلس معه في الصالون الكبير ، أما أنا فجلست مع مدحت في حجرته ، وكانت سعاد تدخل وتخرج ، فتصيننى حمى أشد من حمى مدحت ، وفجأة فتح الباب ، ودخلت الست الكبيرة ، ما كنت أراها حتى أيقنت أن مدحت قد شفى ، دخلت في ثقة ، على شفيتها ابتسامة حرية ، وفي نظراتها هدوء مثير ، كانت تتوكأ على كتف مبروكة ، التى تحصل في يدها المنبه الذى لا يفارق سيدتها ..

كانت الست الكبيرة قد تعودت رؤيتى ، وتعرف من أنا ، تصيننى في حنان ،

وتدعولى ، وتقرأ الفتحة لأمى ، ثم تتجاهلنى ، كانت أحياناً تعطى مدحت وسعاد نقوداً ، قرشاً أو قرشين ، وفي مناسبات نادرة خمسة قروش ، وكنت ألق بجوارهما أنظر إلى النقود ، وأشعر بدهشة لأنها لا تعطينى مثلهما . رقت الست الكبيرة مدحت ، وهى تمسح بيدها على شعره ، وأغمت عينيهما وتمتمت بكلمات ومسحت وجهها بكلتا يديها ، ثم التفتت إلى وهى تنهض .. وقالت :

— سيبه يا ابنى عاشان بنام .. تركت الحجرة ، روية حائراً ، لا أدري أين أذهب ، أبى يجلس تحت مع راتب بك في الصالون ، ومدحت مريض في حجرته ، والست الكبيرة تصعد السلم مع مبروكة إلى حجرتها ، هل أخرج من البيت ، أم أنتظر أبى واقفاً مكانى خارج حجرة مدحت ، ويريت سعاد قادمة نحوى تريد الدخول على مدحت ههست مضطرباً

- نام ..

قالت هامسة وهى تظهر اليوم صور في يدها :

- كنت عايزه أوريه صوري .. ظلت رافعة يدها باليوم الصور فمددت يدي إليه ..

قالت مرحبة :

- عايز تتفرج عليها ..

- أيوه ..

تلقت حولها قائلة :

النور هنا مش كهاية .. ودون أن نتكلم ، صعدنا السلم إلى السطوح ، ووقفنا عند السور وبدأت تقلب صفحات الألبوم ..

صورها وهى في ملابس المدرسة وهى في جزيرة الشامى تلقى بقات الخبز للجمع ، وهى تجلس وقورة على وجهها علامات الجد والتفكير .. كانت تضحك من قلبها مع كل صورة وتثرثر عن ذكرياتها ، وضباب يزحف على عيني ، وأنتنى لا تعنى ما تسمع ، وأنفاسى تتلاحق ، ووجهى يلتهب ، وعروق رقبتى

تتصلب أحبها ، يجب أن تعرف أني أحبها الآن ، حركة بسيطة غير ملحوظة والمسهة ، لكنني لا أستطيع ، طرف أصبعي يلمس يدها ، وفجأة كنت ملتصقا بها ، خفت ، كل مرة في كياني ترتجف لا التفت إليها ، لا أعلق على كلماتها ، أنفاسي حارة ثقيلة ، إنها لا تبتعد مازالت تتكلم ، في صوتها نبرة غير عادية ، كأنها حزينة ، لعل أتوهم ، إنها لا تعرف أني ملتصق بها ، جسدها ليس ، ذراعها طري ، خدها قريب من خدي ، بيني وبينه لا شيء .. أكاد أمسه هذا محال بيني وبينه مخاوف ومناهات ، يجذبني إليه ، يبعثني عنه ، عقلي في خدي ، يداي في خدي ، قلبي يدق في خدي ، حبي في خدي ، كنت أمسه ، طرواته تشدني ، مسسته ، نفرت لمسوعا من نعومت ، عدت إليه ، مسسته لسة .. خدي ملتصق بخدها ..

صمتت ، ولكن أصابعها ظلت تقلب صفحات الألبوم ، إنها تعرف أن خدها ملتصق بخدي ، عينها شاردتان ، صدرها يعلو ويهبط ، الصمت يحيط بنا ، ضجة الطريق آتية من عالم بعيد لا صلة لنا به .. أحبها ، أحبها .. سنظل هكذا إلى الأبد ، لا شيء ينتزعنا من هذا المكان ، حولت شفتي إلى خدها وقبلتها بسرعة .

ظلت صامتة ، أكثر شروداً ، وجهها شاحب ، وفي خدها برودة ولم تعد تقلب صفحات الألبوم ، هكذا وقفنا ، حتى ارتفع صوت من داخل البيت ، فالتفتت خلفها ، وجرت مفتحة ، تركنتي وحدي ، والدوار يلعب براسي .

فربت الشمس ، ولا أحد يسأل عني ، لا أريد أن أترك مكانتي ، ليس لي مكان آخر ، ولكن الطلام هاجمني ، فتمركت إلى الداخل ، هبطت السلم ملتصقاً ، أشعر بالذنب ، أتوقع الأبواب تفتح ، وأنها تلعنني ، وراقب بك يصفعني ومدحت يقع ميتا . والصمت الكبيرة ترسلني إلى جهنم .. إنهم يعلمون ، قالت لهم : سامكر ، سامكي ، ميسر بنني أبي ..

وجدت الصالون الكبير مظلماً ، أين ذهب أبي ، خرجت مسرعاً إلى الحديقة وسألت عم عثمان :

- بابا مين يا عم عثمان ؟

- خرج .. أنت كنت فين . قعد يدور عليك .. قلبنا الدنيا .. أين كنت كنت في السطوح مع سعاد .. ماذا أقول له ..

وعدت إلى البيت وحدي ، فلم أجد أبي ، خيل لي أنه مازال يبحث عني تعذبت في انتظاري ، لا أفكر في حبي ، بل أتوقع الشر المقبل ، تذكرت يوم خروجي مع أنفسي كان العقاب صارماً ، تركنتي أمي ، هذه المرة سيموت أبي ، سيتركني ولن يعود ، استغفرك يا رب ، لن أعود إلى هذه مرة أخرى ، أغفرت لنفسي لقد ارتكبت الخطيئة ، كفاني ما أشعر به من ندم ، أنا أضعف من أن يتدخل بي عقابك .. أبي يموت الآن ، يلغظ أفعاسه .. الدكتور برعي يراقبه في وجوم ، ووجهه كالمعتذر ..

عندما عاد أبي ، كنت راقداً في حجرتي ، مريضاً أهذي ، ولكن وقع اقدامه كان يبدد مخاوتي ، ويبحث في قلبي الحياة ، فتح الباب وأطل منه ، كنت راقداً مغمض العينين ، أتصنع النوم ، ظل يرقبني لحظة ، أحسست به كأنني أراه بعين مجهولة ، إنه ليس غاضباً مني ، هكذا شعرت بل إنه يريد أن يحتضنني ويعانقني .. كأنه أمي ..

وأغلق الباب ، وابتعدت خطواتي ومضت الليلة ..

لم يكن من السهل أن أقابل سعاد وحدي ، بعد زيارات متعددة أيقنت ألا أمل لي ، سوى أن يمرض مدحت من جديد ، أو تحدث معجزة ، لقاؤنا تحت رحمة صدفة ، على أن أنتظر وأنتظر ..

كنت أراها اللحظات خاطفة ، كأنها تتعمد أن تبعد عني ، وكان هذا يعذبني ويجرح حبي .. تحيينني بكلمة واجمة ، أو تظهر أمامي وتختفي قبل أن تحيينني ، تطل برأسها من خلف باب ، أو تمرق في طريقها إلى غرفة ، أو ترتفع صوتها بنداء مضطرب .. كانت على أية حال ، تشعرنني بوجودها ، فلا أملك غير الألم والانتظار .

ومضت شهور ، وأنا أعيش بذكرى قتلنا ، أتحرك وأتكلم ، وأصحو وأنام ولا شيء حقيقي ، غير ما حدث ، خدي لم يفارق خدها ، وكأننا مازلنا نتفرج على اليوم الصور .

لا أدري كيف تحملت كل هذا العذاب ، ولكنه كان حياتي ، أمل الوحيد هو لحظة لقاء أخرى ، وكلمات أروح بها ، وقبلة ثانية على خدنها ، وأحلام أحبتها معها .

كل هذا ممكن .. لقد حدث .. قبلتها .. تنهدنا معاً .. فلعلنا تصحيح الأيام مع الحزن والوحدة ، لماذا أجلس في بيتنا كالسجين ، أثقلت حولي يائسا ، ليس هذا بيتي ، ليس هذا مكاني .. أنا أحب سعاد ..

كم انتظرت ، سنتين ، ثلاث سنوات ، نعم لقد انتظرت طويلاً ، شعرت خلال تلك السنوات ، أنني أحفر حوة عميقة في داخلي ، تغرق في داخلها الأحزان ، وأحداث الأيام ، وكل ما أتمناه .. عرفت أين يختبئ السر الدفين الذي لا يعرفه أحد ، إنه يفوس في بئر لا قرار لها ، يترق داخل ، تحتفظ بما يجهله كل الناس ، عالم عريض واسع ، لا تعيش فيه سوى سعاد ، جسمها النحيل يمثل وجهها الشاحب يتورد ، وجمالها ينمو ، عينها تزداد أن قلقتا وحنانا .

كنت في كل مرة أراها ، أحس بلا دليل أنها مازالت تذكر قبلتنا ، وخذينا المتصقين ، واليوم الصور ، لم تنس أبداً ، شيء في عينها يقول لي إنها تذكر .. لم يعد أبي يدرس لنا ، فقد حفظنا معارفه كمدرس ابتدائي وأصبحت أنا ومدحت في الثقافة ورغم أن أبي قد فقد الجنيهاات الثلاثة التي كان يأخذها أول كل شهر ، إلا أنني استرحت ، فقد تحررت من ضعفه الذي يفضحه وجوده في هذا البيت ، وتحررت أيضاً من الذهاب معه ، والعودة معه ، فرصتي أكبر الآن في مقابلة سعاد على انفراد ..

كنت أتردد على مدحت لتذاكر ، أو لانتظار بآتنا تذاكر ، أنا أريد في الحقيقة رؤية سعاد ، وهو يريد أن يستمع إلى الجرامفون ، ويتعلم الرقص ، التانجو والعوكس تروت والروما . كان يرقص وحده ، ويشرح لي الخطوات ، ولكنه لم يفكر أبداً في تعليمي ، كان الرقص من شأنه وحده ، وخجلت أن أعلم منه أن يعلمني ، فكنت أراقبه ، وأحفظ خطواته ، وعندما أعود إلى البيت أحاول تقليده .

قلدت مدحت بشراة وإسراف ، كأن هذه هي وسيلتي الوحيدة كي أصبح مثله ، فتحبتي سعاد ، وترضى به ، أنطق أسماء الممثلين بنفس لهجته ، وأردد الكلمات الانجليزية والفرنسية التي يقولها ، أحفظ كل أغنية يحفظها ، انصت إليه وهو يشرح لي ميكانيكا السيارات ، وأساعده في تدبير الخطط لاقناع السائق بأن يعلمه قيادة للسيارة خلسة .

وكان يشتري أحيانا عليه سجانز بلايرز ، ويخرج ليستطلع في السطوح ، ويعود فيقف الباب هامسا :

- مافيش هد .. غير مبروكة ..
- ح تشوفنا ..
- لا .. ماتخافش ..

وندخن السجائر ، وانتظار امامه يأتي خبير في التدخين .. ثم بدأ مدحت بعدئني عن أصحاب له ، عندهم عربات ، وكان يزوغ من المذاكرة ، مدعي أنه يزورني في البيت ليذاكر معي ، ويخرج مع أصحابه الذين لا أعرفهم ..

وانتهزت الفرصة ، فكنت أذهب إلى بيته على أمل ألا أجد هناك وأجلس متظاهراً بانتظاره ، ويطول الانتظار ، وأنا أفكر في سعاد .. ستجيء .. لا بد أن تجيء . أنا وحدي .. هذه هي فرصتنا .. مستحيل أن تفلت هذه الفرصة .. كل ذلك العالم العريض الذي يختبئ في داخلي ، يضيح ويصيح مطالباً بسعاد . حتى اسمع خطواتها بقلبي ، وأخرج إلى السطوح لأراها ، قادمة كأنها تلبي نداء مجهولاً .

تلقت إلى ، ووجهها واجم تتجه إلى السور ، أتبعها وأقف إلى جوارها ، ونسرح في الفضاء العريض .. رغم كل تلك السنوات لم أشعر أنني في حاجة إلى تذكيرها بشيء ..

بعد صمت طويل .. همست وكأنني أحدث نفسي :

- عايز أقولك حاجة ..

أطرقت برأسها ، وعلا صدرها وهبط .. فتشجعت ..

- عارفة .

- همست .

- عارفة ..

- من سنين .. وأنا افكر فيكى ..

قالت فى عصبية :

- هايزنى اعمل إيه ..

ارتبككت وتوهج شيء كاللهب فى عينى ..

سمعتها تهمس بعد قليل :

- اللي كده .. موش بيعملوا حاجة ..

- قصدك إيه ..

بدأ على وجهها الغضب ، حتى ظننت أنها ترفض حبى ، أو لا تفهم ما أقوله ..

همست متوسلاً :

- أنا بأحبك ..

قالت بصوت حزين :

- ما أنا عارفة .. لكن قصدك إيه ..

فجأة فهمت كل شيء .. أضاعت رأسى بالنور .. إنها تطلب منى أن أحدثها عن الزواج .. هذا هو ما أريده .. ألا تعلمين ..

- قصدى نتجوز ..

- تفكر بانا يرضى .

قلت فى حماس :

- ليه ما يرضائش ..

لم أخف من رفضه ، كنت واثقاً أن كل شيء سيتم كما نريد ..

قالت فى صوت خافت :

- ح يقول أنا لسة صغيرة ..

- معلش .. ح نستنى .

قالت بعد برهة :

- وأنت لسة تلميذ ..

- لكن بأحبك ..

- بكرة تكبر .. وتحب واحدة ثانية ..

- موش ممكن .. أنا أموت نفسى ..

قالت فى لسى :

- الرجاله كلهم خاينين ..



الرجال كلهم خائنون ، قالتها مسعاد ، وكأنها تطلق حكماً أبدياً على كل الرجال ، ولكنى رفضته لست خائناً ، ولأن أكون خائناً ، الخيانة شر ، والشر لا يعيش فى نفوسنا ، إنه يحيط بنا ، يحدق بنا ، كموت أمى .. الشر يأتى من مكان بعيد

استلبنى ياسعاد ، أياى تقول لك ، أنا واثق من نفسى ، ليس عندى ذرة شر ، هل من الممكن أن أتحول ، مستحيل .. من الذى علمك أن الرجال خائنون ، هذا كذب ، انظري إلى ، حدقى فى عيني ، ألا تسمعين دقات قلبى .. أنا أحبك ..

الأيام مضت فى حب ، والأيام مضت رتيبة ، ماذا أفعل سوى أن أحب ، ماذا كنت أستطيع أن أفعل لأذهب لأبى وأقول له أريد أن أتزوج مسعاد ، هذا فوق قدرتى ، سأتزوجها عندما اكبر ، الشر هو أنى لا اكبر بسرعة ، لا اكبر فى غمضة عين .

وعلمنى الانتظار أن أفكر فى مستقبلى .. أكون مثل الدكتور برعى .. لا .. أنى أحب أن أتفرج عليه ، لرقعه وهو يقصصنى ، منظره مثل ، تعبيرات وجهه غريبة ، ولكنى لا أريد أن أكون مثله ، وجهه المعتذر ليلة وفاة أمى ، ينفرتنى من اللطاب .. أكون ضابطاً فى الجيش ، أحارب وارتنى البدة الكاكي وأضع على كتفى النجوم والتيجان ، منظرهم مثل ، أحب أن أتفرج عليهم ،

أرقبهم وهم يمشون في الشوارع ، القامة معتدلة والاكثف عريضة ، والخيلاء واضحة ولكنى لا أريد أن أكون مثلهم ..

لو أكون .. لو أستطيع أن أكون .. ماذا أكون ..

لا شئ ، يسحرني مثل توفيق الحكيم ، أريد أن أكتب رواية كعودة الروح ، أكتب عن سنية ، عن سعاد ، لأصبح كاتباً عظيماً مثله ، أركب عربتي وأسرح مع الخيال ، أعيش في الفنادق ذاهلاً ، كل الناس تعرفني وأنا لا أعرفهم ، أرقبهم من بعيد ، أتفرج عليهم وهم لا يدرون ، أكتب أشياء باهرة ، وأكتب أشياء غير مفهومة ، عن باح وموزارت ورفائيل ومبرانت ، وأكتب عن أشياء مضحكة ، أعيش في فرنسا في مونتمارتر ، لو أغمض عيني وأمتحهما فأصبح توفيق الحكيم ، عودة الروح ، شهر زاد ، أهل الكهف ، يوميات نائب في الأرياف ، هذه الكتب هي على الذي أحبه ، إنها تكسر أعماقي التي تحب سعاد ، لن أكون مثل توفيق الحكيم تماماً ، هو لا يحب وأنا أحب ، هو يعيش بلا امرأة ، وأنا أحيى ومعى حبيبتي زوجتي سعاد .. حدثتها عن توفيق الحكيم كلما وقفنا عند سور السطح وحدثتني عن ألفريد دي موسيه وقرقنا اللب ، واختلست القبلات كنت أشعر أحياناً بالذنب ، وأحياناً بالخوف ، وأشعر أحياناً بالدهشة عندما أغيب عن سعاد أسبوعين أو ثلاثة ، وأعود إليها والشوق يأكلني ، فأجدها متباعدة ، لا تسعى إلى لقائي ، ومع ذلك لم أناقش أي احتمال ، سوى أننا ننتظر ، وأنا أحبها وهي تحبني ، وسنتزوج ، وسوف أكون كاتباً عظيماً مثل توفيق الحكيم ، وزوجاً عاشقاً مثل لا أحد

مضت سنوات الحب عملة كالأرق سريعة كالأحلام ، السر الذي في أعماقي ينمو ، والأمال تزداد عرضاً واتساعاً ، وأنا مازلت طالباً بالسنة الأولى في كلية الحقوق ..

كانت الحرب قد أعلنت ، وأنى يتحدث في حماس عن هتلر وجيروت الألمان ، وأنا أميل إلى تصديقه ، ولكن بلا حماس ، كنت أنتظر ، إحساس غامض بالانتظار يسيطر عليّ وأنا أتفرج وأرقب أنباء سقوط فرنسا ، وعناوين الصحف عن المعارك الدامية والجمود الإنجليز الذين انتشروا في الشوارع ،

والعربات الحربية للصفرء التي تهدر في الطريق ليل نهار ، وضجيج الطلعة وهويناقشون ويسخرون ويقلقون ، وتحارب صفارات الأمدار ، والخوذات ، واقنعة الغازات السامة ، والمتطوعون ، معاطفهم الجلدية الصفراء يزارون ساعة الغروب « ضقى النور .. طفى النور » والأزرق الداكن الذي طلبه به زجاج النوافذ ، وبطاقات التموين ، والسؤال عن الجاز والسكر ..

كنت أنتظر ، وكان الحرب ستسفر عن شئ لا أعرفه ، ولكنه سيحدثني أكبر وأتزوج سعاد .. وأصبحت أكثر جرأة ، هقلتها في شعيتها ، وضممتها إلى صديري ، كان ظلام الشارع يحميني ، والقلق الذي أشعر به في العيون من حولي يزيدني قوة ، هم يضعفون وأنا أقوى ، الست الكبيرة تنهل إلى الله ، وفي صوتها قلق ساذج ، الست الصغيرة تتحدث في جزع عن اختفاء اللحم من السوق ، وتفزع من منظر الجنود الإنجليز في الشوارع ، وراتب يقرأ الصحف باهتمام ، ويبحث عن إشارات جديدة ويكثر من التردد على العربة رغم جزع الست الصغيرة والحاحها عليه بلا يتركها وحدها ، كانت سعاد تحدثني عن كل هذا ، فيزداد يقيني بأنهم يضغطون رأى أقوى ، وانتظر المجهود الذي ستسفر عنه الحرب ويجعلني أتزوج سعاد

لوسقطت القنابل ودمرت بيت راتب بك وسارت الأسرة مشردة في الطريق ، فسأقف إلى جانبهم وسأعيش مع سعاد في كوخ ، كانت الضواطر المفزعة تدق رأسي فلا أشعر بفزع ، مجاعة تجتاحنا جميعاً ، وأنا وسعاد نلتقط الفضلات ونبادل القبلات ، جسدها يتشوه ، وأنا مازلت مخلصاً لها أحبها وأحبها وأحبها ، الدنيا تغنى ، وأنا وسعاد وحدنا ، ضائمين حزينين .. متحابين .. كان يوم خميس ، والمحاضرة الأخيرة في القانون الدستوري ، أشتبع كلام الأستاذ بشغف كأنى نائب في البرلمان وسعاد تطل من شرفة القاعة وحول رأسها اليشمك ، كما تظهر الملكة فريدة في الصور ، كل شئ أسمعته أو أتخيله يرتبط بسعاد بلا مشقة ، فقد تعوت المشقة .. وخرجت من المحاضرة ، ومررت على مدحت في كلية الهندسة ، سرنا معاً في طريقه إلى بيته ، وفجأة قال مدحت والغيط يملؤه :

- موش قادر أزوغ النهاردة من البيت .. مع أن فيه رحلة هايلاه في المركب
للقناطر اتناشربنت ، تصوري يقى .

- مش قادر تزوغ ليه

- خطيب سعاد جاي النهاردة

ضحكت ، ثم وجمت ، ثم قلت في معلولة بلئمة لإخفاء هذا الشيء غير
المعروف الذي يطبق على :

- هه هيه اتخطبت .

- واحد دكتور .. عنده عربية شيفروليه ..

- مبروك .

خرجت الكلمة كسكين حاد يمزق فمى .

عندما بلغنا البيت ، التفت إلى مودعا ، قلت وأنا لا أعى ما أقول :

- يعنى ماتقدش تزوغ ..

- ح احاول ..

- وانت مالك والخطوبة ..

- كان صوتى حاداً مهاجماً ..

- بابا قالى اكون موجود

همست والدموع ترتجف وراء جفونى .

- أنا كنت هايز أجى معاك

صاح ساخراً :

- أنت .

- ليه .. لا

- اتهاى لى أنت بتتكسف من البنات .

صحيح . أنا أدخل من البنات .. أظن هذا .. فأنا لا أعرفهن .. البنت

الوحيدة التى أحببتها هى سعاد ، وهى البنت الوحيدة التى أعرفها .. ولكنى

أريد أن أغرق ، ربما غرقت في النيل ، ربما غرقت في دموعى . أنا أحبك

ياسعاد ، ماذا جرى الشر ليس في نفسى ؟ ولكن أريد الآن أن ألقى بنفسى في

أحضانهم اتفهمين ، أريد أن اندفع كالاعمى أريد أن أفقد نفسى .. أنا
لا احتمل .. اتفهمين ..

قال مدحت :

- اسمع .. عندي فكرة .. كلمنى في التليفون الساعة خامسة .. لو قدرت
أزوغ .. نخرج سوى ..

- طيب ..

لن أكلعه في التليفون ، لن أراك بعد الآن ، أنت تذكرنى بسعاد ، ساكتنى
بدموعى ..

بكيت في البيت ، الدموع في حلقى لها طعم العذاب ، وجاءت ساعة الغروب
فسمعت أقدام أبى تتحرك إلى الباب .. خرجت من حجرتى وسألته .

- رايح فين يا بابا ؟

- اجاب في عجب :

- رايح القهوة .. فيه حاجة ..

- اجى معاك

- ليه ، ماوراكش مذاكرة ..

- متضايق ..

سرنا معاً ، في كل خطوة أكاد أصارحه بحبى لسعاد أذهب إليها يا أبى ،

أمنعها من الزواج ، قل لهم إننا أغنياء ، ومعنا نقود كثيرة ، سنشتري عربية

شيفروليه ، ساكون رئيساً للوزراء ، صدقنى يا أبى ، أنظر إلى شكلك ، إنه

فخم ، مهيب ، سيصدقك واتب بك اتسمعنى يا أبى ..

ولكنى لم أقل له ، وعندما اقتربنا من ميدان العنة ، خطر لى أن مصيرى

هو مصير توفيق الحكيم كاتب مثله ملا امرأة ، حزين مثله ، ذاهل مثله ،

أعيش شارد أكارها للزواج .. ساكتب قصة ، الرجال ليسوا حائنين ، النساء

هن الخائنات ، خائنات بطبعهن .. أكرهن . أمقتهن .. ساصير عدواً للمرأة

مثل توفيق الحكيم . ولكنى أحب سعاد .

كان لى يعنى تشييطاً ، يسألنى عن الكلية ماهتمام ، فأجيب بكلمات

مفتضبة ، ويحدثنى هو عن مدرسة الحقوق السلطانية .. كان يريد دخولها ولكنه لم يستطع ، المصاريق كانت كثيرة .. كنا فقراء .. كانت عندنا عزية ، ولكن جدى رفع قضية على الحكومة لتأخذ منه الأرض ، لم يستطع دفع المصاريق ، أتعرف من كان المحامى فى القضية ، سعد زغلول .. أوراق القضية مارالت فى صحيفة ، المذكرة مكتوبة بخط سعد زغلول .. خطيده .. أوراق تاريخية ، تساوى ألف جنيه .. ربما ألفين والله أنا مهمل .. كيف أحفظ هذه الأوراق التى كتبها سعد زغلول بخط .. فى صحيفة ، أخشى أن تكون الغيران أكلتها .. ذكرنى يايوسف .. عندما يعود إلى البيت سأخرج الورق وأحتفظ به فى مكان مناسب .. صحيح أنا مهمل .

أستطيع استعادة الأرض ، وتعود لنا العزبة ، لقد كنا أغنياء . كنا أغنياء ياسعاد ..

عاد أبى يحدثنى عن ناظر الحقوق .. مستر هولمز .. وبدأت أسرح وراء وجه سعاد ، أستعيد كل لحظة قضيتها معها .. كيف ترخصين بهذا . ألا تحبنى .. ألا تتألم .. إنها تحبنى ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، وماذا أستطيع أن أفعل أنا .. سعاد ليست خائفة إنه الشر الدكتور الذى جاء ليخطبها هو الشرير .. لو يموت .. كيف يعيش معها . ألا يعلم أنى أحبها .. قبلتها .. عانقتها .. شعرت بجسدها فى صدرى

وصلنا إلى مقهى بالشارع الحلقى لدار الأوبرا ، المناضد متراسة فى صف واحد طويل كأنها منضدة واحدة ، منظر لم أره من قبل فى أى مقهى ، وأنلس يجلسون على الحائى بلعبون الشطرنج ..

صاح أمى .

السلامو عليكم ..

فارتفع أكثر من صوت وكأنهم يشدون ..

رجال وشبان وكهول ، أعمار مختلفة .. شيخ معمم ، رجل سمين وجهه مسء بالدمش أمامه كأس ، المكان يفوح برائحة الخمر ، ورائحة مرحاض ، شاب بالقميص والنطلون .. عجوز أصلع يقنى بصوت مسعوع قطع العجوز

غناؤه وقال بصوت مطبوط يثير الضحك :

- العلماء كالجهلاء ..

ارتفع صوت الجميع مكملاً :

- سواء بسواء ..

دهشت ولكنى ابتسمت ، هذا مكان خرافى وقذر ، نسيبت للحظة سعاد .

أهؤلاء هم أصدقاء أبى ..

صفق أبى وزعق بصوته المرتفع :

- يا مخالى ..

وجاء قزم يمشى على مهل .

- أبوه ياسى عبد الحميد .. قهرة سادة ..

صاح أبى :

- بن ثقل .. وراحد سباتس

الكانوزة لى .. فطر إلى مخالى بعينين حذرتين .. ثم التفت إلى أبى وقال له

كأنه يهدده :

- ياسى عبد الحميد .. أنا ملخدتش حساب امبارح .. اتنين قهرة ..

قاطعه أبى .

- عارف .. بس غور من وشى

قال العجوز الذى يقنى منشداً :

- غور من وشى غور ..

ياسيدى غور .. غور ..

وانطلق صوت الرجل الذى يشرب الخمر .. صوت كالانفجار .

- لماذا تضحكين يا بقرة ..

وتجشأ ..

خيل إلى أنى أطعم .. فى كايوس .. لم يسأل أحد أنى من أكون ، ولم يقل

لهم أبى من أنا .. واسترحت لهذا الخاطر .. ودهشت لأنه جاء بهى إلى هنا .

بعد أن شرب القهوة ، كان قد نسي أنى موجود ، وضع رقعة شطرنج بينه وبين الرجل الذى يشرب ويقول الكلام القريب .

كان خصم أبى له عيان ضيقتان ساهرتان ، وعلى رأسه طريوش قصير ، رجل فى الخمسين ، يشرب بنهم ، يده ترتعش وهى تحوم فوق رقعة الشطرنج ، ثم تضيق عيناه ، وتفرج شفاته عن أسنان متاكلة ، ثم يزار ..

- عووم عووم .

ويحرك قطعة ..

وكان لا يكف عن إطلاق كلمات لا معنى لها . صباح القمر ما ينسدش . هاهما .. أنا جدع .. أنا كارنيا .. بقبى الطليتين يوماً .. ياسيدى بقبى .. ياروحى بقبى .. أخص عليكى ياملعونة .. أخص على الصرصار اللى فى الملوخية .. ويتجشأ .. وتضيق عيناه ويكز على أسنانه ويزار .. عووم .. عووم .. ويحرك قطعة ..

وأبى صامت ، كأنه يصل .. شبك يديه فوق صدره ، وأطرق برأسه ، يده يده فى تردد وخجل .. ويحرك قطعة ..

غرفت فيما أراه .. ولكنى أفقت شيئاً فشيئاً من ذهول . أبى يجلس مع هؤلاء الناس .. يعرفهم .. يصادقهم .. يلعب معهم .. أه لورانا راتبك .. لو علمت سعاد أن هذا هو المكان الذى يجلس فيه أبى كل ليلة .. مكان فقراء .. أشلاء ناس .. وشعرت بدوار

فحاة بدأ الرجل الذى يشرب يترنم بصوت جنائزى :

- نعيان جسيم لهرميل الهراملة وماظر النظار ورريس الريسة وكبير الوزرا .. المتنبخ فى شيخوخة سمعان انتهى ..

انتفض أبى وقد احمر وجهه من الغضب وصرخ :

- لا . مامتش .

قال الرجل وشفاته متدللتان وعيناه تتسعان فى مكر .

- والنبي مات .. المتنبخ فى شيخوخة سمعان انتهى .. مع ..

وتجشأ .. رائحة الخمر تطوح من فمه نفاذة وقحة .. وصرخ :

- يامخالى الكلب .. يا أذعر

والتفت الرجل إلى فحاة ، فوثب قلبى بين صلوعى ، وسألتى ماسماً وهو يغمر بعينه

- بذمك موش مخالى أذعر ..

هرب الدم من جسمى .. ولم ينقذنى إلا حضور مخالى فزعاً

وصاح الرجل مترنماً :

- هات واحد كونياك .. يبقوا كام ؟

قال مخالى هامساً

- ستة ..

صاح :

- يامخالى الكلب .. يا حرامى .

وتدخل العجوز الذى لا يكف عن الغناء .. سأل منشداً

- موته خلاص .. والا موته ..

قال الرجل السكران :

- العبقري انتصر .

ثم أكل وهو يبكى

- أه .. موته ..

صاح الرجل الذى يغنى

- لا حول ولا قوة إلا بالله ..

وتنهى ثم انشد

- الجهلاء كالعلماء .

وانطلقت الأصوات جميعاً .. الجدران والمقاعد والمناضد وقطع الشطرنج

كانت تشترك فى الغناء وتنشد

- سواء .. بسواء .

كان وجه أبى احمر ، الغيظ فى عينيه وأنفاسه ويده ، كان عاصباً ، شفاته

ترتعثان ، ويدها ترتعثان . ولكنه كان يضع القطع على الرقعة استعداداً

لمعركة جديدة وصاح أبى مسعرا :

- العبد دور تانى .

صاح خصمه

- الجهل فضلوه على العلم . يا أبا جهل

والتعت إلى وسالى

- بدمتك .. موش الاقندى ده أبو جهل ..

نظرت إلى أبى حائرا .. استنجد به ، ولكنه تجاهلنى .. وسالنى الرجل :

- وحضرتك تبقى تعرفه مدين ؟

صاح أبى :

- وانت مالك يا أخى .. واحد صاحبى .. العبد بلاش خوتت دماغنا ..

أيقنت أن أبى يريد أن يبعدنى عن هذا المكان ، لا يريد أن تربطنى به

صلة .. ولكنى ما زلت أتساءل .. لماذا رضى أن يصحبنى إلى هنا ..

ليلتها شعرت باليأس ، إننا لاشيء .. لا عوبة ولا ثروة ولا أمل .. أبى

ينتمى إلى المقهى المجنون القذر .. وبكى ..

استيقظت فى الصباح ما زلت أبكى ، وذهبت إلى الكلية ، واليأس يتضخم

فى راسى ، الحزن قاس ..

بعد انتهاء المحاضرة الأولى خرجت من المدرج وجدت نفسى سائرا نحو

بيتها .. مررت بكلية الهندسة ، حدثت فى الباب باحثا عن مدحت .. أسرعت

الخطوات حتى لا يراى ، مشيت فى اقدام ، رأسى ملتهب ، دمى يفور ، لو

رفضت فساأصفعها سأبصق فى وجهها . أحبك ياسعاد .. ستقابلينى فاتحة

ذراعيك .. وستبكين على صدرى ، وستهرين معى من البيت .. إلى أين .. إلى

بيتنا .. إلى المقهى .. نعمل معنا أوراق القضية المكتوبة بخط سعد زغلول ..

نبيعها بالكف جنيه .. لا أدري .. ولكنى ذاهب إليك .. قلبى ينبض .. أنا

الرجل الذى لا يخون .. أنا القلب الذى يحب .. سأ تزوجك ياسعاد .. لا شيء

يقف أمامى .. لا شيء .

اقتحمت البيت .. فوجدت مبروكة أمامى . قالت

- سيدى مدحت لسه ملجاش .

قلت محتدا :

- أنا عايز سنك سعاد .. روحى اندهى لها ..

بعد زمن طويل قضيت فى غيباء .. وأيتها قادمة .. لو أستطيع أن أقبل

قدميها .. أبكى أمامها . أعماق دومة .. ولكن الكلام يخرج من فمى غريبا

عنى - لا صلة له بى .. طلبت منها كتاب عصفور من الشرق ..

- اتفضل أقعد ..

رفضت .. كنت أريد أن أجرى هاربا من البيت ، أريد أن أندفع إلى

الطريق لأتوصل إليها هناك .. بعيدا عنها .. ورفعا عنى خرجت الكلمات

الغريبة ..

- مبروك ياسعاد ..

لم اسمعها وهى تتمتم بكلمات .. غلبنى الفيظ ، ما هذا الكذب أنا لا أريد

كتاب .. لا أريد أن أهنتها .. لماذا هى تعيش فى هذا البيت .. لماذا يذهب أبى

إلى ذلك المقهى .. إنها غنية .. ستعيش فى قصر .. من أنا .. حقير فقير ..

الرجل الذى ينشد والرجل الذى يسكر يسخران متى ضحكك من ألم .

- خلاص ح تتجوزى ..

- أيوه ..

أكرهك .. أنت حقيرة .. أنت غنية .. أنت خائنة .. أنا توفيق الحكيم عدو

المرأة . أحسن منك ..

- مبسوطة ..

قالت هامة :

- على إيه ..

تكذبين ، نعم أنت سعيدة بهذا الزواج .. ربما كانت صادقة .. ربما هى

ليست سعيدة .. هناك بارقة أمل .. خرج الصوت من أعماقى ..

- طيب ح تتجوزى ليه ..

قلت فى أسى .

- أعمل إيه يعني ..

اتزوجك .. انطق بالكلمة يا يوسف .. قل لها كل شيء .. حارب .. أجبها
من يدها وأطفش .. افعل ماتريد .. الكلام الحقيقي لا يخرج من فمى .. أبى
عليان .. أوراق القضية فى الصفيحة .. أمى ملئت .. هى التى تستطيع أن
تقول .. الحرب لم تنته .. المعجزة لم يجرى .. هذا البيت لم يتهدم .. المجاعة
لم تحدث .. لا أستطيع .. سكت ..

رعبت سعاد لتحضر الكتاب .. جسارة أمى كانت مثل هذا .. فاس يولون لى
ظهورهم وأبنا واقف أتفرج فى النافذة .. كل ما فى أعماقى يموت ..
عادت ومعها الكتاب .. مدت يدها .. مدت يدي .. التقينا عند الكتاب ..
وسحبت يدها وجرت إلى الداخل .. كل ما فى أعماقى مات ..

ليلة زفافها كنت أحمل قبرى بين ضلوعى .. قبر صامت لا يهمس لى
بشيء .. حزن مزم .. ألم ليس كالآلم لأنه قديم .. عيونى تتطلع فى ضجر ..
قبماى لا تستقران فى مكان .. خرجت إلى الحديقة أرقب الليل .. الظلام
يريهنى .. ترى ما الذى أنا مقبل عليه ..



عندما جاءت مبروكة إلى بيتنا ذكرتنى بالشيء الذى لم أنسه .. ذكرتنى
بالميت الذى لا يموت .. قل لى أبى والبشر يطفح من وجهه :

- ح نجيب خدامة عظيمة .. مبروكة ألى بتشتغل فى بيت راتب بك ..
كان يشهر بالفخر ، أنا أيضا شعرت بالفخر ، ولكنى خجلت من قنومها ،
كان سعاد هى التى ستجىء ، أو مدحت .. لن تأتى لتخدمنا ستفرضنا ..
سترى عيناها الفارق بين بيتنا وبيتهم ، لاحظ أبى صمتى .. فسألنى ..
إيه .. موش مسبوط ..

قلت صادقاً :

- مسبوط ..

ودهب أبى عصر يوم .. وعاد معه مبروكة ..

عاد أبى ومع مبروكة ..

أبى ومبروكة ..

لا .. لنا أتعجل الأحداث ، أقفز فوقها .. أنت يا يوسف لا تعنى إلا بتذكر
ما حدث لك .. الأمر ليس بهذه البساطة يجب أن تتذكر ما حدث لأبيك ..
لا تنس أن حياته قد لثرت فى حياتك .. أظن هذا .. على أية حال لابد أن اتضحت
بالتفاصيل .. كل التفاصيل .. الخطريكن فى التفاصيل .. فى تلك الأيام كنت
مشغولاً بنفسى ، فلم أنتبه للتحويل الكبير الذى حدث لأبى .. ما أغرب
الحياة .. نحن فى حاجة إلى قدرة إله لفهمها .. لفهم ما يدور فى رؤوسنا
وما يدور فى رؤوس الآخرين ، لنتنبأ بالصدام .. بالاحتكاك .. بالذى يؤثر ..
والذى يتأثر .. الآن .. الآن فقط .. تستطيع أن تفهم يا يوسف .. بعد أن فات
مافات .. بعد أن فات الأوان .. الله وحده يعرف ما سيحدث .. أما الإنسان ..
لقى ما يستطيعه الإنسان .. أن يعرف ما حدث ..

الآن .. كانى أطل من فوق قمة جبل .. على واد نسيح .. أرى أحداث
حياتى الماضية .. أرى ما يحدث وهو يحدث .. أرى ما يقع وهو يقع ..
لا أستطيع أن أمد يدي لأمنع شيئاً من الوقوع .. أنا بعيد ..

لافائدة من أن أرفع صوتى لأهذر .. أصرخ لأنبه .. الله قد صنع
ما صنع .. وأنا أتجرح من جديد .. كل القديم .. وأعرف ..

قبل أن يعود أبى ومع مبروكة كان قد أحيل على المعاش ، لم أهتم كثيراً
بذلك ، وكان شيئاً لم يحدث له ، إنه مازال أبى ، ما الذى يمكن أن يحدث
لأبى .. لم أنتبه إلى ما يشعر به .. لم أنتبه إلى ما يدور فى رأسه .. الآن ..
أستعيد كل التفاصيل .. وأنتبه إلى عالم أنتبه له .. تصرفاته الغريبة .. ضيقه
المقلج .. بيتنا فى شارع السعد .. تأففه من دكان الطرشى .. نهاره فى البيت
كالأسد المحبوس فى العرين .. كتب الشطرنج التى اشتراها والقلم الأحمر فى
يده .. يضع للخطوط الحمراء تحت السطور وكأنه يصحح الكراسات ، يقرأ فى
الكتيب ويلعب نفسه بالشطرنج الذى اشتراه .. شجاره مع قسامة
القمامة .. اكصى يابى .. امسحى يابى .. الجرنال فى يابى .. اغسل

الرجيع يابت .. الاكل شاط يابت .. وهربت فاطمة .. وارتفع صوت أبي في العلم غاضباً على أولاد الشيخ سليمة .. وضرب يافع الخيار في الشارع والتف حوله الناس .. كنت لا أكره .. وعندما ينهب إلى المقهى لا أكره .. حتى عندما أعل رغبته المفاجئة في الانتقال ، لم أدرك أنه ضائع وحيد .. يتهازل عالمه من أمامه .. تطرد الحياة إلى هامش الحياة .. يصرخ كالمستغيث ، ولا أحد يغيث .. دهشت لأنه يريد أن يتخلى عن البيت الذي عاشت فيه أمي ، ولكن فرحتي بالفرار من ذلك البيت طغت على دهشتي . أخيراً تخلصنا من حي الفقراء ، وذهبنا لنعيش في شارع الفلكي عند حدود حي الأغنياء .. حيث الهدوء .. حيث لا جيران يختلطون بنا ويختلط بهم .. لا أصوات تزعق وتصرخ وتتساجر في الطريق .. لا أولاد حفاة في الشارع . لا ألم في العينين .. ولا بشاعة في الرائحة .. على بعد خطوات تقع سراي محمد باشا محمود رئيس الوزراء السابق .. الأشجار مورقة في الحديقة الواسعة والحراس يقفون عند الباب ، يملأ منظرهم خطواتي بالرهبة والوقار .

سكننا في شقة صغيرة هادئة بشارع الفلكي ، تضم الاثاث القديم وكنت مرتاحاً إليها ، فالشارع هادئ ، والعمارة نظيفة .. تختلف تماماً عن بيتنا في حارة زكي .. رغم أنني كنت أشعر أحياناً بالحنين إلى حجرات بيتنا القديم ، الحجرات الواسعة ، والسقوف العالية ، وأشعر بالحنين إلى أمي وهي تتحرك في البيت القديم تملأ بصوتها وأنفاسها ..

كنت جالساً في غرفتي ، بعد عودتي من الكلية ، أكل حلالة طحينية عندما دخل أبي البيت ، خرجت إلى الصلاة ، فرأيتها معه ، لم أرها .. رايت أهل بيت راتب بك كلهم .. سعاد .. منحت .. الست الصغيرة .. راتب بك .. إسماعيل الخادم . عثمان البواب . ومن وراء الجميع شبح الست الكبيرة ، خرجت من قبرها لترقب هذا الشيء القريب الذي هو بيتنا .

اقتحموا البيت معها . وجوههم ساخرة ، شامته ، مترفعة .. تنهمني بالكتب . تقول لي ، لقد خدعنا ، لو كنا نعرف أن هذا هو بيتك ، وهذه هي

حقيقتك ، لما سمحنا لك بزيارتنا والاختلاط بنا .. سعاد تقول ، ما أضيع الساعات التي قضيتها معك .. الست الكبيرة تنظر إلى في شفقة ورثاء . راوي وأنا ارتدي البيجاما ..

كلن أبي يعمل مبروكه وكأنها واحدة منهم يتقدمها إلى حجرته واقتحم معها حجرتي .. نظراتها تذكرني بهم .. نظرات وقورة مترعة كتنظراتهم .. لم اسمع ماذا يقول لها أبي .. لم أفهم شيئاً على الإطلاق .. حتى سألتها أبي أين تريد أن تنام ؟ عندئذ أفقت عن صوتها وهي تشير إلى حجرة الأكل قائلة .
.. أنام هنا ..

في تلك اللحظة ، اكتشفت أن الفستان الذي ترتديه ، هو فستان قديم لسعاد .. فوجئت .. فستان سعاد في بيتنا .. سألتني أبي عن رأيي ، فوافقت في الحال على اقتراحها ، وأنا أريد أن أهرب من أمامها ..

اختلفت معاملة أبي لمبروكه عن معاملته لفاطمة ، خيل لي أنه عن استعداد لأن يخدمها هو . وأن مجرد وجودها في البيت شيء باهر بالنسبة له ، أما أنا فقد تجاهلتها تماماً ، رفضت أن أفكر في مجيئها .. ووجودها معنا في البيت .. لن أعاملها مثل معاملة أبي ، سأتحصن بكبريائي ، سأظل أعاملها وكأنها لا تعرف حقيقتنا ، وكأنني مدحت أو أي فرد آخر من بيت راتب بك .. وكنت اسمع صوتها ينطلق ، أو ألاحظ ابتسامة تطوف بوجهها فأهرب بأذني وأهرب بعيني ، وأذهب إلى حجرتي وأغلق على نفسي الباب وفي الصباح أفر من البيت كأنه ليس بيتي ..

ولكني لاحظت تغيراً مفاجئاً في البيت ، أصبح نظيفاً ، وحجرتي مرتبة ، وملاءة السرير بيضاء والبيجاما مطوية بعناية فوق السرير .. وأصبح أبي أكثر هدوءاً ، كنت أراه يشرب الشاي في الصباح وعلى وجهه ابتسامة ورضاء ، يتتبع مبروكه في سعادة وفرحة ، عيخيل لي أنه يتوهم نفسه راتب بك ..

كانت صلتى بمدحت قد أصابها الفتور منذ تزوجت سعاد ، تتقابل صدفة في الطريق أمام باب الجامعة فيتهلل وجهانا ، ويرحب بي وأرحب به ، ويتبادل

العقاب لأننا لا نلتقي مثلما كنا فعل في الماضي ، وأشعر بوحز الألم ، إذ أتذكر
سعاد في وجهه ، كنت مازلت أحسها .. ثم يغيب عن مدحت ، ولا أراه ، حتى
نتقابل بعد صدمة أخرى ، بعد أسابيع أو شهور ، لم أعد أتربد على بيته ، ولم
يعد هو يسألني أن أزوره ، وكنت واثقاً أنه وجد أصدقاءه الحقيقيين ، من
نفس طبقة .. أغنياء مثله ، يملكون العربات ويلعبون بالنقود ، ويعرفون
البنات ..

أحد الأيام التقيت بمدحت وأنا في طريقى إلى ميدان الجيزة ، جذبتني من
يدى في حماس ، وفي عينيه بريق غير عادي ، كأنه يتفحصني ، أو يبحث عن
شيء ما في داخلي ، ثم سألني في لهفة :

- عامل إيه مع مبروكة ؟

ثم أتهم مغزى سؤاله ، وخجلت فتلعثمت .

صاح وعلى شفطيه ابتسامة مأكرة .

- اطلع من دول .. مانتخبش عنى حاجة ..

قلت في خوف :

- أخبى إيه ؟

قال ضاحكاً في وقاحة :

- بقى بدمتك ماعملتش معها حاجة ؟

- حاجة إيه ؟

هتف :

- ده أنت خيبه قوى

ثم عاد يلح وعيناه تتفحصني في غير تصديق :

- عايز تقول إن ماحصلش بينكم حاجة لحد بلوقت ؟

قلت في حدة

- قصدك إيه ؟

فمضى يروى لي مغامراته مع مبروكة ، استمعت إليه وأنا أكتف دهشتي ،

وقد خلجنى شعور غريب بالمرور ، لأن مجيء مبروكة عندنا يثير حسده
وغيرته ، ويشعره بأن عندي شيئاً يفتقده هو .. كان يكلمني وكأنني عندي كنز
محروم هو منه ..

وقال في لهفة

- بنت هائلة يا ابني .. بقى ماحدتش بالك من جسمها .. لهلوية .. والله
أحسن من كل البنات اللي بنخرج معاهم . مافكرتش أبدأ تبوسها . جرب ..
اصمع كلامي ماتبقاش عبيط .. دي فرصة . أنت وهيه لوحدكم في البيت ..
عسى ما بيخرجش . آمال أنا أقول إيه . البيت عندنا مليان .. تعرف يوم
ماما ماطبطتنا . انا قلت خلاص ح يمنعوا عنى المصروف وروح يطردوها ..
أد يرحمها ستي هيه اللي خليتها تقعد .. ماحدش قدر يقوللها حاجة ..

وحذق في وجهي وقال مشجعاً

- هه .. ح تجرب النهاردة ؟

فلما لاحظ ارتباكى ، صرخ في حماس

- بشرى .. البت ماعندهاش مانع .. دي فلاحه .. بس أنت ماتتكشفش ..
اصمع .. أنا أقولك إزاي .. استنى لحد ما عسى يخرج من البيت .. واند
لها . اشخط فيها .. وتوللها قلعينى الهدوم .. ح تسمع كلامك على طول ..
وامسكها .. وامسكها .. موش ح تقول لك حاجة .. ماترتبكش .

وشرح لي في اهتمام ، كيف أثرها وأجعلها تستسلم لي ، كان يشرح وكأنه
يتخيل كل شيء .. كأنه يتمنى أن يكون مكانى .. ولم يتركني حتى وعدته بأن
أنفذ خطته .

وعدت إلى البيت ، وفي رأسي أفكار جامحة ..

كأنني كنت أنتظر تصريح مدحت لي حتى أغازلها وأفكر فيها كامرأة ..
مادام مدحت قد فعل هذا ، فلاحرج على ، لن ينقص من قدرى أن أمد يدي
إليها وأقربها ، أولاد الأغنياء يعطون هذا ، مدحت بالدات قد فعل هذا
نعم .. هذه هي فرصتى . سأفعل مثله .

مند أن كنت في مدرسة الخديوي إسماعيل وأنا أسمع عن مقامات التلاميذ مع الحاديات ، وأسمع النكات الجنسية ، والقصص المثيرة يروونها بلذة وشغف ، يتهاوس بها التلاميذ الصغار ، ويجأر بها التلاميذ الكبار ويضحكون ، وفي نبرات صوتهم ثقة واعتداد ووقاحة ، كنت أسأل نفسي لماذا لا أفعل مثلهم ، لماذا لا أحاول مع فاطمة .. كنت أراها راقدة في المطبخ تعري فخذيها ، فأسمع طنيناً في رأسي وتتجمع نظراتي فوق جسدها كأنها تتحسس وتتقطع أنفاسي ، ولكن رغبتني تختلط بمخاوف تحاصرني ، أتوهم أن عيوناً ترقبني ، وترصد حركاتي ، أرى وجه أمي حزيناً محزوناً ، أرى أبي كأنه يهددني ويأمرني بالابتعاد عنها ، وأقاوم رغبة مسعورة في الانحناء ولس فخذها أو صدرها ، يدأي ترتعشان باردتان ، ورأسي يضج وفي أعمالي مغمض ، ويشدني الألم والخجل ، فأقرر من أمامها وأعود إلى غرفتي مؤرقاً ، رغبتني قاسية .. وأحلم أحلام اليقظة ..

عندما أحببت سعاد ، كنت أحلم بها ، ولكن الأمي هدا ، لم تكن رغبتني قاسية ، وكان الحب في قلبي أعنف من المغمض في أعمالي ، وشوقني إلى رؤيتها ولس يدها ، أهم عندي من أحلام اليقظة التي تهدأ كلما فكرت في أننا سنزوجه يوماً ما .

علمني حبى لسعاد أن أترفع عن مشاركة الطلبة في الكلية في أحاديثهم التي لا تنقطع عن الجنس يتندرون بحكايات عن الخاديات وحكايات عن بنات يقضين الليل في بيوتهم ، كنت أسمعهم من بعيد فأفكر في سعاد وبتنابني الفرع ، إنها ليست واحدة من أولئك البنات الشريرات ، سأحميها حتى من حواطري ، لن تسقط في خيالي ، ستظل دائماً الملاك الطاهر العفيف ومع ذلك لم يكن الأمر هيباً ، أعود إلى البيت وأرى فاطمة فتتحرك رغباتي ، ويتكلم عفى .. قاوم ، لا تمس هذه الخادمة القنطرة الحلقية ، التراب في شعرها ، الرائحة الكريهة تفوح من جسدها ، الشقوق في جلدها ، احفظ لجسدك نظامه وطهارته .. من أحل سعاد ، ولكن الكلمات تنوب ، والعقل ينهار ،

والرغبة تشقد ، ولا يمتنعني في النهاية من المحلولة ، سوى هذا الوحي المحير ، يأتي خائف ، ويأتى ألى وألى معي ، يرقباني وينصتني إلى خلجات نفسي .

بعد أن تزوجت سعاد أصبحت كالمريض ، أفكر في رغبتني كالعاجز الضعيف ، كان سدوداً هائلة بيبي وبين أية امرأة ، قوة طاغية تدفعني بعيداً ، أرغب وفي يقيني أنني لن أحقق أبداً ما أرغب فيه . وقرات باهتمام وصف توفيق الحكيم لنفسه بأنه راهب فكر .. أنا راهب فوق الجسد ، سأضعف وأضمحل ، سأصبح نحيلاً شاففاً كالفكرة .. كالخيال .. سأصبح قنأناً عظيماً وأكتب القصص .. وأمسكت بكتب توفيق الحكيم ، والتهتمتها من جديد ، وتاملت وجهي في المرآة ، أبحث عن الشرود في عيني ، ورحبت بالشجن الغامض وسمعت له بأن يجتاح صدري ، وسخرت من المرأة وقلت لزملائي في الكلية .. أنا فنان .. وكلما رأيت طالبة شعرت بجسدي يتصلب ، ورفعت عيني فوقها ، أعبدتها وكل إحساس غامر بأنها تعرف أنني أجاهلها ، ولا أكره بأنوثتها ، بل أحتقرها وأترفع عنها .

ولكني اليوم عائد إلى البيت والامل الخائف يعاودني من جديد سأحاول مع مبروكة ، لست راهباً تماماً ، لست فنانياً كتوفيق الحكيم ، لماذا أدفع بنفسني في طريق العذاب ، سأعيش كما يعيش الآخرون ، سأصبح وكيلاً للنيابة وقاضياً ومستشاراً ، ربما أصبحت وزيراً .. الدنيا كلها تحت أقدامي ، سأحتاج هذا البلد بنفوذى ساطرد الانجليز وأصبح رئيساً للوزارة ، المال يتكس في خزائني ، القصور تحت أمري ، سأزوج إحدى الأميرات ..

بعد ساعة واحدة ستكون مبروكة ملكي ..

لو صرخت .. القانون .. جريمة هناك العرض .. إنها في مثل سنني .. لقد بلغت العشرين .. رضائها يعفيني من العقاب .. لن استعمل القوة .. لو ادعت أنني اعتديت عليها .. لو .. ملحت يقول إنها فلاحه . أبي يصفعها فتسكت .. ولكن موقفي سيكون سيئاً .. قصيحة .. لا يهم . سيضيع مستقبل .. لا يهم .. سيحزن أبي .. لا يهم .. سأفقد .. مثل الطلبة الذين

يتندرون بمغامراتهم .. سأتعاطى الحشيش مثلهم .. سأصبح مثل أنفث ..
وطنى ورئيس وبراء ويركب هذا .. وكيل خلية يحقق مع المجرمين وهو
مجرم .. لا يهتم .. لا يهتمى شيء ..

كان أبى فى المقهى ، ومبروكة كثيرة الحركة فى البيت ، قلت لنفسى إنها
تدعونى إلى نفسها ، لم أجرو على النظر إليها ، كنت أنظر إلى الصور المتداخلة
فى خيالى ، حسدها العارى . كلمات مدحت . كل شيء أراه يحدث أمامى أين
يحدث . فى عرفتى أغلق الباب علينا .. أناديها الآن قبل قواف الأوان ..
ارتفعت الأصوات فى رأسى صارخة فائرة حتى لم أعد أتحمل .. ذهبت إلى
حجرة الطعام وفتحت الراديو .. امتلا البيت بالحن تشايكوفسكى .
الدكتور جريس فى كلية الآداب . نذهب إليه ظهر كل أربعماء ونسمع الموسيقى
الكلاسيك فى أحد الفصول . نظاراته السمبكة فوق عينيه الضيقتين ..
جسمه النحيل الرشيق .. صوته المغم ومه المرء باللعب .. كان يحدثنا عن
سمر الفن .. التحليق فى عالم الجمال .. أنتم بشر .. أنتم تختلفون عن
الحيوانات ، كان تشايكوفسكى معذبا .. مصابا بالشذوذ الجنسى . كان
يتألم ويقارم .. كان يصرخ .. انفعالاته أقوى من أنكاره . عواطفه الحادة
أوضح من عقله .. إنه فنان عظيم ولكن ينقصه شيء .. الموسيقى ودمائى
الفائرة شيء واحد ..

فجأة رأيتها أمامى .. لا أذكر ماذا قالت .. لم أسمعها جيداً .. ولكنها
تعترض على الموسيقى الكلاسيك . تريد سماع شيء آخر من محطة مصر ..
وشرت ..

تحولت رغبتى الحامحة إلى حقد محموم .. اندفعت الثورة من فمى أدافع
عن نفسى .. أدفع الخوف عنى .. أهاجم الفضيحة التى تصدق بى ..
الفضيحة المستقرة فى رأسى .. ربما لأنها هى التى جاءت تأمرنى .. لو كانت
انتظرت قليلا .. ربما كان قد تغير كل شيء .. كنت ناديتها .. هى التى
جاءت .. تتكلم كسيدة .. تعاملنى كصاحبة بيت .. صاحبة مزاج .. تقول لى
إنها ليست خادمة فى هذا البيت . لست مدحت .

- أنت فأكبر نفسك إليه .. خدامه ..

طربتها من الحجرة .. وذهبت إلى حجرتى .. ولكن الرغبة اجتاحتنى
عذيفة مدمرة ، خرجت إليها فوجدتها فى الحمام .. الماء يسيل فى الداخل .
يفسل جسدها .. الجسد الأسمر .. يفوح برائحة اللحم .. أكاد أشمها ..
الماء يسيل .. صوت الماء يثبتنى .. جسدها يتحرك تحت الماء .. يداها
تتحسان جسدها .. تحسان جسدى .. أطرق الباب .. أناديها الآن ..
أقتحم الباب .. سكت صوت الماء .. وساد صمت غريب .. عدت متسللا إلى
حجرتى ، أخشى سماع صوت خطواتى . أخجل من أن تعرف أنى وقفت
بالقرب من الباب .. كانى شحاذ ..

لم أستقر فى حجرتى . فتحت الباب .. لمسمعت صوتها .. تغنى .. مرحة
قوية مسيطرة .. حيوان غبى .. حيوان شعره طويل . يغنى .. صوتها
يتحداسى .. يستفزنى .. يصرخ فى أذنى .. صوتها المرتفع فى البيت يقول لى ،
أنت لاشيء ، أنت فقير ، ليس هذا مكانى .. كنت أعيش فى بيت أحسن من
هذا .. لن أعاملك كسيد .. لا أعترف بمحاولاتك لأن تكون سيداً .. لا قيمة
لثقافتك .. إنى أسخر من الموسيقى الغربية التى تسمعها . أترك كل هذا ..
أنسه .. تعال هنا .. واركن أمامى .. واعترف لى .. أنا وأنت شيء واحد ..
لا تتكبر .. لا تترفع .. لا تفكر فيما ليس لك .. إنى أهزأ بك .. تعال ...
تعال

نحبت إلى الحمام فوجدت الباب موارباً ، الرغبة فى عيني ، وعيناي تنظران
إلى الأرض .. الرغبة فى يدي ويداي متشجعتان خلف ظهري .. الرغبة فى
صدرى وصدرى لا يزغر الهواء ولا يستنشق ، كان حياتى توقفت .. خرج
الصوت الكاذب من فمى يأمرها بالآ تغنى .. الحيوان الغبى .. قابلت
صراخى ببلادة .. وضحكت .. لو لم تضحك .. لو تكف عن أمامتى . لو
تجعلنى أشعر بأنى أحسن من هذا .. لو تتركنى أحلم بأنى مدحت ..

عدت إلى حجرتى مرهقا ، صداع فى رأسى ، وتعبد يلدع مفاصلى ، لم أعد
أفكر فى شيء .. أمامى منضدة عليها أوراق ، أنا حسد يجلس على مقعد ، هذه

حجرة لها جدران ونافذة . صوت الموقد في المطبخ .. أسمع وأرى . وكأن
لا صلة لي بالآشياء . لا علاقة بيني وبين جسدي .. وجاءت مبروكة تحمل
الشاي ، وصعته أمامي .. الشاي لونه أحمر .. هذا هو كل شيء .. للشاي
لونه أحمر .. مبروكة بجاني .. قالت كلمة أو كلمتين . وخرجت ..

ظهر اليوم التالي ، جاعى مدحت عامداً ، والبريق في عينيه ، وابتنسامة
الماكرو مازالت هناك على شفثيه ، عرفت أنه يريد أن يسمع .

- هيه . عملت إيه امبارح .. اطرقت براسي ، وابتنسمت ، كنت ابتنسم من
الحيرة .. من اليأس . ولكنه قال في انفعال :

- ما تتكلم .. عملت اللي قلتك عليه ..

وحلق لي وجهي مستريياً وسأل .

- ابتنسبت ؟

ابتنسبت ابتنسامتي ، ماذا أقول له ..

وللمحظة تجهم وجهه وقال :

- أوعى تكون ما عملتش حاجة . لن أقول لك الحقيقة ، لو أستطيع أن أقولها

لك .. لقلتها .. ولكني لا أفهم ماذا حدث لي ، أشياء كثيرة تضاربت في أعماقي

شيء محير ، لو أفهم . لو كان ما حدث واضحاً لاعترفت لك بكل شيء ...

ولكني لن أستطيع أن أكذب .. كل ما أستطيعه هو أن ابتنسم ..

- إيه الابتسامة الخبيثة اللي على وشك دي .. ما تتكلم يا أخى .. لازم
سويت الهوايل يا ابن الإيه .

ابتنسامتي تخدعه ، تكذب عليه ، لابد أن أقول شيئاً .. همست :

- ما عملتش حاجة .

- لا يا شيخ ..

لم يصدقني .. وشعرت براحة كبيرة لأنه لم يصدقني .. ولجأت إلى

ابتنسامتي الكاذبة من حديد ..

- مفي متخبي على .. موش أنا يا قولك كل حاجة ..

- ح أحيي إيه .

ضحك مشجعاً وقال :

- باين عليك مكسوف من اللي عملته .. تعال اتغدي معايا ..

إنه يعلمني كبتل ، يدعوني إلى الغذاء بعد كل هذه القطيعة عن بيته ،

مهتم بأمري كأنى صديق حقيقي له ، يريد أن يسمع مني ، ويقول لي ، كل

هذا لأنى كذبت ، لأنى ابتنسمت ، أه لو يعرف الحقيقة .. الحقيقة التي

لا أعرفها .. لو قلت له ، إنى استمعت إلى تشايكوفسكي فكزت في أنى

لا أستطيع أن أكون مثله ، وأن مبروكة ليست خادمة في بيتنا كما كانت خادمة

في بيتهم ، لو حدثته عن القانون والفضيحة .. لو حدثته عن رغبتى .. الماء

يسيل في الحمام .. خطواتي المتسلسلة . لون الشاي الأحمر .. سيفتح فمه من

الدهشة وينظر إلى كغريب ، كان لا يدعوني إلى الغذاء .. الصديق الذي في

أعماقي غريب ، متشابك ، معقد ، كيف وصلت إلى هذا .. أين رغبتى في أن

أحتضن أمي .. أين طفولتي .. أين بساطة نفسي .. اختلطت الأمور .. أريد

أن أخرج .. أنا لست أنا .. كم تظن يا مدحت ، أسألتك ترمقني ، نظراتك

وحكاياتك ، تمزقني .. الوقت يضيع معك .. الساعات تتبدد بلا معنى .

ولكن بيت مدحت أراحني .. جالت عيناى في كل مكان ، حيث كنت أرى

سعاد ، ونظرت إلى بداية السلم الذي يصعد إلى السطوح ، من هنا صعدنا إلى

فوق ، ونهائسنا بكلمات الحب ، وقبلتها ، وضحكنا وأعبنا البنج بنج .. إنى

مستريح لأنى لم المس مبروكة بالأمس ، جئت إليك يا سعاد نظيفاً ، مازلت

أنتيك ، مازلت أحبك .. مازلت أضحي بأياى من أجل ذكرياتى معك ..

في هذا البيت ، مبروكة خادمة .. وسأظل كما أنا ، الرجل المترفع ، الذي

لا يقصد .. مكانك يا مبروكة هناك في السطوح .. أما أنا فمشغول عنك بهذا

الذي في أعماقي .. الفن .. الجمال .. الثقافة .. براعة نفسي .. احترامى

لنفسى ..

فمن مدحت :

- تيجي معنا الليلة ..

- في ...

ضحك ساخرأ وقال .

- ما هو بلوقت الواحد يقدر يقولك تعال .. ففقت عذريتك ..

وابتسمت ..

قال مدحت :

- ح نروح بيت سوزى .. معاك فلوس ..

- كام .

- تدفع لها جنيه ..

لاحظ التردد على وجهي ، فأسرع قائلاً :

- ما تخفش .. ادفع لك انا ..

وابتسمت .. هذه هي فرصتك يا يوسف ، اذهب معه وحاول ، تخلف من كل هذا الضجيج الأبله في رأسك .. استعد للقاء مبروكه إنها مازالت هناك في البيت .. تنتظرك .. لن تستريح حتى تحول ابتسامتك الكاذبة إلى حقيقة ، وترى لمدحت ما فعلته مع مبروكه .

كنا خمسة في سيارة أحد زملاء مدحت في كلية الهندسة ، قدمني لهم مدحت وهو يقول في اهتمام لا يخلو من سخرية :

- السامي ده وراء دواهي .. ده خطر ..

وقلت العربى أمام عمارة في شارع جانبي متفرع من شارع الانتيكفانة ، وصعدنا إلى الطابق الرابع ، وضغط واحد منهم جرس شقة عليها لوحة نحاسية باسم أحد المحامين .. ففتح الباب ، رجل أسمر شعره لامع ، يرتدى الروب دى شامبر . نظر إلينا في وجوم ، ثم تهلل وجهه وقد عرف بعض الوجوه ، ورحب بنا ، وتقدمنا إلى صالون فاخر ، كائن في بيت راتب بك .. واختفى الرجل وهو يهمس :

- سوزى جاية حالا ..

لم نحلس على المقاعد ، كانوا يتهايمسون ، وبعضهم يصفر في انفعال ، والضحكات متحشجة مكتومة ، والزعوس سريعة التلعت والعيون تلمع .

والشفاه مفتوحة ، يتبادلون كلمات حادة ساخرة ، ويقفزون من موضوع إلى موضوع كإن شيئاً يطارد أفكارهم .. وأنا أرقبهم في دهشة وصمت ، ولحساس قوي بنقعى يتزايد ويتصخم ..

أطلت سوزى من الباب ، وقالت في وقار لم أتوقعه !

- بونسواريا بهوات .. موش قاعدين ليه ..

مجموا عليها واحاطوا بها ، ووقعت بعيداً ، ذاهلاً ، ولكنى متبته إلى كل خلجة في وجهها ، كل حركة في شفيتها ، عياني لاتعارقها ، حتى التقت عيناها ، فضحكت .. ضحكة جريئة .. وسألتنى ..

- أنت واقف بعيد كده ليه

تكلمت فلم يخرج الكلام من فمي ..

وسألتهم ...

- هو ماله ..

صاح مدحت :

- هو كده .. لكن خطير .. خدى بالك منه ..

صوبت إلى عيني فاحصتين وقالت بسرعة .

- ده باين عليه لسه صغير ..

تحركت نحوها ، كائن اتحدى كلماتها ، حتى انضمت إليهم .. وصحت بصوت غريب .. ربما حاولت تقليد مدحت في لهجته .

- أه .. لسه صغير ..

وابتسمت .. لعل اخذعها بابتسامتي ..

تقدمت منى ، ومدت يدها إلى ذقني وداعبتها بأمانها ، وانفعال ضخم في صدري .. كائن انتفخ بهواء ملتهب .. وقالت ضاحكة .

- بلوقت نشوف .

وعلمت أنى لن أفعل شيئاً ، حتى المحاولة لن أحاولها ..

سألتنى سوزى ..

- أنت الاول ..

صاح أحد أصدقاء مدحت ..

- لا . أنا .

فغضب مدحت وقال :

- يوسف الأول ..

قلت في حده :

- لا .. أنا موش عايز ...

سألتني سوزى في دهشة واستهزاء ..

- ليه .. هره أنت من الإخوان المسلمين ..

وسمعت مدحت يهمس في أذني ..

- إيه .. مالك .. في حاجة زعلتك .

قلت في ضيق :

- لا .. موش عايز ..

مضت أيام وأسابيع بعد تلك الليلة .. وأنا أهمس لنفسى بصوت

مسموع .. لا موش عايز .. لا موش عايز .. فأشعر بالأمان .. وأشعر

بالعذاب لأنى لست مثل الآخرين ...

-

الفصل الرابع

سعد عبد الجواد .. نعم سعد عبد الجواد .. من غيره أذكره الآن ، كان لابد أن تقفز يا سعد من مكانك الذى تختبئ فيه بين ذكرياتى وتظهر .. لا أحد يحلم عنك شيئاً .. أنت أحد أسرارى التى لم أبح بها لأحد .. وجهك الأبيض المستطيل وعيناك الواسعتان العميلتان ، وذقنك المستدير .. الجميع كانوا يعرفونك في الكلية .. أول دفعتنا .. ولكن أحد لم يعرفك مثلى .. وأنت أيضاً عرفتني كما لا يعرفنى أحد .

كنت أرقبك من بعيد وأقول لنفسى ماسر تفوق هذا الطالب علينا ، وأشعر بالغبط .. ربما كنت أشعر بالحسد أيضاً ، رغم فقرى ، رغم بدلتك الرمادية التى لا تغيرها أبداً كأنها جزء من جسمك ، كأنها جلدك ..

كان سعد يتحرك بيننا مرهاً ضاحكاً ، لا يبدو عليه أنه يذاكر دروسه ، لم يكن يفعل كالطلبة الأوائل الذين يحفظون ما في الكتب والمذكرات عن ظهر قلب ، ويتزعمون بعيداً عن بقية الطلبة ، أنوفهم ممدوسة في الكتب ، وجوههم شاحبة ، ونظراتهم مستكنة جبابة ، بالعكس .. كان سعد يجلس في المدرج يرقب الأستاذ والطلبة كأنه يشاهد مسرحية مسلية ، الجميع يكتبون كل حرف ينطق به الأستاذ ، وهو لا يكتب كالطلبة اليائسين من النجاح ، وأحياناً يغيب أسبوعاً أو أسبوعين ، تغوته محاضرات كثيرة ، ثم يعود إلى الكلية ، وليس

على وجهه أية علامة جزع ، ويقف مع الأساتذة بعد المحاضرات يناقشهم فيستمعون إليه في اهتمام وكانهم يناقشون زميلاً لهم .

أدهشني من سعد ، اشتراكه في المظاهرات ، وحماسه للمناقشة في السياسة ، كان يكره الألمان ويقول عنهم إنهم نازيون ، وينطق بالكلمة كأنها سباب ، ورغم أن كلمة نازي كان لها تأثير سحري في نفوس الطلبة .. حتى في نفسي .. وكان يكره الإنجليز والفرنسيين والأمريكيين ولا يحب إلا الروس .. كنت أقترّب منه أحياناً عندما يقف مع أحد الأساتذة ويناقشه في السياسة فيجتمع حولهما حلقة من الطلبة انضم لها .. وسمعت مدرس القانون المدني الدكتور عبد الوهاب وهو يقول له ذات مرة :

- أنت باين عليك شيوعي .

وكانت كلمة شيوعي لها وقع غريب في نفوسنا ، وقع غامض له صلة بالإباحية .. وفساد الأخلاق واستباحة الأعراض .. وضحكنا ، ولكن سعد قال في حماس وعناد ..

- موش أحسن ما أكون فاشيستى والا نازي .

ودارت مناقشة اشترك فيها بعض الطلبة ، لم أفهم منهم شيئاً ، إذا سرحت وتذكرت حماس أبي للامان وتأكيدهم أنهم سينتصرون في الحرب .. وكان سعد لا تفوته مظاهرة ، وكان دائماً يهتف مع انصار الوفد ، رغم أنه لا يبدو عليه أنه وفدي ، إذا كان في مناسبات كثيرة يطلق النكات على الوفديين ، ولم يكن يجتمع معهم ، وذات يوم حاصر رجال الشرطة الجامعة ، ووقفوا في طوابير على رؤوسهم الخوذات وفي أيديهم البهراوات ، ويصيحون ويجول أمامهم ضباط يركبون الخيل ، ونسى الطلبة خلافاتهم ، كانوا يهتفون هتافات مختلفة للوفد لا زعيم إلا النحاس وللألمان .. إلى الامام ياروميل وللملك يعيش جلالة الملك . والله .. الله أكبر والله الحمد .. ثم هبطت حمى الهتافات ، وارتفعت حمى مقاومة حصار الشرطة .. وبدأوا يكسرون حجارة سور الجامعة ويجمعون الزلط المعد للاستعمال في بناء جديد ، ويقذفون رجال الشرطة .. ورأيت سعد وهو يجذب في يده أحد خراطيم الحريق

ليصوب المياه على الحصار المصروب .. وخفت .. فجريت إلى داخل الكلية ناجياً بنفسى ، ورأيت في المدرج الكثير طالدين يلعبان الشطرنج ، فجلست بالقرب منهما اتفرج وأنصت في وجل إلى الصباح القادم من بعيد .

واتوهم وقوع معركة دامية يسقط فيها قتلى وجرحى ، فارداد انكماشاً ، وأفكر في الاختباء تحت المقاعد إذا ما هاجم الشرطة الكلية واقتحموها ليقبضوا علينا .

وفجأة لحت سعد بشل المدرج ، ونظر إلينا في دهشة وسأل .

- هوه كان فيه محاضرات ؟

لم يلتفت إليّ أحد سوى .. وقلت له :

- لا ..

فابتسم قائلاً :

- أmaal قاعدين هنا بتعملوا إيه ؟

قلت :

- مستنيين الدوشة ثلث بره لما تخلص ..

فنظر إلّ طويلًا ، ثم قال في هدوء لا يخلو من المرح :

- يعني احنا نموت نفسنا بره .. وأنتم قاعدين زى البهوات .. هيه دي موش بلدكم ..

لم يصرخ ، ولم يحد ، كان يتكلم وكأنه يخاطب نفسه ، وجمعتني على أن أجيب .

- يعني ح نعمل إيه ..

فقال باسم :

- ولا حاجة .

وتقدم منا ، ووقف يرقب معركة الشطرنج ، كان مترباً ، وجهه محمر ينضج بالحرق ، ولكنه باسم ، وعيناه العميقتان تشعان ببريق ذكي ، ولم يطلق المسكوت فتدخل بين اللاعبين ، ينصح كل واحد منهما بأن يلعب نقلة معينة ، فهذا حلول للاعب أن ينقل قطعة أخرى مد يده إلى الرقعة وصمم على تنفيذ

اقتراحه . وساد من حولنا صمت كبير ، كأننا في مكان مهجور ، وكانت ساعة المدرج تقترب من الثالثة ، والجوع يقرصني ، ولكني مستسلم إلى ما أنا فيه ، لا أريد مغادرة مكاني . ثم خطر لي أن سر الصمت ، هو أن سعد قد كف عن التدخل بنصائحنا للاعبين ، وأنه قد أمسك بعداكرتي يقرؤها ..

لم أقل له شيئا ، جلست أرقبه ، وأما في دهشة من قدرته على المذاكرة في مثل هذا الوقت ، حتى التفت إليّ وسألني ووجهه متجه .

- الكلام ده قاله الأستاذ امتي ..

- في المحاضرة ..

- أنت متأكد ..

قلت في عناد ، وقد خيل إليّ أنه سيتهمني بأنني لم أهتم المحاضرة :

- يعني ح أجيبه منين ..

شرد قليلاً .. ثم قال في ضيق .

- تصور .. أهى النقطة دي كانت ح تفوتني .. برضه أحسن الواحد يحضر محاضرات المرافعات ..

كان هذا الحديث هربداية صد اقتني له . يومها طلب مني أن أذهب معه إلى بيته لينقل بعض المحاضرات من كراستي ، ولم أتردد في موافقته ، إذ شعرت بالفخر لأنني سأساعد أول الدفعة ، وكان عندي فضول شديد لمعرفة المزيد عن حياته .. كيف يذاكر ، وكيف يتفوق علينا جميعا .

كان يسكن في المنيل ، في بيت مهدم يطل على أرض خراب مليئة بالأكواخ والعشش والقاذورات ومن بعدها النيل ، وكان في البيت أمه قزعة تليس السواد حدادا على أبيه الذي توفي منذ سنوات ، وأخوه سيد الذي قال لي متباهيا إنه بقال ، وأخوته البنات ، وكان يذاكر وينام في حجرة تطل على النيل ، فيها سرير واحد له ولأخيه سيد ، الذي كان ينام على حصير في الصالة إذا تأخر في المذاكرة ، وصمم على أن أقضي الليلة معه .

كانت طريقتي في المذاكرة غريبة ، علمت منه أنه قرا كل الكتب المقررة علينا قبل أن يبدأ العام الدراسي ، وقد حصل على الكتب من أحد مدرسي الكلية ، إذ

زاره في بيته ، وقال له إنه فقير وإن يستطيع شراء الكتب ، فأعطاهها له وفي أثناء الدراسة يقرأ المراجع الأجنبية التي يستعيرها من المكتبة ، وكان يفضل القراءة بصوت عال ، مقلداً كل أستاذ في المادة التي يذاكرها ، ويقطع القراءة ليشرح لي ، وكأنه يروي حكاية مسلية ويلقي بالكلمات ، ويحدثني طويلاً عن كل أستاذ وحياته الخاصة ، زوجته وأولاده ، هذا تعلم شرب النبيذ في فرنسا ، وهذا طلق زوجته بعد أن ضبطها مع أحد تلاميذه لذلك فهو يحقد على الطلبة وهذا بنت جميلة ، وهذا شرب في بيته الشاي واكل الجاتوه ، فإذا ما انتهينا من المذاكرة انطلق يحدثني في السياسة .

- تعرف يا يوسف .. أنا مافيش حد يكرهه زى الدكتور بيومي بتاع الاقتصاد والسياسة .. راجل صمام .. موش فاهم حاجة من اللي بيقله .. ثم يقلده قائلاً في صوت مضحك رتيب :

- وهذه النظرية توجه إليها جميع العيوب التي توجه إلى النظريات الاشتراكية .. وهذه العيوب ، هي إلغاء الباعث الشخصي والحافز الفردي على الإنتاج والقضاء على الملكية الفردية .. ويصبح متفعلاً :

- هوه إيه ده يادكتور . بقى بدمتكم فهمت حاجة .. موش يشرح لنا الأول إيه هيه الاشتراكية .. أنا قرأتها .. كلام عظيم .. وهوه اللي حمار ..

كان سعد عبد الجواد هو أول من شرح لي الاشتراكية .. وحديثي عن كارل ماركس ولينين وسوريل وأنجلز وأوين .. وعرفت منه الفرق بين النازية والاشتراكية والشيوعية والفاشيستية .. وكنت أخطأ بينهما ، وأظن أحياناً كثيرة ، أن كل هذه المذاهب شيء واحد .

ووجدتني في حاجة إلى أن أظهار أمامه أنني أعرف شيئاً ، حتى لا أبدو أمامه كتلميذ يتعلم على يديه .. فحدثته عن توفيق الحكيم ، وقلت له في إصرار إنني فنان لا أهتم في السياسة ولا أشغل نفسي بها .. أنا راهب فكر .. أعيش للفن والجمال .. واحتقر أي شيء آخر .. واحتدمت بيننا المناقشة ذات مرة ، وفوجئت به يصرخ في وجهي :

- أنت ولا فاهم حاجة .. واد مدلع .. وح تفضل لحد ماتكبر وفي بقك
بزازة .

قلت في غياب .

- يعنى أنت اللي فاهم كل حاجة ..
فصاح متفعلاً :

- أيوه .. أنا عرفت الدنيا كويس .. أنت عارف لما بأغيب عن الكلية
بالأسبوعين بأكون فين . ماحدث فيكم يعرف .. أنا بأروح أقف مكان أخويا
في الدكان .. وأبيع بقرش زتون وبقرش جبة رومي وبقرش سبرتو .. بألبس
الجلابية والقباب .. علشان أجيء فلسوس آخر النهار أوكل بيهم أمي
وأخواتي البنات .. كلهم مجوعين أنفسهم علشان اتعلم .. أنا لازم أطلع الأول
والا أموت نفسي علشان أخذ المجانية .. أنا موش غنى زيك ..

لطمنتي صراحتي ، وكنت أنهار باكيا أمامه ، وأقول إني لست غنيا كما
يظن ، أنا فقير مثله ، ربما كنت أحسن حالا منه ، ولكني فقير وأبي يعانى من
دفع مصروفات الكلية .. ولكني لم أقل شيئا ، اكتفيت بوجومي ، وبالدموع
التي تكاد تظفر من عيني ، وبفرح مخجل لأنه يتوهم أني من الأغنياء .

ولم تفقد صداقتنا ، بل توثقت وشعرت مع الأيام أني أنسى أحلامي
القديمة عن مدحت ، وأتمنى أن أكون مثل سعد ، فقيرا مثله . متفوقا مثله
ولجات إلى التظاهر أمامه بأني فنان حتى أقنعه بأني جدير بصداقته ، وكنت
أحبس نفسي في البيت وأكتب القصص القصيرة وأذهب إليه وأقرأها عليه
فينصت في صبر واهتمام غير عادي ، ويناقشني في القصة وتطول المناقشة
وسواء رضى أو لم يرض عن القصة أشعر أني كاتب وفنان وحقيقي .

قرأت له قصة اسمها « الحب الأول » . كانت عن حبي لسعاد ، لا أشك
أنها كانت قصة ساذجة ، ملأتها بكلمات وتعبيرات مأخوذة من توفيق
الحكيم .. وقال لي سعد :

- إن أسلوبك حلو .. لكن أنا موش عارف أنت عايز تقول إيه ..
قلت

- عايز أقول إن الحب غلط .. وإن أحسن حاجة في الدنيا إن الواحد يعيش
بعيدا عن الستات .
ضحك قائلاً .

- أنا يا عم رايح أتجوز . وبكرة أنت كمان ح تتجوز .
قلت محتدا

- مستحيل .. أنا أموت بعسي ولا أتجوزش .
فسخر مني قائلاً :

- أهو كلام

ووجدتني أروى له حبي لسعاد ، رويت له كل شيء إلا أنها غنية ، وإني
فقير ، لم اعترف له بالحقيقة المرة .. فاستمع إلي ثم تمت في حيرة .
تفكرده حب حقيقي .

هتفت

- طبعاً .

هز رأسه وقال .

- على العموم أنا متبها لي أنا موش ح نحب إلا بعدين .. احنا دلوقت
ما بيهركنش الا غرايزنا . عايزين واحدة . أي واحدة والسلام .
ثم ضحك قائلاً .

- أنا شخصيا كده .

سأله

- ويتعمل إيه ؟

قال في اقتضاب :

- باتصرف .

وأدركت أنه لا يريد أن يحدثني عن مغامراته ، لعله كان لا يعطيها أهمية
كبيرة ، وكنت من ناحيتي أخلج من الإلحاح في السؤال .. ولكن خففت أكثر
من مرة أنه ذاهب في إحدى مغامراته ، عندما كان يقول لي إنه لن ينتظرني في

البيت ، لانه ذاهب عند صديق له في الفنون الجميلة اسمه شوقي يسكن في إمبيلية .

وكان شوقي يزور سعد أحيانا بالليل ، وأكون هناك ، فيتركني سعد ويخرج مع شوقي ويغيب بعض الوقت ثم يعود ولا يقول لي شيئا عما كان يفعله ..

إلى أن جاء يوم وكنا في الليسانس ذهبت إلى سعد قابلتي وفي يده مجلة لم أسمع عنها من قبل ، اسمها الفجر ، فتحها ورقعها أمام عيني وهو يقول في أعمال :

- شاييف ..

رأيت مقالاً بعنوان « الديمقراطية في الدستور السوفيتي بقلم سعد عبد الجواد » دهشت ، ودققت النظر في الاسم المطبوع وكأني أشاهد معجزة . كيف فعلها .. وقرأت المقال ودارت رأسي بكلمات العمال والفلاحين وأصطلاحات لا أفهمها .. ولكنني شعرت بأن سعد قد ارتكب عملاً خطيراً . قلت له خائفاً :

- ولما يقولوا عليك إنك شيوعي ويقبضوا عليك .. قال لي غير مبالة :

- مايقدروش .. روسيا بتحارب مع إنجلترا .. والمجلة دي بتطلع والرقابة بتشوفها .. ماأحدث قال حاجة ..

برغم ذلك شعرت بالجزع ، وفكرت في الابتعاد عنه ، لكنني لم يفعل ظلمت أتردد على ميته ، وأذاكر معه وأسمع كلامه عن الشيوعية ، والكتاب الذين يكتبون في الفجر ، والفرق بين تروتسكي وستالين .. وكنت أسمع هذا الكلام ثم أفساه بسرعة بمجرد مفادرتي لميته ، ولكنني أشعر في نفس الوقت أنه يجاهد في محاولة يائسة من أجل أمه وأخوته الجنات ، وأنه يشعر بأنه فقير ومظلوم في هذه الدنيا ولا يرضى بالفقر والظلم .

وكنت أقول لنفسي أحيانا إن أسي فقير لماذا لا أعمل شيئا من أجله ، مثل سعد ، ثم أشعر بضيق بهذا التفكير ، وأرفض بيني وبين نفسي التفكير في

الفقر وأقنع نفسي بأنني قنآن ، والفنان لا يهتم بالمادة ، ويعيش مضجعا بنفسه ويأمواله ، من أجل خياله الحميل .. كنت اتخلص من الفقر بتجاهله ، وبالتظاهر بأنني لست فقيراً ، وكان يشجعني على هذا ، اعتقاد سعد وغيره من زملائي في الكلية إنني لست فقيراً ، وأني أتحدث كالأغنياء وأتصرف مثلهم . وكان يشجعني أن مدحت لا يعاملني كفقير ، رغم أنني فقير .

مذروايتني الأفكار عن مبروكة ، وبدأت الرغبة تصطرح في جسدي كنت أذهب إلى سعد وقد اعتزمت أن أستشيره ، وأصارحه بارتيلكي ومخاوفي الغامضة والواضحة ، ولكنني لا أجرؤ ..

حتى تلك الليلة التي قضيتها مع مدحت وأصحابه في بيت سوزي لم أجرس على أن أروي له عنها . خفت أن يسخر مني ، ويقتنع بأنني لست الفنان الراهب كما صورت نفس له .

كنت أحيانا أحدثه عن خادمتنا مبروكة ، أقول أي كلام بدون مناسبة ، لجرد أن أذكر اسمها ، كان أناقشه قائلاً إن أبي يحب النازي ولكنه يعامل خادمتنا مبروكة معاملة ديمقراطية ، يسمح لها بالجلوس معه ، ويجاذبها الحديث ، ويضحك معها .. فليس من الضروري إذن أن تكون الشيوعية وحدها هي التي تعترف بالمساواة بين جميع الناس وتلغي الطبقات .. فيثور سعد ويقول محتداً :

- يعني قصصك بيحطف عليها ..

العطف ده حقيقته قسوة .. يعني إيه لما يعاملها كويس وبعدين يطردها من البيت .. وتلاقى نفسها موش لافية تاكل .. أبوك ده أنااني .. كل اللي بيعملوا الخير ويحسنوا على الفقراء أناانيين .. عايزين الناس تفضل زى ماهيه .. فقرا وغلباتين علشان يتعتروا معا بالشفقة والإحسان عليهم . احنا مش عايزين شفقة من حد .. مبروكة دي لها حقوقها .. لازم تاخدها .. وتعيش زى وزيك ..

وتستمر المناقشة ، لا يعينني منها شيء ، إلا أن اسم مبروكة يتردد على لساننا ، والرغبة التي تعذني ترسم لي صوراً وحيات عنها

وقابلت سعد عصر يوم عند محطة أتوبيس الجيزة وكان معه شوقي ..
سألت في دهشة ، إذ كان من عادته أن يمشى حتى بيته .

- رايح على فين ..
- فكر برهة ، ثم صاح وكأن خاطراً طاف برأسه :
- إيه رأيك تيجي معنا ؟
- على فين ؟

- بس تعال .. أنا نفسي تفرج وتشوف بنفسك .
- أشوف إيه ؟
- قال باسم :

- حفلة
- حفلة إيه ؟ ..
- التقت إلى شوقي ، وتبادلا نظرات لم أفهم مرادها .. وسأل سعد زميله
- إيه رأيك أقوله ؟ ..

- فابتسم شوقي ولم يجب ..
- استبد بي الفضول ، فهتف :
- إيه الحكاية ..
- قال سعد :

- خايف أقولك مات جيش ..
- بس قول لي ..

- قال فجأة بصوت سريع .
- رايحين اجتماع سياسي ..
- اصفروجهي ، لا بد أنه أصفر . إذ شعرت ببرودة مفاجئة تلسعني ،
- قلت .

- لا يا عم .. أنا ماليش دعوة بالحاحات دي ..
- ولكن سعد ألح .

- انت ح تفضل لامتي بالشكل ده . تعالى اتفرج .. إن ما عجبكش أبقى

انزل ..

وانتابني شعور بالعيظ . لماذا أنا حبان هكذا .. إلى متى سأنظر أفكر في
نفسى . كان الدنيا كلها في داخلي .. لابد أن أتخلص من هذا الخجل الذي
يطوينى .. قلت في انفعال :

- طيب .

وفي الطريق سمعتهما يسخران من إسماعيل باشا يونس صاحب الدعوة
إلى الاجتماع السياسي الذى تقصد إليه ، رجل مكرله ميول مع المحور ، يريد
أن تنتصر ألمانيا ليتولى الحكم ، إنه من أنصار الملك الأقوياء ، يخدع الشعب
بالدعاية التى تحيط به عن ذكائه وحكمته ويحتكر الناس في قرارة نفسه ،
يؤمن بأن الذلاء وحدهم هم الذين يحكمون .

وقبل أن نصعد إلى مقر الاجتماع في إحدى عمارات شارع سليمان باشا
خطر لي أن سعد وشوقي لهما غرض خفى ، ربما أرادا إفساد الاجتماع
والتظاهر داخله ضد إسماعيل باشا ، ولكن لحساب من يفعلان هذا ،
وشعرت بالقلق توقعت معركة وتدخل رجال الشرطة وفكرت في الانسحاب .
دخلنا شقة واسعة فضمة ، حجراتها مضاءة بأنوار قوية ، وعشرات من
العمال والطلبة يجلسون على المقاعد الوثيرة ، يدخلون السجائر التى يوزعها
عليهم رجل أنيق رشيق يرتدى بدلة كملية فاخرة ، شعره لامع ويشترته ناعمة ،
ويتكلم بركة مبالغ فيها .. أحسست بالقور منه ، وكان يردد بين لحظة
وأخرى .

- الباشا جاي حالاً .. أنا سعيد يا أفندم بحضوركم ..

لم أطلق البقاء في ذلك المكان ، فانتفضت واقفاً ، وصاح سعد :

- رايح فين ؟

- ماشى ..

- يا جدد أنت استقنى ..

لوحى بيدي ، وأنا أسرع خارجاً من المكان ، فاندفعت هابطاً على السلم ،
حتى اصطدمت برجل قصير وجهه مستدير وله شارب مربع . حاولت أن أعبر

الرجل ، ولكنى فوجئت به يعترض طريقى ويمسك ذراعى بقبضة قوية .
ويسألنى باسم .

- رايح فين يا أستاذ

لم أفهم ماذا يعنى قلت فى عشة .

- مروح ..

قال بصوت هادىء مريب

- تسمح تتفضل معايا .

وتأبط ذراعى ، من يكون هذا الرجل ، ماصلته بى همست .

- هايز منى إيه .

قال وهو يتحصنى فى حدة :

- ما معاكش حاجة ..

أدركت فجأة انى أمام شرطى سرى ، وأنه قد قبض على ..
وضجكت ..

شعرت فجأة بكل مخاوفى تزول ، وبأنى قوى .. لست أدري كيف حدث
هذا ، ولكنى أحسست وكان شخصيتى تتغير فى ثوان .. وأنى اكتشفت فى
نفسى أشياء جديدة لا أعرفها ..

- قصدك إيه ..

قال الشرطى :

- حاجة كده .. والا كده .. قلت فى استهتار أدهشنى :

- قصدك حشيش ١٩

قال الرجل وقد ضاقت عيناه

- لا . لا سمح الله .. منشورات يعنى

- لا .. أنا معايا حشيش

أنا أقول هذا الكلام ، إنى اتعمد السخرية بالرجل ، وهو يعلم انى أسخر
منه ، لماذا أفعل هذا ولكنى متدفع فى تحديه ، فى عناده .. فليفعل بى ما
يشاء وسأظل يوسف القوى الذى لا يأبه بشيء ..

سرتنا فى الشارع ، وهو يتأبط ذراعى ويشدنى إليه بقوة . وأنا أسرع
الخطى حتى يجرى لاهثا بجانبى ، لعله يفكر فى اسى ساهرب منه ، او
سأضربه .. أستطيع أن أضربه .. يوما ما سأكون شيئا هاما فى هذا البلد ،
وسأنادى هذا الرجل وأذله .. إنى أحقد عليه .. إنه حقير حقير

وصلنا إلى قسم الشرطة ، ودخلنا عند صابط يحلس أمام منضدة صغيرة فى
حجرة ضيقة . وهمس الرجل الذى جاء بى بكلمات فى أذن الصابط .. فالتفت
إلى وسألنى .

- كنت بتعمل إيه هناك ..

- بأتفرج

- معاك منشورات ..

لا ..

أشار للرجل ، فاقترب منى وفتش جيوبى .. كان معى سبعة فروش ومفتاح
البيت ومنديل قذر ولا شيء آخر ..

وسألنى الصابط عن اسمى وعنوانى ولما عرف انى طالب فى كلية الحقوق
سألنى عن بطاقتى الجامعية .. ولم تكن معى .. تردد برهة .. ثم نادى أحد
المساكر وأمره بأن يذهب معى إلى البيت لإحضار البطاقة ..

وفكرت فى أبى .. ماذا سيفعل .. ومكرت فى راتبك .. لابد أن أبى سيلجأ
إليه ، إنه يستطيع أن يفعل شيئا ليخرجنى من السجن إذا قضاوا على . ولكن
لا شيء يمس أعماقى .. كان كل ما أفكر فيه شيئا سطحيلا لا معنى له .. كل ما
فى داخل رغبة جارفة تعلن تحديها وكبريائها متى سأقابل سعد لأروى له ما
حدث ، ليعرف عن مغامرتى لعله سيضحك ويسخر .. ولكنى أشعر بأننى
فعلت شيئا هاما ، وإنى تغيرت ..

فتحت باب البيت ، ودخلت مسرعا إلى حجرتى باحثا عن البطاقة لمحت أبى
يجلس مع مبروك فى حجرة الطعام ، ولكنى لم أتوجه إليه ، خيل إلى انى
أستطيع أن أحضر البطاقة وأعود مع الشرطى دون أن يشعر بشيء . كانى
لست فى حاجة إليه ، ولا إلى راتبك .. وبما كان خجلى هو الذى دفعنى إلى

هذا التصرف ، ربما كان حوق منه وخوف عليه هو السبب .. وأنا أبحث عن البطاقة سمعت صياحه ، وأيقنت أنه قد عرف .

بعد لحظات كان يقتحم الحجرة ، ووجهه يرتعش وعيناه زائفتان ومن خلفه مبروكة شاحبة الوجه ، وسألني بصوت منهار .

- إيه اللي حصل ..

أجبت متظاهراً بعدم الاكتراث .

- ولا حاجة يا بابا .. عايزين بطاقة الجامعة ..

- أنت عملت إيه ؟

صمت في تعدي .. كنت أشعر بالتحدى لكل الناس .. حتى نفسي

- بأقولك ما عملتني حاجة ..

وجاء أبى معي ، لم يطلق المشي ، فركبنا تاكسي .. وهو لا يكف عن الكلام ، وأنا أكرر بغير وعي :

- ما حصلش حاجة يا بابا .. معنى ح يعملوا إيه ..

وقف أبى ذليلاً أمام الضابط .. العرق يتصبب من جبينه ، أنفاسه لاهته ، يده مضطربتان .. يتلعثم ويتوسل ، والضابط غير سائل عنه .. اكتمى بالنظر في البطاقة ، وتدوين بياناتها في ورقة صغيرة بيضاء .. ثم أعاد البطاقة لي قائلاً :

- أبعد أحسن لك عن الحاجات دي ..

هتف أبى في حرقه :

- أبني عمره ما يعمل كده ..

وأقسم ، وطفرت الدموع من عينيه .. وخرجنا من القسم . وعندى شعور غريب ، كأن لم يحدث شيء .. وأبى يترنح في مشيته ، ويتكى ، على كتفى حتى لا يقع على الأرض ..



قال سعد بعد أن استمع إلى قصتي : إن الورقة البيضاء الصغيرة التي

كتب فيها الضابط اسمي ، سيرسلها إلى القسم المخصوص حيث يدورون اسمي في القائمة السوداء ، ثم يراقبوني ، ويتتبعون نشاطي .. ويقتشون بيتي ويقبضون عليّ كلما وقع حادث سياسي .. وصحك قائلاً :

- يعني بقيت مشبوه

قلت في جزع

- وأنا مالي .

- طول عمرهم كده .. يشتبهوا في أي واحد حتى ولو كان بريئاً .. ويفضلوا وراءه لحد ما يخلوه ضدّهم ..

سألته

- واذت اسمك موش عندهم ..

قال ساخراً :

- لا .. لسه ما يعرفوش عنى حاجة ..

- ولا شوقي ..

- ولا شوقي ..

خفت .. إنني مظلوم ومطارد .. وثارت في رأسي كل المبادئ والنظريات التي درستها في الكلية .. المتهم بريء حتى تثبت إدانته .. ادعوا الحدود بالشبهات . بطلان التفتيش .. حقوق الإنسان .. الدستور . مبادئ قانونية تعلمناها وقالوا لنا إنها مقدسة وإنها دليل على احترام الإنسان .. احترام آدميته .. ولكننا نعيش في أيام لا يحترم فيها شيء .. أنا لست ضد إسماعيل باشا .. لست شيوعياً .. لست ضد الملك .. لست ضد الوفد .. لست ضد أحد .. ولست مع أحد ، فلماذا يهاجمونني ؟ لماذا يهجم عليّ الخوف ، وتحاصرني الشبهات .. لماذا أشعر أن الغباء والقوة الحمقاء .. يتربصان بي

وانكمشت في البيت ، وبغنت رأسي بين الكتب ، إذ كان امتحان الليسانس قد اقترب ، فتصارعت في داخلي مخاوف السقوط وآمال النجاح . والحيرة

امام مستقل واليأس من أن اطمئن إلى شيء .. كنت أرى في صفحات الكتاب
إيدى الشرطة وهي تشدني ، وينادقهم وهي مصوبة إلى صدري ثم يفتح باب
الزفرانة وادخل مكاناً صيقاً مظلماً فيه دلو ماء ودلو لقضاء الحاجة ، وأنا
جالس القرفصاء في الركن المعتم ، أفكر في لا شيء ، أقيق من هذا الكابوس
وأحاول أن أذاكر ، ولكن الكلمات المدومة في كتب القانون قد تحولت إلى شيء
لا معنى له . اقرأ أكاذيب لماذا نضيع وقتنا في قانون لا يطبق .. من الذي
صنع هذه الأكاذيب الكبيرة .. وما الذي يضطرني إلى قضاء الليل ساهراً في
مذاكرتها .. وأنا أعلم أنها أكاذيب .. والجميع يعلمون أنها أكاذيب ..
ليس هذا شيئاً مضحكاً .. أنا الذي لا أحب الكذب .. وتعلمت من أبي
وأبي أن الأخلاق الحسنة شيء ضروري .. أجهل أبي أن الكذب يحاصرنا
ويعيش من حولنا ويتحكم في مصائرنا .. أكان أبي يكذب عليّ . وهو ينصحنى
بالأكاذيب ..

ما هو المهرب ..

الفن .. كتابة القصص .. لقد فتش أبي حجرتي ليلة عودتنا من قسم
الشرطة ورأي القصص ، وروايات توفيق الحكيم ، وغضب ، واتهمني
بالفساد .. وهددني بالطرد من البيت ، وهاج وثار .. كل ما يريد هو أن أنجح
في الامتحان وأحصل على ترتيب ممتاز ليوظفني في النيابة .. وهأنذا أحاول أن
أقرأ .. وأحفظ ما في الكتب ، ولكني لا أستطيع . السطور يلهاه . الكلمات
تنزلق هاربة من رأسي .. عيناي ترفضان القراءة لأنني لا أصدق شيئاً .. لأنني
أعلم أن اسمي في قائمة سوداء .. وجهاز الشرطة يدبر طريقة اتهامي ..
وسعاد في بيت زوجها . ومدحت والد غنياً ، وسوزي ترفع أناملها إلى ذفتي
وتقول أني مارلت صغيراً ، وأمي في القبر .. أكننت تعلمين يا أمي أن الدنيا
هكذا . تعلمين أن أمي يجلس مع مبروك ويضحك معها كأنه لم يعرفك
أبداً . كأنك لست في القبر . الدنيا غريبة . كيف يتفوق سعد عبد الجواد ،
كيف يحارب الحكومة دون أن تنرى به .. ويفلت اسمه من القائمة
السوداء . كيف تغني مبروك وتتحرك في البيت دون أن تشعر أنها خالصة ..

كأنني أحمل الدنيا فوق رأسي . أحملها وحدي ..

كان سعد عبد الجواد قد اعتصم بالبيت .. فذهبت إليه لعل أستطيع
المذاكرة معه ، فوجدته قد حلق رأسه بالموسى . عياده عاثرتان ، وشعر ذفته
طويل ، وقال لي في وقاحة أنني سأعوق مذاكرته ، لأنه يتقدمني بمراحل كثيرة ،
وتركته وعدت إلى البيت ودموع العيظ تحرقني ..

ومضت الأيام ، وأنا أذهب في الصباح إلى الكلية ، وفي المساء أحتمي
بالبيت ، وأعد الخطط للامتحان من مذاكرة المقرر قبل الامتحان ، وأفضل ساعة
بعد ساعة في أن أذاكر شيئاً ، وأخرج من حجرتي فالأحظ الصمت في البيت ،
وأبحث عن مبروك في الصالة وفي حجرة الطعام وفي المطبخ وفي الحمام ..
فلا أجدها .. وأعرف أنها تقضي الليل في حجرة أبي . وأهزج من التفكير ..

أمكن هذا .. مستحيل .. ولكنه حقيقة .. إنها هناك في حجرته ، والظلام
يسود الحجرة .. وتبتسم شفقتي ، ولكني أعلم أنني أخدع نفسي بهذه
الابتسامة ، أبي يرتكب شيئاً مخجلاً ، لم ارتكبه أنا .. أبي حقير .. ولكنه
أحسن مني ، أكبر مني ، يستطيع أن يفعل ما لا أستطيعه أنا . وأعود إلى
حجرتي وأنظر في الكتاب .. العز يشند .. القانون .. لا بد أن أنجح في
الامتحان .. سأتفوق على سعد عبد الجواد .. لست أقل منه عقلاً .. سأقرأ
مائة صفحة قبل أن أنام وسأفهم كل ما أقرؤه .. وأرى نور الفجر فإذا بي
مازلت أفكر في مبروك . جسدها ، حركاتها ، صوتها ، إنها لا تفعل شيئاً مع
أبي ، إنه عجوز مخرف ، يسمح لها بالنوم في حجرته لأنه خائف من
العقارب ، لأنه خائف أن يموت وهو في الحجرة وحده . مبروك ليست لابي ..
إنها لي .. وأطوى الكتاب وأنام .

حتى جاء الامتحان فانتلعتني نواته ، وبعد أن فرغت منه ، عدت إلى
سعد عبد الجواد ، كنا نقضي الليالي تحت قوائم النور ومعنا شوقي الذي
يحدثنا عن عمله الجديد في جريدة الأيام ..

كنت استمع لشوقي وأنا أقول لنفسي ، يوماً ما ستنتشر جريدة الأيام

قصصى .. الحب الأول بقلم يوسف عبد الحميد السويفى .. ويغلبنى شعور غريب بالاطمئنان إلى أن هذا سيحدث فعلاً .

وكنا نتحدث طويلاً عن محمد ناجى رئيس تحرير الأيام .. وكان شوقى يدعونا أحياناً إلى محل ميخالوفتش فى ميدان الإسماعيلية لنشرب القهوة وندخل سجنائه الهوليد ونفترج على الرسوم الصغيرة التى يرسمها فى جريدة الأيام ، وسرعان ما ينتهى الحديث إلى محمد ناجى ويكرر سعد رايه فى أنه كاتب نصاب لا مبدأ له ، على استعداد لأن يقبض الثمن فيناصر أى حزب ، وكان شوقى يوافقه ، وأنا أنصت لهما دون أن أعلق بكلمة ، كأنى لو شاركتهما فى سب محمد ناجى سأرتكب إثماً ، إذ كيف أسب الرجل الذى سينشر لى قصصى .. وكنت أعجب بينى وبين نفسي كيف يهاجم شوقى محمد ناجى وهو يعمل معه ، وأرى أن هذا الهجوم لا يتفق مع الأخلاق الحسنة .. واقترح سعد ذات مرة على شوقى أن يأخذنا معه إلى جريدة الأيام لنفترج عليها ، فوافق متردداً ، ومضت أسابيع وهو يعدنا دون أن يقى بوعده ، ولعل لهفتى على زيادة جريدة الأيام ، هى التى جعلتنى أعلن أن شوقى لا يريد ذهابنا معه لأمر ما يخفيه عنا ..

ونجحت فى الامتحان ، فرحت لبضع دقائق ، ثم استبد به القلق إذ حصلت على درجة مقبول وهى لا تعنى سوى أن مصرى هو المحاماة ، ولكن أبى فرح أياماً ، كان خلالها يزور راتب بك فى الصباح والمساء حتى استطاع مقابلته ، وطلب منه أن يسعى لتعيينى فى النيابة ، فسخر منه راتب بك وقال له إن درجتى لا تساعدنى ، وأن الأفضل لى أن أبحث عن وظيفة معاون إدارة فى وزارة الداخلية ، وأن الوزير صديقه ، وقبل أبى على مضض ، أما أنا فلم أكن أشعر بأدنى اهتمام كأنى مازلت طالباً فى الكلية ، والوظائف التى يتحدث عنها أبى ، شىء غريب لا صلة لى به ..

وكنا نجلس فى محل « ميخالوفتش » وسعد يتصفح جريدة الأيام التى لا تفارق شوقى ، عندما صاح سعد قائلاً :

.. ماه ده كلام ... والله العظيم ده ظلم .. يعنى أروح ارتكب جنائية ..

كان سعد قد قرأ فى للجريدة نبأ تعيين زميل لنا اسمه مصطفى إسماعيل بهنس فى مكتب النائب العام رغم أن درجته مقبول .
وصرخ سعد .

- يبقى ترتبى ممتاز ودرجاتى أحسن درجات ويسيينى .. ويعينوا مصطفى بهنس الولد الخيان الصايغ علشان أبوه بهنس باشا . ويتعين لوحده قبل الدفعة كلها

وليلتها علمنا أن سعد قد قدم طلباً ليعمل فى النيابة .. وسأله شوقى فى دهشة :

- ازاي ح تشتغل فى النيابة يا سعد ؟

- وفيها إيه ؟

- ولما يطلبوا منك القبض على الشيوعيين ح تعمل إيه ؟

صاح :

- أرفض ..

قال شوقى ساخراً :

- يبقى موش ح يوظفوك ...

وعدت إلى البيت ورويت لأبى أن زميلاً لى حصل على درجة مقبول قد عُين فى النيابة ، وذهب أبى غاضباً إلى راتب بك ، وعاد وقد تضاعف غضبه .. قال متفجراً

- أبوك موش باشا .. راتب بك شايف إنه عيب لو ما اتعينش ابن بهنس باشا فى النيابة ، إنما ابن عبد الحميد السويفى المدرس الغليان .. هه .. معن يسأل عنه ..

وبعد لحظات كان أبى متهمكاً فى الحديث مع مبروكة وقد نسينى تماماً .. وأردت أن أهرب إلى الشارع ولم يكن معى مليم واحد فذهبت إلى أبى وقلت له .

.. أنا عايز جتية يا بابا ..

فتجههم وجهه بعد أن كان يضحك وهتف غاضباً :

أنا خلاص .. عملت اللي عليه .. نور بنفسك على شغلة .. أنا ما أقدرش
أصرف عليك طول عمري .. عايز تقعد معايا في البيت تأكل وتشرب وتنام أهلاً
وسهلاً . لكن فلوس ما عنديش ..

وضايقتني أن مبروكة سمعت هذا الكلام ، فتركت البيت وخرجت وسرت في
الشوارع ، وتذكرت أنفش وميدان المحطة .. وفكرت في البحث عن سعد . ثم
وحدتني قريباً من جريدة الأيام .. فاندفعت نحوها لأزور شوقي ..

قابلني رجل عند مدخل الجريدة وسألني عما أريد .. قلت له في اضطراب
إنني قادم لزيارة شوقي الرسام ، فاتصل بالتليفون ثم طلب مني أن أصعد إلى
الطابق الأول .

كان شوقي يجلس في حجرة ضيقة مع شاب صغير يتحدث في التليفون ،
ورهب بي شوقي عن غير ما كنت أتوقع ، وجلسنا نتحدث ، وأنا أنصت إلى
الخواطر التي تملأ رأسي ، وتؤكد لي أنني سأعمل يوماً ما في هذا المكان ،
وسأنتشر قصصي ، وسأصبح رجلاً مشهوراً .. وكان شوقي يرسم بالحبر وجه
امرأة وكان الرسم سينشر في الجريدة مع قصة قصيرة كنت أرقب يده وأنا
أتخيله يرسم قصتي ولجأة انتفض الشاب الذي معنا في الحجرة ورفع محدثاً
ضجة بمقعده وانتفض شوقي بدوره واقفاً وكان بالباب رجل لم أشك لحظة
واحدة في أنه محمد ناجي ومعه رجلان يسيران في ركابه ..

محمد ناجي جاء إلى هذه الحجرة ليقابلني ، لأراه ويراني ، قلت هذا
لنفسى وكأنه حقيقة ، أو ما لما برأسه وتحدث مع الرجلين ، وكنت مازلت أفكر ،
هل أفق مثلهم أم أظل جالساً ، ومررت لحظات وكان جسمي يتوهج بسخونة
تجتاحه ولم أفق .

لم يعرفنا محمد ناجي أي انتباه كان ينظر إلى الجدران ، ويأمر بإزالة
الحناطوراء شوقي ليضم الحجرة إلى صالة المحررين ، واستمر في حديثه ، ثم
حابت منه التفاتة إلى وجه المرأة الذي يرسمه شوقي فتأملته ، ومد يده وأمسك
بالورقة وسأل

- إيهده

أجاب شوقي هامساً .

- رسم القصة

فقط شفته في امتعاص ، ومال في عصبية

- والقاريء يفهم إيه من الرسم ده .. ما فيش حاجة تلفت النظر

قبل أن يجيب شوقي ، وجدتنى أندفع بقوة مشتركاً في الحديث لا أدري
كيف تعطلت على خجلي ، كنت أحس بنفس الشعور الذي عرفته وأنا أسير مع
الشرطي في طريقنا إلى القسم .. كل مغاولة تزول ، وكان شخصيتي تتغير في
ثوان ، واكتشف في نفسي أشياء جديدة لا أعرفها .. كآني ند محمد ناجي .
قلت في جراءة

- أحسن كان يرسم حادثة بتحصل في القصة ..

فالتفت إلى محمد ناجي ، وكأنه يعرفني ، وقال

- موش كده برضه .

ثم صاح في شوقي

- سامع صاحبك بيقول إيه ..

قال شوقي بصوت خافت

- مساحة الرسم صغيرة ..

فقاطعه محمد ناجي :

- أنا ما أفهمش الكلام ده .. قلت ميت مرة .. الرسم والصورة أهم من

الكلام .. اللي موش ح ينبسطن الرسم موش ح يقرأ القصة .. ولو كان كاتبها

توفيق الحكيم .. مين اللي كاتب القصة .

- محمود لطفي

رعق محمد ناجي :

- اختصرها

ومرة أخرى تدخلت في الحديث وأنا أبتسم في اطمئنان .. قلت .

- أحسن ..

فالتفت إلى وفي عينيه هلق وسألني

- ما يعجبكش

قلت في ثقة

لا

- مين اللي يعجبك

- توفيق الحكيم ..

قال في وجوم

- وفيه عندنا كام واحد زيه .

كدت أقول له إسي أكتب مثله ولكني لم أجرو على هذه المبالغة وقلت في غير
اكثراث :

- على العموم أنا ما بيعجبنيش حد ..

فابتسم ابتسامة خفيفة .. وتوقعت أن يقول شيئاً ، لولا أن دخل رجل
يحمل صحيفة مطبوعة ، مبللة بالماء وقدمها لمحمد ناجي ، فتجاهلني وشغل
بمراجعة الصحيفة ، وشطب سطوراً ، ووضع علامات استفهام وعياني
لا تفارقانه ، ورغبتي في مواصلة الكلام معه تتزايد ، أريد أن يحدثني حتى
يعرف أنني أكتب مثل توفيق الحكيم ، وإنني قصاص وإنني حصلت على
الليسانس وإنني قريب راتب بك ، لابد أنه يعرف .

وأعطى محمد ناجي الصحيفة للرجل الذي جاءك ، ثم قال لشوقي بلهجة
أمرية :

- ارسم رسم ثاني .. وخليتي أشوفه

قال شوقي مذعراً

- حاضر

وأدار لما ظهره وخرج من الحجرة .. تبعته بعيني ، وقلبي يخفق ، لعله
يلتفت إلي مرة أخرى ، يقول لي أي شيء ، ولكنه اختفى .. وشعرت باليأس .

صاح شوقي

- أنت اتحست .. عايز ترهقني .

قارتبكش .. لم يخطر ببالني أنني أريد الإساعة إليه . لم أتصور أن محمد
ناجي قد يطرده من العمل بعد ملاحظة أديتها على رسمه . هل أخطأت .
أكان يجب أن أسكت .. أكان يجب أن أقف لمحمد ناجي عند دخوله .. ماذا
فعلت .. ما الذي انتابني ؟

- متأسف يا شوقي .. حقيقي أنا موش قصدي ..

فقاطعتني باسم :

- أنت طول عمرك مدب ..

ولازمت شوقي وهو يعيد الرسم .. رسم راقصة عارية في يدها كأس ، وهو
يردد ساخراً :

- أنا عارف أن الحاجات دي هيه اللي بتعجبه .

وتركني وذهب بالرسم إلى محمد ناجي ، وعاد بعد قليل وتاملني برهة ثم هن
رأسه قائلاً

- موش قلت لك أنت عايز ترهقني ..

هتقت .

- حصل إيه ؟

وعجبت لنفسي ، لم يكن يعنيني إنه قد تعرض للطرده .. كنت في لهفة على
سماع أي شيء يؤكد لي أن محمد ناجي مازال يذكرني ..

قال شوقي :

- سألني عنك .. أفكرتك رسام .. وقال لي إنك بتفهم أحسن مني !

- وقلت له إيه ؟

قال شوقي هارثاً

- قلت له إن عمرك ما رسمت حظ

وحققت على شوقي كأنه هو الذي يطردني من عملي وسألته

- هيه . ويعدين ؟

- ولا حاجة . طبعاً عصب الرقاصة .

- وقالك إيه تانى ؟

ماذا قال عنى محمد ناجى .. أريد أن أسمع كل كلمة قلها .. أريد أن أسمع شوقى يكرر ما قاله الآن مائة مرة .. ألف مرة ..
قال شوقى .

- ح يقول إيه تانى ..

وخرجت من مبنى الجريدة ، انتزع نفسي كأن لحم جسدى قد التصق بجدرانها .. سوف أعود .. سوف أقابل محمد ناجى .. سوف أشر قصصى .. ليست هذه هى نهايتى مع محمد ناجى ..

كان أبى قد خرج من البيت ، ومبروكه تستمع إلى الراديو . هل أحدثها عن محمد ناجى .. ولكنى أريد مراجعة قصصى .. أريد كتابة قصة جديدة .. دخلت حجرتى وجمعت أوراقى ، وقرأت وكأنى أقرأ لمحمد ناجى ، وفتح الباب ودخلت مبروكه ، كان فى يدها جنين تلوح به ، كأنها تتباهى به ، كأنه الكأس فى يد الراقصة التى رسمها شوقى .. كأنها تدفع بالجنين فى عيني وتفقوها .. قال فى حنان يجرعنى

- أنا عايبالك الجنين اللى أنت عايزه ..

فى صوتها رنة تأمر ، صوتها يقول لى خذ منى ما رفض أبوك أن يعطيه لك ، أنا أعرف كيف أسوس أباك ، إنه تحت سيطرتى ، وأنت أيضاً تحت سيطرتى ، أنا التى تملك مصيرك ، أنا التى معها نقودك

رفضت .. لا أذكر كيف رفضت .. كل ما أذكره هو الغلظة السوداء فى عيني .. الجنين يقرأ عيني ، ووضعت مبروكه الجنين على المصدة وقالت :

- اقرأ لى الحكاية اللى كتبتها ..

- عايزانى أقرأها ليه ؟

- اسمعها عاجبنى .. احب الاول .

إنها تعرف قصصى .. كيف عرفتها .

قلت بسرعة

- ده كلام فارغ ..

أخطيها وكأنها سيدة مثقفة من مستواى ، كأنها سعد عبد الجود ، كأنها أبى . لا بد أن أثور . ولكن كيف أثور . إن وجودها فى هذه الحجرة خطأ .. الجنين الذى جاءت به خطأ .. علاقتها بأبى خطأ .. كلامها معى عن القصص خطأ .. هذا لا يحدث بين الخادومات وأسيادهن ..

- واللى يقول ..

- لا ..

- يا سلام عليك كده ..

يجب أن أدفعها بيدي .. أطردها ، ولكنى عاجز تماماً أمامها ، لم أخف من الشرطة ، ولم أخف من محمد ناجى ، ولكنى حائر خائف من مبروكه ..

- موش ح تقول الحكاية ..

- أنا مشغول دلوقت ..

- مشغول فى إيه ..

- رددت كالبحرور .

- عندى شغل ..

- الهت ..

- ما أنت فاضى إيه ..

قلت معتذراً

- سيبينى دلوقت ..

شمخت بأنفها فى الهواء .. وقالت فى كبرياء :

- على كيفك ..

وخرجت من الحجرة ..

بعد أيام كنت عائداً إلى البيت ، واقتربت من باب الشقة فسمعت صراخ مبروكه وصوت أبى .. إنها يتشاجران . فتحت الباب ودخلت فرايتهما يقفان فى الصلاة صامتين . هذا الشجار مريب .. مضيت إلى حجرتى . وأنا أشعر بانقباض يعتصر قلبنى .. لهذا الحد وصل الأمر بين أبى ومبروكه تصرخ فى وجهه .. ما الذى يخفيه عنى . إنى أعلم كل شيء ..

ول صباح اليوم التالي ، جاعتي مبروكة ، وقالت لي وهي تحديق عيني ..
- بابا عايزك ..

وتذكرت ما حدث بالأمس ، فعلويش الشعور بالانتقياض ، ومشيت إلى
عرفة أبي ومبروكة وراني ، خطواتها تطاردني ، التفت إليها ، كانت عينها
مسمرتين في وجهي ، وأبي راقد في فراشه .. وصباح أبي :
- سيببيا لوحدا يا مبروكة ..

أبي يريدني وهدى ، إنه يطردها من الحجرة ، الانتقياض الجائم في
صدرى ينزاح عنه .. وتظر أبي إلى الباب ، فالتفت وراني ، كانت واقفة عند
الباب متحفزة لشيء ما ، أفكر أبي في طردها ، لابد أنه سيروى لي عن شجار
الأمس ، ويطلب مني مساعدته .. أبي يعود إلى رشده .. أغلقت الباب ،
وذهبت إلى السرير وابتسمت في وجهه مشجعاً ..

خلفض أبي عيني ، وامتدت يده تحت الوسادة ، واستقرت مكانها .. ثم
أخرج يده ، كان قابضاً على خمسة جنيهات ، وابتسم ابتسامة ضعيفة
وقال وهو يمد يده بالنقود :
- عايز فلوس ..

ثم أصدق إنه سيعطيني كل هذا المبلغ .. همست

- إذا كان معاك

فسحب يده ، وتنهّد .. وقال ورأسه منحن على صدره

- أنا عايز أكلمك يا ابني .. أنت كبير وعاقل وتقدر تفهم ..

ورفع يده إلى عيني ومسح دموعه

- حصل إيه يا بابا ..

قال وهو يبكي ،

- اعمل إيه .. هيه اللي سامتني .. موخ كنت أموت وأستريح زيتها ..

سامتني أتعذب .. لكن الحمد لله .. اماربيتك وعلمتك .. ما حدش يقدر يقول

إني قصرت في حاجة معاك .. أنت بقيت راجل تقدر تعتمد على نفسك ..

ما الذي يريد أن يقوله .. ما الذي حدث .. السرير يتأرجح أمامي . وأبي

يتأرجح فوق السرير .. لا أفهم شيئاً .. الانتقياض يعاودني قاسياً يكاد يحرق
أنفاسي ..

ومضى أبي قائلاً :

- أنا راجل عيان .. كلها أيام وأموت ..

- بعد الشر عليك يا بابا ..

- أنا عليز أستريح ..

وبكى بحرقة ..

- فيه حاجة تعبك يا بابا ..

توقعت أن يروى لي أنه سيطرده مبروكة .. هي التي تضايقه .. هي مصدر
متاعبه .. ولكنه رفع صوته محاولاً التغلب على ضعفه وقال وهو ينظر إلي

- أنا ح أتجوز يا ابني ..

ابتسمت . لم أجد شيئاً أعبر به عن إحساسي بالضياح سوى هذه
الابتسامة ، ولم أقل شيئاً لم أكن أشعر بشيء ..

وأشار بيده ناحية الباب .. وهمس

- ح أتجوزها ..

ارتفعت الدماء إلى رأسي .. وتشاجرت مشاعر غاضبة محتدمة في

صدرى .. ونظرت إليه في حقد .. هذا العجوز المخرف الأبله . ساقطه ..

سأطبق على عنقه وأخنقه .. وأرتمشت يداي .. وصرخت

- مستحيل يا بابا .. أنت بتخرف .. أنا أموتك .. أوديك في داهية .

وهجمت عليه ، وقبضت يدي على عنقه .. لسمه ساخن ينتفص .. حسده

يرتجف .. تكوم مستسلماً على السرير ، أنفاسه تعلو وتهبط وأنا أصرخ .

وأمره .. وهويتوه - سيموت .. ستتخطم رقبتك .. وفجأة تخادلت يداي .

ووقفت لحظة أرقبه .. ثم اندفعت خارجاً من الحجرة .. ارتطمت بها .

فصرخت .. كانت تلطم وجهها .. وتمرق شعرها .. وعويلها يملأ الدنيا ..

وجريت إلى الباب .. واندفعت إلى الشارع ..

الفصل الخامس

مشيت في الشوارع ، وكأني لا أمشي في الشوارع ، الدنيا كلها بعيدة عني ، أنا لست من هذه الدنيا .. الناس لا يشعرون بي لا يعنهم أمري ، سواء عشت أو مت ..

كل شيء من حولي وكأنه .. هناك .. وأنا وحدي .. هنا .. معلق في الفضاء ..

أبي هناك مع مبروكة ، وسعد عبد الجواد هناك مع الشيوعيين ، وشوقي هناك يرسم في جريدة الأيام ، وسعاد هناك مع زوجها لا تذكرني .
أما لو عرف مدهت أن أبي تزوج مبروكة ، الجسد الذي كان يعيث به ، الجسد الذي كان يدعوني إليه ، سيفضح مدهت من قلبه ، ما أحقرنا نحن الفقراء ، نأكل فضلات الأغنياء ، نتزوج فضلات الأغنياء .. لن نستطيع اللجوء إلى راتبك ، هو أيضاً سيحتقرنا ، قد يقابلني ، وقد يرفض مقابليتي سيعاملني كمتسول ، يخرج من جيبه جنيتها ويعطيه لي ، ثم يشتمني ويشتم أبي .

ما الذي أوقعني في هذا الضياع .

أريد أن أنجو بنفسي من الفضيحة ولكن كيف أنجو .. لا فائدة ، لابد أن أتفق من حياتي الماضية ، كان كل شيء خطأ .. أنا الذي تمسك بخرافة سانحة ، ظننت أن البراعة تدوم ، توهمت أنني أستطيع أن أحيي بغير ذنب أن أعيش بغير خطأ ، أعوض فقرى بطيبة قلبي ، ولكني الآن لا أملك سوى



القضية ، تلاحقني يوم أن ارتكبتها ، الدنيا لا ترحم أمثالي ، إنها تريد
الجهلوان .. الكاذب .. المزيف .. تريد الذي يضحك على الذقون .. تريد
الشرير .. تريد المقاتل ..

الجميع يقاتلون ..

أسي يقتلني من أجل مبروكة

وسعد يقتلني .. لن أنسى يوم رفض المذاكرة معي بحجة أن الامتحان قد
قرب ، وأنى أعطله عن المذاكرة .
مبروكة تقتلني ، ومدحت يقتلني .

لا تخدع نفسك .. أنت أيضاً قاتل .. قاتل غشيم ، ألم تحاول قتل شوقي
أمم محمد ناجي ، انقذت رسمه لتفوز بأعجاب محمد ناجي .. ولكنك
رجعت نفسك ونذمت .. كأي قاتل مبتدئ .

هجم على هذه المدينة الكبيرة ، قاتل فيها ، عامل الناس وكأنك أمش
أقفز إلى الترام ولا تدفع ثمن التذكرة ، أبحث عن صديق تخدمه وتحصل على
نقوده ، اصرخ .. اشتتم ، ضرب ، لا تقف مكتوف اليدين .. إلى متى تشغل
نفسك بقلبك الرغبة الحمقاء في أن تكون صادقاً مع نفسك ، انس نفسك ..
انس أنك موجود ، لا تفكر في الصدق والكذب ، وفكر في الخطأ والصواب ..
خطأ الذي هو ضد مصلحتك والصواب الذي يتفق مع مصلحتك . كن
شاطرأ معادماً .

أد . لو أستطيع ..

وصلت إلى ميدان الاسماعيلية ، الناس يجلسون في مقهى ميخائيلوفتش ..
بشرى القهوة ويقرعون الأيام .. ليس في حبيبي سليم .. ليس لي أب .. ليست
لي أم .. ليس في أمل .

أحس وأطلب فجان قهوة وسندويتش قول ، وأهرب . نسيت شاطرأ إلى
هد الحد ، سيجري ورأى الحرسون ويقبض عني ويسلمني إلى الشرطة ..
وسأبيت ليلتي في السجن ..

ربما كان هذا هو الحل السعيد . أتعلم السرقة في السجن ، وأصبح

مجرماً خطيراً يدوخ الشرطة . يسرق منك الأهل ، يقتل الناس بالرصاص ،
يرهب المدينة .. ويموت
هل أنتحر ؟

الترام يسير فوق جسدي ، ودمي يلون أسفدت الطريق .. بقعة حمراء
داكنة .. كان يوسف ، ثم أصبح بقعة حمراء داكنة ، وشيراً من اللحم ،
وعظاماً مهشمة

أواصل السير .. إلى أين ؟

لو يموت أبي .. وأرثه .. ماذا أرت منه .. إنه فقير لا يملك شيئاً امراق
القضية التي رفعها سعد زغلول مارالت في الصحيفة ، كان مهتم بإخراجها
من الصحيفة .. ولكنه نسي .. تزوج مبروكة .. إنه مغلس .. آخر مرة زارني
فيها ابن عمه خليل أفندي ، تشاجراً على نقود ، خليل يسكن في شبرا .. في
جزيرة بدران .. إنه يكرهنا .. لو ذهبت إليه فسيقتلني في أبي .. أقارب أسي
في غافوس ، لا أعرفهم ، لا أعلم عنهم شيئاً ، فلاحون فقراء .. كيف عاشت
أسرتنا بلا أقارب .. قتلنا أقاربنا .. لم نحافظ إلا على راتب بك ، لأنه غني .
ولأنه يحتقرنا ..

كلهم بصيرون .. لا يدرون شيئاً عما حدث يعيشون في الدنيا البعيدة
التي لا نعرفها .. السيارات تعبر الطريق أمامي ، فيها وجوه متجهة ،
ووجوه ضالكة ، ووجوه تقتحمني في برود .. لا أحد يهتم بك .. لا أحد
يعرف .. سأمشي إلى بيت سعد ..

أنا مغلس ياسعد .. سأجوع .. أنا خائف .. أخطأت في فهم كل شيء ..
كنت طفلاً وكنت سخيلاً .. نعم أنا الولد المدلل .. ولكني سأبدأ من جديد .
سأفك عن محاولاتي الصيانية ، لن أظاهر بأنني غني ، لن أخشى الفقر ، لن
أحلم بسعاد . ماذا أفعل ياسعد . ليست معي نقود . ليس عدي مكان أيام
فيه .. هل أبكي .. هل أثور . أضرب ذلك الرجل البدين الذي يسير أمامي ..
أصفع هذه المرأة التي تسير في دلال ..

أقبلني سعد في بيته .. أيرضى أن أشاركه طعامه .. وأخوه سيد العتال

أيرضى أن أعمل معه في دكانه . وإلى متى .. لابد أن أبحث عن عمل .
متحت الباب أم سعد ، وسألتها عنه ، فقالت إنه خرج ، خيل لي أنها
تعرف كل شيء .. وقعت متريدا ، لا أريد أن تغفل الباب ، وأهبط السلم .
وبنتهى كل شيء ..

- ما تعرفيش راح مين ؟
- لا .. يا بني .. أهو خرج .
- أنا كنت عايزه .. ما تعرفيش ح ييجى امتى ؟ ..
- هو .. به مواعيد .

هل تقبلينى في بيتك .. أقبل يدك . يبدو أنك طيبة رغم قصرك الشديد ..
ابتسمت في وجهه ، ولكنها أغقت الباب . وهبطت السلم .

سأذهب إلى شوقى ، سأمشى حتى تنقطع أنفاسى ، ولكنى لابد أن أصل إلى
شوقى ، سأسأله أن يأخذنى معه إلى بيته ، سأسأله أن يبحث لى عن
وظيفة .. خادم فى جريدة الأيام .. أكنس وأمسح السلالم .. سأفعل أى
شيء .. أنا فى ورطة يا شوقى .. لقد أخطأت يوم انتقدت رسمك أمام محمد
ناجى . سأقول لمحمد ناجى إن رسمك هو أعظم رسم فى الدنيا .. أترضى
مساعدتى يا شوقى ؟

جلست على سور النيل أستريح .. الغراب يلتصق بمنلى ، ليس عندى
غيرها . يوم ما ، سأفقد هذه البدلة ، وسأسير عاريا كالمسولين ، وسينتهى
مصري إلى باب مسجد السيدة ، والملايم توضع فى كفى المرتعشة ، وأكل
رغيف ، وأنام مكاني ، ولن يعرفنى أحد ، وسيبحث عني أبى ، وسيتعذب
عندما يرانى مريضاً ، قذراً ، متسولاً ، ويثوبل لي أن أعود معه ، وأرفض ،
أصر على الرقص ، وأطل مكاني ، شحاذاً .. ويتعذب أبى ..

لم أصدق الرجل وهو يقول لى إن شوقى ينتظرنى فى حجرته ، صعدت
السلالم كائن صاعد إلى السماء .

وسألتى شوقى

- إيه اللي جالك دلوقت ؟

- مصيبة
- موش ينين عليك ..
- أنا سبت البيت ..
- بيتكم ؟
- أبوه ..
- إيه اللي حصل ؟
- أبويا اتجنن .

تجهم وجهه ، محاولاً فهم ما أقوله
قلت وكأني لا أقول :

- ح يتجوز الخدمة اللي بتشتغل عندنا ..
- ضحك فى دهشة ..

- لا يا شيخ ..
- سبت لهم البيت .. ومشيت
- لكن ده برضه أبوك ..
- ح أقعد إزاي ..
- حاول تفهم ظروفه .

- ده راجل عجوز .. يخرف على المعاش يتجوز خدمة صغيرة ..
- وفيها إيه

للحظة خاطفة ، خيل لي أنى مخطيء فى حق أبى ، مخطيء فى اعتراي
نشوقى ، لماذا لا يتزوج أبى من يشاء ، حتى ولو كانت مبروكة . ما الذى
يشيرنى لماذا كل هذه الثورة .. أنا أحقد .. هحمت عليه لاحقته .. إنه أبى رغم
كل شيء .. لماذا أخجل منه .. لماذا أغضبت عليه .. إنى تبه .. أريد أن أظهار
بأنى غنى ، وأنى عظيم ولكنى معدود ..

قفز مدحت إلى مخيلتى ، ابتسامته تملأ عيني ، وهو يروى لى عن مغامراته
مع مبروكة ..

- دى بنت لهلوية ..

لا أستطيع أن أقول لك يا شوقي كل ما أعرفه . أنت لا تعرف مدحت
لا تعرف أفكارى ورغباتى محو مبروكة .. هذا شيء فطيع ..

صمت مفعلاً

- بكره تعبير راك ..

- أما موش راجع البيت ..

يجب أن يكذب . قلت والدموع فى عيني ، كأننى أصدق ما أقول

- هو الذى طردنى من ابيت ..

- موش معقول ..

- بأقولك اتجنن .. هيه الذى خلته طردنى ..

همس مستسلماً ..

- بكرة تفرج .

- وأنا أعمل إيه دلوقت ..

- خليك معايا ..

ثم فكر برة وقال ..

- أسع .. تعال ندور على سعد ..

ودق جرس التليفون ، رفع السماعة ، فتהלل وجهه ، كان المتكلم هو

سعد وشعرت ببارقة أمر

التقينا فى ميخالوفتش ، وتبادل شوقى وسعد كلمات مبهمة ، ثم التفت

سعد إلى وقال :

- عن إندك يا يوسف .

وتنهض هو وشوقى ، وجلسا على منصدة أخرى ، وأنا أنتظر أيعكران فى

الذهاب إلى أبى ليقبعا بالعدول عن زواجه .. أيسخران منى .. أما ضائقان

بى مرت لحظات قاسية ، وفكرت فى أن أتركهما وأذهب . ولكن إلى أين ..

ليس لى مخرج غيرهما .. أنا ذليل .. أنا عاجز تماماً عن فعل شيء ..

وعاداً ينتسمان وقال سعد :

- خلاص احنا اتفقنا .. أنت ح تثبت معايا .

وقال شوقى معتذراً :

- أصل أنا بأعزل فى بوابة المتولى .. وفيه جماعة قرايينا بيباتو معايا .

كنت واثقاً أنه يكذب ، وأنه لا يريد أن يأخذنى إلى بيته لسبب آخر ، لعله

يتصل بالشيوخ عيين ..

وقلت فى أسف ..

- بس موش ح أضايك يا سعد

هتف فى حرارة

- يعنى ح تثبت فى .. إلا إذا كنت عايز ترجع بيتكم ..

كان واضحاً أنه يفصل لولم أذهب معه ، ولكنى تجاهلت ما أفهمه .

وقلت فى لهجة يائسة

- أرجع إزاي إذا كانوا طردوني وأكلت فى العدا رغي عيش وطبق قول ..

كنت أمسك بقطعة الخبز ، أتحمسها ، كأننى المسها لأول مرة ، فى حياتى ،

وأنا ملها بنقوشها البنية ، وأتركها تذوب فى فمى على مهل ، وأشعر بها تستقر

فى بطنى ، إنى أكل نقود شوقى ، وهو يعرف أنى أكل نقوده .. أكل خجلى ..

أكل كيرياى . أكل ما بقى فى نفسى من سذاجة .. إنى محتاج إلى هذا

رغيف محتاج إليه حتى أموت .. كيف أحصل على هذا الرغيف ، كيف

أحد النقود التى أضعها فى جيبي واشترى مثل هذا الرغيف ..

- نأكل مهلبية

سألتنى شوقى ..

ومصت وتأمكر فى أنه هو الذى سيدفع الثمن ، فالحل ، وصممت على

الرفض ، وفرحت لأنه أصر على الرفض ، وفرحت لأنه أصر على أن نأكل

مهلبية التهمتتها كمجنون

فى المساء ، وأنا راقد إلى حوار سعد ، كان لا هم لى سوى الجنيهات

الخمسمة التى يوح أبى فى وحيى .. الورقة الخضراء هى كل خيالى .. أريد هذه

الورقة .. غداً سأذهب إلى المقهى ، وأطلبها منه . سأذهب متصنعاً

للخجاعة . ومتظاهراً بعدم الاهتمام .. سأذهب إليه وقوراً .. حاداً حزيباً ..

وأطلب منه الورقة الخضراء .. واكل الخبز واكل الفول .. واكل الملهية
سيسألى أبى أن أعود إليه .. أعود إلى الخبز الذى فى بيته ، أعود .. لن
أقبل كل الدل .. يكفينى بعض الدل .. بعض الاستسلام .. وبعض
الكبرياء .. وبعض التحدى ..

بعض البراءة .. وبعض الشر .. هكذا سأعمل الجميع ، أبدو امامهم
الضعيف الخجول ، ولكنى فى قرارة نفسى سأندفع لأحصل على كل شيء
بلا ضعف أو خجل ، سأحتفظ بالمظهر الذى كنت أحلم به ، الصديق الطيب
القلب .. الساذج المنطوى على نفسه . ولكنى سأكون الكاذب القاسى
القلب .. الماكر المقتحم ..
هل جننت ..

الدنيا هى هذا الخليط العجيب من كل شيء . ولابد أن أعيش فى هذه
الدنيا .. شوقى يكره محمد ناجى ويعمل معه .. سعد شيوخى ويريد أن يعمل
وكيلاً للنيابة ليقبض على الشيوعيين .. أبى يمشى منفوخاً كالديك ويتباهى
بأنه قريب لراتب بك ويتزوج خادمة راتب بك .. سأقلدكم جميعاً .. وسأكون
مثلكم .. وأحسن منكم .

فى الصباح ذهبت إلى مقهى الشطرنج ، كانت الوجوه التى عرفتھا ، تشغل
أماكنها ، الجميع مواظبون ، يؤدون واجبهم المقدس . ما عدا أبى .. لم
أجده .

وقفت خارج المقهى ، كنت قلقاً يضايقنى أن يأتى أبى فىرانى أنتظره
ويعلم أنى فى حاجة إليه ، انتقلت إلى الرصيف المقابل ، حيث الباب الخلفى
لدار الأوبرا ، وفجأة رأيت مجموعة كبيرة من البنات والشبان يخرجون
مهرولين إلى الشارع ، وعلا صياحهم وهراخهم .. اقتربت منهم ، كانوا
يتحدثون عن حريق فى داخل الأوبرا ، بعد لحظات جاءت عربتان للحريق ،
أجرا سهما متصلصا ، ورأيت بين الواقفين المعتلة المشهورة سعاد رسمى وهى
ترتدى قميص نوم شعاف ، وإلى حوارها الممثل العجوز روف المانسترلى
يتلفت حوله شاربداً ، والسات الصغيرات يضحكن ثم يطلقن صيحات قزع .

شغلت بعض الوقت بمراقبة رجال المطاوع ، ثم تذكرت أبى فعبرت
الشارع إلى المقهى ، فرأيت جالساً بين اللاعبين يتعرج عليهم ، تقدمت منه ،
حتى وقفت بجواره ، رفع رأسه ورأى ، فالتفت وألقاً وصاح فى انفعال
.. أهلاً .. إزيك يا أبنى .. أهلاً وسهلاً ..

رحب بى فى احترام مبالغ فيه ، كانى رجل غريب ، وكان يتحاشى النظر
إلى .. وصاح منادياً مخالى ، فلما جاء قال له :

- شوف الأستاذ يشرب إيه

- صحت الا أطلب شيئاً ..

- فهمس مدعناً :

- طيب يا مخالى .. معلش ..

وتلفت حوله ، فرأى منضدة وحيدة بعيدة ، فسألنى لى صوت خائف

- تحب تقعد هناك ..

أومأت برأسى موافقاً ، كنت أعامله أنا أيضاً وكأنه غريب .. وجلسنا عند
المنضدة البعيدة .

وهمس :

- إزيك

- الحمد لله ..

- قال لى أرتباك :

- موش هايز كانوزه .. وإلا شأى ..

- قلت فى جفاء :

- لا ..

ومضت فترة ونحن صامتان ، حتى قال ورأسه مبحح :

- قسمة .. رينا عايز كده .. وتنهذ ..

- لم أقل شيئاً .. وأردف بصوت غير مسموع :

- أنا اتجوزتها أمبارح ..

رفعت رأسى ، أريد أن أتقسم فى وجهه متحدياً .. أعله انى لم أعد أكثر

شئ ، والتقت عيوننا ، فأسرع يخفض عينيه وقال بصعوبة
 - كانت ورطة .. والى كان كان .. أنت يا ابني متعرفش ظروف .. لو كنت
 تعرف كنت رحمتنى .. أنا موش زعلان منك .. لك حق في كل اللي حصل ..
 وأكثر كمان .. لكن أعمل إيه ؟
 كفى يا أبى .. لا تحدثنى وكأنى أنا أبوك .. لقد أخطأت .. إبنى نادى على
 مامعلت .. سامحنى يا أبى ..
 ثم مضى قائلاً :
 - أنا غلطت .. كنت طامش .. لكن دى حامل منى .. واللى زبي لما يفلط
 ما يقدرش يتصرف .. أنا وأجل هجوز .. ودى بيت صغيرة تقدر تبهدلنى ..
 وتشتكىنى للبوليس ..
 لطمنى النبا .. إذن فهى حامل .. وستلد .. هذا مستحيل .. أقتلها
 يا أبى .. عاربنى الحقد عليه وقتل فجأة .. كأنى لم اسمع كلامه
 - أنا عايز الخمسة جنيه ..
 امتدت يده بسرعة إلى جيبه . كأنى أصدرت أمراً لا يقبل المرافضة .. كأنه
 خائف منى ، وأخرج الورقة وأعطاهما لى .. أخذتها .. وفكرت في القيام في
 الحال .. ولكنى لزممت مكانى ، صامتاً ..
 قال ببطء :
 - ح ترجع البيت نتفدى سوا
 قلت في حدة
 لا
 قال في أسى :
 - ح نسيب لك الاكل في أوضك .. نتعشى لما ترجع .
 - أنا موش راجع البيت ..
 - ح تبات فين يا أبى ؟
 - عند واحد صاحبي ..
 قال بصوت ضعيف متهالك .

- موش بيتك أولى بيك .
 قاطعته في إصرار .
 - أنا عايز أعيش لوحدى .. وارتفع صوت أحد اللاعبين :
 - أنت سايبنا وقاعد بعيد يا عبد الحميد أفندى .. ماتيجي تشوف الربور
 اللي اتقلب ..
 ضحك أبى في عصبية ، وصاح
 - جاي حالاً ..
 قعت ، قابض على يده إلى كتمى وريت عليها . شعرت أنه ينافقنى ،
 إبنى أرثى له ، وانفر منه ، وقال ضاحكاً :
 - أنا برضه أبوك .. يمكن بأخرف .. فخليك أنت أبويا .. واقعد جنبى ..
 قلت في ألم
 - ما أقدرش
 وهمس من قلبي
 - سعيدة يا بابا ..
 وخرجت من المقهى .
 تسكنت في الشوارع ، وقفت أمام واجهات المحلات ، أتلوج على كل شئ ،
 الملابس والأحذية وعلب الشيكولاته والثورة ، وأراجع الاسعار ، وتراودنى
 رغبة في الشراء .. فأتجسس النقود في جيبى ، لن أفرط فيها ، إنها أتمن من
 أى شئ اشتريه ، وأردع الرغبة ، وأواصل السير ..
 وتذكرت حريق الأوبرا .. وخطر لي أن أذهب إلى شوقي في جريدة الأيام ،
 وأقول له إنى شاهدت الحريق ، لو كانوا لا يعلمون بالخبر .. فسيهتمون به ،
 ربما قابلت محمد تلجى ..
 وجريت إلى الأيام ، وسألت عن شوقي فلم أجده ، صحت في الموظف :
 - أنا عايز أقابل تلجى بيه .. قال في برود :
 - عنك ميعاد معاه ؟
 هتقت بلهجة أمرة وقد غلغنى الانفعال :

.. قوله يوسف عبد الحميد المحامى .. عايزه علشان الحريقة اللي في
الأوبرا دلوقت .

وجم الرجل ، وتكلم في التليفون .. وقال هامسا حتى لا تسمعه .

.. فيه واحد هنا .. اسمعه الأستاذ يوسف عبد الحميد المحامى .. بيقول إن
فيه حريقة في الأوبرا وعايز يقابل نأحى بيه

بعد لحظات كنت أطرق بابا .. وسكرتيرة تفتح لي بابا آخر فتأخذ حجرة
واسعة فخمة ، وأرى محمد ناجى بقمامة الطويلة ووجهه الهادئ ،
وسيجارته في يده ، يقف في منتصف الحجرة .

ابتسم ابتسامة شاحبة وقال في برود :

.. حريقة إيه يا أستاذ ؟

.. الأوبرا بتتحرق ..

.. دلوقت ؟

.. أنا لسه جاي من هناك .

كان ينظر إلي في حذر ، كأنه لم يدرى من قبل ، فأسرعت أقول

.. أنا كنت جاي أقول لشوقي .. حضرتك شوفتني مرة معاه في مكتبه ..
مالمقيتوش .. فقلت أتصل بحضرتك .

حدق في وجهي ، وابتسم .. تذكرني .

وسألني وهو يولينى ظهره ويدق أحد الأجراس على مكتبه ..

.. إيه اللي شفته ..

.. الممثلات والممثلين طالعين يصيرخوا من الباب الخلفي .. وسعاد رسمي

واقفة بقميص النوم في الشارع ، وجنسها رهوف المانسترلي في حالة ذهول ..

والبنات الكوماريس يعبطوا .. وجهه وأبوريين حطافى علشان يطعوا الحريقة ..

كانت ابتسامته تزداد اتساعاً ، وعيابه تلعلعان ببريق ذكي . وقال في

حرارة :

.. اتفضل .

وقدم لي سيجارة ، وأشعلها لي .

.. وطفوا الحريقة ؟

.. سبتهم بيطلعوا فيها .. وحيث هنا .

قال باسم

.. احنا تشكرك يا أستاذ ..

أنت غاوى صحافة ؟

قلت تدفعنى رغبة حادة في التطاهر بالكبرياء :

.. لا .

قال وهو يدق الجرس مرة ثانية

.. ليه ؟

.. علشان ما أحبش السياسة .. بتجيب مقاب ..

كنت أفكر بسرعة ، يجب أن أبدأ أمامه وكأنى شخص مهم ، سأروى له
حادث القبض على .. سبيلن أنى رجل خطير .

.. أنت من أنصار أى حزب ؟

.. ولا حزب .. كلهم نصابين .. آخر مرة رحى أحضر اجتماع عامه

إسماعيل باشا يونس .. البوليس قبض على ..

تجههم وجهه ، وعادت إلى عيني نظرات الحذر .. وسال في قلق ..

.. قبض عليك ليه .

.. معجبنيش الاجتماع .. فخرجت بدرى .. فالبوليس افكر أنى خارج

علشان أعمل حاجة .. مقعدتش خمس دقائق في القسم .. عمى راتب بك كلم

وزير الداخلية في التليفون وخرجنى ..

.. حسن بك راتب ..

.. أيوه ..

ودخل شاب على ، له قوام رياضى ، فقال له محمد نأحى بلهجة ساخرة :

.. يا عبد الفتاح .. بدل ما أنت قاعد نايم .. روح شوف الحريقة اللي في دار

.. الأوبرا ..

فتح الشاب فمه . وصاح

- حريقة

مزقق محمد ناحى .

- ايوه حريقة . أنت لسه واقف .. خد معاك مصور .. خد سعيد ..

وامطلق الشاب كالقديفة خارجا من الحجرة ..

والتفت إلى يتأملنى وسأل :

- بنشتغل محامى ..

- ايوه ..

- ما فكرتش تشتغل بالصحافة ليه ..

قلت فى تحد .. كنت على يقين أنى لو تحديتك سيزداد تعلقا بى .

- ما جربتش ..

ودق جرس التليفون .. فأمسك بالسماعة ، وبدأ يتكلم . ثم قطع حديثه

والتفت إلى قائلا ..

- طيب يا أستاذ يوسف .. سلمنى على راتبك .. وأبقى خليفنا نشوفك .. أما

متشكر قوى .. مين عارف .. يمكن حقلنا يبقى كريس ونشتغل معانا ..

خرجت من الحجرة ، وقد استولى على ذهول .. كيف حدث ما حدث

كيف استطعت أن أفعل ما فعلته ..

الفصل السادس

صدر القرار بتعيين سعد عبد الجواد معاوناً للنياحة ، وكنت ما زلت مفلساً عاطلاً ، فشعرت أن كل الناس تتحرك وتعيش ، وتفتح أمامها الأبواب ، أما أنا فمحكوم على بالفشل ، وأن أبقى كما أنا ، وسرعان ما لاحظت التحول الكبير بطرا على سعد ، رأيته فى الليل يفتش جميع أوراقه القديمة ويحرقها ، حتى المقال الذى كان يفخر به عن دستور السوفييتى الذى نشره فى مجلة الفجر ، أحرقه

وبعض سعد أن يجلس معاً فى ميخايفتش بحجة أن المكان مشبوه ، ويتردد عليه الشبان الشيوعيون ، ورغم ذلك ظل مصراً على أنه لم يغير مبادئه ، كان يتكلم فى عصبية ، ويدافع عن نفسه أمام شوقى ، ويتحدث عن أمانة المهنة والواجب الذى يؤديه ، ويؤكد أن ضميره مستريح ، فيسخر شوقى وهو يتكلم ، ويرتبك سعد وتزداد عصبيته ، ويحدثنى قلمى أن سعد يبتعد عنا ، فأخاف ، من يدرى ، قد يغضب سعد فى إحدى المناقشات ويقطع علاقته بنا ، ويطرذننى من بيته

وكنت إذا انفردت بشوقى نتحدث عن طموح سعد ودكائه ، ويصر شوقى على أن سعد مجرد وصولى ، سار مع الشيوعيين لأنه فقير ، فلما انفتح المجال أمامه ليصبح غنياً ، هجر الشيوعية ولم يفكر إلا فى نفسه ، كنت أستمع بشوقى ولا أجرو على مناقشته حتى لا يغضب منى ، وكنت أستمع لسعد

ولا أجروا على مناقشته حتى لا يعضب منى ، وأحاول إقناع نفسى ، بأنى
لست مضطراً للاختيار ، وأنى صديق الاثنين
وذات ليلة انتظرنا سعد فى جروبي حتى أغلق أبوابه ، ولم يحضر سعد ،
وسألنى شوقى فى ضيق .

- ح تعمل إيه ..

قلت حائراً .

- ح استنائه فى الشارع ..

- قال ساخراً

- تعال بات معاً أحسن .

وذهبت مع شوقى إلى بيته فى بوابة المنولى ، مكان مظلم مريب ، كأنه وكبر
مجرم ، بيت عتيق ، داخل فناء قذر ، وباب خشبى ضخمة صرير ، وأشباح
تتحرك ، وكان عيون الشرطة تراقبنا من كل مكان ، وقضينا الليل نتحدث عن
سعد وعن الشيوعية ، وسألنى شوقى لماذا لا أكون شيوعياً ، وحاول أن
يقنعنى بأن هذا هو طريق المثقفين ..
قلت متردداً :

موش قادر اقتنع بيها ..

سألنى مهاجماً ..

- ليه .. حاجبك الحال الل أنت فيها ؟

- لا ..

- لو كنت فى مجتمع شيوعى كان زمانك بتشتغل .. وعارف تعيش ..

وانطلق شوقى فى الكلام ، كنت أشعر فى قرارة نفسى أن كلامه معقول ،
ولكى خائف ، خائف من صوته ، ومن الحجرة التى نجلس فيها ، ومن الأذان
التي تنصت إليما ، كان خوفي قوياً ولكنى لم أجسر على الاعتراف به ، لا أريد
أن أعيش معرضاً للقبض عرئ ، لا أريد أن أعيش مطاردة ، لماذا كل هذا
العباء ، ثم أن هناك أملاً كبيراً يراودنى فى أن أعمل فى جريدة الأيام .. أنا
أحسد سعد وأتمنى أن أكون مثله . إن شوقى يطالبنى بأن أفكر فى الناس

جميعاً ، ولكنى غير قادر على هذا ، الناس ليسوا فى حاجة إلى ، مبروكة
الخدمة ليست فى حاجة إلى ، لقد استطاعت أن تتزوج أسى ، استولت عليه ،
لا أحد يفكر فى ، فلماذا أفكر أنا فى الناس ..

وفى الصباح ذهبت إلى النيابة لأرور سعد ، قابلنى بحماس ، واعتذرن بأنه
كان مشغولاً بحضور تحقيق استمر حتى منتصف الليل ، إذ هاجم الشرطة
بيتاً للدعارة ، وقبضوا على البنات وبعض الزبائن من الشخصيات المعروفة
وسألنى ..

- بت فىن أمبارح .

- عند شوقى ..

- أنا قلت كده ..

قلت وأنا ابتسم فى ارتباك :

- عايز يخلينى شيوعى .

- فتلفت حوله وهمس :

- بلاش تورط نفسك .. ح .. تندم .

ثم أردف قائلاً ..

- البلد موش عايزة شيوعية .. دى مرحلة لسه ح تيجى بعدين .. البلد
عايزه ناس عندها ضمير . شعرت أنه نصاب ، يحاول أن يخدعنى ويخدع
نفسه ، إنه لا يفكر إلا فى وظيفته ولكنى تظاهرت بتصديقه ، وكأنه رجل له
مبادئ

وحدثنى سعد عن التحقيق بنفس الحماس الذى كان يحدثنى به فيما مضى
عن الشيوعية ، كان يتكلم وكأنه بطى ، وقال وعيناه تلعبان : إن الشرطة
قبضوا على سيد الوهاسى تاجر الحديد ، وعصام رافقت ابن رامت باشا وزير
الزراعة السابق ، وادعم بقى خطبة حماسية عن انحلال الاغنياء
وفسادهم ..

تركته بعد أن وعدته بأن أعود إلى بيته حتى لا أتورط مع شوقى ، وذهبت
إلى جريدة الأيام لأقابل شوقى .

كنت قد تعرفت على المحررين ، وتظاهرت أمامهم بأنى شخصية هامة ، حدثتهم أكثر من مرة عن حادث حريق الأوبرا ، وكيف أبلغته لمحمد ناجي ، وجعلتهم يشعرون بأنى صديق له ، وحدثتهم عن قرابتي لراتب بك وصدافته لوزير الداخلية ، وكنت أقابل محمد ناجي أحيانا وأما في طريقى إلى شوقى ، فيقف ويتبادل التحية ، ويبتسم في وجهى ويقول كلمة أو كلمتين ، وتلمحنى عيون المحررين ، فيزداد احترامهم لى ، وترحيبهم بى ، ويتحدثون أمامى كأنهم واثقون أن كل كلمة أسمعها سأنقلها إلى محمد ناجي جلست إلى جوار شوقى ، وامسكت بسماعة التليفون وقلت للعامل فى

هدوء :

- أدينى ناجي بك ..

نظر إلى شوقى فى دهشة .

قلت فى برود

- عندى أخبار ح أقولها له ..

- أخبار إيه ..

قلت فى غموض :

- أخبار ..

وصعدت إلى محمد ناجي ، ورويت له حادث القبعين على سيد الوهابى وعصام رأفت ، أثناء روايتى تذكرت كلاما كثيرا سمعته من سعد .. النائب العام مضروب عليه وسيخرج من منصبه . المرشح الجديد هو عميد كلية الحقوق .. وكلما تذكرت شيئا ، رويت لمحمد ناجي فى ثقة ، وكأنى صديق للنائب العام ، وكأنى صديق لعميد الكلية .. استمع إلى فى اهتمام ثم قال بصوت جاد

- أنا عابذك تشغل معانا .. موش عايز منك أكثر من الأخبار دى . وح ادليك ثلاثين حسيه .

أطرقت مرامى وكأنى متردد ثم هسست

- بس أنا

- أنت إيه ..

- أنا قبان .

ضحك ساخرا وقال :

- اسمح لى يا أستاذ .. عايز تنقى قبان .. يعنى عايز تنقى تنبيل .. ما تعملش حاجة .. أنت عندك اتصالات كويسه .. وتعرف تجيب أخبار .. والصحافة مستقبلها واسع . الفن ما يوصلكش لحاجة . أنت لازم تتخلص من الوهم اللي فى رأسك . خلاص أما باعتبرك بتشتغل معليا من النهاردة .. وقبلت

ولما عرف شوقى النبا ، هجم على يقينى ، ولازمنى طوال النهار ، ولكنى كنت أفكر فى اللحظة التى اتخلص فيها منه ، لأذهب إلى سعد ، إن سعد هو الذى يستطيع مساعدتى بنصائحه وأخباره ، أما شوقى فسيعرضنى للخطر .

وذهبت إلى أبى فى المطبخ ، كنت أتردد عليه بين وقت وآخر ، وأطلب منه بقودا ، فيعطينى نصف ريال أو خمسين قرشا .. وقلت له انى وجدت عملا فى جريدة الأيام فظهر الاسم على وجهه ، وقال فى حسرة

- بقى تأخذ الليسانس علشان تشتغل جريالجي ..

وأردف وهو يتنهد

- بكرك بتعدل وتلاقى شغلة أحسن

ضحكت فى سرى ، وقلت وأنا أرقب أفعالات وجهه

- ح يدونى ثلاثين حنيه .. لم يفهم ما أقوله ، وسأل .

كأم ؟

- ثلاثين حنيه فى الشهر .. اتسعت عياه ويدا انه لا يصدقنى . ثم ضحك فجأة ، وهتف .

- مبروك يا ابنى . ألف مبروك

قلت بسرعة :

- بس أنا عايز فلوس دلوقت

نظر إلى دريية ، وكأنه يلومنى ، ظن أنى أكتب عليه لأحصل على النقود ..
فهمست

- سبب .. لحد ما أقبض ..
- سألنى فى انفعال .
- اتعينت خلاص ؟
- أيوه ..
- أنت متأكد ..
- أيوه ..
- ح تعمل بالفلوس إيه ..
- عايز أسكن فى بنسيون ..
- عايز فلوس كتير ..
- عشرة جنيه ..

فالتفت إلى الرجل السكر الذى كان يلعب معه الشطرنج ليلة جئت للمقهى
لأول مرة .

- وقال له :
- أنا عايزك يازكى بك فى كلمة .
- قام الرجل ، وانتصى بأبى فى ركن المقهى ، ورأيتة يخرج نقوداً من
محفظته ، وأعطانى أبى الجنيهات العشرة ، كان يتمتم بصوت مرتعش .
- أنا سالف الفلوس دى ولازم أرجعها .. ده مبلغ كبير ما أقدرش عليه .
- إنه مارال يستريب فى أمرى .

قلت فى ثقة

- ما تخافش يا بابا ..
- ووجدت غرفة فى بنسيون مدام روز فى عمارة كبيرة بالقرب من ميدان
الإسماعيلية . غرفة تطل على حارة ضيقة ، فيها سرير خشبى صغير ،
ودولاب قديم ، وستائر زرقاء أشعرتنى بأن الغرفة قذمة ..

الآن ، أنا أتدفع بكل قواى فى حياة جديدة ، خلعت ورأى كل شىء .
لا أكره بالماضى ، ولا أفكر إلا فى أحلامى المقللة ، ومحمد ناجى .

كنت أفكر كثيراً فى محمد ناجى وشعرت بإعجاب كبير نحوه ، حيل إلى أنه
ليس فى هذا العالم من هو أعظم وأذكى منه ، لاحظت أنه يذهب إلى مكتبه كل
صباح فى ساعة مبكرة ، فتعمدت أن أسبقه وأنتظره ، حتى أعلم بوصوله ،
فأتطرق بابه وأدخل عليه ، فأراه يتصفح الجرائد ويدخن سيجارة ، هاجلس
أمامه وأضع ساقي على ساقى ، وأروى له ما سمعته من أخبار ، وكانى أعرف
كل شىء .

أدرك علم محمد ناجى كيف كنت أحصل على أخبارى ، إنى لا أعرف أحداً
فى هذه الدنيا سوى أبى والمقهى الذى يجلس فيه ، وسعد وشوقى ، ومع ذلك
استطعت من خلال هذه الدائرة المحدودة أن أروهم محمد ناجى أن صلاتى
ضخمة لا حدود لها .. كنت أذهب إلى أبى فى المقهى وأسمع أى كلام من أحد
اللاعبين ، فأحوله إلى خبر خطير ، كان لأعبو الشطرنج خليطاً عجيباً من
الناس ، موظف فى الجمرى وسائق قطار فى السكة الحديد ووكيل وزارة
التجارة ، ومفتش فى التعليم الثانوى ومسار يهودى .. أستمع إليهم ،
لأقول لمحمد ناجى فى صباح اليوم التالى إنهم ضبطوا زوجة أحد الباشوات وهى
تهرب الحشيش فى حقيبتها فى الجمرى ، وأن الأمير يكن سافر إلى استنبول
ومعه كلابه الخمسة ، وأن القطارات الجديدة التى اشتروها اكتشفوا أنها
لا تصلح للسفر على القضبان الحديدية الحالية ، وأن وكيل وزارة التجارة قتل
إن السماد سيخلل مختفياً من الأسواق طوال الشهرين القادمين ، ويستمع
إلى محمد ناجى وهو يقدم فى السجائر ويطلب لى القهوة ، وفى رأسه صورة
غريبة عنى ، كأنى أعرف كل الناس ، وكأنى أعمل ليل نهار من أجله .

ونهبنا لزيارة سعد ذات مرة فوجدته سيخرج مع وكيل النيابة ليتمرن على
التحقيق فى قضية قتل ، ذهبت معهم إلى بيت مهالك فى بولاق ، وصعدنا سلماً
خشيباً ، ودخلنا حجرة مفروشة بحصير ، فيها سرير نحاس فوقه جثة رجل

عجوز نرفت دماؤها من جرح غائر في عنقه .. حضرت التحقيق . وتحدثت مع سعد عن الجريمة ، ثم عدت إلى الجريدة وكتبت وصفا للحادث احتوى تعليقات سعد وآراءه .. القاتل الحقيقي هو الظروف المحيطة بالقتيل .. كان مدمنًا على الأفيون ، يسرق نقود أولاده ، الاتهام موجه إلى زوجته الجديدة الصغيرة التي ارتكبت الجريمة بمساعدة عشيق لها ..

وقرأ محمد ناجي ما كتبته ولم يضيف سوى جملة واحدة في أول الموضوع ..

« كتب يوسف السريفي المعرر الجنائي للأيام .. »
وقال ضاحكا .

« لازم ننشر اسمك باء علشان القراء يعرفوك .
هعست فرحا .. »

« أنا اسمي يوسف عبد الحميد السويفي .
قال ساخرا :

« ده مرش اسم .. ده مقالة .. لازم يكون اسمك مختصر علشان الناس تتعود عليه .. »

وقرأ سعد التحقيق وقال متهمكا .

« يا تديني الفلوس اللي بتأخذها .. يا الواحد ما يتكلمش قدامك باء تنقل كلامي بالحرف ولا تذكرش اسمي »

وناداني محمد ناجي ذات مساء ، فوجدت في مكتبه الممثل أنور سامي ، قدسني إليه محمد ناجي قائلا :

« أهو يوسف أقدر اطعن له .. ابن ناس طيبين .. وموش ح يعمل معاك فصول من إياها .. »

صرخ أنور سامي في لهجة تمثيلية :

« أنا أبوس اينك يا ناجي بيه .. خلاص .. طلع ديني من ولاد الحرام اللي بتبعتوهم ورانا الامتوديوهات .. والله انا بتكسف .. جعائين .. صحافة إيه دي . يتمسحوا في الواحد . واللي يقولك معاك شلن . واللي يقولك معاك

سجارة .. وإن ما اديتوش .. يتشروا اخبار هيباب .. كتب في كذب .. دول إرهابيين .. انا بأحلم بيهم بالليل . والله لو مت ذنبي في رقبتك يا ناجي بيه .
والتفت أنور إلى وقال متوددا :

« الأستاذ باين عليه صحيح ابن ناس .. انشرفنا يا أستاذ يوسف .. »

ثم صاح مخاطبا محمد ناجي :

« لكن ده موش باين عليه صحفي .. »

ليه .

« مكسوف .. »

وهتف أنور في وجهي .

« ابروح يا أستاذ .. »

قال محمد ناجي :

« والله أنا خايف عليه منكم .. ما انتم العن من الصحفيين .. »

كان أنور سامي هو أول من عرفته من الفنانين ، أخذني ليلتها لعرشته إلى استوديو مصر ، وعرفني بالممثلة هدى مراد والمخرج حلمي كامل ثم أصر على ان اذهب معه إلى بيته ، وهناك جلس يحدثني عن محمد ناجي ، كان معجبا به ، إنه ابرع كاتب عرفه وقرأله ، يخشاه القصر ، ويخشاه الوزراء ، وتسمى إلى كسب رضا كل الأحزاب بميش كملك ، ارسنقراطي ، ينفق عن بذخ ، ولكنه فقير ، لا يملك سوى مرتبه ، وضحك أنور قائلاً :

« كفاية عليه أنه عرف يطوي شهادي باشا .. تعرف كل الملايين اللي يملكها شهادي .. تحت تصرف محمد ناجي - أه يا ناري .. لو كنت أعرف أوصل لشهادي باشا زى محمد ناجي .. كان رمانى ملك المسينما كان زمانى سيسيل دي ميل .. »

وعط شفتيه وقال متأنفا :

« بس كله كوم .. وإني أحب ثريا هانم كوم .. دي أم قويق يا أستاذ .. موش ممكن أعمل زى محمد . أنا أحمل منه . وپرضه اسمي ممثل سبيما ، ولف واحدة تقمى إنها تعرفنى .. يس ما أقدرش . أم قويق . في ستين

داهية العلوس .. ملاش أبقي سيسيل دي ميل .. ده لنا لما باشوفها واتخيل
أنى ح أبوسها .. تغم على نفسى .. محمد ده نفسه مفتوحة قوى .. أعصابه
حديد .

كان أنور يحدثنى وكأنى أعرف كل هذه الحقائق ، فتماسكت أمامه
متظاهرا بأنى أعرفها فعلا ، ولكنى كنت أخفى ما أشعر به من دوار ، عيناى
على شفاهة عميقة ، أرى فيها أشياء تذهلى .. ونهض أنور فجأة واختفى
ثم عاد ولى يده رباط عنق أحمر وقدمه فى هدية منه . رفضت رغم الحاجة ،
وتظاهره بأنه مسيء منى .

لم يعر يوم واحد ، حتى كان محمد ناجى يقول لى ضاحكا .
أنا مبسوط منك يا يوسف علشان رفضت تأخذ الكرافتة من أنور .
صحت لى دهشة :

- هو قالك ..

قال :

- وهو كمان مبسوط .. قاللى إنك صحيح ابن ناس .
- شعرت بالغيط ، الجميع يتظاهرون يكذبون ، وقلت فى حدة :
- بس الراجل ده موش كويس ..
- أنور ؟ ليه ؟
- موش عاجبنى ..

قال متهمكا فى لهجة أبوية وكأنه ينصحنى :

- شوف .. هما بيعرفوا ليه .. علشان ننشر أخبارهم ويتشبهوا ..
- بيتظاهروا بأنهم أصدقاء .. وأنهم بيحبونا .. ويباقوا .. ومستعدين يقدموا
- هدايا .. ويعملوا أى شىء .. علشان الناس تقرأ اسمهم .. وعلشان مانكتبش
- عنهم كلمة وحشة .. بيدوروا على عيشهم . لكن أوعى تصدق لى واحدا منهم
- ح يبقى صاحبك بحق وحقيق .. لو طال يموتك علشان يشتهر أكثر .. كان
- موتك .

قلت فجأة

- ده بيشتع عليك .

قال فى وجوم ..

- قل إيه ..

اندفعت معترفا بكل ما سمعته من أنور عن شهادى باشا وعلاقة زوجته
بمحمد ناجى .

هز راسه مبتسما ، وقال فى بطنه

- أنت لسه صغير وغشيم على جوال الصحافة . لسه ولد برىء ونضيف ..
- وأنا عايزك تفضل كده على طول .. وما تصدقش اللي بتسمعه . أنا لسه
- باقوك . إنهم بياكلوا فى بعض .. صحيح شهادى باشا بيمول الجريدة .. لكن
- إحنا كمان بنشتغل .. أمل ح نجيب انفلوس منين . أنت فاكركم الجرنال لما
- بتوزع كله ح يغطي مصاريفه .. أبداً .. إحنا محتاجين للإعلانات .. وشركات
- شهادى باشا هى اللي بتدفع فلوس الاعلانات . وهى اللي بتشتري لنا
- المطامع .. والبلد دي عايشة على اشاعات .. محدش عايز يصدق أن فيه
- شغل شريف .. إحنا بنشتغل مع شهادى باشا يبقى لازم محمد ناجى بيعرف
- مراته .. رئيس الوزارة بيعتمد على وزير المالية .. لأن وزير المالية على علاقة
- بزوجة رئيس الوزراء .. الملك أمر برغد فلان .. علشان زوجة فلان رفضت
- تقابل الملك فى الشاليه بتاعه فى لهرم . نصحيتى لك يا يوسف .. إنك تبعد عن
- الاشاعات دي .. وخليك نضيف . أنا بأعتمد عليك .. ونادر لما الاقى واحد
- زيك اتق فيه .. وماتخلنيش أحس أنى غلطت فى حقك .. يوم ما التعتك
- بالشغل فى الحوالقذردة

صدقته ، وكانت الدموع تطفر إلى عيني ، ولاحظ تأثرى ، فتقدم منى
ورست على كتفى وقال متهمكا

- بكرة تكبر . وما تنحسش من الأحاحات اللي بتسمعه . أنت بتفكرنى
- بنفس أيام زمان . بس أنا كنت أجرا منك . لحد يقولى حاجة علط . أصرب
- باليوكس فى وشه ..

وحرحت من مكتبه ، وأما أتوهم أن المحتجم الحقيق بفوسه الحقرة يحاصر
جريدة الأيام ، وأن محمد ناجي مظل نيل يقف في قلعة يتلقى الضربات ،
ويحب أن أقف معه ، أحارب وأناضل وأدافع عنه .

كان الوقت ظهرا ، وأما جالس إلى مكتبي في الحريدة ، عندما بق جرس
التليفون ، وسمعت صوتاً غريباً يهتف

- الأستاذ يوسف ..

- أيوه يا أقدام .

- أنا زكي ..

- زكي مين يا أفندم ..

- أنا صديق الوالد .. إلى باقعد معاه في القهوة .. أنا بالكلمك من هناك ..

خفق قلبي . إنه يطالبني بالنقود التي أقرضها لأبي ..

- اتشجع يا ابني .. مصيبة وحصلت .. الوالد تعيش أنت .. يا استاذ
أنت سامعني ..

وأنا خارج سمعت صوتاً يناديني :

- ناجي بيه عايزك

وقفت مكانى ساهما ، ثم صعدت إليه ، ما كاد يرانى حتى سألنى

- مالك ..

- ولا حاجة ..

- فيه حاجة مضايك ..

- لا

- أنا كنت عايزك تشوف أخبار الفن بنفسك .. موش عايز هجوم على

أم كلثوم .. ولا عند الوهاب .

ومضى ينضم ، وأما في دهول ، لن أقول له إن أبى مات ، لن أقول له إنه مات

في المقهى الحقيق ربما كتب الحبر ، حسبما لم هو أبى لو انتشر الخبر فسيأتى

معى المحررون ، وسيرون أصدقاء أبى وسيعرف محمد ناجي أنى فقير ، قد

يصمم على المشى في الجفارة ، سيعرف حقيقتى ، سيكتشف أمرى . سيدرك
أنى خدعته . سيعلم كل شيء عن مبروك

وجريت إلى المقهى كالمطار ، أبى مات ، إنى أحبك يا أبى ، لو كنت أعلم لما
تركك .. كنت أطلب منى أن أرمالك ، أن أصبح أباك ، تحليت منك .. قتلتك
يا أبى .. ولكن موتك قضيحة .

جسد أبى ممدد على مناضد المقهى يثير فرعى .

مات أبى .

ها هو لحمى على المناضد ، انفصل عنى ، أمام كل هذه العيون ، هذا فرق
طافتى ، لو كنت أستطيع أفرار ، لو كنت غائباً عن القاهرة لا أعلم بما
يحدث ، أتركونى لحالى لست أريد منكم شيئاً ، ما الذى جاء بهى إلى هذه الدنيا
ليبرطنى في هذه المصائب ، لا تلتفوا حول ، ألا ترون أن المقهى يتداعى فوق
رأسى ، وأن جسد أبى ثقيل يرهقنى الزمرا الصمت ، وانصرفوا ، دعونى
وحدى معى ، حتى ينتهى كل شيء في هدوء . في السر . لابد أن ينتهى كل شيء
في السر .. ولكن كيف .. أصوات مختلطة تطرق أذنى ، أيد تشدنى ، عيون
تفتش في عيونى .. الأسعاف .. العانوتى .. البرليس .. عربة نقل الموتى ..
لا حول ولا قوة إلا بالله .. البقية في حياتك .. قهوة يا مخالى .. سجاير
سجاير .. أبواق سيارات .. هدير ترام .. ضوء النهار شديد .

ليس ممي نقود ، لعل في جيبه نقوداً ، أمد يدي إلى جيبه ، افتشه إنه أبى ،
أن أجرو ، من أين تأتى النقود .. أذهب إلى محمد ناجي واقترض منه ..
مستحيل .. اتصل بسعد .. لابد أن أتحرك .. أفعل شيئاً سريعاً .

سأصل براتبك ..

سمعت صوته في التليفون مظهراً الحزن ، مظهراً الاهتمام ، قال إنه
سيصدر أوامره ..

- اسمع يا ابني .. أنت تيجى هنا على طول .. وح أكون عملت الترتيبات .
والأ أقولك خليك أحسن عندك ما يصحش تسييه لوحده . لا حول ولا قوة إلا
بإله .. ما تعولش هم .. أنا ح أشوف كل حاجة .. وح أدمع كل شيء

كل شيء بالنسبة له سهل ميسور حتى الحزن على أبي ويقع نفقات دمه .
أمر سهل ميسور

.. أنا ج أقوم بالواجب يا ابني .. أطمئن ..

وجاء مبروكة إلى المقهى ، الفضيحة خرجت إلى العراء ، كانت تحمل طفلاً ، ابنها ، انهارت جدران بيتنا واكتشف المستور ، أصبحنا في الشارع ، والناس يرون كل شيء ، أبي يضحك مع مبروكة ، تضمهما غرمة النوم ، تدله ولداً ، شجاري معه ، لقد تعريت ..

لا أملك سوى الاستسلام ، الاذعان للتظاهر بالغباء ، خطوت خطوتين مبتعداً ، فانفجر حصار الناس يفسجون لي الطريق ، ورائتي مبروكة فهجمت علي ، وقالت صراخاً نكست رأسي وابتعدت ..

يوماً سمعت الدنيا صراخ مبروكة الفضيحة تجلجل بلا داع ، المشيعون يتلفتون نوحها ، لعلهم يتهايمسون بقصتها مع أبي ، لعلهم يشيرون إلى ابنها ويقولون إنه أخى .. لن أكثر .. أنا نعمة تدفن رأسها في التراب .. هه .. ما الذي يذكرني بالنعام الآن ، أهدأ وقت التشبهيات .. كائنات أكتب مقالاً .. أنا لا أكتب مقالاً .. يجب أن أفهم هذا .. أنا أفهم أبي ..

يحملون أبي إلى القبر ، يهبطون به ويفيون تحت الأرض ، ربما كان هذا أفضل حل . منذ هذه اللحظة ستضيع مبروكة ، ستضيع إلى الأبد .. الدنيا واسعة ، تنوء هي في مكان ، وأتوه أنا في مكان وكان شيئاً لم يكن .. غداً ستقدم لي مدام روز الشاي في الصباح ، وستحدثني عن فيلم السينما الذي سترأه الليلة ، لن تعرف أن أبي مات ، ربما ابتسمت في وجهها لأنها لا تعرف .. ولأخفى حزني .

يغطون فوهة القبر بالحجارة ، ويهيلون فوقها التراب ، ويرشونه بالماء ، الشمس تعيب ، أذان المغرب يرتفع ، كل ما ساقعله ابتداءً من هذه اللحظة سيخفى حزني ، سأصبح كائناً كبيراً لأخفى حزني ، سأشبه وأحصل على المال لأخفى حزني . سأصعد إلى أعلا قمة في الدنيا وأسخر من الجميع لأخفى حزني . لن يعلم أحد غير هؤلاء المشيعين أن أبي مات .. وأبي حزين

ولكنني حزين يا أبي ، كيف تركتني وهبطت إلى القبر . ترقد بجوارها . أمي .. اتعرفين ما يحدث الآن .. أحسب به . لا تسمعي صراخ مبروكة إنها ليست موجودة معنا .. لم تكن هناك مبروكة في حياتي .. انتسمني في وجهه يا أمي فانا لا أستطيع

أوراق القضية مازالت في الصفيحة ، كنت تريد إخراجها ، أوراق تاريخية ، لقد ورثت هذه الثروة ، ولكن مبروكة تشاركني الميراث ومعها ذلك الطفل الذي تحمله لا أريد هذه الأوراق ، فلتبق في الصفيحة ، إنها لا تساوي شيئاً الآن ، مات سعد زغلول ، ومات يابى ، وماتت الأوراق . هه .. يوم كنت تحدثني عن مستر هولز ناظر مدرسة الحقوق السلطانية ، معارفك دخلوا المدرسة وأصبحوا مستشارين وبكوات وباشوات .. أتذكر يوم دخولي كلية الحقوق صممت على المجيء معي .. أنت مالك ياسيدي أنا عايز أشوف الكلية . افرض إني واحد غريب وعايز يتفرج عليها ..

أوصلتني حتى باب المدرج ، كنت مستاء منك ، خيل إني أنك تعاملني كطفل ، وكنت تتلفت حولك مزهوا ، تنظر إلى الطلبة وعي شفتيك ابتسامة وفي وجهك حنان وأسى .

لم أدرك يوماً ما كنت تشعر به الآن عرفت .. إني واثق أنك جئت معي إلى الكلية لترى المكان الذي أردت أن تبدأ فيه حديثك ، وعجزت عن دخوله لأنك فقير ، أردت أن ترى شبابك وأحلامك التي لم تتحقق كنت فرحاً رغم الحزن والأسى المرتسمين على وجهك ، رغم تجهمي واستيائي لأنك معي ، هاهي الفرصة متاح لك من حديد في شخصي .. أما أنت .. أما أنت .

آه يا أبي .. إني أذكر الآن أشياء كثيرة ، أدركها لأول مرة . صوتك المرتعش وأنت تودعنا قبل السعر إلى مقر عملك ، مذك المرتعشة وهو تمتد لتأخذ المنظروف الذي يحتوي الجبهات الثلاثة أحمر دوسن مدحت ، يعاقب لراتب بك .. أبي . لقد كنت يائساً من نفسك . تصحى بكل شيء من أحى

لم يبق لنفسك شيء ، سوى الساعات الطوال الصائغة في المقهى أمام راحة الشطربج .. ومبروكة

سأحقق لك كل ما تريده ، لن أضحي ، صدقني يا بني ، سأفعل ما لم تفعله أنت ، سأطرد الحادمة كما كان يجب أن تفعل ، سأعيش لأصبح يوسف بك .. يوسف باشا .. وسأكون أكثر من كل هؤلاء المحيطين بي ، سأرتفع فوق العvisية التي رأوها ، سأحرفقنا وسأحرفصة مبروكة من ذاكرتهم بقدر ما هبطت أنت سأرتفع أنا ، وبقدر ما تحسرت أنت سأقوى أنا ، وبقدر ما مت أنت سأعيش أنا ..

كانت مبروكة لا تزال تصرخ ، ويدي تهتك بعشرات الأيدي ، حتى دفعني مدحت إلى العربة الكبيرة ، ركبت بجوار راتب بك ، طلبا مني أن أذهب معهم ، ولكني صممت على العودة إلى الجريدة

وصعد مدحت معي ، إنه يريد أن يقوم بالواجب ، رحبت بمجيئه ، لم أفكر فيه كصديق قديم ، كنت أقول لنفسي ، هاهو ابن راتب بك ينجس معي ، تعالوا لتتأكدوا من صلتى به .. أنا لا أكذب الآن أستطيع أن أعلن نبأ وفاة أبي وأنا مطمئن هاهو أحد المعزين ، لقد جاء معي في عربة فخمة كبيرة ، انظروا إلى وسامته ، تأملوا ملبسه الأنيقة ، اسمعوا كيف يتكلم .. هاهو نوع أقاربى .

استأذنت من مدحت ، وذهبت إلى محمد ناجى ، وأنا أرسم على وجهي كل الحزن الذي في الدنيا ، الآن ستتعول فضيحة الموت ، إلى شيء مشرف .. سألتى

- كنت حين .

أطرفت رأسى وقلت بصوت خفيض .

- والذى تولى .

فرز ، وبظري إلى دهشة ، دخلنى شعور غريب ، أتى حزين ولكنى أظهار بالحرى

- امتى

- النهاردة الصبح ..

صرخ .

- وما قولتليش ليه .. أنا سألتك ..

- ما حيتش أزعجك

- انت مجنون .. حد يعمل كده

- خلاص . الجنابة كانت العصر وعمرى راتب بك وصلنى هنا

قال في عجب :

- أنا مش فاهم ازاي ماتتكلمش .. أنت غريب يا يوسف . دى حاجة ماتحصلش أبداً ..

همست ..

- اتفقت مع عمرى راتب بك .. إفنا نكتفى بالجنابة .

- بس ماتقولوش .. لا . لا .. أنا واخذ على خطرى منك

- مدحت ابن راتب بك .. مستقننى في أوضتى

راتب بك .. راتب بك .. أريد أن أكرر هذا الاسم مائة مرة .. ألف مرة ..

قال محمد ناجى :

- طيب انشر النعى .. كتبتة ؟

ارتبكت ، أى نعى ، ماذا أكتب في النعى ، أسماء أقارب مجهولين فقراء .

مستصبل

قلت

- حاضر ..

- أكتبه دلوقت ونزله المطبعة ..

- حاضر .

وغابرت الصحرة ، ووقفت مع مدحت عند باب الحريدة ، ستظر محىء

السائق بعريقه الستروين .. ولم أكتب النعى .

بعد يومين تذكر محمد ناجى أنه لم يقرأ النعى ..

قلت له :

- ما مقدريتش أكتبه .. مسكت القلم السعوج جت في عينيته .. وقلت إيه
الفايدة

تمتم في دهشة

- صحيح أنت شخص غريب .

نعم .. أنا شخص غريب ..

وفي اجتماع المحررين ، قال محمد ناجي في تنثر شديد ..

- إذا كنتم عابزين تعرفوا الصحفي الحقيقي .. شوفوا اللي عمله
يوسف .. المرحوم والده توفى الصبح ماقلش لحد .. وراح شيع الجنازة ،
وكان قاعد بيشتغل معانا بالليل ..

وحدق في وجوههم .. ثم ثبت عينيه علي وقال

- أؤكد لكم .. إنه ح يبقى لي مستقبل كبير معانا ..

أطرقت برأسى في خجل ، وعلى وجهي قناع الحزن الزائف . الذي يستر
أحزاني الصادقة .

ودعاني إلى تناول الغداء معه . خرجنا من الدار أمام نظرات المحررين ،
واعترض طريقى شوقى وهمس
- رايح لين ؟

قلت وأنا أتابع السير خلف محمد ناجي

- بعدين أقولك ..

بدا على وجهه الضيق ، إن علاقتى به تفتقر ، بالأمس قضينا الليلة معا
وكان معنا سعد ، حاولوا مساسنى ولكنهما في نهاية الليلة انطلقا يسبان محمد
ناجي واكتفيت بالتفكير في الابتعاد عنهما . على أن اختار إما صحبة شوقى
ومشاركته في عداوة محمد ناجي وإما صحبة محمد ناجي والابتعاد عن
شوقى ..

وركبت بجوار محمد ناجي ، انطلقت بنا السيارة إلى بيته في الزمالة .
قصر يحيط به حديقة ، وكلب ضخم نبح ووشب وجرى مبتعداً ثم أقبل
مقترماً ولف ودار حولنا ثم تمرغ في أرض الحديقة ..

وبحن جالساً على المائدة ، روى لي محمد ناجي قصة كلبه توبى كان كلب
صديقته المطربة دلال .

وسألنى فجأة .

أنت بتحب .

- لا .

ضحك قائلاً

- ومالك بتشخط كده . هو الحب وحش .

أجبت في خجل ..

- أبداً

- ما عرفتش بنات ..

- لا .

- أنت ساكن فين .

- في بنسبون .

سألنى ..

- تقدر تعزم واحدة صاحبك هناك ..

- ما أظنش ..

قال بصوت جاد

- تعرف أنا باسمى اللي زيك إيه ..

نظرت إليه متسائلاً ..

- اللي ما يعرفش بنات .. أمى .. جامل .. عمره ما ح يعرف الحياة زى

واحد ما يعرفش يقرأ ولا يكتب ..

ابتسمت مرتبكاً .. فاستأنف كلامه ..

- لكن أنا ح أساعدك ..

ح أدليك مفتاح الشقة بتاعتي في شارع ماسبيرو .. اعتبرها شقتك بعد

لحظة صنعت ، كان يسألنى ..

- أنت مكسوف ؟

قلت في خجل

- ابدأ .

فضحك ، ونهض من مقعده قائلاً :

- فكرنى لديك المفتاح قبل ما تمشى ..

صدق أنور سامى ، إنه يعيش كملك ، خادم يرتدى السموكنج قدم لنا الطعام ، سبك موسى ومعه نبيذ أبيض ، وطبق لحم بيكانا بالشحمبتيون ومعه نبيذ أحمر ، والمواكه بالكريم شانتى ، والقهوة فيها حبهان .

بعد الغداء جلسنا على مقعدين وثيرين ، وقدم لى سيجاراً .. بارتجاس .. كل هذه الاسماء تعلمتها منه ، كان يشرح لى كل طبق ، وسر صناعته ، ويحدثنى عن تاريخ الطهاه الدين عملوا فى مطبخه ، وأنا أنصت بشغف ، وأتظاهر أحياناً بأنى أعرف ما يقول ، وأنفقت فجأة فى الحديث عن الطامى فى بيتنا ومشاكله .. ورويت له كل ما أتذكره عن حوائث الطامى فى بيت راتب بك .

وغادرت بيته ومعى مفتاح شقة ماسبيرو ، وتمنياته لى بأن أجد بسرعة الفتاة التى تعلمنى الحياة ، وتجعل منى رجلاً ناجحاً يتخلص من خجله وأنطوائه على نفسه ..

أطبقت أصابعى على المفتاح فى جيبي ، وأنا أسير على غير هدى . اتوقع فى أية لحظة ظهور تلك الفتاة المجهولة ، وخطر لى أن اذهب لزيارة مدحت ، لأبد أن أوطد علاقتى به ويراتب بك ، أن أخبرهما وقود ضرورى أدفع به إلى أذان محمد ناهى ليقن لى استمائى إلى طبقة الاغنياء .

قابلنى راتب بك ، كان جالساً فى الصالة والشيخ دسوقى يقف أمامه يحدثه عن أخبار العزبة ، وفجأة النعت الشيخ دسوقى إني وقال بصوت جريء :
- بقى يا استاذ موش حرام عليك تسبب للولاية الغليظة فى البيت .. موش لاقية اللى يسأل عنها ..

صعدت الدماء إلى راسى . ولزمت الصمت . وتدخل راتب بك قائلاً فى

سخرية

- وعنيزه يعملها إيه يا شيخ دسوقى ..

- يجبر بخاطرهما يامعادة البيك .. يشوف الواد اللى بتجرى عليه . هو برضه موش أحوه .

لم أقل شيئاً ، كنى لم أسمع شيئاً ، ولست أدري لماذا مدت يدي إلى جيبي وتحسست المفتاح ، كنى جائف من ضياعه ..

وقال راتب بك :

- وهو ح يعمل إيه .. ما تخليها تسافر البلد وتعيش هناك .. أحسن لها .. متراجع الشيخ دسوقى وقال بسرعة :

- صح ياسعادة البيه :

وابتسم فى مدلة وقال

- تشوفولها المعاش بتاعها فى الحكمة .

صاح راتب بك .

- معاش إيه ياراجل انت .. المرحوم كان فوق الخمسة وستين .. اسمع كلامى .. هيه شروح البلد غصب عنها . ابنها ح يأخذ ثلاثة أربعة جنيه تقدر تعيش بيهم هناك .. وتشوفولها أى واحد تتجوزه . إنما قعاد لها هنا .. مافيش منه فائدة ..

قال الشيخ دسوقى ساهما :

- يعنى مالهاش معاش هيه كمان .. دا بيقولوا لها معاش ثلاثاشر جنيه .. أجاب راتب بك فى حدة

- لا .. مين قال الكلام الفارغ ده .

وانصرف الشيخ دسوقى ، وتحدثت مع راتب بك عن محمد ناجى .. استمع إني فى اهتمام ، وصاقت عيناه من الدهشة عندما عرف أنى كنت أتناول الغداء معه .. وقلت له كل ما أعرفه من أخبار السياسة ، فرحت وأنا أرقب الانفعالات على وجهه ، لقد استطعت أن أحذب أبنته .. وقطع حديثنا مدحت ، هبط متأنقا وحذبنى من يدي لاسرج فى الحان .

قال راتب بك .

- أنا كنت عايزه .. نسمع أخباره ..

قال مدحت

- مرة ثانية يا بابا أنا مستعجل وخرجت مع مدحت ، لوصلنى إلى الأيام ، معتدراً بأنه لن يستطيع قضاء الليلة معى ..

- بعدى ميعاد مع واحدة زى القمر .. ح أبقي أفوت عليك قريب .. يمكن أخليك تشوفها

شعرت أسي وحيد ، لا صلة لي بأحد في هذه الدنيا ، سوى هذا البناء ، ومحمد ناجي ، وتلك الفتاة التي لا أعرفها وأستظرها وأمتح لها الباب بالمفتاح .

عدت مبكراً إلى البنسيون ، وحاولت القراءة ، ولكن الحزن طغى على ، وفي الصباح زرت قبر أبي وبكيت ..

والتقيت بمبروكة في المحكمة ، كانت مع الشيخ دسوقي جالسة على دكة خشبية ، لم أكن أترفع رؤيتها ، ووقفت بعيداً عنها أتشغل بالحديث مع الشيخ دسوقي ، فجأة كانت واقفة بيننا وابنها فوق كتفها .

- كتر خيرك ياسي يوسف .. برضه عملت اللي عليك .. وسألت عنى وعن أخوك ..

وحملت الطفل بين يديها وهزته في وجهي .

- هو ده موش ابن عبد الحميد .. موش لعمك وديك ..

الفضيحة ما زالت تجلجل ، صرخت في هدنة ..

- أنت عايزه منى إيه .. لو تمادت فسأصفعها على وجهها وأخرج ..

- عيب تقول الكلام ده .. خلي أموك يستريح في نومته ..

- ماليكش دعة بأسويا .. عايزه إيه أكثر من كده

تراحعت قائلة :

- الله يسامحك ..

لن أضيق حياتي من أحلك ، أبعدي أيتها الخادمة ، لا تعترضى حياتي ،

أنا لا أريد منك شيئاً .. أتريدين قتلى بعد أبي ..

قضيت النهار كله مضطرباً .. اتصلت بمدحت فوعدنى بأن يمر على و
المساء ..

وجاء المساء ، وهبطت إليه ، كانت تركب معه متاة حلوة . قبل أن أركب العربة ، كان خاطراً مجبوراً يقول لي ، هذه هي الفتاة المجهولة التي ينتظرها
المفتاح ..

الفصل السابع

مسكينة سامية .

كان اسمها في ذلك الوقت ، جبهة ، مجرد بنت حلوة تجلس بجوار مدحت في عربته ، لا يخطر ببالها شيء ، ولا تتوقع أي شيء ، ثم جثت أنا .. الغريب الذي هبط من جريدة الأيام ، لا أكاد أجسر على النظر إليها ، يمنعني خجلي من أن أوجه إليها التحية ، وأجلس خلفها ، لا أعرفها ولا تعرفني ، ومع ذلك تراودني بالنسبة لها أغرب الأفكار .

الشيء المخجل حقاً ، الرائع حقاً أن كل ما فكرت فيه قد تحقق فعلاً .
ماذا أقول ..

اليس هذا دليلاً على أننا نعيش في دنيا مخجلة رائحة .

كان لقائنا سخيلاً ، مرهقاً ، كنت مرتبكاً ، وظنت هي أني من النوع المغرور ، المتكبر ، وبدأ أنها تضيق بي ، أما أنا ، فكنت أقول لنفسى ، مثل هذه البنت هي التي تصلح لأن تذهب معى إلى شقة محمد ناجى .. كيف أحصل عليها هل أستطيع أن أقنعها بالتحل عن مدحت والالتفات إلى ، أترضى بي ، أو لعل مدحت يرضى بأن أشاركه فيها ..

وكان يحيرنى أننى لا أعرف كيف أشرع في تنفيذ ما أفكر فيه ، وأشعر بعجز كامل عن التصرف .

قلت لنفسى مشجعاً ، لقد تغيرت الآن ، لم أعد الشاب البريء الساذج أنا



السلامة

مغامر جديد ، خرج إلى الدنيا حديثاً ، خرج إلى ميدان الحرب ، ليحارب
ويصيح قويا وغنياً ، ولقد نصحتني محمد ناجي بأن أبحث عن امرأة تعلمني
الحياة ، وأنا لا أحد هذه المرأة ، ولا أعرف كيف أعثر عليها ، قضيت حياتي
بلا نساء لم أعرف سوى أمي وقد ماتت ، وسعاد وقد تزوجت غيري ، ومبروكه
وقد صرعت أبي وتريد أن تصرعني .

عرفت سوزي أيضاً ، ولكنها مبتذلة ، رخيصة ، إنها ليست امرأة ، جسد
ميت لا يعطي وإن يعلمني .. إن يعلمني على الأقل الانتصار .

تجربتي الوحيدة هي حب ساذج لشقيقة مدحت ، حب صدمتي وجعلني
أنطوى على نفسي وأنكش كنت أتهم أن الحب هو الزواج هو أن أكبر وأصبح
أباً مثل أبي وتصبح سعاد أما مثل أمي ، أحلام طفل ، وخيالات مراهق عيب
كان أملاً لا حباً ، صورة أرسمها للمستقبل ، لا حياة أعيشها بلحماً
ودمي .. وأنا الآن وراء تجربة من نوع آخر ، أريد أن اقتحم الجسد ، لأنعلم
كيف اقتحم الحياة أتحدى خولي من الجسد ، لاتحدى خولي من الحياة ،
أتعلم كيف أنتصر على المرأة ، أعاملها بلا زواج ، بلا هدف ، سوى أن أشعر
بأنانيتي . وبقدرتي على أن أبهرها وأسيطر عليها ، وأجعلها تلهث ورأى
وتستسلم لانتصاري .

سألتني بصوت بارك ..

الاستاذ يحب يروح لين .. نذهب إلى أي مكان .. لا .. تذهبن معي إلى
الشقة ، حيث أخدعك ، وأظهر أمامك كعاشق ليس مثله عاشق ، أسمرك ،
أجعلك تنظرين إلى فاقرة فمك في بلاهة وغباء ، تترقبين مني الكلمة والإشارة ،
تتمرغن عند قدمي في لذة وألم وخضوع ..

هل أنا سافل .. ربما .. على أية حال ، لا وقت عندي للإجابة على مثل هذا
السؤال ، لا يفرعني أن أكون سافلاً ، أوحيرانا ، اللص الذي سيمررك من
مدحت كامن في عني ، المغامر الذي سيستفكك يتحفز في داخلي ، سألقى
عليك ، سأمتص كل حلاوتك ، سأمضغك .. قد أكون سافلاً .. قد أكون

يائساً ، ولكني أريد أن أعيش .. لا بد أن أعيش مثل الآخرين .. لقد مضى
شبابي دون أن أقرب امرأة ، وهذا يعني أنني شاذ ، وخامل ، وأن الهريمة قد
لحقت بي قبل أن أخوض المعركة .. محمد ناجي على حق .. كيف أنتصر على
الحياة إذا لم أنتصر على امرأة .

ولكن هذه البنت ليست لي ، إنها فتاة مدحت ، لقد تعدت حدود السفالة إلى
حدود الجنون ، ما الذي يضطر مثلها إلى التفكير في ، مدحت أفضل مني في كل
شيء .. العربة التي يقودها .. النقود التي تملأ جيبه .. خبرتي وتجاربه .. أنا
لم أرقص في حياتي مرة واحدة ولو انفردت بها فستكشف جهلي في
لحظات .. ستفضحنني ..

.. الاستاذ يكتب في الجرنال ..

.. لسه بخط .. ساعة أكتب جريمة .. ساعة أكتب أخبار فن ..

اعني اني لم اشتهر بعد ، مازلت مغموراً .. لا .. لست مثل محمد ناجي
الذي تقرأين له .. أتسخرين مني .. أرى السخرية في عينيك ، أسمع التهمك
في نبرات صوتك .. من أنت ..

.. أنا عايزك تكتب عن بهية ..

ما الذي أكتبه يا مدحت .. أمي ممثلة حقا .. هذا خبر مذهش ..
مست والراحة تفمرني والدهشة في صوتي ..

.. كده ..

غضبت لأنني لم أصدق أنها ممثلة .. ولكني استقرحت الآن .. لقد ازداد
أمل في استيلائي عليك ، أنا الذي يكتب عن الممثلات ، أستطيع أن أرفعك ..
أنشر اسمك وأجعلك تشتهرين .. أستطيع أن أقدم لك كل ما تمنينه .. مدحت
لن يساعدك في هذا .. إني محرم .. خواطري حقيرة .. تمحدرين إلى
الحضيض .. أهذه هي المهارة المطلوبة مني .. ألا يوجد حل شريف آخر ..
يجعلني أعيش شريفاً وناجحاً في نفس الوقت ..

كانت العربة منطلقة بنا في طريق الهرم ، والحديث بيننا غريب وأهكاري
المحمومة لا صلة لها بعظوري الجامد المؤلم ، والعربة تصعد المرتفع في

نهاية الطريق ، فأشعر بالاختناق ، عيبي الكبير أنى أعى بالجريمة ، إنى مازلت أشعر بالحسين إلى أيام البلاءة .. أجمل أيام حياتى هى تلك التى قصيتها مع أمى ، لا أريد أن ألوث هذا الطفل الذى كان ، أنتنزل عن كل شيء ، أذهب لمحمد باجى وأعترف له بحقيقتى ، أقول له إنى لن أستطيع المضى ، وإنى لا أريد شيئا منه ، ولا من أحد غيره ، كانت العرية قد وقعت ، معتحت بابها وانطلقت هاربا من نفسى ، ومشيت فى الظلام .

أما وحيد ..

ترى ما الذى تهمس به فى أذن مدحت الآن ، أنسخر منى .. أنسيقتى .. أتقول لمدحت أنى سخيى ، وإنى أسد ليلتها . فلأمش مبتعدا .. لعله يقبلها الآن .. لين أنت أيتها الفتاة التى سأقابلها لتعلمنى الحياة .. أتخرجين لى من جوف للظلام ، من جوف الهرم .. الطريق موحش .. كالوحشة فى قلبى .. ما الذى يعجب المرأة فى الرجل .. سيارته .. سرعة يديهته ونكاته الضاحكة .. نقوده .. خبرته .. لا أملك شيئا من هذا كله .. ولكنى سأحصل على كل شيء .. لا بد أن أحصل على كل شيء . أو ابتعد عن الناس . اختفى بين هذه الصخور وأغيب عنهم إلى الأبد ، يفترسنى ذئب ، أو يقرصنى ثعبان . لو أنفنى نفسى فى قبر ..

سأجن ..

لا بد أن أعود للظلام رهيب .. فوجئت أنها قلقة على .. صاحبت .

- رحت لين .. موش حبيب من العفارىت ..

لنا خائف منك أنت ، وخائف من نفسى . ولكنى أعتذر لك عن كل الأفكار السوداء الخبيثة التى دارت فى رأسى . لن أمسك بسوء . لا شأن لى بك ، فانت بنت طيبة ، لأنك تقلقين على .. ما أغرب هذا الكلام ، من الذى أخدعه بهذا الكلام ..

أقول إنى لن أمسها بسوء ، كأتى قادر على أن أمسها بسوء . إنى لا أستطيع ، غير قادر على شيء . إنى لن أمسها بسوء لأنى عاجز ، لأنها

ليست لى ، ولا تفكر فى . لا تدع الطيبة يا يوسف .. لا تتحول إلى شخص مثالى لأنك فشلت فى أن تكون شخصا سافلا .. أه مصيبتى أبى أفكر أنى أمى .. أنى أراقب نفسى ، صوتها مرح ، مصحك من قلبها . قالت فجأة إنها حامل وتنتظر طفلها بعد ساعة أشهر ، صغفتى جراتها وفرحت لأن مدحت أصابه ما أصابى ، كم أنا معص ، أنهم نفسى بكل الشرور ، والناس تضحك متباهية بشروها ، إنها تعجز بالحسين أنى فى بطنها ، وتعترف بأنها لا تدري من يكون أبوه .. صير مدحت يوسف .

هذا مستحيل . إنها تقول لى جراءة متباهية بها قد تسمى بنتها يوسف يوسف . كائن هناك احتمالا لى أن تكون بيند علاقة . إنها لا تمنع .. مستحيل . لا يمكن أن تصربها جراءة إلى هذا السعد .. مستحيل .. إنها تعبت بذا . ولكنه عبت فاصح . عبت فتاة بلا هيبة .. إنها تتكلم لى وقاحة الرجال ، وأنا أنصت إليها فى دعر العذارى .. لا . إنها تعنى شيئا آخر .. أه .. إنها لا تبحث عن اسم لجنينها .. إنها تبحث عن اسم سينمائى جديد لها ..

صحت

- أنت بتدور على اسم جديد للسينما ..

صاحت مهلة ، وقالت لمدحت إنى أذكى منه ، ووجدتني أنظر إليها لى إعجاب ..

ليلتها أصرت على الذهاب إلى الاستوديو ، لأنها وعدت المخرج طمس كامل بالمرور عليه ، وكانت فرصتى لأتظاهر أمامها بأبى صحفى مهم ، دخلت معها البلاطه ، معهم على أبوابى يقبلنى ، ووقعت عامدا مع هدى مراد أضحك معها على غير عادتى ، كنت مرحا ، مرهوا بنفسى ، أريد أن أثبت لها فى كل لحظة ، أنى لست الشخص المغمور ، وأن كل هؤلاء الفنانين الكبار يعرفوننى ويرحبون بى ، وإنها كما لا تعرفنى ، فأنا أيضا لا أعرفها .. لأنها مازالت مغمورة ، مجرد كوميديا عامه .

ونجحت في تحقيق هدى ، إذ وقفت هي بعيداً عنا ، لا تجسر على الاقتراب منا ، حتى رثيت لها وخطرل أنها قد تكون كاذبة ، لا تعرف أحداً في البلاطه ، وتملكنى رغبة خبيثة في كشف أمرها ، فتألبيتها ، تقدمت منا مضطربة حجلة ، ولكنها كانت صادقة ، كان حلمي كامل يبحث لها فعلا عن اسم جديد .

واختار لها أنور سامى اسم سامية سامى ، قال في غرور إنه سيقبناها ويعمنحها اسمه ، حتى يساعدها وتشتهر ، كان واضحاً أن أنور قد أعجب بجمالها ، وغامطنى قدرته الخاطفة على استغلال الموقف ، إنه يفعل في بساطة معجزة ، وفي لحظات سريعة ، كل ما عجزت أنا عن الوصول إليه ، استطاع أن يرتبط بها ، ولاشك في أنه غداً سيأخذها معه إلى بيته كان الجميع يدركون هذه الحقيقة ، هدى مراد تبتسم في استعزاز من شراة أنور ، وحلمي كامل يقول ساخرًا لأنور :

- دى موش قدك ..

وأنا الوحيد الذى كتم فمظه ، وتظاهريانه لا يفهم شيئاً ، بل إنى صحت في مرج كاذب معلنا أنى سأنشر الخبر .

عندما يبلغ العجز مداه ، لا يستطيع العاجز إلا أن يهال لانتصارات غيره ، نعم سأنشر الخبر .. أنور سامى يتبنى سامية سامى المتهلة الناشئة ، النجعة الجديدة ، سأسجل انتصارك يا أنور ، سأساعدك في الوصول إليها ، سأفعل هذا لأنه يؤلمنى ، لأنه يعاقبنى على ضعفى ، لأنه يعصم تعفى الكاذب ، وأدبى العبيط ..

وتركت بهية التى أصبحت سامية مع أنور وحلمى ، وقضيت ليلتى أهذى وأرثى لحالى ..

مضى يومان ، ويوسف البرىء هو الذى يحتل جسدى ، إن أنشر حرفاً واحداً عن هذه الفتاة ، سأثبت لها أن أنور لن يساعدها في شيء ، ستقتح جريدة الأيام يوماً بعد يوم ، تبحث عن اسمها فلا تجده ، وستشعر بخيبة أمل ، وستشكولمحت ، فاعترف له بأتى أحبها ، أنور سامى سمعته سيئة

وأورببط اسمها به ، فلذلك تقسم واحد في أذهان الجميع ، إنها أصبحت عشيقته ، وسأقترح عليها أصماً آخر ، مى منير ، كما كانت تقول هى ، أوليلي فاضل .

لولا مدحت لاخترت لها اسم سعاد راتب .

سألت محمد ناجى ، وكنت صغرداً به كعادتى كل صباح .

- إيه رأيك في اسم منى منير للسيما .

- لعت عيناه في خبث وسألنى .

- إيه .. عرفت واحدة ..

- أطرقت في خجل ،

- فصاح مبروك .. هيه .. وخذتها الشقة .

- لا ..

- آمال إيه حكاية الاسم ..

- الحقيقة أنا في ورطة .

- عظيم .. قوللى ..

- الحكاية موش زى ما أنت فاهم قال منزعجا

- آمال إيه ..

قلت في ضيق

- أنور سامى بيعاكس بنت كومبارس عايزين يكبروها .. اسمها بهية ..

وأنور عايز يخللى اسمها سامية سامى .. على اسمه .. وأنا عارف أن الخبر

كويس ومثير . كل الناس ح تضحك لما تقرأه . وتقول أدى واحدة جديدة أنور

اصطلاها ..

قال في وجوم :

- ويعدين ..

قلت في عصبية .

- أنا موش عايز أنشر الخبر . حامس زى ما أكون بأساعد أنور على .

وقطعت كلامى ، كان الخيط قد ملا قمتى

صاح سحراً

- أب موش ح تنطل مشيخة .. الخير ده عندك من أمتي

- من أول امسارح ..

اصغر وجهه وقال محددا

- يعني كويس لما تنشره الجرايد الثانية .. إحنا ببهر .. لو كان تفكيرك

بالشكل ده .. روح اشتعل مع شيخ الأزهر .. دى غلطة غلطة اللي عملتها

كانت أول مرة يحدث فيها على محفت ، ودعوى خوف إلى جراءة مجنونة

قلت بصوت قوى .

- أنا موش شيخ ولا حاجة .

- طيب مانشرتش الخبر ليه ..

- علشان متفاظ ..

- من إيه .

- البنت دى أنا باحبها .. وأنا اللي معرفها بيه ..

بدغته اعترافى ، تراجع بظهره إلى الوراء ، ثم انحنى إلى الأمام وضغط ثم

قطع ضحكته ، ونهض من مقعده وجاء وجلس بجوارى . وقال محاولا ان

يحتفظ بمظهر هادى

- بتحبها .. يعنى إيه

- باحبها ..

- أيوه .. لكن أنا بأسأل .. فيه عندك مشروعات أكثر من الحب .

- زى إيه ..

- عايز تتحورها مثلا ..

- لا .

ضحك قائلا :

- أمال إيه اللي مرعاك .. عايزها لواحدك . أنت صعب قوى .. أنا لومتك

افرح لما واحدة زى دى تلاقى واحد تانى وقالت .. يشيل عنك شوية من

مصاريفها .. ويريحك منها .. تعرف . مافيش أرذل من الست المخلصة .

كل شوية تسأل عنك فى التليفون .. ورحت مين .. وجيت مين .. وأسئلة

واستجوابات وتحقيقات . دوشة .. إيه اللي يخليك تحبها فوق رأسك ..

- بس ..

- لا بس ولا حاجة .. أنا سأللك سؤال محدد صريح .. عايز تتجوزها ..

قلتل لا ... يبقى خلاص .. انشر الخبر

وربت على كتفى وقال

- أنا متأسف .. اعتذر لك .. كان لك حق تتردد فى نشر الخبر .. لو كنت

مكانك .. كنت اترددت .. كده مفهوم .. موش تمنع عن نشر الخبر علشان

فوق رأسك عمة التلى والورع .. كانت تبقى مصيبة ..

وبشرت الخبر . وكان أنور سامى أول من اتصل بى فى الصباح ليشكر

لى ..

قلت له وأنا أتحول إلى يوسف الشرير

- عايزين أخبار تانية عنك وسامية .

- أنا تحت أمرك ..

قلت وفى لى مرارة .

- خبر مشير .. والا قضيتة .. صاح .

- يانهار أسود .. يعنى أموتها ..

ثم همس ..

- أنا ح اكلمها دلوقت .. وح اعزمها الليلة .. وح أبات طول الليل أدهى

لك .

ضحكت فى بلاهة .. ومضى هو قائلاً :

- بنت لذيفة .. موش كده .

- فجلا .. إنما إيه رأيك فيها كممثلة ..

- ممثلة مين ياعم .. ده كله تمثيل .

كدت أحطم فتجان القهوة ، تعلم ياغنى . أسطركيف يتصرفون ، ها هو أنور

النجم العظيم اللامع المشهور ، يلقيك درساً فى الحياة .. اكتف أنت بالجلوس

في مقاعد المتفرحين ، ألا تعرف إلى أي مدى بلغ فضلك .. إنك تدعى الآن أمام محمد ناحي أنك تحبها ، تدعى أنك على علاقة بها ، تكذب لتتفى عنك تهمة البراءة ، تتظاهر بأنك حديث تفكر في سفالتك وأنت بعيد عن السفالة . أزمتك الحقيقية أنك مارالت وحلا شريفا .. مازلت طفلا لكن الخديعة لن تدوم ، سينكشف كل شيء .. سيفضح كذبك وسيعلمون أنك صادق .. ستظهر براعتك .. ويعلموك . محمد ناجي لتعمل في مشيخة الأزهر .. لو أردت أن تستمر فلا بد أن تذهب بسامية إلى شقة محمد ناجي . هي أو أي واحدة غيرها . تصرف بسرعة .. قبل فوات الأوان ..

سألني محمد ناجي ..

كلمتك ؟

- أنور كلمني ..
- تعرف أني متفاظ زيك .. أنا عايز أصعل فيه فصل .
- على إيه ..
- يعني أنت موش متضايق ..
- لا ..
- بلاش كذب .. أنت باين عليك بتحبها أكثر ما كنت لما كنت .. اسمع .. خذها النهاردة الشقة .
- أنور عازمها بالليل ..
- صاح غاضبا .
- خذها الضهر .. العصر .. إنما لازم تأخذها .. كرامتنا متوقفة عليك .. وضحك
- لم أكن أتوقع أن محمد ناحي سيهنم كل هذا الاهتمام بقصتي التي اخترعتها .. لقد أصبحت معرضا للخطر .. إذا لم أواصل الكذب عليه .. فسيتدخل أكثر وأكثر . وربما فاتح أنور سامي .. وربما اتصل بسامية .. إسي في مازق .
- حاولت أن أقنع نفسي بالاتصال بسامية ، إنها سترحب بي . فقد نشرت

اسمها وصورتها .. ولكنني أشعر بالتقزز . كأنني سأضع في فمي طعاما مضقة غيري .. سأبتلع بصقات أنور سامي ..

وأنا غارق في حيرتي ، نرق جرس التليفون ، وسمعت صوت موظف الاستعلامات يقول لي : إن مبروكة هنا .. تنتظر في السهو بمدخل البناء .. المصائب لا تأتي فرادي .. كدت أنكر وجودي ، أو أطلب منه أن يطردها ، ولكن شيئا غامضا دعني إلى مقابلتها . امتابني شعور مفاجيء بالشفقة عليها ..

لم أصدق أنني ابتسم في وجهها وأمد يدي لها بالقود ، وأعدتها بزيارتها في البيت لأذهب معها إلى إدارة المعاشات .. ودققت النظر في وجه إبراهيم .. أخي .. فيه الكثير من علامح أمي ، واسترحت لوجهه ، وكدت أمد أصبعي والمس خده ، كانت مبروكة ترقبني في أرتياب ، ولكنني كلمتها في حرارة ، لماذا لا تساعدنا ، وأخلصنا من ورطتنا . ومن يدري ، قد يكون لها معاش ، إن الدنيا كريمة ، والناس تتقاتل كالحيوانات المسعورة وهي في حاجة إلى قرش ولقمة عيش .. لا تخاف يا مبروكة .. سأساعدك . سأخلصك من ورطتك .. فقط أريد أن تبتعدى ، وأن تخرجي من هنا بسرعة قبل أن يرانا أحد .. فانا أيضا في ورطة . إني أعيش هنا بالكاذب . وهي حياة ليست سهلة .. كل يوم أتورط في كذب جديد . إن مهمتي الآن ، هي أن أقنع نفسي بأن أكاذيبي هي الحقيقة .. وهذا شيء مرهق .. ربما كان الأفضل أن أعترف بك يا مبروكة .. ليقتنى أستطيع أن أفر هذا . ولكن الثمن ضخم . سأخفي عن كل شيء .. ولن أقيدك ، ربما كنت عبثا عليك وعي ابنك .. لن أقيدك يا أخي .. لو تخليت عن حياتي هنا فمأشارك قروشك القليلة التي ستعيش بها . بل ربما اضطرت إلى حطعها منك لا مائدة . يجب أن نمتد فكلنا نحارب .. ولو اجتمعنا فسنجمع بين صعبا وعسرا . أملد الوحيد أن نفترق .. ليتفرق صعبا . ولنستطيع أن نكذب بحراة وبصوت جهير بعيداً عن الشهود الذين يعلمون أننا نكذب

لم يفتيه أحد إلى حضور مبروكة وخروجها ، ولم أكثر كثيرا لمحيتها ، إن

كنت أستطيع أن أكذب وأقول إنها خادمتي ، ما أسهل الكذب الآن .. إنه لا يكلفني إلا المزيد من الكذب .

وصعدت إلى حجرتي لأجد التليفون يدق في إصرار .. كان المتكلم مدحت .. قال إنه ذاهب مع سامية إلى حمام النادي الأهل .. ودعاني للحاق بهما .. قبلت في الحال ..

وجريت إلى محمد ناجي ..

- عن إيدك .. أنا خارج ...

- علي هين ...

- رايح أقابلها ...

- براهو .. اسمع أنا فكرت .. إيه رأيك لو أضرب تليفون .. لكلام واحدة من اللي يعرفهم أنور .. وأقول لهم يروحوا البيت .. وسامية عنده ..

نظرت إليه في فزع .. فقال .

- موش موافق ..

- أنا خايف عليها ..

تنهد قائلاً ..

- طيب بلاش .. أنا خايف عليك أنت .. حبك باين عليه بيتطور .

وتركته مسرعاً إلى النادي الأهل .. وأنا أعجب من غياب محمد ناجي .

بدأ يخشى من تطور حبي لسامية .. وحبي لم يبدأ بعد .



ألقى مدحت بنفسه في حوض السباحة وتركني وحدي مع سامية ، كانت ترتدى المايوه ، جسدها العاري يواجهني ، يتحدثاني ، إنه قرة خارقة قاهرة . كيف يتعامل الرجل مع مثل هذا الجسد .. لا أعرف .. إنه يثير خيالي الحامح ، ولكنه يخيفني ويملأني رهبة ..

كانت تضحك ، وتتحدث في بساطة وثقة المرأة صاحبة الجسد الجميل .

سألتني فجأة عن الحب ، فكرت بسرعة ، أهي تغازلني ، أتمهد لي الطريق ، الشقاوة في عينيها تؤكد لي هذا ، الفتنة في جسدها تسألني أن أرتفع إلى مستواها ، لا بد أن أبحث عن بكته كلمة ساخرة تضحكها ، انظر في عينيها وأقول لها يا حبيب .. أقولها كمجرد رعاية .. أعترافاً بجسدها .. بمعجزتها ولكنني لا أستطيع .

أنا هو أنا ..

مهما فكرت ، مهما حاولت أن أغير نفسي الشيء الوحيد الذي أجيدوه هو أن أعبر لها عن الحب السلاخ الذي عرفته يوماً ما ، كل ما أقوله الآن يجب أن يكون جيداً متقناً حتى ولو كان يقطع سذاجتي ..

حدثتها عن سعاد .. عن الفتاة التي أحببتها وتزوجت فيري ، وفوجئت بأن كلامي قد خدعها ، جعلها تتوهم أنني دون جوان خطير يحب المتزوجات ، وغافني دهشتها وأنها مترددة في تصديقي .. ولكنني الصحت وتكلمت بحرارة وإخلاص .. كنت واثقاً من نفسي .. لأنني أقول الصدق ولأنني أعرف أن كلامي يخدعها ..

فجأة ، سألتني بصوت شارد عن الحنان ، نفذ السؤال إلى قلبي .. أهي ساذجة مثلي .. ضعيفة مثلي ، ما الذي يضطر هذا الجسد إلى السؤال من الحنان . إنه جسد الحب العنيف ، جسد الرغبات الجامحة جسد اللذة النهمة .. ماله ومال الحنان .. أكل هذه الفتنة والشقاوة مجرد مظهر كاذب لقلب مسكين يبحث عن الحنان ..

اتخذتني كما لخدعها .. إن أنور سامي سيعبث بهذا الجسد الليلة . لن أراجع ، أنا لا أملك الآن سوى أن أرسم لها صورة مثالية عني .. صورة الشاب الذي لا يفكر في مغازلتها الذي ينشر أخبارها وصورها ولا يتقاضى الثمن . الشاب الذي يتكلم في حرارة وصدق ويحب واحدة غيرها ويتعذب في حبه ولا يفكر في خيانتته .. الشاب الجواد الذي لا يضحك ولا يصغر وإنما يقول كلاماً جاداً .

كنت أستطيع أن أكذب وأقول إنها خادمتي ، ما أسهل الكذب الآن إنه لا يكلفني إلا المزيد من الكذب .

وصعدت إلى حجرتي لأجد التليفون يدق في إصرار .. كان المتكلم منسحب .. قال إنه ذاهب مع سامية إلى حمام النادي الأهل . ودعاني للحاق بهما .. قلت في الحال

وجريت إلى محمد ناجي .

- عن إيدك .. أنا خارج ..

- ملي هين ...

- رايح أقابلها ...

- برافه .. اسمع أنا فكرت .. إيه رأيك لو أضرب تليفون .. لكلام واحدة من اللي يعرفهم أنور .. وأقولهم يروحوله البيت .. وسامية عنده .

نظرت إليه في فزع .. فقال .

- موش موافق ..

- أنا خايف عليها ..

تنهد قائلاً ..

- طيب يلاش .. أنا خايف عليك أنت .. حبك باين عليه بيتطور ..

وتركته مسرعاً إلى النادي الأهل .. وأنا أعجب من غياب محمد ناجي ..

بدأ يخشى من تطور حبي لسامية .. وحبي لم يبدأ بعد ...

●●

التي مدحت بنفسه في حوض السباحة وتركني وهدى مع سامية ، كانت ترتدي المايوه ، جسدها العاري يواحهني ، يتحدثاني ، إنه قوة خارقة قاهرة كيف يتعامل الرجل مع مثل هذا الجسد . لا أعرف . إنه يثير خيالي الجامح ، ولكنه يخيفني ويملأني رهبة ..

كانت تضحك ، وتتحدث في بساطة وثقة المرأة صاحبة الجسد الجميل ،

سألتني فجأة عن الحب ، هكرت بسرعة ، أهى تغارلنى ، أتصعد لى الطريق ، الشقاوة في عينيها تؤكد لى هذا ، العنة في جسدها تسألنى أن أرتفع إلى مستواها ، لابد أن أبحث عن مكانة .. كلمة ساخرة تضحكها ، انظر في عينيها وأقول لها يلحك .. أقولها كمجرد رغبة .. اعترافاً بجسدها .. بمعجرتيها .. ولكنى لا أستطيع .

أنا هو أنا ..

مهما فكرت ، مهما حاولت أن أعبر نفسى ..

الشيء الوحيد الذى أجيد هو أن أعبر لها عن الحب الساذج الذى عرفته يوماً ما ، كل ما أقوله الآن يجب أن يكون جيداً متقناً حتى ولو كان يفضح سذاجتى ..

حدثتها عن معاد .. عن الفتاة التى أحببتها وتزوجت فبرى ، ولوجئت بأن كلامى قد خدعها ، جعلها تتوهم أنى دون جوان خطير يحب المتزوجات ، وغاظنى دهشتها وأنها مترددة في تصديقى .. ولكنى الصحت وتكلمت بحرارة وإخلاص .. كنت واثقاً من نفسى .. لأنى أقول الصدق ولأنى أعرف أن كلامى يخدعها ..

فجأة ، سألتنى بصوت شارد عن الحنان .. نفذ السؤال إلى قلبي .. أهى ساذجة مثلى .. ضعيفة مثلى .. ما الذى يضطر هذا الجسد إلى السؤال عن الحنان .. إنه جسد الحب العنيف ، جسد الرغبات الجامحة جسد اللذة النهمه .. ماله ومال الحنان .. أكل هذه الفتنة والشقاوة مجرد مظهر كاذب لقلب مسكين يبحث عن الحنان ..

أخذت عنى كما أخذتها .. إن أنور ساسى سيعتد بهذا الجسد الليلة . لن أراجع ، أنا لا أملك الآن سوى أن أرسم لها صورة مثالية عنى .. صورة الشاب الذى لا يفكر في مغارلتها .. الذى ينشر أخبارها وصورها ولا يتقاضى الثمن .. الشاب الذى يتكلم في حرارة وصدق ويحب واحدة غيرها ويتعذب في حبه ولا يفكر في خيانتة .. الشاب الجاد الذى لا يضحك ولا يسخر وإنما يقول كلاماً جاداً ..

لم أقل له أنى قررت ألا أراها .. تحليت بها لأنى لست قادراً على ذلك
الجسد القهار

ولكنى قادر على أن أحترع له المريد من القصص الوهمية عن سامية في
اليوم التالي . قلت له :

- أنا ربيع الشقة الدهردة ..

صباح مهلاً :

- أخيراً .. امتى ح تروح .

- بعد الظهر ..

- شد حيلك .

وربت على كتفى . وقضى وقتاً طويلاً . وهو يشرح لى تفاصيل شقته .
الكلمات تملأ فمه كقطع لذيذ ساجد زجاجات البيرة في الثلجة والويسكى في
البار . والمناشف في دولا ب بالحمام .. ونصحنى بالآ أكثر من شرب
الويسكى .. يكفينى كإنسان .. كان قلماً . كأنه هو الذى سيذهب لأول مرة .
ضحك في سرى . وقال وأنا أودعه والخسرة في عينيه

- أنا عملت أكثر من كده بكثير وتنهى ثم قال في عصبية .

- روح .. بلاش أأخرك لما ترجع أبقي أحكى لك

فتحت الباب . فقابلنى بيت معتم أثاثه ضخم وقور . ستائره وجدرانها
خضراء . ذهبت إلى الثلجة وأخرجت زجاجة بيرة . وفتحت البار وأخرجت
زجاجة الويسكى .. وأعددت كأسين وملأت أحدهما بالبيرة . وصببت
الويسكى في الآخر . وذهبت إلى حجرة النوم . ونزعت الغطاء عن السرير
ورقدت عليه وتغرغت . كنت أشعر أنى فقدت عقلى . ما هذا الذى أفعله أنا
لا أصدق نفسى . هل حدث هذا لأحد في الدنيا غيرى . هذه هى أول مرة في
التاريخ يذهب فيها شاب إلى حرسونية ليتظاهر بأنه قضى وقتاً مثيراً مع
مئة

بى شاد

شاد إلى درجة أن أحداً لم يصدق شذوذى ..

لا أقل من أن أجعلها تحترمنى . وتشعر برهبة نحوى . مثل ما أشعر به
من رهبة نحو جسدها .

ماذا قلت لها ؟

لا أذكر . كل ما أذكره أن تياراً دافئاً من الكلمات خرج من قلبى . حدثتها
عن الوحدة . وعن حاجتى إلى الحنان . وعن ضياعى وحيرتى في هذه الدنيا .
قلت لها كلاماً غريباً والدموع توشك أن تتفرق في عيني . وأنفاسى صاعدة
هابطة حارقة .. كنت أنكلم وكانى وحدى . كنت بارعاً في تمثيل أظواهر بانى
وحدى . مع أن كل نبرة في جسدى تشعرنى بأنها قريبة منى ..

يرمها حقت ما أريد . أرهبتها كلماتى . لفحتها حرارتى فضاعت الشقاوة
من عينيها . وتحول صوتها المرح إلى صوت هلمس حائر وكأنها كبرت أعواماً
خلال اللحظات التى قضيناها معا .. ورضيت عن نفسى وتركتها مع مدحت
وقد قررت ألا اتصل بها مرة أخرى .. لست واثقاً أنى أستطيع تحميل الدور
بنجاح مرتين .

وجريت إلى محمد ناجى . لأقرغ كل ما عندى من كبت . اخترعت له
ماتمنيت أن يكون بينى وبين سامية . الحب الذى جرفنا في النادى الأهل
القبائل الخاطفة التى تبادلناها . العيون التى رالتنا في جزع وغضب ..
الفضيحة التى ملأت النادى .. كنت أنكلم وعلى وجهى قناع البراءة وكان
محمد ناجى سعيداً وهو ينصت لى . وعلى شفطيه سخرية حنونة ..

سألنى ..

- ويعدين ..

- ويعدين إيه ؟

- رحت معاهم الشقة ..

- لا ..

فأيدى امتعاضه ..

- ده كلام فارغ .. يعنى تشعلها وتسميها لأنور .. الحب على طريقة قيس
وليلى بطلوه يا استاذ .

عندى الشقة والمفتاح وعندى الفتاة التى أستطيع أن أغازلها وأدعوها ..
وعندى الرغبة .. ثم لا أصعب سوى هذا الجنون .. ما هو ذلك الشيء الغريب
الذى يسيطر على ولا أعلمه .. لماذا أدعو سامية إلى هنا .. لماذا لا أدعو أية
فتاة أخرى .. فترقد إلى جوارى على هذا السرير .. أعطيلها كما يعامل الرجال
النساء .. لو تجيء سامية .. لو كنت أنا محمد نأخى ..
لا .. لأن أبدو ضعيفا أمام سامية .. سأظل ذلك الرجل المترفع المثالى .. لن
أدعوها .. وليكن ما يكون ..

أفرغت نصف البيرة في جوفى ، ونصفها في البالوعة .. وتركت بقية من
الويسكى في الكأس .. وبللت منشفة ، وخرجت من الشقة سعيدا بالمعامرة
التي ارتكبتها ولم ارتكبها .

فكرت في الذهاب إلى محمد ناجى لأروى له خيالى ، ولكنى شعرت بالإرهاق
فذهبت إلى البنسيون .. كانت مدام روز تستقبل بعض صديقاتها ، وأرادت
أن تقدم لى كأسا من النبيذ ، ولكنى فزغمت ، ذكرنى النبيذ ، بالخمر التى
سكبته في البالوعة ، أريد الانزواء في حجرتى ، هاربا من كل شيء .
أغلقت باب حجرتى ، وبحثت عن كتاب أقرأه ، كل الكتب سخيفة
بلا طعم ، حتى روايات توفيق الحكيم .

عثرت على كتاب فلسفة ، فتحتة وعذبت نفسى بمحاولة قراءة سطره
الغامضة .

لا أترى ما الذى جعلنى أتذكر مبروكة ، لقد وعدتها أن أقابلها هذا
الصباح ، ونصيت ، أرتدى ملابسى وأذهب إليها الآن ، ترى ما الذى تقوله
عنى ، هربت منها .. تكبرت عليها .. هه .. ليس في هذا جديد .. ربما كان هذا
أفضل ، كفانى ما أنا فيه ..

في الصباح قال لى عامل التليفون إن مبروكة سألت عنى أكثر من مرة ،
فغضبت ، إنها الحوجة دنيئة ، صحت فيه أنى لا أريد الاتصال بها ، ثم خطر
لى أنها قد تكرر زيارتها للأيام ، فاتصلت بعيد الستار افتدى موظف
الاستعلامات ، وطلبت منه أن يطردها إذا جاءت ..

على الرغم من مشاكل النفسية كنت أبذل جهدا مضاعفا في عملى فلا يمر
الصباح حتى اتصل بكل الفنانين والفنانات ، كل واحد أو واحدة يروى لى
فضائح الآخرين .. وفي هذا الصباح بالذات كنت وراء أخبار أنور وسامية ..
ماذا تم بينهما بالأمس ..

سألت المخرج حلمى كامل :

- أنور كان حين أمبارح ياحلمى ؟

- ليه .. أنت سمعت حاجة ..

- يقولوا إنه واقع في بيت كومبارس ..

هتف .

- أنت ح تلعب على .. ما كان على إيدك الكلام ده ..

- سمعت أنه أمبارح كان معاها .

- يمكن .

- مافالكش حاجة ؟

- لا .. ماشفتوش ..

ثم سألتنى في قلق :

- أنت عايز تعمل إيه ؟

- خايف لا يتجوزها ويفوتنى الخير ..

ضحك ضحكة عريضة وصاح ساخرا .:

- إيه .. يتجوزها .. هو ده معقول .. أنور موش عبيط ..

- والبنت موش عبيطة ..

- أبدا واه .. دى غلبانة .. وصعبان على حالها ..

استرحت لكلام حلمى ، ليتنى أستطيع أن أصدق .. ليتنى أستطيع أن

أصدق سامية وهى تتحدث عن حاجتها إلى الحنان ..

لو كانت غلبانة كما يقول حلمى .. فهى في خطر ، بل هى كانت بالأمس في

خطر ، لقد سألتنى عن الحنان لأنها في حاجة نائسة إليه ، كلنت تبحث يائسة

عنه قبل أن تقايل أنور .. لعلها ظنت أنى أستطيع مساعدتها ..

إننى غيبى

لم أفكر إلا فى نفسى ، لم أقل لها شيئاً يساعدها على الصمود ، لو كنت أعلم ..

ماذا جرى لى - إننى أفكر .. كما لو كنت أحسها .. يجب أن أعرف ما حدث لها بالأمر ..

واتصلت بأبى ..

- هيه .. عملت إيه مع سامية ..

- قصدك إيه ؟

- أنت موش قلت فى إيك ح تسهر معلما لينة امبارح .

قال فى غير اكترات .

- ياشيخ أنا كنت باهرز ..

- بدمتك ؟ ..

قال فى استنكار .

- إيه الل بدمتى .. ودى مين كمان عطشان أجرى وراها .. بنت جربوعة ..

ماتسواش نكله ..

- غريبه !!

- إيه الل غريب يا أستاذ .. دى بنت نعمات .. فاضى أنا للحاجات دى ..

- نعمات مين ؟

- ماتعرفهاش . واحدة فاتحة بيتها للقمار .. حلمى كامل يهكى لك عنها ..

ناس غلابة . وشيلحين .. والله أنا باتندم اللى رسلت اسمى بيها .. حاجة

تكسف .. إنما عمل إيه . الظاهر أن قلنى طيب أكثر من اللارم .. على العموم

أما سابب لكم البلد ومالئ

- رايح فين .

- ديوت .. أكتب الخبر وماتسواش الصورة والبنى ..

ضحك قلنى ، فرحت لأن شيئاً لم يحدث لسامية .

بقى مدحت ..

مألاقته بها . أيجبها .. أيفكر فى الزواج منها . ولماذا لا يتزوجها إذا
كلن يحبها فعلاً

إن أفكارك غريبة يا يوسف ، تقول لنفسك إيك لن ترى سامية ، ثم تفكر
فيها والغيرة تاكلك . تفكر فيها بإصرار وإلحاح .. كن صريحاً مع نفسك ..

ما الذى تريده بالصبط منها ..

لا أدري .. لا أدري .

واتصلت بمدحت ، وأعلمته بأمرى سأنوره فى بيته ..

سألته كالمحوم :

- إيه حكايتك مع سامية ؟

ضحك فى بلاءة وقال

- إيه رأيك أنت موش بت لذيدة .

- بتحبها ؟

- يعنى ..

- حرام عليك دى غلابة ..

كان صوتى يحمل أكثر من القلق .. كان ملغماً بالاتهام ..

نظر إلى فى دهشة وسأل

- عايزنى أعمل إيه ..

- لو كنت بتحبها اتجوزها ..

ضاعت عيناه فى خبث وهمس :

- هيه الل قالتك كده ؟

- لا ..

- أنا شايفها بتكلمك فى النادي .

- ما جيتاش سيرتك

لم يصدقنى ، وسألنى

- تتجوزها أنت ..

- لو باحبها اتجوزها

- إزاي تقول في كلام زي كده .. أنت عارف دي بنت مين .. دول جيراننا
وامها سمعتها في الحنة رى الزمت .. اسأل إسماعيل .. اسأل عم عثمان ..
أنا صايدها من الشارع ..

قلت في ضيق :

- خلاص .. سيك في الموضوع ده ..

قال في إصرار :

- لا .. أنا متأكد أنها كلمتك .. ودي حاجة خطيرة .. دول ناس غجر
ونصابين .. مين عارف .. يمكن دي خلة من أمها .. وبكرة تيجي تكلم ماما ..
والا بابا ..

ثم قال بصوت خفي :

- أنا ح أقطع صلتى بيها ..

وفرحت ..

لم يعنى ، سوى أن صلاتها تنقطع بكل من تعرفهم .

وصاح مدحت في غيظ .. وهو يلاحظ ابتسامة هادئة على وجهي :

- ترضى إتك تتجوز ..

وقطع كلامه ، وظهر الارتباك عليه ..

أدركت ما طاف برأسه ، فجعله يعدل عن السؤال ، لقد تذكر أبى الذى

تزوج مبروكة فقطع سؤاله حتى لا يجرحنى ..

وارتبكت أنا أيضاً ..

وأمضيت بقية اليوم ، والأفكار تراودنى ، إنى مندفع إلى حب سامية .

رغم كل ماسمعتة عنها وعن أمها ، اندفع إلى حبها غير مكرث بشئ ،

لا يعنينى سوى أنها تطلب الحنان .. وأنا أطلب الحنان .. هى وحيدة ضعيفة

تتظاهر بجمالها القوي ، وأنا وحيد ضعيف أتناه برأى صحفى كبير .. هى

تحل من أمها ، وأنا أخجل من أبى . كلانا متشابهان .. لو كنت عاقلاً

أفريت منها كما فريت من مبروكة ..

سامية ومبروكة وأنا ..

لو اجتمعنا لبيكنا على أنفسنا ، إنا صائعون في هذه الدنيا ، كل واحد منا

يتظاهر ويتألم .. لا .. سأتركك ياسامية .. لن أتص بك .. رغم أبى يريد أن

أحبك .. رغم أبى أعلم أنك لن تحصل على الحنان الذى تطلبينه إلا من شخص

مثل يفتقد الحنان ويشعر بأهميته

ولكن لا وقت للحنان .. إنه سيصعبنا ، سيدلنا ويحمد حماسنا

فنتكاسل ونظل فقراء تعساء .. لاند أن نحمد الرغبات .. ولا نسمح لها بأن

نضعفنا ..

اقتحم شوقى مكتبى صباح يوم ول عينيه ثورة . وهمس لي أذنى .

- مبروكة تحت عايضة تشوفك .

- مين قالك ؟

- هيه .. كلمتها ..

أغمضت عيني فزعاً .. هذا لوق احتمالاً . وقلت في عناد :

- أنا مش عايز أشوفها ..

- عيب يا يوسف ..

صحت ، محاولاً أن أبدو كطلس حائر

- موش عايز أشوفها يا أخى .. حد شريكى ..

خيل لي أن شوقى يتلذذ من رؤيتى في هذه الحال ، وينتقم من تجاهل له في

الأسابيع الأخيرة . لقد رأيتى بفصل عنه واقترب من محمد ناجى وهما

ذا يجذبني يريد أن ينحدر في إلى مبروكة ، قال في الحاج مرهق :

لازم تساعدها .

بأقولك لا .

كنت أصرخ كالمجنون ..

- ولا تعمل لك فضيحة ..

- تعمل ..

ولكنى تراحت خائفاً مما قد يحدث .. فقلت متوسلاً :

- افهمنى يا شوقى هيه فاكدة إن لها فى الحكومة معاش ونصحناها ميت مرة تروح البلد .. موش عايزه .. وبتدور على المعاش .. وفى الحقيقة مفيش معاش .. نقول لها كده .. ما بتصدقش .. أعمل إيه بس .. ما بتقهمش .. صوب إلى نظرة قاسية .. وقال من بين أسنانه فى حقد غريب

- أمت واطى
همست فى ألم
- الله يسامحك ..

وتركنى وخرج .. وتوقعت أن اسمع عن مبروكة .. أسمع صراخها يدوى فى البناء ، وأراها تقتحم الحجرة ، وخفت ، فنهضت لأطل عليها من النافذة . رأيتها تتحدث مع شوقى وتسير معه فى الطريق قبل أن تفتنى كنت أرى سامية مكانها ، كأنها هى التى تسير هناك فى نهاية الطريق ..

إلى أين تذهب سامية .. ما مصيرها .
إلى أين تذهب مبروكة .. ما مصيرها ..
لن أثقل رأسى بالتفكير . كل ما أعلمه أنى صامد هنا .. مصيرى هنا .. فى المساء ، جاء شوقى يعتذر

- أنا أسف يا يوسف ..

أطرقت برأسى ولم أقل شيئاً . لبتة لا يصلحنى .. هذه هى فرصتى لاتخلص منه . ضحك قائلاً .

- حقت على .. أنا خلطت

تقابلت عيوننا ، فاضطرت إلى الابتسام .. هذه البسمة اللعينة نقلت بالرغم منى .. تذكرنى بآنى طيب .. ساذج . قلت

- معلش

- على العموم أنا ح أريحها لك .. أنا عارف ظروفك .
سألت فى قلق .
- قصدك إيه ؟
قال متردداً
- يعنى فلوسك على قدك ..

أهذه حقيقة ما تعرفه عنى .. أم أنت تتعابى .. طرونى أسى أدخل منها ، إننى لا أريد أن يعرف محمد ناجى شيئاً منها .. إنها تلوث صورتى . تطلع أحلامى .. هى وأنت وكل من عرف حياتى الماضية يجب أن يذهب . بيتعد .. ليفسح لى المجال .. إننى أرسم صورة يوسف العظيم .. وأنتم تشوهون الصورة ..

سمعته يقول ..

- يمكن الاقوى لها شقة على قدها فى بوابة المتولى ..
- عندك ..
- أيوه .. إيه رأيك .
لا رأى لى .. إنها لا شيء ..
- ما عنديش رأى ..
- يعنى موافق ..
- تعمل اللي هيه عايزاه
حاول أن يتكلم بحرارة .. يريد أن يعيد الذى فقدناه ..
- أنت ح تسهر فى الليلة دى .
- هنا ..
- ماتيجى معايا الاستوديو ..
- مشغول ..
- أنا عايز أصالطك ..
- خلاص اتصالحنا ..

نظر إلى لي مروه مفاجيء وقال :

- طيب أنا ماشى . سعيدة ..

- سعيدة

أحسست وهو حرج من لحرارة نفس الشعور الذى انتابنى وأنا خارج
من بيتى عاصبا بلا عودة صباح ذلك اليوم الذى تزوج فيه أبى من
مروكة

الفصل الثامن

وشهدى باشا

حان الوقت الذى اذكرك فيه يا باشا ، فانت نقطة التحول في حياتي ، أنت
الفاصل الحاسم بين طفولتي وسذاجتي ، ومكرى البسيط وبين هذه الحياة
التي أعرفها الآن بكل ما فيها من أسوة وعنف وجراة وطفيان ومكر معقد ..
نعم .. شهدى باشا كان مدرستى الحقيقية التى جعلت منى ما أنا عليه
الآن .. ولكن لا أنكر أنى دخلت المدرسة وأنا مستعد ، فتقبلت تعاليمها
بلا دهشة .. بلا خوف .. بل تقبلتها متعدياً مصمماً على التفوق .
ما أعجب تلك الأيام ، كنت أكثر شباباً وأكثر حيوية ، وكنت قد انفتحت
نفسى بانى قد اكتشفت طريق النجاح ، وإن كنت لا أعرف بعد كيف أخوض
فيه ، واشك في قدرتي ، وينتابنى التردد أحياناً ، والجزع أحياناً الجزع
من الفشل

كانت ثقة محمد ناجى بي ، تزداد يوماً بعد يوم ، فتزداد مسئولياتى ،
ويطلعنى أكثر فأكثر على أسرار عمله ، وكان أهم هذه الأسرار تنفيذ أوامر
شهدى باشا ونشر الأخبار التى يرضى عنها ، ومنع الأخبار التى تغضب
وكلفنى محمد ناجى بأن أتولى بنفسى مراجعة الجريدة ، وإطلاعه في الحال
على كل خبر يخص شهدى باشا من قريب أو بعيد ، ليراجعه قبل نشره . حتى
صور الباشا ، كان يراجعها محمد ناجى بنفسه ولا ينشر إلا الصورة
الوقورة ، ويمنع أى صورة للباشا وهو مع سيدة إلا إذا كانت في مرتبة روحه

سفير أو في مرتبة أرقى من ذلك وكان يسمع أحياناً بتشر صور الباشا مع حصانه الفائز في السباق أو هو يتفرج على مباراة لكرة القدم في نادي الرياضة الذي يراسه لأن هذه الصور شعبية . وتقرب الباشا من قلوب القراء .. وكان محمد ناجي يقول لي بين يوم وآخر

- أبا عزيز أعرفك بشهدي باشا .. أنا باعتبرك واحد من المسؤولين في الجرنال .. ولأزم صلتك بالباشا تقى كويسة . وكنت أفرح .. وأسأله في بلاهة

- امتسى .. فينظر إلى نظرة غريبة .. ويقول في وجوم مفاجيء

- الفرص جاية كثير .. وأنتظر اليوم الذي ستجني فيه الفرصة لأقابل شهدي باشا ، المليونير المسيطر علينا .. وتمر الأيام ، ولا تجيء الفرصة ، وينسى محمد ناجي ما قاله .. حتى خيل لي أنه لا يعنى حقيقة ما يقول ..

وفي خلال شهور ، اكتشفت أن أغلب ما تنشره جريدة الأيام له صلة بشهدي باشا ، فلا تمر ساعة إلا وصوت محمد ناجي يهتف في التلفزيون

- يا يوسف خد بالك من أخبار البورصة ..

- يا يوسف خد بالك من أخبار وزير المالية .. أنت عارف أنه زعلان مع الباشا .

حتى التلغرافات الخارجية ..

الباشا بيعمل صفقة مع أمريكا .. اشتر أخبار واشنطن في الصفحة الأولى ..

حتى أخبار كرة القدم .. كنا نشجع نادي الرياضة لفرضي الباشا فإذا فاز النادي شربنا نبي الفوز يعاوين بارزة في الصفحة الأولى .. وإذا أصيب النادي بالهزيمة دفنا الخبر في الصفحة السابعة ..

حتى أخبار المحتمم ..

حفلات مهس باشا وزير الأشغال تبرزها ونحيطها بدعاية ضخمة ..

- يهنس باشا صديق الباشا .. كل مقاولات وزارة الأشغال عنده .

أيقنت أن شهدي باشا اخطبوط يمتد نفوذه إلى كل مكان . والح علي التفكير في لقائي به .. وكيف يكون .. كيف أحذب أنظاره لي .. كيف أكسب ثقته .. كيف أبهره .

وأشعر بالحيرة

لا أظن أنه سيهتم كثيراً بآتي قريب راتب بك ، ولا أظن أنه سيهتم بمظهري المؤدب .. إنه قد لا يلتفت لي على الإطلاق .. من أنا بالنسبة له .. ربما ينفر عني لو رآني .. فتكون نهايتي .. الأفضل أن أبعد عنه ، وأكتفى بصلتي بمحمد ناجي ..

وحدث ذات ليلة ، وكنت راقداً على سرير في البنسيون ، أن امتدت يدي إلى مسرحية . ماجور جربارا لبرنارد شو . قلبت صفحاتها وأنا أتناوب .. حتى وقعت عينا على حوار غريب ، قرأته فطار النوم من عيني .

الحوار بين شاب لقيط ومليونير من تجار الحروب ، صاحب مصانع أسلحة حربية .. وكان الشاب اللقيط يساوم المليونير على تولي إدارة مصانعه ، ويثبت له أنه الوحيد القادر على هذه المهمة ، لأنه سافل ..

كان الحوار لذيذاً ، شاذاً ، والاثنان يتصارحان ويرفعان كل قناع ، ويكشفان عن حقيقة نفسيهما .. يسخران من الإنسانية .. من الشهامة والمروءة .. من الخير .. من العطف على الفقراء ..

وينتهي الحوار باقتناع المليونير أن هذا الشاب اللقيط الذي لا خلق له ، هو الوحيد الذي يصلح لإدارة أعماله ، فمنحه الإدارة فعلاً وحرّم ابنه الشرعى منها ، لأنه شاب مثقف .. تعلم الأخلاق الفاضلة التي لا تصلح لإدارة الأعمال الكبيرة .

ليلتها جطلت أحلم ، مفتوح العينين ، بحوار بيني وبين شهدي باشا .. عندما أقابله وأختلي به .. سأقول له إنني سافل وكاذب سأصارحه بأني بلا أخلاق ، ولقي رجل أناني طموح ، لا أبحث إلا عن مصالحتي الخاصة .

وتخيلت شهدي باشا ، وهو يتسم ، يبعث دخان سيجارة في وجهي ،

وعيناه تتألقان بالسعادة .. ثم يمد يده ليصافحني ، ويهتفتني بحرارة قائلاً
لى : أنت الرجل الذي أبحث عنه .. أنت الرجل الذي استطيع أن اعتمد
عليه . لا أحد قادر على حماية مصالحى إلا شاب أمانى بلا ضمير .. مثلك ..
وأعقد معه اتفاقاً ، كائى اتفاق بين لصين شريفيين ..

وصحكت ..

ما هذا الخيال الأحرق ، إنه خيال روائى ، خيال ملاج .. ولكنه خيال
لذيذ ..

وظل الحوار الذى تخيلته عالقاً برأسى ، يراودنى ملحاً ، حتى شعرت
وكأنى أدبر جريمة ..

وظهر أثر ذلك على ، عندما عاد محمد ناجى يكرر بغمته فى تقديمي لشهدى
باشا يوماً ما ..

أجبتته مندفعاً ..

- ح أعرفه ليه ..

قال فى دهشة :

- ضروري تعرفه .. والا أنت بتتكشف زى البنات

قلت متصنعاً عدم الاكتراث :

- أبدأ .. لكن أنا مالى وماله .. ده راجل مليونير . الواحد يخاف يتكلم
معاه .

ضحك وبدأ عليه الارتياح وقال بصوت فيه اطمئنان

- بالعكس .. ده راجل لطيف خالص .. واهن بلد .. ويعرف يقول النكتة .

قلت فى إصرار :

- برضه .. ماليش دعوة ميه

قلتها عامداً ، وإحساسى غامض يراودنى ، باننى كلما تمنعت ، دفعت
محمد ناجى إلى تقديمي لشهدى باشا ..

ما الذى أريده من شهدى باشا

لا أدري

ليس فى عنده طلب خاص ، ولكنى أريد مواجهته .. أريد أن أرى هذا
العلاق وأعرفه عن قرب لأقارن بينه وبينى . وأرى الشوط الكبير الذى يجب
على أن أقطعه .

وحانت الفرصة ..

ونشرنا تصريحاً لوزير المالية لصالح صغار تجار القطر . وفاتنى وفات
محمد ناجى أن فى هذا التصريح هجوماً غير مباشر على شهدى باشا بصفته من
كبار المصدرين .

وهاج شهدى باشا .. فهاج محمد ناجى .. ورغم أن الخطأ كان خطأنا ،
فقد أمر بعقاب إبراهيم متولى المحرر الذى جاء بالتصريح وخصم من مرتبه
خمس أيام ..

ونادانى محمد ناجى وهو فى قمة غضبه ، وأمرنى بأن أذهب فوراً إلى
شهدى باشا وأعتذرله ، وأطلع على خطاب بعقاب إبراهيم متولى لإهماله فى
عمله . دون ذكر نوع هذا الإهمال ..

وهمس محمد ناجى وهو يضغط على أسنانه :

- لو الكلب ده سالك أنا عاقبتة ليه .. قولله أى حاجة إلا السبب
الحقيقى .. ده ولد مجرم .. يروح يبلغ الوزير ويعملنا دوشة ..

همست بدورى

حاضر

- وتروح حالاً للباشا .. وتعمل معاه حديث .. خذ المعلومات . وبعدين
هاتها نكتبها سوا .

شعرت بالقرف من محمد ناجى أنه كذاب ، وشرير ، ولكنى لم أشعر بالقرف
من نفسى لأننى أنقذ أوامر الكذاب الشرير .. أقنعت نفسى أنى أتفرج على
الدنيا ، أشاهد أشياء مسلية ، أنا فوق كل هذا ، أنا يوسف الذى يطل من
خلف النافذة على شارع السد ، أتفرج على أنفص وأصحابه وهم يطلقون
الشتائم البذيئة ويلعبون الكرة ، ثم أنا مشغول بهذا الحدث الضخم مقابلة

شهدي باشا ، لن أفكر لحظة واحدة في إبراهيم متولى ، وأنا ذاهب القاء مليودير

انتظرت في مكتب السكرتير أكثر من ساعة . أرقب أجناب ومسيدات أنيقات يدخلون مكتب الباشا ويخرجون منه ، ويخل علينا حلاق يحمل حقيبة جلدية فيها أدواته ، وفتح له السكرتير الباب في الحال فصعد الدم إلى رأسي ، وقررت أن أحتج .. ولكن صوتي خرج ضعيفاً متردداً

- الباشا عزم أمي مستتبه ..

قال السكرتير في وقاحة :

- أيوه يا أستاذ ..

ولنمت الصمت ، لم أقو على مواصلة الاحتجاج ..

ودخلت ، بعد خروج الحلاق ، كان جالساً على مقعد وثير بجوار مكتب ، بالقرب منه مدفأة ، وحوله أوراق متناثرة على الأرض ، وفي قدميه خفان من الصوف ، ووجهه متردد ، ودائحة الكولونيا تقوح منه ، وفي عينيه ابتسامة جريئة .

قال وهو يضع يده على تليفون بالقرب منه .

- اتفضل يا أستاذ .. اتعد ..

كان واضحاً أنه لا يفكر في مصافحتي ، فجلست على مقعد خشبي يبعد حوالي المترين من مقعده الوثير ..
إزى محمد ؟

- كويس يا سعادة الباشا ..

- آيه اللي في إيدك ؟

- ده الجواب اللي بعتهاه للمحرر اللي نشر الخبر ..

- ودينى

مد يده في لهفة ، وأخذ الخطاب وقراء بعناية ، والابتسامة الجريئة لا تغادر عينيه ..

كان عقلي يفكر بسرعة في لا شيء وتسميت سبب مجيئى ، حتى حيل إلى أن مهمتى انتهت بتسليم الخطاب ..

قال وهو يعيد إلى الخطاب

- أنت بتشتغل مع محمد ؟

- آيسوه

وبلعت ريقى ثم استدركت قائلاً :

- يا سعادة الباشا .

- باين عليك لسه صغير ..

قالها في ضيق ، فانتابنى خوف مفاجئ ، وقلت فجأة وسخونة تجتاح رأسي

- موش قوى ..

ادهشنى صوتي .. كان ساخراً .. متحدياً ..

رفع رأسه ، وأطال النظر إلى وأشار بيده إلى مكتبه .. وقال شيئاً لم أتبينه ..

نظرت إلى المكتب حائراً .. فرفع صوته في حدة

- الصندوق عندك .. أمه ..

رأيت صندوق سيجار ، فهجمت عليه ، وقدمته له ، أخذ سيجاراً ، وأعطاني الصندوق لأعيده مكانه .

لم يقدم لي سيجاراً ، أبحثرنى .. أم هذه هى عادته .. أشعر بالتحفز لمواجهة .. لن أنهار أمامه .. سأدافع عن نفسى ، وليكن ما يكون .

- أنت عايز حديث ؟

- آيسوه ..

- ح تعرف تكتبه ..

- أظن كده ..

لم تعجبه إجابتي ، فبشمق بإشعال السيجار ، وهو يرقبى من خلف الدخان ، كلما التقت عيونه .. رفضت في إصرار أن أحول بصرى عنه ..

- اشتعلت هناك إزاي ؟
قلت ضاحكاً في جراءة المتحرر :

- ضحكت على ناجي بك ..
انتسم في برود قاتل .

أتصدق مسرحية برنارد شو .. ايعجب بي لو كاشفته بسفالتى ..
أيتحقق ما في الكتب .. إنها معجزة .. ولكنى لا أريد منه شيئاً .. كل
ما يهمنى الآن ، هو ألا أبدو ذليلاً أمامه ، أن أعامله بمهارة ونكاه ، أن
أماجته وأبهره ولا أتركه يقتحمنى ويعاجئنى ويبهزنى ..
أنا في معركة ..

- ضحكت عليه إزاي ..

ساواجهه بعنون ، ساصارحه بحقيقتي .. ساكشف له عن نفسى بلا
خجل ..

- فهمت أنى غنى .. ولية اتصالات اجتماعية واسعة .. فصدقنى ..
وشغلنى .. وبعدين ألبت له أنى باشتغل كويس .
وضحكت ساخراً .

- لكن .. لحد دلوقت ما يعرفش الحقيقة .

انفجرت شفتاه عن ابتسامة واسعة ، وبدأ عليه الابتهاج ، وتوقعت أن
يتخذى عن وقاره ويضحك من قلبه . ولكنه قاوم بصعوبة ليحتفظ بوقاره .
فهمته إيه ؟ ..

- أنا المرحوم والذى كان مدرس غلبان على قد حاله .. وله قرابين من بعيد ..
حسن بك راتب .. فأدعيت أنه عمى .. وأسى باجيب أخبارى منه .. لأنه زى
ما سعادتك عارف .. يبقى صاحب وزير الداخلية ..

صاح

- يعنى مصبت على محمد ؟

رفعت صوتى .

- موش في الشغل .

- اتعلمت فين ؟

- في الحقوق ..

نظر إلى متشككاً ، فहतت ضاحكاً

- ماياكديش .

قال فجأة .

- محمد ده أصله محفل .

كدت أقول له إن محمد ناجي يحبه ، لولا أن تذكرت ما رواه لى أنور سامى
عن العلاقة التي بين ناجي وزوجة شهادى باشا . فعدلت عن ذكر الحب ..
وهمست :

- على العموم أنا مدين له بكل شيء اتعلمته في الصحافة .. استاذنا كلنا من
غير شك

- وأنت عايز تبقى إيه ؟

- عايز حديث من سعادتك ..

- لا .. أنا بسأل عن طموحك ..

- برضه عايز حديث من سعادتك ..

- ما عندكش طموح ..

- موش عايز أعمل غير اللي أنا باعمنه دلوقت .. وبعد كده اللي يحصل
يحصل ..

قال ، وفد دبت الحرارة في صوته لأول مرة

- انت ولد ذكى .. ح يبقى لك مستقبل ..

- متشكر ..

وسألنى فجأة

- عايزنى أقول لك إيه في الحديث

- قلت بسرعة :

- إن جيت للحق يا سعادة الناشا ، أنا شايف إك تؤيد تصريح الوزير .
وتقوته ..

سال في برود

ليه ؟

علشان دوشة التجار بتوع الأرياف .. عندهم كبير .. ويقدرُوا يعملُوا
ضحة .. مالهاش لزوم في الحرايد الثانية ..

قال ملا تردد .

طيب اكتب حديث بالمعنى ده .. وخلي محمد يقرأهولى في التليفون ..
ووافقنى على رأيى بسرعة ، ثم دق الجرس منادياً السكوتر ، وأمسك
بأوراق وأنشغل بها وكأنى لم أعد موجوداً في الحجرة
تراجعت في صمت ، وقبل أن أغادر الحجرة . سمعت صوته ساخراً .

اسمك ايه ؟

يوسف عبد الحميد ..

قال ضاحكاً ..

أنا ح أقول لمحمد على النسبة اللى عملتها فيه ..

ثم أردف قائلاً وهو يطلق ضحكة عريضة كانت محبوبسة في صدره

لو رافدك ابق قوللى ..

وهادرت مكتب الإخطبوط

قابلى عبد الستار اللى موظف الاستعلامات عند الباب الخارجى
للجريدة .. كان مضطرباً .

يا أستاذ يوسف . مكتب شهدى باشا عايزك ترجع له ثانى ..

قلت في دهشة :

أنا لسه جاى من هناك ..

أيوه .. وعابزينك ضرورى .

عدت مسرعاً ، وليس عندى أدنى فكرة عن سر استدعائى ، وقابلنى
السكوتر لينتحنى بي هامساً

الباشا بيقول لك .. ما تجيبش سيرة لحد .. ولا لناجى بك .. عن الكلام
اللى دار بينكم ..

كلام ايه ؟

واظ ما أعرقش . هوه قاللى كده ويس ..

كان الرجل يخاطبني بلهجة مهدية تختلف تماماً عن اللهجة الوقحة التى
قابلنى بها أول مرة ..

شعرت انى قد أحزنت انتصاراً عندى شهدى باشا .. انتصار بلا حطة ،
وبلا هدف . أيقصد شهدى باشا ذلك الاعتراف بأنى خدعت محمد ناجى ..
أريد أن يحتفظ به سرّاً بينى وبينه .
لهذا ..



حاولت عبثاً أن أجد اتصال بشهدى باشا .. تلقيت إجابات مختلفة .
الباشا غير موجود يا أستاذ يوسف .. الباشا سافر اسكندرية .. الباشا في
اجتماع .. إجابات مختلفة ، والنتيجة واحدة .. لقد فقدت اتصال بشهدى
باشا حتى بعد نشر الحديث ، ذهبت إلى مكتبه وقد اعتزمت أن أرقد بجوار بابيه
حتى يجىء .. ولكنه كان قد سافر إلى بيروت في رحلة مفاجئة تستغرق يومين ..
وأصبحت قلقاً ، أنسينى شهدى باشا ؟ أقال شيئاً لمحمد ناجى ؟ وزاد من
قلقى انى عرفت من محمد ناجى أنه اتصل به أكثر من مرة ، هو الذى أخبرنى
أن الباشا قرا الحديث وأبدى ارتياحه له ، وهناك طيه ..

سألت في ضيق وأكثر من خاطر يقلقنى :

قالك إيه عنى ؟

ابتسم محمد ناجى وأجاب ..

ولا حاجة ...

أخفى عنى شيئاً ، أيدبرلى أمراً ، لا فائدة من هذه الأسئلة إنها تزيدنى
حيرة وقلقاً ، استولى على شعورى الدب . أى حفاقة دوعتنى إلى السخرية من
محمد ناجى أمام شهدى باشا .. لقد أسأت إلى نفسى دون أن أظفر بشيء ،
وها هو شهدى باشا يتخلل عنى . أه .. لو يكف رأسى عن التفكير .

كأنت سامية في تلك الأيام تتصل بي كل صباح ، وكانت تؤثر معي في كل شيء . تعودت انتظار صوتها ، وقد أعددت حواراً طويلاً درستته بعناية ، ينتهي بأن أدعوها إلى الخروج ، ثم أذهب بها إلى شقة محمد ناجي .. إن قلبي يحضني أن هذا سوف يحدث ، لابد أن يحدث ..

ويدق جرس التليفون ، وأسمع صوت سامية ، فتتغير كل خططي ويضع من رأسي الحوار الذي أعدته يستولي على إحساس مفاجيء بأنها لا تفكر في ، وأنها تتكلم معي مجرد أن أكتب عنها خيراً أو أنشر لها صورة ، وأضحك في عصبية ، وتصك أذني كلماتها الرقيقة ، فأجيبها في غباء ، وأحول الحديث إلى أخبار الاستوديو ، وأخبار الأعلام التي ستتعاقد فيها مع حلمي كامل وأنور سامي .. وينتهي الحديث ، ويختفي صوتها ، وأرى أسامي التليفون الأسود ، يخذاني ويتهمني بالعجز

إلى أن جاء يوم ، وطلبت من سامية أن أقابلها ، سألتها في غباء أن تزورني في الجريدة ، ولكنها رفضت واتفقنا على أن أقابلها بعد ساعة في حديقة جربوبى ..

جلست أنتظرها والأفكار تتصارع في رأسي .. كيف أتصرف .. هذه هي فرصتي لأدعوها إلى الشقة .. هل أستطيع . إنني لم أعرف جسد المرأة حتى اليوم .. ماذا لو ارتبكت ، ماذا لو فشلت . ليس من السهل على أن أفصح نفسي أمام سامية .. ولكني يجب أن أخوض الامتحان . إن أفضي بقية حياتي بغير امرأة .. لقد تفكرت ، ولم أعد ذلك الشاب المنطوى على نفسه ، الذي يفجل ويتراجع ، لو تراجع أمام سامية فسأتراجع أمام محمد ناجي ، وأمام شهادي بأشياء .. سأراجع أمام الحياة كلها . سأهبط الدرجات القليلة التي صعدتها . سأحكم على نفسي بأن أظل ذلك الشاب الساذج الشاذ .. وجاءت سامية ، وفي لحظات تبخرت جميع أحلامي ، كنت قد تفكرت منحت ، وعلاقتها به ، وأفلت من لساني سؤال عن منحت فإذا بها تهاجمني وتصيح في وجهي :

- أنت متبهاتك أني بأبصم لك ..

- أنت فهمتيني غلط ..
- لا . أنا قاهمك وعارفة اللي بتفكر فيه .. أنت فاكروني واحدة بتلعب ..
تخرج مع أي واحد ..

طعنتني كلماتها .. نهضت إلى أمامي ، التهمة حقيقية .. عررتني .. جردتني من كل قناع ، أكرت وحاولت أن أندو متعاسكاً ، وفحاة انهارت هي أمامي ، واعترفت لي اعترافاً غريباً .. أنور سامي يغازلها ويضيق عليها الخناق ..

أبركت في الحال أنها صديقة ، كلامها يفسر لي غصب أنور عليها هذه البنت شريفة ، أشرف مما كنت أتصور ، شعرت بالراحة لأنني لم أكتشف لها عن شيء مما كنت أفكر فيه ، ولكنني شعرت أيضاً بخيبة أمل ، لقد تأجل الامتحان ، وعلى أن أبحث عن فتاة غيرها ، قلت لسامية : إن أنور سامي لن يستطيع أن يمسه ، كنت أتكلم في حماس ، كأنني أريد أن أقنع نفسي بما أقول ..

بعد أن تركتني ، اكتشفت أنني مازلت أفكر فيها ، ومضت الأيام وصورتها تلاحقني ، وفي صدري عاطفة قوية نحوها .. سألت نفسي هل أنا لو شك على الوقوع في حب سامية ، ولم أجسر على التفكير في الإجابة على هذا السؤال .. وفاجأني محمد ناجي ذات يوم قائلاً وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة واسعة مأكرة

- أنت عامل إيه مع سامية دلوقت .
- ولا حاجة .
انتشر الفرح في وجهه وصوته .
- أنت عارف أصلاً اللي حصل بينها وبين أنور ..
- أيوه ..
صوت عيني في وجهي يتقرسه .
- عرف أنها جات معاه البيت وجمعت .. وأدرك في الحال أني لا أعرف ..
- ما عرفتش ..
قلت غاضباً :

ضحك وهو يتلذذ بمراقبتى وقال فى ثقة -

- أنا عندى التفاصيل ..

كف عن الكلام وانتظر أن أسأله عن هذه التفاصيل ، ولكنى صغت على السكوت ، كان الألم يعترضنى ، فعمى بصرى فى بصوت هادى ، كيف ذهبت سامية مع أسود ، وكيف حاول الاعتداء عليها .. كانت كل كلمة تنفخ فى لحمى ..

- أنور هو الذى قالك ..

- لا ...

- أمال عرفت من مين ..

- منها .. من سامية .. لابد أن شيئاً بشعا ظهر على وجهى .. علامات ياس ، أو ألم حاد .. لأنه ظل يرقبنى وفى عينيه قلق ثم همس .. سامية كلمتنى فى التليفون .

- كلمتك ..

قال فى غرور :

- كانت بتشكيل من أنور .. على العموم أسمع .. ما تقولهاش إنى قلت لك ..

قلت فى حدة :

- ح اقولها ليه ..

- أنت زعلت ؟

- لا ...

ضحك وقال

- باين عليك زعلان .. هى ما عملتش حاجة غلط .. مسكينة .. كانت خايبة .. وشايفة أنى أقدر أساعدها .. وارفع صوته

- طبعاً أنا أقدر أساعدها أكثر منك .. يمكن ده يجرح شعورك أنت عايز تبقى الفارس الوحيد الذى بيدافع عن حبيبته ..

صحت .

- هيه موش حبيبتى .. دى مجرد واحدة .. زى أى واحدة غيرها ..
- شوف أنت منهمل إزاي .. ما تنساش انى زى أحوكم الكبير .. وأنا كان ممكن أخبى عنك
ثم سألنى بصوت جاد

- إيه وجه اعتراضك أمها كلمتنى .. خايف منى ؟

شعرت أنه يذلى ، وشعرت أنى ضعيف أمامه .. تراجعت ..

- لا

ابتسم وقال فى برود

- أظن لازم تكون واثق منى .

- طبعاً ..

- على لية حال أنت لازم تفرح .. اعترفت لى أنها بتحبك ..

كنت واثقاً أنه يكذب ، أنه يعرف الحقيقة ويخفيها عنى ، قالت له سامية كل شيء ، ليس بيننا حب ، ولم تذهب معى إلى شقيقته إنه يعرف أنى خدعته ، ترى ما الذى يقوله عنى الآن ، ولد مراهق ، ملء بالعقد ، يدعى أنه يعرف النساء .. لماذا لا يصارحنى بما يعرف .. لماذا لا يواجهننى برأيه فى ؟

قلت فى محاولة يائسة لانقاذ أكاذيبى

- أنا مقلتش أن الشقة بتاعتك

هيه عارفة ..

اصفر وجهى ، واستمر يقول

- أنا متأسف .. ما كانش قصدى أخرجك .. سألته عن الشقة ورأيتها فيها ..

قالت لى إنها انبسطت منها ..

- أنا واثق أنك تكذب ، سامية لم تذهب إلى الشقة ، أنت تخترع قصة ، أنت

تعلب عجوز ، أحدث منى ، ما الذى تريده الآن ، لست قادراً على فهم شيء ، ما
أنا إلا مبتدىء عشيم تورط فى عالم الثعالب ، يجب أن أخرج خطة انسحابى قبل
أن يفترسنى محمد ناحى .

عشت فى هوان ، العار يفتأ عيني ، الخجل والارتباك يلطخان حياتى
لن يتقدنى سوى أن أستجمع شجاعتى ، وأصمم على دعوة سامية إلى
الشقة ، أتحايل عليها ، أمكر بها ، أهددها ، أخطفها ، أغتصبها .. أقبل
المستحيل ، لأثبت أنى قادر عليها .. ولكن .. كيف .. كيف ..

اتصلت بسامية وواعدتها على اللقاء فى جروبى فى موعد الغداء .. وجعلت
أفكر كالمحموم .. حتى دق جرس التليفون ، وسمعت محمد عامل التليفون
يهتف منفعلًا

- مكتب سعادة شهدي باشا طالب حضرتك
ارتجفت ..

- الأستاذ يوسف ؟

- أيوه يا أفندم ..

- سعادة الباشا عايز يشوفك النهارده .. الساعة أتناشر الضهر .

- حاضر .. أنا جاي حالاً .. وموعد سامية .. وموعد كرامتى .. لا يهم .. إن
الرجل القوى يطلبنى . الرجل الذى سخرت معه من محمد ناحى لابد أن
أذهب إليه حتى ولو غضبت سامية .. حتى ولو ماتت سامية
قابلى ضاحكاً .. السيجار متالق فى فمه ، والمرح يشع من عينيه .

- أنت سألت عنى يا أستاذ .

- أيوه يا سعادة الباشا .

- خير

- كنت عايز أعرف رأى سعادتك فى الحديث ..

- لم يصدقنى .. لقد مضى زمن طويل على الحديث ، قال فى وقاحة .

- أنا كلمت محمد ..

ماذا أقول له ، لقد انتهى الحديث ما الذى أريده ، يجب أن اتكلم ولكنى
عاجز عن الكلام .

- ضحك ، وقدم لى صندوق السيجار ..

- خذ سيجار ..

- مدت يدى وأخذت سيجاراً ، وهاتفا يقول لى إن الأزمة قد عبرت ، إنه هو
الذى يريد منى شيئاً .

- هيه . مبسوط فى الشغل .

- الحمد لله ..

- وعامل إيه مع محمد ..

- كويس

- لسه ما عرفش إنك نصاب .. كان بيتقسم ، فبادلته الابتسام .

- سعادتك أمرتنى ما أقولش حاجة ..

- تجاهل كلامى ، وقال بصوت ملىء بالحيوية :

- محمد ده صديقى .. أنا أهرقه من زعمان .. يمكن قبل ما أنت تتولد ..

البلد ما فيش فيها اثنين زيه ..

قلبه لاذع وتحطيه بيحجبنى بيشرح ويجرح .. وإلا إيه رأيك .

- مطلوب ..

- صاح بشراسة ..

- اتكلم بصراحة ..

- رأى أنه أستاذى .. بس .

- بس إيه ؟

- ونظر إلى مشجعا ، فتعلبت على ترددى وقلت :

- بس ثقافته ناقصة ..

- هز رأسه فى اهتمام .

- هيه .. اتكلم ..

- فيه تيارات سياسية كثيرة هوه ما عندوش فكرة واضحة عنها .

سألتني منعلاً

- زى إيه ؟
- زى الشيوعية مثلاً .. دق بيده على المكتب وهتف .
- أهوده الى أنا عايز أسمعه منك . أنا قرئت في الفترة اللي فاتت كل كلمة كتبتها .. قرئت تحليلك للجرايم .. بتكلم عن الظروف الاجتماعية .. عن الفقر .. بتكلم زى واحد شيوعي .. زى الكلام اللي بلغراه في منشورات الشيوعيين وجرايدهم .
- لكن أنا موش شيوعي ..
- طبعاً .. وإلا ما كنتش شففتك .
- قلت باسم .
- وكان زمانى في السجن .. حدق في وجهي ، ثم قال :
- أنت موش شيوعي لأنك طموح .. ولأنك ذكي .. عايز تكبر .. وتوصل لحاجة ..
- باحاول ..
- صاح في حماس :
- ورج توصل .. أنت ممكن تبقى رئيس تحرير الأيام ..
- بدا على وجهي الذعر .. ولكنه مضى مندفعاً في كلامه
- إحنا عايزين دم جديد .. وأنا راجل مغامر .. بالنسبة لعمار بطريقتي ممكن أخللي شاب زيك يتولى إدارة أكبر شركة عندي . لو وثقت فيه .. محمد ناجي بقدر يحارب الوفد .. يحارب السعديين .. يقدر يكتب فضايح .. يقدر يشاكس القصر .. لكن البلد موش دول مس .. البلد فيها بلوقت شيوعيين .. واشتراكيين .. وإخوان مسلمين .. وعفاريات زرق .. ملكناش بنسمع عنهم قبل الحرب .. ولو سبنا محمد ماحي لوحده .. ح يخسر المعركة ، منقطعهم بيقع الولاد اللي في الجامعة .. أنا عايز واحد زيك يعرف يتكلم بلغتهم ..
- وسكت برهة ثم قال بصوت هادئ كأنه وصل إلى قرار
- أنا عايزك تكتب في السياسة قلت بسرعة

- موش ضروري السياسة .. أى خير أو تحقيق صحفى ممكن يبقى له اتجاه ضد الشيوعية . لما أكتب عن شاب كان فقير وباعد غامرو ونجح وبقي مليونير .. ماهوده ضد الشيوعية
- لعنت عيناه ، وكأنه فهم شيئاً أعجبه وقال :
- فعلاً . لك حق .. لكن برضه من نفسك على الكتابة في السياسة ..
- وإذا اعترض الأستاذ ماحي ؟ عتج منه ليقول شيئاً ، ثم سكت وسألني
- تفكر ح يعترض ؟
- أظن كده ..
- على أى حال .. الكلام ده بيني وبينك .. وسيبقى أنا أكلم محمد ناجي .. من غير ما تجرح شعوره
- وسألني فجأة .
- أنت تعرف شيوعيين ؟
- أيوه ..
- أصحابك ؟
- كانوا أصحابي
- وبعدين ..
- واحد منهم بقى وكيل نيابة .. ونسى الشيوعية
- صرخ
- أنت بتصدق أنه نسي .
- أظن كده
- اسمه إيه ؟
- سعد عبد الجواد .
- في نيابة إيه ؟
- الدرب الأحمر
- قال في هياج .
- وسأليته في مصر كمان البلد ح تروح في داهية .. دالعب عيال .

وكتب اسمه . وهو يتمتع

- ده لازم يترفد . وإلا يتنقل على الأقل .

كدت أغمس بأر سعد مسكين . ولكنى خفت أن يشك في نواياي .. لزمت الصمت وفي قلبي حزن وخوف وبهجة انتصار .

وتذكرت شوقي فكنت أنفاسي .. لن أروح له بشيء .. باب عريض يفتح أمامي .. إني أقوى ، أتخلص من ركودي ، أتخلص من سذاجتي .. أي مفاجأة تنتظرك يا ناجي .. أيها الثعلب العجوز .. إنك تتوهم أنني أبله . تتلذذ بضعمي . تذلتني بأكاذيب التي كشفتها .. ولكني أعد لك المعاجات ..

تأخرت عن موعد سامية ولكنها كانت تنتظرني ، ذهبت بها إلى مطعم ، وأنا أشعر أنني قادر على أن أحصل منها على كل ما أريد

كنا نتحدث عندما بدرت منها علنة لسان . كنت أقول لها إن شهدى باشا أعطاني السيجار الذي أدخنته .. عندما سألتني فجأة

- هو شهدى باشا لسه زعلان من الخبر اللي نشرته .

كيف عرفت هذا ؟

سألتها :

- أنت قريتي الخبر ..

ارتبكت ، وقالت في كذب مفضوح إنها سمعت من بعض الناس إن شهدى باشا غاضب . ثم قالت إنها قرأت الخبر .. إنها لا تدري أن الخبر لا صلة به بشهدى باشا ..

أيقنت أنها على علاقة بمحمد ناجي إنها عشيقته ، أنا المعفل الذي تضحك عليه ، أما المعفل الذي يصحك عليه محمد ناجي .. إنها أسفل مني .. عالم قدر ، كل من فيه ملوثون بالقدارة

هل أمضى فيما أكرهه ، وأذهب معها إلى شقة محمد ناجي ، نفس الشقة التي تعرفها واستعمل سذاجتي ، استغل وهما يأتي مارلت سانجاً ..

سألتني ونحن خارجان من المطعم . إلى أين تذهب ، ترددت . إنه ليس

نفس ترددي القديم ، إن ما يشغلني الآن . هو هل ألوث نفسي بقذارتها أم ابتعد ..

دعوتها إلى الشقة . قحطت

راقبتها ونحن خارجان من المصعد .. تركتها تتقدمني ، فاحسرت إلى اليسار ، دون أن تسألني ، ورمعت عينيها إلى رقم الشقة ، ولحت على شفتيها طيف ابتسامة .

كانت تظن نفسها مأكرة ، ذكية . فتسلى بأبله مثل . سألتها في غيظ .

- يتضحكي على إيه ؟

قالت فجأة :

- عايشان أنت بتكذب عليه .. أتعترف .. أقول لي إنها تخدعني ..

- الشقة دي موش بتاعتك ..

- أيوه موش بتاعتني ..

- بتاعة مين بأه ؟

كانها لا تعرف ...

- واحد صاحبي .. قالت لي وقاحة امرأة فاجرة

- أنت خليف تقوللي اسمه أحسن أجي معاه ، بدالك .

استولى عليّ النفور ، وودت لو اختفها وعاملتها ببرود حتى ضاقت بي وخرجت ، وودعتها وكأننا غريبان .

ولكن خيالي لم يتخلص من سامية ، مازلت أفكر فيها ، إنها فرصتي الوحيدة لأعرف الحياة ، لأثبت رجولتي ، لأنتصر عن نفسي كان الليل قد تأخر ، وأنا وحدي في حجري ، أحاول كتابة أول مقال سياسي في حياتي ، وفتح الباب ، ورايت محمد ناجي واقفاً بقامته الجديدة ينظر إلى نظرات طويلة شاردة .

بغير وعي ، قلبت الأوراق ، ووقعت مرتبكاً :

- يتعمل إيه ؟

كلن ملزال واقفاً عند الباب ..

- اه .. لقد وشيت بسعد عبد الجواد ، ولكنى مضطر إلى أن اشئ
 يشوقى . إنه يهددنى ، سيقول لشهدى باشا إننى صديق شوقى
 الشيوخى .. سيرتاب شهدى باشا لانى أحقيت عنه اسم شوقى .
 ايتسم محمد ناجى وقال فى حبان الثعلب :
 - ما تيجى معايا .. كفاية سهر عليك ..
 - متشكر . أنا تعبان
 - طيب تعال أوصلك ..
 يريد أن يتأكد أنى لن أواصل كتابة المقال ..
 ركبت معه ، وعدت إلى البنسيون وجدت ورقة تنتظرنى فى حجرتى .
 عزيزى يوسف ..
 جئت لأزورك فلم أجده .. ساسافر غدا صيحا إلى سوهاج امر النائب
 العام بنقلى فجأة ، لا أدري السبب ، حاول الاتصال بأى شخص تعرفه لأفهم
 ما حدث .. سأرسل لك خطاباً مطولاً .. قبلاتى .. والله وحشتنى
 يا يوسف ..

أخوك

سعد عبد الجواد

- ولا حاجة
 أغلق الباب وتقدم خطوة ، وسألتنى فى هدوء مرعب :
 - أنت شعت شهدى ماشا ؟
 - أيوه
 - هبه حاجة ؟
 - أبدا .. قدم لى صيجاراً ..
 كان شيئاً ما يدور فى رأسه ، ضحك فجأة وقال بصوت ناعم :
 - أنا عايز توطد علاقتك بيه
 قلت فى غير اكترات
 - هره فاضى ..
 قال فى حدة مفاجئة :
 - اسمع كلامى .. أنت قدامك فرصة كبيرة ..
 كان قد وصل إلى مكتبى ، ومد يده وأمسك بالأوراق ، وقرأ بعض
 السطور ، ثم وضع الأوراق ، وأطرق برأسه . وقال فى ارتباك :
 - يا ابنى فيه حكاية سخيفة عايز اكلمك فيها .. الموظفين بتتكلم . الست
 اللى بتيجى الجرنال وشايله على كتفها عيل بتقول إنه أخوك ..
 كان شئ ساخن يحرقنى ، فهتفت فى ألم
 - أيوه .. دى مرأة أبويا ..
 رفع رأسه فى كبرياء ، كأنه سيد يخاطب خادمه ..
 - أنا عارف كل حاجة .. عارف أنها مع شوقى .
 لا أذكر ماذا قلت ، ولكنى أدركت أنه أعلن الحرب على ، يريد أن
 يفضحنى ، يريد أن يقضى على .
 سمعته يقول
 - ارهد شوقى .
 - ما أقدرش ..
 - الولد ده شيوخى

قررت ألف مرة أن أترك سامية لحالها ، ولكنى كنت أعود لها ، مدفوعاً
بأسباب متضاربة ، كنت أقنع نفسي أحياناً بأنه يكفى أن تكون بيننا
صداقة .. صداقة بريئة تختلف عن صداقاتها بالآخرين .. لماذا لا أكون أنا
الرجل المحترم المهذب فى حياتها ، إنى أستطيع أن أعب هذا الدور بمهارة
واتقان ، وقلبي يحدثنى انى أستطيع أن أصل بعد ذلك إليها .. ولكنى أفقد
صبرى ، واتعجل العلاقة بيننا ، إذ تتسرب إلى تلك الرغبة المحمومة التى
أكبتهما الرغبة فى المرأة سواء كانت سامية أو غيرها .. وأنسى أفكرى عن
الصداقة والاحترام والتصرفات المهذبة ، وأتهم نفسي بالغباء ، وأندفع فى
التفكير فى سامية كحسد ، أتحيز كل تفاصيله وأعبث به فى خيالى وألوم نفسي
لأنى أضيق وقتاً كبيراً وأنا أتردد فيما يجب ألا أتردد فيه ..

كانت تصرفاتى عجيبة ، ومشاعرى مضطربة ، أقابل سامية كل يوم
تقريباً ، وذهب معاً إلى السينما وتردد على المطاعم ، وبعثى فى الشوارع ،
ونتكلم ونثرثر ولا نعر لحظة ، إلا وأنا أعانى من التقلب العنيف الذى يحدث
فى داخلى .. رغبة فى جسدها ، ثم محاولة ليهرب من هذه الرغبة والتفكير فى
استمرار الصداقة البريئة بينما

كنا نصير فى الشارع ، عوفقت أمام فتيرة للأحذية

.. أنا عايزه أشتري لك جزمة غير اللى أنت لابسها ..



ما هي دي كويسة .

صاحت محتجة

- أعوذ بالله . أنا ما أحيش الناس المبهدين .
قلت مدعنا .

- حاضر أجيب الجزمة .

- معاك فلوس دلوقت ..
لا .

فتظرت إلى جذائى من جديد . وهمست وهي تمط شفيتها :

- هلى العموم الجزمة بتاعتك موش وحشة قوى . تقدر تستنى لأول
الشهر .. أحسست أننا أصدقاء ، كزميلين فى الجامعة لا تربطنا إلا حريقنا ،
ورغبتنا فى التسكع معا فى الشوارع ، ومشاهدة الأفلام معا ، وقدرتنا على أن
نتبادل الحديث ، ونحتد ، ونحتج ، وننتقد هلى ملابس ، وأدافع عن نفسى ،
وأهاجمها .. كأي صديق .. مجرد صديقين .
وتركنا فترينة الأحذية ، وتقدمنا خطوتين ، والتفت إلى وعيناها
ضاحكتان ..

- شايف البنات الملى لابسة طرطور أحمر ..

شعرت أن عينيها تنفذان إلى قلبى ، وتحركان الرغبة المكبوتة فى
أحشائى .. إنها جميلة ، فاتنة لبرأضها إلى صدرى ، لو أتعرف على
جسدها ..

- سامية .. ما تيجى فروح الشقة ..

- ح نعمل إيه هناك .

- نقعد نتكلم .. ونستريح شوية ..

هزت رأسها فى دلال وقالت :

- لا .. أنا أحب أمشى فى الشوارع .. أحب أشوف الناس .. والناس
تشوفنى .

- عايز أقولك حاجة مهمة

- ما تقولها هنا ...

- خايفة تيجى ..

- قل ضاحكة .

ح أخاف من إيه .. ما إحنا روحنا قبل كده ..

كنت قد توسلت إليها أكثر من مرة أن تذهب إلى الشقة ، وكانت ترفض ،
وكان رفضها يدفعنى إلى اليأس ، وإلى التشبث بالطلب . إنها ترفض لأنها
تخشى ما قد يحدث .. لأنها تعرف أننا لو ذهبنا إلى الشقة فسيحدث ما يجب
أن يحدث ..

- طيب ياللا نروح ..

روافقت

فى الطريق إلى الشقة ، تمازعتنى المشاعر ، لم أعد أدري هل أنا أحبها أم
أعنفها ، سأصمم على الحصول عليها ، أم سأعاملها فى برود ، كنت ذاهباً إلى
الشقة ، لاكتشف حقيقة ما فى داخلى ، لأعرف بالضبط ، نهاية هذا
الاضطراب الذى أعانى منه ..

جلسنا على مقعدين متقابلين ، وجاهدت حتى خرجت الكلمات من لى ،
اعترفت لها بحبى ، تدفقت الكلمات ، وأنا أعجب من نفسى ، من أين جاءت
هذه الكلمات ، إنها تخرج حارة مرتعشة ، أهى كلمات صداقة ، هل أحبها
حقا ، أم أنا أصنع الوهم الذى يقنعها ويقنعنى للرضى بأن تكون لى .

ها هي تنصت إلى ساهمة صاحبة الوجه ، ونحن فى شقة مغلقة علينا ،
وجسدها على امتداد ذراعى ، وستأتى للحظة التى أكف فيها عن الكلام ، فها
الذى أصنعه بعد ذلك ، كيف أقدم على الخطوة الأولى ، أنهض وأقترب منها ،
وأقبلها ، أترضى ، ألا تدفعنى بيديها ، ألا تصرخ ، أنتستسلم .. ولو
أستسلمت ، لو تركتني أضحمها إلى وأقبلها ، كيف يتصرف العاشق فى مثل هذا
الموقف ، أفك أنزوار فستاتها ، أخلع ملابسى كل هذا غريب بالنسبة لى ، شىء
عسير .. أشعر باضطراب فى بطنى ، أمعائى تتلوى ، وحلقى يجف .. ليس
أمامى سوى أن أستمع فى الكلام ، أندفع أكثر وأكثر فى الاعتراف بحبى .

أهـ . لو اكف عن الكلام .. وأبدا العفل ..

تحركت هي مهلع قلبي ، تقدمت من الراديو ، وعيشت بمفاتيحه ، تبحث عن محطة ، أدركت أنها قلقة ، كنت واثقا أن اعتراض لم يفاجئها ، ولكنه وضعها في موقف جديد محير ..

ليتني لم أطلب منها المجيء إلى هنا .. إن الأحلام اللذيذة قد ضاعت ، ولم تبق إلا هذه اللحظات الطويلة القاسية . كل لحظة تمر كأنها عذاب لا نهاية له .

رفعت إلى عينيّن ملاغيتين ، فيهما دلع ، جملةهما قاهر ، يشع منهما نهم جريء .

- وح تعمل إيه دلوقت ؟

صمت .. لم أفهم ما الذي تعنيه ..

سألتني فجأة :

- موش عايز تبوسني ؟

اكتشفت أنني وأهم ، كل مخاويل لا تعني إلا أنني أبله ، إنها ليست في موقف جديد ، ولا موقف محير ، إنها تعلم جيداً ما يجب أن يحدث في هذه المناسبات ، وتتعجلني .

استجمعت كل ما في رأسي من مشاهد السينما ، والحكايات التي سمعتها من الطلبة في المدرسة والجامعة . استجمعت كل الصور التي طافت بخيالي عن الحب ، وطردت مخاويل ، واندفعت نحوها أقبلها ارتطم وجهي بوجهها ، وبهتت شفثاي عن شفثيها ، شعرت بلمس جديد ، دخلت أنفاسها في أنفاسي .. شمعت رائحة عطرها ممزوجة برائحة بشرتها .. انتعشت شفثاي .. وابتهج جسدي ، سرت فيه النشوة ، تختلف تماما عن كل ما تخيلته طوال سني ومراهقتي .. تختلف تماما عما شعرت به وأنا أختلس القبلات مع سعاد ..

دفعتنى بيدها ، وطهرت على وجهها مسحة وقار ، أعذا هوكل شيء .. أم هي تمنع لأنها يحب أن تفعل هذا ، إنه الدلال الذي سمعت عنه ، يتمنن

وهن الراغبات . لابد أن أواصل ما بدأت به .. ولكنها فتحت فمها وسألتني بصوت جاد الزمنى مكاسي :

- فيه حد يعرف أننا بنحب بعض ؟

إنها خائفة من محمد ناجي ، لا تريد أن يعرف ما تفعله معي ، هذه هي تصرفات كل مثيلاتها لا مانع عندها أن تعرف عشرة رجال ، عشرين رجلا ، ولكنها تحاول أن تؤكد لكل واحد منهم أنها له وحده ، لا تريد مني أن أبوح بالسر للآخرين .. تريد أن تظل شريفة بريئة معنا جميعا .. ليكن .. لا يهمني هذا الآن .. كل ما أريده هو أنت .. جسديك .. وسأصرف بكاء .. لن أجعلك تشعرين بأن هذه هي أولى تجاربي .. سأوهبك بأن ترددي ، هو عدم اندفاع .. هو ائذان الرجل الذي يعرف الكثير ..

قلت هامسا :

- ما فيش حد يعرف ..

إذا كنت قلت لحد .. قوللي ..

مسكينة ، أهي خائفة إلى هذا الحد ، لن أقول لأحد ، الثمن بسيط .. مادمت سأحصل على كل شيء .

سألتني فجأة :

- محمد ناجي يعرف ؟

- الغيبة ، كانت تستطيع أن توفر هل نفسها هذا السؤال ، لا داعي لأن تستمر في خداعي ، وأستمر في خداعيها ، فلنتجاهل كل شيء ، ولنمض في قبلاطنا ..

أجبتها في ضيق ، وقد استغزني غباوقها :

- بيشك ..

- أرجوك ماتقولشي ..

- حاضر ..

- حتى الشقة دي بلاش ..

إنها أقصع شروطها قبل أن تخلع ملابسها ، سأقبل كل الشروط ، لقد فقدت

دكامها ، ليست ذكية على الإطلاق ، إنها جسد جميل غيبى ، جسد لذيذ ، إنى
أهم ما يدور في رأسك . سترضيك . لن أثيرك المشاكل ..
قلت ساحراً

- حاصر

وهممت بها مدفعتنى مرة أخرى ، لتضع شرطاً آخر ، طلبت منى أن أبحث
لها عن شقة جديدة ، موعدتها في الحال ، وأنا أكتب لن أصيب وقتى في جدل
عقيم ، ولكنى لن أصيب نقودى عليها ، أبلغت بها الحماقة أن تطلب منى
تأنيث شقة كاملة لها ، لها وحدها ، اتظن أنى سأزوجها ، أم هى تطلب
لمجرد الطلب ، لجرد أن ترانى أبعثر نقودى في الهواء بلا حساب ، ومن أجل
مزاجها الخاص . سأريأها ، حتى أحصل على ما أريد .. هنا .. في هذه
الشقة ..

أردت أن أقبلها ، ولكنها تمنعت

- روح أقعد مكانك .. خليك عاقل ..

أيقنت أنها تلعب بى ، وبدأ الغضب ينمو في صدرى ، وسألتنى عن حبيبى

القديم .

- الحكاية دى خلصت ..

قالت فجأة :

- إن ما كنتش تقولى .. مش ح أقول لك أنا كمان ،

وضعتك في غير اكتر اثن .. كأنها تتحدانى .. وقالت إنها أحببت رجلاً

غيرى ..

من الذى تعنيه .. محمد ناجى .. أنور سامى .

قلت متعابياً .

قصداً مدحت

لا واحد تامى ..

شعرت ببغور كبير محوها ، ورحبت بهذا البغور ، إنه يتقذنى من الماضى في

المهمة العسيرة التى لا أعرف كيف أمضى فيها ..

- إن ماقلتيش ح أضربك .

بدأ عليها الذعر ، صرخت وانفجر الكلام الغاصب يملاً أدنى ويملاً
الشقة . خيل لى أن كل شيء قد هسد ، فتراحعت واعتذرت ، فقامت ، وجاءت
تقبلنى .. ثم أسرعى إلى الباب ، وخرجنا من الشقة ..

كنت واثقاً أن محمد ناجى لن يعرف شيئاً مما حدث بيننا فلما سألتنى
عنها ، ادعيت أننا قد تشاجرنا ، وأبدى أسفه ، ولكن السرور كان يفصح به في
صوته وعينييه .. وبعد أيام ، دعانى محمد ناجى مع سامية لحضور حفل
ساهر في بيته ، وقال إنه أقام هذا الحفل من أجلنا ، لم أصدق له ولكن لم يكن
هناك مفر من الحضور ، فقبلنا محمد ناجى في بيته وهو في قمة تألقه ، كنا
مبهكرين ، فدعانا إلى البار وقدم لنا المارتينى ثم بدأ يهاجمنى ، قال لسامية إنى
نصاب ، أعجبنى وصفه لى ..

- يوسف ده إنسان موش حقيقى . مؤدب زيادة عن اللزوم صريح زيادة
عن اللزوم . عاطفى زيادة عن اللزوم .. موش ممكن واحد في الدنيا يبقى
كده ..

كان واضحاً أنه يشك في أمرى وأنه قلق ، ولم تدرك سامية حقيقة ما في
نفس محمد ناجى ، ولكنها دافعت عنى ..

بعد قليل ، وجدنا البيت قد امتلأ بالمدعوين ، كنت أراقب سامية من بعيد ،
فلاحظت أنها غير مستريحة ، لا تشعر بأنها في مكانها الطبيعى ، ولما دخل
علينا أنور سامى شحب وجهها ، وتبدلت معى النظرات ، حاولت ألا أفرض
نفسى عليها ، أو أشعرها بالخروج ، فتشاعت عنها ، وبالرغم من ذلك كنت
أبحث عنها بعينى بين لحظة وأخرى ، فتلتقى عينا ، أمى تبحث عنى هى
الأخرى ، أم تريد أن تتأكد أنى لا أراقبها .. ووددت لو أترك الحفل ، وأخرج
وحدى ، لعل هذا يريحها ، ولكنى أخرت خروجى حتى أرى شهودى ماشاً ..
وجاء الباشا ، قوقف الجميع رجالاً ونساءً ، وأحاطوا به ، تبادل معهم
التحيات بسرعة ، ثم انتحى بى جانباً

وسألتى دون أن ينظر إلى سامية ..

- دى حبيبك .

- الطاهر إن الإشاعة ملت البلد

- موش صحيح ..

- همست ضاحكا

- والله ما أنا عارف .. لسه ما فيش بيننا حاجة ..

- ومحمد رايه إيه .

- أنا متأكد أن فيه بينهم حاجة ضحك عالياً وقال بصوت خفت أن يسمعه الجميع :

- يعنى بتأخذها منه ..

- موش عارف يا باشا .. والله ما أنا عارف ..

- ريت بيده على كتفى قاتلاً :

- لا .. شد حيلك .. عايزين نفرح بالشباب ..

- وجاء محمد ناجى يطلب من شهودى باشا افتتاح البوفيه ، وتقدم المدعوون ، ووجدتنى وحدى مع سامية ..

- أنا ماشى ..

- قالت :

- وأنا كمان ..

- ما تخليكى أنت .

- قالت لى حزم .

- ثعل نخرج ..

- مشينا فى شوارع الزمالك ، وأنا أسأل نفسى ، عن سر خروجها معى ، ما الذى يدعوها لأن تتخل عن كل عشاقها ، اتهم بى حقا وقالت :

- محمد ناجى موش بيحبك زى ما أنت فاكتر .. شفت كان بيهاجمك أراى .. ياساثر على عينيه ساعة ما كنت قاعد مع شهودى باشا .. كان بيص بشكل غريب

- استنجدتنى ، كترت سرى ، ثم تذهب إلى محمد ناجى وتقول له كل شيء ، استخدمها محمد ناجى جاسوسة على ، أم هى أوام فى رأسى ، تظاهرت بأننى أراقع عن محمد ناجى .. فصاحت :

- أنت موش عاجبنى .. مستسلم .. زى ما تكون لعبة فى أيديهم .. دول بيعلموك زى ما تكون أهبل ..

- لمعتنى الكلمة ، فشعرت بالغضب ، وشعرت بالضعف ، وشعرت برغبة فى أن ألوى عنقها أو أحملها إلى الشقة وأخصعها لرجولتى ..

- ونهينا إلى الشقة ، لم تترك لى فرصة للتردد ، قبلتنى فى جيبينى كأنها تعتذر لى ، وقالت :

- أنا عايزاك تبقى أحسن منهم كلهم ..

- كانت عاطفتها مشبوبة ، ربما كنوس المارتينى هى السبب ، وانزلت الرغبة فى جسدى فحطمت خجل وقضيت على مخابل نسيت كل شيء .. وأخمدت كل صوت فى رأسى ، امتدت يدي تنزع ثيابها ، وامتدت شفلى تنتزع منها القبلات ، كنت أرى لأول مرة ما هو الجسد ، أصل إلى المجهول المختفى أهلك السر الذى عذبتنى معرفته أعرف فى نفسى أشياء جديدة أتحرك بجسدى كما لم أتحرك من قبل ، كل حيوية ، واندهاع ، الحيوية تتفتح ، والنشاط والانفعال يدبان فى ، كائنى أنتزع الحب من جولى ، كائنى اعتصر اللذة منى .. إنه شيء فوق الحياة ، فوق هذه الدنيا كلها ، لا أستطيع أن أقارن به أى شيء وقع لى فى أيامى الماضية .. الآن .. أنا أعرف .. أنهم .. أحسن .. أهيش ... رأيتها تبسم ، فامتلات ثقة بنفسى ، كنت سعيداً ، كائنى حصلت على كل ما أتمناه ، لا أريد أكثر من هذا ، لا يهمنى سوى ابتسامتها .

- همست وعينها مسبلتان :

- يتحببنى ..

- قلت صادقاً :

- يا حبك .. يا حبك .

- الدموع فى عيني سامية هى الحقيقة ، هى الشيء غير الرائف ، الجسد

الجميل الذي يؤويني ، الذي يتجرد من كل قناع .. من لجلي .. ماذا بهم لن
هذا الحسد قد عرف آخرين ، إنهم لا يعرفون قيمته ، لا يقدرّون معناه ، لنا
وحدى الذي أعرف قيمة ما أخذت ، حبى لها هو الذى سيرفعها فوق ملغضها
سيجعل منها سيدتى التى أموت من أحلها .

إنى أتشبه بك يا سامية ، كنت على وشك الغرق ، كنت وحيداً فى عالم
التعالب ، لا أحد يقف معى ، كنت أقاتل والفزع يطاردنى ناجى .. شهيدى
ياشاً .. سعد عبد الجواد .. أمى .. مبروكة .. ما هذا الجنون .. حياة معقدة
تأهية ورطقتى فى شراكها أنت وحدك التى رفضت بأن تكون لى ، لن أفرط فى
حبى لك .. حبك قادر على أن يبقينى ، قبل أن أصل إلى القاع ..

نسيت أننا على سرير محمد ناجى ، طردت من خاطرى أنها قد نالت على
نفس هذا السرير من قبل ، وثرثنا حتى الصباح ..

روت لى كل شيء عن حياتها ، أبوها الذى طلق أمها ثم انتحر فى طنطا ..
عشت معها حياتها من جديد ، ندمت على كل لحظة فاتت من حياتها وهى بعيدة
عنى ، وروت لى قصتها مع ناجى :

.. أنا كنت بأكله على أنى واحدة متجوزة .. ما كاننى يعرف أنا مين ..
كنت محتارة .. يمكن فكرت فى أنى أعمل علاقة معاه .. لكن كنت
متريدة .. خفت .. واللى خوفنى أكثر أنور سامى .. حسيت أنى بأصعب ..
وكنيت شفكتك .. وحييتك .. تعرف .. أنا رحت مع أنور فى شفته .. حاول
معاي .. ما أقدرش .. كنت ح أموت .. ومن ساعتها وهو بيكرهنى .. شافنى
مرة فى الاستوديو بهدلى وشتمنى ولم الناس على .. كنت عايزة أقولك ..
انكسفت .. كلمت محمد ناجى وقلت له اللى حصل .

وكنيت عن الكلام ، وارتفع صوت تنهيدة عميقة ، فقلت فى ألم :

.. موش ضرورى تحكى الكلام ده ..

قالت ببساطة محيرة .

.. لا .. أنا عايزة أقولك كل حاجة .. لسه فيه حاجات كتير .. وضحكت
قائلة .

.. كويس ان الأرضة ضلعة . لو كانت مور ماكنتش ح أعرف اتكلم
وعانقتنى وقالت فى إصرار حنون .
.. أنا يا حبيبك .. حقيقى أنا يا حبيبك ..

ثم هعست

.. بعس أنا ظلمتك .

ابتسمت .

قال فى بطله

.. أنا عارفة مين اللى كنت بتحبتها .. اسمها مبروكة .. موش كده ..
دارت رأسى .. فتحت فمى لأنكرت سدىته بيدها ..

.. اسمعنى الأول دى واحدة كانت بتشتغل عندكم وأنت حبتها واتجوزت
والدك وفضلت تحبها .. قلت بصوت المذنب .

.. مين اللى قالك الكلام ده ؟

.. اهو سمعته وخلص ..

.. مين .. لازم أعرف .

.. موش ضرورى .. بس هو صحيح ..

كان النفس على طرف لسانى ، لولا خاطر غريب طاف برأسى ، لو قلت لها
أنى لم أعرف مبروكة ، فكاننى اعترف لها بأنى بلا خبرة مع النساء ، أنا فى
حاجة إلى أن أؤكد لها أنى عرفت النساء ، هذا هو ما أشعر به الآن ، لن
أستطيع أن أخبرها بالحقيقة ، إنها ستهدم ثقفتها بى ، الأفضل أن أكذب
عليها ..

.. أبوه دى المصيبة اللى فى حياتى .. مبروكة دى كانت خدامة عندنا .. وابت
عارفة .. كنت ولد مراهق .. وخدامة حلوة .. وبعدين لقيت أبويا مهتم بيها ..

وعايز يتجوزها .. كنت ح اتحنن .. خفت أقولله يصمم على أنه يتجوزها
برضه .. راجل عجز فوق الستين .. ما حدش يحرف إيه اللى بيدور فى رأسه ..
نهايته .. اتجوزها وسبت البيت ..

ليقتنى استطيع أن أباذلها الصدق .. ليتنى استطيع أن أكشفها بحقيقة
نفسى .. ربما فطنت تلك يوماً ما .. ولكنى الآن ، أضعف من أن أعترف لها
بضعفى .. لا يمكننى أن أواجهها بسداحتى ، بأنها أول امرأة عرفتني .
بأنى أكذب وأرسم لحياتى صورة يشعة ، من أجل أن تصدقنى .. من أجل أن
تتقبنى ..



عشرت سامية على شقة صغيرة من حجرتين ، كان لها شرفة تطل على سينما
بارادى ، استأجرت الشقة في الحال ، كنت حائفاً من وكيل صاحب العمارة
وأنا أوقع العقد ، سألنى هل سأسكن وحدى ، قلت له ضاحكاً إنى استعد
للزواج ، خدعته ضحكى ، علم يشك في نواياى ، وتمنى لى زواجا سعيدا .
أخذت سامية كل ما معى من نقود ، واشترت سريراً معدنياً ومرتباً ، وكنا
نقضى ليالينا جالسين على المرتبة في الشقة نتفرج على الأفلام ، ونأكل
السادوييتشات ، ونفثه في الحب .

كانت الشقة سرا لا يعرفه أحد . كأنها مخبأ يخفين عن الدنيا لنظم ، ثم
نفق من أحلامنا ، فتذهب هى إلى دنياها ، بيتها والاستديو ، وأعود أنا إلى
دنياى ، المنسيون وجريدة الأيام .
كانت سامية تفكر في تأثيث الشقة بسرعة .

- لازم تمسبب المنسيون وتعيش هنا

- حاضر يا حبيبتي

- أنا موش عاجبني الشقة تبقى فاصية .. دى بيتنا

كانت تقف في الشقة الحالية ، وتشير بإصبعها .

هنا كنية ستوديو وهنا محضدة موقها راديو وبيك آب . علشان فرقص .
وترقص مخمضة العينين ، وتفتح عينيها ، فتراسى وقع أقدامها فتفتح
ذراعيها ، وتطوقنى ووجهها يفيض بالشر

- وشفتها بعد كده ١٩

- أبدأ

- صحيح والا تكذب ؟

- بشرى ما شفتهاش

ضحكت قائلة

أنا مصدقك

كانت ضحكاتها مربية ..

فسألتها .

- طيب ومصدقانى إزاي ..

- علشان نوبة سألت عليك في التليفون .. محمد التليفونست قال أنت
موش موجود . وبعدين لما كلمته تانى وقلت له أنا سامية .. وصلنى بيك ..
عرفت أنك موش عايز تكلم مبروكة .

- ده صحيح ..

- شفت بأه أنا شاطرة إزاي .. بس أنا ظلمتك ..

- لا ظلمتيني ولا حاجة ..

- لا .. أنا ظلمتك .. أنا قلت ل محمد ناجى حكايك ..

- أنت اللي ظلمته ..

قالت في خوف :

- ماترعلش منى .. قبلتها ..

- مستحيل أزعل منك ..

فتحدثت قائلة

- أهو أنا دلوقت استريحتي .. خلاص ما فيش حاجة مخيياها عنك ..

صدقته ، وشعرت مثلها بالراحة ، وبالحجل من نفسى ، نعم إنها اشرف

مما كنت أتصور . أنا واثق من صدقها .. لم تكذب في كلمة واحدة مما قالت ..

وتهلل

- يا حبك

أعطيتها أول الشهر كل مرتبة أممكت بالنقود ، وعددها ، ثلاثة وستين جديها وسألتني وهي تصعها في حقيبتها .

- الماقي مين ؟

- دفعت حساب اليوميه

- أن رايحه اشوف المجار .. ح أخليه يعمل اوضة النوم الأول .

وضجكت قائلة

- لما تتجوز ح تبقى كده ؟

ولوحت بالحقيبة التي وضعت فيها النقود .

أجبتها بدون تفكير :

- طبعاً يا حبيبتي

دقت فكرة الزواج من سامية في رأسي ، ولم أجدها غريبة عني ، إنها ليست أغرب من استنجاري لشقة ، ليست أغرب من حبلي لها وعلاقتي بها ، من كان يصدق أن هذا سوف يحدث لي ، لقد تغيرت ولم أعد أخاف من شيء ، نعم سأتزوجها ، وسأرفع رأسي في مواجهة كل الذين عرفتهم قبلي ، لقد تغيرت ولم أعد أخاف من شيء ، نعم سأتزوجها ، وسأرفع رأسي في مواجهة كل الذين عرفتهم قبلي ، لقد تغيرت سامية ، لم تعد سامية التي عرفوها ، سأتحدي الجميع ، سأصرخ بملء فمي وسط ميدان الإسماعيلية ، هذه هي سامية حبيبتي .. زوجتي

كانت علاقتي بمحمد ناجي تتطور في ذلك الوقت إلى شيء غامض ، علاقة لرجة مربية .

لم يعترض علي ما أكتبه في السياسة ، ولم يحتك بي في عمل ، ولكني كنت أشعر بفتوره ، وأمه يترخص بي ، أما أنا فمحصيت في تمثيل دوري ، أتلأهز بالبراءة والسذاجة ، وأتلقى مطراته التي تعطن أنه لم يعد يصدق براءتي ولا سداجتي .

- ٣٣٤ -

فكرت في الاعتراف له بأنني سأتزوج سامية ، كان لي أكثر من دافع إلى هذا الاعتراف ، لعل كنت أريد إقناعه بأنني مارلت ساذجاً حتى أقدم على مثل هذا الزواج ، لعل كنت أريد أن اتحداه ، لعل أريد أن أستمع إلى نصائحه . لست أدري لماذا فكرت في الاعتراف له ، ولكنني ذهبت إليه واعترفت فاجأه كلامي ، فارتبك ، وظهرت الحيرة عليه .

- يوسف .. مستقبلك يا ابني .. أنا عايرك ما تفكرش في حاجة غير مستقبلك .

- يا حبيها .

- البنت دي موش بقاعة جواز .. أنا أكبر منك ومريت بتجارب كثير .

- لازم اتجوزها ..

- ليه ؟ مافيش حاجة اسمها لازم .

- علشان احترم نفسي .

سألني في قلق :

- حصل حاجة ؟ ما تخافش .. أنا أعرف دكتور صاحبي .

وابتسم ..

- ما حصلش غير إنني يا حبيها ..

رفع صوته .

- أنت اتجننت .. ملدام مافيش حاجة يبقى تتجوزها ليه . دي ماشية مع

نص البلد .. عارف حكايتها مع أنور ؟

قلت منفملاً

- أنا موش مصدق الكلام ده .

ابتسم ابتسامة حزينة

- ماتبقاش عيبط .

- أنا يا حبيها . مشيت مع أسور مشيت مع البلد كلها يا حبيها

وح اتجوزها .. كل اللي يهمني أنها بتحبي .. ماصيها ماليش دعوه بيه .

تغير صوته ، ضاع منه الأسى ونحو إلى صوت حار أمر

- أنا محرج .. لكن لارم نصارحك البنت دى أنا عرفتھا قبلك .. صحيح
 ماحصلش بيضا حاجة . بس موش بسببھا .. بسببى أنا . أنا اللي رفضت .
 قلت لها أنا موش عيل صغير
 لم اصدق حرفاً واحداً مما يقول ، ولكنه فسر صمتى بانى تراجعت
 - أنا خايف تكون بتحرقى وراك علشان تغيطنى أنا .
 الحقير . المعزور . صعد الدم إلى رأسى ، وجمعت الشتائم عند طرف
 لسانى ، كدت أبكى من العيظ فخرجت من حجرتہ قبل أن افتح فمى .
 كرهته . وكرهت نفسى . وكرهت سامية .
 فى المساء كنت أسعى إلى لقائھا
 وسألنى شھدى باشا
 - أنت ح تتجوز ؟
 أحببت ساخرا
 - وده معقول يا باشا ؟
 كيف لم أجسر على الاعتراف بما أفكر فيه ، هل أنا خائف منه ، أم خائف
 من نفسى ؟
 قال راضيا
 - افكرتك ح تعمبھا !
 - لا يا باشا
 هز رأسه فى اطمئنان وقال :
 - محمد بيشتنم عليك
 وحدث فى وجهى ثم قال
 - الطاهر إلك خدثھا فعلاً منه
 - هو زعلان ؟
 سألته وأما أعحب لحالى ، أكلمه وكأنى شخص آخر ، لا صلة له بيوسف
 الذى يحب سامية

- موش بيقول إنه زعلان من الفصل ده . إنما معالاتك موش عاجباه .
 - له حق .
 قال بصوت قاطع لا يقبل المناقشة
 - بس موش معنى كده أنك تحطل .. أنا عايرك تكتب فى السياسة كل يوم .
 ولاحظ دهشتى فقال وعيابه تحديقان فى مصاء الحجرة
 - ح بيحبى وقت قريب وأعورك .
 بعد يومين طلبنى شھدى باشا .
 وقال بصوت حزين
 - أنا ح اعتمد عليك .
 ولزم الصمت كأنه يراجع نفسه للمرة الأخيرة ، قبل أن يقرر ما يريد أن
 يقوله ، كانت أعصابى مشدودة ، ودقات قلبى عالية ، والهدوء فى الحجرة
 يسد أنفى .
 - شوف .. أنا عاير أفهمك اللي ح تعمطه .. لكن أنا متردد فى نفس الوقت
 إيه رأيك ؟
 - الراى رأيك يا سعادة الباشا .
 رفع صوته فى عصبية
 - كان ممكن أقول لك اعمل كيت .. وكيت .. وتنفذ من غيراى شرح أو تفسير
 منى .. لكن دى موش طريقتى .. أنا أحب اللي يعمل حاجة .. يعملھا وهو
 فاهمھا .. علشان يعرف يعملھا كويس .
 حاولت أن أقول شيئاً . وقفت الكلمات فى حلقى .
 - بصراحة أنا موش بأتق فى محمد دھى .
 وضحك ضحكة قصيرة ، ومضى يقول
 - موش ضرورى الواحد يثق فى اللي بيشتغل معاهم . الدنيا كده .. محمد
 ناجى راجل كبير . ومشهور . ومهم . وله أطماعه ومصالحه الخاصة
 بيه .. يمكن يقدر يستفيد من غيرى زى ما يستفيد محى .
 ورفع أصبعه وصوته إلى كأنه يطلق كلماته من مسدس .

وأنت كمان لما تكورتقى زى محمد ناجى

فتحت فمى لأعترض . ولكنه سقنى مقاطعا فى حدة .

.. ما تعوش لأ .. انا واثق أنك ح تقف معاليا . وح تخلص لى . لكن
علشان ده فى مصالحك .. علشان ح تستعيد . علشان أنا أقدر أعملك نائب
رئيس تحرير .. ورئيس تحرير .

استسم ، وقب كفيه

.. وبعد كده .. يمكن الوضع يتغير . نقى تدور على مصالحك عند حد تانى
غيرى ..

وخبط بقبضة يده على ركبته وقال

.. المهم .. أنت عارف أن إحنا بنأيد السعديين .. من أسبوع أنا كلمت
محمد ناجى وقلت له يستعد للهجوم عليهم .. واديت حاجات ضد سعيد ..
وزير الأشغال

سكت ، وجعل يتأملنى ، باحثا فى وجهى عن تأثير كلماته ، ثم قال كأنه
يخاطب نفسه

.. بكره انصيح ح تقرا مقال لمحمد ناجى ضد سعيد باشا .. تراجع
بظهرى إلى الوراء . كانت دهشتى شديدة .

لهمت :

.. موش معقول .

صاح شهيدى باشا .

.. الى موش معقول إن سعيد باشا عارف أن فيه مقالات ضده بكرة ..
وعارف إنى وراها .. محمد ناجى راح وقاله .. واعتذر له .. وخد موافقة
كمان .. قاله إنه معذور ما يقدرش يخالف أوامرى .. محمد فاكرك نفسه
ميه . عايز يكسب الجميع .. يكسب السعديين .. ويكسب الوفديين ..
ويكسب الملاوى انزرق .. ويكسبنى أنا كمان .

الشراسة فى عييه وحول شففيه ، والافتراس فى أسنانه وصوته .

رفع رأسه وقال فى لهجة أمرة سريعة :

.. أنا عايزك تتخانى مع محمد .

.. اتخانى !

زار :

.. اتخانى .. اشتمة .. خلى كل واحد فى الجرنال يعرف أنك شتعت .
خيل إني أنه فقد عقله ، خفت أن أنافضه ، فهمست مدعنا .

.. حاصر

.. أنا ح أعتمد عليك .. وح تكون مسئول أمامى عن الجرنال .

.. حاضر .

قال بلهجته السريعة الأمرة :

.. وموش عايزك تتأثر بأصحابك الى معاك .

.. صحابى .

.. الولد الشيوعى .. الرسام

.. ده موش صاحبى ..

صاح .

.. أنا عارف كل حاجة .. إذا ما كنتش عايز ترفده .. اعتبر نفسك مسئول
عنه .

قلت فى دعر

.. موش عايز أرفده ليه ؟

قال فى قحة

.. علشاك قريبتك .

قلت بصوت مختنق

.. ماليش دعوه بيهم

قال فى ضيق بإجابتى

.. طيب .. طيب

.. وغادرت مكتبه ذاهلا .

ما أسهل الوصول . ما أغرب الوصول . كل ما هو مطلوب منى هو أن
أقتحم مكتب محمد ناجى وأستمع بأعلى صوتى ، وأدوسه بقدمى . أظهر أمام
المحررين بأننى شجاع وحرىء ، وصاحب تفوذ . أهذا ممكن ؟ مستحيل
لا فرق بينى وبين أى قاتل محترف يستأجرونه للقتل .
ما الذى يعده شهيدى باشا لمحمد ناجى ؟ يريد أن يزله .. يريد أن ينتقم
منه وأما السلاح .. أنا مخلب القط
هل اجرا ؟

هل أستطيع أن أتخلى عن هذه المهمة ؟ سيفتك بى شهيدى باشا . لا مفر .
لا بد أن أفعلها . لا مفر .

ستفرح سامية عندما تعلم أنى وصلت إلى منصب كبير ، النقود ستعلا
جيبى . سأتزوجها وتقضى شهر العسل فى أوروبا . سأنتصر أمامها على محمد
ناجى . سأبدو أمامها بطلاً كبيراً .

أنا مازلت صغير السن لم أبلغ الثلاثين بعد ، أستطيع الانتظار ، أستطيع
أن أبحث عن عمل آخر وأبدأ حياتى من جديد .

لن أفعلها . سأفقد احترامى لنفسى . سأفقدته إلى الأبد . سأعيش فى
أكذوبة . هذا ليس انتصاراً . إنه هزيمة . صفقة أبيع فيها نفسى حتى
يوفسنى شهيدى باشا يوماً ما مثلما يفعل الآن مع محمد ناجى .

لا . لست حقيراً إلى هذا الحد . أقتل ناجى ؟ أقتل شوقى ؟ أقتل نفسى ؟
لا . مستحيل .

لن أذهب إلى الجريدة . سأقدم استقالتى وأبحث عن عمل آخر
كان رأسى يغلى ، النقاش لا يهدأ فى داخلى ، حتى حسمت سامية ترددى
محمد ناجى كلمنى فى التليفون .

عايز إيه ؟

عايز يشوفنى .

يشوفك ؟

- إدانى ميعاد فى شارع ماسبيرو
- امتى ؟
- دلوقت .. دلوقت هوه مستينى هناك .
- الراجل ده اتجنن .
- انت مخبي عنى حاجة ؟
- صرخت كالمجنون
- بلاش كلام فوضى .. ده شخص مراهق متساليش فيه
- أمل بيقول إن مستقبلك فى خطر ليه .
- متصدقيش . متصدقيش .. بيعاكسك .. ماميش أكثر من كده .

كنت أفكر بسرعة مغيرة . سأذهب إليه وأستمع . لن أتردد . قد أكون
ذاهباً لأنى أذعنت لأوامر شهيدى باشا . لأنى سافل . لأنى سأقبض الثمن .
قد أكون ذاهباً لأدافع عن حبنى . لأنه اتصل بسامية وأراد مقابلتها فى شقة
ماسبيرو . ولكن ، ما هو الشئ الخطير الذى يتهدد مستقبلى . أيعرف محمد
ناجى شيئاً مما دار بينى وبين شهيدى باشا ؟ سأستدرجه قبل أن أهاجمه .
قابلنى فى مكتبه باسم متهللاً . الوغد . لم أتمالك أعصابى والتهبت
رأسى :

- كنت فى الساعة الخامسة يا أستاذ ناجى ؟

وضحكت كأنى أتأوه من الألم

- كنت فى البيت

قلت متفعلاً :

- تقدر تقوللى إيه الشئ الخطير اللى بيهدد مستقبلى ؟

قال فى برود ، وجهه يشحب

- موش قاهم حاجة .

قلت وأنا لرتجف .

- انت كلمت سامية فى التليفون ؟

اجعلت عيانه ، وقال بصوت خميض :

- أيوه .

صرخت

- وقلت لها تيجي تقابلك ؟

ابتسم ابتسامة حقيرة ، وشد قامته ، وبذل مجهودا كبيرا ليحتفظ بهدوء

وجهه :

- هيه قالت لك حاجة ؟

- قلت لي كل حاجة .

قال في استخفاف :

- الظاهر حصل سوء تفاهم .

هتف :

- اليس حصل إننى عرفتك على حقيقتك .

قال في برود :

- تسمح تهدى نفسك ؟

قلت وأنا أضغط على أسناني :

- أنت حقير .

رفع حاجبيه واختلج وجهه

رفعت صوتي :

- حقير . حقير .

أنت جرى في عقلك إيه ؟؟

- اسمع .. أنا عايز أقولك في وشك رأيي بصراحة .. أنت حيان .. وسافل ..

أستفرض فجأة من ذهوله ، بهض بقامته المديدة وقد أصغروا وجهه وخرج من

فمه صوت كالقصح

- اطلع بره

- أنت اللي تطلع بره

اتفضل استقيل

- أنت اللي تستقيل يامجرم .

صرخ :

- أنت مطرود .

هجمت على مكتبه ، أدق عليه مكلتا يدي

- أنا اللي ح لطردك .. ياكلب .

كان يلهث ، جسده يهتز ، امتدت يده المرتعشة إلى الأجراس تضغط

عليها . دخل الساعى ، ودخل معه آخرون لم أثنين وحوهم . وجذبتني

، لايدى . وارتفع الصباح ، وأنا أردد محموما :

- يامجرم .. يامجرم ..

بعد نصف ساعة ، كان يطرق بابى ، ويطل بوجهه ، ثم يتقدم ذليلا ،

معنى الرأس ، ويجلس على مقعد أمامى ، ويضع رأسه بين كفيه ، ثم يرفع

رأسه ويبتسم ، وقال في هدوء :

- أنا غلطان يا ابنى .. باعتذرلك .. شهدى باشا أمرنى أعينك نائب رئيس

تحرير .. وأنا وافقته .. ورفعنا مرتبك لمائة وعشرين جنيهاً .

الفصل العاشر

أصبحت المسيطر الأمر في جريدة الأيام ، والتف المحررون من حولي
ينافقونني ، وكان محمد ناجي هو أول المنافقين ، يلقاني بابتسامة واسعة
تزعجني ، ويمتدحني ، ويستشيرني في كل تصرفاته ، ويطلب مني مراجعة
مقالاته ، حتى أيقنت أنه يرسم خطة بعيدة المدى للقضاء عليّ ، ويتراقب في
صبر وأناة الفرصة التي يثب فيها ، بعد أن يخذلني بنعمته واستسلامه
ويلدغني ..

كان شوقي هو الوحيد الذي رفض أن يرضخ لي ، إنه لم ينس أبداً أنه كان
السبب في دخولي جريدة الأيام ، لظل يعاملني وكأنني ما زلت يوسف الضعيف
الذي لا حول له ولا قوة ..

كان يلقاني أحيانا في أحد ممرات البناء ، فيتعهد أن يصبح بصوت
مسموع وقع

- إزيك يا يوسف ..
- فأتبسم متوبدا ، وأمضي في طريقي ، فيصرخ ..
- يا أخى ما تقف وتكلمني ..
- بس أنا مشغول يا شوقي .. عدي اجتماع ..
- فيه تف ساخراً ..
- أوعى تكون صدقت أنك بقيت راجل مهم ..



- أندا

- أنت غلدار .. وصعبان على .. يا شيخ سييك من القنزحة دى فانتظار
بالايتسام ، وأقر مستعدا .

وكانت أخبار شوقى تصلنى ، فتزيدنى قلقا ، إنه يشتم شهدى باشا ،
ويتشدد بكلمات شيوعية .

المجون ، إنه يهيه أحمد باحى العرجة التى ينتظره لينقض على ..
ودعائى المحررون إلى محل أقاموه فى بيت أحد الفنانين بالقلعة ، فقبلت ،
أردت أن أقابل شوقى فى الحفل ، وأتحدث معه على انفراد ليأخذ حذره ،
ويريحنى .

وعلمت سامية أنى سأقضى ليلتى بعيدا عنها ، فصممت على المجىء معى ،
ولم أستطع رفض طلبها ، وذهبتا معا إلى القلعة ، هانقضى عليها شوقى
وجذبها من يدها إلى سطح البيت ، ترددت كثيراً قبل أن أسمع وراءها .
وهو جئت بأن شوقى لم يتخل عن وقاحته أمامها فشتعننى ، وقال لها إنى بعث
نفسى لشهدى باشا ..

صبرت بضعة أيام ، ثم ناديت شوقى فى مكتبى ، وحاولت أن أشرح له
خطورة موقفه ، فثار وغضب ، واحترت ، هل أدفع عن نفسى وأشى به عند
شهدى باشا قبل أن يشي بنا محمد ناجى ، ربما كان هذا هو أفضل حل ،
ما أسهل أن أرفع سماعة التليفون ، وبعد دقائق يقتحم الشرطة مكتب شوقى
ويقبضون عليه ، لو ترددت فسيشك شهدى باشا فى أمرى ، إنه على استعداد
للقضاء على حتى ولو كنت أبه ، لو ارتأيت فى أنى أحمى أحد الشيوعيين ..

مضت بى لحظات قاسية ، وأنا أفكر فيما سببته لسعد عبد الجواد وفى
المصير الذى انتهت إليه ، إنى أحطم أصدقائى واحداً بعد الآخر أتحوّل إلى
إنسان مقترس لا يكثر بشيء . ولكن شوقى يعول مبروكة ويعول أخى
إبراهيم ، ترى ماذا يحدث لهما لو قبض الشرطة على شوقى ، ستلجأ مبروكة
إلى وتضايقنى من جديد ..

قبل أن أنتهى إلى قرار ، هوجئت بشوقى يقتحم مكتبى ، ويعتذر لى عن

ثورته . ويعلم فى ذلة أنه سيتخلى عن الشيوعية . فرحت بتراجعها ، ولكنى
شعرت فى نفس الوقت إنى قتلته ، ما أبشع مطر الضحية أمام قاتلها ، كم
كنت أتعنى لو يبقى شوقى كما كان ، ذلك العبد الذى لا يتراجع ولا يفقد
شجاعته ، كم كنت أتمنى ألا يتفرق الشر الذى فى نفسى إلى شوقى ، ويفسد هو
كما أفسد أنا ولكن هامو يتدل ، وهاندا اتخلص من ورطتى ، ولكنى غير
مستريح ..

فى تلك الأيام ، كان حبنى لسامية يتحول إلى عادة مريضة ، كانت أيامى
مستقرة منتظمة ، أعمل وأحب ولا أفكر فى الأيام المقبلة ، لأنى مشغول
بأيامى الحاضرة ، حتى كانت ليلة ممطرة ، وأنا وسامية فى الشقة ، كنت
مجهداً ، أتناوب ، أقوم النوم ، وأحس بالجوع ، ورأسى فوق حجرها ، والمطر
ينساقط فى الخارج ، فأشعر بالطمأنينة والدفع ، وسامية تثرثر فاستمع
إليها فى كسل ، حتى وجدتني أتحدث معها فجأة عن الزواج ، وبكلمات سريعة
وصلنا إلى الحديث عن الخطوات العملية التى يجب أن أتخذها ، وانتبهت
اتناء الحديث إلى أنى اندفعت فى شيء خطير ، ولكنى لم أخف ، بل على العكس
رحبت باندفاعى ، كأنى وجدت شيئاً مثيراً مسلياً ، يفرجنى من كسل وملل ،
ولاحظت لدهشتى أنى أتمادى فى الحديث عن الزواج حتى أنى طلبت منها أن
تحدد لى موعداً لزيارة أمها ..

صدقتنى سامية ، وكانت منفعلة ، لماذا لا تصدقنى ، ولماذا لا أتزوجها ..
ما الذى أخشاه الآن ، إن معى النقود ، ومستقبلى مفتوح ، وسامية تريد
الزواج منى ، فلأقدم لها نفسى ، سامنها حبنى . وسأجعلها تعيش حياة
باهرة ، سأرى فى عينيها مظاهرات الامتنان والحب ، فأنسى ما أراه فى داخل من
بشاعة طارئة ، سأغسل الشر الحديد الذى اكتسبته ، بأن أكون زوجاً مثالياً
لسامية ..

وزيت بيت سامية ، قابلتنى أمها ، سيدة غريبة .. أصابها مصفرة من
تدخين السجائر ، صوتها مسحوح وعيدها جريئتان ، تتظاهر بالعظمة فى بيت
فقير ، كانت تتحدث كممثلة وتتكلم عن باشوات ماتوا ، وتروى قصصاً عن

عائلات قديمة ، تريد أن تخدعنى بانتسابها إلى أصل عريق ، لم استرح لها ،
وسخرت منها بينى وبين نفسى ، وعندما سألتنى في غيابة عن عائلتى ، كنت
اتحداها وأسألها عن عائلتها هى ، ولكنى عدلت عن مهاجمتها ، وفضلت أن
أمثل دور الشاب الخجول الطيب ، لم أشأ ازعاج سامية ، إنى اعلم أنها
لا تطبق الحياة في هذا البيت وساقيل راضيا أن أقوم بدور الفارس النبيل
الذى يخلص حبيبته من المكان الذى تتعذب فيه ..

بعد انتهاء الزيارة ، سألتنى عن شعورى ، فواصلت تمثيل دور الصاذج
الطيب ، وقلت لها إنى كنت خائفاً من رفض أمها ، بدا أنها مستريحة
لكلامى ، كانت المسكينة تضحى أن أقول كلاماً سيئاً عن أمها .

وحددنا موعد الزواج يوم الخميس المقبل ، واشغلت سامية بالأعداد لهذا
اليوم ، ونسيت الحب ، والعواطف التى نتبادلها ، ولم تعد نتكلم إلا عن البيت
والفساتين ، وترسم خططا للمستقبل ، ولا تقضى معى أكثر من دقائق ، ثم
تنظر في ساعتها ، وتجرى لاهثة إلى الشارع لتشتري شيئاً من دكان ..

كنت أستمع إليها ، وكأنها تتحدث عن زواجها من شخص آخر وأعجب من
أنهما كها وانفعالاتها ، ثم أتركها وأنفوس في عمل ، وقد أنذكر أثناء عملى إنى
سأصبح زوجاً بعد أيام ، فادهش ، وتقفز إلى راسى صورة شهيدى باشا ، ترى
ماذا يكون رأيه لو علم بما أن مقبل عليه ، ثم أدع التفكير وأعود إلى عملى ..
ولكن تفكيرى في رأى شهيدى باشا الح على ، فلم أجد مفرأ من الاتصال به ،
وذهبت إليه في مكتبه .

قلت وأنا أبتسم محاولاً أن أصوره له الأمر على أنه شيء عادى :

- الظاهر يا باشا إنى ح أعملها وأتجوز بكرة ..

فتجهم وسألنى بصوت حاد :

- إيه الكلام ده ..

- معلش يا باشا ..

- وح تتجوز مين .

- سامية ..

صاح متفجراً ..

- أهوده اللى كنت عامل حسابيه

- أما يا حبها .

- هز رأسه بعنف ، وقال غامصاً ..

- ماقيش فليدة .. كل ما أنور على واحد فيه أمل .. يطلع فيه عيب ..

- سعادتك زعلان من إيه ..

قال في لهجة يائسة :

- موش زعلان ولا حاجة .. روح اتجوزف ..

ثم رفع صوته متحدياً

- بس أعرف كويس إن ده ح يكون له تأثير كبير على مستقبلك .

انقبض قلبى وقلت واجفاً

- تأثير إيه ..

قال مؤكداً :

- خطير .. خطير ..

- وإيه دخل سامية بعمل ..

صاح :

- السمعة .. المركز الادبى .. كل حاجة ..

قلت محتجاً

- أنا بتجوز .. يعنى بأعمل حاجة صح ..

هتف ..

- لا يا ابنى .. أنت غلطان .. ده موش صح .. الصبح انك تعرفها من غير

جواز .. تجفى شاطر .. إما تتجوزها وتنقى مراتك وأم اولادك قدام الناس

وتأخذ اسمك . ده اللى موش صح ده اسمه عبط اسمح لى أنا زى

والدك ، ولازم أصارك ..

ترى ما الذى كان يقوله والذى لو كان حياً ، لا أظن أنه كان يعترض بعد

زواجه من مبروكة ، هجمت الكلمات على لسانى .. أريد أن أقول له إن أبى كان

يوافق على هذا الزواج ، ولكنى لم أجسر ، أبى تزوج خادمة ، وأنا أتزوج معنلة
مبتدئة ، فتاة سيئة السمعة ..

وأمسك شهدي باشا بسماعة التليفون .. وهاجتني بأن طلب محمد
ناجى

- ح تقولك إيه يا باشا

قال و ضيق

- ح أقولك يحاول يمسك من ارتكاب غلطة العمر .

ضحكت بالرغم منى ..

- موش كنت تكلمه من ورايا ..

قال هادئاً :

- ح كلمه من وراك ليه .. أنا اتعودت اللعب معاك على المكشوف .

ودق جرس التليفون ، فرفع السماعه ، وانطلق هادراً ..

- يا محمد .. الولد يوسف اتجنن .. عايز يتجوز الكومبارس .. أيوه أنا

هددته .. قلت له إنه لو عمل حاجة زى كده ح يضيع مستقبله .. ووح تبقى

غلطة العمر .. فكر معاليا .. لا .. أنا عايزك تشوف طريقة نهوش بيها

المصيبة دى .. تفكر ما فيش فائدة من التهديد .. خسارة .. على العموم

أنا قلت له يفرط عليك .. فكر لحد ما يجيلك .. وأبقى قوللى عملت معاه إيه

ثم صاح ضاحكاً :

- لا يا محمد .. بلاش دى ..

ووضع السماعه . وهو يهقه سألته ..

- إيه اللي ملاش ..

استمر يضحك ثم قال

عايز يروح يكلم سامية ..

الوغد ..

اندفع الدم إلى رأسى وصحت متحدياً

- لو عمل كده .. ح لتحوزها واستقيل ..

قال بصوت كالفرح :

- شفت .. أول ما فكرت فى الجواز بدبت تفكر فى الاستقالة .. أنا عاير

أوفر عليك تجربة مرة فى حياتك . لسه مصمم .

قلت فى إصرار .

- أيوه .

وغادرت مكتبه وجسدى يرتجف ورأسى يصح بأصوات مضمومة .. تزوج

سامية . لا ، لا تكن مجنوناً .. شهدي باشا على حق ، أنت ترتكب غلطة

العمر ، الحب لا يدوم لا تضيع مستقبلك ، أنت تكرر نفس غلطة أبيك ، أه

يا أبى لقد أسأت إليك ، كنت قطعاً معك ، سأتزوج سامية مثلما تزوجت

مبروكة ، إني ابنك ، وسأرتكب نفس خطاك ، وأواجه الناس ، كما

واجهتني ، عندئذ سأكفر عن قسوتى معك ..

انتفض محمد ناجى وألفا ، ودار حول مكتبه ، وأسرع يقابلني فى منتصف

حجرتي .. كان قلقل ، وجلس إلى جوارى ، وسألنى فى أسى ..

- إيه اللي سمعته ده ..

- قصيدك كلام شهدي باشا ..

- أنت نويت خلاص .

- أيوه نويت ..

أطرق برأسه ، ثم قال وهو يحدق أمامه ، كالمخاطب نفسه

- طبعاً أنت عارف رأي الباشا .. وعارف أنه كلمني علشان أحاول معاك ..

همست :

- كنت معاه وهو بيكلمك ..

أبتسم .

- كده .. طيب انتهت معاه على إيه ..

- على أنى مصمم

رفع يده إلى ذقنه وحكها ، وفتح فمه ليتكلم ، ثم عدل عن الكلام ، ونهص

يصيح من علية سجانره ، قدم لى سيجارة .. اشعلها بصعوبة ، كانت يده ترتجف رجفة قوية ، لاحظت أن وجهه يشحب . وسألتى بصوت شارد :
- تفكر فيه حد ح يدخل علينا ؟

لم أفهم ماذا يعنيه ، وقام وفتح الباب الذى يفضى إلى حجرة سكرتيرته ، وطلب منها ألا تدخل أحدا ، ثم عاد إلى مكتبه وطلب من عامل التليفون أن يقطع كل مكالماته لأنه فى اجتماع هام . ووقف ذاهلاً ، خيل لى أنه قد جن .
وأخيراً عاد وجلس بجوارى وقال كالحائف :

- أنا موقفى غريب .. ومافيش أحسن من أنى أكلّمك بصراحة .. طبعاً أنت عارف الوضع اللى بيننا احنا الاثنين . أنت عايز نقعد وتبقى رئيس التحرير .. وشهدى باشا وراك .. عايز بعملك رئيس تحرير ..

كدت اعترض ، ولكن ما قيمة الاعتراض ، إنه يقول الحقيقة ، نعم ، شهدى باشا يدفعنى لأطرده من مكانه ، إن صراحتة ليست فى حاجة إلى تعليق ، لزمّت الصمت ، ومضى وهو يقول

- وطبعاً أنا من ناحيتى عايز أفضل مكانى .. بادافع عن نفسى ويمكن لو فكرت .. أقول لنفسى إن مافيش عندى فرصة أحسن من الفرصة دى .. أنك تتجوز سامية سامى .. بعد جوازك ح أقدر أطعنك .. أطعنك من ألف ناحية . يمكن حتى موش ح أحتاج أعمل أى شىء . شهدى باشا من نفسه ح يتخل عنك . ح يشوف إن الورقة اللى فى ايده اتحرقت . وفيه لحد ما يلاقى حد غيرك يضربنى بيه ..

كانت صراحتة مفاجئة ، أذهلتنى وشلت تفكيرى .. فسألت فى بلامه .

- هو عايز يضربك ليه ؟

انفجرت أساريه .. كأنه سمع كاملاً مضحكاً وقال :

- لسه موش عارف .

قلت صادقاً :

- لا ..

- أنت بتتعايبى يابوسف .

- كل اللى سمعته شائعات .

قال فى ثقة

- الشائعات اللى سمعتها صحيحة .. آيوه أنا على علاقة بشريا .. موش بس كده . شهدى نفسه عارف .. دخل علينا فى أوضة النوم . وشافنا .. إحنا كنا سفلة .. لدرجة أن مبقاش فيها حد محتاج لانه يخبى سفالته .. كلنا يلعب على المكشوف ..

لقد قال شهدى باشا نفس هذا الكلام ، إنه يلعب على المكشوف ..

قلت بلا وعى

- ده صحيح .

فهنف

- لكن مافيش حد ح ينتصر غير شهدى باشا .. هو اللى ح يوصل لى عايزه .. أنا ورقة لعب بيها واتحرقت .. لكن بأعزى نفس . انتقمّت ..

ضربته فى شرفه .. لما ييجى النهاردة ويحاربنى بأقول خالصين

وحدق فى وجهى وقال

- أنت إيه اللى يخليك تدخل فى لعبة لدرجة بالشكل ده ..

هسست

- أنا مادخلتش أنا لقيت نفسى فيها ..

هتف

- أبعد .. فكر فى اللى بتعمله .. افرض إنك نجحت .. افرض إنك قعدت على

مكتبى .. وبعدين ، ح يبقى معاك فلوس أكثر .. طيب كريس خالص ..

وبعدين .. ح يبقى لك نفوذ .. طيب .. وبعدين .. ولا حاجة .. ح تفتح عيذك

فى يوم وتلاقى أنك بقيت عبد .. عدد قليل لشهدى باشا .. خدام .. شعورك

ح يبقى نفس شعور السفرجى اللى فى بيت شهدى باشا .. يمكن السفرجى

حالته أحسن .. لأن دى شغلته .. إنما أنت بتتظاهر قدام الناس بأنك موش

خدام .. ح تشعرباحتقار قطع لنفسك .

أنا بأحس بالاحتقار ده دلوقت .

قال في أسى

- شوف أنا من مصلحتي أنك تعد . من مصلحتي إنك تتجوز سامية
علشان شهدي باشا يسيبك علشان احتفظ يشغلتي . الموطون الأول عند
سعادة المليونير الكبير لكن تعرف أنا بأقولك بكل إخلاص . إن مصلحتك
الشخصية تعرف إيه ؟

- إيه ؟

قلتها في لهفة وأنا على استعداد تام لتصديقه .

- إنك تتجوز سامية ..

- أتجوزها ..

- أيوه .. إذا كنت بتحبتها .. دي فرصة عمرك .. أنا ماكنش فيه حاجة
حقيقية في حياتي غير حبي للمرحومة دلال .. لو كانت راضية تتجوزني .. كنت
سبت كل ده . كان زمانى فقير يمكن .. موش مشهور يمكن .. موش ناجح
يمكن .. لكن كنت أبقي أسعد إنسان في الدنيا .

نعم .. إنه يقول الصديق .

وقال بصوت حنون فيه شجن

- يابوسف .. اللي بيحب .. مايفكرش كثير .. الحب ماميهش كرامة ..
ماميهش اهتمام برأى الناس .. الحب هو أنك تحب وبس

بلعت دموعي .. وأنا أذكر لقائى بسامية عند حوض السباحة بالنادي
الاهلى . سألتني عن الحب ، فقلت لها نفس هذا الكلام ، لقد تغيرت .. كيف
نسيت كلامي نسيت مشاعري ، أير ذهبت تلك الأيام انقطعت صلتى بها ..
لم اعد كما كنت ، انقطعت صلتى بنفسى .

- أما ح أتجوز سامية ..

مظر إني متفحصاً ثم قال .

- أنت متأكد ..

- أيوه متأكد .

- يعنى أبلغ للقرار ده لشهدي باشا ..

- أيوه .. بلفه ..

قال في حزن .

- أنا بأصعدك .. أنا بأتبعى لو كنت مكانك .. وإسه عندي فرصة زى
فرصتك .. ماكنتش وصلت لى أنا فيه دلوقت ..

وجريت إلى التليفون وكلمت سامية ..

قلت لها ملهوقاً

- لازم أشوفك يا حبيبتي ..

صاحت كمعلقة

- أنا مشغولة .. ورايا ستين حاجة ..

- لازم أشوفك ..

- ما احنا ح نشوف بعض بكرة

- موش قادر استنى لبكرة ..

لم يخطر بباليها ما أعانيه .. ربما ظنت أنى اتدلل في الوقت غير المناسب .
ولكنى كنت خائفاً من نفسى ، أود لو أتزوجها في الحال .. حتى أتخلص من
مخاوفي . وتواعدنا على اللقاء في المساء . في ساعات العصر بدأت الانتباه
تصل من سوريا . عن انقلاب عسكري قام به ضابط في الجيش السوري
اسمه حسنى الزعيم .. كنت مجتمعاً بمحررى قسم الأخبار لنتتبع أحداث
الانقلاب ولأوزع عليهم العمل قبل زهابى للقاء سامية

عندما اقتحم علينا الحجرة محمد ناجى . وانتفى به جانباً وهمس .

- أنا كلمت شهدي باشا وقلت له على قرارك .. بس رجع وكلمنى دلوقت .
وسكت ، وكأنه يجد صعوبة في مواصلة الكلام .. توقعت من منظره أن

شهدي باشا أمره بفصل . فدعرت وسألت

- كلمك يقول إيه ..

قال ببطء . عيناه مشدودتان إلى شعتي

- عايزك تصافر سوريا .

- امنى

- دلوقت حالاً

شعرت براحة مفاحنة ، إنه لم يفصلنى . بل هو يحاول محاولة أخيرة لمنع
رواحى ..

وهمس محمد ناجى :

- طبعاً موش ح تسافر

ترددت وفكرت فى السفر .. وفى الهرب من الزواج ، وأدرك محمد ناجى
ما أفكر فيه ، فظهر القلق فى عينيه . ونظر إلى متوسلاً ..

لو سافرت فمعنى ذلك أنى سامضى فى تنفيذ خطة شهاى باشا لن أتزوج
وسأطرده لاحتل مكانه . قلت فى هدوء غريب :

- أنا بأفكر أسافر ..

قال بصوت أجش وفى أدب شديد :

- حاضر .. أنا ح أعمل كل الترتيبات علشان تسافر فى الحال .

وتذكرت موعدى مع سامية .. فقلت فى برود القاتل المحترف .

- ح أسافر بكرة الصبح ..

لم يرد على ، استدار وانسحب وواصلت اجتماعى . وأعلنت المحررين
بسفرى ، وانفض الاجتماع وذهبت إلى الشقة أنتظر سامية ، ليس فى رأسى
أفكار ، ولا قلق ، ولا أى شيء . جاءت سامية تثرثر . إنها حائرة تريد دعوة
صديقاتها ، تندم لأنها لم تستعد لفرح كبير . ثم تعود وتقول إنها مرتاحة لأن
كل شيء سيتم فى هدوء ، استمعت بلا خجل ، ولا تأنيت ضمير . إنها تتحدث
عن زواجها من شخص آخر ، أنا لست يوسف الذى أحبها ، أنا يوسف آخر ،
أنا رئيس تحرير الأيام .. أنا صديق شهاى باشا .. أما المسافر وراء أحداث
سوريا ، دورى فى الحياة أخطر بكثير من هذا العبث الذى يتحدث عنه ..

- بتحبنى

- أيوه يا حبيبتي

- ح تدينى الحنان الى أنا عايزاه ..

- أنا معنديش غير حنان .

- تعرف أنا حبيتك ليه

- علشان أنا بأحبك .

قالت فى مرج :

- علشان أنا متأكدة أنك ح تدينى حنان .. وعلشان يوم ما قلت لى إن الحب
والحنان حاجة واحدة .

لم أهتمز لاعتراقها ، إنها مارلت تتحدث عن يوسف آخر عمري ..

واقترقنا .. وأنا لا أشعر أنى أخدعها أو أكذب عليها .. غدا سيقابلها

يوسف الآخر . ويتزوجها ويمنعها الحنان الذى تريدى .. أما أنا فسأمضى فى
طريقي .. سأركب الطائرة إلى دمشق .

تجاهلت همومي الخاصة وأنا أعص في دمشق ، قابلت حسنى الزعيم ، كان معجباً بنابليون . مزهواً ببذنة الماريشال المزرکشة ، والنياشين الكثيرة التي تزين صدره كان يتحدث وهو يرقص كطفل كبير ما أسهر أن يصبح الإنسان حاكماً وما أسهل أن ينجح ويصل إلى القمة ، قارنت بيني وبينه ، أنا أيضاً سآزهو في يوم قريب بجلوسى على مكتب محمد ناجى ، ستحمل الأيام اسمى ، وسأصبح أبرز أعلام الصحافة في مصر ، رغم ذلك أحس أن هناك خطأ ما .

ها هو حسنى الزعيم أمامى ، يتحدث معى ، وأسهر كلماته ، إنه الحاكم ، من المؤكد أنه الحاكم ولكنى أشعر أنه حاكم غير حقيقي . كأنه حاكم في قصة أو حلم
أحدث لي نفس الشيء ..

أجلس في حمرة محمد ناجى ، ومن حولي التليفونات والأزوار ، وأتحسس خشب المكتب بيدي . ثم يظل كل هذا وكأنه حلم ، هذا هو ما أخشاه ، نعم هناك خطأ ما ولكنى لن أراجع ، سأبقى في المغامرة حتى نهايتها ..

عدت من دمشق ومعى حديث مثير أدلى به حسنى الزعيم ، ومعى أخبار وتحقيقات صحفية ، هناك محمد ماحى ، وهناك شهادى باشا ، وكان المحررون يلتفون حولي يستمعون إلى حكايتى ، مبهوتين كأنى الساحر الذى



حقق المعجزات ، ومع ذلك ماأنا لا أشعربأنى حققت أى نجاح ، النجاح ليس في قلبي وليس في رأسي ، هناك خطأ ما

كنت أقلب صفحات الأيام ، ثم أعود إلى مقال وأسمى المنشور بخط أسود عريض ، فرأيت وجه سامية يطل على ويحتل مكاناً اسمي كيف نسيتهما طوال هذه الأيام ، لا أظن أنى نسيتهما ، بل كنت أتذكرها في كل لحظة مرت بي ، إنني واثق من هذا ، إنها ذلك الخطأ الذي شعرت به ولم أدرك ما هو أنها المرض الذي يكمن في جسدي ويلوث طعم حياتي ، ويشعرنى بأن كل شيء ناقص ، كل شيء مجرد حلم ..

ليس هناك خطأ في هذه الدنيا كلها سوى أنى تركت سامية . النجاح سهل ، والوصول سهل ، أن أكون مثل حسنى الزعيم أمر سهل ، الشيء الصعب هو أن أسلم نفسي للحب ، لأحترم حبي ، لا أتخاذل وأقرمته .. الدنيا غريبة ..

ما كنت أظنه صعباً مستحيلاً ، لا يمكن تحقيقه ، اكتشفت أنه سهل رخيص ، لقد شققت طريقي بسرعة مذهلة إلى كل ما كنت أتخيله بعيد المنال ، أما ما كنت أظنه .. سهلاً بسيطاً ، فقد اكتشفت أنه صعب كأنه مستحيل . أحافظ على حبي ، أدايع عن حبي ، أتحدى شهدي باشا ، وأتخلى عن مهركتي مع محمد ناجي ، واكتشفت عن حبي ، هذا صعب ، طموح كبير .. أتزوج سامية ، ونعيش مما في الشقة خلف سينما بارادى ، ولا أفكر في رئاسة التحرير ..

أهذا ممكن .. إنه يحتاج منى إلى قوة هائلة ، يحتاج إلى جرأة حسنى الزعيم ، يحتاج إلى بطولة أخطر من بطولة نابليون وهو يغزو أوروبا ..

عندما اتخذت قرارى بالسفر إلى دمشق ، اتخذت القرار السهل ، يجب أن اعترف بهذا ، عندما تخليت عن سامية ، أصبحت رجلاً عادياً ، انضمت إلى ملايين اللصوص والكاذبين والطماعين ..

لو كان لي طفل من سامية .

لو أستطيع أن أظن بصوت جرى ، [إن سامية حبيبتي ، لولم هذا أيجاد في الدنيا شيء أجمل منه ، الدنيا تستمر ، والآباء يتزوجون الأمهات ، ويلدنون الأطفال في حب ، أم ، لولم هذا ، كنت أفنى حياتي من أجل أن يصطك طفل لحظة ، كنت أحيط سامية بذراعى فتشعر بالأمان معى ، وتسند رأسها على كتفى وتستريح ، وأشعر بالأمان معها وأسند رأسى على حجرها وأستريح .. لم أعد أشعر بالأمان مع أحد ، لو خرجت الآن من مكتبي ، ومشيت في الأرض إلى نهايتها ، لو طفت بكل بلد في العالم لما وجدت مخلوقاً واحداً يمنحني الأمان والراحة ..

ما أشد غيائى ..

أصغى بنفسي من أجل مكتب أجلس عليه ، واسم أراه منشوراً بخط بارز عريض في صفحة جريدة ، ما قيمة القراء المحبين ؟ وحماس شهدي باشا ، وصياح ناجي ، والنقد الذى تملأ جيبى ، والعيون التى ترمقنى ؟ لا شيء من هذا يعوضنى عما فقدته ..

لو تعود سامية لى ، هذا هو الشيء الوحيد الذى لا خطأ فيه ، أبوح لها بسرى ، ومتعائق عيوننا وشفاهنا ، ويتعائق جسدانا ، وأحيا .. امتدت يدي إلى التليفون ، وأدبرت القرص ، سمعت صوتها ، فنسيت جريمتى ، غفرتى صوتها كل ذنوبى ، كلمتها كما يخاطب المريض طبيبه ليعلنه وهو مبتهج بأنه قد شفى من مرضه ..

- أهلا حبيبتي ..

أغلقت السماعة ، أطلعت السماعة على رقبتى تفصلها ، تمنع عنى الحياة ، تمنع عنى الحب ، تمنع عنى نفسى .. أدبرت القرص من جديد ، ملهوناً قزاعاً ، غريقاً يحدث عن النجاة في صوت يسمعه :

- سامية أرجوكى ما تقفليش السكة .. أنا يوسف ..

أنا يوسف الذى يحبك ، أنا يوسف عبد الحميد السويفى ، أمى ماتت

ونحن نسكن في شارع السد . أبي كان عجوزاً فتزوج خاتمة اسمها مبروكة ، رجل لا يخشى شيئاً ، يفرض نفسه على الحياة ، يتجنب طفلاً بعد المستين ، يعشق بعد أن فات سنّ العشق ، يحيا ، يبتهج ، لا يرتكب الشر ، أريد أن أكون مثلهم ، مثل أبي وأمي ، مثل الناس الطيبين الذين يملأون البيوت ، الدموع في عيني ، صدقيبي ، أصابعي ترتجف ، إنني أكره كل ما يحيط بي ، تعالى واسقذيني

كانت قد أغلقت السماعة بعنف بمجرد سماعها لصوتي ، قالت قبل أن تمقذ حكم الإعدام

.. ما فيش حاجة بيني وبينك .. أنا موش بأحبك .. بلاش تزعجني وهبطت السماعة كالمقصلة .. يارب ارحمني ، أية حماقة ارتكبتها ، محمد ناجي على حق ، نصعني بالابتعاد عن اللعبة القذرة ..

قال إن حبي لسامية هو فرصة عمري ، وإن حبه لدلال كان الشيء الحقيقي الوحيد في حياته .. أيتته كل شيء حقيقي في حياتي ، آياتي اليوم الذي أعيش فيه بالكذب ، ويتبدل إحساسي ، وتخمد هذه الأصوات التي تعذبني وأفرح بما وصلت إليه . كل الظروف من حولي تؤكد أن هذا هو ما سيحدث لي ، حياة الخنازير المنعمة ، حياة القتل البارد وجرائم الباردة .. لا تزعجني .. لا تزعجني .. أنا لا أحبك .

أوصل الأمر إلى هذا الحد ، أصبحت شريراً تنفر مني ، كيف تسرب الشر إلى من أين يجيء الشر ، وكيف يتسلل إلى النفوس ويحول سامية تصرخ .. لا تزعجني . هذا غريب ..

هأنذا أتذكر حياتي بالتفصيل ، أنبش كل لحظة ، أجدب خيوط حياتي ، يوماً بعد يوم ، ووجهاً بعد وجه ، بدأت من البداية منذ ولادتي ، منذ سذاجتي وبرأئي ، منذ كنت طفلاً خجولاً ، يتدفع إلى حضن أمه ، وفجأة كان الشر يستق من أطرافي ويسرى في دمي فجأة ، أصبحت كبيراً ، أصدر الأوامر ،

واشتيك في مؤامرات ، وأسافر إلى دمشق ، وأحب وأتحل عن الحب ، وأحترق وأقلق ، وأريد وأطمع ، وأنفر من نفسي وأعي بالضياح ما السر ، أين تلك اللحظة التي تحولت فيها ، أريد أن أمسك بها وأحياها من حياتي ..

لو اكتشفت تلك اللحظة .. لو اكتشفها وأدع حياتي ثمناً لهذا الاكتشاف .. أعرفها وأنا ألعظ ألعاسي ، وأنا أعض عيني إلى الأبد . أعرف اللحظة التي قتلت فيها ، أليس من حق أن أعرف قذتي ؟ .. ولماذا قتلتني ؟ ومتى ؟ ..

لا فائدة ..

محكوم على أن أمضي مع ذكرياتي إننا لا نعرف ، ولكننا نتذكر ، لا ندرى شيئاً عن الأسباب التي تحركنا وتصنعنا ، ولكننا نعي أننا نتحرك ونغير وأن هناك من يصنعنا .

ويعد أن أغلقت السماعة لي وجهي .. ماذا صنعت ؟ . لا أذكر .. لا .. بل أذكر .. أه .. يوماً خرجت إلى الشوارع ومشيت ، لا أريد أن أعود إلى الجريدة ، كان ورائي عمل كثير ، ومقال جديد أكتبه ، ولقاء مع شهدي باشا ، فرفضت كل هذا ، وألقيت بنفسي في غمار الناس ، حتى وصلت إلى ميدان العتبة ، والشارع الخلفي لدار الأوبرا ، ومقهى الشطرنج . بحثت عن أبي ..

لعل كنت أبحث عن المعجزة التي تعيد إلى سامية ، إنها قد تعيد إلى أبي وأمي ، وتعيد إلى حياة جديدة غير التي أحيانا . رأيتهم يجلسون على مقاعدهم يلعبون الشطرنج ، مضى وقت طويل ، قبل أن يرفعوا رءوسهم واحداً بعد الآخر ، بعضهم نسيني وبعضهم عرفني ، فابتسم يحييني ثم أطرقت برأسه فوق الرقعة ..

هنا ، سمعت أبي يقول :

.. أنا اتجوزتها أمبارح .. أنا علطت .. لكن دي حامل مني .. وهنا قلت له :

- أنا عاير الخمسة جيبه .

وهنا ربت أبى على كتفى وقال

- أنا بوضه أبوك .. يمكن يا خرف .. فخليك أنت لبويا . واقعد جنبى ..
بكيت

كانت الدموع تتساقط من عيني بغزارة ، أمامهم جميعاً ، رفع الرجل
العحوز الأصلع عيبيه ، كان يعنى قلم يقطع غناءه ، ولكنه خفض عيبيه
بسرعة ، حتى يتيج في الفرصة للبكاء ..

وامتعضت على لمسة لكتفى ، أعاد أبى ؟ .. أم الذي يلمس كتفى ، نظرت
حلفى فوجدت مغالى يقدم لي فسجان قهوة ..

وصرخ زكى بك من طرف المضايد في نهاية المقهى

- اشرب القهوة يا أستاذ .. مغالى عاملها مخصص .. وحاطط فيها
صرصار سمين ..

وضحك كالمجنون ، وضحكت والدموع تلبال شفتى ، شربت القهوة
وخرجت ، وبعد دقائق كنت أجلس في مكتبي أعمل والحزن يكتم أنفاسي .
ليلتها بحثت عن شوقى ، فكرت في قضاء الليلة معه ، وفكرت في أن أحدثه
ليذهب إلى سامية ليتشفع لي ، وفكرت في أن ألتقى عنده بمبروكه واعتذر لها ،
وأسألها أن تصفح عني ، وأرى أخى إبراهيم .

- شوقى راح فين يا محمد ؟

- ما اعرفش ..

زعلت يائساً .

- راح فين ؟

- ما جاش النهاردة يا سعادة البية ..

ترى ماذا كان يحدث لو أنى وجدت شوقى في تلك الليلة ، لن أعرف أبداً .
كان لابد أن أمر بامتحان طويل ، لأعرف من أنا ، هل أنا على استعداد
حقيقي للتمسك بحبي ونفسي ، أم أنا امرينكسة مؤقتة ، قبل أن ألوصد أبواب
الماضى ، وأطلق في حاضرى بكل ما فيه من كذب وشور ومجد ونجاح ..

في الصباح بدأت أخوض الامتحان . كلمت سامية ، همست .

- أنا أحبك .

ووضعت السماعة ، قبل أن تعلقها في وجهى ..

سأقيت لها أبى أحبها حتى ولو رفضتني ، سأظل أحبها مهما فعلت ، حتى
ولو كرهتني ، حتى ولو تزوجت رجلاً آخر ، سأتعذب بحبي حتى أموت
يائساً ..

ولكن سامية لم تعد ترد على التليفون ، وتولت أمها المهمة .

- عايز سامية ليه ؟

- أرجوكي تخليني أكلها . فتسب وتشتتم ، وأتحمل الإهانة راضياً ،
يكفيني أن تعلم سامية أن أمها سبتنى وشتمتني ، من حقها أن تؤانى ، أن
تتأكد من إصرارى على حبها .

رواصلت محاولاتي ، وواصلت الأم إطلاق قذائفها ..

عصريوم كنت أسير في شارع قصر النيل ، فرأيتها على الرصيف المقابل ،
سأذهب إليها ، وأركع عند قدميها أمام الناس ، سأقبل الأرض تحت
حذاءها ، قفى يا سامية ، أنا قادم إليك ، أمنحني فرصة التذلل لك ..

رائتى ، فتجهم وجهها ، وتحركت في عصبية ، قفزت من الرصيف إلى
الشارع تريد أن تمبره ، جريت نحوها . التفتت إلى والقسوة تشع من
عينها ، لم أتوقع أن تبلغ كراهيتها لي هذا الحد :

- سامية .. اديني فرصة ..

- أرجوك ما تكلمنيش ..

كان صوتها صارماً ، وقسوتها والكراهية في عينها تطرداني ، فتراجعت ،
لا أستطيع مواجهتها ، فتراجعت ، لا أستطيع مواجهتها ، إنها أقوى
مما كنت أتصور .

اخترقت سامية الشارع ، وأنا واقف مكاني لا أدري ماذا حل بي ،
فجأة . رأيتها تصب على الأرض ، وبراحة تتأرجح براكبها ثم يسقط الراكب
والدراجة بجوار سامية . مشيت نحوها حائفاً متردداً ، مازلت أتوقع أن

تصرخ في وجهي ، والتف الناس حولنا ، مددت يدي وساعدتها على الوقوف ،
لستها ، فارتجف حسدي ، ها هي سلمية ، ألس ذراعها ، ألس فستانها ،
إنها لم تصع مني ، وأنا لم أصع ، مادامت هي في الدنيا ، مادمت أستطيع أن
ألصقها ، فما زال عودي أمل .

انتعشت ، وكلمت الناس بحبوية وثقة ، ووجهت إلى راكب الدراجة كلام
جارية ، ولكن قلتها بصوت طيب مبتهج ، لن أنسى أنه السبب في وصولي إلى
سامية ..

ذهبت بها إلى صيدلية ، لتعالج خدشاً في ركبتيها ، وخرجنا ، من
الصيدلية ، نمشي متجاورين ، بيننا ألفه بغير كلام ، وناديت ناكسي ، ركبنا ،
وذهبنا إلى الشقة ..

استقرت على مقعد ، شعرت برغبة في تقبيلها ، لكنني تراجع ، كان عقلي
ينصحنى بأن أتمهل ، وأن أنفذ كل ما كنت أتخيله عندما ألقاها ، أبكي ،
وأركع أمامها ، نعم ، لأبد أن أفعل هذا ..
وبكيت ..

كان بكائي تمثيلاً أول الأمر ، كنت راكعاً أمرغ وجهي في يديها ، أقبلهما ،
وأجهد نفسي كي تنهمر الدموع من عيني ، لتبلل يديها وتغسلهما ، فتناكد أنني
أبكي حقاً

- أنا موش قادر أعيش من غيرك يا سامية ..
وانهمرت الدموع حارة صادقة ، أصبح بكائي حقيقياً ودموعي حقيقية
- أنا جبان .. سافل .. شرير
- خلاص أنا سامحك ..

واندفعت أروى لها كيف سافرت إلى دمشق وهربت من الزواج ، كان
اعتراضي تحمة غريبة ، لم أكن أعرف ماذا سأقول لها ، قبل أن تخرج الكلمات
من فمي وأسمعها كما تسمعها هي .

كلما تذكرت شيئاً قلته ، تذكرت أنني ، فرويت لها زواجه بأسمى ، فقدت

الثقة بالزواج بعد أن ملكت أسمى وتزوج أسمى خادمة ، وتذكرت سعاد ، فرويت
لها كيف تركتني وتزوجت طبيباً لا تحبه وفقدت ثقتي مرة أخرى بالزواج ، ثم
قلب لها بكلمات متلعثمة إن شهدي باشا رفض رواجي ، ولكني تحديته ،
أكدت كلماتي ، وارتفع صوتي ، قلت لنفسي إني لا أكذب ، فهذه هي
الحقيقة ، ما أعرب هذه الحقيقة ، لقد تحديت شهدي باشا فعلاً ، وصعمت
على الزواج ، فلماذا لم أتزوج .. لماذا ؟

قلت وأنا غير مفتنع بما أقول :

- وبعدين جات حكاية السفر .. وافقت .. كنت ح .. نحن .. هربت زى أي
جبان

لا .. هذا كلام سخي .. صحت غاضباً من نفسي

- سامية .. تعالى نتجوز دلوقت .

- لا

هتفت متوسلاً :

- لازم نتجوز دلوقت

فصاحت وقد عادت إليها قسوتها

- أنت موش عايز تتجوزني ..

- أنا بحبك يا سامية .. ما تسببنيش ..

قالت ساخرة

- احنا موش بنحب بعض .. خلاص .. بلاش جواز دلوقت ..

غمزتني راحة غامضة ، كنت مرهقاً ، لا أدري ما الذي أفعله ، وما هي

ترضى بتأجيل كل شيء ..

تأجيل كل شيء .. إلا الحب ، وتنادسا الحب

وعطلت عقلي ، وتنادلنا الحب

مع مرور الأيام هدأت نفسي ، وشعلت معلمي ، وكنت أذكر أرمئي النفسية

التي مرت بي فأعجب الآن أستطيع التفكير بهدوء ، بحرقرارات حاسمة ..

! ما الذى يعنى من الجمع بين رئاسة التحرير والزواج ، سأنتهز فرصة تأجيل زواجنا ، وأحصل على رئاسة التحرير ، وعندئذ أتزوج سامية ولا يستطيع أحد أن يعترض ..

كيف أصل إلى رئاسة التحرير في الوقت المناسب ، قبل أن يتفد صبر سامية ، لابد أن أعمل بسرعة ، هل أنا شريد إذ أفكر على هذا النحو .. لا .. لست شريراً ، محمد ناحى لا يصلح لعمله ، إنه عقلية قديمة ، وأخلاق قديمة .. انتهت أيامه ، وضرره أكبر من معه .. من مصلحة العمل أن أتقدم وأحتل مكانه ، ليس في هذا شر ، إنه سعة الحياة ، ولكن كيف أصل إلى ما أريد ..

فكرت في مصارحة شهدي باشا ثم ترددت .. لم أعود لن أطلب شيئاً من أحد ، عندي إحساس قوى بأن الذي يطلب لا يأخذ ما يطالبه ، لقد تعودت أن أظهار بأنى لا أريد ، فأحصل على ما أريد .. هكذا وصلت إلى مركزى الحال .

عجزت عن التفكير في خطة سريعة لطرد محمد ناجى .. لم أسترح للتفكير في مؤامرة وخفت أن أحوّل فافشل ، لست ماهراً في هذه الأمور ، ومن السهل على رجل مثل محمد ناجى أن يكتشف ما أديره له ، أفضل شيء هو ألا أدير خطة ، وأتمسك بأسلوبى القديم ، أعمل وأعمل ، وأترك محمد ناجى ينهار وحده .. إنه لن يحتل ويجردى ..

صدق ظنى ، لم تمض شهور قليلة حتى نادانى شهدي باشا في مكتبه كانت عيناه تفيضان بدموع طاغ ، وكأنه في يوم عيد .. وصع يده على كتفى وهرنى برفق وسألنى

- أنت مستعد تقبلى رئيس تحرير ؟

- أبوه يا ماشا .

- خلاص مبروك

سألته وقلبي يحرق قلقاً

- ومحمد ناحى

- ح يسافر أوروبا . ويكتب مقالات من هناك . قلت خائفاً .

- أظن مش ح يرمى ..

صاح متلهلاً

- دى فكرته ..

- غريبة .. إزاي ما قالينش .

قال ساخراً :

- ما فيش داعى إنه ييجى يقولك إك انتصرت عليه ..

صحت مستنكراً .

- أنا ما انتصرتش .. ما كانش فيه بيننا معركة .. بالعكس احنا كنا هاديين

حاصل في الايام اللي فاتت ..

ضالعت عيناه وقال بضحك تعمد أن يظهره

- عارف .. عارف .. أنت برىء من كل اللي حصل . أنا السبب

وقهقه كشيطان .

أسرعت إلى الايام ، واقترحت مكتب محمد ناجى ..

- إزاي ح تصيبنا ..

قال وهو يتشم :

- البركة عليك .

- لكن أنا موش ح أعرف أشتغل وأنت بعيد عنا ..

رفع صوته :

- لا تقدر .. وأنت عارف كويس أنك تقدر ..

- ح تنقصنا خبرتك ..

بدا عليه التردد ، كأنما يراجع كلماته ، ثم قال :

- شوق يا يوسف .. تأكد إننى موش ح أضايك .. خلاص ، أنا عايز

استريح ..

وابتسم ثم قال بصوت شارد

- أوعى تفكر إنى بأعمل كده بسببك .. بالعكس .. يمكن ح تعرف في يوم
من الأيام إن رئاسة التحرير اللي كنت يتحلم بيها دى اكبر مقلب شريكه في
حياتك

- وجمت .. كان حالى غريباً .. فرح كبير في قلبي ، وحزن كبير في عقلى .. لم
أطق البقاء في الحجرة .. فهمست

- موش عايز منى حاجة ؟

قال في ادب شديد

- لا .. متشكر .

وقبل أن أغادر مكتبه ، قال باسماً

- على أى حال أحنأ لسه قد أمنا شهرين قبل ما أسافر .. طبعاً ده سر ..
طبعاً ..

أهكذا تم كل شيء ، حققت أحلامي ، ووصلت إلى القمة .. لا أصدق .
هناك خطأ ما ، الذي يفزعنى أن سامية تحببني وسأتزوجها ، إنها ليست
الخطأ الذي أشعر به .. إنه خطأ ضخم ، بشع ، ولكنى لا أعرف ما هو ..
لم أبح لسامية بالسر ، حتى لا يحدث أى خطأ من جانبي يؤدي إلى عرقلة
خروج محمد ناجي من رئاسة التحرير .. وكنت أقابل سامية فأحاول أن
أستعيد معها أفراننا القديمة ، ولكنها منذ رجوعها إلئى وهى تعانى من
اضطراب أعصابها ، أحياناً تضحك وتمرح وتسمعننى ، وأحياناً تغضب
لأنفه سبب ..

- أنت كنت فين .

- عندى شهدي باشا يا حبيبتى

- يا مرحتى شهدي باشا متاعك

وتستعمرى حتى ششاجر ، لم أعد أهمها ، وأصبح لقاؤنا مرهقاً تهجم
عليّ تقلى ، ثم تدفعنى بيدها ولا ترعى أن أمسها .. أسألتها أن تسهر الليلة
فترفض ، وتصمم على زيارة صديقتها يولاندا وتعود إلئى لتغيظنى بأنها

رقصت مع شيان لا تعرفهم ، فأنور وأغضب ويتأبني الشك في صواب
زواجنا .. ثم تضحك فجأة ، وتقول ببساطة -
- أنا ياغيظك ..

- يا سامية دى موش طريقة ، أحسح نتحور ..

تقول بغير اكتراث

- أنا موش بتاعة جواز ..

وتتأمل إلئى في إغراء ، أتقدم منها ، مجاولاً مصالحنها ، والحب يتعجر في
قلبي ، فتصرخ :

- أبعد عني ..

- إزاي تكلميني بالشكل ده

- عاجبك ، عاجبك .. موش عاجبك نسيب بعض .

أكتم غضبي ، لن أراجع فيما اعتزمته .. لن أتركها أبداً ، إنها لا تتق
بي ، وهى على حق ، لابد أن أتحمّل اضطرابها وعنادها حتى أستعيد ثققتها .
قبل أن ينتهى الشهران بأسبرج واحد طلبت منى فجأة أن أتزوجها في
الحال ..

- طيب يا حبيبتى .. بس بعد شوية ..

- ليه ١٩ ..

- الدنيا مقلوبة في الجرنال .. علشان أديكى فكرة .. محمد ناجى ح يسيب
رياسة التحرير ، وأنا ح أبقي مكانه ..

لم تكثرت بالنبا ، كأنه لا يمينها ..

وقالت في عناد :

- لازم نتجوز دلوقت .

- خليكى عاقلة يا مسلمية ..

فثارت قاتلة :

- دى لخر علاقتى بيبك .. رافقتها في ذهول ، وهى تندفع نحو اللياب ،
وتصفقه وراها ..



كدت أجن ، أهذا هو الحب الذي من أجله أوشكت أن أضحي بعمل
ومستقبلي . فلتذهب إلى حيث تريد ، ولكنني أعرف الآن جيداً أنها لا تستحق
أن أحطم حياتي من أجلها .

وانشغلت عن سامية بأحداث سريعة ، إذ فوجئت بشهدي باشا يمهّد
لرئاستي التحرير ، بإجراءات حاسمة ، كان أبشعها القبض على شوقي .
قال في هدوء شديد

- الواد الشيوعي اللي عندكم .. أنا ربحتك منه .

وهدق في وجهي .. كانت أطراف مثلجة ، وهمست

- أمرك يا باشا ..

- أنا عارف أنك ح تتصايق ، لكن ده احسن .

قلت بصوت مخنوق

- أنا خايف يكون مظلوم

صاح معتداً .

- ماتبقاش أهبل .. أنت داخل على شغلانة كبيرة .. رئيس التحرير ده قائد

جيش بيهارب ما يقدرش يخل في صفوفه خونة ..

قلت يائساً :

- أنا موش مستعد اتناقش في الموضوع ده

أطرفت ولقد امتلا رأسي بوجه محمد ناجي بيتسم ساخر أو يصيح في
شماتة .

- ح تبقى عبد ذليل ..

بعد يوم أو يومين كنت اجلس على مكتب محمد ناجي ، استقبل التهانئ من

المصريين والرائثين ، والتليفونات تدق ، والبرقيات تتكوم على مكنتي ، وأنا

واتق أن هذا غير حقيقي ، مجرد حلم ..

وغادرت المكتب ، ومن خلفي حاشية كبيرة ، وهبطت إلى الباب الخارجي ،

ووقفت أنتظر عربتي اشيعروليه الجديدة ، التي أهداها لي شهدي باشا .

أقبلت العربة ، وفحاة مرق أمامها طفل صغير ، كانت تدعسه .. انخلع قلبي ، وقيل أن أفيق هجم الطفل على وفي يده ورقة .. حاول بعض من حولي أن يطردوا الطفل ، ولكن شيئاً في عيتيه شدني إليه ، عيابه تتفذان في عيني ، وتحركان حنيناً غامضاً نحوه ، وخوفاً منه .. مددت يدي وأخذت الورقة منه وهو يرفع رأسه الصغير إلى ، وعيناه ما زالتا خطيرتين باهتتين .

وقرأت .
سبدي المحترم سعادة يوسف بك أدام الله عزه أمين ..
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
.. أما بعد مقدمه إبراهيم عبد الحميد السويدي ..
أخي إبراهيم ...

هربت من وجه إبراهيم إلى الورقة التي في يدي .
شقيقكم المخلص أبو الأمين .. عطفكم وكرمكم .. فقير يتيم .. ليس عنده طعام ..
كذب ..

هذا الطفل ليس أخي .. مجرد مقسول جاء يبتز مقودي ، يلوث عريتي الجديدة . يهدم الاسم الكبير الذي صنعت ، يؤذي أحلامي ، لن أصدق حرفاً واحداً في هذه الورقة ولكني محاصر ، كيف أرفع وجهي عن الكلام المكتوب وأواجه عينيه ؟ كيف أقول له ما في نفسي ؟
وسمعت صوتها ، صوت مسرعة
جاءت الخادمة ..

ابتسمت .. لا أملك سوى أن أكون لبقاً ، مراوفاً ، أزمة قصيرة ثم أركب عرمتي وأهرب ..
- ازيك يامبروكة .

أخفيت الورقة في جيبي . ومددت يدي أصابعها ، سيقولون إنني رجل متواضع ، أمد يدي للعقراء إنها تقبل يدي ، حسنا فعلت ، لن يدرك أحد أنها زوجة أبي ، سأرد لها المحملة .

مددت يدي وتحسست رأس إبراهيم
قللت

- شفت كبير إزاي ؟
- ماشاء الله .. بأه راجل أمه
كانني راتبك ، أو شهدي باشا ، لم يدق إلا أن أتخلص منها ، أخرجت جديها ، خذيه وأذهب ، إنني أرفع الثمن ، اشتري لحظة الخلاص ..
صرخت ..

- أنا موش عايزة فلوس ..
ما الذي يقوله شهدي باشا في هذا الموقف .

- آمال عايزه إيه ..
- ح تديني فلوس وتسبيني
صوتها مجروح ، جرحى أعماق يامبروكة ، بعدى ، لا ، لن أضعف ، لم يعد هناك مجال للتخاذل
- أنا مستعجل دلوقت
- رايح فين ..

ليس من حقك أن تسألني ، ذاهب إلى نادي محمد علي ، سأقابل شهدي ، سأشرب الويسكي بالصودا ، ذاهب بعيداً عنك ، مكتبي نظيف ، نادي محمد علي نظيف ، لا تراب ، ولا فقر ، ولا تسول ..

هجموا عليها يبعدونها عني ، دخلت عريتي ، كانت تصرخ ، تولول ، تريد إيقاف العربة ، ولكن الصائق اقتحم طريقه ، ابتعدت .

يوسف يارخيص ، يأسهل ، يا صعيص ، تفر من الخادمة من الطفل ، إلى أين تمضي ، لن يخلصك منها إلا سماع بيا مصرعهما ، لن تتخلص منهما أبداً ، ستذكرها ، القلب ينبض ألماً وحزناً ، الأنفاس تصعد وتهبط محرقة ..



- سيادتي راجل ميتعد
- إحنا بنفرد بيك
- تدفقت الكلمات من فمي
- أنا مع الثورة بقلبي موش معنى بس .. لأنى شفت القرف اللي إحنا
- عايشين فيه ، شفت واحدة زى مبروكة بتقى ربرى علشان تعرف تعيش
- وتهدت مرة أخرى وهمسست في أسي
- تسمح لي أبده لحمدى ..
- نظر إني في غير فهم ، ولكنى رفعت السماعة ، وطلبت حضور حمدى على
- الفور .
- حمدى راجل أمين .. وببشتقر من زمان هيا .. في الإدارة .
- وجاء حمدى ، قلت له
- أنا مايزك يا حمدى تقول للبيه .. الى إحنا عملناه مع مبروكة ..
- فاجاه طلبى ، فنلعتم ، ثم بدأ يروى للصابط .
- يوسف بيه بعثنى .. أعرض عليها نفقة .. مارضيتش .. وشتمتنى ..
- بعثنى تانى وقلت له إحنا مستعدين ندفع لك خمسين جنيه و الشهر ، بس
- تبعدى . يعنى ما تعملش الى بتعمله . برضه شتمتنى ومارضيتش .
- همس الضابط بعد خروج حمدى
- أنت عملت الل عليك .
- هتف محتدا ..
- أنا بأكتب عن الاشتراكية بدمى .. بأكتب علشان مبروكة
- قال في احترام كبير
- أظن ده مفهوم عدد المسئولين .. وأنا حاي هنا علشان نشوف طريقة
- ندافع بيها عنك ..
- صحت
- موش عاير دماغ .. موش محتاح له .. لو حبيت أتى الف وسط ميدان
- التحرير وأعترف للناس إن ربرى هيا مرأة أنوبيا أنا مستعد .. دى موش

فضيحة .. ده شرف .. أنا متعور متهان .. لكن بأحارب علشان أسترد
شرفي .. مدروكة ما تهمش دلوقت .. المهم .. إن ماقيش غيرها يتهدل زيتها ..
إحنا بنعمل علشان مجتمع أفضل ..
وأغور وقت عيناى ..

وأغور وقت عينا ضابط المخابرات خرج مدهورا ، يؤمن بأتى شهيد .. يقسم
بأتى نبى ، العق الأبرص ، ارتفع فوق الامى من أجل وطنى ، من أجل
العاس ..

نقل الضابط ما دار بينى وبينه إلى رجال الثورة ، رأيت الشفقة في
عيونهم ، ورأيت الاحترام والثقة ، ورأيت مستقبل يتفتح إلى مجد أكبر ..
كذبت ببراءة ، حلمت أحلاما كبيرة وأنا أصنع الشيء الرخيص ، تمرغت في
القدارة ثم أعلنت في غباء أنها شرف ، نبضات قلبى تنفث الشر والخير ..
وكانت معجزتى ..

صدقوا براعتى ولم يصدقوا كذبتى ، وثقوا بأحلامى الكبيرة ولم يروا أفعالى
الرخيصة ، رفعوا عنى القدارة وأسبقوا على الشرف ، سمعوا دقات الخير في
قلبى ولم يسمعوا دقات الشر ..

دخلت بثينة سكرتيرتى وأدمت لى بطاقة ..

- بيقول إنه صاحبك من زمان .. وعايذ تعدد له ميعاد ..

قرأت اسم سعد عبد الجواد .. فقفزت من المكتب ، غير مكترث بدهشة
بثينة ، وفتحت الباب ..

تعانقنا ..

السنون دهست وجهه ، الشيب في رأسه ، عيناه ذابلتان ، ظهره مقوس ،
على شعته ابشامة شاحبة ذليلة ..

ضحيتى ، إحدى الجثث التى قتلتها ، ما الذى جعلنى أندفع إلى لقلته ..
لقد تورطت ..

- إزيك ياسعد ..

قال بارتباك ..

- أرجو ما أكونش يازعجك ..

- ابدأ .. ابدأ .. بالعكس أنا مرحان إلى شفتك .. مبيك .. بتعمل إيه ..

- زى ما أنا ..

- وكل نيابة ؟

- قاضى ..

- يعنى بقيت حاجة مهمة .. الواحد يحاب منك ..

ما أصحف هذا الكلام ، إنه يعلم جيدا إننى أحسن منه ألف مرة ، ما أغرب
منظرة ..

- أنا في المنصورة .. باجى مصر كل خميس وجمعة .. وكل مرة أفكر أفوت
عليك .. وبعدين أقول لنفسي لازم مشغول .. والا زمانه نسيك ..

وابتسم في قلق ..

قدمت له علبة السيجار ..

- اتفضل سيجار ..

نظر إلى العلبة ، وقال مترددا

خسارة لى ..

قلت لى حماس :

- موش خسارة .. إيه الكلام ده ياسعد ..

والله لا تأخذ العلبة كلها .. وألححت عليه ، حتى أصبحت العلبة بين
يديه ..

وزاد ارتباكك ، واتجهت عيناه إلى الباب إنه يفكر في الخروج ..

- متجوز ياسعد ..

- وعندي ثلاثة .. ولدين وبنت ..

المفقل ، يضيع وقته في انحلاب الأراب ، يوما ما كان هذا المخلوق هو أنبيغ
طلبة الكلية ، إنهم لا يعرفون الحياة ، ضائعون عاديون ، لا أشك أنه
سيتملى أمل معارفه بأنه زارنى ، سيزداد احترامهم له ، يجب ان احتاط ،

ما يذرينى أنه شخص نظيف ، لقد كان شيعيا ، أكون هناك سرورا زيارته

و

- وليس برضه عندك أفكارك إياها ..

- الصلاة تطل من عينيه ، أما أمه معتل ماهر ، أو قد نسي كل شيء

- أفكار إيه ..

- الشيوعية

- صحك لي أسي ..

- ده كان زمان ..

- بتشوف شوقي ..

- لا ..

- أنا سمعت لحد ما طلع .. ببشتغل دلوقت هنا .

- قال بصوت ميت :

- هنا .. يعنى بتشوفه ..

- من وقت للثاني .. موش كثير ..

- همس

- طبعا أنت مشغول .. على أى حال هو .. في حمايتك ..

لم يعد هناك ما نقوله ، انقطع الحديث ، وانتابني ملل شديد ، رفعت رأسي وحدقت في فضاء الغرفة ، وشردت أفكارى بعيدا عنه حتى سمعته يستأنف وللانصراف .

مددت يدي مصافحا ، وقلت بصوت شارد ..

- مع السلامة ..

وخرج ، مطرق الرأس ، مقوس الظهر ، هطام ..

شوقي صاحب المبدأ في حمايتي .. سعد الذي تخلص عن ميالته في

حمايتي ، شهدي صاحب المال في حمايتي ، محمد تلجى الذي انهار في

حمايتي ، إنتم جميعا في حمايتي

مبروكة ليست في حمايتي ، إنها تتحدانى ، البغي ، الخادمة .

لو تموت

إنى استغلها ، أعترف بفصنتها لأستثير الشفقة ، لأدلل على دافعى

الخاص للإيمان بالثورة ، الثورة من أجل مبروكة وأمثالنا الفقراء ..

أه لو يعلمون .

لو يعلمون أنى في حماية مبروكة

كم استعدت من مبروكة ؟

رفعتنى سقوطها ، طهرتني دعارتها .

لن أنسى أحداث الشهر الماضي ، البلد ثائرة ، المشاعر خصبة فياضة ،

أمننا القتال . الانجليز والفرنسيون يهددون بالقتال . مقالاتى ترتفع إلى

مستوى المعركة التاريخية

وأطل حمدي برأسه من حرجة الباب

- أنا هايز اكلم سيادتك

وجهه مريب ، صوته فحيح ، دخل كاللص ، وأخرج من جيبيه خطاها ..

- الجواب ده باعته محمد ناجي من باريس .

- مقاله .

قال بصوت مكتوم :

- أحسن سيادتك نقراه

وقرات

الشعلب القديم مازال يراوخ ، يطيب من حمدي الاتصال بمبروكة لتثير

فضيحة ، وترفع حمدي قضية بركة

ابتسمت .. كان حمدي مضطربا ، وجهه أصفر .

قلت هارتا

- مالك يا حمدي .. قلقن ليه ..

- موش عارف اتصرف إزاي ..

.. ده راجل مجنون .. سبيلي الحواب ..

- وأفور له إيه .

- ولا حاجة

- ولا يروح

- قوله إني رحت لها ورهصت ..

كان خطاب ناحي بصرا جديدا لي ، أطلعهم عليه . محمد ناجي يتأمر ، يريد أن يحطمني ، واقتنعوا بكلامي ، وقرروا القضاء عليه .

ستذهب يانا جي إلى السجن ، كما ذهب شوقي ، وستأتي سامية إلىي ، كما أتت مبروكة

أنت في السجن ، وسامية في فراشي .

الحياة بهيجة ، القوة نشوة ، النفوذ لذيق ، المبادئ حلوة .. كالسيجار الفاخر .. ما أروع أن يكون الإنسان قويا ، ما أروع أن يمشي الإنسان القادر فوق أشلاء ضحايا .

يايوسف ، ياخيصر .

ليس من أجل هذا ، أنت تتذكر حياتك ، لا تنس تلك الليلة التي زارك فيها شهدي باشا وأنت تتبع برقيات وكالات الأنبياء

- الظاهر أنهم ح يعملوها يايوسف ..

- تفكر ياباشا

قال بصوت قاطع :

- أكيد .

- ما افتكركش .

- أنا عارف الانجليز كويس .. والفرنساويين ألين منهم .. موش ح يسكتوا .. مستحيل ..

استأنتى قشعريرة ، خفت ، ماذا يحدث لي لو جاعوا ، أنت يا شهدي ستكون أول المتبقين ، وياحي ، سيعلقني بيديه في حبل المشنقة . سينشرون قصتي في حلقات يومية في جريدة الأيام . سيرفعون شعار الأخلاق ، سيقولون

إني قريب العاهرة . سيحولون الشهيد إلى فاحر سينشرون الشروسيجدون أنهم الخبراء في اكتشاف الشر ..

لو أستطيع أن أكسب شهدي باشا إلى صفي ؟

- ياباشا .. أنا متفائل .

- وأنا متشائم .

- تبقى كارثة ..

- طبعا ..

صوته يرحب بالكارثة ، قلبه يندظر الكارثة .. لابد أن أدمع عن نفسي ، السبيل الوحيد هو أن أستمع في تمثيل دوري ، أتمسك بشرق بكل ما في قلبي من أطماع ، أقاتل ببسالة لأحتفظ بالمجد الشريف ، أرفع رأسي في نبل ، لأظل واقفا فوق أشلاء الضحايا ..

- إنا ح نطارب ياباشا ..

- تفكر نقدر ؟

- ح نموت بشرف ..

- ح نموت برصاصة تمنها سليم

- دي بلدنا .. دي مبادئنا ..

ابتسامته تمرح في داخله ، الملح طيلها في عينيه ، ولكنه لا يفصح عن فرحته ، يقول شامتا .

- ربنا يقويك .

مد لي يدأ دافئة طرية ، وذهب .

وجلس إلى مكتبي أكتب مقالا ألين فيه الانجليز والفرنسيين .

هذه الكلمات التي كتبتها ، ستكون يوما ما رصاصاً يخترق صدري ، حبالاً تلتف حول عنقي . أليس هذا الجنون . الشريفيضي إلى الشرف ، الجبن يفجر الشجاعة ، الأفعال الرخيصة تلتف بالأحلام العظيمة ، الأحلام العظيمة تصحى على الأفعال الرخيصة ..

جنون ، أم حياة ، لا أدري . لينى أستطيع أن أهم

الفصل الثاني عشر

ذهبنا لاستقبال محمد ناجى فى المطار ، كانت مظاهرة ضخمة .. أستاذنا
الغائب يعود . الليل مهيب ، السماء صافية ، والنجوم زرقاء ، حلوه بعيدة ..
ترى ما شكل محمد ناجى الآن ؟
وابنه شريف ؟
الطفل الذى لم أنجبه ؟ الطفل الذى ضاع منى ؟
كنت يوماً ما طفلاً مثله ؟
يوماً ما ..
كان هناك طفل اسمه يوسف .
يوسف عبد الحميد السويفى ..
الوداع يا يوسف ، الوداع لأخر مرة ، فقدتك ، لن تعيدك إلى دموع ،
ولا ذكريات ، ولا طائرات تهبط من السماء ..
يا طفلى ، يا حبيبى ، لو المسك مرة ، أتحنس خذك ، أسمع صوتك أنظر فى
عينيك ، أغرق فيهما .. لو نضحك معاً ، يدي فى يدك . يا طفلى .
كم أنت حلو ..
برىء ..
معيد ..

لم تمت يا طفلى ، يوسف عبد الحميد مارل بعيش ، يرتدى مظلومه



القصور ، يمشى خائفاً في الشارع ، يرقب أنفش من النافذة يهرب معه إلى
ميدان المحطة ، يتمنى لو يأكل السمك المقل من الدكان عند الناصية ..
يوسف يحب سعاد ، يوسف يخجل من البنات ، يوسف لا يريد شيئاً من
الحياة

أ .

الليل مهيب والسما صافية ، والبحوم زرقاء ، جلوه ، بعيدة ..
السما تحاصرني ، الصجواء تحاصرني ، الدنيا ضيقة ، الفضاء
أكدوبة ، البصر يرتد طعنه في القلب ، الخيال يرتطم بجدران الرأس الانتفاش
تعود ترتد إلى الصدر ..

- يوسف بيه .. يوسف بيه .. من هذا الهاتف اللاهث ، إنه حمدي ..
- الطائرة وصلت بأسعادة البيه .
- هين ؟ ..

- ح تظهر حالا فوق المطار ..
فوق المطار ، في السما ، كنجم ليل ، الأب والأم والابن ، هابطون يطعنون
القلب ، يرتدون إلى الصدر .
- سعادتك تامر بحاجة .
- لا .. يا حمدي .
- كل شيء جاهز .. الجمر .. الجوازات ..
- طيب .. طيب ..

لو يتركني ، لا فائدة ، هاهم قادمون يلتفون حولي ، الصيون تدور في
السما ، العيد يتظاهرون بأنهم مازلوا عبيداً ، السيد القديم عائد - أنتم
عبيدي أن ، بأمرى تاتمرون تاتسمون حين أنتم ، تتجهمون حين أتجهم ،
كلمة منى تحرككم ، إشارة من يدي تفرقكم ، تشيع فيكم الاضطراب .
لو دم أكن هنا لما استعملك أحد ياناحي ..

المطار مسيح ، الناس كالسل ، الأنوار الحمراء والزرقاء تمتد حتى نهاية
الأمق .

كل ما أراه يعود إلى صدرى .. يطعني .
- الطائرة أهى بأسعادة البيه .
- وصلت في اليعاد
- سعادتك تتفصل ؟ .

هذه الأوار الكاشفة لا تفعل شيئاً ، تدور حول نفسها في بلاهة ، النور
يعمى البصر ..

مرحباً بك يا ضجيج ، ارتعش يا أصوات ، صيحات وهتاف في الميكروفون ،
وأزيز محركات ..

طنين يخمد الهمسات .
لو تخدم الهمسات

- الطائرة على الأرض .. اتفضل يا يوسف بيه ح يدخل عند الطائرة .
هيا نمش كأننا في نزهة .. ابتسموا يا أولاد ، الطائرة هبطت ، المعجزة
تمت ، الجريمة تعود إلى قاعها ، هيا نمش ، سراعاً ، خلفاً نصفر لحن
اغنية ، بعد خطوات سنلتقي بأحبابنا
كان لنا يوماً أحب .

انظروا كم هذا الفضاء خدعة ، نمش ولا نتقدم ، الجهد في القدم والمسافة
لا تقصر ، الهواء يلفح وجوهنا ، والصدر يبحث لاهثاً عن هواء ..
لو كان هذا حلماً ..

أحلم إنني في مطار .. استقبل محمد نجى ، وسامية ، وشريف ، ويهبطون
من الطائرة ، يهبطون من هذه الطائرة الراضة أمامنا

ويلتقي ..
ولكن ليس حلماً ..
إنه الحقيقة ..

مطار ، وطائرة يهبط منها محمد نجى ، وسامية ، وشريف ، وتشبك
أيدينا ، وتختلط كلماتنا ولا نلتقي ..

أنا لا استقبلك يا ناحي ، لا أنت ولا سلمية ولا شريف ، لا استقبلكم
أتفهمون ؟

حنت لأعبركم ، لاتحاشاكم
فتحوا باب السيارة ياسعدة ألبه ..

الليل مهيب .. يعن الحداد على موت لقاء
- نجى به أله .. عن السلم .. الدام وراء

سامية ، الحب مات ياسامية تحول القلب إلى قبر ، تحول الرأس إلى حجر
تتكس فيه الذكريات ، لا شيء استطيع أن أضيفه إلى الذكريات المكسدة
يمكن أن أحب من جديد ؟ ..

أين المرأة التي أحبها ؟ أين المرأة التي أدفنها في المقبرة ؟ لو اتخلص من
حبك ياسامية ، لو أتخلص منك ياناحي ..
لو أنتحر يعيش يوسف ..

يا قلبى افرح .. يا وجهى تهلل يا خطوى أسرع ، يا يدي استدي ، أيتها
الأشياء المركبة في ، تحركوا العبوا دوركم ، أنا سيدكم ، وأنتم عبيدي ،
اطعمكم ، اكسوكم ، أنفق عليكم المال ، لا تخذلونى ، لا تخافوا ..
هاهو الأستاذ ، اتجهى يا أقدامى نحوه ، افتري يا شفتاى ابتسامة ،
اتسمى يا عينائى ..

لا .

ها هي سامية .. سامية أولا .

تمت الابتسامة ..

امتدت اليد .

اتسعت العيالى

خامسى صوتى ..

- أهلا .. إزيك يا يوسف . ليه كلفت خاطرك .. تعال لما أبوسك .. أنت
واحشنى خالص .

أهذا صوتك ياناحي .. مارلت قادرا على الكلام ؟ الموتى يتكلمون ؟
يعانقون .

لا بد أن أقول شيئا ، تكلم يا عمى ، آه .. هذا النور الكاشف الأله ..
- البلد نورت

- إزيك يا يوسف

- موش عارقين تعمل حاجة من غيرك .

- البركة فيك ..

- أنا ملخوم قوى

- ده أنا اللي محتاج لك

- أنت أستاذى .. الأمر ..

- عايز أقعد اتكلم معاك ..

- أمي ؟

- تيجى تتعدى معانا بكره ؟

- حاضر .

- سامية اعملى حسابك يوسف ح يتغدى معانا بكرة ..

تكلمت ، اندفلق الكلام ، كنت أظن أن الكلام محال .

- يوسف .. أنت ماسلمتش على شريف ؟

أهذا سؤال برىء ياناحي ؟ ، تريد أن تواجهنى بطفل ، نحن نلعب لعبة

الموت ، مالنا ولعبة الولاده ؟ أخى إبراهيم لم يعد طفلاً ، يقتات من مال

الدعارة .. دعارة أمه تغذى جسده ، وتغذى روحى ، الويل لى من الأطفال ،

الخطر فى عيونهم ..

- إزيك يا شريف سلم . الله أنت مكسوف ؟

لا . أنت تفهم من أنا

أنا الغول

يا حبيبى . دع الغول يتأملك ، أسمح له أن يعم بوجهك ، أتعرف مكان

يوسف ؟ إنه طفل مثلك ، أرايته فى باريس ؟



- عملت إيه في أوروبا يا شريف ؟
لا يجيب ، سامية تحتصنه .. تخاطبيني نيابة عنه ، أنت أم هذا الطفل
باسامية ؟

حبيبتي سامية ، اتعرفين مكان ، يوسف الذي أحبك ، لو قابلك لا ترفض
جمه ، إنه يحبك ، وسيظل يحبك .

يحبك وهو يرقب السحاب ، كان يوسف يرقب السحاب

يحبك وهو يسمع النغم ، كان يوسف يسمع النغم ..

يحبك في الليل ، يحبك ويطبق عليك جفون عينيه ، كان يوسف ينام .

يحبك وهو ضائع ، يحبك وهو فخور ، يحبك وهو ناجح ، كان يوسف
ضائعا فخورا ناجحا

أوصيك به ، إنه يحبك .. سيظل يحبك ، حتى ولو اختفى كل السحاب من
كل سماء ، حتى ولو لم يعد هناك ضياع ولا فخر ولا نجاح أحبك ياسامية ،
لا تتركيني ..

- عن أدتك يا أستاذ محمد مشي .

- اتفضلي يا فندم كدنا نلتقي ..



جريدة الأيام توزع يوميا مائة وخمسين ألف نسخة ، يقرأها أكثر من
نصف مليون قارئ ، تنقل أخبارها وكالات الأنباء ، يتلو المذيع كل صباح
 فقرات من مقالاتي ، التليفونات تدق بهنترنني يسألونني عن تفاصيل
الأخبار ، يريدون مقابلاتي ، المحررون واقفون بالباب ، على مكتبي برقيات من
لندن وواشنطن وباريس ونيويورك . الأسطول الفرنسي يتحرك من طولون ،
فرقة الشياطين تتجمع في قبرص الجيش المصري في حالة تعبئة .

أحداث ضخمة ، ولكنها لا تمعذ إلى القلب ، ترتطم بسطح جلدي وتتردد ..
بعد ساعة ، سأذهب إلى بيت محمد ناصي ، وأقابل سامية ، لا شيء أهم
من هذا في العالم كله

أريد أن أعت يوسف القديم ، العفيف ، أخل بين سامية نظيفا لا الوثة

فأفكاري ، أبدأ حياتي من جديد ، ما فات مات .. منذ هذه اللحظة سأنتفخ
الصدق ..

ياناس ، يا أهل مصر ، يامن تحتشدون لمحاربة العدو ، يامن تدافعون عن
قنال السويس ، هل أنتم قادرون على الدفاع عن لحظة ذكرى تمرى ؟ ..
لحظة ندم ؟ ..

هل أنتم قادرون على أن تبينوا لى ، ما هو الصدق ؟ وما هو الصواب ؟ ..
أنا أعلم ..

الصدق فى نفس كاذب ، الصدق انحطاط يرتفع فيه النبل ، براعة ترتكب
الإثم ، طفولة تشيخ ، جسد يأمرنى وأمره ، عقل يحكمنى وأحكامه ، قلب
يفيض بالحب ليفيض بالكراهية ..

الصدق تافه عظيم ، غال رخيص الصدق هو حياة يوسف ..
الصواب نصف الصدق ، الخير نصف الصدق ، الحب نصف الصدق ،
العظمة نصف الصدق ..

الصدق صواب وخطأ ..
أه لو تعلمون ..
أه لو تتعلمون الصدق ، أه لو تواجهون الصدق ..
أنتم تدافعون عن بلدكم بالشرف والندالة ، تكبرون بالتضحية والجشع
تحبون بالمبدأ والثمن ..
الشرف الوحيد الذى نملكه ، هو أن نعى الصدق ، أن نواجهه ، ونعيش فى
تعاسة عظيمة ..

لو أكتب هذا المقال ..
لست خائفا ، الخوف ضاع ، والمعرفة أقبلت ..
لا يبهرنى الشرف ، ولا يخيفنى الشر ، الكشف تم ..
من الذى علمنى هذا ؟ ..
الليل المهيب فى المطار ؟ ..
وجه شريف ؟ ..



كل الشرور التي ارتكبتها ؟ ..

إلهام مفاجئ ؟ ..

أحداث العالم ؟ ..

ما زال ينقصني شيء ..

من الذي علمني هذا ؟ ..

●●

جلسنا إلى المائدة نثرثر ، الكلام نافه والجروح غائرة ..

سألني ناجي ..

أنت مالك ساكت يا يوسف ؟

- أبداً ..

- دى سامية عندها كلام كثير عن الموضة في باريس ..

سامية عندها كلام كثير ؟ فهمتك يانا جي ، ما أعظمك ، ما أصدقك ، كيف

ارتفعت وسموت إلى هذا الحد ؟

أنت لا تقصد الكلام عن الموضة إني أعرف جيداً ماذا تعنى ..

تريد أن نواصل الكلام الذي انقطع منذ أمد بعيد ، نواصله أمامك ..

ليس هذا يأسا ولا انهياراً يانا جي ، هذا وعى من نوع غريب ، وعى رجل

عظيم كأنك قابض على الحياة بين يديك ، أنت تعلم أن كل شيء قد انتهى

بالنسبة لك ، ومع ذلك لا تريد أن يفوتك ما بعد النهاية ، تريد أن ترى بعينيك

ما سوف يحدث بعد موتك ..

ما سوف يحدث بعد أن تترك سامية وتغيب أنت وتتركها لي .

ما أعظم تعاستك يا ناجي ..

- سامية ساكتة كمان النهاردة .. مش عارف ليه ..

أجابت سامية في غباء ..

- الظاهر أنا تعبت يا محمد ..

أفهمي مايرمي إليه زوجك ، إنه في صحوة الموت ، تتكشف له الأسرار ،

يرى ما سوف يحدث ، عودتي لك وعودتك لي ، هناك شك في هذا ، لو كنت

لا تريدون العودة لي ، لا رخصيت بالزواج من عجوز ميت ، لو كنت لا أريد

العودة لك لا حولت قلبي إلى قبر لحبك ..

سيموت ناجي ويبحث حيناً عن جديد ..

يموت ناجي ؟ ما هو يصرخ في حيوية ..

- بقى الشباب تعباً والعواجيز اللي زى حالاتي مليونين نشاط .. ساييني

أتكلم .. وأتحمس .. وأستعد لكتابة مقالات ..

كأنه لم يموت ..

مت يانا جي ، نحن في انتظار موتك ..

مت يانا جي ، إني أقتلك ، بكل ما في نبضي من صدق ، أقتلك ..

مت يانا جي .. أمرك أن تموت ، وجهه مليء بالحياة .. الدم ينتشر هواراً في

عروقه ..

لا مكان لعظيمين في هذا البيت ، أنت عظيم ، وأنا عظيم ، أنت صادق وأنا

صادق ..

لا يمكنني أن أخونك ، الصديق لا يخون ، إنه يقتل ، لن ترضى سامية أن

تكون عشيقتي وأنت زوجها ، أنت أقوى من الخيانة ، وأنا أقوى من الحياة ..

لوحانت سامية ، فسيكون مع شخص آخر غيرنا ، شخص غير عظيم ، غير

صادق ..

اصطدمنا يانا جي ، أنت تعرف ما يحدث وما قد يحدث ، أنت تعرف كل

شيء ، لأبد أن تموت ، الذين يصلون إلى كل هذه المعرفة لا يواصلون الحياة ،

أنهم يرتفعون فوقها ..

مت يانا جي ؟ ..

ما هو يصمت ، يبتسم ، الحياة تدب في عروقه ، كأنه يسمع همس

أفكارى ..

إني معجب بك يانا جي ، أكاد أصفق لك ، أنت تطربنى تدعوني إلى بيتك

لترسم المستقبل كأنك إله لأبد أن تموت يا ناجي ، الآلهة لا تجلس إلى الموائد

وتأكل السمك ما أروع هذا الحديث الصامت بيننا أسمعك تقول إني المنتصر ،

وتعترف بأنك المنهزم ، أنا الذى صعد ، وأنت الذى سقط .. أسمعك تقول إنك
لا تكرهني ، تشعر وكأنك ولدت من جديد ..

أحقاً ولدت من جديد يا ناجي ؟

أنا أيضاً ولدت من جديد ..

ولكن العالم لن يتسع لكلينا .. واحد منا يجب أن يذهب ، أولم تمت
أنت في الحال ، سوف أموت أنا ..

ما زال صامتا ، وجهه يشحب .. هل اقتنعت بكلامي يا ناجي ، أقررت أن
تموت ..

صرخ محمد ناجي ..

- سامية ..

وجهه أزدق ، يفتح فمه بلا كلام ، صرخت سامية ، لوح بيده وقال كلاما
بصوت مسموع ، صوته المسموع لا يسمعه أحد ..

أطرق برأسه ، انقطع حديثه الصامت ، الدنيا تضيء بنور ساطع قلبي
يرتعش ، الحب الميت ينتفض يبعث حبا ، صوتك الصارخ يا سامية يشجيني
أنت أنثى شهية ، جسدك البض يملأ عيني ، كأننا في شقة سينما بارداى ،
انتهى الكابوس ..

الموت مات ..



دعنا الميت ، والانثى تنتظر في البيت ..

أذهب إليها ؟ ..

أم أذهب إلى مبروكة ؟ ..

استطيع أن أفعل ما أريد .. أنا قادر قوى ، أمرت محمد ناجي أن يموت
فمات ..

لا أستطيع أن أقتل مبروكة ؟ ..

هي التي صنعت مني الشهيد .. عذبتني فعزقتني على الصدق ، إنها
الدينس الذي يكمل صدقي ، الخطأ الذي يصحح صوابي ..

أفكر كمجنون ، كلماتي محيرة ، كلماتي تشع ، تغمض ، كأنني طفل
ياويلي .. ياقرحتي ..

أنا طفل ، كلماتي كلمات طفل عرفت .. عرفت ..

الذي علمني ، هو الطفل ..

إنه باق معي ، لم يذهب ، لم يبعد ، حبيبي الطفل يوسف عبد الحميد ،
أنت مختبئ ، يا شقي في داخل ..

وهنا سكنت يوسف عن الكلام ..

وبذلك ينتهي القسم الرابع ، والآخر من الرجل الذي فقد ظله ..



يناير ١٩٨٨



مخاض الصليب

إنها قصة شاب مصري - يوسف عبد الحميد الصوفي - الذي باع روحه ليقف على حساب أعدائه اليساريين القدامى وعلى حساب رئيسه الطبيب.

وأشهر القصة من ثلاث وجهات نظر. أولاً من منظور مبروكة الفلاحه التي تزوجت والد يوسف المدرس ثم قصة سلمية الممثلة القاهرة - التي اضطر يوسف إلى أن يتركها كحبيبته زائدة عن الوزن في رحلته إلى الشهرة إلى الصورة التي قدمها فتحى لحام للتغطية الإقطاعية السابقة على الثورة - قصة (الوانها) - كذلك كان وصفه لمطلوبة يوسف ومبروكة.

ولكن -تمالأت يوسف عن الراسخية لم تكن مقنعة بقنسية لرجل يستطيع تدبير الأمور

نيويورك تكيمز - ١٧ يوليو ١٩٦٦

منتديات مكتبة العرب

<http://library4arab.com/vb>